مَعَارِجُ التَّفَكُّرِ وَدَقَائِقُ التَّدَبُّرِ

الطّبْعة الأولى
١٤٢٠هـ ~ ٢٠٠٠م

حُقوق الطبْع محْفوظة للمؤلّف

تُطلب جميع كتُبنا مِن :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

معارج التفكر ودقائق التدبر

تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

المجلد الثالث

تفسير سور

ق (٣٤) - البلد (٣٥) - الطارق (٣٦) - القمر (٣٧) - ص (٣٨)

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة ق

٥٠ مصحف ٣٤ نزول

مكيّة كلّها إلّا الآية (٣٨) منها فمدنية

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

سورة ق

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ (١) بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ
ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ
بَعِيدٞ (٣) قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ
(٤) بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ (٥)
أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا
مِن فُرُوجٖ (٦) وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوۡجِۢ بَهِيجٖ (٧) تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ (٨)
وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ
(٩) وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ (١٠) رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا
بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ (١١) كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ

---

٣ ـ ● قرأ نافع، وحفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: ﴿مِتْنا﴾ بكسر الميم.
● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مُتْنا] بضمّ الميم. وهما وجهان عربيان جائزان.

١١ ـ ● قرأ أبو جعفر: [مَيِّتاً] بتشديد الياء المكسورة.
● وقرأ باقي القراء العشرة: [مَيْتاً] بإسكان الياء من غير تشديد. وهما وجهان جائزان والإسكان تخفيف.

وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا
بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا
يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ
بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ
ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ
كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ
﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ
كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ
ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا
مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ
وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ
لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ

---

١٤ ـ ● قرأ ورش [وَعِيدي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل. وقرأ بإثباتها في الوصل والوقف يعقوب.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة [وَعِيدِ] بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً. وحذفُ ياء المتكلّم كثير ويدلُّ عليها إبقاء الحرف الذي قبلها مكْسُوراً.

٣٠ ـ ● قرأ نافع، وشعبة: [يَوْمَ يَقُول] بياء الغائب، والضمير يعود على الله المعلوم من السياق على طريقة الالتفات من المتكلم إلى الغائب. =

﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ
أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ
﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا
وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم
بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا
مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ
رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ

= ● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نقول] بنون المتكلّم العظيم.

٣٢ - ● قرأ ابنُ كثير: [يُوعَدُونَ] بياء الغائبين.

● وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بتاء المخاطبين وبين القراءتين تكاملٌ في الأداء البياني.

٤٠ - ● قرأ نافع، وابن كثير، وحمزة، وأبو جعفر، وخَلَف: [وَإِدْبَارَ] بكسر الهمزة على أنه مصدر قام مقام ظرف الزمان، والمعنى: وقْتَ إدبار السجود.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَأَدْبَارَ] بفتح الهمزة، وهو جمع «دُبُر» وهو آخر الصلاة وعَقِبُها، والمعنى: وسبِّحه في أعقاب الصلوات.

٤١ - ● ﴿الْمُنَادِ﴾ أثبت الياء وصلاً نافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، وأثبتها في الوصل والوقف ابن كثير ويعقوب وحذفها مطلقاً باقي القراء العشرة.

٤٤ - ● قرأ نافع، وابن كثير، وابنُ عامرٍ، وأبُو جعفر، ويعقوب: ﴿تشَّقَّقُ﴾. =

سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

= ● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [تَشَقَّقُ].

«تشَّقَّق»: أصلها «تتشقَّقُ» أدغمت التاء بالشين فصارت شيناً مُشَدَّدَة.

و«تشقّقُ»: أصلها أيضاً «تتشقّقُ» حُذِفَتِ التّاء الثانية تخفيفاً.

وكلا الوجْهَيْن جائزان في العربيّة.

٤٥ ـ ● قرأ وَرْشٌ: [وَعِيدِي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل.

● وقرأ يعقوب بإثباتِها في الوصل والوقف.

● وقرأ باقي القرّاء الْعَشْرةِ [وَعِيدِ] بحذف ياء المتكلم وصلاً ووقفاً.

وهي وُجوهٌ جائزة في اللّسان العربي. وسبق نظيرها في الآية (١٤).

(٢)
مما ورد في السُنَّة بشأن سورة (قٓ)

كان للرسول ﷺ عِنايةٌ خاصّةٌ بسورة (قٓ) دَلَّ على هذا عدة أحاديث صحيحة:

(١) روى مُسْلِمٌ وغيره، عن قُطْبَة بن مالك قال:

«كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَقْرَأ في الْفَجْرِ في الرَّكْعَةِ الأولى قٓ والقُرْآن المجِيد». أي سورة (قٓ).

(٢) وروى الإمام أحمد ومُسْلِمٌ وَأَهْلُ السُّنَنِ عن أبي واقد اللَّيْثِي قال: «كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يَقْرَأُ في الْعِيدِ بِقَاف واقْتَرَبَتْ». أي: كان يقرأ سورة (قٓ) وسورة ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴿١﴾﴾ وهي سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) في عيدي الفطر والأضحى.

(٣) وروى مسلم وابن أبي شيبة، وأبو داود، وابْنُ ماجَه، والبيهقيُّ، عن أمّ هشام ابْنَةِ حارِثة قالت:

«ما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ①﴾ إلاَّ مِنْ فِي رَسُول الله ﷺ، كَانَ يَقْرَأ بِهَا في كُلِّ جُمُعَةٍ عَلَىٰ المِنْبَرِ إذَا خَطَبَ النَّاس».

أي: إنّها حَفِظَتْها مِنْ كَثْرَةِ سَماعِها من فِيهِ، وهُوَ يَقْرأ بها على المنبر، إذا خطَبَ النَّاسَ يَوْمَ الجمعة.

❁ ❁ ❁

(٣)
موضوع سورة (قٓ)

يدور موضوع سورة (قٓ) حول متابعة الموضوع الذي دارت حوله سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) التي نزلت قبل (قٓ) مباشرة. وهو موضوع معالجة المكذبين بيوم الدين، وتضيف إليه تكذيبَهُمْ بالرَّسول ﷺ، بحجَّةِ أنَّه بشر منهم، زاعمين أنَّ إرْسَالَ رَسُولٍ من البشر إلى البشر أمْرٌ مُستبعد عجيب، فهوَ لا يَحصُلُ، وكذلك إحياءُ الموتَى بَعْدَ فَناءِ أَجسادِهِمْ وَتفتُّتِ ذَرَّاتِها وضياعها في ترابِ الأرْض أمْرٌ مُسْتبعَد عجيب، فهو لا يحصل.

والمعالجات الفكريَّة والنفسيّة، للإقناعِ الفكري، واسْتِثَارةِ مِحْوَرَي الرَّهَبِ والرَّغَب النَّفْسِيَّيْن الّتي اشتملت عليها سورة (قٓ) معالجاتٌ تكمِيليَّةٌ لِمَا جَاءَ في سورة (المرسلات) والسُّوَرِ قبلهما في نجوم التنزيل، ولَيْسَتْ مُكَرَّرَةً تكْرِيراً تَطَابُقياً، وجملة النصوص السابقة تسعة نصوص، وهذا الذي اشتملت عليه سورة (قٓ) هو النصّ العاشر(١).

واشتملت أيضاً سورة (قٓ) على معالجة لنفس الرسُول وقلْبِه، تُجاهَ ما كانَ يَلْقَاهُ مِنْ تَكْذِيبِ بَعْضِ قَوْمِهِ له، وما يُواجِهُونَهُ بِهِ من أقوالٍ جارحةٍ

---

(١) انظر الفقر (٥) من مقدمات تدبر سورة المرسلات.

مؤلمة، فَأَوْصَىٰ الله رسُوله ﷺ، بأن يَعْتَصِم بالصَّبْرِ، وبأنْ يُكْثِرَ مِنَ التَّسْبِيحِ والذِّكْرِ، لله عزَّ وجلَّ الذي تنشرح بذكْرِهِ الصُّدُور، وتنحلُّ به عُقَدُ الأمُور، وأوصاهُ بأن يكونَ تَسْبِيحُهُ، قبْلَ طُلوع الشمس، وقَبْلَ غُروبها، وأثْنَاء اللَّيْلِ، وعَقِبَ الصلوٰات التي يُصَلِّيها لربِّه.

وأبان له في هٰذه المعالجة أنّ وظيفته في رسالته التبليغ، فهو ليس مُجبراً ولا مكرِهاً للنّاسِ على الإيمان، ومتابعةُ التبليغ بالتذكير بالقرآن من يخافُ وَعيد الله، والَّذي يخافُ وعيدَ الله هو الذي يُوقنُ قَلْبُه به، وَلَوْ لَمْ يُعْلِنْ إيمانَه وإسلامَه.

وموضوع سورة (قٓ) ظاهر في الدَّرْس الأوّلِ من دُرُوسها، وهو الآيات الثلاث الأولى منها.

❁ ❁ ❁

(٤)
دروس سورة (قٓ)

اشتملت السورة على اثني عشر درساً:

الدرس الأول: تضَمَّن بعد القَسَم بالقرآن المجيد، عرض مقالة المشركين إذ كَذَّبوا الرَّسُول في رسالته، وكذَّبوا بنبأ البعث للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، بأسلوب الاستفهام التعجُّبيّ الإنكاري.

وهو الآيات من (١ ـ ٣).

الدرس الثاني: تضمّن دفْعَ توهُّمِهم أنْ تفتُّتَ رُفَاتِ أجساد الموتى واختلاطَها بتراب الأرض يجعل من المستحيل تمييزَها وجَمْعَها، وإعادتَها إلى الأجساد التي كانت فيها قبل موتها. وتضمَّن بيان واقع حالهم النفسيّ الّذي جعلهم في وضع قَلِق مضطربٍ لا يستطيعون معه إدْراك حقائق

الأمور، بَعْدَ أن كذّبوا بالحقّ لمّا جاءهُمْ، لأنّه خالف أهواءهم ورغبات الفجور التي لديهم.

وهو الآيتان: (٤ ـ ٥).

الدرس الثالث: تضمّن عرض أدِلّة من الظواهر الكونيّة تدلُّ على أنّ الله قادر على بعث الموتى، وأنّ بعثهم يُشبه إحياء الأرض بعد موت نباتاتها، بفَلْقِ البذور وإخراج النبات.

وهو الآيات من (٦ ـ ١١).

الدرس الرابع: تضمّن عرض نماذج من المكذبين الأوّلين وكيف حقَّ وعيد الله لهم بإهلاكهم إهلاكاً جماعيّاً عامّاً، ليكونُوا عبرةً للمعتبرين، وهذا إنذارٌ للمشركين.

وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤).

الدرس الخامس: تضمّن تساؤلاً يكْشِفُ أنَّ الله عزَّ وجل لم يَعْيَ بالخلْقِ الأول، بدليل وجوده واستمرار تكرُّره، وبَيَانَ أنَّ المكذبين بالبعث، في لَبْسٍ من أمْرِهِمْ بالنسبة إلى خَلْقٍ جديد، بَعْدَ إنهاءِ الله ظروفَ الخلْق الأوّل.

وهو الآية (١٥).

الدرس السادس: تضمّن بيانَ أنَّ الله الذي خلق الإنسان بسُلْطانِ رُبوبيّته وخلَقَ له خصائص نفسه، يَعْلَمُ ما تُوَسْوس به نفسه، وأنّه أقرب إليه من حبل الوريد، فلا يَعْزُبُ عن عِلْمِهِ شيءٌ من خواطِرهِ ونيّاته، وقد خلقَ له مَلَكَيْنِ مُرافِقَيْن لَهُ عن اليمين وعن الشّمال يُسَجّلان عليه أعماله الظاهرة والباطنة.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٨).

الدرس السابع: تَضَمَّنَ عَرْضَ ساعَةِ الموتِ وما يَشْهَدُ فيها الميّتُ من أحداثِ أمُورِ ما بَعْدَ الموت، وعَرْضَ ساعَةِ البَعْثِ الذي يكونُ عَقِب النَّفْخ في الصُّور، وأنّ هذا الإحياءَ يكون ليوم الوعيد، وعَرْضَ مجيئه إلى موقف حسابه يَسُوقه إليه سائق من الملائكة وشهيد يَشهَدُ عليه بما كان قدّمه في الحياة الدنيا، مع بيان أوّل قَوْلٍ يقال له عند وصوله إلى موقف حسابه.

وهو الآيات من (١٩ ـ ٢٢).

الدّرس الثامن: تضمّن عرض لقطة من حساب الكافر العَنِيد المعتدي والحكم عليه المساوي للحكم علَىٰ كلّ نُظرائه، من الإنس والجنّ، ومنهم قرينُه الشيطان الذي كان يوسوس له، وعَرْضَ ما يُحاولُ أن يعتذر به هذا القرين، مع الردّ عليه.

وهو الآيات من (٢٣ ـ ٢٩).

الدرس التاسع: تضمّن عرض لقطات من مشاهد يوم الدين تتعلّق بجهنم، وبالجنة وإزلافها، وبخطاب الذين قضىٰ الله لهم بأن يدخلوها وبأن يكونوا من المنعّمين فيها.

وهو الآيات من (٣٠ ـ ٣٥).

الدرس العاشر: تضمّن توجيه إنذار لمكذّبي الرسول والمكذّبين بيوم الدين بسُنَّةِ الله في إهلاك أمثالهم، كما فعل الله بكفَّار القرون الأولى من إهلاكٍ عامٍّ شاملٍ وتعذيبٍ يعتبر به من كان له عَقْلٌ، أو أصغى للبيانات الكلامية وشَهِدَ آثارَ الأوّلين.

وهو الآيتان: (٣٦ ـ ٣٧).

الدرس الحادي عشر: درس مدني التنزيل ضُمَّ إلى سورة مكيّة التنزيل، مراعاةً لاقتضاءَيْن:

الاقتضاء الأول: أنّ سبب نزوله الرّدّ على مقالة اليهود في المدينة، الزّاعمين أنَّ الله بَعْدَ أن خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام، استراح في اليوم السابع فجعله مقدّساً، متوهمين أنّ الله قَدْ مَسَّهُ التَّعبُ والنَّصبُ، في عمليّاتِ الخلقِ، فأبانَ الله كذبهم في هذا.

الاقتضاء الثاني: المناسبةُ الفكريَّة اقتضَتْ ضَمَّهُ إلى سورة (قٓ) المكية.

وهو الآية (٣٨).

الدرس الثاني عشر: تضمن معالجة حالة الرسول ﷺ النفسيّة والقلبية تجاه ما يكابده من مزعجات أقوال المكذبين، ويُلْحَقُ بالرَّسولِ كلُّ حَمَلَة رسالته من أمّته، وتضمّن بيان أنّ الرَّسُولَ مبلغٌ عن الله وليس بجبّارٍ على الاستجابة له.

وفيه إعلامٌ بطريقة غير مباشرة للكافرين المكذبين بيوم الدّين ببعض حقائقَ عن أحداث يوم البعث، مع بيان أنّ الله عَظُمَ سلطانه هو الذي يُحيي ويميت.

وهو الآيات من (٣٩ ـ ٤٥ آخر السورة).

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبُّر التَّحليليّ للدرس الأوَّل من دُروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ٣)

قال الله عز وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

القراءات:

● قرأ نافع، وحفص، وحمزة والكسائي وخلف: ﴿مِتْنَا﴾ بكسر الميم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مُتْنا] بضم الميم.

والقراءتان وجْهان عربيّان جائزان.

التدبر:

﴿قٓ﴾: سبق الكلام على الحروف المقطّعة الواردة في بعض أوائل السُّوَر في أوّل سورة (القلم/ ٦٨ مصحف ٢/ نزول).

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾:

الواو هي «واو» القسم، وفي هذه العبارة يُقْسِمُ الله عزّ وجلّ بالقرآنِ الذي وَصَفَهُ بأنّه مجيد.

إنَّ القرآن معجزةُ الرَّسول الخالدة، الدائمةُ الإعجاز، ما كَرَّت العصور، ومرّت الدُّهور، وإعجازُه يُثْبِتُ بشَكْلٍ قاطع أنّه رَسُولُ الله حقّاً وصِدْقاً، وأنّه صادقٌ بلا رَيْب في كلّ ما يُبَلّغُ عن ربِّه، ومنه خبَرُ البعث للحياة بَعْد الموت، بحياة أخرى، يتمُّ فيها الحساب وفصْلُ القضاء وتحقيق الجزاء، على ما كان في رحلة الحياة الدنيا رحلة الابتلاء، بالنسبة إلى الذين خَلَقَهُم الله عزّ وجلّ فيها ليَبْلُوهم.

﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾ أي: الشريف الكريم الرّفيع المقام الْعَليّ المنزلَة، بسبب ما فيه من كمالاَتٍ جليلاتٍ عظيماتٍ تدُلُّ على أنّه كلامُ الله عزَّ وجلَّ، ولَيْسَ كلامَ بشَرٍ مَهْما ارْتقت منزلة ذلك البشر.

وكلمة «مجيد» على صيغة «فعيل» التي تدلُّ على المبالغة والكثرة لصيغة اسم الفاعل، هي بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ وصفاته تدلُّ على غاية كمال الصفة، وهي محوّلة هنا عن اسم الفاعل «ماجد». وكلاهما: «الماجد والمجيد» من

أسماء الله الحسنى. وهذا الوصف لم يَرِدْ في القرآن إلا وصفاً لله مرَّتين، وللقرآن مرّتين، وللعرش مرّة واحدة في قراءة ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدِ﴿١٥﴾﴾ بكسر الدال.

والمجد في اللِّسان العربي هو الكرم والشرف والعلوّ والرِّفعة المعنويّة العالية السامية. تقول لُغةً: مَجُدَ مَجَادَةً فهو مجيد. وأمْجَدَهُ ومَجَّدَهُ، أي: عظَّمَهُ وكرَّمه وأثنىٰ عليه بالمجد.

والتمجيد: أن تنسُب الرَّجُل إلى المجْدِ. وتقول: تَمجَّد فُلانٌ، أي: صار مَجيداً.

● أما جوابُ القسم الوارد في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ فمَحْذُوف.

وبالنظر التأمُّلِيّ فيما جاءَ بَعْدَهُ، وهو أنّ المشركين الذين كَفَروا بالرَّسول محمّد ﷺ، وكَفَروا بما أنْذَرَهم به من عذاب الله يوم الدّين، قد تعجَّبُوا تعجُّبَ المنكر من أن يأتيهم رسُولٌ بشرٌ منهم مُنْذِرٌ لهم بعذابِ الله يوْم الدّين، فإنَّ باستطاعتِنا أن نُدرِكَ أن المقْسَمَ عليه قضيَّتان:

القضيّةُ الأولى: صِدْقُ رسالة الرَّسُول محمد ﷺ، وأنّه رسول الله حقّاً، لأنَّ القرآن بمَجْدِهِ المعجز، قد جعَلَه الله الآية الكبرىٰ على صِدْق الرَّسول في رِسالَته، وفي بلاغِه للناس، وعلى أنّه رسول الله حقّاً وصِدْقاً.

القضية الثانية: صِدْقُ إنذار الرسول بعذاب الله يوْم الدين، وصِدْقُ ما أخبر به عن ربّه من أمْرِ البعث بعد الموت، إلى الحياة الأخرى، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

ويمكن تقدير جواب القسم بما يلي: والقرآن المجيد لَمُحَمدٌ رسول الله حقاً وصِدْقاً، وهو صادقٌ فيما يبلِّغ عن ربّه، ولَإنْذَارُهُ بعذاب الله يوم الدين حقّ وصدق، وَلَلْبَعْثُ بعد الموت للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، في اليوم الآخِرِ حقٌّ وصدقٌ.

والْقَسَمُ بالْقُرْآنِ المجيدِ قَسَمٌ بآيَة من آياتِ الله الباهرات، ويَتَوقَّفُ إدْراكُ هذه الآية على التفكُّرِ والتَّدَبُّر للوصول إلى معرفة عناصر إعجازه، وأنّه لا يُمْكِنُ أن يَكُونَ صادراً عن فَرْدٍ أو جماعَةٍ من الناس، أو عن كلِّ الإنسِ والجِنّ، ولو اجتَمَعُوا على ذلك، فالقرآن آيَةٌ عظْمىٰ، وهو يستحقُّ أنْ يُقْسِم به الله عزَّ وجلَّ كما أقسم بظواهِر آياتِ صفاته في الوجود.

والْقَسَمُ به مُوَجّه في الحقيقة لِمَنْ هم مؤهّلونَ لإدْراكِ عناصر إعجازه من أولي الألباب.

فكأنَّ الله عزّ وجلَّ يقول: أُقْسِمُ بالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ المعجز، لأولي الألْباب القادرين على إدْراك عناصر إعجازه بعد التفكّر والتدبّر، على صِدْقِ رسولي محمّد وصِدْقِ ما جاءَ به عَنّي لِيُبَلِّغَهُ للناس، كما أنْزلْتُه عليه.

ولهذا لم يواجِهِ الله عزّ وجلَّ بعد هذا القَسَمِ الكافرين بالخطاب، بل تحدَّث عنهم بضمير الغائب، فالقسم بالقرآن المجيد لا يؤكّد في نفوسهم، صدق الرسول في رسالته، ولا صِدْق نَبَإ يوم الدين الذي أخبرهم به عن رَبّه، إذْ لم يتفكّروا في القرآن ولم يَتَدبّروا عناصِرَ إعجازه، لكِنْ قد يوجَدُ فيهم مستقبلاً مُتَفكّرون مُتَدبِّرُونَ أولو ألباب، أو يَسْتَحِثُّ هذا الْقَسَمُ من كان منهم ذا لُبَّ دَرَّاكٍ فَيَتَفكرُ وَيَتَدبَّرُ، فيكُونُ هذا الْقَسَمُ مُفِيداً بالنِّسْبَةِ إلى هٰؤلاء، ويُؤكِّدُ في نفوسهم صِدقَ الرَّسول وصِدْق ما جاء به.

● قول الله عزَّ وجل:

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾؟؟!

﴿بَلْ﴾ حَرْفُ إضراب، والذي يَظْهَرُ لي أنَّه إضرابٌ عن كلام مطْوِيّ مُقَدَّرٍ ذهناً يَدُلُّ عليه الْقَسَمُ بالقرآنِ المجيد[1]، أي: لكِنَّ الَّذِين كَفَرُوا لَمْ

(١) يعجبني في مثل هذا الإضراب بحرف (بل) الداخلة على الجملة قولُ من يعتبرها حرف=

تُؤثِّرْ فيهم معجزة القرآن المجيد، ولم يَسْتَفِيدُوا من دلالتها فيؤمنُوا بالرَّسُول وبما جاء به، بل أنكروا رسالة الرسول محمّد وأنْكَرُوا البعث يوم القيامة، للحساب، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء، باسْتِعْمال أسْلُوب التعجُّب والاستغراب فقط، دون حجَّةٍ أو أيّ دليل يَصْلُح للمناقشة والبحث.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم﴾ يقال لغة: عَجِبَ من الشيء يَعْجَبُ عَجَباً، وَعَجْباً، وعُجْباً، وتعجّبَ منه، إذا أنكره لقلة اعتياده إيّاه، وأصلُ الكلام: وعَجِبُوا من أنْ جاءهم، ولكن حَذْفَ الجار قبل «أنَّ» و«أن» قياسٌ مطرد.

وكان مقتضىٰ كون القرآن مجيداً معجزاً لا يستطيع البشر أن يأتُوا بمثله، أنْ يكونَ برهاناً على صِدْقِ محمَّد ﷺ في بيانه أنّه رسول الله، وعلى صِدْقِ نَبأ البعث للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء يوم الدّين، وصِدْقِ كلّ ما يبلّغه الرسول ﷺ عن رَبّه، وكان يجب على القوم بعد أن اسْتَمَعُوا إلى القرآن أن يأخذوا بهذه الدّلاَلة فيُؤمِنُوا ويُسْلِمُوا لله ورَسُوله.

وعلى افتراض أنَّ إعجاز القرآن لم يتَّضِحْ لهم تماماً، وأنَّ آياتِ صِدْق الرَّسول الأخرى لم تُوصِلْهُمْ إلى القَنَاعَةِ الكافية للإيمان به، فالواجب العقلي المنطقي يقتضي منهم أن يتَرَيَّثُوا ويَتَوَقَّفُوا، ليُتَابِعُوا تَأَمُّلَهُم وبَحْثَهُمْ حتَّى يَتِمَّ لديهم الاقتناع بصدق نبوة محمَّدٍ وصِدقِ رسالَتِهِ، وصِدْقِ ما يُبَلِّغه عن رَبِّه.

لكنَّ هؤلاء المكذّبين الكافرين، قد سَتَرُوا ما عَرَفُوهُ من دلائل الحقّ بالكُفْر، فَلَمْ يُؤْمِنُوا، ولم يَتَرَيَّثُوا باحثين، بل أنكروا رسالة الرّسُول محمّد، وأنْكَرُوا يوم الدّين الذي يتمُّ فيه تحقيق قانون الجزاء الرّباني، مستندين إلى مجرَّد التعجُّب من أن يأتِيَهُمْ رسُولٌ بَشَرٌ منهم، والتعجُّب من إحياء الله

= عطف من النَّحويين، لا حرف ابتداء على ما هو المقرر عند جمهورهم والذي وصفه ابن هشام بأنه الصحيح، في «مغني اللبيب».

الموتى بعد أن يصيروا تراباً، مُتَعامِين عن آية الله السابقة والدائمة، التي يُنْشِئ بها الأحياء النشأة الأولىٰ من ماء وتراب، ضمْن حلقاتٍ سببيَّة في سلسلة إنشائه الأحياء جلَّ جلاله.

فجاء الإضرابُ بلفظ «بل» دليلاً على هذا الكلام المطويّ، وهذا من بديع الإعجاز القرآني، الذي يعْتَمِدُ على منطِقيَّةِ التحليل.

وقد جاء الحديث عن الذين كَفروا بالرَّسُول وبيوم الدّين من مشركي مكَّة بضمير الغائبين، ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ ﴾ دون أن يسبق في سورة (قٓ) حديث عنهم، اعتماداً على عدّة قرائن تُحدِّد المراد.

القرينة الأولى: أنّ سورة (قٓ) قد نزلت عقب سورة (المرسلات) التي دارت آياتها حول معالجة المكذّبين، وتكَرَّرَ فيها قول الله عزّ وجل: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾.

القرينة الثانية: يُعْلَمُ من وَاقع الحال إبّان نُزول هذه السُّورة، ومما جاء بَعْد ضمير الغائبين أنَّ المكَنَّىٰ عنهُم بالضمير هم المكذّبون للرسول والمكذبون بيَوْم الدّين، فواقع الحال يكْشِفُ أنَّ القوم ثلاثة أقسام:

(١) قِسْمٌ آمَن بالرَّسول وبما جاء به، واتَّبَعُوه، وهؤلاء لا يَعْجَبُونَ ولا يُنْكرون، فهم غير مقصودين حتماً.

(٢) وقسْمٌ لَمْ يُؤْمِنْ بَعْدُ ولَمْ يَكْفُرْ، لأنّه لم يُناقش قضيَّة الرسول ولا قضيَّة البعث للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، فلَمْ يُبْدِ في القضيتين رأياً لا بالنفي ولا بالإثبات، وهؤلاء غير مقصودين أيضاً، إذْ لم يُعْلِنُوا إنكارهم، ولا تكذيبهم.

(٣) والقسم الثالث: هم الذين أعلَنُوا كُفْرَهم وإنكارهم، ولَمْ تكن حجتهم إلاَّ أنَّهم تعجبُوا أن جاءهم مُنْذِرٌ بَشَرٌ منهم، وتعجَّبوا من قضيَّةِ البعث، فقالوا: أئِذا مِتنا وكُنّا تُرَاباً سَوْف نرجع إلى الحياة مرَّةً أخرى

لنجازَى على ما كُنَّا عَمِلْناه في الحياة الدُّنيا، ذلك رَجْعٌ مُسْتَبعَدٌ مُسْتَنْكَرٌ لا نُؤمِنُ به، فهؤلاء هم المقصودون حتماً. وقد دَمَغَهُمُ الله بالكُفْر بصريح العبارة، في قوله عزّ وجل: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾.

إنَّ التعجبَ من شيءٍ لا يصحُّ في موازين العقول السّويَّة أنْ يكون دليل نَفْيٍ للشيء المتعجَّب منه.

لكنَّ التعجُّبَ قد يُتَّخذُ أسلوباً بيانياً لإنكار المتعجَّب منه.

فاختيار الكناية عنهم بضمير الغائبين مع وجود القرائن الدالَّة عليهم، من أحْكَم البيان وأخصره وأكثره إيجازاً، مع خلوّ العبارة من إيهام غير المراد. وهذا من روائع البيان القرآني.

وَوُضِعَ الاسم الظاهر في: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ بدل الضمير لإبراز وصف الكفر الذي تدنَّسُوا به مع علمهم بالحق.

تحليل بواعث التعجُّب:

الْعَجَب من الشيء والتَّعَجُّبُ مِنْهُ حالةٌ من المشاعر تحدُثُ في النَّفْس مِنْ إكْبَارِ شيءٍ ما وإعظامه، أو من استهجانِه لِقُبْحه ومخالفته للسُّلوك المقبول من الأسْوِيَاء، أو من استبعاد إمكانِ حُدُوثِه وقد يَصِلُ الأمْرُ إلى حَدِّ تَصَوُّر استحالته، ولو كان من الممكنات.

وقد يكون التعجُّبُ من الشيءِ لعَدَمِ إلْفِه، فإذا صَارَ مألوفاً زال التعجُّبُ منه.

إنَّ التَّعَجُّبَ من المشْهُودَاتِ أو المدرَكَاتِ بِالْعِلْم، يقْتَصِر على الإعظام والإكبار إلى حدِّ الدَّهْشَة، أو يَقْتَصِرُ على مُجَرَّدِ الاستحسان لنُدْرَةِ حُدُوثِه مُطلقاً، أو قلَّةِ حُدُوثه نسبيّاً.

وإذا كان التعجُّبُ أو الْعَجَبُ من خَبَرٍ أو ادّعاءٍ رافقه في كثير من الأحيان الشَّكُّ، أو الإنكار والتكذيب، مع تصوُّر عدم الإمكان، أو دون

تَصَوُّر عدم الإمكان، وقد يكونُ مثل هذا التعجُّبِ مصحوباً بالتَّصديق دون طمأنينة، فإذا حدثَتِ الطُمَأنينة كان التعجُّب مُجَرَّدَ إعظام وإكبار.

تعجُّبُ المشركين الوارد في هذا الدرس:

وتعجُبُ مشركي مكة المكذبين لرسول الله محمد ﷺ، والمكذبين بيوم الدّين تعجُبٌ مِنْ قَضيَّتَيْن:

القضيَّة الأولى: تعجُبُهم من أن يكون الرَّسُولُ من عند الله بشراً من البشر، متوهّمين أنّ كَوْنَ الرّسول بشراً يُنافي الحكمة الربَّانيَّة، أو مُتَوَهِّمِينَ أنّ البشر لا يَصْلُحون للاتّصال بعالم الغيب.

وكلا التوهُمَيْن باطلان، ولدى البحْثِ التحليلي لكشف دوافع نفوس المكذبين يظهر أنّها دوافع تنبع من منابع الكِبْرِ أو الحَسدِ أو الرَّغْبَةِ في الفُجور.

القضيَّةُ الثانية: تعجُبُهم من أن يكون في الإمكان الإعادَةُ إلىٰ الحياة بعد الموت والفناء، متوهّمين أنّ هذا الأمر غير مُمْكن،

وتعجُّب المشركين الكافرين من هاتَيْنِ القضيَّتين تعجُّباً يُفْضي إلى إنكارهما، تَعَجُّبٌ في غَيْرِ محلّه مطلقاً.

● أما كَوْنُ الرَّسُولِ إلى البشر بشراً منهم، فهو الأمْرُ الحكيم، فلا داعي إلى التَّعجُّب منه، بل التَّعَجُّبُ منْهُ هو الذي يستَدْعي الْعَجب.

● وأمّا الإعادة إلى الحياة بَعْدَ الموتِ فهي نظير بَدْءِ الخَلْق، أو هي أهْوَنُ منه في تجارب النّاس، فالتعجُّبُ منه يَدْعو إلى الإعظام والإكبار، لا إلَىٰ النفي والإنكار.

إنّ تعلُّلَ مكذّبي الرُّسُل في تكْذِيبهم لهُمْ بعلَّةِ بَشرِيَّتِهِمْ، ظَاهِرَةٌ تَكَرَّرَتْ في الأمم الأولى، وتكرُّرُها يَدُلُّ علَىٰ تشابُهِ قُلوب الكافِرين المكذّبين لرُسُل الله رَبِّ العالمين، وتشابُهِ نفوسهم وأفكارهم.

وبحث اعتراض الأمم على كون رُسُلهم بشراً مستوفىً في ملاحق تدبُّر سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول)[١].

● وجاء في العبارة استعمال وصف الرسول ﷺ بأنَّهُ مُنْذِرٌ، فقال الله تعالى، مبيِّناً اعتراضهم على بشرية الرسول محمد ﷺ: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾.

مع أنَّ الرَّسُول ﷺ مبشِّرٌ أيضاً ومبلِّغ وهادٍ وأُسْوةٌ حسنة، وداعٍ إلى الله ومُرَبٍّ، إلى غير ذَلِكَ مِنْ وَظائف رسالته، فما الحكمة من هذا الاختيار؟

أقول: لمَّا أعْلَنوا كُفْرَهُمْ، بَعْدَ أن اتَّخذ الرسول ﷺ معهم كلَّ وسائل التبليغ والإقناع والمعالجات التربَويَّة المختلفة، ومنها المعالجة بالترغيب، لم يَبْقَ لديه من وسائل معالجتِهِمْ إلاَّ المعالجة بالإنْذارِ، بعذاب الله وعقابه المعجَّل والمؤجَّل، فهو بالنسبة إليهم بَعْدَ أن وَصَلُوا إلى دركة العناد، والإصرار على الكفر وجحود الحقّ، مُنْذِرٌ فقط، فاقتضت الحكمة البيانيّة الاقتصار على وصفه هنا بأنّه مُنْذِر.

أمّا من آمن واتَّبع وأطاع فيلائمه من صفات الرسول ﷺ أنه مُبَشِّر.

﴿مُّنذِرٌ﴾: اسم فاعل من فعل «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إنْذاراً».

والإنذار: هو الإخبار والإبلاغ والإعلام بما هو مخوفٌ منه، كعقابٍ، أو مصيبة، أو شرّ عدُوٍ مُداهم، أو نحو ذلك.

فالمُنذِرُ: هو المخوِّف المحذِّر، والمخبر بخطرٍ مداهِم، والْمُعْلِمُ بأمْرٍ مكْرُوه قادم، سواءٌ أكان ذلك على وجْه العموم، أمْ في حالةِ فعْلِ شيءٍ أو ترك شيء.

---

(١) انظر الملحق الثامن من ملاحق تدبر سورة (الفرقان) للمؤلف.

والرسُولُ منذر بعقاب الله الخالد في جهنّم بالنسبة إلى الكافرين، ومنذر بعقاب دون ذلك بالنّسبة إلى عصاة المؤمنين.

ويَحْسُنُ بالمتدبّر أن يُدْرِكَ ما في هٰذِهِ العبارة بعد القَسَم بالقرآن المجيد، من أداء كلاميٍّ بديعٍ قائم على حذف ما يمكن أن يُدْرَكَ باللّوازم الذهنيَّة، وبما تقتضيه الروابطُ الفكريَّة واللّفظيَّة، على أنّ المكذّبين للرّسول والمكذّبين بيوم الدّين قد أدركوا بُرْهان إعجاز القرآن، فلَمْ يقبَلُوا دَلالته، بل كذّبُوا، ولم يكن لهم دليل يصلُحُ للاحتجاج به، فلجَؤوا إلى ادّعاء أنّ بشريَّة الرَّسول، وإنْذَارَهُ بعقاب الله يوم الدّين، من الأمور المستَبْعَدَةِ المثيرة للعجب، فاستخدموا التعجُّبَ للدلالة على أنّهم مُكَذِّبُون، وعلى اعتباره دليلاً صالحاً للاحتجاج به، مع أنّ التعجُّبَ لا يتضمَّن أيّ دليل مهما كان ضعيفاً غير ادّعاء عدم الإمكان، وتوهُّماتٍ لا تَثْبُتُ أمام مناظرة إقناعيَّةٍ تعتمد على الاحتجاج بأدنى الحجج المنطقيَّة.

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾: **الكافر**: «اسم فاعل» من فعل «كَفَرَ يَكْفُرُ كُفْراً وَكُفْراناً». ويقال لغةً: كَفَرَ الشيْءَ، وكَفَرَ عَلَيْهِ كَفْراً، أي: سَتَرَهُ وغطّاهُ، وكَفَرَ التُّرَابُ ما تَحْتَهُ، أي: غطّاهُ وَسَتَرَهُ ولهذا يُقال للزّراع: كافر، وتُسَمِّي العرب الزُّرّاعَ كُفّاراً، لأنّهم يكْفُرُونَ الحبَّ المبْذُور بتراب الأرض.

ويأتي الكُفْرُ في اللُّغَةِ بمعنى جُحودِ النعمة، وهو ضدّ الشكر. يقال: كفَرَ بالنعمة إذا جحدها وسترها.

فأصل الكفر في اللّغة تغطيَةُ الشيء تغطيةً تَسْتَهْلِكُهُ، فلا تبقى منه شيئاً مكشوفاً.

والكُفر بالدّين: هو موقف الرفض والجحود بعد معرفة الحقّ ببراهينه، ويَقُومُ على سَتْر الأدلّة التي تُثْبِتُه، بطَرْحِ الشبهات، وإلقاء عبارات التعجُّب، وادّعاء أنّ الأمر غير مقبولٍ عقلاً، والتشكيك في الأدلة الكثيرة، إلى غير

ذلك من حِيَلٍ ومغالطات يَصطنعها المبطلون اصطناعاً، ويُلفقُونها تلفيقاً، ويُزَخْرِفُونها بالأقوال المنمَّقة الخادعة.

وليس الكافر من كان خالي الذهن من أدلّة الإيمان، ولا من هو يبحث عنها، ولا المتريّثُ حتّى تتَّضِحَ له أدِلَّة الإيمان، بل هو العارف بحقائق عناصر الإيمان، الّذي وضَحَتْ له أدلَّتُها وبراهينُها، إلاّ أنّه غطّىٰ عليها بحِيَله حتّى سَتَرها ظُلْماً وَعُدْواناً.

والمقصودون بقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ هم من كانوا عارفين الحقّ، السّاتِرين لَهُ ولأدلَّتِه بما يصطنعون من زُخْرفِ القول، من الذين لم يستجيبوا لدعوة الرّسولِ إبان نزول سورة (قٓ).

والمشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هو فيما يظهر لي كونُ محمّدٍ الّذي قال لهم إنّي رسول الله إليكم بشراً منهم، زاعمين أن رسول الله لا يصحُّ أن يكون بشراً من البشر، مُتَعامِين عن أنّ جميع رُسُلِ الله السابقين قد كانوا بشراً، وهذه هي القضيةُ الأولى من القضيتين اللَّتين أثارهما كُفارُ مكَّة إبّان نزول سورة(قٓ).

أمّا القضيَّةُ الثانية فهي ما دلّ عليه قَوْلُهم كما جاء في التعبير القرآني.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

في هذه العبارة استفهامٌ تعجُبيٌّ يتضمَّن إنكار البعث، بدليل كونه أمراً عجيباً بعيداً عن التصوُّر، إذْ لم يشاهدوا مَوْتَى رَجَعُوا إلَى الحياة بَعْد مَوْتهم، ولا سيما بعد فناء أجسادهم وصَيْرُورَتِها رُفاتاً مختلطاً بتراب الأرض، وجُزْءاً منه.

وقد طوى النَّصُّ من مقالتهم جواب [إذا] الشرطيَّة، إذْ دلَّتْ عليه مقالتُهم ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

وباستطاعتنا أن نُبرز جواب [إذا] المطويّ الذي يستدعيه الذهن بأدنى تأمُّل، فنقول: أإذا مُتنا وكُنَّا تُراباً نُرْجَعُ إلى الحياة مرَّةً أُخْرَى، للحساب، وفَصْل القضاء، وتحقيق الجزاء، علَى ما قَدَّمنا وأخَّرْنا في الحياة الدنيا؟؟!! ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ.

أي: هو مستَبْعَدُ الحصول عقلاً، وكيف لا يكون كذلك وهو غير مشهود الوقوع فعلاً، بحسب مشاهدات الحياة الدنيا بالنسبة إلى الأحياء الحيوانية.

ولمّا ادَّعوا أنّ هذا الْبَعْث مستَبْعَدٌ استبعاداً يخرجُهُ عن حدود الممكنات، أشاروا إليه باسم الإشارة الخاصّ بالمشار إليه البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾.

وهذا القول قد يكون حكايةً لقولهم مع بعض تصرُّفٍ بالحذف، وقد يكون ترجمة بليغةً مطابقةً في المعنى المراد لما عَبَّروا عنه بعباراتهم، والله أعلم.

﴿رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾، أي: إرجاعٌ إلى الحياة بَعيدٌ عن دائرة المعقول والممكن. **رَجْعٌ** مَصْدَرُ رَجَعَهُ، أي: أرْجعَه، يُقالُ لغةً: رَجَعَ فلانٌ الشَيْءَ إلى ما كان عليه قبل تلَفِه، رَجْعاً، ومَرجِعاً، ومَرْجِعَةً، ورُجوعاً، ورُجْعاناً.

(٦)
التدبّر التحليلي للدّرس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآيتان (٤ ـ ٥)

قال الله عزّ وجل:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

في هذا الدرس دفعٌ لبعض توهُّماتِ الكافرين منكري البعث، وسَيأْتي

دفْعُ توهُمَاتهم الأخرى، فمن ذلك ما سيأتي في سورة (قٓ) ومنه ما سيأتي في غيرها ممّا نَزَل بعدها في نجوم التنزيل، مراعاةً لمعالجة ما هو ماثل في تصوُّراتِ المعالَجِينَ إبّان نزول النجم القرآنيّ، وعملاً بالسُّنَّةِ القرآنيّة في تجزئة الموضوعات وبثّها في السُّور، مع التكامل البديع فيما بيْنَها، وهذا أحد عناصر إعجاز القرآن، مع ما في التجزئة من حكمة التدرّج التعليمي، والتكليفي، والتربويّ.

ونلاحظ هنا في هذا الدرس أنّه قد اشتمل على دفْعَ تَوَهُّم من توهُّماتِ المنكرين للبعث، دون ذكْرٍ لهذا التوهُّم، لأنَّ دفْع التوهُّم يُشْعِرُ بوجوده في خواطر المنكرين وأحاديث نفوسهم، سواء عبَّرُوا عنه بأقوالهم أمْ لم يُعَبِّروا، وهذا من بديع الإعجاز في القرآن الكريم.

ونجد نظيره في الإجابة على سؤال غير مذكور في اللفظ، وفي حلّ إشْكَالٍ غير مذكور في اللّفظ أيضاً، إلاّ أن الموضوع يستدعي ذَلك، فمن الجلِيّ في أساليب القرآن المجيد الرائعة، التي يُدْرِكها المتدبّر اللَّمّاح أنَّ النَّصَّ القرآنيَّ قد يدفَعُ تَوَهماً، أو يَحُلُّ إشكالاً، أو يجيب على سؤال، دون ذِكْرِ الشيء الذي يُعالِجُهُ النَّص، إيجازاً في العبارة، واكتفاءً بدلالة المعالجة عن ذكر الداعي إليها، واعتماداً على ذكاءِ أهْلِ التَّدَبُّر الأكفاء.

فمِنَ التوهُّماتِ الّتي تُفْسِدُ تَصَوُّراتِ المشركين حول موضوع البعث إلى الحياة بعْدَ الموت وفناء الأجساد، وتفرُّق ذرّاتها في تراب الأرض، توهُّمُهُمْ أنّ الله عزّ وجلّ لَيْس لدَيْه عِلْمٌ كاملٌ بكُلّ ذرّاتِ أجساد الموتَىٰ، وبكُلّ صفاتهم النفسيَّة والفكريَّة والجَسَدِيَّة، حتَّىٰ يُعِيدَهُمْ إلى مِثْل ما كانوا عليه تماماً، فجاء البيان القرآنيُّ في هذا الدَّرْس دافعاً لهذا التوهم الباطل، فقال الله عَزَّ وجلَّ:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.

﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾، أي: سَبَقَ في علْمِنا، بما قَدَّرنا وقَضَيْنا قَبْلَ خَلْقِ النَّاسِ وإحيائِهم، ثم إماتَتِهم ما تَنْقُصُ الأرضُ من أجسادهم بَعْدَ مَوْتهمْ، وقد جاء هذا البيان بصيغة الفعل الماضي مع تأكيده بحرف التحقيق ﴿قَدْ﴾ للدلالة على سبق العلم بخُطَّةِ التكوين قبل تنفيذ عمليات الخلق المتابعة بناءً وإفناءً.

وجاء استعمال ضمير المتكلم العظيم إشعاراً بأنّ هذا العلم هو من خصائص رُبوبيَّةِ الرَّبِّ الّذي لا يَعْزُبُ عَنْ عِلْمِهِ معلومٌ ما، مهْمَا كان صغيراً وجزئياً ممّا كان وممّا هو كائنٌ وممّا سيكون، لأنّه هو سبحانه واضع خُطَّةِ التكوين كُلِّها قَبلَ بَدْءِ الخلْق، مع تَحْديدِ مراحل تنفيذها بناءً وإفْناءً.

وضمير المتكلم العظيم نجده في: [عَلِمْنا ـ عِنْدَنا].

إنَّ أمْرَ الإيجاد، والإحياء، والإماتة، والإفناء، والإعادة بالبعث، والإيجاد بَعْدَ البعث، وسائر التصاريف في الكون، إنّما تتمُّ في الكون، ضِمْنَ خُطّة القضاء والقدَر العامّ، فَمَا من شيءٍ يحدث في الكون بنفسه، إنّما يَحْدُث بقضاءٍ وقدرٍ من الخالق الرَّبّ جلّ جلاله، سواءٌ أكان ذلك الشيء كبيراً أم صغيراً.

إنّ سَبق العلم بما سيَحْدُثُ، وربْط كُلِّ ما يَحْدُثُ بتقديرٍ حكيم، وإرادةٍ ماضية، وخَلْقٍ يَتِمُّ به تَنفِيذُ المراد، أمُورٌ تَدْفَعُ كُلَّ التوهُّماتِ المتعلِّقةِ بصفَةِ عِلْم الله سبحانه وتَعالىٰ عَمَّا يَتَوَهَّمُ الَّذِينَ لا عِلْمَ لهم بالله جلَّ جلالُه، وعَظُمَ سلطانُه، وأحاطَ علْمُه بكلّ شيءٍ كان أوْ هو كائن أوْ سيكونُ ضِمْنَ خطَّةِ التكوينِ العامّ.

وناقصو المعرفةِ بالله وبمُجْرَياتِ أحداث الكون، يتوهَّمُونَ أنَّ الله سبحانه عمَّا يَصِفُونَ لَيْسَ لدَيْهِ إحصاءٌ كامِلٌ لمَا يَتَناقَصُ تِباعاً من أجساد الموتى، بسبب ما يَحْدُثُ لها بَعْدَ الدَّفْنِ في الأرض، فتتغيَّرُ بذلك صفاتُها

الَّتي كانت تتصف بها وهي ذاتُ حياة، ثُمَّ تَتَفَتَّتُ وتتفَرَّقُ ذَرّاتُ أجسادهم، ضِمْنَ سُنَنٍ سَبَبِيَّةٍ مَرْسُومة ومَوْصُوفَةٍ ومَعْلُومَة، والفَعَّالُ الحقيقيُّ من باطن قَنَواتِ الأسباب هو الخلّاقُ العَلِيم، خالقُ الأسبابِ والمسبَّبات، المحْتَجبُ عن الأنظار بِعالمِ الظواهر، تقدَّسَتْ وتَمَجَّدَتْ أسْمَاؤه وصفاته.

وكما كان بَدْءُ خَلْقِ الناس، وبناءُ أجسادهم ضِمْنَ خُطَّة خَلْقٍ مسْبوقةٍ بعِلْمٍ شامِلٍ لكلِّ صَغيرةٍ وكبيرة، فمَوْتُهُمْ وإفناءُ أجسادهم، وكلُّ التصاريف التي تجري فيها وفي نفوسهم مسْبُوقٌ بعِلْمٍ شاملٍ، وخُطَّةٍ في الإفناء تتناوَلُ كلَّ صغيرة وكبيرة، ويَجْري تنفيذ كل ذلِكَ بقُدْرَةِ الله على وفْقِ عِلْمِهِ السَّابق الّذي شَمَلَ كلَّ ما قَدَّرَهُ وقَضَاه من أطوار الإيجاد والإعدام، والبناء والهدم، والتركيب والحلّ، والإفناء والْبَثّ، والجمع والإعادة.

﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، أي: ما تنقص الأرض من أجساد الموتى بالإفناء. تقول لغة: نَقَصَ الشَّيْءُ يَنْقُصُ نَقصاً ونُقْصاناً على أنّ الفعل لازم، أي: ذَهب من مقداره شيءٌ ما قلَّ أو كثر، وتقول: نَقَصْتُ الشيءَ على أن الفعل مُتعَدٍّ، أي: أخذت منه مقداراً ما.

إنّ مَنْ آمَنَ بالله عزّ وجلّ رَبّاً خالقاً، قادراً عى أن يَخْلُقَ ما يشاء، مُحْيياً مُميتاً لا يجري شيءٌ في كونه إلاّ بعِلْمِهِ، وقضائه وقَدَرِهِ، أو إذْنِهِ ضِمْنَ قَانُونِ التَّسْخِير، كَيْفَ يَتَوَهَّمُ أنْ يَنِدَّ عَنْ عِلْمِهِ جَلَّ جَلالُه. ما تنقُصُه الأرضُ من أجساد الموتى.

إنّ ما يحدُث في الكون كلّه تطبيق لما سبق به عِلْم الله بأنه سيقع وبَعْد الوقوع يعلَمُ الله أنّه قد وقع فعلاً.

يضاف إِلَىٰ هٰذا أنّ الْعِلْمَ بكُلِّ ما سيَحْدُثُ مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ بكُلِّ دقائقه في كتابٍ حفيظٍ، دَلَّ علىٰ هذا قولُ الله عزَّ وجلَّ في الآية التي نتدبَّرُها: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ إنه اللَّوْحُ المَحْفوظ بحفظ الله له، وقد يشمل غيره من الكتب، ككُتُبِ أعمال العباد.

﴿حَفِيظُۢ ﴾ على وَزْن «فَعيل» وهٰذا الوزن يأتي بمعنى اسْمِ الفاعل، وبمعنى اسم المفعول، مع الدلالة على الكثرة والمبالغة فيهما.

فعلى المعنى الأول: هو حافِظٌ غايةَ الحفظ لكُلّ معلوم، لا يضلُّ عنه ولا يتغيّر ولا يتَبَدَّل فيه معلومٌ ما، إلاَّ مَا يشاءُ الله أن يمْحُوهُ منْه ويُثْبِتَ غيره، وعنده «أم الكتاب» هو عِلْمُه جلَّ جلاله الذي لا يتعرَّضُ لمَحوِ أو تَغْيير مطلقاً، وكذلك الحقائق الوجوديَّة الَّتي حَدَثَتْ فِعلاً، لا تَتَعرَّضُ في اللَّوْح المحفوظ إلى تغيير أو تبديل.

وعلى المعنى الثاني: هو محفوظٌ غايَةَ المحفُوظيَّة، بحفظ الله له، من أن يؤثِّرَ عَلَيهِ أيُّ شيءٍ في كلّ الوجود من دون الله عزَّ وجلّ.

وجاء استخدام لفظ ﴿حَفِيظُۢ ﴾ بالمعْنَيَيْنِ، وهذا من الإيجاز القرآنيّ البديع.

ويضاف إلىٰ ما دلّت عليه هذه الآية من بَيَانٍ خَبَريّ عن علم الله، وعن الكتاب الحفيظ لكلّ معلوم، والمحفوظ بحفظ الله له، دليلٌ عقليٌّ تقدّمه الظاهراتُ الكونية في السماوات والأرض، إنّ ظَاهِرَةَ إتْقان الخلْقِ كُلّه في الإنشاء والإفناء، والإيجاد والإعدام، والبناء والهدم، والتصاريف والتَّغْييرات المرافقات لأصغر الوحدات الزمنيَّة، ضمْنَ خُطَطِ قضاءٍ وقَدَرٍ صارمَةٍ في كُلِّ الكَوْن، شاهِدٌ دائم على شمول عِلْم الله لكلّ شيء، فلا يَعزُبُ عن عِلْمِه مثقالُ ذَرَّةٍ في السَّماوَاتِ ولا في الأرْض، وهو العزيز الحكيم.

وظاهرة فناء الأجساد بعد موتِ الأحياء جزءٌ يسيرٌ قليل جدّا، بالنسبةِ إلى سائر أحداث الكون الكبير في السّماوات والأرْض، من أكبر مجرّةٍ إلىٰ أصْغَرِ ذَرَّةٍ فما دُونها، وكلُّ ذلك مَشْمُولٌ بعِلْم الله، وقضائه وقَدَرِه، ما تَسْقُطُ من ورقةٍ من أيّة شجرةٍ، وما تتحرَّكُ ذَرَّةٌ ولا إلكترون في الكَوْن

كلّه، إلاَّ بعلمه، وقضائه وقدره، وخلقه تباركتْ أسماؤهُ، وتَمجَّدَتْ صفاته.

فالتشكُّكُ حول شمول عِلْم الله بما تنقُصُ الأرض من أجساد الموتَى، جنُوحٌ سَخِيفٌ، عن منطق العقل الحصيف، حَوْلَ رُبوبيَّة الرَّبّ المهيمنَة على كلّ شيءٍ في الوجود، مهما كان جسيماً كبيراً، أو صغيراً حقيراً.

شمول علم الله كلّ شيء:

وقد جاء بيان حقيقة شمول علم الله عزّ وجلّ كلَّ شيءٍ مفصَّلاً في نُصوص كثيرة جدّاً من القرآن المجيد، وهذه النّصوص موزعة في معظم سُوَره، لأنّ صفة علم الله الشامل من صفات الله العظمىٰ، إذْ تَتعلَّقُ بكلِّ واجبِ عقلاً، وبكلّ مستحيلٍ عقلاً، وبكلِّ ممكنٍ عقلاً، وتتعلّق بما كان، وبما هو كائن، وبما سيكون، مما يتمّ بقضاء الله وقَدَره، وممّا يكون من أفْعَال العباد الاختيارية.

وهذه النصوص قد أبانت أنّ الله عزّ وجلّ يَعْلَم غَيْبَ السَّماوات والأرض، ويَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأرض، وما يخرُج منها، ويَعْلَمُ ما في الأرْحَام، ويَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلَّ أنْثَىٰ، وما تَغِيضُ الأرحامِ وما تزداد، ويَعْلَمُ ما في البرّ والبحر، ويَعْلَمُ ما بين أيدي الخلائق (أي: ما مضى) ويعلم ما خَلفهم (أي: ما يأتي في المستقبل) ويَعْلَمُ ما تُسِرُّ الخلائق وما تُعْلِنُ، ويَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ به النفوس، ويَعْلَمُ مَا تُكِنُّ الصُدُور، ويَعْلَمُ السِّرَّ وأخْفَىٰ.

ونظراً إلى كثرة النُصوص القرآنيَّة حول هٰذا الموضوع، فإنّي أذْكُرُ أكثرها جمعاً ودلالات، مع نظراتٍ تدبُرِيَّة.

النص الأول: قول الله عَزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) في سياق الحديث عن صفات الله الجليلة ذات الآثار العظيمة في كونه:

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ أي: انفرد الله عزَّ وجلَّ بأنه مَالِكُ مَفَاتِيحَ الغيب الأعظم، وهذه المفاتيحُ لا يَعْلَمُها إلاَّ هُو، فلا يَعْلَمُها نبيٌّ مُرْسَلٌ، ولاَ مَلَكٌ مُقَرَّب.

أمّا المغيَّباتُ النسبيَّة فلمَعْرِفَتِها مفاتيح مكَّنَ الله من استخدامها بعض عباده دون بعض، فعند الملائكة مفاتيح قد يستخدمونها لمعرفة بعض المغيبات عن الناس، وعند الجنّ مفاتيح، وعند الإنس مفاتيح يعلمون بها من حقائق الكائنات غائبَاتٍ عن الحواسّ، بما سخَّر الله لهم من وسائل، وهذ المفاتيح لا يَمْلِكُ نظيرها غيرهم، وهي مفاتيح الاستنباط والاستدلال من الصفات الظاهرات على وجود الأشياء الباطنة، وصفاتها وخصائصها.

وهذه المفاتيح قد أوصلت الباحثين من عباقرة البشر، إلى العلوم الذَّرّيَّة وعلوم الخلايا الحيَّةِ ووظائفها، ودلّت هٰذه العلوم على أنّ كلَّ حركةٍ من حركاتِ دقائق أجزاء الذَّرَّاتِ في كلّ شيءٍ، محكومةٌ بخُطَّةٍ رَبَّانِيَّةٍ مُذْهِشَةٍ في الإحْكام والإتقان والتوجيه، ومَشْمولَةٌ بعِلمِ محيط لا يندُّ عنهُ شيءٌ مَهْما كان دقيقاً صغيراً.

فتبارك الله الّذي أحَاطَ بكلّ شَيْءٍ عِلْماً.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول):

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

فأبان هذا النَّصّ أنّ الله عزّ وجلّ الذي هو رَبُّ كُلّ شيءٍ، يَعْلَمُ ما تُكِنُّهُ صُدُورُ النّاس، فتُخْفِيهِ فيها، ويَعْلَمُ مَا يُعْلِنُونه.

وجاء تأكيد هذا الخبر عن شمول علْم الله عزَّ وجل بالمؤكّدات التاليات: «إنّ» و«الجملة الاسميّة» و«اللاّم المزحلَقَةُ للخبر» كما يقول البلاغيّون.

وأبَان هذا النَّصُّ أنَّهُ ما مِنْ غائِبَةٍ على أحَدٍ من خَلْقِ الله لَهُ إدْرَاكٌ عِلْمِيٌّ ما، إلاَّ هي مُسجَّلةٌ مُدَوَّنةٌ في كِتَابٍ وَاضِحِ الدَّلاَلَةِ مُبِينٍ، ولهذا البيان لازمان عقليَّان.

الأول: أنَّ كلَّ مَا هُوَ قابلٌ لأن يُعْلَم مُدَوَّنٌ في كتابٍ مُبين، إذْ ما من صغيرةٍ ولا كبيرة إلاَّ هي غائبة عن بعض خَلْقِ الله، ولو كانت معلومة لآخرين، فشملت كلمة ﴿غَآئِبَةٍ﴾ كُلَّ ما هو قابل لأن يُعلم.

الثاني: أنّ كلَّ ما هو مسجَّلٌ مُدَوَّنٌ في كتابٍ مُبين، لا بُدَّ أن يكون معلوماً لله عزّ وجل.

النص الثالث: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾، أي: ومَا يَبْعُدُ وَمَا يَخْفَىٰ. يقال لُغَةً: عَزَبَ الشَّيْءُ يَعْزِبُ ويَعْزُبُ عُزُوباً، أيْ: بَعُدَ وَخَفِي، وفي يَعْزُبُ قراءَتان بضم الزاي وكسْرِها.

﴿مِن مِّثْقَالِ﴾: «من» حرف جر جيء به لتأكيد عموم النفي في: ﴿وَمَا يَعْزُبُ﴾ ويسمى حرف جرٍّ زائدٍ وهو داخل هنا على الفاعل.

﴿مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾، أي: مِنْ مقدار ذَرَّةٍ.

﴿وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ﴾، أي: ولا أصْغَر من ذَرَّةٍ ولا أكبر. وفي «رَاءِ» أصغر وأكبر قراءتان، قراءةٌ بالفتح، وقراءة بالضمّ.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾، أي: وما شيءٌ من ذلك المشمول بعلْم الله إلاَّ مُدَوَّنٌ مُسَجَّلٌ في كتابٍ مُبِينٍ ذي دلالةٍ واضحةٍ كدلالة أشرطةِ تسجيل الصُورَةِ والصَّوْتِ، مع الخواطر والنيّات والأشْياءِ والأعْمالِ الظاهرة والباطنة، حتى أعمال القلوب والنفوس والأفكار وحركاتها.

حُذِف المستثنى منه لدلالة الجملة السابقة عليه.

النصّ الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) في معرض الحديث عن الله عزّ وجلّ:

﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٦﴾﴾.

فأبانَ هٰذا النَّصّ: أنَّ الله عزّ وجلَّ يَعْلَمُ ما يُسِرُّ النّاسُ ويُعْلِنُون، وأنّه عَليمٌ بالغٌ غايَةَ الْعِلْم بذاتِ الصُّدُور.

ذات الصدور: ، أي: صاحِبَةُ الصُّدُور، وهي الخواطر والنِّيَّات وأعمالُ القلوب كالحقد والحَسَدِ، وابتغاء الخير أو الشرّ، وكالحبّ في الله والكُرْه في الله، والأهواء والشهوات ونحو ذلك.

وأبَانَ أنّهُ يَعْلَمُ مُستقَرَّ كُلّ دَابَّةٍ في ظهور الذكور، ومستودَعَ كلِّ دابَّةٍ في أرحام الإناث، وأنّ عليه رزْقَ كلّ دابَّةٍ.

وأبَانَ أنّ كُلَّ هٰذِهِ المعلومات مُدَوَّنَةٌ مُسَجَّلَةٌ في كتابٍ مُبِينٍ، كاشفٍ لكُلِّ صغيرة وكبيرة حتَّىٰ خَفَايا الصُّدُور.

أفَبَعْدَ هٰذا العلم المحيط الشّامل المسَجّل المُدَوَّنِ في كتاب حفيظ مبينٍ، مجال لتوهُّمات وشبهاتٍ وشُكوكٍ حول قضيةٍ صُغْرىٰ، هي جزئيَّةٌ من جزئيَّات هٰذِهِ الحقيقة الكُبرىٰ الشاملة، المتَّصِلَة بِصفَةِ عِلْمِ الله المحيطِ بكُلِّ شيء؟!

ويضاف إلى هذا البيان الإخباريّ، أنّ أدلّة هٰذا العلم الشامل منبثّةٌ في ظاهرات هذا الكون الكبير.

● قول الله عزّ وجل:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

بعد أن أبانت الآية الرابعة من سورة (قٓ) شمول علم الله لما تنقص الأرض من أجساد الموتى، وأن كلّ ذلِكَ مُسَجَّلٌ في كتابٍ على ما سبق شَرْحُه، كان من المناسِب فَضْحُ حقيقة ما في نفوس وقلوب الكافرين المكذبين، مع الإشارة إلى أنَّ أقوالهم التعجبيّة، ليست ناتجةً عن شكُوك حقيقيَّة، وشُبُهاتٍ تشغل أذهانَهُمْ بصِدْق، بَلْ هُمْ يعلَمُونَ أنَّ محمّداً رَسُولٌ من رُسُلِ الله، يبلِّغُ عن ربّه صادقاً مُنْذُ دَعاهم إلى الإيمان والإسلام، لكِنَّهُمُ اسْتَكْبَرُوا عن اتّباعه، أو لَمْ يُريدُوا أنْ يَتْرُكُوا مَا هُمْ فِيهِ من فجُورٍ واتّباعِ للهوىٰ، فكذَّبُوهُ ظُلْماً وَعُدْواناً وهُمْ يَعْلَمُونَ أنَّ ما جاءَهُمْ بهِ هو الحقُّ من رَبِّهم. دلَّ على هذا قول الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾،

﴿بَلْ﴾ هُنا نظيرُ [بَلْ] في: [**بَلْ عَجِبُوا**]. والإضرابُ بحرف بل هنا إضرابٌ عن كلامٍ مَطْويٍّ مُقَدَّرٍ ذِهناً.

والمعنى: ليْسُوا في الحقيقة شاكّين، بلْ كذَّبُوا بالْحَقِّ الَّذي وضحَ لهم، لمَّا جاءَهُمْ.

﴿لَمَّا﴾ ظرفٌ بمعنىٰ الحين، أي: بلْ كذّبوا بالحق حينَ جاءَهُمْ، وعَرَفوا أنَّهُ حقٌّ، ولم يكُنْ تَشَكُّكُهُمْ وتَعَجُّبُهُم أكثر من طرحٍ جدَليٍّ لسانيٍّ، وإنْ سايَرَهُمُ البيان القرآني في إقامة الأدلَّةِ الإقناعيَّة لهم مجَارَاةً لظاهرهم، والمعنيُّونَ بالخطاب فئة القادَةِ الكفَرَةِ المكذبين بالحق، مع علْمِهم بأنّهُ حقٌّ.

ونستطيعُ أنْ نُدْرِك ذهناً أنّ دافعهم لاتّخاذ هذا الموقف كوْنُ هذا الذي جاءهم به رَسُولُ الله يُخَالفُ أهواءَهم وَمَا يَشْتَهُونَ، أو أنّهم اسْتَكْبَرُوا عَن الإيمان به واتّباعه.

وإذْ كَذَّبُوا بالحقِّ وهو ذو وجْهٍ واحِدٍ يُؤْمِنُ به كلُّ فرْدٍ من الأمَّةِ المؤمنَةِ بالله ورسوله، فهَلْ كان الكافرون مُجْتَمِعين في عقائدهم ومفهوماتهم وأفكارهم حول الوجود والحياة والنشأة والمصير على مَذْهبٍ واحِدٍ، ورأيٍ واحدٍ بيّنٍ واضحٍ جلِيٍّ تَدْعَمُهُ براهين، أو حُجَجٌ مقبولة؟؟!.

سؤال مطويٌّ في النّصّ غير مُصَرّحٍ به، لكِنْ جاء الجوابُ عليه في قوله عزّ وجلّ في الآية: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾.

﴿مَّرِيجٍ ﴾ كلمةٌ تَدور حول المعاني التالية: «مُلْتَوٍ أعْوَج ـ مُلْتَبِسٍ مُختَلِطِ ـ مُخْتَلِف ـ مضطرب ـ قَلِق ـ فاسد».

ولدى متابعة مذاهب الكافرين بالحقّ الرَّبّاني، والتفكُّر في عقائدهم ومفهوماتهم، حول الوجود والحياة والنشأة والمصير، نَجِدُ أنَّ كلَّ معاني كلمة «مَريج» تنطبق عليهم بوجه عامّ، على التوزيع، وبعضها ينطبق عليهم جميعاً.

إذْ لا نجد في مذاهب الناس المخالفة لدينِ الله الحقّ، إلاَّ الالتواء والْعِوَج، والتباسَ الحقّ بالباطل، واختلاط الأمور، والاختلاف والاضطراب، والقلَقَ وعدَمَ الثّبات، وأخيراً الفسَادَ والإفساد.

فالكافرون كما قال الله عزَّ وجلّ هم في أمرٍ مَريج.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (٦ ـ ١١)

قال الله عزَّ وجل:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

- قرأ أبو جعفر: [مَيِّتاً] بتشديد الياء المكسورة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مَّيْتًا﴾ بإسْكان الياء، وهو تخفيفٌ في النُّطق.

❀ ❀ ❀

نظرة تدبُرِيَّةٌ عامَّة حول العناصر التي اشتمل عليها هذا الدرس:

في هذا الدرس توجيهُ نظر الكافرين المكذبين وسائر الناس، لطائفة من آيات الله عزّ وجلّ في كونه، الدّالاّت على كمال قدْرَتِه، وعلْمه المحيط بكل شيء، وعلى عظيم حكمته، وبالِغ إتقانه لكلّ ما خلَق، وعلى جَليل رَحْمته وعنايته بعباده، وهيمنَتِهِ على كلّ صغير وكبير في الوجود، ممّا دون الذَّرَّة، إلى أكبَر وأعظم مجرَّة، إلى ما هو أعظم وأجلُّ وأكبر من هذا الكون كلّه، والدّالاّت على قَيُّوميَّة الله جَلَّ جلاله لكلّ شيءٍ في السماوات والأرض، بالحفظ والرّعاية والْهَيْمَنَة والمَنّ والسلطان العظيم.

فما يَتَحَرَّكُ متحرِّكٌ، ولا يسْكُنُ ساكن، ولا يَحْدُثُ حَدَثٌ، ولا يتغيَّرُ

شيءٌ، ولا يفنى شيءٌ، ولا يُوجَدُ شيءٌ إلاّ بعلمه، وبقضائه وقَدَرِه وأمره، أو بإِذْنِهِ وتسخيره للمسَخَّراتِ في كونه لبَعْضِ عباده.

إنّ موضوع السُّورة قد سبق بيانه في الدرس الأوّل من دُروسها وهو يَدُور حول قضيَّتين:

القضيَّة الأولى: تكذيبُ مشركي مكَّةَ رسولَ الله محمّداً في كَوْنِهِ نبيَّ الله ورسُولَهُ، مُتعلِّلِينَ بأنّهُ بَشَرٌ مِنهُمْ، وهي تِعلَّةٌ ذرائعيّةٌ لا تَستَنِدُ إلىٰ أيّ دليل.

القضية الثانية: تكذيب هؤلاء المشركين بنَبأ البعث إلى الحياة بعْدَ الموت، للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدّين، متعلّلِين بأنّ الإعادة إلى الحياة بعْدَ الموت والفناء، أمْرٌ مُستَبْعَدٌ لا تَقْبَلُه العقول، وهٰذه أيضاً تَعِلَّةٌ ذرائعيَّةٌ، لا تستَنِدُ إلى أيّ دليل يُثْبِت أو يُرَجِّح ما زَعُموا، كما سبَقَ بيانه.

وأمثالُ هٰؤلاء المكذِّبين موجودُونَ في كلّ عصْرٍ حتى آخر الدَّهر، من أزمانِ الحياة الدنيا حياة الامتحان.

وقد جاء في الدرس الثاني من دروس السُورة دفْعُ تَوَهُّماتِ المكذبين الماثلة في أذهانهم إبان نزول السورة، بالنسبة إلى القضيّة الثانية.

وإذْ كانت حقيقةُ سَبْق العلم الرّبّانيّ بكلّ ما يجري في الكَوْن من صغير وكبير، مرتَبِطَةً بقضاء الله وقَدَرِهِ السّابقَيْن لكلّ حوادث الوجود، وهذه الحقيقة من الحقائق التي يُنْكِرُها أو يَجْهَلُهَا الكافرون بالله ورُسُلِهِ واليوم الآخر في كلّ العصور الماضية والحاضرة والآتية، كانَ من الحكمة البيانيَّةِ لَفْتُ الأنظار إلى ما يَدُلُّ عَلَيْها في ظاهرات الكون الّتي هي آيَاتٌ من آيات الله الْمُبَصِّرَاتِ ابتداءً، والمذَكِّرَاتِ دواماً.

فظاهراتُ الكَوْن دالاّتٌ على الخالق الرّبّ، وعلىٰ جليل صفاته، ومن

تفكّر فيها بإمْعَانٍ ورغبةٍ في الوصول إلى الحقّ اتَّضَحَتْ لَهُ هَيْمَنَةُ الله علىٰ كُلِّ شيءٍ، وقيُوميَّته لكلِّ شيءٍ، واتَّضَحَ له أنَ أيّ شيءٍ يَحْدُثُ في الكون لا بُدَّ أن يكون مَسْبُوقاً بعلمه الشامل، وبحكمتِهِ الْبَالغة، وبقَدَرِهِ وقضائه، أو بإذْنه وتسخيرِه للمسَخَّراتِ في كَوْنِهِ لِبَعْضِ عباده.

فجاء هذا الدرس الثالث من دُروس السورة متضمناً توجيه الأنظار للتفكُّر في ثلاث آياتٍ مِنْ آيَاتِ الله الكونيّة المتعلّقة بالسماء، وثلاث آياتٍ أخرى من آيات الله الكونيَّة المتعلقة بالأرض.

الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالسَّماء:

الآية الأولىٰ: آيَةُ بِنَاء السَّماء المحكم، ولا بُدّ أنْ نَضَعَ في تصوُّرِنا أنَّ بناء كلّ شيءٍ يكون بحسَبِ طبيعته، وبحسب الغاية منه، فبناء الْقُصُور غَيْر بناء الخيام، وهما على غير بناء الذّرّة وعلى غير بناء الخليّة، وعلى غَيْرِ بناء بَيْتِ العنكبوت، وعلى غير بناء بيت النمل، وعشّ الطائر، إلى غير ذلك.

وقد يكون تماسك الأجرام السّماويَّة بالجاذبيّات، أو بطاقات أخرىٰ غَيْرِ معروفة حتَّىٰ الآن، هو المقصود ببنائها، والله أعلم.

الآية الثانية: آيَةُ تَزْيين السَّماء بالنجوم والكواكب بالنِّسْبَةِ إلى سُكّان الأرض، والتزيين هو التجميل بالزِّينات الجماليّة الّتي تُمْتِع النفوس.

وقد جاء التصريح بتزيين السّماءِ الدُّنيا في السّور التالية: (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول ـ والصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول ـ وفُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول ـ والمُلْك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

الآية الثالثة: أنّ نظام السّماءِ المتماسك لاَ فُرُوجَ فيه، أي: لا شُقُوق فيه، ولَوْ كان فيه فروجٌ لحصَلَتْ أنواع من الخَلَلِ عَبْرَ ملايين أو مليارات السِّنين الّتي مَرَّت عليها.

الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالأرض:

الآية الأولى: مَدُّ الأرض، كما يتمدَّدُ السِّقَاء من الجِلْدِ الممتَلئ ماءً، وكذلك كان شكل الأرض قبل تثبيتها بالجبال التي أُلقِيت فيها. وقد يكون المرادُ بالمدّ الإمداد بالعناصر الصالحة لنفع الناس، بالأرْزاق وغيرها من مطالب الحياة الدنيا، كالمعادن المختلفة.

الآية الثانية: تثبيتُ الأرض بالرَّواسي الّتي ألقاها الله عزّ وجلّ بأمْرِهِ التكوينيّ، لئلاَّ تميد بسُكَّانها، فتتحرّك أجزاءٌ منها وتضطرب، كما تميد الفُلْكُ بأمواج الْبَحْر وتتخبَّط.

الآية الثالثة: إنباتُ أنواعِ النباتات وأصنافها من كلِّ زَوْج(أي: من كلِّ نَوْعٍ أو صنف) بَهِيج، أي: ذي بَهْجَة. **البهجَةُ** هي الحُسْنُ والنضارة. وحرف ﴿مِن﴾ في عبارة ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ للتبعيض، لأنّ احتمالات الأنواع والأصناف الممكنة لا تنحصر فيما أنبت الله منها، فما أنبت الله هو بعضها المقدَّرُ والمقضيُّ.

وفي هذه الظواهر الّتي هي من آيات الله الكونيَّة في السّماء والأرض، تَبْصِرَةٌ ابتداءً، وتَذْكِرَةٌ دواماً، لأهل الأفكار المتدبّرة الواعية المنيبين إلى بارئهم، بما فيها من دلائل تَدُلُّ على صفات الرَّبّ الخالق البارئ العليم الحكيم، الّذي أتْقَنَ كُلَّ شيءٍ صُنْعاً.

فجاء في النصّ عقب ذكر الآيات قول الله عزّ وجلّ:

﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

التبصرة في اللّغة: التَّعْليمُ والتفهيم، فَمَنْ يُدْرِكُ دلائل هذه الآيات في السَّماء والأرض، تَكُونُ لَهُ تَبْصِرَةٌ وتعليماً ابتداءً، ثم تكون له ذِكْرَىٰ دوماً.

تقول لغة: بَصَّرَهُ الأمْرَ تبصيراً وتَبْصِرَةً، أي: فَهَّمَهُ إيَّاهُ، وعرَّفَهُ بِهِ، وأوضَحَهُ له.

والتبصير: التعريف والإيضاح، والتبصُّرُ التأمُّلُ والتعرُّف. وآيات الله في كونه تُعرّف بصفات خالقه ومتقنه ومُحْكِم أمْرِه، وهي تُعلّم دواماً من لم تكُنْ قد عَلَّمَتْه، وتَهدِي مَنْ تفكَّر فيها إلى إدراك صفات الله جلَّ جلاله، ففيها تَبْصِرَة.

وبَعْدَ التَّبْصِرَةِ التعليميَّةِ تَكُونُ مُشَاهَدَتُها المتكرّرة ذِكْرَى أي: تكُونُ تذكيراً متكرّراً بما دلَّت عليه في التعليم الأول.

وكلّما شَهِدَ المتفكرُ المتأمِّلُ آيات الله في الكون، تعلَّمَ منها أشياءَ جديدةً، زادَتْه مَعْرِفةً بحقائِقَ عَن خالقها ومُبْدِعها، وذكَّرَتْهُ بما كان قَدْ عَرَفَهُ منها سابقاً، فتكونُ له بذلِكَ تَبْصِرَةً وَذِكرى.

ذِكْرَى: في اللُّغَة كالذِّكْر، بمعنى التذكُّر الذي هو ضدُّ النسيان. وبمعنىٰ التذكير بالشيء، تقول لُغَةً: أذْكَرَهُ إيّاهُ وذَكَّرَه، والاسم من ذلك: «الذِّكْرَى».

﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، أي: لكلّ عَبْدٍ يَرْجِعْ إلى آيات رَبّه بالتفكُّر حِيناً فحيناً بصفةٍ مُتكرِّرَة، فتكون له تبصرة بالتفكُّر الأوّل، وذكْرى بالتفكرات اللاحقات.

منيب: اسم فاعل من فعل «أنابَ يُنيبُ» أي: رَجع يَرْجع، واسم الفاعل يُشبِه الفعل المضارع في المعنىٰ، يَدُلُّ على الحال والاستقبال والتكرار(١).

وبَعْدَ توجيه الأنظار إلى ثلاث آياتٍ من آياتِ الله الكونيّة في السَّماءِ، وثلاث آيات أخرى من آيات الله في الأرض، جاء في النصّ التنبيه على

---

(١) هذا ما وضح لي في الاستعمالات القرآنيّة، ولم أرَ فيها أنّ دلالة اسم الفاعل على الاستقبال دلالةٌ مجازيّة، بل هي دلالة حقيقيّة من أصل الوضع، مثل: [وما كانوا مؤمنين] أي: وما كانوا مستعدّين لأن يؤمنوا متسقبلاً فأهلكهم الله.

ظاهرة عنايَة الله بالنّاس على ظهر الأرض، بذكر ثلاث نِعَم مُفَصَّلات، تتعلَّقُ بموضوع الأرْزَاق الّتي يحتاجها الأحياء عليها، وهي:

النعمة الأول: نِعْمَة إنْزال الماء المبارك من السّماء.

النعمة الثانية: إنباتُ الجنَّاتِ ذوات الأشجار، ولا سيما النَّخلُ الباسقَاتُ الَّتي لها طَلْعٌ نَضِيد.

باسِقَات: أي: طِوالٌ مُرتفعاتُ القامات.

طَلْعٌ نَضِيدٌ: أي: حَمْلٌ مُتراكبٌ بعضُهُ على بعض باتّساقٍ وتراصف وانتظام.

النعمة الثالثة: إنْبَاتُ الزُّرُوع ذوات الحبّ الذي به أقوات ومنافع النّاسِ والدوابّ، وهذا الحبُّ يجمع بالْحَصَاد، فيكُونُ حصيداً.

وأبان هذا الدّرْسُ أنّ من عظات ظاهرة إنبات الزُّرُوع، ودلالات تكرار إحْيَاءِ الأرْضِ بها بَعْدَ مَوْتها، قياسَ بَعْثِ النّاسِ للحياة الأخرى، بعد موتهم وفناء أجسادهم، على إعادة حياة النباتات من بذورها، بالماء وتراب الأرْض إذا اختلطا وأحَاطَا بها، مع شروطِ أخرى كالحرارة ومرور الزمن، دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

أي: كذلك الذي يحدُثُ للنباتات من بُزُورِها في سُنَّةٍ من سُنَنِ الله المتكرّرة في الأرض، يكون خروج الموتى إلى الحياة يوم القيامة مَرَّةً أُخْرىٰ، من الأرض، للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء. ويُلاحظُ في كلّ هذا الدّرس أنّه قد جاء فيه استعمال ضمير المتكلّم العظيم، لأنّه يَتَعَلَّقُ ببيَانِ آيات رُبوبيَّةِ الله في كونه، فكان من المناسب الإشارة إلى عظمة هذه الربوبيّة باستعمال ضمير المتكلّم العظيم: «بَنيْنَاها ـ زَيَّنَّاها ـ مَدَدْناها ـ ألقينا ـ أنبتنا ـ نزلنا ـ أحيينا».

❁ ❁ ❁

نظرات تدبُريَّةٌ تحليليَّةٌ تفصيلية لفقرات هذا الدَّرس الثالث:

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾.

يَبْدأ هذا الدّرس باستفهامٍ فيه معنى الاستنكار والتلويم للمكذبين الكافرين بالرسول وبيوم الدّين، على إعراضهم عَنْ آيات الله الكونيّة الدّالاّتِ على قضيَّةِ الإيمان الأولى، الّتي تنقُلُهم إلىٰ ما وراءها من لَوازِمَ فِكْرِيَّةٍ، حَتّى تُوصِلَهُمْ إلَىٰ الإيمان بقانون الجزاء الرَّباني، فالإيمان بيوم الدِّين، والإيمان برُسُل الله المؤيَّدين بمعجزات وآيات باهراتٍ من لَدُنه.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾، الْهَمْزَة استفهاميَّة، و«الفاء» حرفُ عطف، ولكن لا نجِدُ في السَّوابق ما هو ملائمٌ للعطف عليه، والتأمُّل المتأنّي في النّصّ يَهْدِي بتوفيقِ الله إلى أنّها تعطِفُ على محذوف، وإيجادُها في الكلام يُفصِحُ عنه، فهي على ما يقول النحاة الفاء الفصيحة.

ويمكن استخراج هذا المحذوف بالتأمل أيضاً، والقرائن الفكريّة المحيطة بموضوع النّصّ تَدُلُّ على أن لدَىٰ المتحدَّث عنهم أدواتِ النظر التفكُّريّ الّتي وهبها الله للناس، وفضَّلهم بها على سائر خلقِهِ تفضيلاً عظيماً، وهٰذه الأدوات كان من الواجب عليهم أن يستعْمِلُوها للوصول إلى معرفة خالقهم ومُمِدّهِمْ بفُيُوضِ عطاءاته، وإلى مَعْرِفَةِ طائِفَةٍ من صفاته الجليلة، وإلى مَعْرِفَةِ الغاية من خَلْقِهم، وما يجبُ عليهم تُجاه بارئهم.

وهُنَا لا بُدَّ أنْ يَرِدَ السّؤال الأوّل حول عَدم انتفاع الكافرين بما وهبهم الله عزّ وجلّ من أدوات نظر تفكُّريّ وهو: أَلَمْ يَسْتَعْمِلُوا ما لَدَيْهِمْ من أدواتِ نظر تفكُّرِيٍّ في أعظم القضايا الّتي خُلِقُوا من أجْلها، فَلَمْ يَنْظُرُوا إلى آياتِ الله في كونِه، ومنها ما جاء ذِكْرُهُ في هذا الدَّرْس.

إنّ النظر في آياتِ الله الكونيَّة هو الحَلْقَةُ الأولى في سلسلة التفكير

الإيماني لمن رفضَ التسليم ببلاغات المرسَلين. إذْ آياتُ الله عزّ وجلّ الكونيّة دالاَّتٌ على الرَّبّ الخالق، وعلى طائفة من عظيم صفاته جلّ جلالُه، ومنْ آمَنَ بالله عزَّ وجلَّ وبصفاته فلا بدَّ أن يُدْرِك حكمَةَ الله الجليلةَ من الخلْقِ، ومن حكمتِهِ أنْ لا يخلُقَ الكونَ باطلاً، وأن لا يخْلُقَ الإنسانَ عبثاً، ولا شيْءَ يرفع احتمال العبث إلاَّ أن يكون قد خَلَقَ النّاس في ظروف هذه الحياة الدّنيا ليبلُوهُمْ بالإيمان والعمل، ثم ليحاسِبَهم، ويفصل القضاء بينهم، ويجازيهم، في حياةٍ أخرىٰ بَعْدَ حَياةِ الابتلاء الأولىٰ، وهذا يُوصِلُ المتفكّرين إلىٰ الإيمان بيَوْمِ الدّين.

ومن حكمَتِه بَعْدَ أن قَضىٰ أن يخْلُقَ الناسَ ليَبْلُوهم أنْ يُرسِلَ إليهم رُسُلاً مِنْهُمْ، يُبَيِّنُونَ لَهُم موادَّ امتحانهم، وما هُمْ مسؤولونَ عَنْه في حياتِهم لَدىٰ بارئِهم، وهٰذا يُوصِلُهم إلى الاقْتِناع بحكْمةِ إرْسَالِ الرُسُل، ولا يَبْقَىٰ أمَامَهُمْ إلاَّ التأكُّدُ من صحَّةِ دَعْوىٰ من يَدَّعِي أنَّهُ رَسُولُ الله، ويتحقَّقُونَ منْ صِدْقه بما خصَّهُ الله به من معجزة أو مُعْجزاتٍ تَشْهَدُ لَهُ بأنّه صادقٌ فيما يبلّغُ عن رَبّه، كمعجزة القرآن لمحمد ﷺ، وكمعجزاتِ موسىٰ وعيسىٰ عليهم الصَّلاة والسَّلام.

فالله عزَّ وجلَّ في هذا الدرس يُعيدُ الكافرين إلى الحلْقة الأولى من سلسلة التفكير الإيماني، ويُحمّلُهُمْ مَسْؤوليَّة النَّظَرِ التأمُّليّ في آيات الله الكونية.

ففي قوله عزّ وجل: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾؟ مع الاستنكار والتلويم حثٌّ على النظر التفكُّريّ، إذا لم يَسْبِقْ لهم أنْ نظروا هذا النظر.

﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾، أي: أفَلَمْ يَنْظُرُوا إلى هٰذه السَّماء العظيمة العجيبة، في الامتداد الّذي لا يُدْرِكون غايَتَهُ فَوْقَهُمْ.

السَّماءُ: تُطْلَقُ لغةً على كلّ ما ارتفع وعلا، أو كان في جهة الْعُلُوّ،

من فعْل «سَمَا يَسْمُو سُمُوّاً فهو سَامٍ» أي: ارْتَفَعَ مادّياً أو معْنويّاً، وسَمَاءُ كُلّ شيءٍ أعلاه، والسّمَاءُ سَقْفُ كُلِّ شيءٍ وكُلّ بيت، والسَّماءُ بهذا المعنى مذكّر.

أمّا السَّمَاءُ الّتي تُظِلُّ الأرض فهي مؤنثة عند العرب لأنّها اسم جنْسٍ جمعيّ مفرده سَمَاءة. وقال الجوهري: السماء تذكر وتؤنث. وكثُر في القرآن المجيد إطلاق لفظ «السّماء» على السَّحاب، وهو إطلاقٌ منطبق على مفهوم لفظ السماء لغة.

أقول: والغلاف الغازيّ المحيط بالأرض هو بالنسبة إليها سماء لغة، حتّىٰ القريب الملاصق لها. وكل مجموعة من المجرّات مترابطة بنظام في بنائها وحركتها وجاذبياتها هي سماء.

أما السماوات السّبع فَلا نستطيع تقدير حدود كلّ سماءٍ منها.

وقد يُطْلَقُ على المطر لفظ «السَّماء» لأنه يَنْزِل من جهتها، وهذا إطلاقٌ مجازي. من نوع المجاز المرسل.

﴿فَوْقَهُمْ﴾ حال من السماء، وهي حال مؤكّدة، وفائدة **[فوقهم]** شَدُّ أنظارهم إلى الارتقاء.

﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾، كيف: اسم استفهام يُسْتَفْهَمُ به عن حالة الشيء، وهو مبنيٌّ على الفتح في محل نَصْبٍ على أنّه هُنَا نَائب عن مفعول مطلق للفعل في ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ والتقدير: بنيناها بناءً ذا حالةٍ مُدْهِشَةٍ، جديرة بأن يستفهم عنها بإعجاب باسم الاستفهام «كيف» ووجب لغةً تقديمها في العبارة، لأنها استفهاميّة، ومعلوم أنّ الاستفهام له الصدارة. ويمكنُ إعرابُها بوجه آخر.

﴿بَنَيْنَاهَا﴾ يقالُ لغة: بَنَىٰ وابْتَنى. وبناء كلّ شيء يكون بحسب

الحاجة الداعية إليه، فبيوت العرب في البوادي تُبْنَىٰ من الجلود والأصواف والأوبار المنسوجة، ونحوها، وبيوت المدن والقرى تُبْنىٰ من الحجارة والآجُرّ والطين والجصّ والخشب والإسمنت والحديد ونحوها. والعنكبوت تبني بَيْتَها من خيوط دقيقة جدّاً تفرزها من غُدَّة في جسدها.

وتقول العرب: بنىٰ الطعامُ لَحْمَ آكله. أي: أَكْثَرَ لَحْمَهُ فَعَظُمَ من الأكل.

وجسم الكائن الحيّ بناء الرَّبّ جلَّ جلالُه، وهو مبنيٌّ من الخلايا، الّتي يتكوّنُ مِنْها العظم واللَّحم والشّحْم والأعصاب وتُوَزَّعُ في الأعضاء، بمقتضى حكمة الله.

فبنَاءُ السَّمَاء ينبغي أن يكون بحسَب نظام التماسك بين أجرامها. والغلاف الجوّيُّ المحيط بالأرض مبنيٌّ كما هو مشاهدٌ من الغازات. والمجرّاتُ مبنيَّةٌ كما هو مشاهد بالمناظير والمجاهر لعلماء الفلك الرّاصدين من النجوم والكواكب، وتماسُكها حاصل بقانون الجاذبية التي جَعَلها الله فيها.

وقد تكون مَجْمُوعةُ مجرّاتٍ مترابطةٍ بنظامٍ فيما بينها إحدىٰ السّماوات السَّبْعِ الكبرى، والله أعلم.

ونترك للبحث العلميّ الإنساني ما يتوصّلُ إليه في هذا المجال، بشرط أن يكون ما يتوصّلُ إليه علماً يقينياً بأدلَّة مقطوعٍ بها.

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ التزيينُ التجميلُ والتحسين، وقد زيَّنَ الله عزّ وجلّ السَّماء بالنُّجوم والكواكب، وقد يكون تزيين الشيء بجعل بعض أجزائه زينة له. وقد اقتصر النصّ هنا في سورة (قٓ) على ذكر التّزيين، دُونَ بيان الأشياء الّتي زُيّنَتْ بها السّماء.

ولكن جاء بيان هذا في نجوم التنزيل الّتي نزلت بعد سورة (قٓ) ونجد

في القرآن المجيد نصوصاً خمسة حول تزيين السَّماء للنّاظرين في الأرض، وهي نصوص متكاملة الدلالات فيما بينها وفق المنهج القرآني.

النص الأول: هو هذا النصّ الذي نتدبّره من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

النص الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿بُرُوجًا﴾ البروج منازل الكواكب والنجوم السَّيَّارة، وأصل معنى البروج في اللّغة: القصور العالية المشرفة المتطاولة في السماء.

وقد أضاف هذا النّصّ ذكر «البروج» وهي منازل حركة النجوم والكواكب، وهذه المنازل تمثّل جزءاً من الزينة العامة. وأضاف أيضاً أنّ هذا التّزيين إنما هو للناظرين، الذين يُدْركون بحاسة النظر الجماليات الّتي تُدْرَكُ بالأبْصار، والبشَرُ هُمُ المقصودون الأوّلون بهذا التزيين.

النصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

فأضاف هٰذا النّص بيان قضيَّتَيْن:

الأولى: أنّ التزيين للناظرين هو للسّماء الدنيا بالنسبة إلى سكان الأرض.

الثانية: أنّ من الأشياء التي يحصُل بها التزيين منثوراتِ الكواكب، مع ما لها من وظائف أخرىٰ، ومنها أن تكون أدوات حفظ، تحفظ أهل الملأ

الأعلى من أن تقترب منهم الشياطين، فيتسمّعوا منهم الأنباء من المقادير الرّبانيّة لِيَنْقُلوها إلى قُرنائهم من الإنس.

وهي الّتي تَهْوِي منها الشُّهبُ في اتّجاه الغلاف الجويّ فتلتهب، ثم تهوي في اتّجاه الأرْض أسهماً ناريّة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، أي: ولهم عذابٌ دائم غير الاحتراق بالشهب التي تُصِيبُهُم.

النص الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلَت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول).

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١١﴾﴾.

فأضاف هذا النصُّ بيان قضيتين:

الأولى: وصف الأجرام التي جعل الله تزيين السّماء الدنيا بها، بأنها تُشْبِه المصابيح، سواءٌ أكانت نجوماً ملتهبة، أم كواكب عاكساتٍ للنور.

الثانية: أنَّ كُلًّا من التَّزيين والحفظ من الشياطين قدْ تَمَّ بتقدير الْعَزِيز الْعَلِيم.

العزيز: أي: القويّ الغالب الذي لا يُغلب.

العليم: أي: الواسع الْعِلْم.

النصّ الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول).

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

[**رُجوماً**]: **الرُّجوم**: ما يُرْجَمُ من حجارة وغيرها، مفردُها «الرَّجْم». وقد أضاف هذا النَّصّ دَلالاتٍ ثلاثاً.

الأولىٰ: تأكيد أنّ الله جَلّ جلاله بعظمة ربُوبيته وسُلطانه زَيَّنَ السَّماء الدنيا بمصابيح بعبارة **[لقد]**.

الثانية: أنّ حفظ السماء من الشياطين يكون برَجمِهم بما زَيَّنَ به السَّماءَ الدُّنيا من مصابيح.

الثالثة: أنّ العذاب الْوَاصِبَ الدّائم الذي أعَدَّهُ الله لهم هو عذاب السعير في جهنم.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا ﴾.

الفروج: الشُّقُوقُ المفتوَحة، والمنافذ الّتي تكون بانفصام الالتحام بين عناصر الشيء الذي له وحدة كُليَّةٌ متماسكة.

والسَّماءُ بنظامها المتماسِك خاليةٌ من الشقوق والمنافذ، الّتي تيسّرُ دُخُول أشياء قضىٰ الله بنظامه العامّ لها أن لا تدخُلَ فيها، أو تُعَرِّضُ تماسُكَها لحُدوث خلَلٍ فيه يُفسِدُ نظامها.

وتَمَاسُكُ كلّ شيءٍ يكون بحسب نظامه، وشقوق كلِّ شيءٍ تكون بحسبِ نظامه، والفروج تكونُ في كلِّ شيءٍ بحسب نظامه.

إنَّ تماسُكَ أجرام المجموعة الشمسيّة بقانون الجاذبيَّة الرَّبَّاني، ليس فيه شقوقٌ ولا فروج ـ ولو كان فيه شيء من ذلك لاخْتَلَّ التماسُكُ والتجاذُبُ بينها، ولحدث فيها فسادٌ في أبعادها وفي مداراتها، وفي أبراجها، ومن شأن هذا الفساد أن تبتلِعَ الشَّمْسُ مَجْمُوعَتها، أو تضل أجرامٌ منها في أبعاد فسيحة من مَجَرَّتها، فتلتحقَ بنجومٍ أخرىٰ، أو تبتلِعَها نجومٌ أخرىٰ.

إنَّ الفروج في النباتات تفطُّرات وتشقُّقَات في أجرامها بحسب

مقاديرها. وإنّ الفروج في الأجساد فَتَحاتٌ فيها، وإنّ الفروجَ في الأرض وفي الجبال شقوقٌ قد تكون عظيمة جدّاً، تنشأ عنها في الجبال وِدْيان سحيقة، وفي سائر الأرض بحارٌ عظيمة، وإنّ الفروج في الغلاف الغازيّ المحيط بالأرض تشقُّقاتٌ إذا حَدَثَتْ وصَلَتْ إلى الأرض أشعَّةٌ شديدة الخطر والضرر على الأحياء والنباتات، من الشمس ومن أشعة كونيَّةٍ أخرى، وسبق أن عرفنا أن الغلاف الغازي المحيط بالأرض يطْلق عليه في اللّغة سماء.

وهنا أتساءَلُ: هل يَصْلُح أن يكون هذا الغُلاف الغازي هو المراد بالسَّماءِ الدُّنيا، مع دلالة قوله تعالى في الآية: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ لأنّهُ هو المحيط بهم من فوقهم، إذْ لو لَمْ تَكُنْ لهذه الفوقيّة دلالةٌ خاصّة لكانت من فضول القول، فكُلُّ السّماوات هي فوق الناس الساكنين في الأرض والله أعلم؟؟ وسبَقَ بيان أنّ عبارة ﴿فَوْقَهُمْ﴾ تفيد شدّ أنظار الناس إلى الاتقاء عن مواطئ الأقدام، إلى ما فوق الرؤوس من أبعاد.

قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾، أي: جعلْنَاها ذاتَ امْتِدَاد في بُعْدَيْن مُتَقابِلين، كتَمَدُّدِ السّقاء، وهو ظَرْفُ الماء المتَّخَذُ من الجِلْد، وهو ما يُسمَّىٰ بالقِرْبة.

ويقال لُغَةً: تمدَّدَ الرَّجُلُ، أي: تَمطَّىٰ وتطاول، وأصْلُ المدّ في اللّغةِ الجذْب.

وقد يكون المرادُ أيضاً بمَدِّها مَدَّها بالخيرات، والمعادن وموادّ الخِصْب، والعناصر النافعة للعباد.

تقول لغة: مَدَدْتُ الأرض مدّاً، إذا زدْتَ فيها تراباً أو سماداً من غيرها، ليكون أعْمَر لها وأكثَر رَيْعاً لزَرْعها.

ويقال في اللّغة للرّمَال وللسَّمادِ: مِدَادُ الأرض.

ومنه يقال لما يُرْسَلُ من محاربين للجيش المقاتل: مَدَد.

وواقع حال الأرض الّتي جعلها الله عزّ وجلّ دار سكنىٰ الناس في الحياة الدنيا، يَشهدُ بأنّها مَتَمَدِّدَة كَتَمَدُّدِ السّقاء، وأنّ الله جلّت حِكَمُه وعظمت نِعَمُه، قد أمدّها بعناصر وفيرة لرزق العباد ومنافعهم.

والتدبُّر الأمثل يَدْعو إلى حَمْل اللّفظ على مَعْنَيَيْه، فكلٌ مِنْهما يَدُلُّ عَلَىٰ إتقان صُنْع الله، وكمال حِكْمته، وعَظيم رحمته وعنايته بعباده.

قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، أي: وألْقينا في الأرض جبالاً ثوابت رواسخ ثَبّتَتْ قِشْرتَها.

يقال لغة: رَسَا الشيءُ يَرْسُو رَسْواً ورُسُواً، أي: ثبت. ويقال: رسا الجبَلُ، أي، ثبت أصْلُه في باطِنِ الأرض.

وكلمة ﴿رَوَاسِيَ﴾ هي في الأصل صفة لموصُوف محذوف، هي الجبال، ولكثرة استعمالها صفة للجبال استغني عن ذكر الموصوف، ونُزِّلَت الصّفة منزِلَتَهُ في أصل الدلالة، مع زيادة معنىٰ الثبوت والرُّسوخ.

ولعلَّ في كون الجبالِ مُلْقَاةً إلْقَاءً إشَارَةً إلىٰ أنَّ الأرض كانت مُمَدَّدَة كالسّقاء، ثُمَّ حصلَتْ فيها تفجُّرات بركانيَّة، نجم عنها ترامي حُمَم بُركانيَّة في الجو، وأُلقِيَت هذه الْحُمَم في الفجوات الّتي أحْدَثَتْها البراكين العُظْمىٰ، فكانت الجبال الرَّواسي.

ما جاء في القرآن بشأن امتنان الله على عباده في الأرض بالجبال الرواسي:

نطالع في القرآن المجيد أحد عشر نَصّاً يمتَنُّ الله فيها على عباده بالجبال الرواسي، عشرةٌ منها مكيّة، والحادي عشر منها مدني، وهي ما يلي مرتبة بحسب ترتيب نزول سورها:

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) في معرض الحديث عن الأرض:

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾

فوصَف الله في هذا النصِّ الجبال بوصفين لها: وصف الرُّسُو، ووصف الشموخ، وهو العلوّ والارتفاع.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) الّتي نتدبَّرُها في معرض الحديث عن الأرض: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾.

فأضاف هذا النّصُّ فِكْرَة الإلقاء، الذي يشير إلى كيفيّة تكوين الجبال.

النص الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول).

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

فجاء في هذا النّص ذكْر الجبال الرواسي، ضمن تعليم جدليّ لمناظرة المشركين، حول توحيد الرُّبوبيّة، الذي يلزم عنه عقلاً توحِيدُ الإلهيَّة لله جل جلاله.

والمناظرة قائمة على طرح أسئلة على المخالف، رغبةً في انتزاع اعترافه بأنّ الرُّبوبيّة لا يُشارِكُ الله فيها أحد، إذَنْ فهو الذي يجب عقلاً أن تكون له وحْدَه العبادة، إذْ لا إله إلاّ هو، وهذا هو اللازم العقليُّ الأول لكونه لا رَبَّ في الوجود سواه.

النص الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾﴾.

جاء هذا النَّصُّ ضِمْنَ عَرضٍ طائفَةٍ من آياتِ الله عزَّ وجلَّ في كونه، ونِعمِهِ على عباده فيها، مُعالَجةً للكافرين بإقامَةِ الأدلَّة لهم عَلَىٰ عَظَمَةِ

رُبُوبيته، وعلى فيوض نِعَمِه عليهم رحْمَةً بهم، عَسَىٰ أن يؤمن منهم من لديه استعداد للانقياد والعبادة والطاعة.

وجاء فيه ذكر إلقاء الرواسي في الأرض باعتبارها إحدى آيات الله في الأرض، الدالّة على ربوبيته ورحمته ونعَمه على عباده.

النص الخامس: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، أي: مِنْ كُلِّ صنف من أصناف الثمرات ذي صفات حسَنة نافعة طيّبة.

وأضاف هذا النّصّ بالنسبة إلى الجبال الرواسي بيان وظيفة كونيّة من وظائفها، وهي مَنْعُ قِشْرَةِ الأرض من أن تَميدَ بمَنْ عليها. ماد الشيءُ. يَمِيدُ، مَيْداً، ومَيَدَاناً، أي: تحرَّك واضطرب.

النص السادس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) في معرض الحديث عن الأرض ضمن تعليم جَدَليّ يُناظِرُ به الداعي إلى الله المشركين.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصّ بالنسبة إلى الجبال الرَّوَاسِي، بيان كون هٰذه الرَّواسِي من فَوْقِ الأرْض، للدلالة على أن ارتفاع مقادير عظيمة مِنْها فوق سَطْحِ الأرض ذو نفع عظيم للناس.

النص السابع: قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠

نزول) حديثاً عن الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥ وَعَلَٰمَٰتٍۚ . . .﴾.

فأضاف هذا النّصُّ أن من فوائد الجبال الرواسي أنّها بمثابة علامات يَهْتَدي بها الناس في أسفارهم وتنقلاتهم، وكذلك الأنهارُ والسُّبل.

النّصّ الثامن: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول).

﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣١ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًاۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ۝٣٢﴾.

وهذا النّصّ جاء فيه الحديث عن الكافرين الغائبين، ولم يواجِهْهُمُ الله فيه بالخطاب. وجاء فيه بيان أنّ الرواسي إحدىٰ آيات الله في كونه، وأنّ الكافرين معرضون عن آيات الله. وهذه إضافات أسْلُوبيّة وفكريّة.

النَّصُّ التاسع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول).

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾.

أوتاد: جَمْعُ «وَتَدٍ» وهو الْعُود الّذي يُدَقُّ في الأرض لتَثْبِيت الخيمة به، أو لربْطِ عِنَانِ الدابة به.

فأضاف هذا النصُّ بيانَ أنّ الجبال في الأرض تُشْبِهُ الأوْتَاد لها، لما فيها من تثبيت، وأضافَ أنّ الجبالَ يَدْخُل منها قِسْمٌ عظيم في الأرض، كما يَدْخُلُ الوتد، فقِسْمٌ منها فوق الأرض كما جاء في النصّ السادس، وقِسْمٌ منها مَغْمُوسٌ في الأرض كحال الأوتاد.

النصّ العاشر: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف ٨١ نزول):

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾.

فأضافَ هذا النص بيانَ أنّ أحداث دَحْوِ الأرْضِ، وإخراج الماء والمرعى، وإرْساءِ الجبال، قد كانت بَعدَ رَفْع سَمْكِ السماء وتَسْوِيتها، وإغْطاشِ لَيْلِها وإخراجِ ضحاها.

النصّ الحادي عشر: قول الله عزّ وجل في سورة (الرعد/١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصُّ عِدَّة بيانات تتعلّق بالثمرات، والزوجيّة فيها، وأنّ النهار هُوَ الذي يغْشى اللّيْلَ فَيَسْترُهُ.

أمّا الإضافة المتعلّقة بالجبال مع تعلّقِهَا بغيرها من آيات الله، فهي أنّ الذين يتفكّرونَ هم الّذِين يُدْرِكُونَ ما في الظواهر الكونية من آيات الله الدّلاّت على صفاته الجليلة.

التعليق:

إنّ إلقاء الجبال الرواسي في الأرض لتثبيت قشرتها نِعْمةٌ عظيمةٌ، وعنايةٌ من الرَّبّ الخالِقِ بسُكّان الأرض جسيمة، ولا يَعرِفُ قيمتَها إلاّ الّذِينَ يَتَعَرَّضُونَ للزّلازِلِ المدمّرَةِ في مواضع من الأرض، ولولا الجبالُ لظلّت الزلازلُ والتّشقُّقات في الأرض وظاهراتُ الخَسْفِ تتوالَىٰ على سُكّان الأرض مُهْلِكاتٍ ومُدَمّرات ومُريعات.

فلا عجب أن يوجّه الله عزّ وجلّ للتفكُّر في ظاهرة الجبال الراسيات، ويمتَنَّ على الناس بها في أحد عشر نصّاً مع ما في الجبال من فوائد أخرى عظيمة، غَيْرِ تثبيت قِشْرَةِ الأرض، فهي خزّاناتُ مِياهِ الأنهر والعيون، وهي

مستودعات كنوز كثيرة من كنوز الأرض ـ وعليها تُبنىٰ القلاع والحصُون والمساكن المحميّة المشرفة الطيّبة الرياح، إلى غير ذلك من منافع كثيرة.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ أي: وأنبتنا في الأرض من كلّ صِنفٍ وكُلّ نَوعٍ ممّا تُنبت الأرض من نباتٍ بهيجٍ.

الزّوج: يُطْلَقُ في اللُّغة على الصنفِ من كلّ شيء، وهذا هو المراد هنا. ويُطْلقُ على ما يقابل الفرد ـ وكُلُّ شيئين مقترنين هُما زوجان ولو كانا مختلفين غير متشاكلين.

بَهِيج: أي: ذي بهجَة. **البَهْجَةُ**: الحسْنُ والنضارة والجمال. يُقال لغة: بَهُجَ الشَّيْءُ بَهْجَةً وبَهَاجَة وبَهَجاناً فهُو بَهِيجٌ، إذا كان ذا حُسْنٍ ونضارةٍ وجمال.

فدلَّ هذا البيان الرَّبَّانيُّ على أنّ الجمال في الكون أمْرٌ مقْصُودٌ في نظام الخلْق وخُطَّتِه. فَكَما زَيَّنَ الله عزَّ وجلَّ السَّماء الدّنيا بمصابيح مضيئةٍ أو مُنِيرَة، مع الغاية النفعيَّة منها، أنبت في الأرض من كلّ صنف أو نوع من النبات ما هو بهيجٌ حسَنٌ نضِرٌ جميل، للامتاع بجماله مَعَ ما فيه من رِزْقٍ أو نَفْعٍ آخر للعباد.

قول الله تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ۝٨﴾.

بعد توجيه الأنظار إلى آيات الله في السَّماء، وبعْضِ آياته في الأرض، وامْتِنانِ الله على عباده بما فيهما من منافع لهم، في حياتهم الدنيا، وما فيهما من امتاع جمالي، وجَّهَ الله عزّ وجلّ أنظار الناس لِمَا فيهما من هداية ذوي الألباب والعقول المتفكرة الواعيَة إلى قضايا الإيمان الكبرى، الّتي هي أولىٰ الواجبات الدينيَّة التي يُطالَبُ بها المكلّفون الموضوعون في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

إنّ هذه الآيات الرَّبانيَّة ذاتُ وظيفةٍ دُنيَويَّةٍ للنَّاس، وذاتُ وظيفَةٍ دينيَّةٍ لهم، إذ تهدي أولي الألباب منهم ابتداءً إلى ما فيها من دلالات إيمانية، على طائفةٍ جليلةٍ من صفات الرّبّ خالِقِها والمهيْمن عليها دواماً بربوبيته، ثم إلى الإيمان بيوم الدّين وتصْديق المرسلين المؤيّدين منه بالمعجزات الباهرات. وتُذَكّرُ دواماً بما دلَّتْ عليه ابتداءً.

هذا ما دلّت عليه عبارة: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾.

فالتبْصِرَة: هي التعليم والتفهيم ابتداءً، لمن يُدْرِك دَلَالَاتِها، يقال لغة: بصَّرَهُ الأمْرَ تبصيراً وَتَبْصِرَةً، أي: أفْهَمَهُ إيّاهُ، وعرَّفَه به وأوضحه له. **والتَّبصُّر**: التأمُّلُ والتعرُّف. **والتَّبْصِيرُ**: التعريف والإيضاح.

وهكذا آياتُ الله في كونه، تُعلّم وتُفَهِّمُ أُولي الألباب، الذين يرجعون إليها متفكّرين متدبِّرين.

والذِّكْرَى: التذكير بالشيء، يقال لغة: أذْكَرَهُ إيّاهُ، وذكَّرَهُ، والاسم من هذا «الذِّكْرَىٰ».

وآيات الله في كوْنه تكونُ مُشاهداتُها المتكرّرات بعد التعليم الأوّل، ذِكرىٰ، أي: تذْكيراً مُتكرراً بما سَبَقَ أن عَلَّمَتْهُ أوّلاً.

مع ما في آيات الله الكونية من تجديدٍ تعليميٍّ، وذلك أن المتفكّر اللَّبيب كُلَّما كرَّر نظره إلىٰ آيات الله الكونيَّة بإمعان استفاد عِلْماً جديداً لم يكن قد توصَّل إليه بالمشاهدات السَّابقات، وهذا الأمر يظهر بجلاء لأهل البحث العلمي، الذين يَتَعمّقُون في دراسة الظواهر الكونيَّة، وكلّما اكتَشَف هؤلاء جديداً زادهم هدايةً لاسْتبْصارٍ مُدْهش يتعلّق بصفات جليلةٍ من صفات الخالق البارئ المصوّر الحكيم، الذي أتْقَنَ كلَّ شيءٍ صُنْعاً.

ولكن مَنِ الّذي ينْتَفِعُ بالتَّبْصِرَة وبالذِّكرى؟

النَّصُّ يجيب ببيانه على هذا السُّؤال بقول الله عزَّ وجل: ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾.

﴿مُّنِيبٍ ﴾: اسم فاعل من فعل «أناب يُنيب» أي: رجع وتاب. وبالتفكّر نُدْرِكُ أنّ كُلَّ عَبْدٍ قد خَلقَهُ ربّه مُنْذُ فَطَرَهُ، على الإيمان بالحقّ في مشاعره الوجْدَانيَّة متىٰ أدْرَكه، وأعظم حقٍّ في الوجود الربُّ الخالق البارئ وصفاته الجليلة.

ثم يبتَعِدُ العبْدُ عن مشاعر الإيمان بربّه، مُتَّبعاً أهواءه وشهواتِه وزُخْرفَ الحياة الدنيا، وقد يَضِلُّ في تيهها وتجتالُه الشياطِين، فيكُونُ بذلك عبداً آبقاً.

وحينَ يَعْزِمُ على الرُّجوع إلى مَوْطن عبوديّته الإراديَّةِ، ويُحَقِّقُ ذلك بالرُّجوع الفِعْليّ، وهي الإنابَة، عندئذٍ يكون مُنيباً، أي: راجعاً إلى موطن عُبُودِيَّتِه الإراديَّة الاختياريَّة، وحينئذٍ تَلْفِتُ نظره آيات الله الكونيَّة، فتكونُ له تَبْصِرَة وذِكرى.

هٰذه المعاني قد أوجزها النصُّ عن طَريق اختيار الكلمات ذَوَاتِ الدّلاَلاَتِ المطابقيّة، وذَوَات الدّلالاتِ اللُّزوميَّة التي يكشِفُها التفكّر والتّدبُّر، من خلال التعمق في فهم النَّصّ، بَعْدَ عرض طائفةٍ من آيات الله في كونه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾.

فما أبدع هذا البيان، وما أوجزه وأكْثَرَهُ دقَّة وعُمْقاً وامْتِداداً.

وتطبيقاً لأسلوب التكامل البيانيّ في القرآن نستطيع أن نقول: إنَّ كُلَّ نصٍ قرآنيّ جاء فيه عَرْض آية أو أكثر من آيات الله في كونه يَصْلُحُ لأن يقال في آخره: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ فإيرادُهُ في نَصّ منها يُغني عن إيراده في سائرها، ولكن لا نجْعله قرآناً يتلىٰ، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن القائم على التكامل في الأداء البياني.

● قول الله عز وجل:

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

● ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ هذه الجملة معطوفة على الجُمَل السابقة في هٰذا الدَّرس، التَّنْزِيل كالإنْزَال، هو الإهْبَاطُ مِنْ عُلْوٍ إلىٰ سُفْل، وفِعْلُ: «**نَزَّلَ**» مثلُ فعل «أنْزَل» والتعدية بالتضعيف، كالتعدية بالْهمز، وقد يَدُلُّ الفعل المضعَّف على تكثير الإنزال أمّا فعل: «أنزل» فيدلُّ على الإنزال مطلقاً دون إرادة التكثير، وهما حالتان لإنزال المطر.

● ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السّحُب الّتي يُطْلق عليها لغة اسم السّماء، كما سبق بيانه، والمشاهدة تُثْبِتُ أنّ المطر يَنْزل من السَّحاب.

فلفظ السَّماء يُحْمَل في كلّ مَوْضعٍ على ما يلائمه.

● ﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي: ماءً فيه زيادةُ نَفْع وخير، فالبركة في اللُّغة: النماء والزيادةُ والكَثْرَةُ من الخير.

إنَّ الماءَ من أجَلِّ نِعَم الله على الأحياء في الوجود، وقد جعلَه الله عزّ وجلّ في الأرض غزيراً وفيراً، وما على الناس إلاَّ أن يُحْسِنوا الانتفاع منه، بإجرائه، وتوجيهه، واستنباطه، وجمعه وتحليته واستغلاله وعدم الإسراف والتبذير به، ولو كان من أجل الطهارة الشرعية.

وقد وصف الله الماء الذي يَنْزِل من السماء في هذا النصّ بأنّه مبارَكٌ، ووصفه في موضع آخر بأنّه طَهورٌ، أي: طاهر في نفسه مُطَهِّرٌ لغيره أخذاً من صيغة «فَعُول» التي هي من صيغ المبالغة والتكثير.

● ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾: الإنْبَات ظاهرةٌ مشهودة، لا تكونُ في الأرض إلاّ بوَسِيطٍ هُوَ الْمَاءُ، الذي تَنْحَلُّ فيه العناصر الغذائيّةُ الموجودةُ في

التراب، فتختلط به، فتمتصُّ الجذور الماءَ وما اختلطَ بِه، ويكون ذلك غذاءً للنبات فينمو.

وكلُّ الماء الْحُلْوِ في الأرض قد جاءت تَحْلِيَتُه عن طريق التبخُّر، وتَكَوُّنِ السُّحب، ونزول الأمطار.

فَمِنَ الْمَاءِ الَّذِي نَزَلَ أو يَنْزِلُ من السَّماء يَنْبُتُ النَّبَاتُ، ضِمْنَ سُنَنِ اللَّهِ السبَبِيّة، وَلَوْ أَخْذناه من العيون، أو الأنهار، أو الآبار، أو مُذاب الثُّلوج.

وظاهرة الْإِنْبَاتِ حركةُ إِنْشَاءٍ مُتَدَرِّجٍ، فذِكْرُ الإنْباتِ يُغْنِي عن ذِكْرِ الإنشاءِ المتدرِّج.

ولفْظُ الإنْبَاتِ ينطَبِقُ علىٰ كلّ حَرَكةِ نُمُوٍّ مَهْمَا صَغُرَتْ عَنْ إِدْرَاكِ النَّظَر، مَعَ أصْغَرِ وَحَدَاتِ الزَّمَنِ، فاللَّهُ عزَّ وجلّ هُو المنبتُ دواماً مُنْذُ تَحَرُّكِ الخلِيَّةِ الأُولَىٰ الموجودة في نَوَاةِ الْبِزْرَةِ، حتَّىٰ اكْتِمَالِ الشَّجَرَةِ العظيمة، وكُلُّ ثَمَرَةٍ تَنْمُو فيها، وكُلُّ ورَقَةٍ تَنْمُو فيها، إنَّما تنمُو بإنْباتِ من اللَّهِ، وهو يَدْخُلُ في عُموم قَوْل الله عزّ وجلّ ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾.

﴿جَنَّٰتٖ﴾: أي: أشجاراً مختلفَةَ الأنْواعِ، تَتَكَوَّنُ مِنها جَنَّاتٌ.

الجنّات: هي الحدائقُ والبساتينُ المكتظَّةُ بالأشجار، فهي ساترةٌ لِمَا تَحْتَهَا، وأصْل مادّة «جَنَّ» تدور حول السَّتْر بشَيْءٍ ساتِرٍ، «جنّاتٌ» جمْعٌ مفرده «جنَّة».

● ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾: أي: وأنْبَتْنَا بِه زُرُوعاً مختلفة، تُعْطِي عنْدَ نُضْجِها واسْتِحْصَادِهَا حبًّا، فيهِ نَفْعٌ للنَّاسِ وسائر الأحياء على الأرض، وتكوُّنُ الحبِّ نَفْسِه إنَّما يكونُ عن طريق الإنبات أيضاً.

الحبُّ: اسم جنْسٍ يشْمَلُ كُلَّ الحبُوبِ والْبُزُور الَّتِي تُنْتِجُها الزُّرُوع.

الْحَصِيد: هو المحصُودُ من الزَّرْع،أي: المقطوع بالمِنْجل أو نَحْوِه، لِيُدْرَس، أو يُدَاسَ، ويُفْرَزَ مِنْهُ حبُّه، ويُكسَّرُ قَشُّهُ حتَّىٰ يَكُونَ تِبْناً عَلَفاً للدَّواب، أو يُنْتَفَعُ به في منافِعَ أخْرَىٰ.

فَحَبُّ الْحَصِيدِ: هُوَ حَبُّ الزَّرْع المحصُود.

فدلَّ هذا على أنّ كمَالَ نُضجِ الحبّ إنّما يكون حينما يَصِيرُ الزَّرْعُ صالحاً لِأنْ يُحْصَد، وذلك باصْفِراره، ويُبْسِه، وذَهاب خُضْرَته ونضرته.

- ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾.

النّخْل: اسم جنس جمعي، واحدته «النخلة» وشجر النّخل معروف يُثْمِرُ البلح الذي يصير تمراً، و(ال) في [**النَّخْل**] للتنويه بهذا النوع من الشجر وكثرة منافعه.

﴿بَاسِقَٰتٍ﴾: أي: طِوالاً مُرْتفعاتٍ في جوّ الأرض، ذوات سيقان طويلة، واللفظ منصوبٌ على الحال.

تقول لغة: بَسَقَ الشيء يَبْسُقُ بُسُوقاً، إذا طال وارتَفَع وعلا.

﴿لَّهَا طَلْعٌ﴾: قال صاحب القاموس المحيط: الطَّلْعُ من النَّخْلِ شيءٌ يَخْرُجُ كأنّه نَعْلَانِ مُطْبَقَان، والْحَمْلُ بَيْنَهُما مَنْضُود.

﴿نَّضِيدٌ﴾: أي: منضود، والمنضودُ هو الذي تراكب بعضه على بعض باتساق. يقال لغة: نَضَدَ مَتَاعَهُ يَنْضُدُهُ، ونَضَّدَهُ يُنَضِّدُهُ، إذا جعل بعضه فوق بعض باتِّسَاقٍ ونظام. فهو مَنْضُودٌ، ونَضِيدٌ، ومُنَضَّدٌ.

وهكذا واقع حال طلع النخل، متراكبُ الحبّ بعْضُه فوق بعْضٍ باتِّسَاقٍ وانتظام.

ولا يخفى ما في هذا البيان من لفت الأنظار إلى الظاهرات الجمالية في خَلْق الله، فلبُسُوقِ النخل ولِتَرَاكُبِ الطَّلْع بانتظام جمالٌ يُمتع الناظرين.

● ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾: **الرِّزْق**: كُلُّ مَا يُنْتَفَعُ به من مأكولٍ، ومشروب، وملبوس، وغير ذلك، وقد يُطْلَقُ على ما هو سبَبٌ أو وسيلة لذلك إطلاقاً مجازيًّا، وبكثرة الاستعمال قد يصير مثل الحقيقة: كالعطاء، والرواتب من النقود.

والرَّزْق: بفتح الراء مَصْدَرُ فعل «رَزَقَهُ يَرْزُقُهُ رَزْقاً».

العباد: أُطْلِقَ لفظ الْعَبْدِ والْعِبَادِ والْعَبِيدِ في القرآن على الإنْسِ والجنِّ والْمَلَائكةِ، ومنه قول الله عزّ وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول).

﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾.

إذ هم مخلوقون له فهم مملوكون له، فكلُّ حيٍّ قابل لاكتساب العلم يُطْلَقُ عليه لفظ «عَبْدٍ» بهذا المعنى.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾: أي: أَنْبَتْنَا في الأرض من كلّ زَوْج بهيج، وأَنْبَتْنَا جنَّاتٍ وحَبَّ الْحَصِيد، وأَنْبَتْنَا النخل باسقاتٍ لها طَلْعٌ نضيدٌ، واتَّخَذْنا الأسْبَابَ التي جعلناها في التنظيم العامّ أسْباباً نُجْرِي من خلالها الأشياء الّتي قَدَّرْناها وقَضَيْنَاها، لأجل رزْقِ العباد كلّهم في الأرض، من كَانَ منهم مُنِيباً أم آبقاً، مؤمناً أَمْ كافراً، فحيَاةُ الامتحانِ لا بُدَّ أَنْ يكونَ الرزق فيها لجميع الممتَحَنين محسنِهم ومُسِيئِهِمْ، مؤمنِهم وكافِرهم، ضمن نظام الحكمة العامَّة.

﴿رِّزْقًا﴾: مفْعُولٌ لأجْلِه، فهو منصوب لذلك.

وتطبيقاً لأسلُوبِ التكامُلِ الْبيَانيِّ في القرآن المجيد، نستطيع أن نقول: إنَّ كُلَّ نصٍّ قُرْآنِيّ جَاءَ فِيهِ عَرْضُ ظاهرةٍ أو أَكْثَرَ ممَّا فِيهِ رِزْقٌ هيَّأَهُ الله لعباده في الأرض، يَصْلُحُ لأنْ يقال في آخِره: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ كما جاء في هذا النَّصّ قياساً مَطِرداً دون أن نجعله قُرآناً يتْلَىٰ، لأنَّ إيراده في نصٍّ مِنْها يُغْنِي عن إيرادِه في سائرها.

فما ذكَرَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في هذا النّصّ يَصْلُحُ تَعْمِيمهُ فكريًّا علَىٰ سائر النّصوص، وهذا من بديع الإيجاز في القرآن. القائم على التكامُلِ في الأداء البياني.

فيالروعة الأداء البيانيّ الْبَدِيعِ في القرآن المجيد، مع مطابقة الحقّ والواقع.

وظيفتا آيات الله في كونِه ونِعَمِه على عبادِه:

لقد دلّنا التدبُّرُ المتأنّي على أنّ اللهَ عزّ وجلّ قد جعَلَ آياتِه في كَوْنِه، ونِعَمَهُ علَىٰ عباده، ذَواتِ نوعَيْن من الوظائف:

النوع الأوّل: الوظائف التي تكونُ لمصالح الدُّنيا، وهذه الوظائف يَنْتَفِعُ بها كُلُّ مَنْ يتَّخِذُ الوسائل للانتفاع بها، مؤمناً كان أمْ كافراً، تقيًّا كان أم فاجراً.

النوع الثاني: الوظائف الهاديَةُ بدلالاتها إلى الله عزَّ وجلَّ، وصِفَاتِهِ الْجَلِيلة، والمُبَصِّرَةُ بحِكْمَةِ الله والغاية من خلْقِ الناس، وأنّ على العباد أن يُؤْمِنوا بربّهم ويَعْبُدُوه. ثُمَّ المذكِّرَةُ بكُلِّ ذَلِكَ كُلَّما نظر إليها الناظِرُونَ بتفكُّرٍ وتَدَبُّر.

فهي وظائفُ لمصَالح الآخِرَة، أمّا المنتفعون بدلالاتها الّتي تحقّقُ مصالح الآخِرةِ فَهُمْ كُلُّ عَبْدٍ مُنِيبٍ إلى رَبّه غير آبِق.

❁ ❁ ❁

- قول الله تَعالى:

﴿.. وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

أي: وأحيَيْنا بالماء المبارك الذّي نَزَّلْنَاهُ بَلْدَةً مَيْتاً، فَنما فيها النَّبَاتُ ذو الخُضرة والنُّضْرَةِ والثمرات النافعاتِ المختلفَاتِ، بَعْدَ أنْ كانَتْ الأرْض تُرَاباً

قد تفرَّقَتْ فيه ذَرَّاتُ النباتات الّتي كانت قَبْلَ حينٍ مالئةً سَطْحَ الأرض بالخضرة والنضرة والحركة والنماء، وتفرَّقَتْ فيه بزورها حاملاتٍ خرائطَ تكوينها، وبرامجَ عودتها إلى ما كانت أُمَّهاتُها عليه، وخصائِصَ نَشْأتها ثانياً وثالثاً وإلى ما لا نهاية له، على الصفات الّتي تمَّتْ بها نَشْأَتُهَا الأولىٰ.

الْبَلْدَةُ، والْبَلَدُ: المكان الواسع من الأرض، وقد يُلاحَظُ فيهما المكان المأهُولُ بالسُّكّان المحْتَاجين لنباتات الأرض وثمراتها.

وقد جاء في اللّغة لفظتا: «بَلَدٍ» بالتَّذكير، و«بَلْدَةٍ» بالتأنيث، للدّلالَة على كلّ قطعة أرضٍ ذَاتِ حُدُودٍ ما، سواءٌ كانت عامِرَةً أمْ غير عامرة، سكونَةً أَمْ غَيْر مَسْكُونَة، وتُطْلَقان على التراب، ويُطْلَقُ لفظ «الْبَلْدة» على الأرض، تقول العرب هذه بلْدَتُنَا، أي: هذه أرضنا.

وقَدْ وُصِفَتِ «الْبَلْدَةُ» ولَفْظُها مُؤنّث، بلفظ «مَيت» أو «مَيِّتٍ» وهو مذكّر، إلحاقاً بما يَسْتَوِي فيه المذكر والمؤنث، فهو لا يحتاج أداة تأنيث.

قال الزَّجّاج: «الميْتُ» و«الميِّتُ» بالتخفيف والتشديدِ، والمعنَىٰ واحد، ويَسْتَوِي فيه المذكر والمؤنث.

أقول: لم يأتِ في القرآن وصْفُ الْبَلْدَةِ بالْمَوْتِ إلاّ بصيغة: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وهي في ثلاثة نصوص:

(١) في الآية (١١) من سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

(٢) وفي الآية (٤٥) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٣) وفي الآية (١١) من سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول).

أمّا في غير لفظ «ميت» فقد جاء وصف «البلدة» في القرآن بالتأنيث.

وعلّل بعض المفسرين تذكير لفظ «ميّت» في وصف «بلدة» بقوله: لأنَّ البلْدَةَ بمعنَىٰ البلد.

وأقول: ما ذكره الزجَّاج أحْسَنُ مما ذكره غيره من تأويلاتٍ لا داعي لها، فالاستعمال جارٍ في هذا اللفظ «ميّت» على ما يستعمله العرب، والقرآن شاهِدٌ عليه.

والمرادُ بإحْيَاءِ البَلْدَةِ إحيَاءُ النَّباتَاتِ فيها، من البزور والجذور المنبثَّةِ فيها، وهذا إطلاق مجازيّ من نوع المجاز المرسل، والعلاقة فيه إطلاق المحلّ وأرادة ما يَحُلُّ فيه، أو يخرجُ منه.

وهل المراد بالإحياء تَشْبِيهُ إنْمَاءِ النَّبَاتَات بإحياء الحيوانات ذَوَاتِ الحركات الإِرَادِيَّة، على ما أدْرَكْنَا من صِفَاتها، أمْ أنّ الحياة في الكون ذات مراتب ودرجاتٍ في هذه المراتب، ويظهر لنا من هذه المراتب ما يلي:

الأولى: مرتَبَةُ حيَاةِ النباتات، ذوات الخلايا الخاصَّةِ بها.

الثانية: مَرْتبةُ حياةِ الْخَلاَيا في أجساد الحيوانات ذوات الحركاتِ الإراديّة، وبعض الإحساسات.

الثالثة: مرتبة الحياة الكلّيَّةِ للحيَوانَاتِ ذوات الحركات الإراديَّة، وجُمْلَةٍ مُجْتَمِعَةٍ من الإحساسات المصحوبَةِ بمشاعر اللّذَّةِ والألَم، ويَحتَلُّ أَعلى دَرَجات سُلَّمها الإنسان.

والأرجَحُ فيما أرَىٰ واللَّهُ أعلم: أن الحياة ذات مراتب متفاضلات، وذات درجات متفاضلاتٍ في كلّ مرتبة.

فالحياة جنْسٌ كُلّيٌّ يَدْخُلُ تحته أنواع متفاضلة، ويدخل تحت الأنواع منها أصناف متفاضلة أيضاً.

وبَدْءُ هذا السُّلَّم ذي المراتب والدرجات المتفاضلات يمكن تحديدُ أدناه من وحِيدِ الخليَّة بحسب مُدْرَكاتنا، فمتَعدّد الخلايا في وحْدَةٍ يحكُمُها نظامٌ عامّ.

والكائنات الّتي تنْمُو بتكاثُرِ خلاياها دُون ظُهُور حركات إرادِّيةٍ لها وإحساسات راقيات، تدخل في نوع النباتات.

والكائنات التي تَنْمو بتكاثُر خلاياها، مع ظهور حركاتٍ إرادِّية لها وإحساسات راقيات تَدْخل في نوع الحيوان، ولهذه الحيوانات درجات متفاضلات. ويَحتَلُّ الإنسان قمّة هذا النوع.

وعلى هذا فالتعبير القرآنيُّ بالإحياء هو تعبير على وجْهِ الحقيقة، لا على التشبيه، أو المجاز بالاستعارة.

واللَّهُ أعلم.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾: أي: يكون خروج الموتَىٰ من الأرض، مثلَ ذلك الذي يَحْصُل لبُزور أو أصول جُذُور النباتات الموزعة في تُرابِ الأرض، والمستَقِرَّةِ أو المستَوْدَعَةِ فيها، والذي تكون معه الأرض خالية من الحياة النبانية، إذا نَزَلَ عليها المطر من السَّحاب، فاختلطَ الماءُ بتُرَابِ الْأَرْضِ، فوصَلَ الماء إلى البزور أو أصول الجُذُور، فامْتَصَّتْهُ، فدَبَّت فيها عوامل الحياة النباتيَّة، فانتفخت وامْتَدَّتْ مِنْهَا مَاصَّاتُ الغذاء من التراب، ونامِيَاتُ النَّبَاتِ تَشُقُّ تراب الأرض آخذةً في الصعود لتمْتَصَّ الهواء والضياء، وتُتَابع التعاظم بالنماء، حتَىٰ تَعُودَ مثلَ ما كانت عليه في دورات حياتها السّابقة.

فإحياء الْمَوْتَىٰ يَوْمَ البعْثِ يكون من يُزُور أجسادهم، إذا أنزل الله عزّ وَجلَّ علَىٰ الأرض الماءَ الخاصَّ بإعادَة الأحياء الحيوانيّة إلى الحياة مرَّةً أخرى، فيَصِلُ هذا الماءُ المختلِطُ بالتُّراب إلى بُزُورِ الأجساد، فيحدُثُ فيها مثل الذي يحدُث لبزور النباتات، فتنمو وتتعاظم، ويأمُرُ الله نافخَ الصُّور فيَنْفُخُ فيه، فتَنْطَلق الأرْواحُ إلَىٰ أَجْسادها بخَلْقِ الله.

وبِزرَةُ كُلِّ جَسَدٍ حيٍّ الحاويَةُ لخريطة حياتهِ وصفاتِ ذاته الجسديَّة

والنفسية، مستودعَةٌ في باطن عَجْبِ الذَّنَب(١) الّذي لا يتعرَّضُ للفناء، وإن تعرض جِزمُ الْعَجْبِ إلى تغييرات، فهي تغييرات سطحيَّةٌ لا تَصِل إلى عُمْقِ الْعَجْبِ الحاوي لخريطة حياتِهِ وصفاته، وبرنامج نمائه، فهي نواة صغيرة جدًا لا تُدرِكُهَا الأبْصَار.

على أنّ الله عزّ وجلّ لا يحتاج في خلْقِهِ الأوّلِ وإعَادَةِ خَلْقِهِ إلى كُلِّ هذه الأسباب، فخريطَةُ كُلِّ كائنٍ مَعْلُومَةٌ لدَيْهِ، وصفاتُ جَسَدِه ونفسه مَعْلُومَةٌ لدَيْه، ولا تحتاج إعادةُ خَلْقِهِ أكثر من كَلِمة: «كُنْ» فهو يكون، على مُرَادِ الله، وفي الإعادة يكون كما كان في الخلْقِ الأوّل.

وإذا لاَحَظْنَا أَنَّ عَمَلِيَّاتِ خَلْقِ اللَّهِ للأشياء آناً فآنا في كلِّ أصْغَرِ وحْدَةٍ زمَنِيَّة هي خَلْقٌ مُتَجَدِّدٌ، دون أَنْ يُؤَثِّرَ هٰذَا على أصْلِ كيَانِ الْمَخْلُوق، في وحْدَةِ ذَاتِهِ وصفاته، فإنَّه يَهُونُ عَلَيْنَا جدًّا أن نتجاوز كُلَّ احتمالات انعدام كلّ ذَرَّاتِ الذَّاتِ الأُولىٰ، لو كان الواقع كذلك.

فإننا نُشَاهِدُ أَنَّ بَقَاءَ النُّور في المصابيح الكهربائيّة قائم على التجدُّدِ المستمرّ، بالإمْدَاد المتَجَدِّد بالطّاقَةِ الكهربائية، فكُلُّ لحظةٍ من لحظات النور، يوجَدُ فيها نُورٌ جَدِيدٌ غَيْرُ النور السَّابق، دون أَنْ يُؤثر ذلِكَ على وحدة الأصل.

وهكذا كُلُّ ما في الوجود من كائنات في السَّمَات والأرض، يُمْسِكُها اللّهُ عزّ وجلّ في الوجود باقيةً بإيجادٍ مُتَجَدِّد في تَوالي أقصر اللّحظات، وقد دلّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

---

(١) **عَجْبُ الذَّنَب**: هو جُزيْءٌ في أصْلِ الذَّنَب عند رأس الْعُصْعُص، ويُجْمَعُ على «عُجُوب» و«أعجاب».

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾.

أي: إنه جلَّ جلالُهُ يُمْسِكُهَا في الْوُجود بما يُمِدُّهَا به من خَلْقٍ مُتجدِّد، وحين يُوقِفُ تجديد الخلْقِ تَعُودُ عَدَماً إلىٰ أصْلِها، وعندئذٍ لا أحَدَ يسْتَطِيعُ أن يُمْسِكَها لتَبْقَىٰ مَوْجودة.

فَمَا العجبُ من إعادة أيّ مَخْلُوقٍ بخَلْقٍ مَتجدِّدٍ مَا دَامَ علْمُ الله به وبصفاته كُلِّهَا شاملاً عامًّا، ومَا دَامَتْ قُدْرَةُ اللّهِ لَمْ يَحْدُثْ لها تغيير، ومن صفاته جلَّ جلالُهُ أنَّهُ إذا أرَادَ شَيْئاً فإنّما يَقُول لَهُ: كن فيكون.

لكِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ جَعَلَ لعمليات خَلْقِهِ أسْبَاباً فَهُوَ يَخْلُقُ مِنْ قَنَواتِها، الْتِزَاماً بما اختار هو سبحانه من نظام.

وكلُّ كلام في الأسباب لا يخرج عن محاولَةِ كشْف النظام السَّببيّ الَّذي نَظَّمَ بهِ اللّهُ عزَّ وجَلَّ عَمَلِيَّاتِ خَلْقِهِ بدءاً وإعادةً، أمّا الأسباب بذاتها فلَا تفعَل شيئاً، ولا تخلُق شيئاً.

ونُلاَحِظُ في عِبَارَة: ﴿.. كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ عَقِبَ بَيَانِ أسباب إنباتِ النباتات في الأرضِ، أنَّ الله عزَّ وَجلَّ بَعْدَ أنْ وَجَّهَ الأنْظَارَ للتفكّر في دَلائل بَعْضِ آيَاتِه في كوْنِهِ، نَبَّهَ على ظاهِرة إحياء الأرض بعْد مَوْتها الّذي يَتِمُّ بَعْدَ تَنْزِيلِ الماء المباركِ من السَّمَاءِ واختلاطه بتُرَابِ الأَرْضِ الّتي فِيها بزور النباتات، فَتَنْبُتُ بخَلْق اللّهِ وقضائه وقَدَره فتَعُودُ حيَّةً بعْدَ أنْ ماتَتْ فيها الحياة السابقة.

وبعد التَّوْجِيهِ إلى هٰذه الظاهرة المتكرّرة في الحياة الدنيا، أرشد الله جلّ جلالُهُ إلى أنَّ حَيَاةَ الناس بَعْدَ الموتِ مِثْلُها، فلا فرق بين حيَاة شجرة عظيمة من نواةٍ لا تُدْرَك بالطَّرْفِ في بِزْرَتِها، وبيْنَ حَيَاةِ إنسان بَعْدَ مَوْتِه من نواةٍ لا تُدرَكُ بالطرف، في عَظْمَةٍ من عِظام جَسَدِه الّذي بَلِيَ وتفتَّتَ، وتفرّقَتْ ذَرَّاته في تراب الأرض، وهي في عَجْبِ الذَّنَب.

فإذا كان المتَشكِّكُونَ حريصينَ على مُشاهدة مِثَالٍ للحياة بَعْدَ الموت، فإحياءُ نباتاتِ الأرض بعْدَ موتها مثالٌ متكرّر الحدوث في الحياة الدنيا.

وأكّد الله عزَّ وجلَّ بيان هذا في قوله تعالى في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾.

﴿ٱلنُّشُورُ﴾: هو الإِحْيَاء بَعْدَ الموْتِ. وكذلك الإِنْشَار.

ثُمَّ أنزل قوله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخْرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

ثُمَّ أَنْزَل الله عزَّ وجلَّ قوله في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

وظاهر تشبيه إحياء الموتى يوم القيامة بإحياء النَّباتات من نَوَيَاتِ بزورها، يَدُلُّ على أنّ إحياء الموتى يكونُ كذلك من نوياتٍ تبقَىٰ فيها صلاحيَّةُ النشْأَةِ الأُخْرَىٰ، وحين يَأْتي يومُ البعث يُهَيِّئُ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ الظروف الصالحة لهذه النشأة، والأسْبَابَ الّتي بها تكون، فتنمو هذه النَّوَيَاتُ حتَّىٰ تكُونَ أجْسَاداً مُسْتَعِدَّةً لنفخ الرُّوح فيها، فيأْمُر اللَّهُ ـ جلّ جلالُه وعظُم سلطانه ـ الْمَلَكَ المكلَّف بنفخ الصُّور الّذي اجتمعت فيه الأرواح، فينْفُخُ فيه، فتنطَلِقُ كُلُّ رُوحٍ وتَحُلُّ في جَسَدِها الّذي صار جاهزاً بالنشْأَةِ الأخرى للحياة والبعث، على وفق ما كان عليه في الحياة الدنيا، لأنَّ خريطة صفاته كُلّها موجودة في نواته الّتي احتفظتِ الأرض بها، من جَسَدِهِ في الحياة الأولى.

وتَدُلُّ ظواهر النصوص القرآنيَّة على أنَّ اللَّهَ جَلَّ جلالُهُ وعظُم سُلْطانه ـ يُنْبِتُ أجْسادَ الموتى في الأرض، كما يُنْبِتُ النباتات الَّتي نُشَاهِدُ عودتها إلى الحياةِ في ظاهراتٍ مُتكَرِّرات، إذْ يُنْزِلُ من السَّماء ماءً صالحاً لتفجير نويات أجساد الموتى، فتأخُذُ في النِماء، كما تَنْبُتُ البقول أو الفُطُور في الأرض، حتىٰ إذا اكتمَلَتْ نُفِخَتْ فِيها الأرواح.

وهَذا هو ما دلت عليه بيانات الرسول ﷺ فوجب اعتمادُه.

● روى مسلم بسَنَدِه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ»(١).

قالوا: يا أبا هريرة: أربعون يوماً؟. قال: أبَيْتُ.

قالوا: أربعون شهراً؟. قال: أبَيْتُ.

قالوا: أربعون سنةً؟. قال: أبَيْتُ.

«ثُمَّ يُنْزِلُ اللَّهُ من السَّمَاءِ مَاءً فَيَنْبُتُونَ كَما يَنْبُتُ الْبَقْلُ».

قال: «ولَيْسَ مِنَ الإنْسَانِ شَيءٌ إلاَّ يَبْلَىٰ، إلاَّ عَظْماً واحداً، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومِنْهُ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَة».

● وروى مسلم عن أبي هريرة أيضاً، أنّ رسول اللَّهِ ﷺ قال:

«كُلُّ ٱبْنِ آدَمَ يَأْكُلُهُ التُّرَابُ إلاَّ عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ، وفِيهِ يُرَكَّبُ».

● وروى مسلمٌ عنه أيضاً، قالَ: قال رسول الله ﷺ:

«إنَّ في الإنْسَانِ عَظْماً لاَ تَأْكُلُهُ الأَرْضُ أبَداً، فِيهِ يُرَكَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

---

(١) **النفختان**: هما نفخة الملك الأولى في الصُور الّتي يتمّ بها إماتة الأحياء إلاَّ من شاء الله، ثم يقبض الله أرواح هؤلاء، والنفخة الثانية هي نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت.

قَالُوا: أيُّ عَظْمٍ هُوَ يَا رَسُولَ الله؟

قال: «عَجْبُ الذَّنَبِ».

● وروى البخاريُّ بسَنَدِه عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«ما بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ».

قالوا: يَا أبا هُرَيرة: أَرْبَعُونَ يَوْماً؟ قال: أَبَيْتُ.

قالوا: أَرْبَعُونَ سنةً؟. قال: أبَيْتُ.

قالوا: أربَعُونَ شهراً؟. قال: أبَيْتُ.

«ويَبْلَىٰ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ إلاَّ عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ».

❋ ❋ ❋

فلا داعِيَ بَعْدَ دَلاَلة ظواهِرِ الآيَات الْقُرْآنيَّةِ، وصَرِيح دَلاَلَةِ هٰذِهِ الأَحَادِيثِ الْمَرْوِيَّةِ عن الرسول ﷺ للذَّهَابِ إلىٰ مُبالَغَاتٍ لا دَلِيلَ عَلَيْها حَوْلَ فِكْرَةِ إعَادَةِ الأَجْسَادِ بأعْيَانِها، ولا دَاعِيَ لِلْغُلُوّ والْمُمَاحَكَةِ واللَّجَاجِ في هذا، فَهُوِّيَّةُ الإنْسَانِ بنَفْسِهِ ورُوحِهِ الَّتِي تَكُونُ بها حَيَاةُ نَفْسِهِ، وخريطةُ نَفْسِهِ وبناءِ جَسَدِه موجودة في نواته، كَمَا أنَّ خَرِيطَةَ الشجرة العظيمة موجودةٌ في نواتها، كامِنَةٌ فيها، ومتَىٰ تهَيَّأَتْ شُرُوط إنْبَاتِهَا شَجَرَةً، جَرَىٰ نَماؤُها على وفق خريطتِها، مُسْتفِيدَةً بناء جَسَدِها من عَنَاصِرِ تُراب الأرض.

ولَدَىٰ تَبْدِيل جَسَدِ الإنسانِ كُلَّ عَشْرِ سَنَوَاتٍ في الحياة الدنيا باسْتِثْنَاء ثوابتَ صغرىٰ فيه، فإنَّ هُوِّيَّتَهُ وحقِيقَتَهُ لاَ تَتَغيَّرُ، والمحكومُ عليه بضَرْبٍ لجُرْم ارْتَكَبَهُ لاَ يَصِحُّ أَنْ يَقُولَ إذا فَرَّ من السُّلطانِ وعَادَ بَعْدَ عَشْرِ سنواتٍ، إنِّي الْيَومَ أحْمِلُ جسداً غير الذي كنت ارْتَكَبْتُ الجُرمَ بِه، فلا تَضْرِبُوه لأنّه بريء، إذ النَّفس هي التي أَجْرَمَتْ والجَسدُ أداة توصيل لَهَا.

❋ ❋ ❋

(٨)
التدبُّر التحليليُّ للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وفي قراءة وَرْشٍ: [**وعيدي**] بإثبات ياء المتكلم في الوصل، وأثبتها يعقوبُ أيضاً في الوصل والوقف.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قَبْلَ المكذّبينَ الكافرينَ الَّذِين بدأَتِ السورة بمعالجتهم، فالضمير في: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ يَعُودُ عليهم، وسبَقَ أَنْ عرفنا أنَّ السُّورة عَرَضَتْ مقالَتَهُمُ التعجبيَّةِ الإنكاريّة لقضيتين:

الأولى: أنْ يجيئهم رسولٌ بشَرٌ منهم.

الثانية: نبأُ إحياء الموتَىٰ يوم القيامة بَعْد فناء أجسادهم، للحسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وجاء هذا الدّرْس مشتملاً على ثلاث قضايا، مع عرض أمثلة تفصيليّة موجزة لها:

القضيّةُ الأولى: أنَّ رَسُولَ الله محمّداً لم يكن بِدْعاً في تاريخ البشريّة، فقد جاء قبْلَهُ رُسُلٌ كثيرون، إلى أُمَمٍ مختلفةٍ كثيرةٍ من أُمَم الأرض.

أي: فلاَ دَاعِيَ للتَّعجُّب مِنْ كَوْنِه بشراً إذ هي سُنَّة اللَّهِ في خَلْقِه، وهو ما تقضي به الحكمة، ولَوْ جاء الرَّسُولُ غَيْرَ بَشر لكان بعْثُهُ منافياً لكمالِ الحكمة.

أَلم يُرْسِلِ اللَّهُ عزّ وجل نوحاً وهُوداً وصَالحاً، وموسى وهارونَ ولُوطاً وشعيباً من الْبَشَر؟!! فما وجْهُ الْعَجَب؟!

القضيَّة الثانية: أنّ الّذِينَ كَذَّبُوا محمَّداً رسُولَ الله ﷺ بعْدَ بعثَتِهِ ليْسُوا بِدْعاً أيضاً في تاريخ البشريَّة، فقد سبقَتْهُمْ أُمَمٌ كثيرَةٌ كَذَّبُوا رُسُلَ رَبِّهم، وكذَّبوا بنَبَأ يَوْم الدّين، وكانت مقالاتُهُمْ في التكذيب مشابِهَةً لمقالاتِ مُكذّبي الرسول، تَشَابَهَتْ أفكارهم ونُفُوسهم وقُلُوبُهم.

أَلَمْ يكْفُرْ مِنْ قَبْلِهِم قومُ نُوح، وقَوْمُ هُودٍ، وقَومُ صالح، وفِرْعَوْنُ ومَلَؤُهُ وقوْمُه، وقومُ لوط، وقومُ شُعَيْب؟!!.

القضيَّةُ الثالثة: أنَّ سُنَّةَ الله في المكذّبين الأوّلينَ أنْ يتوَعَّدَهُمْ بالْعَذَابِ والإهْلَاكِ إذَا أصَرُّوا علىٰ كُفرِهِمْ، وأَنْ يُحقِّقَ فيهم وَعِيدَهُ متىٰ اقتضَتْ حالَتُهُم الَّتي وصَلُوا إلَيْها إنْزَالَ الْهَلاك فيهم، ويكون ذٰلِكَ حينما تَصِيرُ حالتهم حالةً مَيْؤُوساً منها يأساً كاملاً ويكثُر إفْسَادُهم في الأرْض.

أي: والّذين كذّبوا محمّداً ﷺ تَنْطبِقُ عليهم هذه السنَّةُ من سُنَنِ الله، فلْيَرْتَقِبُوا إهْلاكَهَمْ مَتىٰ صَارَتْ حالَةُ عامَّتِهِم مَيْؤُوساً منها، وكثُرُ إفسادهم في الأرض.

وقد دلَّ الواقع على أنَّ حالَتَهُم العامَّةَ لم تَبْلُغْ إلى هذا المستَوىٰ، ولهذا لم يُنْزِل الله بهم الإهلاكَ العامّ، كما فعل بالمهْلَكين السّابقين، وإنّما أهْلك منهم وعاقب أفراداً، ونَصَر في المعارك أولياءَه على أعدائه، وهٰذه ميزَةٌ امتازَ بِهَا الْعَرَبُ أيّام بعثَةِ الرسول ﷺ، مع كلّ ما كان منهم من عنادٍ وإصرارِ ومُشَاقّةِ لله ورسُولِه، فإنَّهُمْ لم يَصِلُوا إلى مستوىً يَسْتَحِقُّون به الإهْلاكَ العامّ الشامل.

وفي عرْض هٰذه السُّنَّةِ من سُنَنِ الله عزّ وجَلَّ تحذيرٌ ووعيدٌ للمكذبين، بأنَّهُمْ إذا وصَلَتْ حالَتُهم إلى المستوىٰ الذي يَسْتَحِقُّونَ به الإهلاكَ الْعَامّ، فإنَّ اللّهَ سَيُهْلكهم كما أهْلَكَ الّذين كذّبُوا بنبأ يوم الدين من أهل القرون الخوالي، ولَنْ يكونوا مَعْفيِّين من تطْبيقِ هذهِ السُّنَّةِ عليهم، وإهلاكهم إهلاكاً عامّا شاملاً، فسُنَّةُ الله لا تَبْدِيلَ لَهَا.

وقد عرضَ اللّهُ عزّ وجلّ في هذا الدَّرْسِ من المكذبين الأوَّلين الَّذِين أهْلِكُوا بسبب كُفرِهِمْ وإفسادهم في الأرض ثمانية أقوام، تعجّبُوا مِن أن يكونَ رسُولُ الله بَشَراً مثلهم، واستبعدوا قضية البعث ليوم الدين، وهُمُ:

(١) **قَوْمُ نُوحٍ عليه السلام**: وقد جاء ذكرهم في هذه السّورة مع بيان أنّهم من الذين كذّبُوا الرُّسُل من أهل القرون الأولى، وأَنَّهم قد حَقَّ عليهم وعيد الله لهم بالإهلاك، فأُهْلِكُوا، وإذْ جاء بيانُ إهلاكهم مثَالاً لسُنَّةِ اللَّهِ في إهلاك مُكَذِّبي الرُّسل مُتَعَلِّلين بأنَّهم بَشَرٌ مِثْلُهم، والمكَذِّبين بيوم الدين مُتَعَلِّلين بأنَّهُ أمْرٌ مُسْتَغْرَبٌ عجيب لا يُمْكِنُ أَنْ يَحْدُثَ، فلا بُدَّ أن يَكُون واقِعُ حَالِهِم كذلك، ولو لم يأت في هذا النَّصِّ تَصْرِيحٌ بهذا.

وحين نسْتَعْرِضُ قصَّة نوح وقومه في سائر سور القرآن، نَجِدُ في بعْضِها التصريحَ بهذا الأمر الذي فهمناه استنباطاً.

فقد جاء في عَرض لقطات من قصة نوحٍ عليه السلام مع قومه في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكاية قولِ نوح عليه السلام لقومه:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ حُجَّتَهُم في تكذيب رسول ربِّهم لم تكن أكثر من التعجُّب من كونه رَجُلاً بشراً منْهُمْ، والتعجُّب من إنذاره لهم بيوم الدّين.

وتُشْعِرُ عبارة: ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بأنّ الله قد أنزل على نوح عليه السَّلام كتاباً يجب أن يتَّخذَهُ قَوْمُه ذكراً، بَعْدَ أن يتلَقَّوْه، ويَعْقِلُوه ويتفَهَّمُوا دَلاَلاته.

(٢) **أصْحَابُ الرَّس**: ولا بُدَّ أنْ يكون حالُ هؤلاء كحال قوم نوحٍ عليه السَّلام، في تعجبهم من أن يأتيهم رسولٌ منهم، ومن نبأ البعث.

الرَّسُّ: بئرٌ عظيمة، ويُطْلَقُ لفظ «الرَّسّ» على عدَّةِ أماكن في بلاد العرب. ولم يأتِ في القرآن تفصيلٌ عنهم. ولا تعيين لاسم الرَّسُول الّذي أرسل إليهم، وكلُّ ما جاء من بيان عَنْهُمْ في القرآن: أَنَّهُمْ أصحاب الرَّسّ، وأنَّهُمْ كذَّبوا رسُولَ ربّهم، وأنَّهُمْ أُهْلِكُوا، وذِكْرُهُمْ في سورة (قٓ) ضمْن الأقوام الّذين أُهْلِكُوا، يَدُلُّ على أَنَّ كُفرَهُمْ قد كان سببُهُ تَعجُّبَهُمْ من كَوَن رسول الله لهم رجلاً منهم، وتعجُّبَهُمْ من نبأ الحياة بعد الموت يوم القيامة للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد جاء ذِكْرُهُمْ وبيان إهلاكهم في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

تتبيراً: أي: إهلاكاً فيه تكسيرٌ وتحطيم وَتفتيتٌ لهم.

وقد يَدُلُّ جمع «أَصْحَاب الرَّسّ» مع عَادٍ وثَمُود على أَنَّهُم قَوْمٌ مِنَ الْعَرَب، فيُبْحَثُ عن آثارهم في بلاد العرب، ولا سيما الأماكن الّتي تُسَمَّىٰ «الرَّسّ».

وجاء في بعض روايات المؤرخين أَنَّهُمْ قَوْمٌ قَدْ خُسِفَ بهم.

(٣) **ثمود**: وهم قومُ النبيّ الرسُول صالح عليه السلام، ولا بُدَّ أَنْ يكون حالُ هؤلاء كحال قوم نوح في تعجُّبِهم من أن يأتيهم رسولٌ منهم، وفي تعجبهم من نبأ البعث، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنْفِيذِ الجزاء.

ومساكن ثمود معروفةٌ ظاهرةٌ في أرض تُسَمَّىٰ الْحِجْرِ من أرض العرب، وتُعْرَفُ بمداينِ صالح، ولهم في جبالِهَا آثارٌ ظاهرة.

وجاء في بيان تكْذِيبِهِمْ رسُولَ ربّهم لأنّه بشرٌ مثْلُهم، قوْلُ الله عزّ وجل في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) مُبيِّناً مقالتهم له:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وفي بيان تكذيبهم لرسولهم، وتكذيبهم بما أنذرهم به، قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

وَسُعُرٍ: أي: وجُنُونٍ.

(٤) **عَاد**: وهم قوم النبيِّ الرسول هود عليه السلام، ولا بُدَّ أَنْ يكون حَال هؤلاء مثَلَ حَال قوم نوح أيضاً في تعجُّبِهِمْ مِنْ أن يأتيهم رسولٌ منهم، وفي تعجُّبِهم من نبأ البعث.

وكانت مساكن عادٍ في الأحقاف من أرض العرب، والأحقاف تَقَعُ في شمالِ حضرموت، ويقَعُ في شمال الأحقافِ الرُّبْعُ الخالي، وفي شَرْقِها عُمانُ، وموضع بلادهم اليوم رِمَالٌ قَاحلة.

وفي بيان كفرهم، وتكذيبهم متعجّبين من أن يكون رسول الله لَهُمْ بشراً مِثْلَهم، وتعجُّبهم من إنذاره لهم بيوم الدّين، قال الله عزَّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) يحكي مقالة رسولهم لهم:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾.

وتَشْعِرُ عبارة: ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بأنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أنزل على هود عليه السّلام كتاباً يجب أنْ يتخذه قومُه ذِكراً، بَعْدَ أن يتَلَقَّوْهُ، وَيَعْقِلُوهُ، وَيَتَفَهَّمُوا دَلَالَاته.

وقال الله عزّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) مُفَصِّلاً مقالة عادٍ لرسُولِهِم هُودٍ عليه السلام:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

(٥) **فِرْعَوْن**: أي: وقومُهُ، وجاء إفرادُهُ بالذِّكْر لأنّ قَوْمَهُ كانُوا له تَبعاً، ولم يكُنْ لَهُمْ رأيٌ غيرُ رأيه، ولو أنّه آمَنَ لآمَنُوا، فَهُوَ يُمَثّل كلَّ قومه، وإذا قال كلمةً قالُوها.

قال الله عزّ وجلَّ في بيان تكذيبِهِم مُوسَىٰ وهارونَ عليهما السَّلام، مُتعلِّلِينَ بأنّهما بَشَران مثلُهم، في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

(٦) **قَوْمُ لُوطٍ**: وَهُمْ قَوْمُ الْقُرَىٰ الَّتِي كَانَتْ في مكان الْبَحر الميّت، فقَلَبَ اللَّهُ دِيارَهُمْ عَالِيَها سَافِلَها ودَمَّرَهُمْ وأهْلَكَهُمْ إهلاكاً وخيماً، لقبائحهم الّتي كانوا عَلَيْها مع كُفْرِهِمْ وتَكْذِيبِهِم رَسُول رَبّهم، وتكذيبهم بيَوْمِ الدّين.

وَلا بُدَّ أَنْ يكون حالُهُمْ مثل أحوال الأقوام الَّذين ذُكِرُوا قبلَهُمْ.

(٧) **أَصْحَابُ الأَيْكة**: ويُعْرَفُونَ بأَنَّهُمْ أَهْلُ مَدْين، وهم قومُ النبيّ الرسُول شُعَيْب عليه السلام.

والأَيْكَةُ غَيْضَةٌ تُنْبِتُ ناعم الشجر كانت لهم.

ولا بُدَّ أن يكون حالُهُمْ مثْلَ أحوال قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، ومن ذُكِرَ بعْدَهم.

وقد ذكر اللَّهُ عزّ وجلّ تعلُّلَهم ببشَرِيَّةِ رَسُولهم، واستبعادهم أنْ يُرسِلَ الله رسُولاً من البشر، فقال الله عزّ وجلّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾.

(٨) **قَوْمُ تُبَّعٍ**: وهم من عرب اليمن: (حِمْيَر، وحضرموت، وسَبَأ).

و«**تُبَّع**»: لَقَبُ مَنْ كان يَمْلِكُ جميعَ بِلادِ الْيَمَن، وقد ذَمّ الله عزّ وجلّ قَوْمَ تُبَّعٍ هؤلاء، وذكَرَ إهلاكهم، ولم يَذُمَّ تُبَّعاً، ولَمْ يبيّنْ أنّ الإهلاكَ الجزائيْ قد شَمِله، لأنَّه كانَ مؤمناً على دين إبراهيم عليه السَّلامُ، كما رُوِيَ عن النبيِّ ﷺ في حديث رواه الإمَامُ أحْمَد.

ولا بُدَّ أن يكون حالُ قوم تُبَّعٍ مثل أحوال الأقوام الذين جاء ذكرهم آنفا.

وقد أبان الله عزّ وجلَّ أنَّ كُلَّ الَّذينَ كَفرُوا بالمرسلين من قبل بَعْثَةِ محمّد ﷺ، كانَتْ تعِلّتُهم استِبْعَادَ أن يَبْعَثَ اللَّهُ بشراً رسولاً، فقال الله عزّ وجل في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) في معْرِضِ الحديث عن الأقوام السَّابقين الذين كذّبوا رُسُلَ رَبّهم:

﴿۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ

لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

وبَعْدَ أنْ ذَكر الله عزّ وجلّ هؤلاء الأقوام المهْلَكِينَ إهلاك عقاب وعذابٍ شامل، بسبب تكذيبهم رُسُلَ رَبّهم، وتكذِيبهم بيوم الدّين بحجّةِ الاستبعاد والتعجّب من كون الرُّسل بشراً، والتعجُّب من الحياة بَعْدَ الموت، وضياع رفات أجسادهم في تراب الأرض، بعد أن ذَكَرَهم للاتعاظ بِهم، والاعتبار بما أنزل الله عليهم من وسائل إهلاك وعذاب، قال اللّهُ عزّ وجلّ في آخِرِ هَذا الدَّرْسِ الرابعِ.

﴿... كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾.

أي: فَوقَعَ وَعِيدِي بِهِمْ، وهو الوعيدُ الّذي أنذرهم به رُسُلُ رَبِّهم، فَكَانَ حقًّا واقعاً، يَعْتَبِرُ به أولُو الأبصار.

❁ ❁ ❁

(٩)
التدبُّر التحليليّ للدرس الخامس من دروس السّورة وهو الآية (١٥)

قال اللّهُ عَزَّ وجل:

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿أَفَعَيِينَا﴾: أي: أفعجزْنا؟ يُقالُ لُغَةً: عَيَّ بالأَمْرِ عِيًّا، وعَيِيَ بالأَمْرِ عِيًّا، إذَا عَجزَ عَنْهُ، ولم يُطِقْ إحْكامَهُ، ويُقَالُ أيضاً أعْيَاهُ الأَمْرُ، أيْ: أعْجزَه.

﴿بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ﴾: أي: بهذا الخَلْقِ الذي يَعِيشُ النَّاسُ فيه ضِمْنَ الحياة الدُّنْيَا الأُولى.

و«الفاء» في: ﴿أَفَعَيِينَا﴾ هي فيما أرى عاطفةٌ فصيحةٌ، وهي الّتي تَعْطِفُ على محذوف، فهي تُفْصِحُ عنه. والتقدير أقَدَّرْنا وقَضَيْنا فَعَيِينَا عند تنفيذ القضاء والقدر بالخلْقِ والإيجاد، لهذا الخلْق الأوّل عجْزاً عن تحقيق ما تمَّ به القضاء والقدر.

سؤالٌ اسْتِفْهامِيٌّ تَعْجِيبيٌّ يَطَرَحُهُ الخالقُ البارئ ـ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ مُسْتَخْدِماً ضمير المتكلّم العظيم، علىٰ مُنْكِرِي البعث، الّذِين استَبْعَدُوا أنْ يكون الخالقُ قادراً على إعادة خَلْقِ النّاس، وإحياء أجسادهم بَعْدَ فنائها، ويتضمَّن هذا الاستفهامُ أيضاً الإنكار عليهم، وَاتّهام مداركهم بالضحالة والسطحِية، أو اتّهام أخلاقهم بالجنوح عن منهج الحق، اتباعاً للهَوَىٰ والشهوات.

إنَّ الخَلْق الأوّل لم تكُنِ المخلوقاتُ به موجودةً أصْلاً، إلاَّ في علم الله ضِمْن خُطَط التكوين بالقضاء والقَدر، ثُمَّ تمت عمليات الخلْقِ الأول على وفْقِ ما سبقَ به العِلْم والقضاءُ والْقَدَر، فكانَت المخلوقات بالخلْقِ الأوّل حقيقَةً مشهودة.

أفَعَجَزَ الخالق ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلَطانه ـ عن إيجاد الخلْقِ الأوّل الذي لم يكن للمخلوقات به وجُودٌ في الواقع قبْلَه، ولَمْ يكونوا شيئاً مَذْكُوراً؟!!.

إنّ الجوابَ الّذِي يَفْرِضُ نفْسَهُ من الواقع المشهود الذي تتكرَّرُ أحداثه دواماً، هو: أنّ الخالِقَ عزّ وجلّ لم يَعْجِزْ عن إيجاد المخلوقات التي قَدَّرَها وقضاها في الخلْقِ الأوَّل، ولَمْ يَعْيَ به.

وهذا يَدُلُّ عن طريق اللُّزُوم العقليّ على أنّ مَنْ لم يَعْيَ بالخلْقِ

الأَوَّل. وهو مازال ولَنْ يَزَال من الأزل إلى الأبَدِ على ما هو عليه في ذاته وصفاته، لا يَعْيَا بإعَادَةِ الْخَلْق بعْدَ فَنَائه، ولا يَعْجز عنه.

إذَنْ: فكَيْفَ يَقَعُ في تَوَهُّم المكذِّبين بيوْمِ الدّين، وبالبعْثِ للحساب، وفصْلِ القضاء، وتَنْفِيذ الجزاء، استِبْعادُ هذا الإحياء بعد الموت، استبعاداً يَجْعَلُه في تصَوُّرِهم أمْراً غَيْرَ مُمْكِنِ الوقوع؟!

هٰذا الدَّليلُ دليلٌ برهانيٌّ مُوجَّهٌ للّذِينَ بدأَتْ السّورة بالْحَدِيث عنهم، وهم الكافرون الذين قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾.

● قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾.

اللَّبْسُ: بإسْكان الباء وفتحها في اللُّغة: اختلاط الأمْر. يُقَالُ لُغة: فُلانٌ في رأيه لَبْسٌ، أي: في رأيه اختلاط.

ويقال: الْتَبَسَ عليه الأمر، أي؛ اختَلَطَ واشْتبه.

وجاء الإضراب بحَرْف ﴿بَلْ﴾ بعْدَ طَرْح السؤال الاستفهاميّ التَّعْجيبيّ ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾؟! ليَدُلَّ هذا الإضرابُ على أنّ جوابَهُمْ سيَكُونُ حتماً: «لاَ»، لأنّ الواقع المشاهد دامغٌ لهم، وهُمْ لا يستطيعون جُحُودَه، ولو بالمكابَرَة، إلاّ إذا فَقَدُوا عقُولَهُمْ وحواسَّهم.

ولكِنْ يلْزَمُ من اعْتَرافِهم بعَدَم الْعَجْز في الخلْق الأوّل، أنْ يَعْتَرِفُوا بأنّ الخالق جَلّ جلاله لاَ يَعْجزُ عن الخلْق الجدِيد، الذي تَتِمُّ به إعادة الموتى إلى الحياة بَعْدَ فناء أَجْسَادهم، فهذا لازمٌ عَقْلِيٌّ حَتْمِيّ.

لكنَّهُمْ لم يعْتَرِفُوا بهذا اللاّزم العقليّ، ولم يؤمِنُوا بوقُوعهِ بَعْدَ البيانات الرَّبَّانيَّة المنزَّلَةِ على الرَّسُول المؤيّد بالمعجزات الباهرات. بَلْ هم في لَبْسٍ من خَلْقٍ جَدِيدٍ، بِتأثير رَغَباتهم وأَهْواء نفوسهم.

لقَدْ قطَعُوا الصِّلَةَ بَيْنَ القضيَّةِ المشهودة الحسّيَّةِ ولازِمِهَا المنطِقيّ

العقليّ الحتْميّ، فَلَا يأخذُونَ باللّازم مع اعترافهم بالملزوم، فهم كَمَنْ يَعْتَرِفُ بطُلُوعِ الشَّمْس لكنَّهُ يُنْكر وُجود النهار في الْأَرَاضي الّتي تُشْرِقُ عليها الشمس.

لقد الْتَبَس علَيْهِم الأمْرُ بالنسْبَةِ إلى خلْقٍ جديدٍ، على الرُّغْم من مُساواتِه للخلْقِ الأوّل مُسَاواةً تامَّةً، وعلى الرغم من أنّ المنطقيَّة العقليَّة تَفْرِضُ أن لا يكونَ لديهم أيُّ لَبْسٍ من خَلْقٍ جديدٍ مُسَاوٍ للخلْق الأوَّل.

وهذا الاستدلالُ استدلالٌ برهانيٌّ لاَ سبيل إلى ردِّه، أو نَقْضِه، أو إيرادِ أيّ احتمالٍ يُبْطِلُ الاستدلال به، أو يجعَلُ فيه شكًّا أو شُبْهَةً.

فمَنْ كان قادراً على شيءٍ إبْداعاً، كان قادراً على مثله، مَا دامَتْ صفاتُه على حالها، لَمْ تتغيَّرْ ولم تتناقَصْ.

وصوغُ الدليل بالأسلوب الرِّياضي المنطقي مما يسمّىٰ عند علماء المنطِقِ بالقياس الاقتراني، نستطيع تقديمه بما يلي:

المقدّمة الصُغرى: الله عزّ وجلَّ قد خَلَقَ الْخلْقَ الْأَوَّل بِقُدرَتهِ وعلْمِه وحكمته، تنفيذاً لما سبَقَ به قضاؤهُ وقَدَره، وصِفَاتُه لا تتغيَّرُ من الأزل إلَى الأبَد سبحانه.

المقدمة الكُبْرىٰ: وكلُّ قادِرٍ على الخلْقِ الأوّل، دون أن تتعرَّض صفاته لأيِّ تناقُصٍ أو تغيير، قادِرٌ على إعادة ما كان قد خلقه، إذا انْعَدَمَ أَوْ فَنِيَتْ ذرَّاتُ جَسَدِه.

النتيجة: فالله عزَّ وجَلَّ الّذي لم يَتَغَيَّرْ من ذَاتِهِ ولا من صفاتِه شيءٌ، لأنّ ذَاته وصفاتِه واجِبَةُ الوجود من الأزل إلى الأبد، قادِرٌ حتماً على أنْ يَخْلُقَ نظيرَ الخلق الأوّلِ ابتداءً أو إعادة.

ولا مجالَ للتّهرُّبِ من قَبول هٰذهِ النتيجة بعْدَ التّسليم بمقدّمَتَيْها.

ويمكن صَوْغُ الدليل بطريقةٍ أخرى تُسمَّىٰ عنْدَ علماء المنطق، بالقياس الاستثنائي:

- لو لَمْ يكُن الله عزّ وجلَّ قادراً على إعادَةِ ما كانَ قد خَلَقَ بعد أن ماتَ وفَنِي، وهو جلَّ جلالُه لم يتغيَّر من صفاته شيء، لَمَا كان قادراً على بَدْءِ الخلْق.
- لكنَّه هُو الّذي بدأ الخلْقَ بصِفاته الّتي هي له دواماً من الأزل إلى الأبد.

النتيجة: فالله عزّ وجلّ قادرٌ حتماً على إعادة الخلْقِ بَعْدَ فَنَاءِ المخلُوق إلى مثل ما كان عليه.

لكنَّ أمثال هذه الصياغات الرّياضِيَّة لا تَلِيقُ بكتابٍ رَبَّانيّ مُعْجزٍ في بيانه وأُسْلوبه ومضامينه، فجاء فيه عَرْضُ هذا الاسْتدلالِ نفسِه بأسلوب السُّؤال الذي يَنْتَزِعُ الاعترافَ ويَدُلُّ على لوازمه العقليّة، وهو الطريقة المثلىٰ للمناظرة التي يُرادُ بها الوصول إلى الحقّ والاعترافُ به، لا المماراةُ بالباطل القائمة على السّفْسَطات والمغالطات.

وبهذا ظهر لنا أنّ إعادة الرَّبّ الخالقِ الموْتَىٰ إلى الحياة مرَّة أُخْرى، ومَرَّاتٍ كثيرات، قضيَّةٌ واضحةُ الإِمكان لا ينبغي أن يكون فيها لَبْس، ولا تحتاج أكثر من ثبوت الخبر عن الله، أوْ قِيام الدليل العقليّ الّذي يقتضي إعادة الحياةِ لتَحقِيقِ الْعَدْل الذي تقتضيه الحكمة.

وما دامَتِ القضيَّةُ بهذا الوضوح الفكريّ، فاللّبْسُ الّذي وقع فيه الكافرون المكذبون بالبعث للحياة الأخرى، ليْس مَنْزَعُهُ شُبْهَةً فِكْريَّةً ذاتَ قيمةٍ، أو ذاتَ وزْنٍ في عالَم المفاهيم الفكريّة، حتَّىٰ تُنَاقَشَ وتُدْفَع بالحجَّة.

إنَّ هٰذَا اللَّبْسَ يتَسَاقَطُ تِلْقائِيًا من نفسه، متَىٰ رجَعَ مُنْكِرُ الْبَعْث إلى بصِيرَتِه الفكْريَّة الذّاتيّة، بَعْدَ التنبيه الذي يُحْدِثه في فكرِه السُّؤَالُ المطرُوح.

ولمْ يكُنْ واقع الإنسانِ العربيّ بطبيعَتِه الفطريَّةِ، محتاجاً من الناحيَةِ الفكريَّة إلَىٰ أكْثر من هٰذا الاستدال، إذْ لم تكن لَدَيْه شُبْهةٌ حوْلَ ثَبَاتِ صِفاتِ الرَّب الخالق جلّ جلالُه إذا هو آمَنَ به، فلَمْ يَنْزِلْ في الْعَهْدِ المكّيّ دفْعُ شُبْهِة اللُّغُوب، وهو: التَّعَبُ والكَلَلُ مِنْ مُمَارَسَةِ الخلْقِ الأوَّل، الّتي أثارها اليهودُ في العهد المدنيّ.

فأخَّرَ اللَّهُ إنْزَالَ النصِّ الّذي يُكذِّبُ بهِ مَقَالَةَ اليهودِ، وضَمَّهُ إلى سورة (قٓ) المكيَّةِ، وجعله بَعْدَ كُلّ المعالجات الّتي عالج بها المكذّبين من مشركي مكَّة في السّورة، وقبْلَ ما يَخُصُّ معالَجَةَ الرسُول ﷺ التربويَّة، وهو الآية (٣٨) من السورة.

❁ ❁ ❁

(١٠)
التدبّر التحليلي للدرس السادس من دُروس السورة وهو الآيات من (١٦ ـ ١٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

بَعْدَ أنْ جاءَ في السُّورة إثْبَاتُ قضيَّةِ البعثِ للحساب، وفَصْلِ الْقَضَاء، وتنفيذ الجزاء. وبعد أن جاءَ فيها الإلْزَامُ بقُدْرَة اللَّهِ على الإحياء بعْدَ الموتِ، عن طَريق الحجَّةِ البرهانيَّة. يأتي هذا الدرس السادس منها لشَرْحِ قضيَّةِ مُرَاقَبَةِ اللَّهِ والمكَلّفين بالمراقبة من ملائكته، للإنسان في أعْماله الباطنة والظاهرة في الحياة الدّنيا، لمُحاسَبَتِه يَوْمَ الدين على ما كان منْها من كسْبِهِ الإراديّ المسؤول عنه، لأنَّه هو الذي جُعِلَ مُخَيَّراً فيه ذَا إرادة حُرَّةٍ، ليُبْتَلَىٰ عن طَرِيقه في ظُرُوفِ الْحَياة الدُّنيا.

وهذا الدرس السادس يُثبتُ أنَّ كُلَّ مَا يَعْمَلُهُ الإنسان، وكُلَّ شيءٍ يَحْدُثُ في جسَدِه أو نَفْسِه أو فكْره، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُه وَسْوَسَةً خفيَّةً لا تَصِلُ إلى مُسْتوىٰ الفِكْرَةِ الجليَّةِ، مشْمُولٌ بِعِلْمِ الرَّبِّ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانه. فَهُو خالِقُهُ العليم بكلّ دقائقه، المسَيِّرُ لكُلِّ خليَّةٍ فيه، ولكُلِّ أَجْزَاءِ كُلِّ خِلِيَّةٍ فيه، وبأمْرِهِ أوْ بإذْنه عزَّ وجلَّ يحْدُثُ كُلُّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في الإنسان وفي الوجود كُلِّه، من أصْغَرِ جُزْءٍ في كُلِّ ذرَّةٍ، إلَىٰ أَكْبَرِ مَخْلُوقٍ في الْوُجُود كُلّه.

ولولا شُمُولُ عِلْمِ اللَّهِ كُلَّ شيءٍ، وتسْيِيرُهُ لكلّ شيءٍ، وهيمنَتُه على كلّ شيءٍ، لفَسَدَ نظام الكَوْن، ولتضارَبَتْ حَرَكَاتُهُ، ولَمَا انْطَلَقَ كُلُّ شَيْءٍ إلىٰ غايَتِهِ الْمَرْسُومَةِ لَهُ بإحكام وإتْقَان، ولَدَمَّرَ بعضُهُ بعْضاً.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾: في هذه العبارة تنبيهٌ على أنّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ بعظمة ربوبيّته، الّتي دَلَّ عليها ضَمِيرُ المتكلّم العظيم، لا بُدَّ أن يكون عليماً بكلّ دَقائِق ما يُسَيِّرُ أجزاءَه، مهما صغُرَت، وعليماً بكل مُتَحرِّكٍ فيه وساكن، وعليماً بما يَصْدُر عنه من حركاتٍ إراديّة، وسلُوكٍ إراديٍّ ظاهرٍ أو باطن، وعليماً بخواطِرِه، وعليماً بإراداتهِ الّتي يُرِيدُها، وعزَمَاتِهِ الَّتي يَعْزِمُها، وشَهَواتِهِ الَّتي يشْتَهِيها، ونِيَّاتِهِ التي يَنْوِيها، وعواطِفِ قَلْبِهِ الَّتِي يُحِسُّ بها، حتَّىٰ مَاتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ من أُمُورٍ قد لا تَصِلُ إلى مُسْتَوىٰ التفكير الواضِح. وجاء تأكيد هذه القضيّة بعبارة ﴿وَلَقَدْ﴾ لأنّ الكلام مُوَجَّهٌ للمكذّبين بيَوْم الدين.

إن الخالِقَ العظيم الجليل الّذي خلَقَ هذا الإنسان المتْقَنَ العجيب، الَّذي فضَّلَهُ عَلَىٰ غَيْرِه ممَّنْ خلَقَ، فجعَلَهُ في أَحْسَنِ تَقْويم، وجعَلَهُ من خلايَا عَجِيبَةِ التركيب، وعجيبَةِ الْعَمل دَاخل جِسْمِه، ويُسَيِّرُ فيه كُلَّ دَقيقَةٍ: من دَمٍ، وغِذَاءٍ، وطاقَةٍ، وحرارة، وجُرْثُومَةٍ، وكلَّ دَقِيقَةٍ من الفضلاتِ الَّتي

ينبغي أَنْ تُطْرحَ وَيَتخلَّص منها جِسْمُهُ، ويوجِّه كُلَّ جُزْءٍ مِنْ أجزائه مهما صغُر إلى مكانه المقدَّر له، بإتقانٍ وإحكامٍ غايةٍ في الإبْدَاعِ والتنظيم والتَّسْيير، هل يُعْقَل أن لاَ يكون عليماً بأعماله الاختيارية، وعليماً بما تُوَسْوِسُ به نَفْسُه؟!

إنّ البديهة العقليّة تُثْبِتُ بما لا شَكَّ فِيه أَنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عليماً بكُلّ ما يَصْدُر عن الإنسان، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُه من خَواطِرَ عابرةٍ غَيْرِ مسؤولٍ عنها.

● قولُه تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾:

الْوَسْوَةُ: والْوِسْوَاسُ: حَدِيثُ النَّفْسِ. وأصل الوسوسة الصَّوْتُ الخفيُّ، ومنه صَوْتُ الْحُلِيّ.

يقالُ لغة: وَسْوَسَ يُوَسْوِسُ وَسْوَسَةً وَوِسْوَاساً.

والاسْمُ منه: «الْوَسْوَاس» ويُطْلَقُ هذا اللّفظ على الشيطان، لأنّه يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النّاس، ويُطْلَقُ أيضاً على هَمْسِ الصَّيّاد الذي يُخْفي صوته لئلا يُحِسَّ به الحيوان المرادُ صَيْدُه.

وذَكَر اللَّهَ عزَّ وجلَّ عِلْمَهُ بما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُ الإنسانِ من خواطِرَ خفِيَّةٍ جدًّا، للإشعار بأَنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ شيءٍ يَصْدُرُ عَنْ الإنسان، فعِلْمُهُ بأخفى الأشياء يُدُلُّ على عِلْمِه بما هُوَ دُونَ ذَلِكَ في الخفاء، من باب أولى، فضلاً عن الأشياء الظاهرة الّتي لا خفاء فيها.

قوله تَعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

في هٰذِهِ العبارة تَقْرِيبٌ لفِكْرَةِ شُمُولِ عِلْمِ اللَّهِ لما يَعْمَل الإنسانُ في ظاهِرِه وباطِنِه، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُهَ.

وجاء في العبارة استخدام ضمير المتكلّم العظيم، لما في الموضوع المتحدّث عنه من عظمة ربوبيّةِ الرَّبّ.

حَبْلُ الْوَرِيد: هو شِرْيان يُطْلِقُهُ الْعَربُ على الْوَتِين الموصُولِ بالقلْب، وهو الشريان الذي يُغذِّي جسْمَ الإنْسَان بالدَّمِ النقيِّ الخارجِ من الْقَلْب.

والمعنىٰ أنَّ الله جلَّ جَلالُهُ أَقْربُ بعِلْمِهِ إلى هُوِيَّةِ ذاتِ الإنسَان المفكِّرَةِ الْمُرِيدَةِ الْمُوَسْوِسَةِ الْعَامِلَةِ مِنْ حَبْلِ وَرِيدِه الموصولِ بقَلْبِه. أي: إنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ أَقْرَبُ إلَىٰ الإنْسَانِ من الأوعِيَةِ الدَّمَوِيَّةِ الّتي تُمِدُّهُ بالحياة مع كُلِّ نَبْضَةٍ من نَبضَاتِ قَلْبِه الَّتي تَظْهَرُ دَقَّاتُها فِي حِبَالِ أَوْرِدَتِهِ.

إذَنْ ألاَ يَعْلَمُ الله عزّ وجلّ ما يَعْمَلُ الإنسان بإرادَته الحرَّة واختياره، ليحاسبه ويفصل القضاء بشأنه ويجازيه يوم الدّين؟!

والجواب: بلىٰ، إنّ اللَّهَ بكُلّ شيْءٍ عَليم، إنَّه سُبْحانَهُ وتعالَىٰ مُحِيطٌ بكُلِّ شيءٍ علماً.

● قولُهُ تَعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ومع علم الله الشامل الذي سبَقَ بيانُه في الآية (١٦) وما دلَّت عليه من لوَازِمَ وأبعادٍ في المفهومات، فقد أقام اللَّهُ عزّ وجلَّ على الإنسانِ شاهِدَيْنِ مِنَ الملائكة، يُسَجِّلان له أو عليه ما يَصْدُرُ مِنْهُ من كَسْبٍ إراديّ ظاهرٍ وباطن، في كتابٍ صادقٍ لا يَزِيدُ شيئاً، ولا يَنْقُصُ إلاّ مَا يَعْفُو اللَّهُ عنْهُ مِنْ سَيِّئات.

وجاءت هاتان الآيتان (١٧ ـ ١٨) بياناً لهذه الرَّقابة الدّائمة، التي جَعَلَها اللَّهُ عزّ وجلّ مُرافقةً ملازمةً لكُلِّ إنْسان في الحياة الدنيا، إلاّ أنّها خفيَّةٌ مَسْتُورةٌ عَنْ مُشَاهَدَةِ الإنسانِ الحسِّيَّةِ، وهو في حياة الابتلاء.

● ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾.

﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ يضاف إلى الجمل وجوباً، والعامل فيه هنا فعل: ﴿نَعْلَمُ﴾

أو اسم التفضيل: ﴿أَقْرَبُ﴾ من قول الله تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. أيْ: حين يَتَلَقَّىٰ المتلقّيَانِ مِن الملائكة، المراقبانِ الْمُسَجِّلاَنِ لأعْمَالِهِ وأقواله.

﴿قَعِيدٌ﴾: أي: مُلازِمٌ لا يُفَارق، من فِعْل «قَعَدَ يَقْعُدُ فَهُو قَاعد» وصيغَة «فَعِيل» من صيغ المبالغة لاسم الفاعل، وللدَّلالة على الملازمة الدائمة للمراقبة، حَسُنَ استعمال صيغة المبالغة: «قَعِيد».

ولم يأتِ في النصّ: قَعِيدان، باعتبار أنهما ملكان، لأنّ العبارة على تقدير: عَنِ اليمين قعيدٌ وعن الشمال قعيد، وحُذِفَت «قعيد» الأولى لدلالة الثانية عليها مع قرينة: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾.

فَمَاذَا يَتَلَقّىٰ المتلقّيان من الملائكة المراقبان المسجّلان لأعمال الإنْسَانِ وأقواله؟؟

حُذِفَ مَفْعُولُ يَتَلَقّىٰ لإفادة العموم، أي: يَتَلَقّىٰ المتلقيان كُلَّ مَا يَصْدُرُ عن الإنسان من عمل أو قول إراديّين.

وتُشْعِر مادَّة «التلقّي» بأنّ الملكين اللّذين يُسَجّلان أعمال الإنسان وأقواله، هما بمثابة آلة تسجيل تتلقّىٰ وتُسَجّلُ بِدُون كُلفَةٍ وَلاَ مَشقَّة.

● ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

جاء في هذه الآية تخصيصُ تسجيل قول الإنسان بالذكر لدفع تَوهُّم أنّ الإنسان لا يؤاخَذُ على أقواله، ويدُلُّ على احتِمال وجود هذا التوهّم سؤال معاذٍ رضي الله عنه رسول الله ﷺ، بقوله: وَإِنَّا لمؤاخَذُونَ بَما نتكلَّمُ به؟ فقال له الرسول:

«ثكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، أَوْ قَال: عَلَىٰ مَنَاخِرِهِمْ، إلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ».

حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِم: أي: مَا يَحْصُدُهُ مِنْجَلُ اللِّسانِ من كلام فيه إِثْمٌ ومعصية لله، وهذه العبارة من لطائف الاستعارات، إذْ شُبِّه اللّسان بالمنجل وشبّهت الأقوال بالْحَصَائِد، ومعلومٌ أنّ المِنْجَلَ يَحْصُدُ كلَّ ما يقع حَدُّهُ عليه من نافع الزّرُوع وضارِّها.

﴿لَدَيۡهِ﴾: أي: عنده. **لَدَىٰ**: ظرف مكان بمعني «عند».

﴿رَقِيبٌ﴾: أي: كثير المراقبة وَدَقيقُها، فهو صيغة مبالغة لاسم الفاعل.

﴿عَتِيدٌ﴾: أي: شديد قويٌ مُهيَّأٌ للقيام بوظيفة مراقبة الإنسان طَوال حياته. كَلِمَةُ «الْعَتِيد» تأتي في اللُّغَةِ بمعنى «الْجَسِيم» وتأتي بمعْنَىٰ «الْمُعَدّ المُهَيّئ الحاضر».

فَدَلَّت هاتان الآيتان (١٧ و١٨) على أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ جعل مع كُلّ مُكَلَّفٍ من النّاس رَقِيبَيْن، أَحَدُهما عَنْ يمينه، والآخر عن شماله، وأنّهما يُسَجّلان حَسَنَاتِه وسَيّئَاته، في كتاب أعماله، الذي سَوْف يُقَدَّمُ له يَوْم القيامة، ويقول الله له، كما جاء في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾.

ويُؤْتَى النّاسُ كُتُبَهُمْ يَوْم القيامة عَلىٰ وَجْهَيْن:

(١) ففريقٌ يُؤْتَوْنَ كُتُبَهُمْ بِأَيمانهم من قِبَلِ وُجوههم، وهم المؤمنون.

(٢) وفريقٌ يُؤْتَوْن كتُبَهم بشَمَائِلهم مِنْ جِهَةِ ظُهورهم، وهم الكافرون.

دلَّتْ على هذا نُصوصٌ قرآنيّة في عِدَّةِ سُور.

وقد وصَفَ الله عزّ وجلّ كُلًّا من هذِيْنِ الملكَيْن بأَرْبَع صفات:

الصفة الأولى: أنّه يتَلَقَّىٰ مَا يكْسِبُهُ الإنْسَانُ تلقِّياً، فَكأَنَّهُ جهازُ تَلَقٍّ دَائم التَّسْجيل لكُلّ ما يَصْدُرُ عن الإنسان من قَوْلٍ وعَمَلٍ ظاهِرٍ وَباطِنٍ، وهذَا يَدُلُّ على أَنّه يُسجّل بتِلْقَائِيَّةٍ طَبْعِيَّةٍ لا يَتكَلّفُ لها.

الصفة الثانية: أنَّه قَعِيدٌ في مَكانٍ مَا مِنَ الإنسان، مُلاَزِمٌ لَهُ غير مفارق، أمَّا أحَدُهُما فعَنْ يمينِه، وأمَّا الآخَرُ فعَنْ شِمالِه.

الصّفة الثالثة: أنَّهُ رَقِيب، أي: يَقِظٌ، مُوجِّهٌ كُلَّ أَجْهِزَةِ الإحساس لَدَيْه، لالْتِقَاط صُوَرِ الأعمال الظاهرة والباطنَة، وَصُورِ الأَقْوال مهما كان شَأْنُها، حتَّىٰ الْخَواطر والنيَّات في الأَعْمال، وحتَّىٰ الآهَات والأَنَّات في الألْفَاظ.

وقَدْ قرَّبَتْ لنَا أجْهزَةُ التقاط الصُّوَرِ والأصْواتِ هذه الحقيقة.

الصفة الرابعة: أنَّهُ عَتِيدٌ، أي: شديد قويٌّ مُهَيَّا مستعدٌّ للقيام بوظيفته طوال حياة الإنسان المأمور بمراقبته.

فالمعنى الْكُلّي للنّص الذي نفهمه بالتَّدبّر:

ولَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ بسُلْطَانِ الرُّبوبيَّة العظيم، ونَعْلَمُ كُلَّ مَا يجري عليه أو فيه أو مِنْهُ حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ به نَفْسُه، ونَحْنُ بشُمُول عِلْمِنَا أَقْرَبُ إلَىٰ مَرَاكِزِ إرَادَتِهِ وَوَعْيِه وخَواطِرِهِ وأَحَادِيثِ نفسه، من أَوْعِيَة دَمِهِ الّذِي يُمِدُّه بِغذَاءِ استمرار حياته، حينَ يتَلَقَّىٰ المتلَقِّيَانِ من الملائكة، عن اليمين قعيدٌ منهما، وعن الشّمالِ قعيدٌ آخر، يُسَجّلاَنِ مَا أَمَرْنَاهُمَا بتسجيلِهِ من أعماله الظَّاهِرَةِ والباطنة، وأقوالِه، فَلا يَنِدُّ عنهُمَا شيءٌ ممّا يصْدُرُ عنه، فَمَا يعمل من عمل، ومَا يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلاّ كانَا رقيبَيْن له، مُتَهَيّئَيْنِ جاهِزَيْنِ، مُسْتَعِدَّيْن حَاضِرَيْنِ لتسجيله، وفْق الْوَظِيفَةِ المسنَدَةِ إليهما.

وقد اقتضىٰ الإيجازُ في التعبير حذْفَ ما يقتضيه الكلام ويسْتَدْعيه الفِكْرُ بالتّدبُّر، أو يسْتَدْعِيه التقابل والتّناظر.

فلَمْ يُذْكَرْ في هذا النّصّ أنهما من الملائكة، لدلالة نصوص أُخْرىٰ في القرآن، دَلَّتْ على أنّ الكتبة الّذين يكتبون صحف أعمال العباد هم رُسُلٌ لله، موجودون لَديهم وهم يكتبون أعمالهم، وأنَّهم حافظون، وكرامٌ كاتِبُون، وأنَّهُمْ يَعْلَمُون ما يفْعَلُ الناس، فمنها ما يلي:

(١) قول اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الانفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

ولَمْ يُذْكَرْ وَصْفُ الْمَلَكِ الذي يكون على يمين الإنسان بأنّه قعيد، اكتفاء بدلالة وصْفِ نظيره الذي هو عن الشمال، فقد وُصِفَ بأنَّهُ «قَعِيدٌ».

وحُذِف من النّص: «مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ» اعتماداً على ما يُفِيدُهُ التقابل، إذْ ذُكر في المقابل ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ فَحُسْنُ التَّدَبُّر يَهْدِي إلى أَنَّ تَسْجِيل الأعْمَال أجْدَرُ من تَسْجِيل الأقوال، فإذا كانت الأقوالُ تُسَجَّلُ، فتسجيل الأعمال يُفْهَمُ من باب أولَى.

ودلَّ كوْن كُلّ من الملكَيْن رَقِيباً عَتِيداً علىٰ أنّهمَا يَقُومَانِ بوظَائِفِهما التسجيليّة على أحْسَنِ وجْهِ.

ودَلَّتْ النُّصُوص القرآنيّة الّتي جاء فيها بيان كتب أعمال الناس، علىٰ أنّها لاَ تُغَادِرُ صغيرةً ولا كبيرة إلاّ أحْصَتْها بالتسجيل الكامل، ومن هذهِ النُصوص قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

فتكاملت دَلالات النصوص الموزّعَةِ في سور القرآن حول هذا الموضوع، كسائر الموضوعات القرآنية.

❀ ❀ ❀

(١١)
التدبّر التحليلي للدرس السابع من دُروس السورة وهو الآيات من (١٩ ـ ٢٢)

قال الله تعالى:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

في هذا الدرس السابع من دروس السورة عَرْضٌ لقَطَاتٍ مِنْ أحداث الرِّحْلَةِ بَيْنَ سَكْرَةِ الموت ومَوْقف الْحِسَاب يَوْمَ الدّين، بانتقال بديعٍ من الإقناع الفكريّ إلى هِزَّةٍ نفسيَّةٍ وجْدَانِيَّةٍ، تَحُومُ في فَلَكِ مِحْوَرِ الترهيب من عذاب اللَّه يَوْمَ الدّين.

﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: هي ما يَحْدُثُ للمحتَضَر سَاعَةَ نَزْعِ رُوحِه، إذْ تَغْشَاهُ غيبُوبَةٌ مِنَ الشِّدَّةِ الّتي تَنْزِلُ بِه عِنْدَ مُفارَقَةِ الحياة، بانفصال الرُّوح عن النفس التي تَذُوقُ الموت.

فَسَكْرَةُ المَوْتِ، شِدَّتُه وغشيتُه. وَأَصْلُ السَّكْرَةِ: غَيْبَةُ العَقْل.

وثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنّه لمَّا تَغشَّاهُ الموتُ جعل يمْسَحُ الْعَرَق عن وجْهِه ويقول: «لاَ إلَه إلاّ الله، إنَّ لِلْمَوْتِ لَسَكَرَاتٍ».

أي: إنّ للْمَوْتِ لَغشَيَاتٍ شَدِيداتٍ تَحْدُثُ مَعَها غيبوبَة، وبها يَفْقِدُ الْحِسُّ الشُّعورَ بما يَحْدُث.

وروى البخاري ومسلم عن عائشة، قالت: كان النبيُّ ﷺ يقُولُ وهُو صَحِيحٌ.

«إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ حَتَّىٰ يَرَىٰ مَقْعَدَهُ مِنَ الجنَّةِ، ثُمَّ يُخَيَّرُ».

فلمَّا نَزَلَ به، ورأسه على فَخذِي، غُشِيَ عَلَيْهِ، ثُمَّ أَفَاقَ، فَأَشْخَصَ بَصَرَهُ إلى سَقْفِ البيت، ثُمّ قال:

«اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَىٰ».

فَقُلْتُ إذاً لاَ يَخْتَارُنَا، وعَرَفْتُ أنَّهُ الحديثُ الذَّي كان يُحَدِّثُنَا وهو صَحِيحٌ.

قالت: فكانت آخِرَ كَلِمَةٍ تكَلَّمَ بها: «اللَّهُمَّ الرَّفيقَ الأَعْلَىٰ».

واللقطات التي عرضها هذا الدرس من أحداث الرّحلة بين سَكْرَةِ الْمَوْتِ ومَوْقف الحساب، أرْبَع لقطاتٍ بيانيَّة:

اللقطة الأولى: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾.

عَرَفْنَا آنِفاً ما هي سَكْرَةُ الْمَوْت، ونُلاحظ في هذا البيان استعمالَ الفعل الماضي في عبارة: ﴿وَجَآءَتْ﴾ مع أنَّ المخاطبَ بالنَّصّ وهو المكذِّبُ بيوم الدّين ما زَالَ يَعِيشُ في الحياة الدّنيا، لم تَأْتِهِ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بَعْدُ.

والحكمة البلاغيَّة الدَّاعيَةُ لهٰذا، هيَ الدَّلالَةُ على أنَّ الأَمْرَ مُتَحقِّقُ الْوُقوعِ، حتَّىٰ كَأَنَّهُ قَدْ وَقعَ فعلاً وانقضىٰ. ويُضَافُ إلى هٰذا ملاحظةُ أنه قَدْ وقع فِعلاً نظيرُه لِمَنْ سبَقَ مْوتُه نُزولَ النّصّ من الناس، وهو سيقع لسائرهم حتَّىٰ آخرِ إنسان في الأرض.

وأقول أيضاً: إنَّ المقضيَّ بالقضاء الرَّبَّانيِّ الْمُبْرَمِ أمْرٌ وَاقِعٌ حتماً في النموذج الْمُعَدِّ بِالقضاء والقدر، أمّا التطبيقُ في الواقِع العمليّ فَهُو الّذي يتَرَقَّبُ زَمَنه.

- ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: خلقناه

ووضعناه موضع الامتحان في رحلة الحياة الدنيا، وانتهىٰ أجَلُهُ فيها، وجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بالْحَقّ.

فما هو الحقّ الّذي جاءت به سَكْرَةُ الْمَوْت؟

● المتبادر إلى الأفهام أنَّ سَكْرَة الموت جاءت بالموت، الذي هو الحقُّ الذي لا يَشُكُّ فيه أَحدٌ، وهو اليقين الذي يُوقِنُ به كلُّ إنسان، وإِنْ كانَ يَحِيدُ عنْهُ وَيَفِرُّ منْهُ حُبًّا للحياة، وأصل العبارة على هذا. وَجاءت سَكْرَةُ الموتِ بالْمَوْتِ الحقِ، وحُذِفَ منها الموصوف وهو الموت اكتفاء بصفته، «الحقّ» فصارت: وَجاءت سَكْرَةُ الموت بالحق.

والْأقْربُ أن تكون «الباء» في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للتّعديَّة، إذْ يقالُ لغة: جَاءَ فُلاَنٌ بالشَّيء، بمعنى أحْضَرَه. كما يُسْتَعمل فعل «جاء» لازماً، فيقال: جاء فُلاَن، أي: حضَرَ.

● ويحتمل أن يكون الحقُّ الذي جاءت به سكْرَةُ الْمَوْتِ، مَا تُخْبِرُ به الملائكةُ المحتَضَرَ قُبَيْلَ مَوْته، عمَّا سيُلاقي بعْدَ موته ويَوْمَ الدّين من عذاب إذا كان من أهل النّار، ومن نعيم إذا كان من أهْلِ الجنة، وَمَا يُكْشَفُ له من مقْعَدِهِ الذي هو صائر إليه، في الجنة، أو في النار.

روى البخاري عن عُبَادَةَ بنِ الصامتِ عن النبيّ ﷺ، قال:

«مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

قالت عائشة أو بعْضُ أزواجِ النبيّ ﷺ: إنَّا لَنَكْرَهُ الْمَوْتَ قال ﷺ:

«لَيْسَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ بُشِّرَ بِرِضْوانِ اللَّهِ وَكَرَامَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحبَّ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَأَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحبَّ اللَّهُ لِقَاءَه.

وإنَّ الكَافِرَ إذَا حُضِرَ بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَعُقُوبَتِهِ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِ مِمَّا أَمَامَهُ، فَكَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ».

فَدَلَّ هذا الحديث على أَنّ سَكْرَةَ الموتِ تجيء بأمْرٍ يَعْلَمُ بِهِ المحتضَرُ عِلْمَ يقينٍ مَقْعَدَهُ منَ الجنَّةِ، أَوْ من النّار، فالمؤمنُ يشتاقُ إلىٰ مقْعَدِه في الجنَّةِ، فيُحِبُّ لقاءَ اللَّهِ يَوْم الحساب، فيُحِبُّ اللَّهُ لقاءه، ويَنْزِلُ به الموت. أمَّا الكافِرُ فيُصِيبُهُ الذُّعْرُ من مَقْعَدِهِ في النّار، فيكْرَهُ لِقَاءَ اللَّهِ يَوْم الحساب، فيَكْرَهُ اللَّهُ لقاءه، ويَنْزِلُ بِهِ الموت.

ويُمْكِنُ حمْلُ النّصّ على المعنَيَيْن: الموت، وما يُبشَّرُ به عند سَكَراته.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾:

هذا خطابٌ يُوجَّهُ للكافر عند احتضاره، أي: جاءكَ الموتُ الذي كنْتَ تكْرَهُهُ وتُحِبُّ أن يكونَ بعيداً عنك. وجاءَكَ العِلْمُ الحقُّ بعذابكَ الذي كُنْتَ تَسْتَبْعِدُه، فَلا تُصَدِّقُ بِنَبَأ البعثِ للحساب، وفَصْلِ القضاءِ، وتحقيق الجزاء.

﴿تَحِيدُ﴾: أي: تميلُ وتبتَعِدُ عنْهُ. يُقَالُ لُغةً: حَادَ عَنِ الشَّيْءِ يَحِيدُ حَيْداً وَحَيَداناً ومَحِيداً، أي: مال عنه وعَدَل.

وعُدِّيَ فِعْل «تَحِيد» بحرف الجرّ «من» بدل «عن» لتضمين فعل «تحيد» معنى فعل «تَفِرّ» فأغنى هذا التضمين عن ذكر جملتين، فالمعنى ذلِكَ مَا كُنتَ تَحِيدُ عنْهُ فارّاً منه.

والتضمينُ من لطائف الإيجاز في القرآن، أَحَدِ عناصر إعجازه.

وجاء في العبارَة استعمالُ اسْمِ الإشارة الموضوع للمشار إلَيْهِ البعيد، لأنّ الكافر يُحِبُّ أنْ يكونَ الموتُ بعيد الأجَلِ، على احتمال أنّ المراد

بالحقّ الموت. ولأنّ عذابه في جهنّم سوْف يكونُ يوم الدين. فالمناسب في الإشارة إليه: «ذَلِك» وهذا على الاحتمال الآخر.

ومع بشارة الكافر بمقْعَدِه من النار عنْد احتضاره، فإنّه يُعْرَضُ عليه مَقْعَدُهُ من النار بَعْدَ مَوْته غُدْوة وَعَشِيّاً، كما صحّ عن الرسول ﷺ.

روى البخاريُّ عن ابْن عُمَرَ قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ غُدْوَةً وَعَشِيًّا، إِمَّا النَّارُ، وَإِمَّا الْجَنَّةُ، فَيُقَالُ: هٰذَا مَقْعَدُكَ حَتَّىٰ تُبْعَثَ إِلَيْهِ».

بهذا تَمَّ تَصْوِيرُ اللّقطة الأولى المنتقاة من أحداث الرِّحْلَةِ بين سَكْرَةِ الموت، ومَوْقفِ الْحِسَاب يَوْم الدِّين.

اللّقطة الثانية: دلَّ عليها قول الله عزَّ وجلَّ:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾:

هذه الجملة معطوفة على جملة: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ واستعمال الفعل الماضي في ﴿وَنُفِخَ﴾ أقول فيه نظير الذي سبق قوله في استعمال الفعل الماضي في ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾.

الصُّور: مخلوق من مخلوقات الله كَهَيْئَة الْبُوق، أو كهيْئَةِ الْقَرْنِ، إحْدىٰ جِهَتَيْهِ دَائرةٌ ضيّقة، والجهة الأخرى دائرة واسعة كبيرة، وباطِنُهُ فارغٌ يُمْكِنُ أن يُنْفَخ فِيه فَيُصْدِرَ صوتاً بحَسَب مقداره وتكوينه.

وسماه الله عزّ وجل «الناقور» في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول).

● قال الحافظ ابْنُ حجر في الفتح: أخرج أبو داود، والترمذيّ وحسَّنه، والنسائي، وصحّحه ابْنُ حِبّانَ والحاكم، مِنْ حديثِ عبد الله بن عَمْرو بْنِ العاص قال: جَاءَ أعْرَابيٌّ إلَىٰ النبي ﷺ فقال: مَا الصُّورُ؟ قال: «قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ».

● وروى الترمذيّ عن سعيد مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنَّهُ قَالَ:

«كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ الصُّورِ قَدِ الْتَقَمَ الْقَرْنَ، واسْتَمَعَ الأُذُنَ، مَتَىٰ يُؤمَرُ بِالنَّفْخِ».

[قال الترمذي: حديث حسن]

● وروى أحمد والبيهقيُّ من حديث ابن عبّاس، أنَّ جِبْرِيلَ عن يمينه، وميكائيل عن يساره، وهو صاحب الصور، يعني إسرافيل.

قال ابْنُ حجَر: واشتهر أنَّ صاحبَ الصُّور إسرافيل عليه السلام.

أقول: والنّفخَةُ الّتي وردَتْ في هذا النّصّ هي النفخة الثانية التي يكون بها البعث إلى الحياة، لتَلَقِّي أحداث يوم الدّين. بدليل قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿. . .ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ﴾.

وجاء وصْفُ يوم الدِّين بأنّهُ يَوْمُ الوعيد، مع أنّه يومُ الوعْدِ والوعيد معاً، لأنّ الكافر بيوم الدين هو المقصود بالبيان، فهو بالنسبة إليه يَوْمُ الوَعِيدِ فقط.

وجاء في الآية الإشارة إلى يوم الوعيد باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، نظراً إلى أنّ نفخة البعْثِ يَكُونُ بعْدَها حشر وأحداثُ كثيرة، ثم تكون أحداث الحساب، وفَصْلِ القضاء، ثم يأتي تنفيذ الجزاء فيَتَحَقَّقُ الوعيد، فكانَ من دقة البيان أن يُشار إليه باسم الإشارة «ذَٰلِكَ».

وجاء في القرآن في غير سورة (قٓ) بيان أنَّ الصُّورَ تُنْفَخُ فيه نفختان:

النفخة الأولى: هي النّفخة الّتي يَصْعَقُ بها كُلُّ مَنْ في السماوات والأرض إلاّ مَنْ شاء الله، أي: يموت بها كلُّ حيٍّ خلقه الله إلاّ من شاء تأخيره، كنافخ الصور.

النفخة الثانية: هي النفخة الّتي يكون بها البعث إلى الحياة بعْدَ

الموت، وبها تنطَلِقُ الأرواح إلى أجسادها الّتي نبتَتْ في الأرض كما يَنْبُتُ البقل، على ما سبَق بيانه.

والدليل القرآني على هاتين النفْخَتين، نَجدُهُ في سورة (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) في قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وجاء في بيانات السُّنَّة أنّ الله عزّ وجلَّ يُمِيتُ بَعْدَ النفخة الأولَىٰ من استثناهم من الصّعقِ، أي: من الموت بها.

وورد في وصف الصّور أنّ فيه ثُقُوباً بَعَدَد كُلّ روح مخْلُوقَةٍ ونَفْسٍ مَنْفُوسَه، وفي هذه الثقوب تكونُ الأرواح بحسب منازلها، وعند البعث يأمُرُ الله إسرافيلَ فينفخ فيه، فتنْطَلِقُ كُلُّ رُوحٍ فتَدْخُلُ في جَسَدِها.

اللقطة الثالثة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجل:

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

جاء استعمالُ الفعل الماضي في هذه الجملة كما جاء في الجمل السابقة ونقول فيه ما سَبَقَ بيانُه في عبارة ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

والمعنى: وسَوْفَ تَأْتي كُلّ نَفْسٍ بَعثَها اللَّهُ عزّ وجلَّ للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، مَعَها مَلَكانِ:

(١) مَلَكٌ يَسُوقُها إلى المحشر.

(٢) ومَلَكٌ يَشْهَدُ عَلَيْها بمَا عَمِلتْ في الحياة الدُّنيا مِنَ السّيّئات.

السّائِقُ في اللُّغَة: هو الذي يحُثُّ الْمَسُوقَ من خلفه[1].

(١) بخلاف القائد، فهو الذي يمشِي أمام المقود ويجذِبُه ليَتْبَعه، وقائد الدابّة هو الذي يمشي أمامها آخذاً بمِقْوَدِها يَجُرُّها.

ونستطيع بالتأمُّل الاستنباطيّ أن نفهم أنْ السَّائِقَ هو المَلَكُ القَرِينُ الَّذِي كان في الحياة الدّنيا مأْموراً بكِتَابَةِ الحسنات، وهذا لَمْ يُسَمِّهِ اللَّهُ شَهيداً، لأنَّه كانَ يُدَوّنُ الحسنات، وتكْفِي الإنسان، كتابَةُ الْمَلَكِ الشَّاملة لحسناته، ويكفيه قبل ذلك وفوقَهُ عِلْمُ اللَّهِ، والله لاَ يحتاجُ لمن يَشْهَدُ له أو عليه.

أمّا الشهيد فهو الملَكُ القرين الذي كَانَ في الحياة الدنيا مأْموراً بكتابَةِ السّيِّئات، وَلمَّا كانَ الإنسان أكْثَرَ شيءٍ جدلاً كانَ حالُهُ يتطَلَّبُ من يَشْهَدُ عليه بما جَنىٰ من سيّئاتٍ في الحياة الدُّنيا.

اللّقطَة الرابعة: دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿فِى غَفْلَةٍ﴾: أي: مُنْغمِساً في غَفْلَةٍ، إذِ الغَفْلَةُ مُحِيطَةٌ بِكَ إحاطة تامَّة، والخطاب يُوجَّهُ لِمَنْ كَان يكْفُر بيوم الدّين، فهو الذي كان في الحياة الدّنيا منْغَمِساً في غَفْلَةٍ شَدِيدة محيطةٍ به. أيْ: يقالُ لَهُ هذا القول.

الغَفْلَة عن الشيء: هي الانصراف الحسّيُّ والفكريُّ عن ملاحظته ومُراقَبَتِه، مع وُجوده في مجال الإدْراكِ، أو وجود أَدِلّته، وإمكان إدْراكِ ذَلِكَ لولا وُجود الصَّارِف، أو السَّهْوِ الّذي هو بمثابة إطباق الجفْنَيْنِ على العَيْنَيْنِ، ومَا تُطْلَبُ رُؤْيَتُهُ حَاضِرٌ في مجال النظر.

يقال لغةً: غَفَلَ فُلانٌ عن الشيءِ يَغْفُلُ غُفُولاً وَغَفْلَةً.

والمكذِّبُ بيَوْم الدِّينِ شَغَلَتْهُ أهْواؤُهُ وشَهَواتُه في الحياة الدنيا، فَغَشَّتْ على كُلِّ حَوَاسِّه الظَّاهِرة والباطِنَةِ، وكُلِّ قُدْراتِه الإدْراكيَّة، فَغَطَّتْهَا تغطيةً تامَّةً، وَوَجَّهتْهَا لِلَذَّاتِ الحياة الدّنيا وزِينَاتِها وأنواع متاعها الزائل.

ولكنْ مَا الْحِكْمَةُ مِنْ وَضع حرف «مِنْ» بدَل حرفُ «عَنْ» في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾؟؟

أقول: هذا جارٍ على قاعِدَةِ التضمين، التي تكْثُرُ أمْثِلَتُها في الْقُرْآن المجيد، إيجازاً في اللّفظ، إذْ تُغْنِي الجملَةُ عن جُملَتَيْن، والْإيجازُ في القرآن أَحَدُ عناصر الإعجاز.

وفي حلّ هذا التضمين أقول: إنّ المكَذِّب بيوم الدِّين قد كان في الحياةِ الدنيا غارقاً في مَطَالِبِهِ مِنْها، مُنْصَرِفاً عن كُلِّ ما سِوَاها، وحينَ تُعْرَضُ عليه أَدِلَّةُ يَوْمِ الدِّينِ، وما فيه من حساب، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتنفيذِ جزاء، يكون نَافِراً مِنْها، وكُلَّمَا ذُكِّرَ بِها لَمْ يَزْدَدْ إلاَّ نُفُوراً. ومعلومٌ أنَّ فِعْل «نَفَرَ يَنْفِرُ نُفُوراً» يتَعَدَّىٰ بحَرْف «مِنْ».

فَضُمِّنتْ كَلِمةُ «غَفْلَة» وهي مَصْدَرٌ يَعْمَلُ عمل فعله، مَعنى كَلِمَةِ: «نُفُور» فَعُدِّيَتْ تَعْدِيتها. والتقدير يكون كما يلي: لَقَد كُنتَ فِي غَفْلَةٍ غارِقاً في متاع الحياة الدّنيا وزينتها، نافِراً مِنْ كُلِّ بَلاغٍ ودليلٍ يَتَعَلَّقُ بيَوْمِ الدين، ومن كلِّ تَذْكيرٍ يُذَكِّرُكَ به.

وقد جاء في عدّة نصوص قرآنيّة استعمال مادّةِ «النفور» من البيان ومن التذكير، بالنسبة إلى الكافرين المُصِرِّين على كُفْرِهم، فتقدير النفور يُلائِم الاستعمال القرآنيّ في مواضع أخرى.

النُّفُور: هو الإعراضُ والصَّدُّ والابْتِعاد، كحالة المذعور الشارد، أو المتَمَنِّع المتراجِعِ بِجِرَان.

● ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾: كلامٌ صادرٌ عن الله عزَّ وجلَّ مستعملٌ فيه ضمير المتكلّم العظيم، ومُوَجَّهٌ لمن كان في الحياة الدنيا مُكَذِّباً بيوم الدّين.

أي: فكشَفْنَا الْيَوْمَ عَنْكَ الْغِطَاءَ الَّذي كَانَ يُغَشِّي على مَدَارِكِكَ وبَصِيرَتِكَ في الحياةِ الدُّنيا، وهو غطاء الأَهْواء والشهوات والتَّعلُّق بمَتَاعِ الحياة الدنيا وزينتها، عند مشاهدتِكَ أَحْدَاث يوم القيامة، وبِقَطْعِ مطامعك التي كانَتْ مَوصُولَةً كُلُّها بالحياة الدنيا، ومُنْحَصِرَةً فيها.

● ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾: يُطلَقُ البَصَرُ ويُرادُ به ما تراهُ العَيْنُ المبْصِرَة، ومَا يحدُثُ بِهِ العِلْم وهي القوىٰ التي تُدْرَكُ بها المعارف في نفس الإنسان.

ومعلومٌ أنَّ الّذِي كانَ مُغَطًّى في الحياة الدنيا من المكذِّب بيوم الدّين قُواهُ الإدْراكيّة، لاعَيْنُه المبصرة، فالّذي كَشَفَ اللّهُ عنه الغطاءَ، هٰذِه القُوى الإدْراكيَّةُ النفسية، وجاء التعبير عنها بالْبَصَر لأنها هي مراكز الإبْصَار في الحقيقة.

﴿حَدِيدٌ﴾: أي: قويٌّ نَافِذٌ يَرَىٰ بِدِقَّةٍ ما كان مُنْصَرِفاً عن آياته ودلائله الفِكْرِيَّة العقليَّة، وغافلاً عنه، ونافراً من كلّ بيانٍ له، وتذكيرٍ به.

إنّ المكذِّب بيَوْم الدّين قَدْ شَغَلَتْهُ أهواؤه وشهواتُه ومطامِعُه في الحياة الدنيا، فغفل عن آيات الله في الكَوْن، وعن دلائل يَوْم الدين الفكريَّة العقليّة، وأعرض عن آيات الله المنزَّلَة ونَفَرَ منها، ومِنْ كُلِّ مُذَكِّرٍ بها، فضَلَّ وغَوَىٰ، ولم يُؤْمِنْ بالغيب.

لكنَّهَ يَوْمَ يُبْعَثُ يَكْشِفُ الله عن بَصِيرَته الأغشية الدنيويَّة، فيَرَىٰ مشاهد يوم الدّين، الْيَوْم الذي كان قد كذَّبَ به، وهو في حياة الامتحان.

❋ ❋ ❋

(١٢)
التدبّر التحليليّ للدرس الثامن من دروس السّورة
وهو الآيات من (٢٣ ـ ٢٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ

قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾: أي: الْمَلَكُ الَّذي كان مُلازماً لَهُ عَنْ شِماله يُسَجّلُ عليه السّيِّئَات في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا.

﴿هَـٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾: أي: هذا ما عِنْدِي ممَّا سجَّلْتُهُ عليه من سيِّئَاتٍ مُهَيَّأٌ مُعَدٌّ حَاضِرٌ. **عَتِيدٌ**: أي: مُهَيَّأٌ مُعَدٌّ حَاضِرٌ.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾: أَمْرٌ يُوَجَّهُ للملَكَيْن اللَّذَيْنِ كانا في الحاة الدنيا ملازمَيْنِ لَهُ، مَنْ كان قعيداً على يمينه مأموراً بتسجيل الحسنات، ومَنْ كان قَعِيداً على شِماله مأموراً بتسجيل السَّيِّئَاتِ. **وجَهَنَّم**: اسم علم من أسماء دار العذاب يوم الدين[1].

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾: أي: كُلَّ بالغ في الكُفْر أسْفَلَ دَرَكاته، ليس في داخله مثقال حبَّةٍ من خَرْدَلٍ مِنْ إيمان صحيح مقبول عند الله ﴿كَفَّارٍ﴾ من صيَغ المبالغة.

﴿عَنِيدٍ﴾ أي: ذو عنادٍ شديد، فهو يَعْرِفُ الحقَّ ويُخالفه ويَرُدُّه، بجُرْأة ووَقاحة. **عَنِيد**: على وَزْنِ «فعِيل» فهو من صيغ المبالغة لاسم الفاعل. يقال لغة: عنَدَ فُلانٌ يَعْنِدُ عَنْداً وعُنُوداً، فهو عانِد، ويقال في المبالغة: عَنُود وَعنيد.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: أي: كثيرِ المنع للخير الّذي يأمُرُ الله به.

﴿مُعْتَدٍ﴾: أي: ذُو عُدْوان على الناس، وعلى الحق وعلَىٰ كلّ خير وفضيلة.

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي: يوقع الناس في الرِّيبة والشَّكِّ بوساوسه وإغوائه، وتَضْليلاَتِهِ، يقال لغة: أرَابَ المضَلِّلُ الرَّجلَ، أي: أوقَعَهُ في الرِّيبة والشك.

---

(١) **جهنم**: ممنوعٌ من الصّرف للعلمية والتأنيث. ويقال لغة: **بئرٌ جهنم**: أي: بعيدة القعر.

أو أقلقه وأزعَجه، وحَمْلُ مُرِيب هنا على أن ذو شك غير مناسِب بعد إثبات أنه كفار.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾: هو الشيطان الذي كان ملازماً للإنسان في حياة امتحانه، وقريناً له يُوَسْوِسُ له ويُسَوّل، وهو أحد جنود إبليس من كَفَرَةِ الجنّ.

❀ ❀ ❀

في هذا الدرس الثامن من دروس السورة عرضُ لقطاتٍ مِنْ مَوْقِفِ المحكمة الرّبّانيّة يَوْمَ الدّين، التي يَجْري فيها الحساب، وفَصْل القضاء، وهٰذهِ اللّقَطاتُ خاصّةٌ بالكافِرين المكذّبين للرُّسُل، والمكذّبين بنَبَأ يَوْمِ الدّين، وقد جاء عَرْضُها مزيجاً بَيْنَ أمورٍ ذُكِرَتْ على أنَّها وقَعَتْ وانْقَضَتْ، لتأكيد أنها سوف تقع لا محالة، وأُمورٍ مقتَطَعَةٍ من الحدث نفسه، ومُقدّمةٍ في النّصّ كأنّها تقع الآن، وهٰذا مِنْ روائع المبتكَرات والإبداعَاتِ القرآنيّة.

وقد جاء ترتيب عرض هذه اللّقطاتِ في السّورَةِ عَقِبَ عَرْضِ لقطاتٍ من أحداثِ الرِّحْلَة بَيْنَ سَكْرَةِ الْمَوْتِ ومَوْقف الحساب الَّتي جاءت في الدَّرْسِ السّابع من دروس السُّورة، والّتي سبَقَ تَدَبُّرُها.

فالترتيبُ مُراعًى فيه التَّسَلْسُلُ المنطقيُّ، والترابط الفكرِيُّ فيه واضحٌ جليٌّ.

فلْنَتَدَبَّرْ فقرات الدرس الثامن، مستخلصين منها اللَّقَطاتِ المختارات للعرض، من شريطِ مَوْقف المحاكمة:

فاللقطة الأولى: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾.

مَنْ هُوَ هذا القرين؟

باستطاعة المتدبّر إذا تأمّل في سِيَاقِ النَّصّ، أنْ يُدْرِكَ أنَّهُ الملَكُ الّذِي كَانَ مَعَهُ في الحياة الدُّنيا قعيداً عن شِمَالِه، ومأموراً برصْدِ سيّئاتِه وتَسْجِيلِها، لأنَّهُ هو الشَّهيد الّذِي يَشْهَدُ عَلَيْهِ من الملائكة يَوْمَ الدِّين.

أمَّا الملَكُ الآخرُ القَعيدُ عن يَمينِهِ والمأْمُورُ بِرَصْدِ حَسَنَاتِه، وتَسْجِيلِها، فقد دَلَّ الدَّرْسُ السَّابقُ على أنّ وظيفَتَه بين البعث وموقف الحساب، سَوْقُ الإنسانِ إلى مَوْقف حسابه، وبما أنَّهُ كاتِبُ حسناته فلا دَوْرَ لَهُ في الشهادة على الكافِرِ المكذِّب للرَّسُول، والمكذّب بنبأ يَوْمِ الدين.

إنَّ الملَكَ القرينَ راصِدَ السَّيِّئَاتِ ومُسَجّلَها بالصَّوْتِ والصُّورَةِ والنّيّاتِ، وحَرَكاتِ النفس معها، يُسَجِّلُ كُلَّ الأقْوالِ والأَعْمَالِ الظاهرة والباطِنة، الفكْرِيَّةِ والنفسيَّة والقلْبيَّةِ، لاَ يُمْكِنُ أَنْ يَقُول: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ دُونَ أن يُسْأَلَ مسائلَ تَتَعلَّقُ بالْوَظيفَةِ الْمُسْنَدةِ إليه بخُصُوصِ الْمَسُوقِ إلَىٰ المحاكمة، لكِنَّ البيانَ الْقُرْآنيَّ طوى أحداثاً تكُونُ قَبْلَ هٰذا الْقَوْلِ، لأنَّ المتدبِّر يُمْكِنُ أَنْ يَسْتَنْبِطها بالتَّفكُّر، لِمَلْءِ الفراغاتِ بَيْنَ اللَّقَطات، واعْتَنَىٰ النَّصُّ بتَقْدِيم اللَّقْطَةِ الأجْدَرِ بالبيان، والملائمةِ لهذا النّجم القرآني.

فالْمُهِمُّ أَنْ يُقَدِّمَ ما لدَيه من وثائق لإدانة هذا الإنسان الذي كان في الحياة الدنيا موضوعاً تحْت المراقبة، وتُسَجَّل عليه جرائمة وقبائحه وسيّئاته.

فالواو العاطفة في جملة: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ تَدُلُّ على أنّ في النَّصّ كَلاماً مَطْويًّا تَعْطِفُ الواو عليه كشأْنِ الفاء الفصيحة الّتي ذكرها النحاة، فقد اكتَشَفْتُ خِلاَلَ تَدَبُّري الطَّويل لآيات كتاب اللّهِ المجيد، أنَّ العطف على محذوف لا يقتصر على الفاء الفصيحة الّتي ذكَرها النحويُّون والمُفَسِّرُونَ، بل قد يكون بغير الفاء من حروف العطف، والتدبُّر المتأنّي مع توفيق اللّهِ عزّ وجلّ كفيل باستخراج المطويات في النّصُوصُ القرآنيّة، ويُسْتَدَلُّ عليها أحياناً بذِكر حَرْفٍ من حروف العطف، أو بالاقتضاء الفكريّ،

أو باللَّوازم الذهنية، أو بالتقابل والتناظر، أو بغير ذلك، وقد لا تقتصر الدلالة على واحد من هذه الأمور.

ويمكن تقدير المطويّات في مَثَاني النصّ كُلّه، بدْءاً مِنْ خِطَابِ الكافر في محكمة العدل الرَّبَّانِيَّةِ بما يلي:

أيُّها الإنسَانُ الّذي كُنتَ تكذّبُ بنَبَإِ يَوْم الدِّين، لَقَدْ كُنتَ في الحياة الدّنيا غَارِقاً في غَفْلَةٍ بمطالِبِكَ من الحياة الدّنيا، ولذَّاتِها، وأنواع متاعها وزينتها، وكُنتَ نافراً من تقبُّلِ نَبأ الْبَعْثِ إلى يوم الدّين، الذي صار الآن يُشَارُ إليه باسم الإشارة: «هذا» فَكَشفْنَا عنْكَ الغطاء الذي كان يحجُبُكَ عن اسِتبْصَارِ دلائلِ هذا اليوم الحق، بذهاب ظرُوف الحياة الدنيا، وانْتِزَاعِ دوافع أهْوَائِكَ وشهواتِكَ مِنكَ، ووضْعِكَ مَوْضِع المشاهِدِ لأحداث يوم الدّين، فَأَنْت الآنَ ذو بصَرٍ إدْراكيٍّ قويّ شِديد.

وهنا عند هذ المفصل يَدُلُّ سياقُ النصّ على أنَّ هذا الذي كان كافراً بيومِ الدِّين، يُقَالُ له وهو مَوْجودٌ في أَحْداثه: أَلَيْسَ هذا بالحق؟!.

فيقولُ: بلىٰ. فيقال للملك القعيد عن شماله في الحياة الدنيا لقد كنت تسجّل عليه سيئاته فماذا عِنْدَك؟ قال: نعم، لَقَدْ كُنْتُ في الدُّنيا أُسَجّلُ عليه سَيّئاتِه وفْقَ الأمْرِ الْمُوَجّهِ لي، وقال: هذا ما لدَيّ عَتِيدٌ حاضِرٌ مُهَيّأٌ مُعَدٌّ حسْبَ الأَمْرِ إِعداداً تامّاً بدون تحريف ولا زيادة.

فيُعْرَضُ عليه كتابُ أعمالِه ناطقاً بالحق.

ويقتصر البيان على اللّقطة الدّالّة باللّوازم الذهنيَّة على ما قَبْلَها وما بَعْدَها، فالإنسان المحاكَمُ كَانَ كافِراً بربِّهِ، مُكذِّباً لرُسُله، ومُكَذِّباً بَنَبأ يوم الدّين، ولا جزاء له إلاّ الحكم عليه بالعذاب الخالد، وبَعْدَ الحكم يَصْدُرُ الأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بإِلْقَائِهِ في جهنّمَ، ولا تَدْعُو الحاجَةُ إلى إطالة مُحَاسَبَتِه وَمُنَاقَشَتِهِ الْحِسَاب.

ويمكن تَصْوير المحاكمة الّتي تُجْرَىٰ له على وجه التقريب بما يلي:

- كيف كانَتْ حالُهُ في الدنيا؟
- لقد كان كافراً مُجْرماً، وهٰذه الوثائق اليقينيَّة تُدِينُهُ وتُجَرِّمُه.
- فإن اعْتَرَفَ صدَر الحكْمُ عليه، وعلى قرينه الشيطان الذي كان يوسوس له.
- وإن أنْكرَ شَهِدَتْ عليه جوارحُه، وتتِمُّ إدانَتُه، ويَصْدُرُ الحكم عليه وعلى قرينه الشيطان بالخلود في عذاب النار.
- وبَعْد هذه المحاكمة يصْدُرُ الأمْرُ بتنفيذ الحكم.
- ويُفْرَزُ المجرمون إلى زُمَر بحسب مذاهبهم في الكفر، وبحسب أئمتهم، بانتظار استكمال محاكمة أمثالهم.

ومع كُلِّ مجرمٍ قريناه من الملائكة: السَّائقُ والشَّهِيد، وهما اللّذان كانا مَأمورَيْنِ بملازمته في الحياة الدنيا، وكان الذي عن يمينه مأموراً بكتابة حسناته، وكان الذي عن شماله مأموراً بكتابه سيّئاته، وهما الآنَ مأموران معاً بضبطه وسوقه وحراسته، حتَّىٰ يَصْدُرَ الأَمْرُ بإلقائه في جهنّم مع زُمْرَتهِ الّتي هو منها.

ومَعَ كُلّ مُجْرِمٍ أيَضاً قرينُه من الشياطين، وهو الَّذي كان أتْبَعَهُ في الحياة الدّنيا، فزاده إغْواءَ وضلالاً، ويكُونُ الحكْمُ على الشيطان القرين بالخلود في عذاب جهنّم، لأنَّهُ كَانَ كافراً مُضِلاًّ.

حتَّىٰ إذا انتهىٰ الحكم على المجرمين، وجُمِعُوا مُنْعَزِلينَ زُمراً، يأمُرُ اللّهُ عزّ وجلَّ بسوقهم إلى جهنّم زُمُراً.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا

وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

هذا ما يتعلّقُ باللّقطة الأولىٰ في هذا الدّرس.

اللقطة الثانية: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

هذه الآياتُ الثلاثُ قدّمَتِ اللّقطة الثانيةَ من هذا الدرس، والّتي تتضمَّن الأمْرَ العامَّ بإلْقاءِ الْمُجرمينَ في جهنَّم، إذْ يُوَجِّه الله عزّ وجلّ الأَمْرَ لكُلِّ ملَكَيْنِ قَرينَيْن منُذ بَدْءِ رِحْلَةِ الابتلاء في الحياة الدّنيا، والملازمينِ لَهُ في يَوْم الحساب، وفَصْل القضاء، حتّىٰ تنفيذِ الجزاء، بإلْقَاءِ قَرينِهِمَا المجرِمِ من الإِنْسِ مَعَ قَرِنيه الشيطان من الجنّ، في جَهَنّم، دار عذاب الكافرين المجرمين.

لقد جاء الأمر للقرينَيْن من الملائكة شاملاً كُلَّ قرينَيْن من أصْحَاب هذه الوظيفة، على طريقة الخطاب الشبيهة بالخطاب الإفرادي، والّذي يَفْهَمُ منه كُلُّ اثنين منهما أنهما مَقْصُودان بالخطاب.

ويَتِمُّ إلقاءُ الكافرين في جَهَنَّم زُمَراً كما جاء في النَّص الّذِي سَبَقَ الاستشهادُ بِه آنفاً من سورة الزُّمر، إذْ يُلْقِي كُلُّ مَلَكَيْنِ قَرينهما الكافر من الإنس، وقرينَهُ الذي كان يُوَسْوِسُ له بالشَّرّ من الجنّ جُنود إبليس.

وقد جاء وصْفُ هؤلاء الكافرين المجرمين عنْدَ الأمْرِ بإلْقَائِهم في جهنَّم مَبْسُوطاً، للدّلالة على أنَّ كلَّ واحدٍ مِنهم قَدْ ثَبَتَ عَلَيْهِ لدَىٰ حِسَابه كُلُّ هٰذِهِ الصّفات، واشتمل قَرارُ الحكْم عليه بَعْدَ مُحاكَمَتِهِ عَلىٰ كُلّ هٰذِهِ الصّفات، فأغْنَىٰ ذِكْرُها هُنَا عَنْ ذِكْرِها في المراحل قبل ذلك، وأغْنَىٰ ذِكْرُ

الْأَمْرِ بالْإِلْقاءِ في جهنَّمَ عنِ التَّصْرِيحِ يصيغة قرار الحكم، وكُلُّ هذا من بديع الإيجاز القائم على الإلْماح، والاكْتِفاءِ بما يَدُلُّ على الْأَمْرِ دُونَ ذِكْرِه، وهو من رفيع الأدب.

أمّا الصّفاتُ الّتي تَدَنَّسَ بها كُلُّ واحدٍ من هؤلاء الكافرين المجرمين الْمَحْكُومِ علَيْهِم بالإلْقَاءِ في جهنَّم، فهي ما يلي:

الصِّفَةُ الأولى: أنَّه ﴿كَفَّارٍ﴾، أي: ذُو كُفْرٍ مُفْرِطٍ، بدليل صيغة المبالغة «فعَّال».

ولدى تحليل وَاقع حالِ الإنسان الكَفَّار نُلاحظُ أنّه إنسانٌ عُرِضَتْ عليه أدلَّةُ الإيمان الكثيرة، فَجَعَلَ يَسْتُرُها ويَدْفِنُها تباعاً، لِئَلاَّ تُؤَثِّر على نَفْسِه فَيُؤمن، فيُضطَّرَّ بإيمانه أنْ يخالف أهواءَه وشهَواتِه الحاكمة على إرادتِه في الحياة، خَوْفاً من عِقاب اللَّهِ وَعذابه.

الصفة الثانية: أنه ﴿عَنِيدٍ﴾ أي: ذو عنادٍ شديد، فَهُو يَعْرِفُ الحقَّ ويَرُدُّهُ بِجُرْأَةٍ وَوَقاحَة، وتأتِيه الإنْذَارات بالْعذَاب فَلا يكْتَرِثُ لها، ويُصِرُّ على رفضِه لِلْحقّ، ويَمَسُّه بعضُ العقاب الْمَعجَّل فيظَلُّ مُصرّاً على رفضه لِلحقّ عناداً واستِكْبَاراً.

الصفة الثالثة: أنه ﴿مَّنَاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: هو شحيح لا يَبْذُلُ من جَسَدِه ولاَ مِنْ مالِهِ ولا من جاهه، ويقفُ في طريق الباذِلين المحسنين، فيمْنَعُهُمْ من فعل الخير بشدّة، فصيغة «مَنَّاع» من صيغ المبالغة.

وهو أيضاً يمنَعُ دَعْوَة الحقّ الرّبّانِي من الانتشار بين الناس، لأنّ انتشار الحقّ والخير في النّاس يُفَوّتُ عليه التسلّط على عباد الله، وانتهابَ حُقُوقهم، ويقْطَعُ عليه سُبُلَ جرائمه وفواحشه.

والسَّبَبُ في كلّ ذَلك أنَّه لا يُؤمنُ بالجزاء الرَّبَّانيِّ المعجَّل والمؤجّل إلى يوم الدين.

الصّفة الرابعة: أنّه ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: هو لا يكتفي بأنْ يمْنَع الْخَيْر، بل يمارسُ الْعُدْوان على الناس في حُقُوقهم المختلفة، الماليّة والأَدبيَّة، والجسديَّة، ففي المال يسْلُبُ وَيَظْلِم، وفي الأعراض يجرِّح ويَسُبُّ ويَشْتُم، وفي الأجساد يضْرِبُ ويَهْشِم، ويجرَحُ ويقْتُل، ويحاربُ ويُهْلِكُ الْحَرْث والنَّسْل، ويُفْسِد في الأرض.

الصفة الخامسة: أنّه ﴿مُّرِيبٍ﴾: من فعل أرَابَ غَيْرَه، إذَا أوقَعه في الشّك والرّيبة. أي: فهو لا يكتفي بأن يكفُرَ بالله واليوم الآخر، ويكفر بالرُّسُل وبالكتب وبسائر أركان الإيمان بل يجتهد حاشداً ما لديه من حِيَلٍ تضليليَّة زُخرفيَّة، ليُلْقي الشُّكُوكَ في أفكار النّاس وقلوبهم ونُفوسهم عن الدّين كُلّه، ويوقِعَهُمْ في الرَّيب بما يَصْنَعُ من زخْرُف القول تزييفاً وتزويراً للحقائق.

الصفة السادسة: أنّه ﴿جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ فهو يَعْبُدُه من دُون اللّهِ، أي: هو مُشْرِكٌ.

والشِّرْكُ أخَفُّ دَركاتِ الكُفْرِ خسَّةً وانْحِطَاطاً. وأَقْبَحُ من الشِّرْكِ في العبادة الشِرْكُ في الرُّبُوبيّة، وأقْبَحُ مِنْهُما إسنادُ الرُّبوبيَّة لغير الله، وأخَسُّ الدَّرَكات وأحَطُّها إنكار وُجُودِ رَبٍّ خالِقٍ لهذا الكون مُطْلَقاً، وأصْحَابُ هذا الإلحاد الشنيع هم الذي يقولون: لا رَبَّ وَلا إلَه والكَوْنُ مادّة.

ومن ذِكْرِ صِفَة الشِّرك التي هي أخَفُّ دَرَكَات الكُفر نَفْهَمُ عن طَريق اللُّزوم العقليّ أنَّ مَنْ كان ذَا دَرَكةٍ أخَسَّ وأحطَّ من دركة أخفّ أنواع الكُفر، مَشْمُولٌ من باب أَوْلى باستحقاق الإلْقَاءِ في جهنَّمَ خالداً فيها مُخَلَّدا، ولَهُ فيها دركةٌ تُلَائم دَرَكة كُفْرِه.

أفلا يَسْتَحِقُّ كُلُّ مَنْ هٰذه صفاتُه في الحياة الدنيا، أنْ يَأْمُرَ اللّهُ الملكَيْن المأمُورَين بمراقَبتَهِ في الدُّنيا، وسَوْقِهِ والشَهَادَةِ عليه يوم الحساب،

بأنْ يُلْقياه في العذاب الشَّديد في جَهَنَّم وبِئْسَ المصير. فقال اللَّهُ عزّ وجل في آخر اللّقْطة الثانية:

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴾.

اللّقطة الثالثة: دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ:

﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩) ﴾.

القرين هُنَا هو قَرين الكافر منْ شياطين الجنّ، وهو الذي كَانَ معه في الحياة الدنيا يُوسْوِسُ لَهُ، ويَحُثُّهُ على الكُفر وارْتكاب الجرائم، كيما يَزْدَادَ في غَيّةِ وفجورِه وكُفْرِه.

وحين يرىٰ هذا القرينُ من شياطين الجنّ، أنَّه سَيُلْقَىٰ مَعَهُ في جهنَّم حَيْثُ العذابُ الشديد، يُحاوِلُ أنْ يُبَرِّئ نَفْسه من جَرِيمَةِ إغْوائِهِ لقرينه الكافر من الإنس، فينادي قائلاً:

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: رَبَّنَا ما أنا الذي جعَلْتُهُ يَطْغَىٰ، أي: يُجاوز الحدَّ في العِصْيان، حتَّىٰ بلغ مُنْحطًّا إلى الكُفر، وهابطاً في دَرَكَاتِه. ولكِنْ وَجَدْتُهُ في ضَلاَلٍ بَعِيد عن حُدُودِ الهِدَايَةِ والإيمان. فأتْبَعْتُه وجَعَلْتُ أوَسْوِسُ له.

ويَحْصُل تَخَاصُمٌ بَيْنَ الْكَافِرِ وَقَرِينة الشيطان.

كأنْ يَقُولَ الكافِرُ لقرينه الشيطان: أَنْتَ الْذي أطغيتني، بوساوِسِكَ وَتَسْوِيلاتِك لي، وإطَمَاعَاتِك الكاذبات.

فيقول له شيطانه: أنت الذي كنْتَ في ضَلاَلٍ بَعِيدٍ، ومَا كَانَ لي عَلَيْكَ مِنْ سلطان،، إلاَّ أنني كُنْتُ أدْعُوكَ فَتَسْتَجيبُ لي.

ويَشْتَدُ بَيْنَهما التخاصُم والجدَال.

دلَّ على هذا التخاصُم المطويّ الَّذي لم يأتِ في النَّصّ تَصْرِيحٌ بأقوال أيٍّ من المتخاصِمَيْن، قول الله عزّ وجل في الآية التالية:

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ أي: قال اللّهُ عزّ وجلّ للّذين يتخاصَمُون لَدَيْه من كفّار الإِنس وقرنائهم من شياطين الجنّ: لاَ تخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إليكم بالْوَعِيد. أي: فكل وَاحِدٍ منكم ينالُه من العقاب على مقدار جرائمه الّتي ارتَكَبَها في الحياة الدنيا، فلا تزر وازرةٌ وِزْرَ أخرى، فَمَن كفر من الإِنْس وطغىٰ وأجْرَمَ فقد اكتَسَبَ خطاياه وهو حُرُّ الإرادة، يَمْلِك الأهليّةَ التامَّة للتكْلِيف والمسؤوليّة وتَحمُّلِ النتائج. ومَنْ كَفَر وأغْوَىٰ من شياطين الجنّ ووَسْوَسَ بالشرّ، وسَوَّلَ مطمعاً بالباطل، فقد اكتَسَبَ خطاياه، وهو حُرُّ الإرادة، يَمْلِكُ الأهليّة التامَّة للتكليف والمسؤوليّة وتحمُّل النتائج.

وقانون الحساب، وفَصْلِ القضاء، والجزاء، وما تضَمَّنَ كلُّ ذلِكَ مِنْ وَعيد، قد كانَ مبيَّناً مُفصّلاً فيما أُنْزَلْتُ مِنْ كتاب، وفيما بيَّنَهُ وشَرَحَهُ رَسُولِي.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: إنّ القول الذي سبَقَ مِنّي في بيان تكاليف الدِّين، وفي بيان الْوَعِيدِ الذي قَرَّرْتُهُ حتماً على الكافرين والمجرمِين، لاَ تَبْديلَ له، فلا مطمع لأحَدٍ بأنْ يَجِدَ لنفسه مخرجاً، أو معاذير يَعْتَذِرُ بها، أو جَدَلِيَّاتٍ يخاصِمُ بها، سواءٌ أكان من الإنْس أم من الجنّ.

وفي تنفيذ وعيدي لا أظْلِمُ عبيدي مثقال ذَرَّة.

قد يسأل سائل: لماذا جاء في النصّ استعمال «ظَلَّام» وهو من صيغ المبالغة، ونفي كونه ظلّاماً لا يقتضي نفْيَ كونه ظالماً؟!

أقول: جاء في القرآن بيان أنّ الله عزَّ وجلَّ لاَ يَظْلِمُ مِثْالَ ذَرَّة.

وقد أشارت عبارة «ظلاّم» هنا وفي أمثالها إلى معنى دقيق، وهو أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لا يظْلِمُ عَبيدَه عِنْدَ تنفيذ وعيدِه شيئاً، ولو ظلم كلّ واحدٍ منهم أقلَّ ظُلْمٍ وهو المتفرِّدُ بالحكم، وعَبِيدُه المستحقّونَ للعقاب كثيرون لكانَ ظلاَّماً.

(١٣)

التدبّر التحليلي للدّرس التاسع من دروس السور وهو الآيات من (٣٠ ـ ٣٥)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

● قرأ نافع، وشعبة: ﴿يَوْم يَقُولُ﴾ بضمير الغائب.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشرة: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ بضمير المتكلّم العظيم.

والقراءتَان من قبيل التَّفنُّن البَيانِيّ، فما قبْلَ الْآية يلائمه قراءة الجمهور: ﴿يَوْمَ نَقُولُ﴾ إذْ قَبْلَها مباشرة قولُه تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

أمّا قراءة نافع وشُعْبَة فَقَدْ لُوحِظَ فيها الحديث عن الله عزّ وجلّ بضمير الْغَائِبِ في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي: قال اللَّهُ عزَّ وجلّ.

● وقرأ ابْنُ كثير: [هٰذا ما يُوعَدُونَ] بضمير الغائبين.

وقرأ باقي الْقُرَّاء العشر: [هٰذا ما تُوعَدُونَ] بضمير المخاطبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ بيانيّ، فقراءة ابْن كثير لوحظ فيها بيانُ الله غيْرُ

الموجّه لخطاب المكلّفين، وقراءة الجمهور خاطب الله بها المكلّفين.

في هذا الدرس من دروس السُّورة بيان أرْبَعِ لقَطَاتٍ مختارات من أحداثِ يوم الدّين، غير اللّقطاتِ التي جاء بيانُها في الدرْسَيْنِ السّابع والثامِنِ، وهي لقطاتٌ مُنتزَعاتٌ من شريط أَحْدَاث ذَلِكَ اليوم:

اللّقْطَةُ البيانيّة الأُولَىٰ: دَلَّ عَلَيْها قول الله تعالى:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾.

هٰذهِ اللّقطة مُرَتَّبة تَرتيباً طبيعيًّا على ما جاء في الدّرس الثامن، من عَرَضِ اللّقطة البيانيّة الّتي فيها الأمْر بإلْقاء مستحقّي الْخُلودِ في أَشَدّ العذاب من جهنّم.

أي: وجرىٰ تنفيذ أمر الله بإلْقَاء هٰؤلاَء، وجاء دَوْرُ سُؤَال جَهَنَّمَ: هَلِ امتلأْتِ، فقد سَبَقَ القضاء الرَّبّانيّ بأنْ يملأَ الله عزّ وَجلَّ جهنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنّاسِ أجمعين.

سؤالٌ لجهنَّمَ وَجوابٌ منْها، أسلوبٌ من التعبير فيه إبداعٌ قائم على خطاب جهنَّم، وهي غَيْرُ ذاتِ حياة، لَكِنَّ الله جلّ جلالُهُ يُنْطِقُها، وهو الَّذي أنْطَقَ كُلَّ شيءٍ.

- يقولُ اللّهُ عزَّ وجَلّ لجهنَّمَ: هَلِ امْتلأْتِ؟.
- فتقولُ جَهَنّمُ: هَلْ مِنْ مَزيد؟

ويحتملُ أن يكون هذا القول تعبيراً عن لسان الحال، وهو أيضاً من فُنُون الأدب الرفيع.

ويدلُّ استعمال الفعل المضارع في: «نَقُولُ» وفي: «وتَقُولُ» على أنَّ هذا السؤالَ وجوابه يتكرَّرَانِ ويتجدّدَانِ بعْدَ إلقاء فَوْجٍ فَفَوْجٍ في جهنَّمَ.

﴿مَّزِيدٍ﴾: مَصْدَرٌ ميميّ بمعنى «زيادة» أي: هل من زيادة تُلْقَىٰ فيَّ؟

«مِنْ» حرف جرٍّ زائدٍ للتوكيد، وهو هنا داخل على المبتدأ بعد «هل».

لقد كان من الممكن أن يكون الجواب: لاَ لَمْ أمْتَلِئ، أو: ما زَالَ يُوجد فيّ اتّساع لأفواج قادمة. أو نحو هذه التعبيرات.

لكنَّ هذه التعبيرات وأشباهَها تعبيراتٌ تِلْقَائيّة مباشرة، ليْسَ فيها سُمُوٌّ جماليٌّ، لاَ في الصِياغةِ، ولا في الفكْرَة.

أمّا التعبير القرآنيُّ المختار، فقد كان جواب السؤال فيه، علىٰ طريقة الإجابةِ على السؤال بسؤال يتضمَّن الجوابَ على قَدْرِ السؤال، وسؤالاً زائداً فوقه يتضمَّن أفكاراً زائدةً على الجواب المطلوب.

فقول جهنّم: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ يُشعر بأنّها تَطْلُبُ المزيد، إذَنْ فهي لَمْ تَمتلِئ. ويُشْعِرُ بأنّها تتلَهّفُ للمزيد من الذين يُلْقَوْنَ فيها، كجائعٍ أو ظامِئٍ لمْ يَشْبَعْ من طعامٍ أكَلَه، أو شرابٍ شربَه، فيقول بتلهُفٍ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾.

على هذا الوجه ينبغي أَنْ نَفْهَمْ هذا السؤال، فهو المطابقُ لما جاء في الصحيح عن النبي ﷺ، أمَّا المفهوماتُ الأُخرىٰ فلا دليل عليها.

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالكِ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

«لاَ تَزَالُ جهَنَّمُ تَقولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ فيها ربُّ الْعِزَّةِ تبارَكَ وتَعَالَىٰ قَدَمَهُ، فَتَقُول: قَطْ، قطْ وعِزَّتِكَ، ويُزْوَىٰ بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ».

يُزْوَىٰ: أي: يُطْوَىٰ ويُجْمَع.

وفي روايةٍ أخرى:

«لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَىٰ فيها، وتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فيها قَدَمَهُ، فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، وتَقُولُ: قَطْ، قَطْ. بِعِزَّتِك وَكَرَمِكَ.

وَلاَ يَزَالُ في الجنَّةِ فَضْلٌ، حَتَّىٰ يُنْشِئَ اللَّهُ خَلْقاً فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ».

وعند البخاري وأحمد وأبي يَعْلَىٰ نحو ذلك، مع بَعْضِ خِلَافٍ فِي التعبير.

اللّقطةُ البيانيَّةُ الثانية: دلّ علَيْها قول اللَّهَ عزَّ وجَلّ:

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

العَطْفُ في هذه العبارة من عطف الجمل الّتي تتضمّن بيان لقطاتٍ من شريط أحداث يوم الدين.

﴿وَأُزْلِفَتِ﴾: أي: وقُرِّبَتْ، فالإزلافُ في اللّغة هو التقريب، وفيه معنىٰ التقريب بلُطْفٍ أخذاً من الاستعمالات.

يقال لغة: زَلَفَ فُلاَنٌ الشَّيْءَ وأَزْلَفَه، أي: قرّبه، وزَلَفَ فُلاَنٌ إلى الشيء وازْدلَفَ، أي: دنَا إليه وقَرُبَ مِنْه.

وقد دلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ الجنَّة يُقَرِّبُها اللَّهُ عزّ وجلَّ إِلَىٰ جهة حَشْر المتّقِين يومَ الدِّين تكريماً لهُمْ حتَّىٰ تكون منهُمْ رأيَ عَيْنٍ.

ولمَّا كان المحشَرُ على سَطْح أَرْضِنَا هٰذهِ كما بيّنت بعضُ أحاديث الرَّسُول ﷺ، ودلالات بعض آيات القرآن، فإنّ الله عزّ وجلَّ يُدْنِي الجنَّةَ إلى جهة مَحْشَر المتقين حتَّىٰ تكونَ قرِيبة منهم، يَرَوْنها، ويَسْهُلُ عليهم الوصول إليها مجتازين الصراط.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: أي: وأُزْلِفَتِ الجنَّةُ إزْلافاً غيرَ بعيد، فعبارة «غَيْرَ بَعِيدٍ» نَعْتٌ لمصدرٍ محذوفٍ هو مفعولٌ مُطْلَقٌ. ولمَّا كان الإزْلافُ تقريباً مكانيًّا صحّ تنزيلُ الإزلاف منزلةَ المكان الذي قُرِّبَت الجنَّةُ إليه، ووصْفُهُ بأنّه غَيْرُ بَعيد.

وتَدُلُّ هذه العبارة على أنّ الجنّة تَصِلُ إلى مكان غير ملاصقٍ للأرض، لكنّه غير بعيدٍ نسبيًّا عنها، فالمكان الذي يُمكنُ الوصول إليه بيُسْرٍ

وسُهُولة، ولو بوسيلَةٍ من الوسائل لا يُعْتَبَرُ بعيداً، وقد صِرْنا في هذا العصر الذي نعيشه، نستطيعُ أنْ نتصوَّر أنّ القَمَرَ قريب من الذين لديهم في الأرض الوسائل الموصلة إليه.

اللّقطة البيانيّة الثالثة: دَلَّ علَيْها قول الله عزّ وجلّ:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾.

هذا نَصّ مُقْتَطع من أحداث يوم الدّين، قُدِّم بصِيغته كمَا لَوْ كان الحدث يجري الآن، وهذا الأسلوب من روائع المبتكرات القرآنيّة في البيان الكلامي.

المشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ الجنة الّتي صارت بإزلافها قريبةً من رُؤيتهم البصريّة، وإذْ يَرَوْن الجنّة فقد يَرَوْنَ فيها بعضَ ما أَعَدَّ اللّهُ فيها من نعيم مقيم لأصحابها.

وجاء اسم الإشارة الموضوع للمفرد المذكر مراعاةً للفظ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾ فهو ما كانوا يُوعَدُونه في الدنيا بالكُتُب الربّانيّة، وعلى ألسنة المرسلين، واسْتُعمل الفعل المضارع لأنّ هذا الوعْدَ قد كان متجدّداً دواماً، وما زالُوا يوعَدُونه حتَّىٰ دُخولها.

لكنّه ليس وعْداً عامًّا لكلّ الناس، بل هو وعْدٌ لكلّ من استجمع عدّة صفاتٍ جاء بيانُها في هاتَيْنِ الآيَتَيْن، وهي الصّفات التاليات:

الصفة الأولى: أنّهُ ﴿أَوَّابٍ﴾ وهو الرَّجّاع إلَىٰ الله بالتوبة والنّدم، في فِعْلِ «آبَ يَؤُوبُ» أي: رجَعَ. ولفظ «أوّاب» على وزْنِ «فعّال» من صيغ المبالغة، أي: هو كثير الرُّجُوع إلى ربّه بالتوبَةِ والنّدم والاستغفار، كلّما بدَرَتْ منه بادِرَةُ معصية. وهُوَ أيضاً سَرِيع الرُّجوع إلى ربّه، لا يتمادى في معاصيه.

الصفة الثانية: أنّه ﴿حَفِيظٍ﴾ أي: كثيرُ المراقبة لأعمالِهِ الظّاهرة والباطنة، وأوامر الله ونواهيه المتعلّقة بها، وكُثير الحمايَةِ لنَفْسِه مِن مَزالِقِ المعاصي والآثام والمخالفاتِ، وكثير العنايَةِ بتغذية قلْبِه ونَفْسه وفِكْرِه، بما يُنَمّي فيها الارتقاءَ في معارج الْقُرْب من الله جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه، والسعادة بعبادَته ومناجاتِه وتَدَبُّر آياته.

كلُّ هٰذه المعاني تَدخُلُ في عموم دلاَلة كلمة ﴿حَفِيظٍ﴾.

فالحفيظ على مَالِهِ يراقبُه خَوْفَ العوارض والجوائح والمكاره، ويَحميه ويَعْتَني به بالتنمية حتّى لا تُفْنِيَهُ عوارض الزّمان، ومفنياتُ الأحداث مع توالي اللّيل والنهار.

ومن كان في قلبِه إيمان مَا وَلَمْ يكُنْ حفيظاً الحفظ الواجب، فإنَّ اللّهَ يُدْخِلُهُ الجنَّةَ دون سابق وعد، أو يقال: هذا ما توعدون دون استحقاق عذاب قبله، جمعاً بين النصوص.

الصفة الثالثة: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾. إنّه لا يخشىٰ الرحْمٰنَ بالغيب إلاّ مُؤْمِنٌ به صحيح الإيمان.

الخشية من الله: خوف من عقابه مصحوب بتعظيم وإجلال وحبّ وإذعانٍ له بالرُّبوبيّة والمنّة.

واختير اسم الله هنا للإشعار بأنّ الخشية ليْسَت خشيةً ملاحظاً فيها صفةُ الجبار المنتقم فقط، بل هي خشيَةٌ ملاحظٌ فيها صفة رحمة الله الّتي يَشْمَلُ بها عباده، ويَمْنَحهُمْ بها فُيُوضَ عطاءاته وإحسانه.

والخشية النافعة هي الخشية الّتي تكونُ مقترنةً بالغيب حتى آخر حياة المكلّف، أي بغَيْبِ الرَّحْمٰن عن حواسّ العبد الذي يخْشَىٰ رَبّه، إذْ تكونُ خشيتُه نابعَةً من الإيمان به في عُمْق فُؤاده، ملاحِظاً عَدْلَهُ ورحمته معاً.

والنافع منها هو ما استمرَّ حتىٰ يُدْرِكه الموت، ولو بَدَأتْ قبل الموت بقليل، بشرط أن لا يشهد من حقائق ما بعد الموت شيئاً، لأنَّ التوبة لا أثر لها عندئذ.

ولا يكون الإنسانُ أوّاباً وحفيظاً، ما لَمْ يكُنْ ممَّنْ خَشِيَ الرَّحْمٰن بالغيب.

الصَّفَةُ الرَّابعة: دلّ عليها قولُ الله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ أي: وجاء إلى رَبِّه بَعْدَ مَوْتِه بقَلْبٍ رَاجعٍ إلىٰ رَبّه، تائب من ذنوبه، مُسْتَغْفِرٍ خاضعٍ خاشع.

اللّقْطة البيانيّة الرابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَاۖ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ﴾: عبارة مقتَطعَةٌ ممّا سَوْفَ يقالُ لهم عنْد توجيههم لدُخُول الجنَّة، أي: ادْخُلُوا الجنَّة مصحوبين بسلام.

السَّلَامُ: يأتي في اللّغة بمعنى الأمان، وبمعنى البراءة من العيوب، وبمعنىٰ التحيّة. وكلُّ هٰذه المعاني يكون أهل الجنّة مصحوبين بها دواماً فالأمان تامٌّ في الجنَّة، والمطالب متحققة فيها، والبراءة من العيوب كالمرض والعرج وسائر العاهات والمنغِّصَاتِ، والعجز والكسل والأوجاع والآلام حتى فضلات الطعام والشراب، متحققة لكل المنعمين فيها شبَّاناً دواماً، ويقال لمن يدخلُها: سلام عليكم طِبْتُم فادْخلوها خالدين. ويُلَقَّوْنَ فيها آنا فآناً تحيَّةً وسلاماً. وهذه المعاني قد دلَّت عليها نصوصٌ متعدّدة في القرآنِ والسّنة، واختصرت هنا بعبارة: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾.

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾: أي: ذَلِكَ الْيومُ الّذِي سَوْفَ يَدْخلُ فِيه أصْحَابُ الجنَّةِ هو يوم الْخُلُودِ الّذِي لا آخر له.

هذه العبارة يبدو أنَّها غير مُقْطَعةٍ ممَّا سَيُقالُ لهم، فليست هي من

توابع: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ﴾ بل هي بيان لمُتَلَقِّي البيان القرآني في الحياة الدنيا، ويُرجّح هذا الفَهمَ استعمالُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، وعبارةُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ٣٥﴾ أي: لأصحاب الجنة الذين سَوْفَ يقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍۖ﴾ كلُّ ما يشاءون فيها دون استثناء، مهما انطلَقَتْ أمانيهم تخيُّلاً وإسرافاً، فإذا انقطعَتْ أمانيهم أعطاهم الله مزيداً لم تَبْلُغْ إليه أوهامُهم.

مَزِيد: مصدَرٌ ميمي بمعنى «زيادة».

روى البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدريّ أنّ رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعَالَىٰ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ؟!. فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبَّنَا وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟. فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَداً».

ومن المزيد إكرامُ الله لهم بأَنْ يَرَوْه رؤيةً يخصُل لهم بها سعادة تفوقُ كلَّ ما نالُوهُ في الجنّة من سعادات، كما ثبت في الصحيح أيضاً.

(١٤)
التدبُّر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآيتان (٣٦ و٣٧)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ٣٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ٣٧﴾.

في الدرس الرابع جاء تَلْوِيحٌ بإنْذار مُكذّبي الرَّسُول ﷺ، والمكذبين

بيوم الدّين، بسُنَّةِ اللّهِ عزّ وجلّ في الإهلاك الجماعي للأمم الّتي تَصِل في كفرها وجرائمها وإفسادها في الأرض، إلى مثل ما وصل إليه قوم نوحٍ وأصحاب الرَّس وثمود وعادٌ وفرعون وإخوان لوطٍ وأَصْحابُ الأيكَةِ وقَوْمُ تُبَّع. وهذا التلْويحُ جُزءٌ من العلاج النَّفْسيِّ لهم بالترهيب. واقتضىٰ هذا العلاج استكمالاً، بإعطائهم جَرْعَةً علاجيَّة أخرىٰ في السورة نفسها، بعْدَ فاصلٍ اشتمل على إقناعات فكريّة، وبياناتٍ قدَّمَتْ صُورَ لَقَطَاتٍ غَيْبِيَّة، تتّصِلُ بقانون الجزاء الرَّباني، ممّا هو قائم في رحلة الابتلاء، ومما سَيأتي بعدها، حتَّىٰ البعث والْحِسَاب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء من حقائق مُسْتقبليَّة.

وجاء هذا الاستكمال لبعض عناصر الترهيب بالإهلال المعجّل في الحياة الدُّنيا، مُشْتَمِلاً على تفصيلٍ لبَعْضِ ما أُجْمِلَ في الْجَرْعَةِ العلاجيَّةِ الأُولى.

وفي هذا التفصيل جاء بيانُ كثْرَةِ الْمُهْلَكِين من أهل القرون الأولى، وبيانُ أنَّهُم أَشَدُّ بَطْشاً من المكذِّبين المعاصرين لتنزيل القرآن، وبيانُ أنّ في عَرْضِ قِصَصِ الْمُهلَكِين الأوّلين لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كان له قَلْبٌ، أو أَلْقَىٰ السَّمْعَ وهو شهيد.

ومعَ غاية استكمال بعض عناصر علاج المكذبين، ففي هذا البيان طَمَأْنَةٌ لقَلْبِ الرسُول ﷺ وقُلُوب الَّذين آمَنُوا معه، بأنَّ نَصْرَ الله لرسوله وللمؤمنين قادمٌ لا محالة، كما نَصَر الله المرسَلِين السابقين والّذين آمَنُوا معهم، مع أنَّ المكذبين الأوّلين كانوا أشدَّ من المعاصرين لتنزيل القرآن قُوَّةً وبَأْساً، حتَّىٰ استطاعوا أن يُنَقِّبُوا في البلادِ بحثاً عمَّا يطْلُبُونَ لدُنياهم، فهذه الطمأنَةُ عُنصرٌ عِلاَجِيٌّ للرَّسُول وللمؤمنين.

فإلى تَدَبُّر فقرَاتِ هذا الدَّرْس:

● قول الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾.

﴿كَمْ﴾ خبَرِيَّةٌ. وهي اسْمٌ يقَعُ على العَدَد، وحين تكون خبرِيَّةً تكون بمعنى: «عدد كثير» وهي كلمة مُبهمَةٌ تُميَّزُ باسْمٍ مَجْرُورٍ، ويجوز أن يَدْخل عليه حرف الجرّ «مِنْ» كما في هذه العبارة: ﴿مِّن قَرْنٍ﴾.

والمعنى: قُرُونٌ كثيرةٌ أُهلِكَتْ قبْلَ قَوْمِكَ يا مُحمَّد مِنْ مُكَذِّبِي الرُّسُل السَّابقين.

﴿أَهْلَكْنَا﴾: أي: أَهْلَكْنَا إهْلاكاً جماعيًا عقابيًا مقترناً بتعذيب.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾: كلمة «قَرْن» تُطْلَقُ على أهل زمانٍ واحدٍ، وتُطْلَقُ على زمَنٍ قَدْرُهُ مِئَةُ سَنَةٍ، وتُطْلَقُ على الذُّؤَابَةِ من الشعر، وعلى الْخُصْلَةِ منه، وعلى الْقَرْن المعروف، وهُو العظم الذي يَنْبُتُ في رؤوس الحيوانات ذوات الْقُرُون.

والمقصود هُنا أَهْلُ زمانٍ بعَثَ اللَّهُ لهم رسولاً فكذَّبوه، وكذّبوا بما جاءهم به عن ربّه.

● قولُ الله تعالى: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾:

أيْ: كان هؤلاء الأقوام الْمُهلَكُونَ من الْقُرُون الأولى أشدَّ بَطْشاً مِنْ قَوْمِكَ الذين كذّبوك يا مُحمّد.

الْبَطْش: هو في اللُّغةِ أخذُ الشيء يعُنْفٍ وقَسْوة. والبأْسُ والْقُوَّة. والتناوُلُ بشِدَّةٍ عنْدَ الصَّوْلَة. والأَخْذُ الشدِيدُ في كُلّ شيءٍ يُسَمَّىٰ بَطْشاً. يقالُ لغة: بَطَشَ يَبطُشُ ويَبطِشُ بَطْشاً.

● قول اللّهِ تعالىٰ: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾:

النَّقْبُ في اللُّغة: الثَّقْبُ. يقالُ لغة: نقبَ الشيْءَ يَنْقُبُه، أيْ: ثقَبَه. ومنه ثَقْبُ المسالِكِ في الصُّخور والجِبال.

والنَّقْبُ: الطريق، أو الطريق الضّيّق في الجبل.

ويقال: نَقَّبَ في الأرض إذا ذهَبَ فيها.

والتَّنْقِيبُ: البحْثُ عن الأشياء المخفيّة، كأنَّ الباحِثَ عَنْها يَحْفرُ ويثْقُبُ حتَّىٰ يَصِل إليها.

فالمعنى يَدُورُ حوْلَ اسْتِعْمال أهل الْقُرونِ الْمُهْلَكه من كَفَّار القرونِ الأولَىٰ قُواهُمُ القادرة على الْبَطْشِ في البحث للوصُول إلىٰ ما يُريدون في البلاد.

● قول اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾؟!

خَبَرٌ بأسلُوب الاستفهام، لانتزاع الجواب من المقْصُودين بالْخطاب، إذْ لاَ يملكونَ إلاَّ جواباً واحداً، وهو: لم يكنْ لهم محيصٌ.

وهذا من روائع الأساليب الإخبارِيَّةِ في فنُون الأدب البيانيّ.

﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾؟!: أي: هَلْ من مَحِيدٍ، ومَعْدِلٍ، ومَهْرَبٍ؟!

والمعنى: هلْ كان لِلْمُهْلَكِين الأوَّلين من أهل الْقُرون السابقة، حين أنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِم أسْبَاب إهْلاَكهم وتَعْذِيبهم من مَهْرَبٍ يَفِرُّونَ إليه.

يقال لغة: حاصَ فُلاَنٌ عن النازلة مثلاً يَحِيصُ حَيْصاً، ومَحِيصاً، وحَيَصَاناً، أي: حَادَ عَنْها، وعَدَلَ، والْمَحِيصُ: الْمَحِيدُ، والْمَعْدِلُ، والْمَهْرَبُ.

«مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زائدٍ للتوكيد، وهُوَ داخل على المبتدأ هنا بعد «هل».

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ۝٣٧﴾:

جملة مؤكّدةٌ بحرف التأكيد «إنّ» و«الجملة الاسميّة» و«اللاّم المزحلقة» لأنّ المقصودين بالخطاب تَتطلَّبُ حالُهم هذا التأكيد.

وجاء فيها استعمالُ اسْمِ الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾ للدّلالة على أنّ إهلاك كُفّار القرون الأولى إهلاكاً جماعيًا عقابيًا أمْرٌ عظيم رفِيعُ الدلالة على عدل الله، وجليل حكمته، وكمال قُدْرته.

والمعنى: إنَّ في ذَلِكَ الْأَمْرِ العظيم، ذي الخطَرِ الجسيم، الّذي تحقَّق فيه إهلاك قُرونٍ كثيرة، كذّبَتْ رُسُل رَبّها، وكذّبتْ ببلاغَاتِهم عنه، وكانوا أشَدّ بَطْشاً وبَأساً من صَنَادِيد مشركي مكة، الّذِين كذّبُوا رسولَ الله محمداً وكذّبوا بيوم الدِّين، لَذِكْرَى.

الذِّكْرَىٰ: اسمٌ للتَّذْكِيرِ، ويَأْتِي بمعنىٰ التَّذَكُّر.

ومعلومٌ أنَّ إهلاك مُكَذِّبي الْقُرون الأولى قد جاءت به الأخبار فأعْلَمَتْ به، وبَقَاءُ نُصُوصِها مُتداوَلةً مُذَكّر به، وآثارُ دِيَارِهم شواهد على إهلاكهم، فهِيَ مُنبئَةٌ عنهُ أوّلاً، ومُذَكّرَة به دواماً.

ومَنْ أحْضَر في تَذَكُّرِهِ هٰذِهِ الحقيقة، هزَّتْ قلْبَهُ بالموعِظَة، فاتَّعظَ، فأقْلَعَ عن كُفْره وتكذيبه، خوفاً من عقاب الله المُعَجَّلِ والمؤجّل.

ولكِنْ يُشْتَرط لحصول هذه الذِّكْرَىٰ، المؤَثِّرة اتِّعَاظاً وخوفاً من عقاب الله، وُجودُ أحد أمْرَين:

الأمْر الأوّل: أن يكونَ لِلإنسان قَلْبٌ واعٍ مُتَدبّر، حرِيصٌ على اسْتِبصار سُنّةِ الله في عباده من آياته في كونه، فهذا الإنسان يَهْدِيه قلْبُه الواعي المتفكِّر المتدبّر، فيجعل سُنَنَ الله حاضرةً في تَذَكُّرِه آناً فآناً، وبذلك تكونُ واعظةً لهُ آناً فآناً.

والمرادُ بِالْقَلبِ عُمْقُ النَّفس، حيثُ تُوجَدُ أدواتُ التَّفكير والاسْتِنْباطِ

والفَهم، ومَشَاعِرُ الرَّغب والرَّهَبِ الواعيَةِ عن بصيرةِ سليمة، لم تُفسِدْها الأهواءُ والشهوات وزيناتُ الحياة الدنيا، ولا أَقْوالُ المُضِلّين المزخْرفَةُ القائمة على تزييف الحقائق، وصناعة الأكاذيب.

الأمْر الثاني: أن يكون لذىٰ الإنسان استِعْدَادٌ ورَغْبَةٌ في أَنْ يُلْقِي سَمْعَه، لآيات التذكير بأنْبَاء المهلَكِين السَّابِقين فَيَتفهمها بإمعان، وأن يكون لدَيْهِ اسْتِعْداد ورَغْبَةٌ في أن يفتح عيْنَيْهِ لشُهودِ آثار بلادهم والتَّبَصُّر بها، وإدْراك أسْباب تدْميرها.

فإذا فَعَلَ ذَلِكَ بكُلّ حِسَّيْ سَمْعِه وبَصَرِهِ نَفَذ التَّأثير إلى عُمْقِ قَلْبِهِ، فكانَتْ له ذِكْرَىٰ واعظة.

ونُلاحظ هنا أنَّ حاسَّتَي السَّمْع والْبَصرِ قد يقومان مقام القلب الواعي المتفكّر المتدبّر، ويظَلُّ القَلْبُ مُحْتَلّاً المرتبة الأولىٰ في هذا.

أَلْقَىٰ السَّمْعَ: أي: وَجَّهَ كُلَّ سَمْعِه لتلَقّي بيانات آيات الله بإمعان بشأن المهلَكين السابقين.

وهُوَ شَهِيدٌ: أي: وهو مُعَايِنٌ آثارَ الْمُهْلَكِينَ السابقين مُعَايِنَةَ البصير الواعي.

❁ ❁ ❁

(١٥)

التدبّر التحليلي للدرس الحادي عشر من دروس السورة وهو الآية (٣٨)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿وَمَا مَسَّنَا ﴾: الْمَسُّ أخَفُّ وجُوهِ وُصُولِ سَطْح الشيء إلى سَطْحِ الشَّيْء الآخَر، كَمَسِّ ظاهرِ الْجِلْدِ بظاهر جِلْدٍ آخر، وأشَدُّ منْهُ النُّفُوذُ إلى ما تحت السَّطْح، وكلَّما زَادَ دُخُولُ الشَّيءِ في الشيء كَانَ أشَدَّ، كَدُخول السَّهْم في جَسَدِ الْمُصَاب به.

﴿مِن لُّغُوبٍ ﴾: اللُّغُوب: التَّعَبُ والنَّصَبُ. و«مِنْ» حرف جَرٌ زَائِدٍ جِيء به لتأكيد التَّنصيص على نفْي كُلِّ تَعَب.

كيف يَتْعَبُ رَبُّنا وَمِنْ صِفَاتِهِ الثَّابِتَةِ له دَوَاماً، أَنَّهُ إذا أرادَ شيئاً فإنَّما يَقُولُ له: كُنْ فَيَكُون؟!!.

يُقَالُ لغة: لَغِبَ ولَغَبَ يَلْغَبُ ويَلْغُبُ لَغْباً ولُغُوباً، أي: تَعِبَ وكَلَّ، ونَزَلَ بِه إعياءٌ لَمْ يكُنْ.

أي: وَمَا مَسَّناً أَدْنَىٰ مَسٍّ مِنْ تَعَبٍ أو كَلَلٍ أو إعيْاء.

هذه الآية دَرْسٌ إلْحَاقِيٌّ نَزَلَ في الْعَهْدِ المدني حين أثار الْيَهودُ مقولَتَهُمُ الافترائيّةَ على اللّهِ عزَّ وجلَّ، الّتي زَعُموا فيها أنّ الله عزّ وجلّ بعد أن خلق السماوات والأرضَ في ستّةِ أيّامٍ جلَسَ يَسْتَرِيح يَوْمَ السَّبت.

وَضُمَّ هذا الدّرْسُ إلى سُورة (قٓ) المكيَّة مُراعاةً لِلْمُناسبَةِ الفكرية، ولم يَنْزِلْ هذا الدرس في العهد المكيّ، لأنّ أهل مكّة ومَنْ حولهم من العرب لم تكن لَدَيْهم مقولَةٌ عن الله تشبه هذه المقولة اليهوديّة.

وَوُضِعَتْ آيَةُ هٰذَا الدَّرْس بَعْدَ الانتهاء من الدروس الّتي اشتملت في السُّورَة على معالجة الْمُصِرّين على كُفْرِهم مِنْ مُشْرِكي مكة، لئَلاّ يتصوّر المتدبِّرُ للقرآن المجيد أنّ مقولة اليهود الافترائيّة هي إحدى شبهات مُشْرِكي مكة.

إنّ شُبْهَة أنّ اللّه قَدْ تَعِبَ وَكَلَّ، بَعْد أَنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ والأرض وما

بينهما في سِتَّة أيَّام، وأنه جَلَسَ ليستريح في اليوم السابع، فجعله مُقَدّساً، لَمْ تكن مَوْجودةً عند مُشْرِكي العرب، فلَمْ تكُنِ الحاجَةُ داعِيَة لإِنْزَال آيَةِ هٰذا الدَّرْسِ في الْعَهْدِ المكيِّ، الَّذي لَمْ يَكُنْ لليهودِ فيه مواجهةٌ لدعوة الرسول ﷺ.

ولمّا هاجر الرسول ﷺ إلى المدينَة، ودَعَا اليهود فيها إلَىٰ الإسلام، أثار اليهود مقولَتَهُمُ الافترائيّة على الله، فأنزل الله عزّ وجل آيَة هذا الدرس في العهد المدني من تاريخ دعوة الرسول ﷺ، وأمَرَ الوحيُ الرَّسُولَ ﷺ بأن يضَعَها في سورة (قٓ) وعقب الآية (٣٧) منها.

ولم يجعلها عَقِب: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ لئَلاَّ يُفْهَمَ أنَّها مقولَةٌ قالَها عَرَبُ مكّة تَأَثُّراً بمقالاَتِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ قَبْلَ أن يُهَاجر الرسول ﷺ إليها.

فكان تأخير موضِعِها الذي يُشْبه التعقيب والاستدراك، دليلاً على أنّها لم تكن مقولَةً عَرَبيّة، وإنما كانت مقولة يهوديّة.

وقد رُوِي عن ابن عبّاس وقتادة أنّ هذه الآية من سورة (قٓ) مَدَنيّة، أمّا سائر آيات السورة فمن التنزيل في الْعَهْدِ المكيّ.

وقد دَسّ اليهود مقالتهم الكاذبة على الله عزّ وجلّ في سِفْرِ التكوين، في أوّل الإصحاح الثاني منه، فقد جاء فيه:

«فَأُكْمِلَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَكُلُّ جُنْدِهَا. وَفَرَغَ اللَّهُ فِي الْيَوْمِ السَّابعِ مِنْ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ، فَاسْتَرَاحَ في الْيَوْم السَّابع مِنْ جَمِيع عَمَلِهِ الَّذي عَمِلَ. وَبَارَكَ اللَّهُ الْيَوْمَ السَّابعَ وَقَدَّسَهُ. لِأَنَّهُ فِيه اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ عَمَلِهِ الَّذِي عَمِلَ اللَّهُ خَالِقاً».

لَقَدْ كَذَبُوا عَلَىٰ الله، فإنّ اللَّهَ عزَّ وجلّ لا يُتْعِبُهُ شَيْءٌ، حتَّىٰ يحتاج

إلى الاسْتِرَاحَةِ كَمَا تحتاجُ مَخْلُوقاتُهُ الّتي خَلَقَها بصفاتٍ تحتاجُ معَها إلى الاسْتِرَاحَةِ إذا عَمِلَتْ عملاً فيه اجتهادٌ وكدْح وكدّ.

إنما أمْرُهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه: إذَا أراد شيئاً أنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فيَكُون.

ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه فَقَاسُوهُ على أنفسهم، وتَعَالَىٰ اللَّهُ عمَّا قالُوا عُلُوّاً كبيراً، وسُبْحانه عمَّا يَصِفُون.

❁ ❁ ❁

(١٦)
التدبّر التحليلي للدرس الثاني عشر من دروس السورة وهو الآيات من (٣٩ ـ ٤٥) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

القراءات وتوجيهها:

● قرأ نافع، وابنُ كثير، وحمزةُ، وأَبُو جَعْفَرٍ، وخَلَفُ: ﴿وَإِدْبَارَ السُّجُودِ﴾ بكسر همزَة [إدْبَار] وهو مصْدَرُ أدْبَر بمعنى ذهب وولّى، أي: بَعْدَ انتهاء الصلاة، وهذا يعُمُّ كلَّ صلاة.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ بفتح همزة ﴿وَأَدْبَٰرَ﴾ وهو جَمْعُ «دُبُر» ودُبُر الشيء في اللُّغة عَقِبُهُ ومؤخَّرُه، أي: في أعقاب الصلوات.

أُطْلِق لفظ «السُّجودِ» وأُرِيد به الصلاة، لأنَّ السُّجود أعْظَمُ أَرْكان الصَّلاةِ الْعَمَليَّةِ، فأقرب ما يكون العبْدُ من ربّه وهُوَ ساجِدٌ له في الصَّلاةِ، ومُؤدّىٰ القراءتين واحد. وهما تفنُّنٌ في التعبير جميل.

● وقَرأ نافعٌ، وابْنُ كثيرٍ، وابْنُ عامر، وأبو جعفر، ويَعْقُوب:

﴿تَشَّقَّقُ الأَرْضُ﴾ بتَشْدِيد «الشين» أصل الكلمة «تَتَشقَّقُ» فأُدغِمَت التاء بالشّين فصَارَت شيناً مُشَدَّدَة، وهذا وجْهٌ عَرَبيٌّ لنُطْقِ الكلمة، يؤكّد معنى التكلّف في دلالة صيغة «يتفَعّل».

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشين، أصل الفعل «تتشقق» حذفت التاء تخفيفاً، وإشارة إلى عدم الحاجة إلى التكلف في الحدث.

وبين القراءتين تكاملٌ في أداء المعنى المراد، فبعض أماكن من الأرض صُلْبَةٌ قَاسِيَةٌ، يحتاج خُروجُ الموتى منها إلى أَنْ تتشقَّقَ الأرض عنهم بتكلُّفٍ وشِدَّةٍ، فجاءت قراءة ﴿تشَّقَّقُ﴾ دالَّة على هذا، فالتكلّفُ من دلالات صيغة فِعْل «تَفَعَّلَ يَتَفَعَّلُ» ويزيد بالإدغام.

وبعْضُ أماكن من الأرْضِ رخوةٌ ليّنة، لا يحتاج خروج الموتىٰ مِنْها عند البعث إلاّ أَنْ يحْدُثَ فيها تشقُّقٌ يَسِير لا تكلُّفَ فيه، فجاءت قراءة: ﴿تَشَقَّقُ﴾ بتخفيف الشّين وحذف التاء دالّة على هذا.

● كلمة [يُنادِي] جميع القرّاء يَحْذفُونَ في الوصل يَاءَ الفعل الأخيرة، لالْتقاء السَّاكنين.

وأمَّا في الوقف فلِلْقُرّاءِ فيها وجْهان: الإثبات والحذف.

فابْنُ كثير لَهُ فيها الوجهان معاً. وأَمَّا يَعْقُوبُ فَلَهُ في الوقفِ وجهُ الإثبات فقط، وأمَّا باقي القرّاء العشرة فلهم في الوقف وجْهُ الحذْف فقط.

وهي وجوه من الأداء تَبِعَ فيها القُرَّاءُ ما تَلقَّوه، إلى رسُول الله ﷺ، مُعَلِّم نُطْقِ كتاب اللَّهِ الَّذِي أَنزلَ على سبْعَةِ أحرف.

● وكلمة [**المنادي**] للقرّاء في يائها وجهان: الإثبات والحذف.

أمّا نافع، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر، فقد أثبتوا الياء في الوصل، وحَذَفُوها في الوقف، بحسب ما تلقَّوْهُ من أداء.

وأمّا ابْنُ كثير، ويعقوب، فقد أثبتا الياء في الوصل والوقف، بحسب ما تلقَّيا من أداء.

● وأمّا باقي القرّاء فقد حذفوا الياء في الوصل والوقف بحسب ما تلقوا من أداء.

● وعبارة: [**وَعِيدِي**] للقرّاء في ياء المتكلم منها وجهان: الإثبات والحذف، بحسب ما تلقَّىٰ كُلٌّ مِنهم.

فقراءة «وَرْشٍ» على إثبات الياء في الوصل، وحذفها في الوقف.

وقراءة «يعْقُوب» على إثبات الياء في حالتي الوصل والوقف.

وقراءة باقي القرّاء العشرة على حذف الياء مطلقاً وصلاً ووقفاً.

التدبّر:

هذا هو الدرس الأخير من دُروس السّورة، وهو يشتمل على معالجة حالة الرسول ﷺ النفسيَّة والقلبية في المقصد الأوّل، تجاه ما يلقاه من قومه الّذين كذّبوه في نُبوَّته ورسالته، وكذَّبوا بِبَلاَغاته عن ربّه.

ويشتمل في المقصد الثاني على تربية حَمَلَةِ رسالة الرَّسُولِ ﷺ من أمّته.

ويشتمل في المقصد الثالث على متابعة معالجةِ مُكذِّبي الرَّسُول،

والمكذّبين بيوم الدّين، مع الإعراض عن مواجهتهم بالخطاب، إذْ ظاهر الخطاب مُوجَّهٌ للرَّسُول ﷺ.

• قول الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

في هٰذه الجملة تَرْبيةٌ من الله عزّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ، بأن يَصْبِر على مقالات المكذبين له من قومه، الَّتي يتّهمونه فيها، بالكَذِب في ادّعائه أنّه نبيُّ الله ورسولُه، وفي قَوْله: إنَّ القرآن الّذي يتْلُوهُ عليهم هو من عند الله عزّ وجلّ، أمرَهُ اللَّهُ بأنْ يبلّغَهُ للناس، وفي بياناته عن البعث ويوم الدّين[(١)].

ففي الصبر تدريب للإرادة النفسيّة، يُكْسِبُها قُوّةً على تَحمُّلِ المَكَارِه، ومُواجَهة الصُّعوبات، ومقاومة هجمات المصارعين من المخالفين والأعداء، وقُدْرةً على عدم الاكْتِراثِ للمزعجات النفسيّة، وعدم المبالاة بالمثيرات الوافدات من الخارج.

إنّ الصَّبرُ يُكتَسَبُ بالتَّصبُّر، والحِلْمَ يُكْتَسَبُ بالتَّحلُّم، والعِلْمَ يُكْتَسَبُ بالتَّعلُّم، وكلُّ ذٰلِك على مقدار ما لدى الإنسان من قابليّةٍ فِطْرِيَّةٍ للاكتساب، والناسُ مُتفَاضِلُون فيما بينهم في قابليّاتِ اكْتِسَابِ الفضائل، والرَّسُولُ محمّد ﷺ أكْمَلُ الناس خُلُقاً وَفطْنَةً وعقلاً، وأكْثَرُهم قابليَّة لاكتساب الفضائل والاستزادة منها، بحسب الفطرة الرَّبَّانيَّة الَّتِي فطَرَهُ اللَّهُ عَلَيْها.

والخطاب الموجّه للرَّسُول في هذا، مُوَجَّهٌ تبعاً لحمَلَةِ رسالة الرَّسُولِ من أُمَّتِه، فَهُمْ مأمورون بالصَّبْر، كُلَّما واجَهُوا ما يُسوؤهم من الّذِين يُؤْذُونَ

(١) انظر «المقولة الثالثة» من «الفصل الأول» من «الباب الثاني» من كتاب «فقه الدعوة إلى الله» للمؤلف. وهي مقولة حول النّصوص القرآنية الموجهة للرَّسول، التي يأمُره الله فيها بالصّبر، ففيها بيان شامل لكلّ النصوص الموزعة في السّور بحسب نجوم التنزيل.

الرّسالةَ الّتي يَحْمِلُونها لهم، دعْوَة إلى اللَّهِ، أو نُصْحاً أو إرشاداً، أو أمْراً بالمعروف ونهياً عن المنكر.

إنّ الإرادة متَىٰ بَلَغَتْ من القوة مبلغ الصُّمود الحكيم، تحطّمَتْ على كتلتها الألْماسيَّة قُرُونُ أقوال مقاومي دعوة الحق، ومصارعيها، مهما كان فيها من شتائم واتهامات، وألوان هُزْء وسُخْرية.

● قول الله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

بعْدَ أنْ أَمَرَ اللَّهُ رسُولَهُ ﷺ بالصَّبْر، ويُلْحَقُ به كُلُّ حَمَلَةِ رِسَالَتِه من أُمَّتِه، أعطَىٰ اللَّهُ رسُولَهُ ومن هم مُلحَقُون به، الدَّواءَ اليوميّ الّذي يساعِدُ على التحلّي بالصَّبرْ، ويصْرِفُ عن النّفْس والقلْب والفكْر المشاعرَ والأحاسيس والأفكار غير السّارّة، الّتي تُؤلمُ في العادةِ الصّادقَ حينما يُكذَّب، والأمِينَ حينما يُخوّن، والْعَلِيمَ حينما يُجهَّل، والْهَادِيَ المهتَدِيَ حينما يُضَلَّل، والذّكِيَّ الْحَصِيفَ العاقل الرّصِين حَامِلَ لِوَاء الحقّ والدَّاعِيَ إليه، حينمَا يُتَّهَمُ بالجنون.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: أي: وسبّح رَبَّكَ تَسْبِيحاً مقْتَرِناً ومُلْتبساً بحَمْدِه، ومصاحباً له.

تسبيح الله: هو تَنْزِيهه وتقديسُه عن كلّ ما لا يليق به جلّ جلاله، من صفات النقص الّتي تتنافى مع أزليّته ووحدانيَّتهِ، وكمالِ صفاته الوجودية فالتسبيح تمجيدٌ بالصفات السلبيّة، بخلاف «التَّوْقِير» فهو التمجيد بالصفات الوجودية.

والحمد لله: هو الثناء على الله بما هو له أهْلٌ من صفاتِ كمالٍ، وبما هو مُنَزَّهٌ عنه من صِفاتِ نقص.

والباء في: ﴿بِحَمْدِ﴾ معناها الملابسة والمصاحبة والمقارنة.

والعبارةُ الّتي يتحقّقُ بها المأمور به من التسبيح المقرون بالحمد لها عدّة صيغ:

● سُبْحَانَ اللّهِ والحمدُ لله.

● سُبْحَانَ اللّهِ وبِحَمْدِه، وهذه العبارة مختصرة من جُمْلَتَين تقديرُهما: أُسَبِّحُ سُبْحانَ الله، وأَحْمد بحمْدِه.

وعبارة «سُبْحان الله» عبارة ارْتضىٰ الله لعباده أن يذكروه بها في تنزيهِ ذاته وصفاته عمّا لا يليقُ به.

وهاتان العبارتان مأثورتان، ومن المأثور في التسبيح: «سُبْحانَ رَبّي - سبحان الله رَبّ العرش عمَّا يَصِفون ـ سُبْحانَ رَبّكَ رَبِّ العِزَّةِ عما يصفون - سبحان الّذي بَيدِه مَلَكوتُ كُلِّ شيءٍ وَإليه تُرْجَعُون..» إلى غير ذلك من عبارات تتضمّن تسبيح الله.

واخْتير من أسْماءِ اللّهِ اسْمُ «رَبّ» في ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ لأنّه الاسم الجامع لمعاني أسماء الله الحسنىٰ ذات العلاقة بالخلائق.

وجاء في هٰذا العلاج التوصيةُ باستعماله في جرعاتٍ يَوْميّة، بأوقاتٍ مبيَّنة في النصّ، هي:

(١) ما قَبْل طُلُوع الشمس، وهو وقت صلاة الفجر.

(٢) ما قَبْلَ غُرُوب الشمس، وهو الوقت الذي جاء تحديده فيما بعد لصلاة العصر.

(٣) في وقتٍ ما من اللّيل.

(٤) عَقِبَ الصّلوات.

وقَد أنزل الله هذا النّصّ قبل فرض الصَّلوات الخمس، فالمراد بعبارة ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ بَعْدَ الصّلوات الّتي كان يُصَلّيها الرّسول ﷺ قبل فرض

الصَّلَواتِ الخمس الذي كان في ليلة الإسراء، وكان يُصَليها مثله من آمن به ودخل في الإسلام.

وعِلَاجُ النَّفس بالتَّسبيح والذّكر لله عزّ وجَلَّ عِلَاجٌ عظيمٌ بالنِّسْبة إلى المؤمنين، فهو مُهدِّئ، وغذاءٌ للجُمْلَة العصبيَّة يَنْبعث من عُمْقِ الفؤاد، وصارِفٌ للفكر عن الاشتغال بما يُقْلِقُ ويُحْزِنُ ويُؤلم.

إنّ الله عزّ وجلّ يُمِدُّ الذَّاكرين له، المسبّحين بِحَمْدِه بِمَدَدٍ من لَدُنه، يُريحُهم ويُسْعِدُهم، ولا سيما إذا كانت العوارض المؤلمة عوارضَ نَفْسيَّةٍ.

● قول الله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾:

ظاهر الخطاب في ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ مُوَجَّهُ للرَّسُول ﷺ، والمطلوبُ أن يَسْمَعه بيانٌ رَبَّانِيٌّ يَدُلُّ على لقطات لم يأت بَيانُها فيما سبقَ من أحْدَاث بَعْثِ الخلائق إلى يوم الدّين، للحساب، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ويبدو أنّ المقصودَ ضِمْناً بالخطاب بصيغة الأمْرِ: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ هو منكر البعث، وهو خطاب موجّه لكل منكر على التناوب بأسلوب الخطاب الإفرادي، ولكنْ أعْرَضَ الله عن مواجهته بالخطاب المباشر لعناده، ووجّه الخطابَ للرَّسُول بقوّة.

وهذا أسْلُوبٌ من أساليب علاج المكذبين الّذين يتّهمُونَ الرَّسُولَ بأنَّهُ يقولُ كلاماً غَير معقول، ويُخْبر بأنباءٍ غير ممكنة الحصول، فجاء توجيه الخطاب الرَّبَّانِيِّ لَهُ مُباشرةً، بصورة تُشْعِر المكذّبين بأنّ الله يُرِيد تثبيت رسُوله على الإيمان بيوْم الدّين، مهما واجَهَ من كبراء قومه من تكذيب، فعليه أن لا يَعْبأ باتّهاماتهم وشتائمهم له.

أي: إنَّ محمّداً بَرِيءٌ من صناعة النّبأ، بل نَبأُ يوم البعث للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يُمْلَىٰ عليه تنزيلاً من عند الله بارئه، وهذا

الخطابُ الرَّبَّانيُّ يُوَجَّه له بقوَّة وشدّة، فهو المخاطب به أوّلاً، ويجب عليه أن يؤمن به قَبْلَ سَائِر المكلفين أنْ يُؤْمِنُوا به، ثمّ هو مكلّفٌ أن يَدْعُو الناس إلى الإيمان به.

وهٰذا أسْلُوبٌ علاجيٌّ للإقناع بصِدْقِ الرسول ﷺ أكْثَر نفاذاً إلى عُمْقِ أَفْئدة مُكَذِّبيه، وإن أصَرُّوا على مَوْقفهم عناداً ومكابرة.

والمعنى الذي يُومِئ إليه هذا الأسلوب يمكن التعبير عنه بما يلي: اسْتَمِعُوا أيُّها المكذّبون، هذا رَسُولُنا نُخاطبهُ بهذا الخطاب الجازم الحازم بشأْن بَعْض أحداث يوم الدّين، تثبيتاً له، بَعْدَ أن اتهَمْتموه وشَتَمْتُمُوه.

يُضَافُ إلى هذا أنّ من أساليب خطاب الأمّة خطابَ قائدها، أو إمامها أو رسولها.

فَخِطَابُ الله لرسوله في أَمْرٍ من أمور الدّين العامّة الّتي لا خُصوصِيَّةَ للرسول به، هو خطابٌ لكلّ أمَّة دَعْوَته، مَن استجابَ ومَنْ لم يستجب.

وقد جاء في هذا البيان الرَّبَّانِيّ بيانُ ثلاثة أحداث متتاليات من أحداث البعث إلى يوم الحساب وفصل القضاء.

الحَدَث الأوّل: نداءٌ يصدرُ من مكانٍ قريبٍ يناديه منادٍ بأمر الله، لبَعْث الموتَىٰ إلَىٰ الحياة الأُخرى، وهَذا النداء يَصِلُ إلى كُلّ مبعوث.

فهل هو نَفْخُ الصُّور النفخة الثانية، أو هو نداءٌ يَحْدُث بَعْدَها؟ الله أعْلَم، إذْ لَيْسَ لدينا بيانٌ عن الرَّسُولِ ﷺ في هذا، والنّصّ يحتمل الأمْرَين، دلَّ عليه: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾.

الحدث الثاني: سماعُ كُلِّ الْمَبْعُوثين صَيْحَةَ النداء بالْحَقِّ، وهو الخروج من الأجداث، والتوجُّه لمحكمة الْعَدْل الرَّبَّانية، دلَّ عليه: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ وبهذا السّماع يحْيَونَ كما يَستَيقظ النائم من نومه.

الحدث الثالث: استجابةُ المبْعُوثين للمطلوب منهم في النداء، إذْ يَخْرُجونَ من أجداثهم، ويتوجَّهُونَ لِمَا أُمِرُوا بأنْ يتوجَّهُوا له، دلَّ علَيْه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ بعد رحلة البرزخ بين الموت والبعث.

فالمعنى: يَوْمُ النداء، ويَوْمُ سَمَاع الصَّيْحة، هُوَ يَوْمُ الخروج، لملاقاة ظروف الحياة الأخرى. وبهذه المناسبة جاء البيان التالي:

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾.

في هذه الآية تذكير مع تأكيد مُشَدَّدٍ مقرون باستعمال ضمير المتكلّم العظيم خمْس مرّات، بعُنْصُرَيْن من عناصر القاعدة الإيمانيّة:

العنْصُر الأول: أنَّ المحيي والمميت هو الله وحده بعظمة ربوبيّته، لا شريك له، فَمَنْ أحْيَا أوّلاً ثُمَّ أمات، فلا عجَبَ أن يُعيدَ من أماته إلى حَيَاةٍ أخرىٰ، ليُلَاقي حسابه، وجزاءه على ما قدّم في الحياة الأولى، الّتي كانت رحْلَةَ امتحانه.

العنصر الثاني: أنّ المصير بعد رحلة الابتلاء في الحياة الدّنيا، إلى الرّب الخالق، الذي خلقَ الناس ليبلُوَهم أيُّهم أحسن عملاً.

هنا يردُ سؤالٌ فلسفيٌ عقلي وهو: ما معنى كون المصير إلى الله عزّ وجلّ، والكائنات جميعُها خاضعة لسلطان ربوبيته دواماً في كلّ مراحل وجودها؟.

● ألسنا نحن الآن خاضعين لسلطان ربوبيته؟!!

● ألسنا في رحلة البرزخ خاضعين لسلطان ربوبيته؟!!

● وكذلك نحن يوم الحساب وفصل القضاء خاضعون لسلطان ربوبيته جلّ جلالُه، وعظم سلطانه.

إذَنْ فما معنى المصير إليه والمخلوقُ في كلّ مراحل وجوده حيًا وميتاً خاضع لسلطان ربوبيته دواماً؟!!

أقول:

لدى التأمُّل بتدبُّرٍ عميق نلاحظُ أنّ الممتَحَنِين المكلّفين في الحياة الدُّنيا، قد أعطاهُم الله جلّ جلاله حرِّيَّة الإرادة، التي يختارون بها ما يشاءُون من طريق الخير، أو مسالك الشرّ، وسخّر لهم في ذواتهم وفي الكون من حولهم الأشياءَ، والقوىٰ التي يُنفّذون بها مراداتهم، ما لم تتعارض مع قضاء الله وقَدَره العامّ، فهم يشْعُرُون بأنّ مصائر مطالب نفوسهم بأيديهم.

لكنّهم يوم الحساب وفَصْل القضاء لا تكون لهم حرّيّة اختيار، إذْ كُلُّ ما يجري في ذلك اليوم خاضعٌ بالجبر لسُلْطان ربوبيَّة الرَّبّ جلّ جلاله وعظُمَ سلطانه، وهذا مصير إليه وحْدَه بَعْدَ رحلة التخيير والتسخير، وقد كان الممتَحَن في هذه الرحلة يختار لنفسه على ما يشاء، إذْ جعل الله له ذلك، دون أن يتدخّل بالجبر فيما منَحَهُ فيه التخيير.

إذَنْ: فإلى اللّهِ وحده دون تَدَخُّل إرادة المخلوق يومئذٍ يكون المصير، على أنّ المصير إلى الله وحده يبدأ منذ انتهاء رحلة الحياة الدنيا، وابْتِداء رحلة البرزخ بين الموت والبعث، لأنّ بعْضَ الجزاء الجبري يبدأ عقب الموت مباشرة.

قول الله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذه الآية إضافة بيان ثلاثة أحداث أخرى من أحداث البعث إلى يوم الحساب وفصل القضاء.

الحدث الأول: تَشقُّقُ الأرض عَنِ الّذين كانوا مَوْتى لِيَنْبُتُوا منها كما يَنبُتُ الزَّرْعُ في الأَرْض، دلَّ على هذا الْحَدَث: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ وسبق توجيه قراءتَيْ: ﴿تَشَقَّقُ﴾ **[تشَّقَّقُ]**.

الحدَثُ الثاني: خُرُوجُهُمْ مِنْ الأَرْض سِرَاعاً، دون إبطاء في الزَّمن،

وهو يَدُلُّ على أنّ إِنْبَاتَهُمْ في الأرض لبعثهم لا يحتاجُ زمناً طويلاً لتتكامل أجسادهم فيه، بل هي تتكامل بِسُرْعَة، دلَّ على هذا الحدث: ﴿سِرَاعًاۚ﴾ أي: خارجين من الأرْض سراعاً.

سِرَاعاً: جَمْعُ سَرِيعٍ، وجمع سَريعة. يقال لغة: سَرُعَ يَسْرُعُ سَرَاعَةً وسُرْعَةً وسَرْعاً، أي عَجِلَ، فهو سَرِيعٌ، وهي سَرِيعة، والجمع لهما «سِرَاع» وجاء اللفظُ في النص منصوباً لأنه حالٌ من الضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾ وقد يدلُّ هذا الْحدَث على أنّ خَلْقَ أجسادهم يتكامل قبلَ أنْ تَعُودَ الأرواح إليها، والله أعلم. ثم تعود الأرواح إلى أجسادها.

الحدث الثالث: أنّهمْ بَعْدَ بَعْثِهم يُحْشَرُون، أي: يجمعون في المحشر، المخّصص لتجميعهم، ولو كان بعضُهُمْ قد نَبَتُوا في الأمكنة التي مَاتُوا فيها، بأطراف الأَرْض بعيدين عن أرْض المحشَر.

وحَشْرُهم يكون في مكان جامع بحسب أصنافهم وزُمَرِهم.

الحشْرُ في اللّغة: الْجَمْعُ والسَّوْق. يُقَالُ: حشَرَ الأمير جُنْدَهُ يَحْشُرُهُمْ وَيَحْشِرُهم حَشراً، أي: جَمَعُهم وساقهم.

ويوم الحشر، ويوم الْمَحْشَرِ، هو يوم جمع الناس وسوقهم للحساب، وفصْل القضاء، يوم القيامة، وبعدهما يكون تنفيذ الجزاء.

دلَّ على حدَث الحشر قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ والمشار إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ مطويٌّ في النصّ غير مذكور، والتقدير: يوم تشقَّقُ الأرض عنهم، ويخرُجون منها سِرَاعاً، ويُحْشَرُون في الأَرْضِ المخصَّصَةِ للحَشْر، ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ، ومثل هذا الطيِّ كثيرٌ في القرآن المجيد، وهو من الإيجاز المعروف والمتكرّر في أساليبه.

إنّ الخَالق القادر على أن يَخْلُقَ من العدم، والقادِرَ على الإعادة إلى الحياة بعد الإماتة، قادِرٌ على حشْرِ الناس في الأرض المخصّصةِ لجمع

الناس، توطئة لمحاسبتهم وفصل القضاء فيما بينهم، وهو حشْرٌ يَسيرٌ عليه.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيّ ﷺ أنَّ الناس يُحْشَرُون يوْمَ القيامة حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً (أي: غَيْرَ مَخْتُونين).

روى البخاري بسنده عن عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها. قالت: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ:

«تُحْشَرُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلاً».

قالت: فقُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، الرّجال والنساء يَنْظُرُ بعضُهُم إلى بعض، فقال:

«الأَمْرُ أَشدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكَ».

● قول اللَّهِ تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

● ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾: في هذه الجملَةِ تسليةٌ وطمأنةٌ من الله عزّ وجلّ، بعظمة ربوبيته ـ أخْذاً من ضمير المتكلّم العظيم ـ للرسول محمّد ﷺ، بشأن مقالات كُبَراء كفّار قومه فيه، المؤذيةِ لنفَسه، بما فيها من اتّهامات وشتائم له.

أي: نَحْنُ أعلم منْكَ ومن كُلّ عَلِيمٍ بما يقُولونَ من مقالات في تكْذِيبِكَ واتّهامِكَ وسِبَابك.

وفي هذا كِنَايَةٌ عَنْ أنه جلَّ جلالُه وعظُمَ سُلْطانُه سيَنْتَصِرُ له منهم، وفيه أيضاً تهديدٌ ووعيدٌ من الله لهم، فلْيَتَرَقّبُوا انتقام الله منهم إذَا لم يَتُوبوا ولَمْ يُقْلِعُوا عن إيذاء رسوله، ومقابلتهِ على دعوته لهم بما يكْرَه.

● ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾: في هذه الجملة يُبَيّن اللَّهُ عزّ وجلّ لرَسُوله محمّد ﷺ أنّه رسُولٌ يُبَلّغُ النّاسَ ما أَمَرهُ الله بأن يبلّغَهُمْ إياه، وأنّه

لم يُكلَّفْ أن يُجْبِرَ الناسَ على الإيمان والإسلام، فما هو مُرْسلٌ لأن يَكُونَ جبّاراً مُسَلَّطاً عليهم بالْقَهْر، ومُكْرِهاً لهم على اتّباعه.

أي: إنّهم في رحلة امتحان، والامْتِحانُ من لوازِمه العقليّة التخيير، أمّا الْجَبْرُ والإكْراهُ والْقَهر فأُمورٌ تَتَناقَضُ معَ الامتحان والتخيير، ولو شاء الله جل جلاله ذلك لسَلَبَهُم التخييرَ، ولَجَعَلَهُمْ مجبورين، وعندئذٍ فلا بُدَّ أن يكونوا جميعاً مطيعين له، لا يعْصُونَ اللَّهَ فيما أمَرَهم به، ويَفْعَلُونَ دواماً مَا يُؤْمَرون، كالملائكة، لكنهم نوع آخر، إنهم مخلوقون للامتحان، فهم ذَوُو إراداتٍ حُرَّةٍ تختارُ، دُونَ جَبْرٍ ولا إكراه.

● ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾: أي: وبما أَنَّكَ لَسْتَ علَيْهم بجبّارٍ مُكْرِهٍ لهم على الإيمان والإسلام، وَقَدْ سبَقَ أَنْ بلَّغْتَهُمْ مَا أَمَرَكَ الله بأن تُبلِّغَهُمْ إيّاه، وهو مَا أنزلْنَاهُ عليك في نجوم التنزيل السابقة لسورة (قَ) فإنَّ وظيفَتَكَ بالنِّسْبةِ إلى هٰؤلاء المكذبين المعاندين، هي التذكير بما سبَقَ أن بلَّغتَهُمْ إياه، وهذا التَّذْكِير تُوَجّهه فقط لِمَنْ لم يَبْلُغوا إلى حالةٍ ميْؤُوس منها. أمّا الذين بَلَغُو إلىٰ حالة ميؤوسٍ منها فَلاَ تُضِعْ وقْتَكَ وجَهْدَكَ بتذكيرهم.

إنّ الميؤوس من استجابتهم لدعوتك هم الذين تُدْرِكُ من تصرّفاتهم أنّهم لاَ يَخافُونَ وَعِيدَ الله بالعقاب، بل يعاندون وَيُكابرون، وأنت لا ترجو مستقبلاً أن يحْصُل لديهم الخوف من وعيد الله وعقابه.

هذا ما يَدُلُّ عليه فعل المضارع ﴿يَخَافُ﴾ أي: تشعر بأنه يخاف الآن، أو ترجو أو تطمع بأن يخاف مستقبلاً، لأمارات خير تلاحِظُها فيه.

وبهذا انتهى تدبر السورة على ما فتح الله به.

❀ ❀ ❀

ملاحق لسورة (قٓ)

الملحق الأول: مستخرجات بلاغية من السورة.

الملحق الثاني: الوصف بالبركة في القرآن المجيد.

(١٧)
الملحق الأول
مستخرجات بلاغية من السورة

في سورة (قٓ) بلاغيات متنوعة، فتح الله عَلَيّ باسْتِخْراج ما يلي مِنها:

أولاً:

الْقَسَمُ بما يصْلُح لأنْ يكون دليلاً على صحة المقْسَم عليه وصدقه.

فقد جاء في صدر السورة القسم بالقرآن المجيد على أنّ محمّداً رسول الله حقًّا وصدْقاً، وعلى أنّ خبر البعث إلى يوم الدّين حقٌّ وصِدْق.

ومن المعلوم أنّ إعجاز القرآن في مبانيه وفي معانيه، دليلٌ قاطع لدَىٰ من تلقّاه بَوعْيٍ وتدبّر، على صِدْق كون محمّدٍ نبيّاً ورسولاً مرسلاً من الله العزيز الحكيم، وعلى صِدْقه في كُلّ ما يبلّغه عن ربّه، ومنه نبأ البعث بعد الموت إلى يوم الدين.

ثانياً:

الإيجاز البديع القائم على طيّ عبارات يمكن أن يدرك المتدبر دلالاتها بالاستنتاج، إذْ تقتضيها المذكُورات في النّص، أو يُتَوَصَّل إليها باللَّوَازم الفكريّة، أو بدلالة التقابل التكامليّ في العبارة أو العبارات:

● فمن المطويّات: حذْفُ جواب القسم: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴾ وتقديرُهُ: إنَّ محمّداً لَرَسُول الله حقًّا وصِدْقاً، وهو صادقٌ فيما بلّغ عن ربّه، ومنه نبأ البعث إلى يوم الدين بعْدَ الموت.

● ومن المطويّات: ولم يستفد المكذِّبون من دلالَة إعجاز القرآن، ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ . . .﴾.

● ومن المطويات: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ سَوْفَ نُرْجَعُ إلى الحياة مرّة أخرى ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.

● ومن المطويات: من شُبَه هؤلاء الكافرين لإنكار البعث، توهُّمُهم أنّنا لا نَعْلَمُ ما يتفرّقُ في الأرض مِنْ رُفاتِ أجساد الموتى حتّى نَجْمعَها ونُعيد خلْقَها، والحقُّ أننا ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.

● ومن المطويات: إنَّ مُنكري رسالة محمد من قومه ومنكري البعث، لم يكونوا باحثين عن الحقّ، ولا شاكّين من عُمْقِ قُلوبهم في صِدْق الرسُول وصِدْقِ بلاغاته عن ربّه ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

● ومن المطويات: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ إنَّ الواقع المشاهد يَدُلُّ علىٰ أنّنا لَمْ نعجز بالخلْق الأوّل، فقد أوجدناه، ومَا نزال دواماً نُهَيْمِنُ عليه بسُلْطَانِ رُبُوبيّتنا ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

● ومن المطويّات: ومن شبههم التي جعلتهم يُنْكرون الجزاء يوْمَ الدّين، تَوَهُّمُهم أننا لا نُحيط علماً بكلّ أعمالهم، ولا سيّما ما يستخفون به، وما تُكنُّهُ صُدُورهم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ﴾ بعِلْمِنا ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ فَنَحْنُ نحيط بكل شيءٍ عِلْماً ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ من الملائكة ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ قعيد ﴿وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ وما يَعْمَلُ من عَمَلٍ ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

● ومن المطويات: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ مِنْ شياطين الجنّ ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فاختصم الكافر وقرينه من شياطين الجنّ فـ﴿قَالَ﴾ الله ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾.

● ومن المطويّات: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ وحين أنزلْنا عليهم وسائل التعذيب والإهلال ﴿هَلْ﴾ كَانَ لَهُمْ ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾.

● ومن المطويّات: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ فيَخْرُجون ﴿سِرَاعًا﴾ ونَسُوقهم ونجمعُهم في الأرض المخصّصة محشَراً، مهما نأت عنه الأجداث الّتي كانوا فيها فـ ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

ثالثاً:

استعمال ضمير المتكلّم العظيم في البيانات الّتي تتضمَّن التحدُّثَ عن ظاهرةٍ من ظواهر ربوبيَّة الله جلَّ جلالُه، وعَظُم سُلْطانه، نَجِدُ هذا فيما يلي:

﴿بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ و﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾ و﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾ و﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ و﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ و﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ و﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ و﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ و﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ و﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ و﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ و﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾ و﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ و﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

رابعاً:

تأكيد الخبر ببعض المؤكّدات، لأنّ مقتضى حال المقصودين بالْخطاب يسْتَدْعي التأكيد، ونجد هذا فيما يلي:

(١) التأكيد بالْقَسَم في عبارة: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾.

(٢) التأكيد بـ «قد» في عبارَتي: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ و﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾.

(٣) التأكيد بـ «لقد» في عبارة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ وفي عبارة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ وعبارة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾.

(٤) التأكيد بالمؤكّدات: «إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللاّم المزحلقة» في عبارة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾.

(٥) التأكيد بمؤكّدين: «إنّ والجملة الاسميّة، أو ضمير الفصل» في عبارة ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾.

(٦) التأكيد بحرف الجرِّ الزّائد «مِنْ» في عبارة: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ وعبارة: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

خامساً:

تقديم الأحداث المستقبليَّةِ مُسْتَقْطَعَةً من وقائعها التي سوف تَحْدُث، كأنَّها أحْداثٌ تَجْري الآن، أو كأنَّها أحداث جَرَت فيما مضَىٰ، لتأكيد أنَّها ستقَعُ حتماً، وهذا فَنٌّ من مبتكراتِ الأساليب البيانيَّةِ في القرآن المجيد[1].

ونجد هذا الْفَنَّ فيما يلي من السّورة:

(١) ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾.

(٢) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾.

(٣) ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

(٤) ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

(٥) ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

(٦) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) انظر بيان هذا الفنّ في كتاب «البلاغة العربيّة» للمؤلف ج/ ٢ ص/ ٣٤٦.

(٧) ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ...﴾.

سادساً:

التضمين: وهو تضمين كلمة معنى كلمة أخرى، وجعل الكلام بَعْدَهَا مبنيًا علىٰ الكلمة غير المذكورة، كالتعدية بالحرف المناسب لمعْنَاها فتكون الجملة بهذا التضمين بقُوّةِ جملتين، والعبارة بقُوَّةِ عبارَتين، دلَّ على إحداهما الكلمة المذكورة التي حُذِفَ ما يتعلَّقُ بها، ويُقَدَّرُ مَعْنَاهُ ذِهْناً، ودَلَّ على الأخرى الكلمة الّتي جاءت بَعْدَها المتعلّقة بالكلمة المحذوفة الملاحَظِ معناها ذِهْناً.

وهذا التضمين فَنٌّ رفيعٌ من فُنُونِ الإيجاز في البيان القرآنيّ.

ونجد في سورة (قٓ) من هذا التضمين ما يلي:

(١) في عبارة: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: ذَلِكَ ما كُنْتَ تحِيدُ عنه نافراً من كلّ بيان حوله.

(٢) في عبارة: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ أي: لقد كُنْتَ في غَفْلَةٍ غَارِقاً في متاع الحياة الدُّنيا، نافراً مِنْ كُلِّ بلاغٍ ودليلٍ يتعلّق بيوم الدّين، ومن كُلّ تَذْكير يُذَكّرك به.

سابعاً:

الكناية: وهي اللفظ المستعمل فيما وُضِعَ له في اصطلاح التخاطُب، للدّلالة به على معنى آخر لازم له، أو مصاحب له، أو يُشار به عادةً إليه، لما بينهما من الملابسة بوجه من الوجوه.

ونجد الكناية في سورة (قٓ) فيما يلي:

(١) في عبارة: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ كنايةٌ عن عبارة: لم أَمْتلِئْ، جواباً للسؤال: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾.

(٢) في عبارة: ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ﴾ تَسْلِيَةٌ للرَّسُول تجاه ما يُلاقيه من كبراء كُفَّارِ قومِهِ من اتّهامات وشتائم، كناية عن وعْد الله لرسوله بأنّه سيَنْصُره، وتهديد الله للّذين يؤذون الرسُول بأقوالهم بأنَّهُ سيَنْتَقِمُ منهم ويَنْصُرُ رسُولَه.

❁ ❁ ❁

(١٨)
الملحق الثاني
الوصف بالبركة في القرآن المجيد

مقدمة

البركة في اللّغة: هي النماء والزيادة، فمنها ما يكون في الحسيّات، كالبركة في الطعام والشراب والأموال والذرّيّة، ومنها ما يكون في المعنويَّات، كالبركة في العلم، والوقت، والفهم، والسعادة النفسية، وثواب العبادة ومضاعفة الأجر عليها، والبركة في إنجاز الأعمال، والبركة في معونة الله لعبده، وتوفيقه له، وتسديده في أموره، والبركة في مضاعفة الانتاج للأعمال.

رُوي عن ابن عبّاسٍ: أنّ البركة هي الكثرة في كلّ خير.

والمُبارَك: اسم مفعولٍ من فعل «بَارَكَهُ اللّهُ» فهو مبارَك، أي: موصوف بأنّ الله قد منَحه البركة، إذْ جعله ذا نماءٍ وزيادة في خَيْرٍ ما، أو في خيراتٍ كثيرات.

يقال لغةً: باركَ اللّهُ الشَيْءَ، وبَارَكَ فيه، وبارَكَ عليه.

الموصوف بالبركة في القرآن المجيد:

(١) جاء في القرآن المجيد الوصف بالبركة العظمىٰ التي لا تَحُدُّها تصوُّراتُ المخلوقات كلّها، لذات الله وصفاته الجليلة السَّنيّة.

(٢) وجاء فيه وصف القرآن بأنّه مباركٌ، أي: في ثراء معانيه، وفي تأثيراته النافعات، لتحقيق الخيرات الجسيمات، كالشفاء، والأمن، وحصول السكينة، وفتح أبواب الرزق والعِلْم، والتوفيق والخلاص من الشدائد، وغيرها.

(٣) وَجاء فيه بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد منح بعض عباده من الرُّسل وآلِهِمْ البركة، فجعلهم مباركين، تظهر آثار البركة فيهم، وفي تصرّفاتهم وفي آثار أعمالهم، وفي إجراء المنافع والخيرات العظيمات، على ما يقولون وما يَعْمَلُون، وفي حصول المنافع بتأثير ما جَعَل الله تبارك وتعالى في ذواتهم من قوىً غير منظورة، ذات آثارٍ تظْهَرُ في الأحياء وفي الأشياء.

(٤) وجاء فيه بيان أنّ الله تبارك وتعالى قد جعل البركة في الأرض كلّها، وخصَّ بعض أماكن منها فجعل فيها بركةً مادّيَّةً ومعنويّةً زائدةً على ما في سائر الأرض، كالبركة في البيت الحرام ومكّة كلّها، والبركة في المسجد الأقصىٰ وما حوله، والبركة في البقعة الَّتي كلَّمَ اللَّهُ عزّ وجلّ منها موسَىٰ عليه السَّلام تكليماً.

(٥) وجاء فيه بيان أنّ الله عزّ وجل نَزَّل من السماء ماءً مباركاً، إذْ جعل فيه بركة الإنبات والسُّقيا النافعة وخيرات كثيرات أخرى.

(٦) وجاء فيه بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل البركة العظيمة في ليلة القدر، التي هي خيرٌ من ألف شهر.

(٧) وجاء فيه بيان أن الله قد جعل شجرة الزيتون شجرة مباركة.

(٨) وجاء فيه بيان أنّ المؤمن إذا دَخَلَ بيتاً فسلَّمَ على نفسه، كان له ذلك تحيَّةً مباركَةً من الله، نافعةً في الدنيا، ومأجورةً من الله يوم الدّين.

وهذه البيانات لا تقتضي أنّ البركة منحصرة، بما وصَفَهُ الله بالبركة، إنّما تفيد التنويه بذكر من بارك الله فيهم، والتنبيه على الأشياء التي بارك الله بها، للانتفاع بما فيها من خيرات مباركات.

فالبركة قد يمنحها الله عزّ وجلّ لغير من جاء في القرآن بيان أنّ الله قد باركهم، أو منحهم من بركاته، وقد تكون موجودة في أماكن من الأرض، غير الأماكن الّتي جاء في القرآن بيان أنّ الله قد بارك فيها، وفي أزمانٍ غير ليلة القدر التي خصَّها الله ببركة عظيمة. كيوم عرفة، ويوم الجمعة، وفي غير الأشياء التي وصفها الله بأنها مباركة، كالبركة الموجودة في القمح، وفي الحبَّة السَّوداء.

وفيما يلي استعراضٌ لما جاء في القرآن من نصوص البركة، مع بعض تَدَبُّرٍ لها:

أوّلاً
الوصف بالبركة العظمىٰ لذات الله وصفاته

جاء في القرآن المجيد وصْفُ ذات الله وصفاته بالبركة في تسعة نصوص، وبصيغة «تَبَارَكَ» أي: تنامىٰ وتزايد وتعاظم بالإطلاق العامّ فوق كلّ ما يصفه الواصفون، وهو على وزن «تَفَاعَل» من البركة:

النّصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً للنّاس:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يَجْعَلُ دَوَاماً النَّهارَ يَسْتُر اللّيْلَ بضياء الشمس حول الكُرَةِ الأَرْضِيَّةِ. فالأصل في الكون الظلمة، فإذا جاء الضياء غشِيَها فَسَتَرَها، وإذا ذهب الضياء عادت الأشياء إلى ظُلْمَتِها، أو مِقْدار ظلمتها التي كانت عليها.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: تَنَامَى وتزايَدَ وتعاظم اللَّهُ رَبُّ العالمين، في ذاته وفي صفاته عَنْ كُلّ تصوّراتِ كُلِّ خَلْقِهِ في السَّمَاوَاتِ والأَرْض، تنامِياً وتزايداً لا تستطيع الخلائق تصوُّرَ حدٍّ له، مَهْمَا سبحت أوهامُهُمْ في الأبعادِ الّتي لا تتناهى.

فمن آثار صفاته جلّ جلاله هذه الظواهر الكونيَّةُ العظمىٰ الّتي نبَّه عليها هذا النصّ.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

أي: إنّ الْقُرْآن المجيد، الذي هو فرقان بين الحق والباطل، والخير والشرّ، والْهُدَىٰ والضّلال، والمعْجِزُ في مبانيه ومعانيه، لا يُنَزِّلُهُ إلاّ مَنْ تبارك فَوْقَ كُلّ تَصَوُّرات الخلائق في ذاته وفي صفاته الجليلة.

النص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً، دَفعاً لمقترحات كبراء مشركي مكة، أنّ الرسول ينبغي أنْ يُلْقَىٰ إليه كنْزٌ، أو تكون له جنّةٌ يأكُلُ مِنها تُغْنِيه عن المشي في الأسواق لاكتساب رزْقه:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: تباركَ اللّهُ في قُدْرَتِهِ القادرة على أن يجعل لكَ يا مُحَمَّدُ خيراً ممّا اقترح المشركون أن يكون لك، إلاّ أنّ حكمته اقتضت خلاف ذلك في رسالتك، لئلا تكون مثل ملوك الأرض.

النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) أيضاً:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

أي: تنامىٰ وتعاظم وتزايد اللَّهُ جلّ جلاله فَوْقَ كُلِّ تصَوُّرٍ لصِفَات علمه وحكمته وقُدْرته الّتي كان من آثارها أَنْ جعل في السّماء بروجاً للنجوم والكواكب، فهي تنزل في بروجها بإتقان وإحكام. وجعل فيها لسُكّان الأرض شَمْساً ذات ضياءٍ حارٍّ كالسّراج، وقمراً بارداً عاكساً للضوء بنور كاشفٍ للأشياء المظلمة.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: فتنامىٰ وتزايَدَ وتَعاظَمَ رَبُّ العالمين، فوق كُلِّ تَصَوُّرٍ لصفاتِ عِلْمِه وحِكْمَتِه وقُدْرَتِهِ ورَحْمَتِهِ، الّتي كان من آثارها أنْ جعل لكم الأرض قراراً لا تتعرّضون فيه لقلَقٍ واضطراب في إقامتكم عليها، وجعل لكم السماء بناءً مُتَماسِكاً لا خلل فيه ولا فُروج، فلا يتهَاوَىٰ عليكم من أجرامها العظمىٰ ما يُبيدكُم. وكرَّمَكُمْ أيُّها الناس فصوّركم فَأَحْسَنَ صُوَرَكم، وجعلكم في أَحْسَنِ تَقْوِيم، ورحمكم فرزقكم من الطَّيبات.

النص السّادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة: (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذي له مُلْكُ السّماوات والأرض وما بينهما، إذْ هُو خالقُهما، وعِنْدَهُ عِلْمُ السّاعة، وإليه يُرْجَعُ الناسُ بعْدَ الموت والبعثِ للحساب، وفصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، لا بُدَّ أن يكون قد تبارك في ذاته وفي صفاته، فوْقَ كُلِّ تَوَهُّمٍ وتَصَوُّرٍ للخلائق عنهما.

النص السابع:

قوله الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمِنُونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إنَّ خالِقَ الإنسان في أمْثِلَةٍ مُتَكرّرَة دواماً، ضِمْن هٰذه الأطوار الّتي جاء بيانُها في هذا النَّصّ، لا بُدَّ أن يكون في ذاته وصِفاته، متزايداً متنامياً متعاظماً فوْقَ كلّ تَصَوُّرٍ عظيم تتصوَّرُهُ المخلوقاتُ مَهْما أوسَعُوا المدَىٰ.

النّصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾.

أي: تَنَامَىٰ وتزايَدَ وَتَعاظم في ذاته وفي صفاته الذي بِيَدِه الْملكُ كُلُّه، فهو يتَصرَّف في الأكوان بعِلْمِه، وحكمته وقُدْرَتِه ورَحْمَتِه وَعَدْله على ما يشاء، وهو على كُلّ شيء قدير.

وهذه الظواهر الكونيّة آياتٌ على أنّ صفاتِه العظيمات الجليلات، لا يبْلُغُ إلى إدْراك مدَاها الأقصَىٰ أَحَدٌ من المخلوقات.

النصّ التاسع:

قول الله عزّ وجل في آخر سورة (الرَّحْمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) الّتي اشتملت على عرض آيات كثيراتٍ من آياتِ آلآئِهِ (أي: نِعَمِهِ) العظيمة الكثيرة على عباده من الإنْسِ والجنّ:

﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: تعاظَم وَتَنَامَىٰ وَتزايَدَ فَوْقَ كُلّ تَصَوُّرٍ تتصَوَّرُه المخلوقات كلُّها، وَصْفُ رَبّك، المشتمل على خصائص الرّبوبيَّة المتعلّقة بكلّ الكائنات، خلْقاً وإمداداً وتصاريفَ بدءاً من إيجادها واستمراراً مع بقائها.

﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: أي: المتصف بكمالِ الشَّرَف والعظَمَةِ والرِّفْعَةِ والْمَجْدِ والْحَسَب، والمتصف بكمال الإكْرام في عَطَايَاهُ وهباته، ومِنَحِه وجُوده وإحْسَانه.

ثانياً
وصف القرآن بأنّه كتابٌ مُبارَكٌ

وجاء وصف القرآن المجيد بأنه كتاب مباركٌ في أربعة نُصُوص قُرانيَّةٍ من التزيل المكيّ، وقد سبق في المقدمة بيان أظهر عناصر البركة الّتي جعلها الله عزّ وجلّ في كتابه العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

في هٰذه الآية وصف الله عزّ وجلّ القرآن بأنّه كِتَابٌ مُبارَكٌ، وَدَلَّ

قول الله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ على أنّ المراد بالبركة هنا كثْرَةُ دَلاَلاَتِ آيَاتِه على الْمَعَاني الوفيرة الغزيرة الفيَّاضَة، الّتي يتجدَّد عطاؤُها كُلَّما تعمَّقَ المتَدبِّرون في استنباط المعاني واستخراجها من أعْمَاقِ بحُورِه الزَّاخِرَة، فلا تَنْتهي عطاءاته الثَّرَّةُ، ولا تَفْنَىٰ عجائبه.

وتتجدّد مفهوماتٌ دَلّتْ عليها آياتٌ قُرآنيَّةٌ، باكتشاف النَّاس لحقائق من آيات الله التكوينيَّة، في كَوْنِه الواسِعِ الْفَسِيح العظيم.

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: أي: ليَتَدبَّرُوها باهتمامٍ وتعمُّق أخذاً من إدْغام التاء بالدال.

التَدَبُّر: هو التفكّر الشامل المتَتَبّع، بَدْءاً من أوائل دلالات سَطْح النَّصّ الْقُرآنِيّ، حتَّىٰ آخر ما يُمْكن أن يُعْطِي من دلالاتٍ ومفهوماتٍ، تَدُلُّ عليها اللّوازم الفكريَّة، أو ما يقتضيه النصّ من معاني مكمّلة، ويسْتَطيع المتدبّر أن يستَخْرِجَها مِنْ مطويَّاتٍ في النَصّ غَيْرِ مذكورات في اللّفظ، ويستطيع أنْ يكْتَشِفَها من المثاني حينما يَبْسُطها وينْظُرُ في أغماقها، فمن صفاتِ القرآن المجيد أنّه مثاني، أي: عباراتُه الملفوظة مكتوبة علَىٰ الظَّاهر الذي يُرَىٰ مِن المثاني، أمّا غير الملفوظة فهي في داخل الثنيات، وهي الّتي يحتاج استخراجُها إلى مُتَدَبّر بحَّاثَةٍ، عَمِيق التفكُّر والتَّأمُّل، ذي قدرة على الغوْصِ والاستخراج المقرون بالدليل العقليّ، أو النَّصّيّ من نصٍّ آخر، يَدُلُّ على ما اسْتَخْرَجَهُ من عُمْقِ المثاني المطوية.

وأصل التدبُّر مأخوذ من النظر المستوعب للشيء حتّى دبُرِه، وأواخِرِه، وعَاقبته ببصيرة، حتّى الأطراف البعيدة الّتي يدلُّ عليها النص.

ومنه التدبير: وهو النظر في الأمور بدءاً من أوائلها، حتَّىٰ أواخِرها وعواقبها، ولهذا وصف الله عزّ وجلّ نفسه بأنّه يُدَبِرُ الأمر في الكون كلّه، وبأنّه يُدبِّر الأمْرَ من السَّماءِ إلَىٰ الأَرْض.

ولكن لا يصِلُ المتفكر إلى أواخِرِ دلالات النّصّ إلاَّ إذَا تَسَلْسَل مع الأفكار بدءاً من أوائلها، وتتبُّعاً لسائر فقراتها حتّىٰ أواخِرِها وأدْبارِها.

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: التَّذَكُّرُ يأتي في المراحل اللاحِقَةِ لِلْفَهم، وأكْمَلُهُ التَّدَبّر.

فمن تَلَقَّىٰ آياتِ القرآن المجيد، ففهمها فَهْماً سليماً مقبولاً، فالمطلوب منه أن يتذكَّرَها عند كلّ مناسبَةٍ داعية لتَذَكُّرِها، ليعمل بما تَهْدي إليه من سلوك ظاهرٍ وباطن، ومن السُّلوك الباطن أعمال القلوب والنفوس وأجهزةُ التفكير والإدراك والفهم.

وهذا التذكّر هو من صفاتِ أولي الألباب، وهم أصحاب العقول الحصيفة الدَّرَّاكة، والإرادت العاقلة الرَّشيدة.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

فأضَافَ هٰذا النّصُّ إلى كَوْنِهِ كتاباً مباركاً، أنه مُصَدِّقٌ ما أنزل الله عزّ وجلّ من كُتُبٍ قَبْلَهُ لَمْ يَدْخُلْ فيها تحريفٌ أَوْ حَذْفٌ أو إضافة.

وأضاف أيضاً بيان أنّ وظيفة الرّسُول أن يُبلّغَهُ، وأنّ يَبيِّنه، وأخيراً أنْ يُنْذِرَ به الكافرين، بدءاً من سُكّان أمّ القرىٰ بلَدِ الرّسول، فَمَنْ حَوْلَ أُمّ الْقُرَىٰ، في دوائر تتّسِعُ حتّىٰ يشْمَلَ ذَلِكَ النّاسَ أجمعين. فأمّ القرىٰ مَرْكَزُ سَطْحِ الأرض، وكُلُّ ساكن في أيّ مكان من الأرض يَدْخل في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ﴾.

وأضاف هذا النَّصّ أيضاً بيان أنَّ الّذين يُؤْمِنُون بالآخرة إيماناً صحيحاً

من أيِّ ملَّةٍ سابقة لنزول القرآن، ويُؤْمِنُون بأنَّهم مَدِينونُ يوم الدّين من قِبَلِ رَبِّ العالمين، فلا بُدَّ أن يُؤْمِنوا بالقرآن، وأن يُحافِظُوا على صلاتهم لربّهم، إذْ يجدون في الإيمان بالآخرة أقوى الدوافع والبواعث على الإيمان بهذا الكتاب المبارك، وعلى القيام بواجب عبادتهم لله بالصّلاة في أدنى الحدود.

النّص الثالث:

قول الله عزّ وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصّ إلَى كوْنِ القرآن كتاباً مُبارَكاً، أَمْرَ النَّاس باتّبَاعِهِ اعتقاداً وعملاً، وبأنْ يتّقوا عقابَ مخالفاتهم لأوامر ربّهم ونواهيه، جاعلين من دوافِعِهم رجاءَ أَنْ يرْحَمَهُم ربُّهم بالمغفرة وبالتوبة، وبدخول جنَّة الْخُلْدِ يَوْمَ الدّين.

النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لمنكري رسالة الرسول محمد ﷺ ومنكري كون القرآن منزّلاً من عند الله مع كونه معجزاً، ومن إعجازه كونه مباركاً فيَّاضَ المعاني:

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾؟!

أي: أكذّبتُمْ رسولي، واستكْبَرْتُمْ عن الإيمان به واتّباعه، فأنْتُمْ بسبب ذلك مُنْكرون أنْ يكونَ القرآن المجيدُ كتاباً مُنَزَّلاً من رَبّكُمْ، مع كونه معجزاً مباركاً في معانيه ثَرَّ العطاء العلميّ، وافر الدلالات.

وسمَّىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ القرآن في هذه الآية ذِكْراً اعتباراً بالمطلوب الثالث من مطالب الله بالنسبة إليه، وذكر هذا المطلوب يَدُلُّ باللُّزُوم الذهني على المطلوبين الأوّل والثاني:

- **فالمطلوب الأول**: تَلَقِّيه من الرَّسُولِ الَّذِي بلَّغه.
- **والمطلوب الثاني**: تَفَهُّمُ معانيه والتبصُّر فيها.
- **والمطلوب الثالث**: تذَكُّرُ ما جاء فيه عنْد كلّ مناسبة داعيةٍ لهذا التذكّر.
- فعند مواقيت الصلاة، يُطْلَب تذكُّر ما فرض الله على عباده من صلوات.
- وعند وجود المال الذي تجب فيه الزكاة، يُطْلَبُ تذكُّر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام فريضة الزكاة.
- وعند قدوم شهر رمضان، يُطْلَبُ تذكُّر ما اشتمل عليه القرآن من أحكام فريضة الصيام.
- وعند اندفاع النفس إلى ممارسة محرَّمٍ من المحرَّمات، يُطْلَبُ تذكُّرُ حُكْمِ اللَّهِ في ذلك العمل.
- وهكذا إلى سائر ما اشتمل عليه الْقُرآنُ من عقائد، وشرائع، وأحكام سلوك ظاهرٍ وباطن.

ثالثاً

بيان أنّ الله قد منح البركة بعض عباده الصالحين

البركة على نوحٍ وعلى أُمَمٍ ممَّنْ معه.

جاء في القرآن المجيد بشأن نوح عليه السلام، وبشأن أُمَم ستأتي من نَسْلِ الذي معه في الفلك، قولُ الله عزّ وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قِيلَ يَنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ... ﴿٤٨﴾﴾.

أبانت هٰذه الآيَةُ أنَّ نوحاً عليه السَّلاَم لمَّا انْتَهتْ أَحْداثُ الطوفان، وتَمَّ إغْرَاقُ أهل الكُفْر في الأرض، وتَوَقَّفَتْ سفينتُهُ في موقفِ ما على الجودي(١)، قال الله عزّ وَجلّ وحْياً: اهبط بسَلاَم مِنّا، أي: اهبط من السفينة إلى الأرض مصحوباً بسَلاَم يُحِيطُ بِكَ بأمْرِ تكوينيّ منّا.

﴿وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾: واهبط مصحوباً ببَرَكَاتٍ كثيراتٍ تتنزَّلُ عليك منّا، وتتنزَّلُ عَلَىٰ أُمَم ستوجَدُ في الأرض من نَسْلِ من مَعَكَ في السفينة، وكانت الأمم الباقية بَعْدَ نوحٍ عليه السّلام من ذُرّيات أبنائه، لقول الله عزّ وجل في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

وقد ظهرت البركات في الأنبياء والمرسلين والصالحين الذين انْحَدَرُوا من ذُرِّيَّات نوحٍ عليه السلام.

البركة على إبراهيم عليه السلام وأهل بيته وعلى ابنه إسْحاق.

وقد جاء في القرآن بشأن إبراهيم عليه السلام وبشأن أهل بيته قولُ الله عزّ وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزولِ) حكاية لقول الملائكة الّذين جاءوه بالبشْرَىٰ بأنّ امرأته ساره ستحمل وتَلِدُ وهي عجوز:

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾.

قال الملائكة لسارة زوجة إبراهيم عليه السّلام: رَحْمَةُ اللّهِ وبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البيت.

---

(١) **الجودي**: اسم جَبَلٍ، ذكَرُوا أنّهُ قريب من الموصل، وقيل. كلمة الجودي تُطْلَقُ على كلّ جبل.

فإن كان هذا خَبَراً، فإنهم لا يُخْبِرُون إلاَّ إذا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قد أفاض على أهل بيت إبراهيم من رحماته وبركاته.

وَإِنْ كانَ دُعَاءَ فإنّ دعاءَ الملائكة مستجابٌ.

وجاء أيضاً بشأن إبراهيم وولده إسحاق عليهما السلام قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

فأبانَ هذا النَّصُّ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ بَارَكَ بعَظَمَةِ رُبوبيَّتِهِ على إبراهيم ووَلَدِهِ إسْحَاقَ عليهما السّلام

البركة على موسَىٰ عليه السلام.

وجاء في القرآن بشأن موسَىٰ عليه السَّلام وهو في رحلة العودة إلى مصر، ومعه أهله، قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: أي: ناداه اللَّـهُ، و«أَنْ» تفسيريه إذْ جاء ما بعدها مُفَسِّراً لمضمون النداء الذي فيه معنى القول دون لفظه.

و﴿بُورِكَ﴾ أي: مُنِحَ الْبَرَكة، والمانِحُ للبركة هو الله تَبَارَكَ وَتعالى لاَ مَحالة.

﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لاَ بُدَّ أنْ يكونَ من الملائكة المقربين، وقد يكون جبريلَ أمين الوحي، وقد يكون غيرُهُ معه، والملائكة لا تتأثر أجسادهم النورانيّة بالنار، وهذه نارٌ، إلاّ أنها صافية من الأخلاط والشوائب، ولا أرى داعياً لتفسير النار هنا بالنُور، علَىٰ اعتبار أنّ موسَىٰ عليه السَّلام رآها ناراً وهي في حقيقتها نور، إذْ لاَ دليل على هذا، والله عزَّ وجلَّ قد سمَّاها ناراً، وللَّهِ حِكَمٌ في تصاريفه واختياراته.

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: وهو مُوسَىٰ عليه السّلام، وقد يكون معه طائفة من الملائكة لم يكن موسَىٰ يَراهم، لأنّ مُوسَىٰ وحْدَه كان إلى جانب النار، ولم يكن حولها، لكنه مع جمع من الملائكة يصلح أن يكونوا حولها.

ولحكمةِ تثبيت فؤاد موسىٰ وطمأنتِه، أعلَمَهُ اللَّهَ جل جلالُهُ بأنَّ في النار ملائكة، ومعه حول النار ملائكة.

وقد مَنَحَ اللَّهُ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ البركة بمقتضىٰ دلالة هٰذا النّص، لأَنَّه ممَّنْ كَانَ حَوْل النار.

وقد ظهرت البركة العظيمة التي أعطاها الله عزّ وجلّ لموسى علَيْه السَّلام في كلّ تاريخ حياته، منذ نشأته حتّىٰ وَافتْهُ منيَّته، وكان من بركاته إجراء الآيات التِّسع العظيمة له، حتىٰ فلْقِ البحر له ولقومه وعبورهم، ونجاتهم، وإهلاكِ فرعون وملَئِه وجنوده.

البركة على عيسىٰ عليه السّلام.

وَجاء في القرآن بشأن عيسَىٰ عليه السّلام، قولُ الله عزّ وجل في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) حكاية لما أنْطَقَه الله به، وهو طفْلٌ رضيعٌ حَديث الولادة تحمله أمُّه:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي

جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾.

فدَلَّ هذا النّصّ على أنّ الله تبارك وتعالى قد أنْطَق عيسى عليه السّلام، وهو طفل رضيع بأنَّ الله قد جعله مباركاً في أيّ مكان هو كائنٌ فيه.

وقد ظهر من بركاته عليه السلام آيات كثيرات، ومنها أنه كان يصنع من الطّين كهَيْئَةِ الطَّيْر، فينفُخُ فيه، فيكون طيراً بإذنِ الله وَأنّه كان يُبْرِئ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ ويُحْيي الموتَىٰ بإذْنِ الله، إلىٰ غير ذلك من آيات:

الأَكمة: أي: الأعْمَىٰ، ويطْلَقُ هذا اللفظ في اللّغة على الأَعْشىٰ أيضاً.

الرسول محمّد ﷺ.

لم يأت في القرآن المجيد نصٌّ صَريح بأنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قَدْ مَنَحَ رسُولَه محمدًا ﷺ البركة.

لكنْ تواطَأَت النُّصوص على أنّه سيّد ولد آدم، وأفضل عباد الله عند الله، وإمام المرسلين وسيّدهم، وصاحب الشفاعة العظمىٰ يوم الدّين، وأتباعه من الناس هم الأكثر والأعظم بين أتباع الرُّسل، وأمَرَ الله المؤمنين بأن يُصَلُّوا عليه ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً، أمّا غيره من الرُّسل فقد جاء في القرآن بشأنِهم الترغيب في السلام عليهم فقط، مثل قول الله عز جل بشأن إبراهيم عليه السلام في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول).

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾.

وكلّ هذا يدلُّ على أنّ نَصِيبَه من بركات الله هو الأكثر والأجلَّ، ولو لم يَرِدْ نَصٌّ صَرِيحٌ بذلك، ويكفيه من البركة العظيمة أن الله جلّ جلالهُ أنزل عليه أعظمَ كتبه كتاباً مباركاً معجزاً، وأنّ الله أكرمه بالعروج به إلى

السماوات حتى سِدْرَةِ المنتهىٰ، وكانت حياته زاخِرَةً ببركات من الله عليه، ومنها أنّه منحه الفتح المبين، وجعل له ولأمّته العزّ والمجْدَ والتمكين.

رابعاً
بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد باركَ في كلّ الأرض

قال الله عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَاتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

دلَّ هذا النصّ على أنّ اللّهَ تَبارَكَ وَتَعالَىٰ، قَدْ بارَكَ في الأرض الّتي اختارها لسكْنَىٰ الإنسان، الذي خَلَقَهُ اللّهُ في أحْسَنِ تَقويم، وكَرَّمَهُ، إذْ جعل فيها ما يُمِدُّ الأَحياء عليها بأرزاقهم، ومطالب معايِشهم، وحاجات مصالحهم، وزيناتهم، وقُوّاتِهم، وحاجات نفوسهم، مهما تكاثَروا على ظَهْرِها، إذا أحْسَنَ النّاس اسْتِغْلالَها بإتقان، وأحْسَنُوا الاستفادة ممّا وَهَبَهُمُ الله من قُدْرات فكريَّة، وطاقاتٍ جَسَدَيَّة، ومُسَخَّراتٍ كَوْنيَّة، في اسْتِنْباطِ خَيْرَاتها من خزائنها الكثيرة الوفيرة.

وقد جعل الله الأقوات في الأرض مساويةً لمطالب النّاس منها، بشرط أنْ يَبحثُوا وَيَعْمَلُوا لاستخراجها. والسُّؤالُ هو الأمرُ الحاثُّ على القيام بكلّ خُطْوَةٍ فَخُطْوَةٍ من البحث والعمل والاسْتخراج، فجاء في النّصّ التعبير بالسّائِلين للدّلالَةِ على كُلّ الخطوات الّتي يخطُوها الْعامِلُونَ للحصول على مطالبهم من الأقوات. وهذا من الإيجاز البديع في القرآن. وإدْراكُ المطلوب يَعْتَمِدُ على معرفة السلاسل السّببيّة.

مثلاً: يسْأَلُ الإنسان من أيْنَ آكُل؟ فيُجيبه واقع الحال: من الأشجار المثمرة، والزّرُوعِ التي تُنْبِتُ حبَّ الحصيد، ومن الصيد.

فإذا خشي النفاد سأل: ماذَا أفعَل للحصول على القوت؟ فيجيبُهُ واقع الحال: احرث وابذُر واسْق. أو اعمل على تربية الحيوانات الداجنة.

وهكذا كُلُّ مطلب لا يتحّقق إلاّ بعمل، وكلّ عَمَلٍ يبدأ بسؤالٍ ما، والسُّؤال يدفع إلى البحث ومعرفة الأسباب للوصول إلى المطلوب.

خامساً
البركة الزائدة الّتي جعَلَها الله تبارك وتعالى لأمكنة خاصّة

البركة في البيت الحرام بمكة:

لقد جعل الله عزّ وجلّ الكعبة البيت الحرام بمكة بيتاً مباركاً، وكان من الحكمة أنَّهُ أوَّلُ بيت وُضِعَ للناس.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

ومن بركات هذا البيت أنّ الصّلاة في حَرَمِه بمئَةِ ألْفِ صلاة ثواباً من عند الله.

ومن بركاته الأمن العامّ في الحَرم المكيّ[(١)].

ومن بركاته أنّه يُجْبَىٰ له ثمراتُ كُلّ شيء.

ومن بركاته أنّه كان مولِد خاتم النبيّين وإمام المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ.

ومن بركاته أنّه كان أوّل مهابط وحْي الله لرسوله محمد ﷺ، وأوّل مهابط نزول سُوَرِ القرآن المجيد عليه، وهو أعظم كتب الله للناس أجمعين.

---

(١) انظر تفصيل هذا الأمن في الملحق الثاني من ملاحق تدبُّر سورة (التّين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول).

ومن بركاته أنّه قبلةُ النّاس جميعاً، ومحجُّ النّاس جميعاً، بشرط أن يُؤْمِنُوا باللَّهِ ورَسُوله.

ومن بركاته فيوضاتُ العطاء الرَّبَّانيّ لبعض عباد الله فيه، بعلُومٍ رَبَّانيَّة، وَإِكْرَامَاتٍ غيبيَّة ذَاتِ آثارٍ مَشْهُودة.

إلى غير ذلك من بركات كثيرات.

البركة في البقعة الّتي كلَّمَ اللَّهُ عندَها مُوسَىٰ عليه السلام:

قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) في الحديث عن موسى عليه السّلام، ومقدمه إلى النار الّتي آنَسَها مِنْ جانب الطّور الأيْمَنِ:

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

فوصف الله عزّ وجلّ هٰذِهِ البُقْعة بأنّها مُبارَكة، ومن البركة العظيمة التي جعلها اللّهُ لها أَنَّها كانت مَكاناً شريفاً يُكلّم الله تبارك وتعالى عنْدَه مُوسَىٰ عليه السّلام تكليماً حقيقِيّاً، على ما يليق بصفاته الجليلة وسلطانه العظيم، وكان هذا في طريق عودته إلى مصر بعد فراره منها.

وكان من آثار هذه البركة العظيمة، الألْواحُ التعليميَّةُ الّتي آتاها اللَّهُ موسَىٰ عليه السَّلامُ، فكانت جزءاً من كتاب التوراة الذي أنزله الله عليه، وكان هذا بعد الخروج من مصر ببني إسرائيل، وغرق فرعون وجنوده.

البركة التي جعلها الله للمنزل الذي أنزل فيه نوحاً ومن معه بعد رحلة النجاة:

قال الله عزّ وجل في سورة (المؤمنون/٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في حكاية خطابه لنوح عليه السلام قبل أن يركب السفينة:

﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

لقد علّم الله عزّ وجل نوحاً أن يَدْعو بهذا الدُّعاء، وفي هذا إشعار له بأنّه سيستجيب له، فَيُنْزِلُهُ مُنْزَلاً مُبارَكاً، وقد استجاب الله دُعاءه.

وفي هذا تعليم للمسافرين في البحر أو في البرّ أو في الجوّ، أن يَدْعو ربَّهُمْ بأنْ يُنْزِلَهُمْ مُنْزَلاً مُبارَكاً، فيه لهم خَيْرٌ غيبيٌّ ومَشْهُود.

البرَكة التي جَعَلَها اللَّهُ للمسجد الأقْصَىٰ وَما حوله:

جاء في القرآن المجيد خمسةُ نُصوص تَدُلُّ على أنّ اللَّه قد جعل مكان المسجد الأقصى، وما حوله من بلاد الشّام، أرضاً مباركة ببركات حسيَّةٍ ومَعْنَويَّة:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

والأرض التي بارك اللَّهُ فيها وأَوْرَثَها بني إسرائيل بعْدَ مُوسَىٰ عليه السلام هي بلاد الشام، حول مكان المسجد الأقصى في القدس.

ثمّ لمّا عَصَوْا وَفَسَقُوا وأشركُوا وَطَغَوْا وبَغَوْا سلّط الله عليهم من سَباهم ومزّقهم، ومَلَكَ بِلَادَ الشَّام مَكانَهم.

ثمّ لمَّا ظهر الإسلام كان المسلمون هم الوارثين، وانطبق عليهم وعد الله لإبراهيم عليه السلام، لأنّ رسول الله محمّداً ﷺ من ذُرّية إبراهيم.

النّص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول):

﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

﴿بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ أي: وبارَكْنا فِيه من باب أَوْلَىٰ، لأنّه هو المقصود الأوّل بالبركة.

والبَرَكة التي جعلها الله في بلاد الشّام حول المسجد الأقْصَى تشمَلُ البركة المادّيّة والمعنوية.

ومن آثار الْبركة المعنويَّة ما نَبَّأَ اللَّهُ عَزَّ وَجلَّ في بلاد الشّام من أنبياء، وما بعث فيها من رُسل، وما أنْزَل فيها من كتب.

ومن آثار البركة المادّيّة ما في زروعها وأشجارها وثمراتها من خيراتٍ كثيرات.

النّص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام، وهجرته من أرض العراق:

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

ومعلوم أنّ هجرتهما كانت إلى أرض الشام، فهي الأرض الّتي بارك الله فيها للعالمين.

النّص الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/٢١ مصحف/٧٣ نزول) أيضاً بشأن سليمان عليه السّلام:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

والمرادُ بالأَرْض الّتي بارَكَ اللَّهُ فيها هي بِلَادُ الشَّام.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) في الحديث عن أهل سَبَأ في الْيمن:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: وجعل الله جلّ جلاله بين أهل سبأ في اليمن وبين بلاد الشام التي بارَكَ فيها قُرىٰ ظاهرة، فإذا أرادوا السَّفَرَ من بلادهم إلى بلاد الشام كان لهم مبيتٌ في قَرْية، ومَقِيلٌ في قَرْيَةٍ أُخْرَىٰ.

سادساً
البركة التي جعلها الله في زمان ليلة القدر

من الخواصّ الزّمانية أنّ الله تبارك وتعالى قد جعل ليلة الْقَدر ليلةً مباركة، ومن وفرة بركات الله فيها أنّها خَيْرٌ من ألف شهر، للذين يعبدون ربَّهم فيها، وأنّ الدعاء فيها مستجاب.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الدُّخَان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾.

وجاء في سورة (القدر/ ٩٧ مصحف/ ٢٥ نزول) بيان أنَّ هذه اللّيلة هي ليلة القدر[1].

---

(١) انظر ما سبق بيانه لدى تدبّر سورة (القدر).

سابعاً
البركة التي جعَلَها الله في الماء الذي ينزّله من السماء

جاء في القرآن المجيد بيان أنّ الماء الذي يُنَزِّله الله تبارَكَ وتعالَىٰ من السَّمَاءِ ماء مبارك في نصَّيْن:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾.

وقد سبق التدبّر التحليلي لهذه الآية في موضعها من سورة (ق).

النّصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

ومن البركات التي يَفْتَحُها الله على أهل القرىٰ المؤمنين المتقين الْمَاءُ المبارك الذي يُنَزِّلُهُ لنفعهم ورزقهم من السّماء، أي: من السحاب، وقد يكون مع الماء بركاتٌ أخرى من أشعة الشمس والغبارُ المنتشر الذي يكون مدداً لنباتات الأرض، ومن فوق ذلك كلّه مقادير اللَّهِ لهم المشتملة على وفير من المنح والعطايا الرَّبَّانية الَّتي يَقْضي بها لهم.

ثامناً
البركة التي جعَلَها اللَّهُ في شجرة الزيتون

قال الله عزّ وجل في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي

زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

لقد أبانت هذه الآيةُ أنّ الله عزّ وجلّ قد جعَلَ شجرة الزّيتُونِ شَجَرَةً مباركة، بما فيها من غِذاءٍ عظيم، ودُهْنٍ نافع مفيد لا نظير له في كُلّ الدُّهون والزّيوت(١).

تاسعا

البركة الّتي جعلها الله في التحيّة الّتي يُسَلّم المؤمن بها على نفسه إذا دخل بيتاً

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿. . . فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً . . .﴾.

أي: إذا دخلتم بيوتاً فسَلِّمُوا على أهلها الذين هم بمنزلة أنفسكم، لأنّ المؤمنين كالجسد الواحد، وإذا لم يكن فيها أحَدٌ فقولوا: السلام عَلَيْنا وَعَلىٰ عباد الله الصالحين، الذين هم كأنفسكم، وهذه تحيَّةٌ من الله مباركة لكم.

وأخيراً: أكرّر أنّ هذه النصوص لا تُفِيدُ حصر البركة بما جاء في القرآن وصْفُهُ بالبركة، بل فيها التوجيه للاستفادة من البركات التي جعلها الله فيها.

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر تحليل هذا النصّ في كتاب «الأمثال القرآنية وصور من أدبه الرفيع» للمؤلّف.

سورة البلد

٩٠ مصحف ٣٥ نزول

(١)

نصّ السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا
وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ
عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ
أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾
وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا
ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾
يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ

٥و٧ ـ ● قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر:
﴿أَيَحۡسَبُ﴾ فيهما بفتح السين. وقرأ باقي القرّاء العشرة:
﴿أَيَحۡسِبُ﴾ فيهما بكَسْر السين، والقراءتان وجهان عَربيّان لنطق الفعل المضارع.
يقال لغة: حَسِبَ الشيءَ كذا يَحْسَبُهُ ويَحْسِبُه، أي: توهَّمَهُ، أوظَنَّهُ ظنّاً ضعيفاً.

٦ ـ ● قَرَأَ أبو جَعْفرٍ: ﴿لُبَّداً﴾ بتشديد الباء المفتوحة.
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿لُبَداً﴾ بتخفيف الباء المفتوحة.
والقراءتان تَدُلاّن على معنىٰ الكثرة المجتمعة المتلَبِّدة على بعضها.

١٣ و١٤ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكِسَائي: ﴿فَكَّ رَقَبَةً أَوْ أَطْعَمَ﴾ على أن ﴿فَكَّ﴾ فعل ماضٍ، و﴿رَقَبَةً﴾ مفعول به و﴿أَطْعَمَ﴾ فعل ماض. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [فَكُّ رقبَةٍ أو إطْعَامٌ] على أن [فَكُّ] مصدرٌ، و﴿رَقَبَةٍ﴾ مُضافٌ إليه، و﴿إِطْعَامٌ﴾ مصدر أيضاً.
والقراءتان تَفنُّنٌ في التعبير، ومؤداهما متماثل.

ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾

٢٠ ـ ● قَرأ أبو عَمْرو، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف: ﴿مُؤْصَدَةٌ﴾ بتحقيق الهمزة السّاكنة بعد الميم، من فعل: أَأْصَدَ الْبَابَ يُؤْصِدُهُ، أي: أغلقه، وقرأ باقي القراء العشرة: [مُوصَدَةٌ] مِنْ فِعْل أَوْصَدَ الْبَابَ يُوصِدُهُ أي أغلقه.

فالقراءتان وجهان عربيان، والمعنى واحد.

(٢)
موضوع السّورة

يدور موضوع سورة «البلد» حول «الابتلاء» الذي هو الغاية من خلْق الإنسان، والذي يسْتَتْبع باللّزوم العقلي التكْلِيفَ، والمراقَبَةَ طَوَال مُدّة الابتلاء، ثم المحاسبة، وفصل القضاء، وتحقيق الجزاء.

وجاءت هذه السّورة بأسلوب غاية في الإيجاز، إلى حدٍّ شبيهٍ بالطريقة الرمزيّة وليس منها، إذْ يعتمد على اللوازم الفكرية الدّقيقة جدًّا، الّتي تسْتَدْعيها ظاهِرَةُ كَوْن الإنسان مخلوقاً في كبَدٍ، أي: في ظروف لا تُنَال معايشُه فيها إلاّ بمشقة وشدّة وضيقٍ وكدحٍ وكدٍّ ونصَبٍ، وكأن المقصود بالخطاب بها أذكياء المتدبّرين والفلاسفة.

وهذه السورة تُتَابع استكمال الإقناع بقانون الجزاء الرّبّاني، الذي دار حَوْلَهُ موضُوعُ سُورَةِ (قٓ) وموضوع سورة (المرسلات) قبلها، وموضوع سورة (القيامة) وسُوَرٍ أخرى سبق نزولها.

إلاَّ أنّ سورة (البلد) تُنَبّه على فكرة فلسفيّةٍ عميقة الدلالة، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ فيها: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

هنا يتساءل المتفكر المتدبّر: لماذا خلق الله العليم القدير الحكيم

الإنسانَ في كبَدٍ ضِمْنَ ظُرُوفِ الحياة الدنيا، مع أنّه قَدْ خَلَقَهُ في أَحْسَنِ تَقْوِيم، كما أبان لنا جلّ جلالُه في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول)؟!.

إنّ كونَه مخلُوقاً في أحْسَن تقويم يستدعي أن يكون مَسْكَنُه في جنَّاتِ النعيم، فهذا المسكن هو الملائم لصفته هذه.

لكنْ لمَّا جعله الرَّبُّ الخالق ضمن ظروف هذه الحياة التي يعيشها في كَبَدٍ، وهو الرَّبّ العليم القدير الحكيم، فلا بُدَّ أن يكون هذا لِحِكْمَةٍ جليلة اقتضتها إرَادة الرَّب الحكيم، الذي هو على كُلِّ شيءٍ قدير.

فما هي هذه الحكمة؟

ويهتدي المتفكّر المتدبّر إلى أنّ هذه الحياةَ ذاتُ زمن قصير جدًّا، كزَمَنِ مجتازِ جسْرٍ إلى دار الإقامة الدَّائمة.

وهنا يتفكّر في هذا الإنسان وصفاته الّتي فضّله الرَّبُّ الخالقُ العليم الحكيم القدير بها، فيُدْرِكُ بجَلاءٍ أنّ هذا الإنسان حُرُّ الإرادة، يَمْلِكُ قدراتٍ جليلةً من الفهم، لاكتساب العلم، وقد سخّر الخالقُ لَهُ في ذاته وفي الكون من حوله مسخّرات يتصرّف فيها بإرادته، ولَه أهواء وشهواتٌ ورغبات، وباستِطَاعَتِه أن يلتزم سُلوك طريق الخير، أو أن يَسْلُكَ مَسَالك الشرّ، إرضاءً لأهوائه وشهواته ورغباته.

عندئذٍ يظهر له أنّ هٰذِهِ الصفاتِ ضمْن ظروفِ هذه الحياة تَسْتَدْعي أنّه الآنَ في رحلة امتحان، لكشف استحقاقه الخلود في جنّاتِ النّعيم، الملائمة لكونه في أحسن تَقْويم، أو لا يستحقُّ ذلِكَ لاستخدامه ما وهبَهُ اللّه في معصية خالقه الواهبِ، وجحود ربُوبيّته وإلٰهيته له.

وبَدَهيٌّ أنَّ الامتحان لا يتحقَّقُ إلاَّ في ظروفٍ يُكابد فيها الممتَحَنُ مشَقَّاتٍ ومتاعِبَ تتطلَّبُ منه إرادةً واعيةً حازمة، وصَبْراً على تَحَمُّلِها، وعليه

في تحمُّل هذه المشقَّاتِ والمتاعب أن يخالفَ أهواءه وشهواته ونَزَعاته ورغباته المخالفاتِ لأوامر ربّه ونواهيه في رحلة امتحانِه القصيرة، ليَنَال السعادَة الخالدة، في حياة أُخرى سوف تَتَحقق يوم الدّين.

وإلاً سقط في الامتحان وخابَ وخَسِر.

وبعد هذا التَّنْبيه المشدَّد على هذه الظاهرة ذات الدلالة العميقة، التي يفهمها المتدبّر المتعمّقُ الحَصِيف، جاء في السُّورة بيانُ صارِفَيْن من صوارفِ النفس عن الإيمان بالجزاء الرَّبَّاني، وبيوم الدين، لبعض المكذبين به:

الصارف الأول: اغترارُ المكذِّب بيوم الدِّين، إذا كان من أصحاب المال والأعوان والأنصار، بما لديه من قُوَّةٍ، حتَّىٰ يتوهَّمَ أنَّهُ محميٌّ بقوّته فلا يَقْدِرُ عليه أحدٌ، فيغْفُل عن خالقه العليم الحكيم القدير، وواجبه تجاهه، ويغفُلُ عن قدرته على مجازاته بما يستحقُّ من عقاب، إذا كفر وعصَىٰ وكانَ من المجرمين.

الصارف الثاني: توهُّمُ بعْضِ المكذبين بيوم الدِّين، أنَّه ليس عليه رقيب، إذا استخفىٰ عن أَعْيُنِ الناس بجرائمه وشُروره التي يرتَكِبُها.

وهذا ناشئٌ عن سذاجَةٍ وسطحيَّةٍ فكريَّةٍ يتوهَّمُ بها أنَّ ما لا يشاهده ببصره من حوله، فهو غير موجود.

وجاء في السّورة دفع هٰذين الصَّارفين ببيان أنّ الخالقَ هو الذي مَنَحَ ذا القوّة ما لدَيْه من قوّة، وما لَدَيْه من أسبابها، وهو الّذِي منح كُلَّ إنسان أدوات المعرفة، ووسيلة التعبير عنها، أفلا يكون سبحانَهُ قادراً على عقابِ الكافر والعاصي بما يَسْتحقُّ من عقاب؟! أفلا يكون سبحانه عليماً بكل ما يكسبُهُ عبيده في رحلة امتحانهم؟!

وجاء في السورة بيان معرفَةِ الإنسان بطريق الخير وطريق الشرّ، بما

لديه من فطرةٍ هاديَة، وبما أنْزَلَ الله على رسُلِه من رسالاتٍ، وبيانَاتٍ بمطلوبِ الله من عباده، في أوامره ونواهيه.

● وهُنَا يَسْأَلُ المتفكّر: مَا هو مطلوبُ الله من عبده المُمْتَحَن في رحلة امتحانه؟.

ويأتيه الجواب الرَّبَّاني: أنْ يقتحم عقبة نفسه الّتي تسيطر عليها أهواؤه، وشهواتُه، ورغباتُه من الحياة الدنيا.

● فإذا فهم هذا سأل: بمثل ماذا يكون اقتحام العقبة؟.

ويأتيه الجواب الرَّباني: بعتق رقبة عبْدٍ من الرّقّ، وبإطعام الطعامِ في يومٍ ذي مسغبة (أي: ذي مجاعَة) يتيماً ذا قرابةٍ ما، أو مسكيناً جائعاً شديد الفقر، وفي اختيار العتق والإطعام مراعاةٌ للمرحلة المكية التي نزلت فيها السورة، إذْ كان توجيه الاهتمام فيها لمساعدة ذَوِي الضرورات والحاجات في المجتمع، والتحلّي بفضائل الأخلاق، عقب الدعوة إلى الإيمان الصحيح.

● وبعد هذا يأتي السؤال التالي: وهل يكفي الإنسانَ أنْ يعمل الحسَنَاتِ، ويتْرُكَ السيّئات؟

ويأتي الجواب الرّبّاني: لا، إذ لا بُدَّ أن يكون الإنسان من الَّذِين آمنوا بما أمَرَ الله بالإيمان به، وتواصَوْا بالصَّبْر، وتواصَوْا بالْمَرْحمة.

● وهنا يأتي السؤال التالي: فما هي النتيجة إذَا فعل الإنسان ما هو مطلوبٌ منه؟.

ويأتي الجواب الرَّبَّانيُ: يكُونُ من أصحاب الميمنَة يوم الدين، وهم الذين يستحقُّون دخول الجنَّةِ دار النعيم.

● وبعده السّؤال التالي: وما هي عقوبة من كفَر بآيَاتِ رَبّهِ؟

ويأتي الجواب الرَّبَّانيُّ: أُولئك أصحابُ المشأمة، عليهم نارٌ مُؤْصَدَة.

وبهذا يظهر ترابط عناصر فِقَراتِ السّورة وآياتها ترابطاً فكريًّا مَتِيناً، وقد أوصل إلى هذا إبرازُ المطويّات بين ثنايا فِقَراتها، استهداءً بإدْراكِ اللّوازم الفكرية، وما تقتضيه العبارات المذكورة من تَتِمَّاتٍ غَيْرِ مَذْكُورةٍ إيجازاً، واعتماداً على تَدَبُّر أولي الألْباب.

❁ ❁ ❁

(٣)
دروس السّورة

تشتمل هذه السورة على ثلاثة دروس:

الدرس الأول:

درسٌ اشتمل على قَسَمٍ بمُقْسَم به ذي اقتضاءَيْن: أحدهما يستدعي القسم به، والآخر لا يستدعيه، فجاءَ قَسَماً منفيًّا.

والْمُقْسَمُ به: مكّة البلد الحرام، وكُلُّ والدٍ وما وَلَدَ.

والْمُقْسَمُ عليه: أنّ اللّه قد خلَقَ الإنسانَ في كبد، أَيْ: في شدّة وكدْحٍ وَمُكابَدة ومشَقَّة، ويلزم عن هذا عقلاً أنّه مُمْتَحن مكلّف مسؤول ومُجَازَىٰ.

وهو الآيات من (١ ـ ٤).

الدرس الثاني:

درس تضمّن بيان صارفين عن الإيمان بقانون الجزاء الربّاني، هما اغترار ذي القوّة بقوته، وتوهُّم ذي الغباءِ أنّ ما لاَ يُشَاهِدُه ببصره من حوله لاَ وجود له، مع التنبيه على فسادهما، وتضمَّنَ بيان هداية الإنسان إلى

معرفة طريق الخير وطريق الشرّ، ليُدْرِكَ أنه مكلّف ومَسْؤول ومُحاسَبٌ ومُجَازَىٰ.

وهو الآيات من (٥ ـ ١٠).

الدرس الثالث:

درس تضمن الإجابةَ على أسئلة مطويَّة يستثيرها ما جاء في الدرسين الأول والثاني.

وهو الآيات من (١١ ـ ٢٠).

❁ ❁ ❁

(٤)
التدبر التحليلي للدرس الأول من دروس السّورة وهو الآيات من (١ ـ ٤)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾.

﴿لَآ أُقْسِمُ﴾: سبَقَ في أوّل سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) بيان الحكمة التي فتح الله بها عليَّ مِن ذكر القسم وإدخال حرف النفي «لا» عليه.

وأعيد هُنا ما سبق أن ذكرتُه هُنَاكَ مع زيادة شرحٍ وإيضاح، وبعض إضافات.

اختلفت أقوال المفسرين في الْقَسَم المسْبُوق بحرف النفي «لا» الوارد في القرآن المجيد ثماني مرات في سبع سُور بصيغة ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾.

- فمن المفسّرين من قال: «لاَ» زائدة، والتقدير «أقسم».
- ومِنَ المفسّرين من قال: «لاَ» نافية لكلامٍ مُقدّرٍ، وليْسَ النفيُ مسلّطاً على القسم.
- ومنهم من قال غَيْرَ ذَلِكَ.

ولم أجد لأقوالهم في هذا مُسْتَنداً من بيان الرَّسُول ﷺ.

ولم يَنقُلْ أحَدٌ أنَّ أحَداً من العرب الّذين لم يستَجيبوا لدعوة الرسول ﷺ اعْتَرضَ على هذا الأسلوب البيانّي الذي يُذْكَر فيه القسم مسبوقاً بأداة النفي «لا» فدَلَّ على أنّهم لم يجدوا فيه شيئاً خارجاً عن أساليب البيان البليغ.

وقد سبَرْت بأناةٍ معانيَ النصوص الّتي جاءت فيها صيغةُ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ فظهر لي بفتح من الله الوهّاب، أنّها أسلُوبٌ مبتكَرٌ، أدْرَكَ قيمتَهُ فُصَحاء العرب ضمن ما أدْركوا من عناصر إعجاز القرآن، فأحْجَمُوا عن معارَضَةِ سُوَر القرآن بِخُطَبٍ أو مَقَالاَتٍ أو رسائل أو غير ذلك، لشعورهم بالعجز عن أن يأتُوا بمثله.

هذا الأسْلُوب البيانيُ المبتكَرُ ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ قَدْ رُوعِي فيه اقتضاءان مُتَعَارضان:

الاقتضاء الأول: يَسْتَدْعي الْبَيَانُ البليغ معه الْقَسَمَ المؤكِّدَ للخَبَرِ الّذِي هو الْمُقْسَمُ عليه، والذي قد يتأثر به أولو الألباب.

الاقتضاء الثاني: يسْتَدْعي البيان البليغ معه، أنَّه لا فائدة من الْقَسَم، بالنسبة إلىٰ المقصودين بتوجيه الخطاب إبَّان التنزيل.

فكان الحلُّ المبْتكر في أساليب البيان القرآنيّة، مراعاةَ الاقتضاءَيْنِ المتعارضَيْن معاً، باختيار ذكر الْقَسَمِ والْمُقْسَمِ به، مع سبقه بأداة النفي «لاَ» وإتْبَاعهما بالمقْسَم عليه.

فالوجْهُ الّذي اقتضىٰ الْقَسَمَ رُوعِيَ حالُهُ بِذِكْرِ الْقَسَمِ والمُقْسَم به، تنبيهاً على ما في الْمُقْسَمِ به من تأكيد لِلْخَبَر الْمُقْسَمِ عليه، أو حُجَّةِ هاديةٍ إلى أنّ الموضوع الذي يُرادُ تأكيده حقٌّ وصدْق.

والوجه الّذي اقتضى أنّه لا فائدة من هذا القسم، بالنّسبة إلى المعنيِّين بالخطاب إبَّان التنزيل، رُوعي حالُه بنفي القسم.

● ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾.

المراد بـ«البَلَد» مكة البلَدُ الحرام، حرسَهُ الله وزاده شرفاً. وجاء تعيينه باسم الإشارة «هٰذَا» لتَمْييزه عن سائر بلاد الدنيا، التي يصحُّ أنْ يُطْلَقَ على كلّ واحد منها لفظ «البلد» ولمَّا كانت مكّةُ مهبطَ وَحْيِ هٰذِه السُّورة كان اسْمُ الإشارة «هٰذا» الّذِي يُشار به إلى القريب هو الملائم الذي يُفِيدُ تعيينَ مكّة البلد الحرام.

وكان أهل مكّة يؤمنون بالْحُرْمَةِ العظيمةِ لبلَدِهِمْ، وللمسجد الحرام فيها، ولا سيما الكعبةُ المشرفة بيتُ الله فيه، إلى حدّ أنَّهم قَدْ يُقْسِمُون به على ما ظهر لي، لتوثيق أخبارهم، ووعودهم، وعهودهم.

ومن تعظيمهم لبَلدِهم أنَّهم كانوا يُؤَمِّنُونَ من دَخَلَه، ولا يَسْتَحِلُّون دمَهُ، ولا مالَهُ، ولا عِرْضه، وقَدْ عَقَدُوا حِلْفَ الفُضُولِ لِنُصْرَةِ المظلوم، وكان هذا في الجاهليّة قبْلَ بِعْثَةِ الرسُولِ محمّد ﷺ، وكان الرسول قد حضره قبل بعثته.

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾: أي: وأنتَ يا مُحمَّدُ بْنَ عبد الله، ولا يُمْكِنُ أن يكون الخطابُ بضمير «أنت» لغيره، لأنّه هو الّذِي يُوحَىٰ إليه، وهو الذي جعَلَه كُبَراءُ مُشْركي قومه حِلاّ، أي: هدفاً، وفي هذا تكريمٌ وتسلية للرسول. وجاء لفظ البلد هنا مذكّراً، وهو أحد وجْهَيْنِ عَربيَّين له، إذ يجوز أن يؤنث.

﴿حِلٌّ﴾ هذا اللفظ يأتي في اللُّغَةِ بمعنيَيْن:

المعنىٰ الأول: الْغَرض، أي الهدَفُ الّذي تُرْمَىٰ إلَيْه السّهام، يقال لُغَةً: اتَّخَذَهُ حِلاًّ، أي: اتَّخَذَهُ غَرَضاً وَهَدَفاً يَرْمِي إليه سِهَامه.

المعنى الثاني: الحِلُّ الْحَلالُ، يُقَالُ لغة: هذا حِلٌّ لَكَ، أي: هذا حَلاَلٌ لك.

والمعنى الأوّل هو المعنى الملائم هُنا، فكِبَارُ مُشْركي قوْم الرّسول في مكّة قد اتَّخَذُوه هَدَفاً وَغَرَضاً يَرْمُون هم وأتباعُهُمْ إليه سهامَ الإيذاء والاضطهاد، مُسْتَحِلّين حُرْمَة مكّةَ البلَدِ الحرام، الذي يعظمونه، ويَرَوْنَ حُرْمة العدوان فيه على أحدٍ من الناس، أو أحَدٍ من حيوانٍ برّيٍّ أو شجرةٍ ثابتة، ومخالفين اعتقادَهُمْ في حرمَتِه، ووجوب تأمين كلّ من فيه، وكُلِّ ما فيه، حتَّىٰ الدَّاخلِ إليه من غير أهله، ومخالفين مبادئ حِلْفِ الفضول، فهم بهذا قد أسْقَطوا من نفوسهم حُرْمةِ هذا الْبَلَد، ولم يبْقَ لديهم منها ما يسْتَحِقُّ أن يُقْسِمَ الله به منْ أَجْلِه، فكانَ الملائمُ لحالِهم أن يقول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾:

أي: والحالُ: أَنْتَ مُتَّخَذٌ مِنْ كفَّارِ قومِك فيه غرضاً لسهام إيذائهم واضطهادهم، وأنت رسُولي إليهم وإلى الناس أجمعين، ولا يخفى مَا في هذا البيان من التشنيع عليهم لأنهم قد استحلوا حُرْمَةَ البلد الحرام الذي يعظّمونه، بإيذائهم وعدوانهم على رسول ربّهم فيه وعلى الذين آمنوا به فأسقطوا بعَمَلهم حرمة هذا البلد من قلوبهم.

وجاء في النّصّ تكرير عبارة: ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ في الآية الثانية، لأمْرَيْن:

الأول: التناسُق الجمالي بين الآيتين الأولى والثانية.

الثاني: التنبيهُ على أن المشركين اسْتَحَلُّوا الحرمَةَ العظيمة لهذا البلد، بإيذاء رسُول الله فيه، واضطهاد الذين آمنوا به واتبعوه. فعبارة ﴿بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ في الآية الثانية تُشْعِر بعِظَم حُرْمَتِه، بَعْدَ تعيينه وتمييزه في الآية الأولى، فالمعنى: وأنت رسولي العظيم حلٌّ بهذا البلد العظيم الذي لا يجوز أن يكون أحَدٌ من الناس العادِيّين فيه حِلاًّ. فكيفَ برسولي العظيم؟!

والخطاب في هاتين الآيتَيْن مُوَجَّهٌ للرَّسُولِ بصريح العبارة، لكنَّ القضيَّة الّتي يُرادُ تأكيدُها مَسُوقَةٌ لإقناع المكذبين بقانون الجزاءِ الرَّبّاني، وبيوم الدّين، فهم المعنيُّون بمضمون الخطاب، وبما أنَّ هؤلاء المعنيّين إبَّانَ التّنزيل قَدِ اسْتَحَلُّوا حُرْمَةَ البلد الحرام، إذْ جَعَلُوا رسُولَ اللّهِ فيه حِلاًّ لهم، يُسَدِّدون إليه سهام إيذاءاتهم، فالقسم بهٰذا البلَدِ لا يؤثّر في نفوسهم لتأكيد القضية المسوقةِ لإقناعهم، وهذا المعنى يلائمهُ أن لا يُقْسم اللّه بهذا البلد.

غير أَنّ هذا البلَدَ ذُو حُرْمَةٍ عظيمة، فهو لهٰذِه الحرمَةِ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُقسِمَ اللّه به.

ففيه أوَّلُ بيت وُضع للناس، وكانَ مَوْقعه أوَّلَ ما بَرَدَ من قشْرَةِ الأَرْض على ما ورد في بعض الأخبار، وما من نبيٍّ إلاّ حَجَّ إليه، وهو بلَدٌ ذو حُرْمَةٍ عظيمة في نفوس العَرب جميعاً، منْذُ عَهْدِ رسول الله إسماعيل عليه السّلام، ثم إنّ ذكريَاتِ بناء إبراهيم له مع ولده إسماعيل عليهما السّلام بأَمْرِ الله، بَاقِيةٌ متداولةٌ في العرب عَبْرَ أَجْيَالهم.

ومراعاةً لاقتضاء الْقَسَم بهذا الْبَلَد وعَدَمِ القسَم به معاً، قال الله عزّ وجلَّ ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١﴾ وأبَان الله سبَبَ هذا الإجراء بقوله خطاباً لرَسُولِه: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ وفي هذا تكريم عظيم للرَّسُولِ محمّد ﷺ أي: ولو لم تكُنْ حِلاً بهَذا البلَد لكانت العبارة المناسبة: أُقْسِمُ بهذا البلد.

- ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ أي: وَكُلِّ والِدٍ، وكلِّ ما وَلَدَهُ كُلُّ وَالِدٍ من أنسالٍ، في كُلِّ الأحياء المتوالِدَةِ حتى الحشرات وما دونها.

إنّ ظاهرة الوالد وما وَلَدَ في عالَم الأحياء من ظواهر خَلْقِ اللّهِ العجيبة، الّتي تستحقّ أَنْ يُقْسِمَ اللّهُ عزّ وجلّ بها، لتوجيه أنظار المخاطبين إلى دليلٍ من الأدلّة على وجود اللّه وطائفةٍ من صفاته الجليلة وأسمائه الحسْنَىٰ، ووجوب الإيمان به، وبوجوب الإسلام له، ووجوب عبادته.

ودراسة هٰذه الظاهرة تحتاجُ باحثين من العلماء المتخصّصين في دراسة الأحياء، وكيف تتكَوّنُ النُّطَفُ في الآباء، والبييضات في الأُمَّهات، وكيْفَ تَنْعَقِد الأجنَّةُ في الأرحام، وكيْفَ تحصُل الأنسال.

(الواو) في: ﴿وَوَالِدٍ﴾ هي واو القسم، وهو من حروف الجرّ، والعامل محذوف لا يجوز عند النحاة مع الواو إظهاره، والتقدير: أقْسِمُ أو أحْلِف، ووالد وما ولد.

والمعنى العام: لا أقْسِمُ بهذا الْبَلَدِ وَأَنْتَ حِلٌّ بهٰذَا البلد، أُقْسِم وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ، أوْ وَأُقْسِمُ وَوَالِدٍ وَمَا ولد، على تقدير أنّ المحذوف حرف العطف وفعل «أُقْسِم».

واختير لفظ: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ بَدل لفظ: ومَوْلُود مُراعاة للنَّسَقِ اللّفظي والتناظر في فواصل الآيات.

ولعلَّ في الجمع بين البلَدِ الحرام، ووالد وما ولَدَ، إشارةً إلى أنّ هذا البلَد أوّلُ أرضٍ ظهرت عليها الحياة، وأول أرض ظهرت فيها السلالات الإنسانيةِ، أليس فيها أوّلُ بيت وُضِعَ للناس؟!

● ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾:

﴿فِى كَبَدٍ﴾: **الكَبَدُ**: الشّدَّةُ والمشقّة والضّيقُ ومعاناة كلّ ذلك أو بعضه.

ومُكَابَدَةُ الأَمْرِ: معاناة مشقَّتِه. يُقالُ لغة: كابَدَ الأَمْرَ، أي: قاسَىٰ

شدّتهُ ومشقّته. قال اللّيث: الرّجُلُ يُكابِدُ اللّيل، إذا ركب هوله وصعوبته. ويُقَالُ: كابَدَ الأمْرَ مكابَدَةً وكِبَاداً، أي: قَاسَاه. واسم الفاعل منه «كَابِد» على غير قياس فِعْله.

ولفْظُ «الإنْسَان» عنوانٌ لكلّ خصائِصِه الّتي ميَّزَهُ اللَّهُ بها، وخصائِصُ الإنسان وصفاتُه دليلٌ على الحكمة من خلقه في ظُرُوف الحياة الدُّنيا، وهي حكمة الامتحان، والامتحانُ يقتضي عقباتٍ يُطْلَبُ من الممتَحَنِ أنْ يقْتَحِمَها حتى يظفر بالنجاح الأسمَىٰ، أو بدرجَةٍ من درجات النجاح على مقدار ما اقْتَحَمَ من عقباتٍ وضِعَتْ له في امتحانه.

والامتحان يستَلْزِمُ عقْلاً الحساب، وفَصْلَ القضاء، ثمَّ الجزاء، وهذا يأْخُذُ بيَدِ المتفكّر الّذي يَتَنَقَّلُ مع اللّوازم الفكريَّة إلىٰ أنْ يَصِلَ إلى الإيمان بيَوْمِ الدين.

وقد أبْرَزَ النَّصُ من ظروف الامتحان الّتي وُجِدَ الإنْسَانُ فيها أنَّه مَخْلُوقٌ في كَبَدٍ، فالكَبَدُ مُحِيطٌ بِه من كُلّ جَوانِبِه، مُنْذُ مِيلادِهِ عابراً رِحْلَةَ حيَاتِهِ في هٰذه الدنيا، حتَّىٰ وَفَاته.

إنّ الإنْسان مضطر في هذه الحياة أن يتحمَّلَ مُكَابَدَة الشدائد والمشقّات، وأنواع الضيق والمزعجات، وَأن يكون كادحاً في كثير من أوقاته، ليَدْفَعَ عن نَفْسِه المخاطِرَ والآلام، ويَجْلُبَ لنفسه أسْبَابَ العيش، وبعْضَ اللّذَّات، يَدْفَعُهُ حُلْوُ الأَمل في أنْ يُحَقّقَ لِنَفْسِه بالكَدْح الشّديدِ مُخْتَلِفَ لذَّاتِ الْحَيَاةِ، وأنواعَ متاعها.

ومن الناس من تلْتَهِبُ في داخل نفسه نارُ الشوقِ الحامية، لانْتِهَاب اللّذاتِ، وتحقيق الرَّغبات، طمعاً في الظفر بالسَّعَادة الّتِي لا مَطْمَعَ في الظَّفَرِ بِها في ظُروف الحياة الدنيا، دون مُنَغِّصَاتٍ كثيراتٍ، ومُكدِّرَاتٍ ومُقْلِقاتٍ جَسِيماتٍ.

إنّ الإنسان يمرُّ في الحياة الدنيا على سِلْسلةٍ من المتاعِبِ والمشَقَّاتِ الَّتي يُعَانيها ويُكابِدُها مُنذُ نَشْأَتِهِ حتَّىٰ وفاتِه.

ومُكابدَةُ الإنسانِ مَقْرُونَةٌ بِكَدْحٍ لا تَطُولُ الرَّاحةُ بَعْدَه إلا بمقدار الحاجة إلى التَّزَوُّد بطاقَةٍ لِكَدْحٍ آخر.

والكَدْحُ هو العملُ بتَكَلُّفٍ ومَشَقَّةٍ وَنَصِب في كَسْبِ خَيْرٍ، أو اكْتِسَاب شرّ.

لَقَدْ كابَدَ الإنسانُ قبْلَ أنْ يَعْرِف نفْسَهُ كُلَّ عقَبَةٍ حَوْلَهُ، حتَّىٰ صَارَ إنْسَاناً فَعرَفَ نفسَه.

كابَدَتْ جُرْثومَتُه الأُوْلَىٰ سِبَاقاً عنيفاً بينها وبين الملايين من أمثالها وأشباهها، حتَّىٰ استطاعَتْ أن تشُقَّ طَرِيقها إلى الحياة الإنسانيّة.

وحين تطوَّرَتْ بقضاء الله وقَدَرِه وخَلْقِه فصارت جنين إنسانٍ، كابَدَتْ مشقَّاتِ السّجْنِ المخْدُود، والقَيْدِ المشدُودِ، في بطْنِ الأمّ.

ولـمَّا تكامل الجنين ونَضِجَ، وأرادَ اللَّه عزّ وجلّ له أن يتنسَّم نَسِيمَ الحياة على الأرض الواسعة، كابَدَ مشقَّاتِ النُّفُوذِ من المضايق الشّديدة عند الولادة.

ومَا أنْ دَبَّ علىٰ ظاهر الأرض حتَّىٰ أَحاطَتْ به مشقَّاتٌ أكْبَرُ حجماً، وأكثَرُ عدداً، وَأشدُّ قَسْوَةً.

وكلَّما تَدَرّجَ في أطوار النُّمُوّ عظُمَتْ أمَامَهُ العقبات، وتطَلَّبَتْ منْهُ الحياةُ مُكابَدَةً أعظَمَ، لتحصيل الرّزق، ودفْع المخاطِرِ والآلَام، وللمسابقة والمنافَسَة مع النظراء، لِلْحُصُول على أكثر نصيب من متاع الحياة الدنيا.

وكلَّما زادَتْ لَدَيْه تجاربُ الكَدْحِ والمكابدةِ في مُصَارَعَةِ مشقَّاتِ الحياة، واجتياز عقباتها، ومُغَالبَةِ كُلِّ مُعَارَضَةٍ أَوْ مُنافَسَةٍ، ظَهَرَتْ في نَفْسِه

دوافِعُ جديدَةٌ تَسُوقُه إلى مغامراتٍ جَدِيدَة، يُكابد فيها آلاَماً، فهو في تطلُّع مُسْتَمرٍّ إلَى الاستزادة، وكلَّما انتهىٰ به كدْحُه إلى جديد، ولذَّ لَهُ ذَلِكَ الجديد، نما في نَفْسِه الحِرْصُ والطَّمع، فأخذ يُكابدُ مشقَّاتٍ أُخرىٰ لتحصيل مطالبَ أُخْرىٰ للنَّفْس، أو للفكر، أو للجسَدِ، والعامل لدُنْياه يكْدَحُ منْ أَجْلِ الدُّنيا، والعاملُ لآخِرَته يكْدَحُ من أجل الآخرة، وكلٌّ منهما في مكابدةٍ مستمرّة، وكدْحٍ مُتَتَابع، وهما لا ينْتَهيان إلاّ بمَوْتِه.

هذه حقيقةٌ مشْهُودَة في السُّلوك الدائم للإنسان، وقد عبَّر عنها المعرّيُّ بقَوْله:

تَـعَـبٌ كُـلُّـهَـا الْـحَـيَـاةُ فَـمَـا أعْـ　　　جَـبُ إلاَّ مِـنْ رَاغِـبٍ فـي ازْدِيَـادِ

إنَّ الإنسان حريصٌ على البقاء بدافعٍ فِطْريٍّ غَرَزَهُ اللَّهُ في أعماقه، فَهُوَ يَتَحمَّل من أجْل ذلك أنْواعاً من المكابدَة والكدح الشَّاقَّيْنِ، للحصول على الرِّزْق، وفي مكابدته وَكَدْحِهِ يَصْطَدِمُ بعقَباتٍ كثيراتٍ، فإنْ وصَلَ إلى مَا يُريد، كابَدَ مشقَّاتِ الحفْظِ والْحِمَايَة من أيدي الظالمين، وإنْ لم يَصل إلى ما يريد، كابَدَ آلام الْفَقْدِ والحرمان والْخَيْبَة.

هذا مثال، وفي حياة الإنسان أنواعٌ كثيرةٌ أُخرىٰ من المكابدات التي يُكابِدُها، لتحقيقِ ما يتجدَّدُ في نفسِه من رغبات: فلِلْحُبّ مكابدةٌ وكدْحٌ، ولِلْكَرَاهِيَةِ مكابَدَةٌ وكَدْح، وفي الْجُودِ مُكابَدَةٌ وكَدْح، وفي الشُّحّ مُكَابدةٌ، وفي الصَّبْرِ مكابدة، وفي الضّجَر مكابَدَة، وفي الطمع مكابدة، وفي القناعة مكابدة، وفي طاعة الله والْعَمَل بمراضيه، وفعل الخيرات، واجتناب المعاصي والمخالفات، مكابدةٌ وكدْح، وفي معصية الله، والعمل بمسَاخِطِه، وفعل الشرور، وارتكابِ الْمُوبِقاتِ، لإرضاء الشهوات، مكابدةٌ وكدح.

هكذا الحياةُ الدنيا للإنسان، تَكادُ تكونُ مسالكُها وطُرُقها مُكْتَظَّةً بما يتَطَلَّبُ من سالِكِها مكابدةً وكدْحاً لاجتياز عقباتها، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

وكما قال عزّ وجل في سورة (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول) خطاباً للإنسان مؤمناً كان أمْ كافراً، تقيًا كان أمْ فاجراً:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

﴿يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾: أي: يَدْعُو رَبَّهُ أَنْ يُهلِكَهُ هَلاَكاً أَبَدِيًا، إذ يكونُ لَهُ الموتُ راحةً من العذاب.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾: أي: ظنَّ أنْ لَنْ يَرْجع إلى الحياةِ بَعْدَ الموْتِ.

إنّ الإنسان لمّا كان في ظروف الحياة الدُّنيا ضِمْنَ مُحِيطٍ به مِنَ الكَبَد (=الشدّة، والمشقة، والضّيقِ، والمعاناة) كان بحاجةٍ إلى الكَدْح (أي: إلى الكدِّ والْعَمَلِ الشّاقِ بنَصَبٍ وصَبْرٍ على المتاعِبِ والآلاَمِ) لتحقيقِ مطالبه العاجلَةِ والآجِلَةِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فطالب الدُّنيا الّذي لا هَمَّ لَهُ إلاَّ مَتاعُها وَزِينَتُها والتفاخُرُ والتكاثر منها، يكْدَحُ على مقدار استطاعته للوصول إلى مطالبه منها. وطالِبُ الآخرة الذي جعل هدَفَه رضوانَ الله وجنّات النعيم خالداً فيها مُخَلَّداً، يكدح على مقدار استطاعته للوصول إلى السعادة الخالدة.

وهُنَا وبَعْدَ ظهور هذه الحقيقة، يتساءَلُ المتفكّر المتدبّر: لماذا خَلَقَ اللَّهُ الإنسان ضِمْنَ ظروف الحياة الدّنْيا في هذا الكبَدِ المحيط به، إحاطَة الكُرَةِ الشّاملة بما في داخلها؟

ويستطيع بالتأمُّل المقرون بهَذي البيان القرآنيّ، أن يَعْرِفَ السَّبَب،

وهو أنَّه مَخْلُوقٌ مُمْتَحَنٌ مُبْتَلىٰ في ظروف هٰذه الحياة الدّنيا، والابتلاءُ يقتضي التَّكْلِيف، ولا معْنى للتكليف بدون مشقَّةٍ وَكبَدٍ وَمُعَانَاةٍ، فجعل الله عزّ وَجلّ ظروف الحياة الدنْيَا كذلِك، تُحيطُ الإنْسانَ بِالْكَبَد، كإحاطة الماء بالسَّمك في الْبَحْر.

ولهذا فميادينُ الامتحاناتِ وَسَاحَاتُها لاَ بُدَّ أَنْ تُبَثَّ وتُنْشَرَ فيها الْعَقَبَاتُ، والمفَازَات، والْحُفَرُ، والأشواك، والمخيفاتُ، والشدائد. إضافةً إلَىٰ مُرْضِيَاتِ الْأَهواءِ والشهوات ومُحَقِّقات بعضِ اللّذاتِ الممنوعَةِ المحرَّمَة، وبعْضِ اللّذّاتِ المباحات.

والظَّفَرُ يكون باقتحام العقبات واجتيازها، وتحمُّل المكابَدَةِ فيها والكدح، مع كراهية النفوس لذلك، باجتناب مُرْضيات الأهواء والشهوات، ومحقّقاتِ اللّذّاتِ المحرَّمات، الْمُزَيَّنَاتِ للنفوس، والمُحَبَّبَاتِ لديْها.

وبهذا الامتحانِ الصَّعْبِ على النفوس يُكْتَشَفُ المقتَحِمُ الكَيِّس، الذي يجتاز بنجاح، ويَسْتَحِقُّ دَار الكرامة، ومقام التكريم، بفضل ربِّ العالمين الذي وضَعَ النَّاسَ في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان. ويُكْتَشَفُ العاجِزُ المرتكِسُ الَّذِي يتَّبِعُ هَواهُ، وتأسِرُه شَهواتُه، ويكُونُ كُلُّ هَمِّهِ متَعلّقاً برَغباتِه من الحياة الدنيا، فيجتاز رحلة امتحانه ظالماً آثماً، عاصياً مستكبراً على ربّه، ومتمرّداً على أوامره ونواهيه، وتنتهي رحلةُ امتحانه بالخيبة، مُبْعَداً عن دار كرامة الرَّحْمن، ومقام التكريم عنده، ومستحقًّا العذابَ بالعدل في دار العذاب النّار.

ولو جعل الله الحياة الدّنيا كلَّها متاعاً لا كبَدَ فيه ولاَ كدْحَ ولا متاعِبَ ولا عقبات، لما كانت صالحةً لامتحان الإنسان فيها.

فواقع هَٰذه الحياة الدنيا، بما فيها مِنْ كبَدٍ وكَدْح على نَجْدَيْنِ (أي: طريقين) نَجْدِ الخير ونَجْدِ الشر، هُوَ مِنْ كَمالِ الحكْمَةِ للغاية من خَلْقِ

الإنسان مُزَوَّداً بخصائصِه الّتي جعَلَهُ اللّهُ بها في أَحْسَنِ تقويم، وهي قُدْراتُ الْعِلْم والْفَهْم والتَّفكُّر، وحُرِّيَّةُ الإرادة، وغَرَائزُ النفس، ومشاعرها، وعواطفها، وأهواؤها وشهواتها، والحِسُّ الوجدانيُّ بالْخَيْرِ والشَّرّ، والْقُدْرَةُ على الانتفاع بالمسخَّرَاتِ له في ذاته، وفي الكَوْنِ من حوله.

وكلمة «الإنسان» المخلوق في كبد عُنْوانٌ لكلّ خصائِصهِ الَّتي أشار إليها قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

وفصَّلَتْها بَيَانَاتٌ أُخْرىٰ تتعلَّقُ بخصائص الإنسان التكليفيّة.

والمتَعمِّقُ في حكمة خلق الإنسان في أحْسَن تقويم، لا بُدَّ أنْ يُدْرِكَ أنّ اللَّه تبارَكَ وتعالى، قد أعدَّ له المسكن الخالد الملائم لهذا التفضيل العظيم الّذي فضَّلَهُ اللَّه به.

وحين يسْمَعُ أخبار الجنَّة وما فيها من نعيم مقيم، ومُلْكٍ عظيم، وأنَّها ذاتُ مَرَاتب ودرجات متفاضلات، يُدْرِكُ أنَّ هٰذِهِ الجنَّة هي المسْكَنُ الخالِدُ الملائم له، وأنَّ مراتِبَها وَدَرَجَاتِها المتفاضِلاَتِ لا بُدَّ أَنْ يكون استحقاقُها بأسبابٍ من الإنسان نفسه.

ولمّا كان الإنسان ذا إرادَةٍ حُرَّةٍ مع خصائِصِه النفسيَّة الأُخْرىٰ، كان من الحكمة أنْ لا يَسْتحقَّ دخُولَ الجنَّةِ لِيَنْعَم بهذا المسكن الخالد العظيم، إلاَّ إذا آمَنَ بربّه الّذي خلَقَهُ وهيَّأَ له دار النعيم المقيم. وكان من الحكمة أيضاً أن لا يسْتَحِقَّ مَرْتَبَةً أو درجَةً مُرْتَقِيَةً من مراتبها أو درجاتها المتفاضلات، إلاَّ بأسبابٍ منه تجْعَلُه يَسْتَحِقُّها بفضل الوعد الرَّبَّاني.

وهنا تظهر لذي البصيرة فضائل الأعمال الظاهرة والباطنة، التي يَبْتَغِي الإنْسَانُ بها رضوان اللَّه عزّ وجلّ، على ما يُحِبُّ تبارك وتعالى من عباده، ويسْتَحِقُّ أن يتفضل الله عليه بالارتقاء في المراتب والدرجات، على مقدار

ما اختار في الامتحان، وهذا الاستحقاقُ مُسْتَنِدٌ إلى وعْدِ اللّهِ الكريم المقرونِ بوضعه موضع الامتحان في الحياة الدنيا.

أمّا من كفر باللّه جُحُوداً، واستكبر عن الخضوع له بإعلان الإسلام له، وإعلان الطاعة لأوامره ونواهيه، فالحكمة الّتي تقتضي العدلَ، أن يعامله بارئه والمنعم عليه طَوال رحلة امتحانه بالطَّرْد من مجالات رحمته يوم الدين، وبإدخاله دار العذاب الّتي اعتدها للكَفَرةِ والمجرمين، والعاصين المسرفين في معاصيهم، بشرط إعلامه وإنذاره بذلك وهو في رحلة امتحانه.

إنّ مَنْ كَانَ من هذا الفريق الكافر الجاحِد المجرم، أو المتمادي في ارتكاب الكبائر الكبرى، قد كشَفَ عن نفسه أنّه لَمْ يكُنْ مستحقًّا التفضيل الّذي فَضّلَ الله به الإنسان.

وهنا تظهر لذي البصيرة رذائلُ الأعمالِ الظاهرة والباطنة، التي تُسْخِطُ اللّه عزّ وجَلّ، وتكونُ على ما يجلُبُ مَقْتَ الله وغَضَبه على عباده. وعلى مقدارها يستحقُّ الانحطاط والتَّسَفُّل في منازلِ الجحيم ودركاتها، حتّى يَصِل بعْضُ المجرمين إلى الدرْكِ الأسفل من النار.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (٥ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾.

● ﴿أَيَحۡسَبُ﴾ في الآية (٥) وفي الآية (٧) فيها قراءتان، إحداهما بفتح السين، والأُخْرىٰ بكَسْرِها.

فقرأ بفتح السين، ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وأبو جعفر.

وقرأ باقي القرّاء العشرة بكَسْرِ السين.

والقراءتان وجهان عربيان لنطق الفعل المضارع، أمّا الماضي «حَسِبَ» فبكَسْر السّين فقط بمعنى ظنَّ ظنًّا تَوهُّمِيًّا ضعيفاً، فهذه المادّة اللّغوية لم تستعمل في القرآن إلاَّ بمعنى الظنّ الضعيفِ التوهميّ المرفوض، والتصورات الباطلات المخالفات للحقيقة.

● ﴿لُّبَدًا﴾ فيها قراءتان، إحداهما بتخفيف الباء المفتوحة، وهي قراءة معظم القرّاء العشرة، والأُخْرىٰ بتشديدِ الباء المفتوحة، وهي قراءة أبي جَعْفر.

والمعنى: أهْلكْتُ فأفْنَيْتُ بالإنفاق مالاً كثيراً في إعداد القوىٰ من الأنصار والْعَتاد، فأنَا بها عزيز لا يَقْدِرُ أَحدٌ على أن يَغْلِبَنِي ويُعَذِّبني.

يُقَالُ لغة: مَالٌ لُبَدٌ، أي: كَثِير جمٌّ لا يُخَافُ فَنَاؤه، كَأَنَّهُ الْتَبَدَ بَعْضُهُ علَىٰ بعض.

وقراءة أبي جعْفرٍ: [**لُبَّداً**]: هي جَمْعُ «لاَبِد» أي: كثيرٌ مُتَلَبِّدٌ بعضُهُ فوق بعض. والجمع يَدُلُّ على أنواع من المال كُلُّ واحدٍ منها لاَبِدٌ كثير.

وبين القراءتين تكامل قائم على التوزيع، فبعض ذوي العزّة يقول: أهلكْتُ مالاً كثيراً متلَبِّداً بعضُه على بعض، وبعض ذوي العزَّة يقول: أهلكْتُ أموالاً كثيرة متنوعة، كلُّ نَوعٍ متَلَبِّدٌ بعضُه على بعض.

تمهيد:

في هذا الدرس إلْماحٌ شبيهٌ بالرَّمز إلى بعض الأوهام الّتي تسيطر على

أقسامٍ متفرّقةٍ من الذين لا يُؤمِنُونَ بالجزاء الرّبّانيّ، إذْ تحجُبُهم أوهامهم عن إدْراك براهين هذا الإيمان.

والإلماح إلى هذه الأوهام من المنهج الرّبّانيّ القائم على التتبُّعِ التفصيليّ الدقيق للموضوع الواحد، إذْ تكونُ عناصرهُ مُوَزَّعةً في عدَدٍ من سور القرآن المجيد.

والتتبُّعُ هنا ألْمَحَ أو أشار إلَىٰ ثلاثة تَوَهُّمَاتٍ تُوجَدُ موزّعَةً في أصنافٍ من الناس.

(١) فأصحاب القوّة والعزّة والجبروتِ في الأرض، يطْغَىٰ على تصوّراتهم أنَّهُمْ بلَغُوا من القوّة الغالبة مبْلَغاً يحميهم من أن يَقْدِرَ عَلَيْهِمْ في دوائر نفوذهِمْ أحَدٌ فيَغْلبَهُم، وينالَهُمْ بشَرٌ أو بِسُوءٍ، كبَعْضِ ذوي القوّة العزيزة في مكَّةَ إبَّانَ التنزيل، وكَفِرْعَوْنَ ونُمْرُود والأكاسِرَةِ والقياصِرَة مِنْ قَبْلِهم.

هٰذا صنف من الناس حين يَشْعُر بأنّه عزيزٌ لا يُغْلَبُ، يَذْكُرُ متفاخراً أنَّهُ قد أنْفَقَ مالاً كثيراً مُتَلَبِّداً بعضُه على بعض، أو أنواعاً من الأموال كُلُّ نَوْعٍ منها كثيرٌ مُتَلَبِّدٌ بعضُه على بعضٍ، حتَّىٰ جَمَعَ حوله من الأنصار والعتاد ما يحميه مستقبلاً من أيّة قُوَّةٍ تُواجِهُهُ لتَغْلِبَه وتَتَسَلَّط عليه، وتُصيبَه بشرٌ أو سوء.

وهذا التوهُّم يَنْتَفِخُ في نَفْسِه انتفاخاً فاسداً، حتى يطْغَىٰ على مراكز البصيرة فيها، وعندئذٍ لا يُبْصِر آياتِ الله في كونه، ولا يسْمَع البيانات المنزَّلات من لَدُنْه، ولا تَعْمَلُ موازينهُ الفكريَّةُ فيما خُلِقَتْ له، حتّىٰ يُمَيِّز الحقَّ من الباطل، والخيرَ من الشرّ. فيَنْسَىٰ خالقَه الّذِي خلَقَ السماواتِ والأرض، وخلَقَ كلَّ الْقُوىٰ، وأنّه هو الذي منَحَهُ القوَّة، ويسَّرَ لَهُ سُبُل جَمْعها، وأنَّهُ هو الّذي سيُهْلِكُهُ مع الهالكين، فمِنْ أعجب العجب أن يدفعَهُ

غروره فيَرْفَعَ عقيرَته قائلاً: لَنْ يَقْدِرِ عَلَيَّ أَحَدٌ، ويقولَ مُتَفَاخِراً: لَقَدْ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً، إنَّه غُرور يُوصِلُ أَصحابَه إلى جنُونِ العظمة[1].

ولمَّا كان هذا التوهّم غير ذي قيمةٍ فكريَّة صالحةٍ للرَّدّ عليها، لَمْ يشتمل النصّ على عبارةٍ تُشِيرُ إلى إسقاطه، فكَمْ من دُوَلٍ عظمىٰ سلفت في تاريخ الناس، دَمَّرَها الله بكُفرها وفجورها، وظلمها وطُغْيانها في الأرض، بل اقتصر على بيان توهم المعبّر عن غروره منهم.

● ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾.

(٢) وأصْحابُ الغباء الحسِّيُّون الحمقى الذين يتوهّمون أنّ حواسَّهم المحدودَةَ الضَّئيلَة تُحيطُ بكُلّ ما حولهم، يتَوَهَّمُونَ أنَّ قبائحهم وشُرورهم الَّتي استَخْفَوْا بها عن أعْيُن الناس، لم يرَها أحَدٌ ممَّا وَرَاءَ المنظور بأعينهم، وكذلك ما يُضمِرُون في أنفسهم من نيّاتٍ سيّئات.

أي: فاللَّهُ وملائكته لا يَعْلَمُونَ بما فَعَلُوا في الماضي، ولا بما يفْعَلُونَ في الحال والاستقبال، من خبائث وجرائم، وظلم وعدوان، وبغْيٍ وَطُغْيَانٍ، وفُجُورٍ وعِصْيَان، ولا يشْهَدُونَ بما عَلِمُوا من أحوالِهِمْ.

وهذا التوهُّم يجْعَلُهم يجْحَدُون قانون الجزاء الرَّبَّانيّ، فَلا حسابَ، ولا قضاءَ، ولا جزاءَ، ويَوْمُ الدينِ أمْرٌ باطلٌ لا صِحَّةَ له، في تصوراتهم المعتَمِدَةِ على العمَىٰ في بصائرهم.

وإسقاطُ هذا التَّوهُّم يكونُ بإرجاع كلِّ واحدٍ منهم إلى الإيمان بخالقه، الذي جعل له عيْنَيْنِ يَرَىٰ بهما، وجعل لَهُ فماً ذا لسانٍ وشفتين يَنْطِقُ به.

---

(١) ومن الأمثلة المعاصرة لهؤلاء المغترّين دولٌ عظمىٰ تَمْلِكُ القوى الذرّيّة والهيدروجينية ذات التدمير الشامل، وتتفاخر بميزانيّاتها الضخمة المخصصة لجيوشها وأعتدتها، وتزعُمُ أنّه لن يَقْدِرَ عليها أحد.

وجاء هذا الإسقاط بأسلوب طرح سؤال على أهل العقل والرُّشْد، ومن شأن هذا السؤال أن يَسْتَدْعي إجابَةً تُوصِلُ لوازِمُها الفكريَّةُ إلى إقامة الحجَّة عليه، وإثبات نقيض توهُّمه، فقال الله عزَّ وجلّ:

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾﴾.

والجواب التلقائي يكون بكلمة «بَلَىٰ» فقد جعل الله له عيْنَيْنِ يرَىٰ بهما، ضمْنَ حُدُود الْقُدْرَةِ على الرؤية الّتي منحه الله إيَّاها، وجعل له فماً ذا لسانٍ وشفتين، فهو ينطق به، ويُعبّر به عمَّا يَعْلَم، في حُدُود اللُّغَةِ الّتي تَعَلَّمَ رُموزها الكلاميَّة.

أي: فَهَلْ يمنَحُهُ اللَّهُ الخالق أدوات الإبصار، ويكونُ هو سبحانه فاقد البصر، وهل يمنَحُهُ الإبْصَار ولا يَمْنَح منْ يُراقبه من الملائكة أدواتِ إبصارٍ تَرَىٰ أعماله؟!

وهل يمنَحُهُ الخالقُ فماً ينْطِقُ به، ويكون هو سبحانه فاقد صفة الكلام، التي بها يُنَاقِشُه الحساب، ويفْصِلُ القضاءَ بشأنه؟!!

وهل يمنحه الخالقُ صفة النُّطق الذي يُعَبِّر به عمّا في نفسه من المعاني، ولا يَمْنَحُ من يراقبُه من الملائكة القدرةَ على النُّطْقِ والتعبير، حتَّىٰ يَشْهَدَ عليه بما اكْتَسَبَ في رحْلة امتحانه؟!!

إنَّ هذا لَأمْرٌ لا يقبله من لدَيْه مقدارٌ قليل منَ الفهم السَّوِيّ الصحيح، فضلاً عن إنسانٍ فضَّله الله بأدواتِ العلم واكتساب المعرفة، وجَعَلَهُ في أحْسَنِ تقويم.

ويمكن أن نستفيد من هذا الاستفهام المطروح حول قضيَّتي الرُّؤية والنُّطق، نظيراً مَحْذُوفاً بشأن قضيَّة القوة، التي هي القضيَّة الأولى، فيُقَالُ بجانبها: ألم نَجْعَلْ له قوَّةً في جسمه؟!! أَلَمْ نُسَخِّرْ لَهُ الأشياء في ذاته ومن حوله، حتَّىٰ صار بها عزيزاً ضمن دائرته؟!! أَنَمْنَحُهُ ذَلِكَ ونَحْنُ لا نَقْدِرُ على أَخْذِه، ومُعَاقَبَتِه على جرائمه؟!!.

وفي طرح مثل هذه الاستفهامات تأنيبٌ لهذا الأحْمَقِ المغرور على تَوَهُّمَاتِهِ الحمقاوات.

(٣) ومن النّاس فريقٌ يتوهَّمُونَ أنَّ التَّمْكِين من سُلُوك طريق الخير وطَرِيق الشرّ هو بمثابة إباحة سُلُوكِهِمَا، دون مسؤوليّة ولا حسابٍ ولا جزاء، فصاحب القدرة أو الحيلة هو المؤهل للظَّفر بالحظّ الأكْبَر من مطالب نفْسِه وجَسَدِه.

ويأتي دَفْعُ تَوَهُّم هٰؤلاء ببيَانِ أنَّ الخالِقَ العظيم قد دلَّهم علىٰ طَرِيقَي الخيْرِ والشَّرّ، وأعْلَمَهُمْ بأنَّ طرِيقَ الخير حسَنٌ ونافِعٌ مُفيد، وبأنَّ عواقبه سعيدة، وبأنَّ طريق الشَّرّ قبيحٌ وضارٌّ، وبأنَّ عَواقِبَهُ وخيمة، وهٰذه الدَّلالَة مغروزَةٌ في فِطَرِ نُفُوسهم، وفيما وهَبَهُم الله من قدرات فهم وإدْرَاكٍ واسْتِنْبَاط.

ثُم أبَانَ لهم بما أنزل على عباده من شرائع الدّين وأحْكَامِه طريقي الخير والشّرّ، وأعلمهم بأنّ من سلَكَ طريق الخير أرضى بسلوكه ربَّه، ونال الأجْرَ العظيم والثوابَ الجزيلَ يَوْمَ الدِّين من فضله، مع ما قد يمنَحُهُ من بعْضِ ثوابٍ مُعَجَّل في الحياة الدُّنيا، وأعْلَمَهُمْ بأنَّ مَنْ سَلَكَ طريق الشَّرّ أسْخَط بسلوكه ربَّهُ، واستحقَّ به عقابَ الله وعذابه على ما اكتسب من آثام، وحمَلَ من أوزارٍ في رحلة امتحانه في الحياة الدّنيا.

وجاءت الإشارة إلى دفع توهُّم هٰذا الفريق من النّاسِ في قول الله عزّ وجلّ في هذا الدرس بشأن كلِّ فَرْدٍ لَدَيه هذا التوهّم:

● ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾:

أي: وهدَيْناهُ طَرِيقَ الحقّ والخير، وطَرِيقَ الْبَاطِلِ والشَّرّ. **النَّجْدُ**: في اللُّغَةِ المرتَفِعُ من الأَرْض، فالمراد: وهَدَيْنَاهُ الطَّرِيقَيْنِ المرْتَفِعَيْنِ الواضِحَيْن البيِّنَيْن، فكلِمَةُ «النَّجدَيْنِ» صفَةٌ لموصُوفٍ محذوف، تَقْدِيرُه «الطَّرِيقَيْن» وقد

نابت الصِّفَةُ عَنِ الْمَوْصُوفِ بها، فاسْتُغْنِي بعبارة «النَّجْدَين». وهذا الوصف يُشْعِرُ بأنّ طَرِيق الحقّ والخير واضِحٌ جليّ، وبأن طريق الباطل والشرّ واضِحٌ وجَلِيٌّ.

وقد يَدُلُّ ارتفاعهما على حاجة سالك كُلٍّ منهما إلى كدحٍ ومكابدة.

أمّا طريق الحقِّ والخيْرِ فهو مَحْفُوفٌ بالمكاره، على مراحِله طَوال عُمُرِ سالِكِه في مَسِيرَةِ حياته، ليظْفَر في نهاية المسيرة بالسَّعَادَة الخالدة، والنّعيم المقيم، والمجْد العظيم، وقد انبثت في هذا الطريق عقباتٌ ابتلائيّة يطالَبُ سالكه باقتحامها، ليظفر بالسعادة الخالدة.

وأمَّا طريق الباطل والشّرّ فهو مَحْفُوفٌ بالشهواتِ والأهواء والمغريات والمزالق، وغايته عذَابٌ وشقاءٌ، وخيبَةٌ دائمة، وحَسْرَةٌ ونَدَمٌ.

وفي بيانِ هِدايَتِهِ إلى هٰذيْن الطريقين إشارةٌ إلى الغاية من خلقه، إذْ هو مُزَوَّدٌ بقُدْراتٍ علَىٰ الْعَمل والكسْب في الْحَياة الدنيا، وبأدوات إحساس توصله إلَىٰ مشاهدة بَعْض آيَات الله في كَوْنه، وبقُدْرَاتٍ فكريَّةٍ عِلْمِيَّةٍ، وَمشاعِرَ وِجْدَانِيَّة يُدْرِكُ بها الحقَّ والباطل، والخَيْرَ والشَّرّ، والصَّلاَح والفساد، والنافع والضَّارّ، والمؤلِمَ والسَّارّ، إلى سائر ما في نَجْدَي الحياة المتضادّين، مع ما هو مزوَّدٌ به مِنْ إرادة حُرَّةٍ في اختياراتها.

هذه الغاية من خلقه هي ابتلاؤه وامتحانُه في ظروف الحياة الدنيا، وكَشْفُ اختياراته بإرادَتِه الحرَّة، الّتي يستخدم بها مسخَّرَاتِ اللَّه له في ذاته، وفي الكون من حوله.

وإذْ جعَلَ اللَّهُ الإنسَانَ مَخْلُوقاً ممتَحناً في ظروف هذه الحياة الدُّنيا، وجعلَه لذلِكَ مُحَاطاً بالوسائل الّتي تسْتَدْعي منه أن يكابد في حياته أَلْوانَ المشَقَّاتِ والمتاعب، وأن يكون كادحاً عاملاً كادّاً. فَقَدْ جعَلَهُ مُمَكَّناً من أن يَسْلُك باختياره الحرّ نَجْدَ الخير، ذي النهاية الْمُسْعِدة له، وأن يَسْلُك باختياره الحرّ نَجْدَ الشّرّ، ذي النِّهايَة المشْقِيَةِ له.

ولهذا كان كلُّ جُزْءٍ من أجْزاء مَيادِينِ وسَاحَاتِ امتحانِه في الحياة الدّنيا، المادِّيَّةِ والمعنويَّة، الجسَدِيَّة والنفسيَّة، ذا طريقين نَجْدَيْن واضحَيْن جَلِيَّيْن، والسّالِكُ في أيِّ واحدٍ مِنْهما لا يتحقَّقُ له العبور إلاَّ بمكابَدَةٍ وَكَدْحٍ.

إنّ كون الإنسان مخلوقاً في كَبَد، وهو ما أبانَه الدرس الأوّل من دروس السورة بصورة مؤكَّدَةٍ جدًّا، يَدُلُّ ذوي الألْبَاب على أنّه مخْلُوقٌ ممتَحَنٌ في ظروف هذه الحياة الدّنيا، وهذه القضَيَّةُ ذاتُ لوازم فكريَّةٍ كثيرة.

● فمن لوازمها أنَّهُ لاَ بُدَّ أن يكون مزوّداً بكلّ الخصائص الّتي تُؤَهِّلُه لأنْ يكُون مخْلُوقاً ممتَحَناً، وقد جاء هذا مفصّلاً في عَدَدٍ من سُوَر القرآن المجيد.

● ومن لوازمها أنْ يُبَيَّنَ له ما يُطْلَبُ منه في رحْلَة امتحانه أن يَعْمَله، متحمِّلاً مكابدة عمله، وما يُطْلَبُ منه في رحلة امتحانه أن يتركَهُ أو يجتَنِبَه، متحمِّلاً مُكابدة تَرْكِه أو اجتنابه.

وقد جاء التنبيه على هذا في قول الله عزّ وجل:

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾:

أي: أبَنَّا لَهُ مَا يُطْلَبُ منه أَنْ يَعْمَلَهُ، وما يُطْلَبُ منْهُ أَنْ يَتْرُكَهُ أَوْ يَجْتَنِبَهُ، بالكتب المنزّلة، وببلاغات المرسَلِين، وببصيرة العقل، وبالحسّ الوجدانيّ، وهو واعظ اللّهِ في قلْبِ كلِّ مُؤمِن.

الحديث عن نوع الإنسان في هذه السُّورة مع إرادة العموم أو إرادة الخصُوص:

جاء الحديث عن نوع الإنسان في هذه السورة بقول اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ والمرادُ كُلُّ فَرْدٍ من أفراده، إذ الواقع يؤيّد

هذا العموم. وبَعْدَهُ جاء الحديث عنه بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ والمراد خصوصُ الكفرة من أهْلِ العزَّة والجَبَرُوتِ في الأرض، المغرورون بقواتهم الغالبة لمنافسيهم ممَّنْ حولهم من الناس، بدليل أنَّ الواقع يكشف أن من يَتَوَهَّمُ هذا التوهُّم فريقٌ من أهْلِ العِزَّة والجبروتِ في الأرض، وهؤلاء قلَّةٌ، لكن لو ملَكَ كثيرٌ من الضعفاء مثل هذه القوة لسَيْطَر عليهم هذا التوهُّم. وبعد هذا جاء الحديث عن الإنسان أيضاً بقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ والمرادُ خصوصُ الكَفَرَةِ المادِّيين الْحِسِّيِّين، الَّذِينَ يُنْكِرُونَ وجُودَ غَيْرِ ما يَرَوْن في مَدىٰ رؤيَتِهِمْ، مع أنّ الوسائل العلميَّةَ تَكْشِفُ لهم حيناً فَحِيناً وجُودَ أشياء كانَت خفيَّةً عليهم، وهي ضمن مدَىٰ رؤيتهم المباشرة، أو مع استعمال ما كانوا يملكون من مُكَبِّراتٍ ومَجَاهر.

فما الحكمة من هذا الإجراء؟

أقول:

إنّه أسلوبٌ تَرْبَويٌّ يستعمله العظماء، وكُبَراء الأقوام، إذْ يُخاطِبُونَ جميع الأفراد خطاباً عامًّا بقضايا تَشْمَلُهُم جميعاً، ثُم يُوجّهونَ التلْويم لغَيْر مُعَيَّنٍ فيهم بأسْلُوبٍ عامٍّ أيضاً، والمقصودُون الموجَّهُ لهم الكلام هم الْفريقُ الّذين يَسْتَحِقُّون التَّلْوِيم، لا جَمِيع الأفراد.

ونظيره: أن يقول الأبُ لأولاده وقد جَمَعَهُم لتأديبهِمْ: أنْتُمْ جميعاً أولادي، ربَّيْتُ كُلَّ واحدٍ منْكُمْ بِجَهْدِي، وعاطِفَتِي، وحَناني، ومَالي، وَكدِّي، وسَهَرِي.

أيحسَبُ ولَدِي الذي هو فِلْذَةُ كَبدي أنّي أكْرَهُه، وأنّي لسْتُ حريصاً على سعادته، وأنّي لا أُوثِر سعادَتَهُ على سعادتي؟!!

مع أنَّ المقصود بالكلام واحدٌ منهم بعَيْنِه، لكن لم يخُصَّه بخطاب، ليَدَعَ له مجالاً للتخلُّص من أوهامه، دُونَ تشهيرٍ به.

والحديث عن الإنسان في القرآن بصِفَاتٍ هي في قِسْمٍ من نَوْعِه، لا في كلّ نوعه، هو من أسلوب التعميم أو الإطلاق الذي يُراد به بعْضُ الأفراد لا جميع الأفراد، لغرضٍ بلاغيٍّ أو تَرْبَويّ.

ومن الأغراض البلاغيَّة إرادةُ الكَثْرَةِ الّتي تُنَاسِبُها المبالغة بالتعميم أو بالإطلاق.

ومن الأغراض إرادة أنَّ الظاهرة عامَّةٌ في النوع أو غالبةٌ إذا تُرِكَ كُلّ فردٍ منهم لنَفْسِه، دون مُعَدِّلٍ ومُقَوِّمٍ إيمانيٍّ إسلاميّ، قاعدتُهُ الإيمانُ بالله وباليوم الآخر، والخشيةُ من الله عزّ وجَلَّ، واتباعُ شريعَتِه ومِنْهاجِه لعباده، والإسْلاَمُ له.

ومن الأغراض التربويَّةِ مُدَاراةُ مشاعِرِ النُّفُوسِ، بِعَدَم جَرْحِها بالتّشْهِير، وباستثارة حماسَتِها الذاتيَّةِ لسُلُوكِ سبيل الاستقامة الواضِحِ، دون حاجَةٍ إلى تأنيب مباشرٍ، أو سَوْقٍ بعُنْف.

ومن الأغراض جعل النصّ صالحاً للانطباق على كلّ من يتّصِفُ بالصِّفة المذمومة فيه مهما توالَتِ العصور، وتتابَعتِ الأجيال من الناس.

ومن الأغراض الإشعار بأنَّ الإنسان بحاجة إلى الدِّين الذي يهديه للّتي هي أقوم، ويُؤَثّرُ على نَفْسِه من مِحْوَرَي مطامعها ومخاوفِهَا، بالتَّرْغيب وبالتّرهيب، فلو تُرِكَ لنفسه دون إرسال رُسُلٍ وإنزال كتُبٍ، لكان أَغْلَبُ أفراده كفّارين مُجْرِمِينَ طُغاةً بُغَاةً مُفْسِدِين في الأرض.

❋ ❋ ❋

(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السّورة وهو الآيات من (١١ ـ ٢٠) آخر السّورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْروٍ، والكِسائيُّ: [**فَكَّ رَقَبَةً * أَوْ أَطْعَمَ في يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ**]. على أنّ «فَكّ» فعْلٌ ماضٍ، و«رَقَبَةً» مفعولٌ به. و«أَطْعَمَ» فِعْلٌ ماضٍ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ على أنّ لفظة «فَكٌّ» مَصْدر، ولفظة «رَقَبَةٍ» مضافٌ إليه ولفظة «إِطْعَامٌ» مَصْدَرٌ أيضاً.

والقراءتان من قبيل التَّفَنُّنِ في التعبير، ومؤدّاهما متماثل.

● وقرأ أبو عمرو، وحفص، وحمزة، ويعقوب، وخلف: ﴿مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ بتحقيق الهمزة الساكنة بعد الميم، من فعل «أَأْصَدَ» بالهمز.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**مُوصَدَة**] من فعل «أَوْصَدَ» بالواو.

يقال لغة: أَأْصَدَ البابَ يُؤْصِدُه، وأوصَده يوصِدُه إيصاداً، أي: أغلقه.

تمهيد:

إنّ من لوازم كون الإنسان مخلوقاً في كَبَدٍ ضمن ظروف الحياة الدنيا، أن يكون مُمْتَحناً فيها، وإنّ من لوازم الامتحان في رحلة الإنسان في هذه

الحياة الدنيا، ذاتِ الكَبَدِ لجميع أفراده، أن يكون المطلوبُ منه اقتحامَ عقَباتٍ يَرَىٰ اقْتِحَامَها من الْمَكَاره، والإحْجَامَ عن سُلوكِ سُبُلٍ يَرىٰ في سلوكها إرْضَاءَ أهواءه وشَهَواته، وتَحْقِيقَ لذَّاتٍ ورَغَبَاتٍ مُزَيَّنَاتٍ للنُّفُوسِ، فهي تندفِعُ نَحْوَها بقُوَّةٍ، وهٰذا الإحجامُ من المكاره أيضاً.

وكُلٌّ من الاقتحام والإحجام يُقْصَدُ به ابْتِغَاءُ طاعَةِ الله الرَّبّ العليم الحكيم الْمُجَازِي، السّميع البصير القدير، الذي خلق الموت والحياة للابتلاءِ في ظروف الحياة الدنيا، فالحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيقِ الجزاء يوْمَ الدّين، في ظروف حياةٍ أخرى.

ولا شكَّ أنَّ من لوازم الامتحان الحسابَ، وفصْل القضاء، وتحقيق الجزاء. إذ الامتحان بدون جزاءٍ مَسْبوقٍ بحسابٍ وفَصْل قضاءٍ عبَثٌ، وعَمَلٌ باطِلٌ لا جَدْوىٰ منه، ولا بُدَّ أنْ يَتَنَزَّهَ عَنْهُ الرَّبُّ العليم الحكيم القدير، ذو الأسماء الْحُسْنَىٰ، والصّفاتِ العظمى، جلَّ جَلاَلُه.

فالْقَسَمُ بالبلَد الحرام، مَرْكَزِ نَشأة الأحياء في الأرض، مع القسم بظاهرة خَلْقِ الحياة ضِمْنَ سُنَّة التناسُلِ الّتي يَجْمَعُها وَالِدٌ وَمَا وَلَد، في كلِّ سلالات الأحياء المشهودة على الأرض، ومنهم السُّلاَلَة البشريَّة التي بدأتْ بخَلْقِ آدم، على الْغَايَة من خَلْق الإنسان، الّتي عُبِّرَ عنها ببَعْضِ لَوَازِمها، وهي كَوْنُ الإنْسَانِ مخلوقاً في كَبَد، ومَا استدعاهُ هذا اللاّزِمُ من لوازم أخرى في سلسلة متماسكةِ الحلقات، كلُّ ذَلك قد أوصل إلى السؤال عن المطلوب من الإنسان في رِحْلَةِ امتحانه، وعن المصير الجزائي المُعَدِّ له.

وقد جاء الدرس الثالث من دروس السّورة مُتَضمّناً بيان المطلوب الاعتقاديّ، وأمْثِلَةً من المطلوب السُّلوكي في رحلة الامتحان، وبيان المصير الجزائي المعدّ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، والمصير الْجَزَائيّ المعدّ للذين كفروا بآيات الله.

● قول اللَّهِ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

الاقتحام: هو الدخول بشجاعَةٍ وجُرْأَةٍ في الأمور والمواضع الصَّعْبة الشّاقة، كارتقاء العقبات، والقفز لاجتياز المهاوي الخطرة، والمعترضات العسيرات.

يقال لغة: اقتحم الرَّجُل الأمر العظيم، وأقْحَمَ الفارسُ فَرَسَهُ النَّهر، إذا أدخَلَهُ فيه مع خطورته، ويقالُ: اقْتَحَمَ السّجِينُ السّورَ، أي: هَجَم لاجتيازه بقُوَّة. وهكذا.

وشأن العقبات الصَّعْبَةِ أنْ تُقْتَحَم اقتحاماً.

والعقبة: هي مرقىً صعْبٌ من الجبال، وطريقٌ في الجبل وعْرٌ، وجمعها عقباتٌ، وعِقابٌ.

وهكذا التكاليف العمليَّةُ في رِحْلَة الامتحان عبْرَ الحياة الدُّنيا.

وقد أخبر الله عزّ وجلّ عن الإنسان الذي تحدّثت عنه السورة، سواءٌ أكان مغروراً بعزَّته، أمْ قابعاً بغبائه في حدود محسوساته، أمْ يحسَبُ أنّ التمكين من سلوك طريق الخير أو طريق الشرّ بمثابَةِ الإباحة العامّة، بأنّه لم يُحقّقْ أقَلَّ مِقْدارٍ من المطلوب منْهُ في رحلة ابتلائه في الحياة الدنيا، فلا هو اقْتَحم فَسَلك نَجْدَ الحقّ والخير، ولا هو أحْجَم عن سلوك نَجْدِ الباطل والشر، بل اتَّبَعَ أهواءه، وشهواته، وسَلَكَ سُبُل الضلالة والشرّ.

﴿فَلَا﴾: الفاء حرف عطف فيه معنى الترتيب والتعقيب على هداية الإنسان المتحدّث عنه في السورة النَّجْدَيْن. و[لاَ] حرف نَفْي إذا دَخلَ على الفعل الماضي لنفيه، وجب عند علماء العربية تكرارها، بعطف جملةٍ منْفِيَّةٍ بحرف «لاَ» على جُمْلَتِها، مثل: لاَ أَكَلْتُ ولاَ شَربتُ، ومثل: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾.

فكيفَ نوجّه عدم تكرارها هنا في قول الله عزّ وجل: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾؟

قال أهل التفسير: هو على تقدير جملة محذوفة، أي: فلا آمَنَ ولا اقْتَحَم العقبة.

أقول: لمّا كان المطلوبُ منه بالنسبة إلى النَّجْدَيْن أَنْ يقتحم عقبة نجد الحقّ والخير، وأن يُحْجِمَ عن سُلُوك نَجْدِ الباطل والشرّ، كان من المناسب لهذا أن نُقَدِّر المحذوف كما يلي: فلا اقْتَحَمَ عقَبَةَ نجد الحق والخير، ولا أحْجَمَ عن سُلوك نَجْدِ الباطل والشرّ.

والمعنى: فلا فَعَلَ ما أَمَرَهُ اللَّهُ به، فاقتحم بذلك عقَبَةَ نَفْسه، ومَا يشُقُّ عليها من مكاره، ولا ترَكَ مَا نهَاهُ اللَّهُ عَنْه، فأحجم عن اتّباع أهوائه وشهواته الجامحات الجانحات، الّتي تَغُرُّهُ بزيناتِها وحلاوة لذّاتها، وهي تهوي به إلى شقائه الأبديّ.

ومن الطبيعيّ أنّ من لم يُجاهِدْ نَفْسَه لاقتحام التكاليف الشاقّة، التي تجعلُه يسْلُكُ صاعداً إلى سعادته الحقيقيّة، فلا بُدَّ أَنْ يَنْزَلِقَ في المسالك الهابطة إلى السّعِير، وبئسَ المصير.

● قول الله تعالَىٰ: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ «مَا» اسم استفهامٍ يُسْتَفْهَمُ عن غير العاقل، وعن حقيقة الشيء وماهيّته، وهو في محل رفع مبتدأ، وجملة «**أَدْرَاكَ**» في محلّ رفع خبر. وهذا الاستفهام يُرادُ به في هذه الصيغة القرآنيَّة التعظيم والتعجيب، فهي من صيَغ التَّعجيب القرآنيّة المبتكرة، ضمْن أصُول وقواعد اللّسان العربي.

﴿مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾: جملةٌ مؤلَّفة من مبتدأ هو «مَا» وخبر هو «العقبة». وجملة «ما العقبة» في محل نَصْبٍ على أنّها مفعولٌ به ثانٍ للفعل في عبارة

«أدْرَاك». أي: ومَا أعْمَلَك مقْدَارَ اقتحامك العقبة عند ربّك؟!! فأنت لا تَدْرِي مقدار ثواب اقتحامها عند الله.

والمعنى: أعظم بأمْرِ هذه العقبة النفسيَّة، وأمْرِ اقتحامها عند الله، إعظاماً لا تَصِلُ إليه دِرايتُك مهْمَا فكَّرْتَ، وانطلقت مع تصوُّراتِك إلى أبْعَدِ ما لَدَيْها من مدىً تَصِلُ إليه، وإعظامُهَا إنَّما هُوَ إعظام للثواب الجزيل الجليل الّذي يظفر بِهِ مقتَحِمُها عنْدَ رَبّه يوم الدِّين في جنَّاتِ النعيم.

وبعْدَ هذا التعظيم من شأن هذه العقبة النفسيّة، أي: من شأن اقتحامها الّذي يتضَمَّنُ التَّشْويق إلى هذا الاقتحام، ضربَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أمْثِلَةً من عناصرها المبْنِيَّةِ على القاعدة الإيمانيّة.

● قول الله تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾:

أي: تخليص الرقيق أو الرَّقيقة من إسَارِ الرِّقّ، ويكون هذا التخليص بالإعتاق، أو بالمساعَدَة عليه.

تقول لغة: فكَّ الرَّقَبَةَ يَفُكُّها فكّا، إذَا أعْتَقَها، أو أعان على عِتْقِها.

وأصْلُ الْفَكّ الفصْل بين شيئَيْن مترابطَيْن، وتخليصُ كُلٍّ منهما من الآخر.

وأُطْلِق على عتق الرقيق عبارة فكّ الرَّقبة، لأنَّ الأسِيرَ حين يُؤْسَرُ لِيُسْتَرَقَّ، تُرْبَطُ رقَبته، أو تُغَلُّ عُنُقُه، ويُسَاقُ بذلك أوْ يُقَادُ ويُسْتَرَقُّ، فجاءت الكناية عن عِتْقِ الرَّقيق بفَكّ الرَّقَبَة.

ومعلومٌ أنّه لا يُعْتِق الرَّقبةَ إلاَّ من يقتَحِمُ عقبةً من عقباتِ نَفْسِه، بحسب قيمة الرقيق المالية، أو بحسَبِ تعلُّقِ مالكه به، وعِتْقُ الرَّقيق من أفضل أعمال البرّ.

ونُلاحظُ أنّ الإسلام مُنذُ أوائل نُصُوصه التشريعيَّة والتعليميَّة، قد حَثّ

على عتْقِ الأرقّاء، وهذا يَدُلُّ على حِرْص الإسلام على تحرير الناس من العبوديَّة للعباد.

إنَّ عِتْقَ الرَّقيق إحياءٌ لحرّيَّةِ إنسانٍ ماتَتْ بالاسْتِرْقاق، وإحياءٌ لكرامته، وهما من أفضل العناصر التي يمتازُ بها الإنسانُ، بَعْدَ قُدْراتِ العلْمِ والْفَهْمِ والانتفاعِ من المسخَّراتِ له في ذاتِه وفي الكَوْنِ من حوله.

● قول الله تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

﴿فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾: أي: في يَوْمٍ ذي مَجاعَةٍ عَامَّةٍ.

المسْغَبَةُ: الجوع، يُقَالُ لغة: سَغِبَ يَسْغَبُ، وسَغَبَ يَسْغُبُ سَغْباً، وسَغَباً، وسَغَابَةً، وسُغُوباً، ومَسْغبَةً.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾: **اليتيم**: يُطْلقُ في اللُّغَةِ على الصَّغير الذي مات أبوه حتّى يبلُغ الْحُلُمَ، فإذا بلَغَ الْحُلُمَ زالَ عنه اسْمُ اليتيم، ويُجْمع «يَتِيم» على «أيْتَامٍ» و«يَتَامَىٰ».

﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾: أي: صاحِبَ قرابة، وهي قرابَةُ النَّسب.

﴿أَوْ مِسْكِينًا﴾: المسكِينُ هو من تَبْدُو عليه عَلامَاتُ الفقر، وقد يكُونُ غير فقير في حقيقةِ أَمْرِه، هذا ما تَحقَّق لديَّ بعد استقراء النصوص وسبر معانيها.

﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾: المتْرَبَةُ في اللُّغة الفقر، أي: ذا فَقْرٍ حَقيقيٍّ، وهذا وصْفٌ تَقْييدِيٌّ لعُمُوم لفظ: ﴿مِسْكِينًا﴾. وقد جاء هذا الوصْفُ التقييديّ لإخراج المتَظَاهِر بالمسكنة، وهو غير ذي فقرٍ حقيقيّ، والغرضُ من إخراجه رِعَايَةُ حقِّ الفقراء الحقيقِيّين في يَوْمٍ ذي مجاعة عامَّةٍ، إذْ إطعامُ المساكين المتظاهرين بالفقر في أيّام المجاعاتِ وهم في حقيقة أحوالهم غير

فُقَراء، يُفَوّتُ علىٰ الفقراء الحقيقيّين سَدَّ حاجاتهم، أَوْ ضروراتهم إلى الطعام.

فالحالُ في أيّامِ المجاعات ليْسَتْ كالْحَالِ في الأَيَّام الأخرى، إنّ أيَّامَ المجاعاتِ يَجِبُ فيها التحرّي عن الفقراء حقيقةً، حتى لا يأكُلَ المساكين المتظاهرون بالفقر وهُمْ غَيْرُ فقراء طَعَامَهُمُ الذي يُبْذَلُ لِسَدِّ حَاجَاتِهِم، أو ضروراتهم.

وجاء ذِكْر المسكين ذي المتربَةِ في هذا النّصّ، دُون ذِكْرِ الفقير المتعَفِّف الّذِي لا يَسْأَلُ النّاسَ إلْحافاً، لأنَّ أيَّامَ المجاعاتِ أيَّامٌ مُحْرِجاتٌ، تَجْعَل الفقراء المتعفِّفين يتحوّلُون إلَىٰ مساكين يُظْهرون حاجاتهم إلى الطَّعَام، فلا يَبْقَىٰ متعفِّفُون عن المسألة، لأنّ الضرورة فيها تَعْرِيضُ الأنفس إلى الموت من الجوع، ولا يَقْتصر الأمر على الرّضا بشظف العيش.

وقد خصّ الله عزّ وجلّ بالذكر لدىٰ عَرْضِ بعْضِ عناصر اقتحام العقبة النفسيّة المبْنِيَّةِ على القاعدة الإيمانيَّة، من فضائل الأعمال الإنسانيّة التي تُرْضيه جلَّ جلالُه، عِتْقَ الرّقاب، وإطعام اليتامَىٰ من الأقربين، والمساكين من الفقراء الحقيقيين، في أيّام المجاعَاتِ، اهتماماً بالتوجيه للفضائل الاجتماعيَّة العظمَىٰ ذَوَات الأولويات في تَدَرُّج أحكام الدّين، وذهن المتدبّر يضمّ إلى هذه الفضائل سائر شرائع الإسلام وأحكامه(١).

فالرَّحْمَةُ بالبائِسِينَ والضُّعفَاءِ وَذوي الضرورات والحاجات، والعطْفُ عليهم ومُسَاعَدَتُهُمْ، ورفْعُ البؤْسِ والضرورة والحاجة عنهم، بَعْدَ الإيمانِ وآثارِه المباشرة مع الله جلَّ جلاله، تَقَع في أُولَيَاتِ مطالب الرّبّ من عباده المؤمنين.

---

(١) وطيّ سائر شرائع الإسلام وأحكامه بعدم ذكرها في هذه السورة من بديع الإيجاز القرآنيّ، الذي يُدْركه المتدبّرون من أهل النظر الدقيق العميق.

وتخصيص التوجيه لإطعام ذوي المسغبة من اليتامىٰ الأقربين، والفقراء الحقيقيّين ابتغاء مرضاة الله تبارك وتعالى، في يومٍ ذي مجاعةٍ عامَّةٍ، يُلاحَظُ فيه أمْرَان:

الأمر الأول: أنَّ الأنْفُسَ في أيَّامِ المجاعاتِ تكُونُ أكْثَر شُحًّا بالطعام من سائر الأيّام، لحاجَةِ المطْعِم إليه، أَوْ شِدَّة تعَلُّق نَفْسِه به، خَوْفَ حاجته المستقبليّة له، إذْ هو قُوتُ البقاء في الحياة، فتعظُمُ بذلك عقَبَةُ النفس التي تتطلّبُ اقتحاماً، فيكون الإطعام أدَلَّ على ابتغاء مرضاة اللّه جلَّ جلالُه، وأدَلَّ على قوّة تأثير الرحمة في قلب المطعِم على سلوكه.

الأمر الثاني: أنّ حاجة البؤساء في أيّام المجاعات أشَدُّ وأقْسَىٰ أَلَماً على نفوسهم، إذْ إنَّهم قد لا يجدون بقايا فضلات الأطعمة الّتي يرْمي بها النّاسُ عادة، ولو كانوا بُخَلاَءَ لا يَبْذُلون لذَوِي الحاجات.

فكلُّ إنسانٍ يكون شديد الحرص على ما لديه من طعامٍ، حتَّى إنّه يَدَّخِر فضَلاتِ طعامه، وكِسَرَ الخبْزِ الّتي تزيد عن حاجته من وجَبَاته اليوميَّة.

ومعظم النّاس يتسارعون في أيّام المجاعات إلى ادّخار ما يزيد على حاجاتهم كثيراً إلى عدّة شهورٍ، فيُحْدِثُون بادّخاراتهم الضائقَةَ في أرزاق الناس اليومية، الّتي تكفيهم لولا الادّخارات الّتي لا ضرورة لها، والدافع لحيازتها خَوْفُ حدوث النقص في المستقبل.

والمقصود بالإطعام بذْلُ الطعام ابتغاء وجْهِ اللّه ونَيْلِ رضوانه، سواءٌ أكان على سبيل الزكاة الواجبة، أم على سبيل البرّ، أم على سبيل الإحسان.

وجاء التوجيه للاعتناء بإطْعَام اليتيم ذي المقربة، لأنَّ هذا اليتيم أحَقُّ من غيره، إذِ اجتمع فيه سببان مُرَجّحان:

السبب الأول: الْيُتْم، وهو الأمر الذي يَفْقِدُ به اليتيم مُعِيلَهُ الحاني علَيْه.

السبب الثاني: القرابة النسبيَّة، ومعلُومٌ من قواعِدِ الدين ووصاياه الاجتماعيّة أنّ الأقربين أولَىٰ بالبرّ والإحسان.

ولمّا كان التوجيهُ مُخَصّصاً للإطعام في يوم المجاعة، كان من الحكمة تحميلُ الأقربينَ مسؤوليّة إطعام اليتامىٰ من ذوي قُرْبَاهم، توزيعاً للمسؤولية، وتحديداً لها، وحتّى لا يضيع الأيتام في عُمُوم المجتمع، وهم ضعفاء لا يستطيعون مع الكبار أخْذَ حظوظهم، التي يَسُدُّون بها ضرورات معيشتهم.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾:

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف يدلُّ على الترتيب مع التراخي، والترتيب والتراخي هُنَا يُلاحظ فيهما تتبُّع سائر العناصر غير المذكورة في النصّ، والّتي تشتمل عليها أحكام السُّلوك الإسلاميّ المطلوب في اقتحام عقبة النفس، ويتَنَقَّل الْمُتَتَبِّع فيها ضمن فروع شجرة الإسلام من فرع إلى فرع، حتى يصل إلى سُوقها، ثم أخيراً إلى جَذْرها الّذي تتمدّد أجزاؤه وعناصره الإيمانية داخل عُمْق الْفُؤاد، في حركة فكريَّة متتابعة الخطوات.

وهذا أحد الأساليب البيانيّة البديعة في القرآن، الّتي تعتمد البدء في البحث الفكريّ من الفروع الظاهرة، فأصولها، فأصول أصولها، ثمّ إلى الجذور، فعُمْقِ الجذور.

ومن أساليبه البيانيَّة أيضاً، الْبَدْءُ من عُمْقِ الجذور، فإلى الجذور، فإلى السُّوق، ثُمّ إلى فروع الفروع.

والترتيب مع التراخي في سلاسل الأفكار، يُشْبه الترتيب مع التراخي في الأجزاء الزمنيّة، وفي المراحل المكانيّة.

وقد دلَّ استعمال فعل ﴿كَانَ﴾ دون فعل «يكون» للدلالة على وجوب سَبْقِ وجُود الجماعة المؤمنة، التي يتواصَىٰ أفرادُها بالصَّبْرِ والمرْحَمة، وهذا المقتحم لعقبة نفسه واحدٌ منهم.

فمع إرشاد الآية إلى لُزوم تتبُّع الخطوات الفكريّة للتكاليف الدينيّة، الّتي يحتاج الالتزام بتعليماتها إلى اقتحام عقبة النفس، وهذه الخطوات توصل أخيراً وبصورة متلاخيَةٍ نسبيًا إلى الجذور، فإنّ الآيَة تدلُّ بإرشادِها هذا على أنَّ اقتحام عقَبَة النفس، بأداء التكاليف الدينيَّةِ الْعَمَلِيّة، والإحجام عن نجد الشرّ بالكفّ عن المحرّمات الدينيَّة، لا بُدَّ أن يكونَا مَسْبُوقين بقيام جماعة مؤمنة، تتلاقىٰ على وحْدَةٍ إيمانِيَّة، وتَتَواصَىٰ بالصَّبْر، وتَتَواصَىٰ بالْمَرْحَمَة.

● أمّا الإيمان فهو القاعدة العظمىٰ للدّين، وكلُّ عَمَلٍ صالح من غيْرِ إيمان، لا أَجْرَ له عند الله يوْمَ الدّين، وثوابُهُ قاصر على مَنَافِعَ ينالُها العاملُ في الحياة الدُّنيا.

● وأمَّا التَّواصِي بالصَّبْر فهو ركْنٌ عظيم من أركان تماسُكِ الجماعة المؤمنة، لأنّ الصَّبْرَ هو طاقَةُ التحمُّل الّتي يحتاج إليها كُلُّ إنسانٍ دواماً في عَمَلِيَّتَي الاقتحام والإحجام، وتحتاج إليها الجماعة المؤمنَة لدى بنائها في تحمُّل أذَىٰ أعدائها، واضطهادِ طغاة الكفرة ذوي العزّة والجبَروت.

● وَأمَّا التواصي بالمرحمة (=بالرَّحْمَة) فهو ركْنٌ عظيم آخَرُ من أركان تماسُكِ الجماعةِ المؤمنة، لأنّ التراحُمَ بين المؤمنين أعظم وشيجة تربط بين أفرادهم، ولأنّ الرحْمَة أعظم شِحْنَةِ قوَّةٍ دافِعةٍ لِفِعْل المعروف، وإقامة المجتمع الإسلاميّ المتعاون السعيد، الذي يكون بمثابة الجسَدِ الواحد، الّذِي إذا اشْتَكَىٰ منه عضوٌ، تداعَىٰ له سَائِرُ الجسَدِ بالْحُمَّىٰ والسَّهر.

وسبق في سورة (العصر/١٠٣ مصحف/١٣ نزول) بيانُ رُكْنٍ ثالثٍ

من أركان تماسُكِ الجماعة المؤمنة، وهو رُكْنُ التواصِي بالْحَق، لأنّه يحْفَظُ لها التزامَها بالقاعدة الإيمانيّة القائمة على الحق، ويَجْعَلُ الحقَّ في كُلّ الأُمور أَسَاسَ مفهوماتها، وأساس أحكامها بالعدل.

● قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

بعد أنْ ذكَرَ اللّهُ عَزّ وجلّ الّذين آمَنُوا وتَواصَوْا بالصَّبْرِ، وتَواصَوْا بالْمَرْحَمَةِ، وأبَانَ أنّ من شأنِهِمْ في السُّلُوكِ أن يقتحموا عقَبَةَ نُفُوسهم، ويسْلُكُوا نَجْدَ الْحَقّ والخير، ويُحْجِمُوا عن سُلُوك نَجْدِ الباطل والشرّ، كان من الحكمة بيانُ عاقِبَتِهم الحسْنَىٰ، وبَيَانُ عاقبة الكافرين المكذّبينَ بآيات اللّهِ، الّذين يسْلكُون مسالِكَ الضلال والشرّ ومَعْصِيَة الله بارئهم وربِّهم الّذي لا ربَّ في الوجود غيره، ولا إلَه بحقٍّ سواه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: أي: الّذين آمَنُوا وتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ وتواصَوْا بالْمَرْحَمَةِ، اختير في الإشارةِ إليهم اسْمُ الإشارة الموضوعُ للمشارِ إليهم البعيدين، للدّلالة على ارتفاع منزلتهم، وعُلُوِّ مقامِهِمْ عند ربّهم.

[أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ] أي: الذين لَهُمُ الْيُمْنُ، والَّذين يأخُذُون كُتُبَ أعمالهم الّتي عَمِلُوها في الحياة الدنيا بأيمانِهم يَوْمَ الدِّين.

الْمَيْمَنَةُ: تأتي في اللّغة بمعنيَيْن:

● فتأتي بمعنى الْيُمْنِ، الذي هو ضِدُّ الشُّؤم.

● وتأتي بمعنى جِهَةِ اليمين.

وحمل كلمة: «الْمَيْمَنَةِ» على معنَيَيْها هو الأحَقُّ بالتدبّر، فكلاهما حقٌّ، ومُنْطَبِقٌ على الواقع.

وكلمة: **«أصحاب»** هي جمْعُ «صَحْبِ» وهذا جمع «صاحِب» وتجمع «أصحاب» على «أصاحيب» من صِيَغِ منتهىٰ الجموع.

الصاحب: في اللغة هو المعاشر المخالط المرافق. وقد حصل توسُّعٌ في استعمال كلمة «صاحب» وكلمة «أصْحَاب» فتستَعْملاَن للدّلالة على مطْلَقِ الملازمة، أو الاقتران، أو الحلول في المكان، أو الانتماءِ إليه، أو الانتماءِ إلى أيّ شيءٍ، أو لتملّك الشَّيْء، أو لحيازَتِه، وتُطْلَقَان على أيّ علاقَةٍ بين شيئين.

واقْتَصَرَ النَّصُّ على ذِكْرِ أَنَّهم أصحاب الميمنَة، دُونَ التَّصْريح بمَا يُصِيبُونه منْ نعيم الجنَّة، اكْتِفَاءَ بدلاَلَةِ التَّقَابُلِ الذي جاء فيه أنّ أَصْحَابَ الْمَشْأَمَةِ عَلَيْهِمْ نارٌ مُؤْصَدَةٌ.

● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾: يتحدّثُ اللّهُ عزّ وجلّ عن نفسه بضمير المتكلّم العظيم، لأنّ آيَاتِه في كَوْنه، وآيَاتِهِ المنزّلاتِ على رسُوله، آياتٌ عظيمات جَلِيلاتٌ جدًّا، لاَ تَصْدُرُ إلاَّ عنْ عظيم جليل، هو ربُّ السّمَاوات والأرض.

والّذين كَفَرُوا بآيات الله هم الّذِينَ أدْركُوا عظمتها، وفَهِمُوا دلالاتها، ثم جحدوها كِبْراً، أو رغبةً في الفجور واتّباعاً للأهواء والشهوات، واغتراراً بزينة الحياة الدنيا.

● ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾﴾: فرّق الله عزّ وجلّ في الصّيغة البيانيّة بين الفريقين، فالذين آمنوا أشار إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البعيدين لِمَا سبَقَ بيانُه، والّذين كفروا قال تعالى بشأنهم ﴿هُمْ﴾ بالضمير العامّ الذي ليس له دلالة خاصّة.

﴿كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾: أي: هم أصحابُ الشؤمِ الذي يلازمهم، وهم أصحاب الشّمَالِ الذين يأخُذُون صُحُفَ أعمالهم يوم القيامة بشمائِلِهم، أو بشمائلهم ومن وراء ظهورهم إذا كانوا من غلاة المجرمين.

المشأمَة: تأتي في اللّغة بمعنَيَيْن:

- فتأتي بمعنىٰ الشُّؤم، الذي هو ضِدُّ الْيُمْن.
- وتأتي بمعنى جهة الشِّمال.
- ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ و[**مُوصَدَةٌ**] في القراءة الأُخْرى.

أي: تَتَابعُ عليهم، أو تُسَلَّط عليهم، أنواع عذابِ نارٍ في دار عذاب مغلقة، وهي دار تَعْذِيب الكفرة المجرمين يوم الدين، والْعُصَاةِ المسرفين على أنفسهم.

مُؤْصَدَةٌ: أي: مغلقَةٌ عليهم، فلا مَخْرَج لهم منها، وَوُصِفَت كلمة «نار» بأنها مؤصدة، على سبيل المجاز المرسل، إذ المراد أن دار التعذيب بالنار هي المؤصدة، وهو من أطلاق الحالّ وإرادة المحلّ، ولو كان المراد بلفظ «نار» دار العذاب لكان التعبير الملائم أن يقال: في نارٍ مؤصَدة.

❁ ❁ ❁

(٧)
لطيفة تربوية

(١) تحدّث الله عزّ وجل بشأن المكذب بيوم الدين لإقناعه في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول) بأسلوب الحديث مع المخاطب، فقال تبارك وتعالى فيها موَجّهاً له الخطاب:

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾﴾.

(٢) ثم تحدّث عن المكذب بيوم الدّين بأسلوب الحديث عن الإنْسَانِ بوجْهٍ عامّ، في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ - ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾﴾.

(٣) ثُمَّ واجَهَ المكَذِّبينَ بيَوْم الدِّين بأسلوب الخطاب في سورة (المرسَلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) فجاء فيها:

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ ـ ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠﴾.

(٤) ثمّ تَحدَّثَ اللَّه عزّ وجلّ عن المكذّبين بيَوْمِ الدين بأسْلُوبِ الحديث عن الغائبين، في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) إعراضاً عن مواجهتهم بالخطاب، فجاء فيها:

﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟﴾ ـ ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ـ ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

(٥) ثم تَحدَّثَ عَنِ المكذِّبِ بيوم الدّين المنكر له، بأُسْلُوبِ الحديث عن الغائبِ إعراضاً عن مواجهته بالخطاب، فيما اشتملَتْ عليه سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول).

ولا يخفىٰ ما في أُسْلُوب مُوَاجَهة المكذّب بيوم الدين في المرحلة الأولى، من تكريم وتأنيس، ثم ما في أسلوب الحديث عن المكذبين الغائبين بالجمع، أو المكذّب الغائب بالإفراد، من حِكَمٍ تَرْبويَّةٍ جَلِيلَةٍ يُدْرِكُها أهْلُ الفِطْنَة.

❊ ❊ ❊

(٨)
نظرة عامّة إلى ما اشتملت عليه السورة

إنّ كوْنَ الحياة الدّنيا حَياة مُكَابَدَةٍ، يُكابدُ فيها الإنسانُ منْذُ ميلاده حتّىٰ وفاته، دليلٌ ـ بَعْد الإيمان بالرَّبِّ الخالِقِ العليم الحكيم القدير على تنفيذ ما يشاءُ ويختار ـ على أنَّ ظُرُوفَ هذه الحياة الدُّنيا، ليسَتْ كُلَّ شيءٍ في خُطَّةِ تكوين الإنسان وخَلْقه في أحْسَنِ تقويم، بل هي مرحلةُ امْتِحانٍ، وحِكْمَةُ

الحكيم العليم القدير تستَلْزم حتماً أن يكون بَعْدَها حيَاةُ حِسَابٍ وفَصْل قضاءٍ وتنفيذ جزاء، وَإلاّ كانت هٰذه الحياة الدُّنيا عَبَثاً وَباطلاً، وقد تَنَزَّهَ الرَّبُّ العليم الحكيم القدير عن الْعَبَثِ والباطل.

هذا ما أشار إليه قول الله عزّ وجل في السّورَة بَعْدَ الْقَسَم:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

وسَبَقَ أن قال في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

أي: وإذا كانَ الإنسانُ في أَحْسَنِ تَقْويمٍ وفي كَبَدٍ، فَهُوَ في رحلة امتحانٍ حتماً.

ولو كانت الحياة الدنيا هي الغاية النهائيَّة من خلْق الإنسان في أحْسَنِ تقويم، لكانت الحكمة تستدعي أنْ تُخْلَقَ له ظروفُ حياةٍ سَعِيدَةٍ لا كبَدَ فيها ولاَ كَدْحَ، كَحَيَاة أهْل الإيمان والتقوىٰ في الجنة، فهي الحياة الّتي تتلأَمُ مَعَ خَلْقِهِ في أحْسَنِ تَقْويم.

وهكذا كان الإنْسَانَان الأوّلان (آدم وزَوْجُه عليهما السلام) في أوّل الخلْق، فلمَّا عصَيَا بالأكل من الشجرة التي نُهِيَا عن الأكْلِ منها أُخْرِجا من الجنة، وَوُضِعَا هُما وَذُرِّيَّاتُهُما في حَيَاة الكَدْحِ والْمُكَابَدة للابتلاء، فمَنْ آمَنَ وأطاع اسْتحقَّ الجنَّة الّتي أُعِدَّتْ لِلمتّقين.

لكِنَّ هذا الْإنسان قد ظهر من أفراده فريقٌ كَفَرَ بحكْمَةِ الرَّبّ الخالِق، فَجَحد الابتلاء والحسابَ وفَصْل القَضاء والْجَزاء، وأنْكَرَ يوم الدّين، وقال: لا بعث بعد الموت، وكذّبَ بيوم الدّين.

ومن هؤلاء فريقٌ نفخ الْغُرُورُ في رؤسِهم وصُدورِهم رياحاً غليظةً منتنةً سامَّةً، فَطَلَبُوا الْعُلُوّ في الأرض، فانطلقُوا يجمعون الأموال وينفقونها إنفاقاً

مُسْتَهْلِكاً لها، في إعداد القوىٰ الّتي تجعلهم بيْنَ الناس أقوياء أعزّاءَ غَلاَّبين لمنافِسِيهم، أو تجعلهم يتَصَوَّرُون ذلك ولو لم يكونوا في الحقيقة كما تَصَوَّرُوا.

والواحِدُ من هؤلاء حين يتملَّكُهُ الغرور بالقوّة الّتي تُشْعِرُهُ بالتفوُّقِ على مُنافِسيهِ من الناس، يزيد انْتِفَاخاً وغُرُوراً، فيزعُم أنّه لا تُوجَدُ قوّةٌ غيبيَّةٌ عن عالَم المشْهُودِ تَقْدِرُ عليه لا في الحال، ولا في الاستقبال.

ومن هؤلاء فريقٌ حِسّيُّون مادِّيُّون أَغْبياء، يتَوَهَّمُون أَنّ مَا لا يُحِسُّون به في مدىٰ إحْسَاسَاتهم، لا وُجودَ له، فَأَقوالُهُمْ وأَعْمالُهم ونِيَّاتُهُمْ لا يَطَّلِعُ علَيْها أَحَدٌ من عالم الغيب، فَلا محاسب لهم، ولا مجازيَ لهم، مهْمَا طَغَوْا وبَغَوْا وظَلَمُوا وأجْرَمُوا وتَجَبَّروا.

فالواحد من هؤلاء الحِسِّيِّينَ الحمقَىٰ يُغَشِّي الغُرورُ على بصيرته وبصَرِه، فَيَتَوَهَّمُ أنَّ أحداً من عالَمِ الغيْبِ لم يَرَهُ، ولَمْ يَرَ طغيانَهُ وظلْمَه، وفواحِشَهُ، وأنّه إذا استخفىٰ ضِمْنَ مخابئِه، ومارَسَ في حُجُبِها قبائحه ورذائلَه وفواحشَهُ وشُرُورَه وخبائثه، فإنَّ أحداً لم يَرَهُ من عالم الغيب.

وتوهُمُه هذا يجعله مطمئنًا آمِناً من حسابٍ، وفَصْلِ قضاءٍ، وتَنْفيذِ جزاء، فهو غير متابَع بعقابٍ من قُوَّةٍ قاهِرَة، هي قوّةُ العليم الحكيم القدير الرَّبّ الخالق عزّ وجلّ.

هذا هو توهُّم المادّيين الحِسِّيِّين الحمقىٰ من أهل الغرور، الَّذِين لا يتفكّرُونَ بدلائل ما خَلَقَ اللَّهُ في أنفسهم، وفيما خَلَقَ الله من كلِّ شيءٍ من حولهم.

إنّ الّذي خلَق له عينَيْن يَرَىٰ بهما، فأعطاهُ طرفاً من كمالِ مُشَاهدَةِ الأشياء، لا بُدَّ أن يكون بصيراً يَراهُ، ويعْلَمُ مَا تُكِنُّ نفسه، وهو سبحانه قادرٌ على أن يَخْلُق ملائكة يراقبون الإنسان ويعْلَمُونَ ما يفْعَلُ، يَرَوْنه من

حيث لا يراهم، ويسجّلُونَ عليه أقوالَهُ، وأعماله الظاهرة والباطنة، ونيَّاتِه.

وإنّ الذي خلَقَ له لساناً وشفتَيْن للنُّطْق والتعبير عمّا في نفسه وفِكْرِه، برموز الكلمات، والمجادَلَةِ والدّفاعِ عن نَفْسِه، ومحاسَبَةِ من هم تحت سُلْطانه، على أعمالهم ومخالفاتهم له، لا بُدَّ أن يكُون هو سُبْحانه مُحَاسِباً لعباده على ما يكْسِبُونَ في الحياة الدُّنيا، إذْ خلقهم جلّ جلاله فيها عابرين رحلة امتحان، وهو سبحانه قادرٌ على أنْ يخْلُقَ مراقبين له، يعلَمُون ما يفْعَلُ، وهو لا يَرَاهم، فإذا دُعُوا يوم الدّين للشهادة عليه بما اكتسَبَ في الحياة الدُّنْيَا، قدّمُوا شهاداتهم عن مشاهداتهم، فانضمّتَ شهاداتهم إلَىٰ أدلّةِ إدانته بجرائمه.

وجاء ذكر اللّسان عنواناً للحروف الّتي يكون للّسان تأثير ما فيها، وجاء ذكر الشفتَيْن عنواناً للحروف الشفوية، وللحرف الّتي يكون للشفتين تأثيرٌ ما فيها، واكتفى النّصّ بذكر اللّسان والشفتين، ليستكمل الذهن سائر الحروف كحروف الحلْق.

وإنّ الرَّبّ الّذي خلق للإنسان جهاز التفكير والْعِلْم والتذكُّر وإدْراك المعارف، وخلَقَ له الوسائل الّتي يكتَسِبُ بها المعارف والعلوم، وبعَثَ له الرُّسُل، وأنزل له الكتب والبيانات التي تُبَيِّن له الغايةَ من خَلْقِه في الحياة الدنيا، وتبيّن له مسئوليَّتَهُ فيها، ومَا هو المطلوبُ منه أن يَعْمَلَهُ، وما هو المطلوب منْهُ أن يتْرُكَهُ أو يجتَنِبَه، فهداه بذلك النَّجْدَين: أي: الطريقين الواضحَيْن الجليَّيْن، طريق الحقّ والخير والنّفع والصَّلاح. وطريق الباطل والشّرّ والضُّرّ والفساد، لتكونَ أمَامَهُ فرصَةُ أَنْ يرىٰ الحقَّ حقًّا فَيُؤْمِنَ بِهِ ويَسْتَمْسِكَ بأسبابه، ويَرَىٰ الخَيْرَ والنفع والصلاح فيَعْمَل بما تهدي إليه. وأن يرىٰ الباطل باطلاً فيكْفُر به ويجتنبه، ويجتَنِبَ كلَّ ما يُوصِلُ إليه، ويَرَىٰ الشرَّ والضُّرَّ والفساد، فيجتنبَها ويجاهد لمقاوَمتِها.

كلُّ ذلك ضمن حدود استطاعته فِعْلاً أو تركاً.

إنّ الرَّبَّ الذي خلقَ له ذلك لا بُدّ أن يكُونَ بحكْمته قد خلقَهُ ليمتحِنَهُ في ظروف الحياة الدنيا. وحكمة الامتحان تستَتْبعُ حتماً الْحِسَابَ، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، في خُطّة العليم الحكيم القدير.

ولولا هذه الغاية لكان أمْر الخلْقِ عبثاً وباطلاً، وقد تنزّه الرَّبُّ الخالقُ العظيم عن العبَثِ والباطل.

ولمّا كانت ظروفُ الحياة الدنيا غَيْرَ مُشْتَمِلَةٍ على مَرْحَلَةِ الْحِساب وفَصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، إلاّ ما تقتضيه حكمة إقامة الدليل على الجزاء الأكبر يوم الدين، فإنّ مَنطِقَ الْعَقْل المستند إلى حكمة الرَّبّ العليم الحكيم القدير، يقضي بأنّه لا بُدَّ حتْماً من ظروفِ حياة أخرى، يتمّ بها الجزاءُ الأوفىٰ، وهٰذه الحياة تكُونُ بعْدَ اسْتِكمالِ رِحْلة الحياة الدنيا، واسْتِكْمَالِ ظروف الامتحان فيها.

وقد اقتضت الحكمة العظيمة، أن يكون الموتُ والفناء هو البرزَخَ الفاصل بين حياة الابتلاء، وحياة الحِسَابِ وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء.

هذه العناصر الفكريّة قد دلَّت عليها السّورة بعبارات موجزاتٍ، تستدعي لوازم فكريَّةً كثيرة، وهذه العبارات الموجزات هي بمثابَة مفاتيح لأَبْواب وراءَها جَمٌّ غفير من المعاني الّتي تُوصِلُ إليها سلاسل فكريَّةٌ مترابطة.

وحين يُدْرِكُ المتدبّر لهذا البيان العجيب، ذي الدلالات الدقيقة العميقة، الذي اشتملت عليه سورة (البلد) تتولّد لدَيْه قناعة تامَّةٌ بِأنَّ القرآن المجيد، حين يُوجّه بيانه شطر أئمة الكُفْر، فينسِفُ أوهامهم نَسْفاً، ويُقِيمُ عليهم الحجَّةَ الدامِغَةَ، فإنّه يُقَدّم الإقْنَاعَ الضّمْنِيَّ لأتباعهم الّذِين ليْسَ لهم مقالات تُعْرَضُ لإسقاطها، ولبيان فسادها، إنّما يُرَدِّدُونَ مقالاَتِ أئِمَّتهم، فإذا

سَقَطَتْ مقالاَتُ الأئمة وأوهامُهُمْ، لم يَبْقَ للأتباع شيءٌ يَغُرُّهم، ويُغْرِيهم بالتزام الباطل.

وتمَّ بعون الله وتوفيقه وفتحه تدبّر سورة (البلد)

❁ ❁ ❁

ملاحق لتدبر سورة البلد

الملحق الأول: حول بلاغيات في السورة.

الملحق الثاني: ما جاء في نجوم التنزيل بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال.

(٩)
الملحق الأوّل
حول بلاغيّات في السُّورة

سورة البلد تكاد تكونُ رمزيَّةً في دلالاتها العميقة، واللّوازم الفكريَّة الّتي تَسْتَدْعيها وتقتضيها عباراتها، فهي غاية في الإيجاز.

ومن البلاغيات التي يسهل استخراجها من السورة ما يلي:

(١) القسم المنفيّ بحرف «لا» مع ذكر المقسم به والمقسم عليه، وهذا من المبتكرات البلاغيّة القرآنيّة، القائم على مراعاة اقتضاءَيْن:

- أحَدُهما يقتضي أنّ الْقَسَمَ ذو فائدة تأكيديَّة بالنسبة إلى بعض المتلَقّين المعاصرين لتنزيل القرآن، أو الذين سيأتون بعدهم.

- والآخر يقتضي أنّ الْقَسَم غير ذي فائدةٍ تأكيديَّةٍ بالنِسْبَة إلى المقصودين الأوّلين بالخطَاب إبّان التنزيل.

فكان الحلُّ القرآنيّ البديعُ بإيراد القسم والمقْسَم به، ونفي الْقَسَم بحرف «لا» فقال الله عزّ وجلّ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾.

(٢) الكناية عن أشياء بذكر بَعْض لوازمها، ومنها في السورة:

● ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾: أي: هو مخلوقٌ مُمتَحَنٌ في ظروف الحياة الدنيا، ولولا ذلك لكانت الجنّةُ هي الدار الملائمة لخلقه في أحسن تقويم.

والامتحان له لوازم عقليّة يقتضيها كون الربّ عليماً حكيماً قديراً، إذْ يلزم عن الامتحان الحسابُ، وفصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، ولا بُدَّ أن يكون هذا في حياة أُخْرَىٰ غيرِ هٰذِهِ الحياة.

● ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾: أي: ليَعْرِفَ أَنَّهُ مُمْتَحنٌ فِي ظروف الحياة الدنيا، فمن عرف طريق الحق والخير، وعرف طريق الباطل والشرّ، وأدرك أنّه مُمَكَّنٌ من سلوك ما يختار منهما، أدرك عن طريق اللُّزوم العقليّ أنّه في ظروف امتحان.

فهداية الإنسان النجدين كنايَةٌ عن هذه اللّوازم الفكريَّة.

(٣) الإيجاز بذكر بعض فقراتٍ من الأفكار الّتي يُرادُ الإعْلَام بها، وترك المتدبّر يستخرج الأفكار الّتي لم يأت في النّص التصريح بها، ومن هذا الإيجاز في السورة:

● ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾﴾: أي: أفْنَيْتُ مالاً كثيراً في جمْعِ الجنُودِ والْقُوىٰ العسكريَّة الحربيَّة والعتاد اللاّزم، حتَّى صِرْتُ عزيزاً لا يَقْدِرُ عليَّ أحَدٌ من مُنَافِسِيَّ في دوائر سلطاني.

● الاقتصار على العتق والإطعام من أمثلة اقتحام عقبة النفس، وتركُ المتدبّر يقيس عليها سائر تكاليف الدين، ممّا يَجب على الإنسان الممتَحَنِ في ظروف الحياة الدنيا أنْ يفعَلَهُ، وممّا يَجِبُ عليه أن يَتْرُكَه.

● ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾: أي: الّذين يُجازَوْنَ بجنّاتِ النّعيم يوم الدين، بدليل التقابل بينهم وبَيْنَ أصْحَاب المشأمَة، الّذِين قال الله بشأنهم: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

● ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي: من الّذِين آمنوا باللّهِ وبكُلِّ ما أَمَرَ الله بالإيمان به.

(٤) الاستعارة: ونجدُها في إطلاق لفظ: ﴿ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ ـ النَّجْدُ هو ما ارتفع من الأرض وكان واضحاً ـ على ما يكونُ الإنسانُ ممكَّناً مِنْهُ، من سُلوكٍ ظاهر وباطن، خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ في أزمان حياته طوال رِحْلَةِ امتحانه.

ونجدُها في إطلاق لفظ ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ ـ وهي المرقَىٰ الصَّعْبُ في الجبل ونحوه ـ على الموانع في داخل نفس الإنسان، الّتي يَعْسُر على الإنسان أن يتخطّاها بإرادة حازمة، ويَسْلُكَ في حياته على غَيْر مطْلُوبَاتها.

ونجدها في إطلاق [**الاقْتِحَام**] ـ وهو الدُّخولُ بشجاعة وجُرْأة في المواضع الصّعبَةِ الشَّاقَّة، كاقتحام صفوف الأعداء في القتال ـ علَىٰ مخالفة الأهواء والشهوات ورَغَباتِ النفس التي فيها معصيَةٌ للّه عزّ وجل، بالتزام العمل بطاعته ومراضيه ابتغاء وجهه الكريم.

وهذه الاستعارات المتتابعاتُ مُتَلائماتٌ يُرَشِّحُ بعضُها بعضاً، أي: يقوّى جانب الاستعارة فيها.

ويقابلُ الترشيحَ التجريدُ، وهو ذكر ما يُلائم المستعارَ له.

(٥) المجاز المرسل: ونجده في إطلاق الحالّ وإرادة المَحَلّ، في عبارة ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ فقد جاء فيها وصف كلمة «نار» بأنها مؤصَدَةٌ، مع أنّ المؤْصَدَ المغلق دار التعذيب بالنار، إذ المراد بكلمة: «نار» هنا مَا يُطْلَقُ عليه نارٌ في اللّغة، لا دار التعذيب بها، ودارُ التعذيب هي محلٌّ لهذه النار، والاسم العلم على دار التعذيب يوم الدّين هو لفظ «النّار» مُعَرَّفة، لا لفظ «نار» نكرة، والمعنى: عليهم مؤصَدَةٌ أبوابُ دَارِها يوم الدّين.

❁ ❁ ❁

(١٠)
الملحق الثاني
ما جاء في نجوم التنزيل بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال

وصف الله عزّ وجلّ في القرآن المجيد المؤمنين بأنَّهُمْ أصْحَابُ اليمين، ولو كانوا عصاةً ويستحقُّون التطهير بالعذاب قَبْلَ دخُولِ الجنَّة، لأنَّهم يأخذون صُحُف أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم.

ووَصَفَ الكافرين بأنَّهم أصحاب الشِّمَال، ولو كانت لَهُم أعْمالٌ نافِعَةٌ في الحياة الدّنيا، إذْ لم يكن الباعثُ إلى قيامهم بها إيماناً باللّه واليوم الآخر، فشَرْطُ النجاة من الْخُلودِ في العذاب والظَّفرِ بالجنَّةِ يوْمَ الدِّين، الإيمانُ الصّحيح بالرَّبّ الخالق، وبما أوجب على عباده أن يُؤْمِنُوا به.

وقد جاء في القرآن المجيد بشأن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال عدّةُ نُصُوصٍ، وفيما يلي استعراضها مع نظراتٍ تَدَبُّرِيَّةٍ حولها، مُقْتَصِراً على النصوص التي جاء فيها التصريح بأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، دون عمُوم أصحاب الجنة وأصحاب النار:

النّصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول):

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

وقد سبق تدبّر هذا النّصّ مع تدبُّر دُروس السورة، على مقدار أوعيتنا الفكريَّة.

❀ ❀ ❀

النص الثاني:

ما جاء بشأنهم في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/٤٦ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾.

الْمَيْمَنَة: تأتي بمعنىٰ الْيُمْنِ الذي هو ضدُّ الشُّؤم. وتأتي بمعنى جهة اليمين.

المشْأَمة: تأتي بمعنىٰ الشؤم الذي هو ضِدُّ الْيُمْن. وتأتي بمعنى جهة الشِّمال.

««أصحابُ الْمَيْمَنَةِ» مبتدأ ومضاف إليه، وَجملة «مَا أصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ» في محل خبر. «ما» اسم استفهام جيء به للتعجيب من أَمْرِ ثوابهم العظيم في جنات النعيم يوم الدين.

ونظير هذا: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾﴾ إلاّ أنّ التَّعجيب موجَّه لاختيارهم ما يوصلهم إلى عذاب جهنم الخالد.

وبعد هاتين الآيتين ذكر الله عزّ وجل في السورة السَّابقين السابقين، ووصفهم بأنّهم المقرّبون، وأبانَ أنهم ثُلَّةٌ من الأوّلين، وقليلٌ من الآخرين، وقَدَّم صُوراً من ثوابهم في جنّاتِ النعيم.

وبعد ذلك ذكر الله عزّ وجَلَّ بتفصيل بعْضَ ثوابَ أصحاب اليمين، وأعقبه بتفصيل بعض عذاب أصحاب الشمال، فقال عزّ وجلّ في السورة:

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ

ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾.

وجاء فيها أيضاً بشأن شديدي الضلال والتكذيب والعناد من أصحاب الشمال، قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾﴾: أي: في جنَّةٍ انبَثَّتْ فيها أشجار السِّدْر، وهي أشجار النَّبِق. **مخضود**: أي: منزوع شوكه، فلا شَوْكَ في أغصان وفُروعِ هذا الصِّنفِ من شَجَر السِّدْر في الجنّة، على خلاف أشْبَاهها من أشجار الدُّنيا، ومع الفرق العظيم بين أشجار الجنّة وأشجار الدنيا.

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾﴾: **الطَّلْح**: نوع من الشجر العظام. ويُطْلقُ على الموز أيضاً.

مَنْضُود: أي: مَضْمُوم متراكب بعْضُه فوق بعض باتّساق، وإتقانٍ رفيعٍ، ونظام بديع، وهذا ينطبق على ثمر شجر الموز.

﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾﴾: أي: وظِلّ دائم لا تنْسَخُه شمس، وهذا وصْفُ جنّاتِ النّعيم، إذْ هِيَ ظِلٌّ، لاَ غَلَسٌ مُظْلِمٌ، ولاَ ضِحٌّ تَضْرِبُه أشِعَّةُ الشمس.

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾﴾: أي: ومَاءٍ يُصَبُّ من أعلى إلى أسْفل، كالشّلاّلات، وهذا أجمل ما يكون عليه الماء.

﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾﴾: **لاَ مَقْطُوعَة**: أي: لا يأتي عليها وقْتٌ تنقطع فيه، إذْ مَوَاسِمها دائمة، وأشجارها ذاتُ إنْتاجٍ لا ينقطع في زمن مِنَ الأزمان.

ولاَ مَمْنُوعَة: أي: ولا يَمْنَعُ من تناولها والأكل منها مانِعٌ ما، فهي مبْذولة دواماً لأهل الجنَّة أصحاب اليمين.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾: أي: وحَشَايا مَرْفُوعَةٍ على أسرّة.

واكْتَفَىٰ النصّ بذكر الفُرُش المرفوعة عن التصريح بذكر الزوجات، من الحور العين اللّواتي ينتظرن أزواجَهُنَّ عليها، استغناء بذِكْرِ الشيءِ عن ذِكْر ما يُرافقه أو يكونُ عليه، وهذا من الأدب الجميل، والبلاغة الرَّفيعة.

ودَلَّ على هذا الاستغناء في اللَّفظ مع إرادة المعنىٰ إعادَةُ الضَّمِير على الفُرُش المرفوعة، كأنَّها الحورُ العين أنْفُسُهُنَّ، فقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾: أي: إنشاءً خاصًّا لأصحاب اليمين.

وأرى أنّ هذا الأسلوب من التعبير، يدخل في البديعة المعنوية الّتي يسميها علماء البديع الاستخدام، مع بعض تعديلٍ في تعريفهم للاستخدام.

وقد دلَّ هذا النصُّ على أَمْرَين:

الأَمْرُ الأول: أنّ خَلْقَهُنَّ ليس على سبيل البعْثِ لِنِسَاءٍ خُلِقْنَ في الحياة الدنيا، بل هُنَّ مَخْلُوقَاتٌ لأصحاب الْيَمِين منْذُ خَلْقِهِنَّ.

الأمر الثاني: أنَّ خَلْقَهُنَّ قد تَمَّ على طَرِيقة الإنشاء المتَدرِّج حتَّىٰ بلَغْنَ النُّضجَ الأُنْثَوِيّ.

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾: **أبكاراً**: جمع بِكْر، وهي العذراء التي لم تُعَاشِرْ ذكراً، فَعُذْرَتُها ما تزال على أصل خلقتها.

وجاء وصفهنّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) بأَنَّهُنَّ لم يَطْمِثْهُنَّ قَبْلَ أزواجهنّ من أصحاب اليمين إنْسٌ ولا جانٌ، فقال تعالى فيها:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾.

الطَّمْثُ: جماعٌ تُفَضُّ به بكارة البِكْرِ، وتحصُلُ به التَّدْمِيَة، ومِنْه قيل للحائض: طامِث.

﴿عُرُبًا﴾: عُرُب جمع «عَرُوب» وهي المتَحَبِّبَةُ إلى زوجها، وقيل: العاشِقة له.

﴿أَتْرَابًا﴾: جمع «تِرْب» والأتراب هُنَّ الأقْرانُ في السّنّ، أَعمارُهُنَّ واحدة. وهذا يَدُلُّ على أنّ إنشاءَهُنَّ قد كان في وقْتٍ واحد، أو أن تطوُّر تنامِيهنَّ في الجنَّة يتوقَّفُ عند سِنّ نُضجِهِنَّ، فيظْلَلْنَ دواماً على أحْسَن ما تكونُ عليه الزوجاتُ حيَويَّةً وأُنوثَةً وتحبُّباً للأزواج.

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾: أي: هُنَّ مُخَصَّصاتٌ لأصْحابِ الْيَمِين، الّذين يأخُذُون صُحُفَ أعمالهم يوم القيامة بأيمانهم.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾: أي: أصحاب الْيمين هم ثُلَّةٌ من الأوّلين قَبْلَ بَعْثَةِ محمد ﷺ، وثُلَّةٌ من الآخِرين الّذين يكونون من أصحاب اليمين بعْد بعثته.

الثُّلَّة: الجماعَةُ من الناس.

ودلّ التنكير في لفظ ﴿ثُلَّةٌ﴾ على أنهم جماعة ليست بالكثيرة، وهذا ما دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ صراحةً في سورة (يوسف/١٢ مصحف/٥٣ نزول):

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾﴾: «أَصْحَابُ الشِّمال» مبتدأٌ ومضاف إليه، وجملة «مَا أَصْحَابُ الشِّمَال» في محلّ خبر. «مَا» اسم استفهام جيء به للتعجيب من أمرهم في رحلة امتحانهم، إذْ اختاروا فيها ما يُوصِلُهم إلى عذاب أليم دائم في دار العذاب يوم الدين.

﴿فِي سَمُومٍ﴾: السَّمُومُ الرّيح الشديدة الحرّ اللاّفحة التي تَنْفُذ في مَسَامّ الجلد. أي: في جهنّم الّتي يَلْفَحُهُمْ فيها سَمُومٌ متَتَابع.

﴿وَحَمِيمٍ﴾: أيْ: وفي ماءٍ شديد الحرارة، يشْرَبُونَ منه.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾: أي: ويكونون في جهنّم مُنْغَمِسِينَ في ظِلّ دُخانٍ شديد السّواد والحرارة.

اليَحْمُومُ: هو في اللّغة الدُّخان، والأَسْوَدُ من كلّ شيءٍ. ودَلَّ على حرارته أنّه دُخان نارٍ مصحوبٌ بشَرَر كالْقَصْر، كأنه جِمالَةٌ صفر، وهو جاء بيانه في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للمكذّبين بيوم الدين:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾﴾: أي: هٰذا الظّلُّ من الدُّخانِ الأَسْودِ لَيْسَ ظِلّاً بَارِداً، بل هو ظِلٌّ حَارٌّ. ولَيْسَ ظِلّاً كَرِيماً، كالظّلّ الّذي يكون في الجنّةِ لأصحاب الْيَمين. أو أنّ اليحموم ليس بارداً ولا كريماً، ونفي كونه كريماً هو نفيٌ لكلّ صفةٍ حسنة عنه، فلا هو حسَنُ المنظر، ولا هُوَ طيّب الرائحة، ولا هو واقٍ من سُوء أو أذى.

وخصّ الله عزّ وجلّ في السّورة الْغُلَاةَ في ضلالهم وتكذيبهم بقوله:

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

شَجَرَةُ الزَّقُّوم: شجرة خبيثَةٌ تَنْبُتُ في أَصْلِ الجحيم، جعلَها اللّه عزّ وجَلَّ بعَدْلِهِ طَعَامَ الأثيم شديد ارتكاب الآثام في دار العذاب يوم الدين.

إنَّ الضّالين المكذِّبين يشتَدُّ جُوعُهم في جهنّم، فَتُلْجِئُهم الضرورة إلى أن يأكلوا من شجر من صنف شجر الزّقوم، فيملَؤُون مما يأكُلُونَ بُطُونهم،

فيشتدُّ ظمؤهم من هذا الطعام الخبيث، فيبحَثُونَ عن شراب، فلا يجدون إلاَّ حميماً (=ماءً شديد الحرارة) فَيَشْرَبُونَ منه كثيراً، دون أن يُحْدِثَ لهم ريًّا، هذا ما دَلَّ عليه قولُهُ عز وجل:

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿عَلَيْهِ﴾: أي: على ما أَكَلُوا من شجر الزَّقُّوم، بسبب ما أحدث لهم من ظمأٍ شديد، فهم يلجؤون إلى إطفاء لهيب ظَمَئِهم بأي ماء يجدونه، ولا يجدون إلاَّ ماءً حَمِيماً شديد الحرارة.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾: أي: فشاربون مثل شُرْبِ الإِبِلِ الْهِيم، وهي الّتي يُصِيبُها داءُ الْهُيَام، فهي لا تَرْوىٰ مهما شَرِبَتْ. يُقَال: بَعِير أَهْيَم، ونَاقَةٌ هَيْماء، وإبلٌ هِيمٌ.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾: أي: هذا القِرَىٰ الذي يُقَدَّم إليهم في مكان إقامتهم الدائمة يوم الدّين. ويطْلَقُ النُّزُل على مكان الضيافة، واستعماله هنا فيه معنى التهكّم بهم، إذ هو مكان سِجْنهم وتعذيبهم، وطعامهم الذي يزيد من عذابهم.

النُّزْل والنُّزُل: ما يُعِدّه الرَّجلُ لضيفه إذا نزل عليه. فُلانٌ حسَنُ النّزُل: أي حسن الضيافة.

● ثم أنزل الله عزّ وجل أيضاً بشأن شجرة الزَّقُّوم قوله في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) بعد وصف بعض نعيم أهل الجنة:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

شَجَرَةُ الزَّقُّوم: هي في الدنيا شجرة من أَخْبَثِ الشَّجَر المرّ، تَنْبُتُ بتِهَامَة، وهي في الآخِرَة من أَخبَثِ أصناف الأشجار المخصّصة لطعام المعذَّبين في جهَنَّم، وهي تَنْبُتُ في أَصْل الجحيم، أي: في قَعْرِ جَهَنّم.

وقد جعَلَها الله عزّ وجلّ في جهنَّم شجَرةً يأكُلُ منها الظالمون مُلْجَئِين، فإذا أكَلُوا مِنْها ومَلَؤُوا بُطُونهم صار ما أكلُوه يَغْلِي في بُطُونهم كغَلَيَان الماء الشديد الحرارة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾: أي: عذاباً يذُوقُونَ شِدَّةَ حرارته في بُطونهم، مثل عذاب حَرِيق النار.

أصْلُ الفتنة في اللّغة الإحراق، قال الخليل: الْفَتْنُ الإحراق. ولمّا كان الصائغ يَعْرِضُ الذَّهب ونحوه على النار ليختَبِر جودته، ويَمْتَحِنَ أوصافه، صار كلّ امْتِحانٍ واخْتِبَارٍ كاشفٍ فِتْنَةً، والأصل في معنى الكلمة الإحراق.

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾: أي: يَنْبُتُ هذا النوع من الشجر في قَعْرِ الجحيم، ومنه تخرج، ثم تمتدُّ فروع أشجاره وأغصانها مرتفعةً إلى بعضِ دَرَكاتِ جهنَّم السُّفْلىٰ.

الْجَحِيم: اسم من أسماء دار العذاب يوم الدّين، وكلُّ نارٍ عظيمة في مَهْواةٍ فَهِيَ جَحِيمٌ.

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾: طَلْعُها: أي: مَا يُؤكَلُ من ثَمرها أو وَرَقِها. **أصل الطَّلْع**: غلافٌ يشبهُ الكُوز، ينفتح عن حَبٍّ منْضُودٍ، فيه مادَّة إخصاب النخلة.

وهذا الطَّلْعُ الذي يُؤكَلُ من شجر الزَّقُّومِ ذو منظر كريهٍ، كأنَّهُ رؤُوسُ صِنفٍ من الحيّات تُسَمَّىٰ الشياطين، واحدها شيطان، وهذا الصِّنْفُ ذُو عُرْفٍ قبيح.

أو تَشبيهٌ لهذا الطَّلْع بما يتخيَّلُ النّاس من منظر كريهٍ شديد القُبْحِ لرُؤوس شَياطِينِ الجنّ.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾: أي: فإنّهم مُلْجؤون لِلأكْلِ من هذه الشَّجَرةِ إلْجاءً ذاتيًّا، وهذا يَدُلُّ على أنَّهم يشْتَدُّ بهم الجوع الذي يَرَونه أشدّ عليهم من مَلْءِ بُطونهم منها، مع ما فيه من تَعْذِيبٍ شديدٍ لَهُمْ، هو نَوْعٌ من عذابِ الحريق الداخليّ.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾: وَبَعْدَ أن يَمْلَؤُوا بطونَهُمْ من طَلْعِها، وتمُرَّ مُدَّةٌ يتفاعَلُ مَا أكلوه منها بالهواضم، وتلْتهِبَ بطونَهم بما يشبه الحريق بالنّار، يشتَدُّ ظَمَؤُهم، فيَسْعَوْنَ إلَىٰ مصادر المياه للشُّرب، فلا يَجِدُون إلاّ مَاءً حَميماً شديد الحرارة، فيَجِدُون الشُّرْبَ منه أَهْوَنَ عليهم من حرارة ما في بطونهم، فيَخْلِطُونَ الطَّعامَ النّارِيّ بالماء الحميم.

الشَّوْبُ: في اللُّغة هو الخلْطُ، والشائبَةُ واحدة الشوائب، وهي الأقذار والأدناس، أي: هو سائل من الشوائب مخلوطٌ بماء حار.

الحميم: الماء الحارّ.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾: أي: إنّهم يكُونُون أوّلاً في سَواءِ الجحيم، أي: في وسط الجحيم، كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) نفسها بشَأْنِ مكان عذاب المكذّب بيَوْم الدّين:

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾: أي: في وسط الجحيم.

فيشتَدُّ بهم الجوعُ فيَهْبِطُونَ إلَىٰ قَعْرِ الجحيم ليَأْكُلوا من طَلْع شَجَرِ الزَّقّوم، فيَأْكُلونَ ويمْلَؤُونَ بُطُونهم، ثُمَّ يَشْرَبون من مصادر المياه الحارّة في الجحيم، ثُمَّ يَرْجِعُون إلى منازِلهم في سواء الجحيم.

رِحْلَةٌ إلى الْقَعْرِ للأكْل، ثُمّ رِحْلةٌ إلى مصادر المياه الحارّة للشرب، ثم رَجْعَةٌ إلى منَازلهم في وسَطِ الجحيم، عذابٌ فعذابٌ فعذَاب، وَهذا حالهم على التداوُل.

● ثم أنزل الله عزّ وجل بشأن شجرة الزّقوم في سورة (الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول):

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ بِشَأْنِ شَجَرَةِ الزَّقُّوم ثلاث دَلالات:

الدّلالة الأولى: أَنَّ شَجَرَة الزَّقّومِ هي طعامُ الأثيم، أي: هي الطعامُ الوحيد للأثيم، فلا طعام له من غيرها، أخذاً من تعريف طَرَفي الإسناد، إذ المضاف إلى معرّف يكتسبُ منه التعريف.

الأثيم: هو المسرف الغالي في ارتكاب الآثام. **والإثم**: هو الذّنْبُ. **فالأثيم**: هو المبالغ في ارتكاب الذنوب والمعاصي، ومن كون شجرة الزقّوم طعام الأثيم، وطعام الضّالين المكذبين للرسول ﷺ، والمكذّبين بيوم الدين، ومن كونها عذاباً للظّالمين بحريقٍ في بطونهم، نستدلُّ على أن المراد بالأثيم، الكافر الفاجر المخلّد في عذاب النار.

لفظ «أثيم» من صيغ المبالغة والتكثير.

الدلالة الثانية: أنَّ ما يُؤكَلُ من شجرة الزَّقُّوم شيءٌ كالمُهْلِ. **الْمُهْلُ**: القَطِران، ودُرْدِيُّ الزَّيت، أي عكَرُه الّذي يترسَّب في قاع آنيته. والنحاسُ المذاب. والقيحُ والصَّدِيد.

الدلالة الثالثة: أنّ مَا يُؤكَلُ من شجرة الزَّقُّوم يغلي في البطون، كغَلْي الحميم، أي: كَغَلْي الماء الذي يُسَخَّنْ بالنّار حتّىٰ يَغْلِي من شدّة حرارته، ويتصاعد منه البخار.

❁ ❁ ❁

النصّ الثالث:

ما جاء بشأنهم في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ بيان أنّ أصحاب الْيَمِين يُؤْتَوْن كتُبَهُمْ بأَيْمَانِهِم، وأَنَّهُمْ يقْرَؤُونها، فلا يجدون أنّهم قد ظُلِموا من أعمالهم الصالحة فيها فتيلاً.

فتيلاً: أي: مقدار فتيل، وهو الخيط الرفيع الذي يكون في شقّ النواة.

إِنّهم يومئذٍ يتَذَكَّرُون كلَّ أعمالهم الّتي عملوها في الحياة الدنيا، فيُطابقون بين ما تذكّرُوا وبَيْنَ مَا يَقْرَؤُون في كتُبهم، فيجدون أنّهم لم يُظْلَمُوا مقدار فتيل.

وقد جاء التصريح بأنّ الإنسان يتذكّر يوم الدّين كلّ ما عمل في الحياة الدنيا، في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النازعات/٧٩ مصحف/٨١ نزول):

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾.

ولم يأت في هذا النصّ التصريح بأنّ أصحاب الشّمال يأخذون كُتُبَ أعمالهم بشمائلهم، أوْ مِنْ وَرَاءَ ظُهورهم، وإنّما جاء فيه بَيَان أنّهم يكونُونَ عُمْياً يوم الدين كما كانوا عُمْياً في الحياة الدنيا، ويَكونون أضلّ سبيلاً، فقال تعالى فيه:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأٓخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

أعْمَىٰ: أي: كافراً ضالاً بكُفْرِه عن سَبِيلِ سعادته العاجلة والآجلة.

فالمعنى: ومن كان في هذه الحياة الدُّنيا كافراً ضالاً بكُفْرِه عن سبيل سعادته، باختياره الحرّ، فَهُو في الآخِرَة محكُومٌ عليه بأنّه أَعْمَىٰ، أي: كافر، وهو يَوْمئذٍ أَضَلُّ سبيلاً، لأنَّهُ لا يستطيع يومَئذٍ أن يتدارك أمره، فقد انتهى زمن الامتحان، فلا حيلة له في أَنْ يهتدي إلى سبيل سعادته في جنّاتِ النعيم، بينما كان في الحياة الدّنيا قادراً على أن يتدارك أمْرَه بالإيمان والعمل الصالح قَبْلَ أنْ تأتيه ساعة الموت، فهو في الآخرة أضَلُّ سبيلاً، إذ لا يجد لنفسه طريقاً يسْلُكُهُ إلاّ طريق جهنّم خالداً فيها، كما قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾.

❁ ❁ ❁

النصّ الرابع:

ما جاء بشأنهم في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) فقد جاء فيها قول اللَّهِ عزّ وجل:

﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

جاء في هذا النّص تشْبِيهُ ما يَكْسِبهُ الإنْسانُ بإرادَتِه في الحياة الدّنْيا بالطائر، فقَبْلَ أنْ يكْسِبَ كسْبَهُ وَيعْمَلَ عَمَلَه الإراديَّ يكونُ حبيساً في داخل نفسه، ويكُونُ الإنسانُ مالكاً لَهُ، وقادراً على ضَبْطه، وغير مسؤول عنه، فإذا عمل عمله وكسب كسْبَهُ الإراديّ الظّاهِرَ أو الباطن، طار من مَحْبِسِه، وأفلَتَ من يَدِه، وصَارَ الإنسانُ عاجزاً عن إرجاعِهِ إلى حَظِيرَتِه، ويَكُونُ عندئذٍ أَسِيراً له، إذْ يجْعَلُ اللَّهُ عزّ وجلَّ مَا يَكْسِبُهُ الإنْسَانُ بمثابة الأسْرِ له بطَوْقٍ أو حَبْلٍ في عُنُقِه، يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الدِّين.

﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾: أي: جعلنا مسؤوليّته عن عَمَلِه وكسْبه الإرادي ملازِمَةً عُنُقَهُ، كمُلازَمَةِ حَبْلِ الآسِرِ لعُنُقِ الأسِير، حتَّىٰ يتِمّ حِسَابُهُ وَفَصْلُ القضاء بشأنِهِ يوم الدّين.

فلفظ «طائر» مُسْتَعَارٌ للدّلالة على ما يكْسِبهُ الإنسان بإرادته في الحياة، وهذه الاستعارة البديعة قائمة على تشبيه ما يعْمَلُه الإنسان بإرادته بإطْلَاق الطائر من مَحْبِسِه إلى الجوّ، وعندئذٍ تتعلَّقُ به المسؤوليّة عن إطلاقه، وهذه المسؤوليةُ آسِرَةٌ لَهُ حتّى يتِمّ حِسَابُه وفَصْلُ القضاء بشأنه.

ولمّا كانَ الْعُنُقُ هو الْمَكَان المفضّل لِرَبْطِ الأسير حتَّىٰ لا يَفْلَتَ من آسِرِه، جاء التعبير به للدّلالة على مَنَاط المسؤوليَّة عن السلوك الإراديّ في الإنسان.

﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ جاء استعمال حَرْف «في» للدّلالة على دُخُولِ حَبْلِ المسؤولية في داخِل مناطِ المسئولية فيه.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾: هذا الكِتَابُ هو صَحِيفة كَسْبِهِ الَّذي أطْلَقَ كُلَّ واحدٍ منه بإرادَتِهِ من حظيرَته، فطَارَ ولم يَسْتَطِع أن يُرْجِعَه، ولكنْ أَلْزَمَهُ اللَّهُ المسؤولية عنه، لأنّه قَدْ كان في رِحْلَةِ امتحان، وأمَرَ الملَكَيْنِ الْمُلاَزِمَيْنِ له بتسجيلها، لعرضها عليه يوْمَ الدّين، فهو يَلْقَىٰ هذا الكِتَابَ مَنْشُوراً غَيْرَ مطْويّ.

وتكفِي صحيفة يَضُمُّ الإنسانُ عليها كفَّهُ لتسجيل صورة تامّة عن كلّ حياته في رحلة امتحانه، ويُعْطَىٰ يَوْمَئِذٍ الْقُدْرة على قِراءَة ما في صحيفته مهما كانت وسيلةُ تَسْجِيلِهَا مضْغُوطة، وبصَرُهُ يومئذٍ يكُونَ حَدِيداً.

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾: أي: يُقَالُ لَهُ يَوْم القيامة هذا كتابُكَ في يَدِك فاقرأْهُ، وَحَاسِبْ نَفْسَكَ على ذُنُوبك ومعاصِيك وجَرَائِمِكَ ومخالفاتك لأوامر ربّك ونواهيه.

وكفَىٰ بنفْسِكَ الْيَوْمَ المجرّدَةِ عن الأهواء والشّهواتِ والرَّغَباتِ من زينَة الحياة الدنيا، حَاسِباً دقيق الحساب، وكفى بنفسك قاضِياً عَلَيْكَ بالْعَدْلِ، وَحَاكِماً عَلَيْكَ بِمَا تَسْتَحِقُّ من جزاء.

كفَىٰ بنفسك: الباء حرف جرّ زائد للتوكيد، ونفسك فَاعل لفعل «كَفَىٰ».

❀ ❀ ❀

النصّ الخامس:

ما جاء بشأنهم في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول) فقد جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾.

- ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾: أي: وعُرِضَ النّاسُ في يَوْم الحشْرِ على رَبّكَ أيُّها المتلَقّي أو التالي لهذه الآيات عَرْضاً صَفًّا، أي: بصُفُوفٍ مُنْتظمة، لا بطريقةٍ عشْوَائيَّةٍ أو فوضويَّة.

- ﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾: أي: يقول اللّهُ عزَّ وجلَّ لَهُمْ بضَميرِ المتكلّم العظيم يومئذٍ، وهم في المحشَرِ، لَقَدْ بَعَثْنَاكُمْ بَعْدَ مَوْتِكم وفَنَاءِ أجْسَادِكُمْ، بخَلْقٍ جَدِيدٍ، وجئْتُمُونا تامّي الْخَلْقِ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فِي الحياة الدُّنيا.

- ﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾: هذا خطابٌ يُوجَّهُ لمن كانُوا في الحياة الدّنيا يُكَذِّبُونَ بِنَبأ الْبَعْثِ ويَوْمِ الدّين. أي: لم تَكُونُوا تُصدِّقُون

بأنّي سَوْفَ أَبْعثُكُمْ إِلَىٰ الحياة بعد الموت، وأحاسِبُكُمْ، وأفْصِلِ القضَاءَ بَيْنَكُمْ، وأُجَازِيكم على اختياراتكم في الحياة الدُّنيا، بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ لَنْ نَجْعَلَ لكُمْ مَوْعداً لهذا كُلِّه، أي: لن نجعل لكم زماناً ولا مكاناً نحقق فيها ماسَبَق أن وعدناكم به في الحياة الدنيا.

الموعد: يطلَقُ على الوعد، وعلى مكانه، وعلى زمانه.

● ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾: أي: وَوُضِعَ بأمْرِ اللّهِ جنْسُ الكتاب إذْ يُطْلَبُ من كلِّ مَنْ كان مسؤولاً عن أعماله وأنواع كَسْبِه في رِحْلَةِ امتحانه، أَنْ يَقْرَأَ صَحِيفَةَ مَا كَسَبَ في الحياة الدُّنيا بإرادَتِه الحرَّةِ، بعد أن تَسَلَّمَهُ منْشُوراً، وقِيلَ لَهُ: اقرأْ كتابك.

وعَقِبَ وَضْعِ الكتَابِ تَرَىٰ أيُّها الرَّائي أيًّا كُنْتَ زُمَر الْمُجْرِمِين مُشْفِقِينَ أي: خائفين، ممَّا فِيهِ من تَسْجِيلٍ كَامِلٍ لِجَرَائِمِهِمْ، وهذا يكون يَوْمَ الحشر.

المجْرِمُونَ: هم أصحاب الخلود في عذاب جهنّم، في المصطلح القرآنيّ.

● ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾:

﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾: **الويل**: في اللُّغَة كلمةُ عذاب، وتُسْتَعمل في النُّدْبَةِ، والتفجُّعِ، والتَّوَجُّعِ. وعبارة ﴿يَٰوَيْلَتَنَا﴾ هنا عبارةٌ يَنْدُبُ فيها المجرِمُون أنفسهم، ويُعْلِنُونَ بها توجُّعَهم وتفجُّعَهُمْ خوفاً من المصير الذي هم صائرون إليه في جهَنَّم بعد محاسبتهم، وفَصْلِ القضاء بشأنهم، والأمْر بتنفيذِ الجزاء، وسَوْقِهِمْ إلى جهَنَّمَ زُمَراً.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾: استفهامٌ تَعَجُّبِيٌّ مِنْ دقّتِهِ الْبَالِغةِ غايَةَ المتابَعَةِ في تسجيلِ كُلّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَة.

﴿لَا يُغَادِرُ﴾: أي: كَانَ لاَ يَتْرُكُ.

﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾: جاء تقديم الصَّغيرَةِ على الكَبيرةِ، جرياً على عادة العرب في مثل هذا التعبير، واهتماماً بذِكْر ما قَدْ يتهاون الناس بتسجيله عادةً، قبْلَ ذِكْرِ ما لا يتَهاوَنُون بتسجيله ممَّا يُهِمُّهم تسجيله، وتَسْجِيلُ الأشيَاءِ الصغيرةِ هو الذي يَجْذِبُ الانتباه أوّلاً.

﴿إِلَّا أَحْصَنهَا﴾: أي: إلاَّ سَجَّلَها للمحاسبة عليها، وحَفِظَها، يُقالُ: لُغَةً: أَحْصَىٰ الشيءَ، أي: عَرَفَ مقداره، وأحْصَىٰ الكِتَابَ، أي: حَفِظ جميع ما فيه.

- ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾: أي: وَوَجَدُوا كُلَّ مَا عَمِلُوا في الحياة الدنيا من أعمالٍ إراديَّةٍ هُمْ مَسْؤُولونَ عنها، حَاضِراً أَمَامَهُمْ في صُحُفِ أعمالهم، بِالصُّورَةِ، والصَّوْتِ، والغايات والنِّيَّات، وكلِّ ما يُرافِقُها من حركاتِ نفوسهم الإراديَّة.

- ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾: أي: وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَيُّها المتلَقِّي لهذا البيان أحداً في المحاسبة، أو في فصْل القضاء بشأنه، أوْ في الجزاء، فَلاَ يَجْزيه علىٰ عَمَلٍ مَا ظاهرٍ أوْ باطِنٍ لاَ يُعْتَبَرُ مسؤولاً عَنْه، من الأعمال السيِّئَة، وَلاَ ينقُصُهُ ممَّا عَمِلَ من صالحاتٍ ابتغاءَ وجْهِهِ شَيْئاً. ولا يُحَمِّلُ نَفساً وِزْرَ نَفْسٍ أخْرَىٰ، وميزانُ الْعَدْلِ الرَّبَّانيّ بالِغُ الدّقَّةِ، ويعْفُو سبحانه وتَعَالَى عَنْ كَثِير.

❁ ❁ ❁

النصّ السادس:

مَا جاء في سورة (الحاقَّة/ ٦٩ مصحف/ ٧٨ نزول) فقد جاء فيها قوال اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى

جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

الهاء في: [كِتَابِيَهْ ـ حِسَابِيَهْ ـ مَالِيَهْ ـ سُلْطَانِيَهْ] هي هاء السَّكت

أضاف هذا النصّ على ما جاء في النصوص السابقة ما يلي:

(١) أنّ من كان من أصحاب اليمين فأُوتي كِتَابَهُ بيمينه، فإنه يكُونُ شديد الْفَرح بما قرأ في كتابه، ومن شدّة فَرَحِهِ يقولُ لمعارِفه وأصحابه أو لِمَنْ حَوْلَهُ في الموقف:

- ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَٰبِيَهْ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿هَآؤُمُ﴾: أيْ: خُذُوا. «هَا» اسم فعل أمر بمعنى: «خُذْ». وهو يسْتَعمل مقْصُوراً «هَا» ومَمْدُوداً «هَاءَ» فيُقَالُ: هَاءِ يا رَجُل، وهَاؤُما يا رجُلان، وهاؤُمْ يا رجال، وهَاءِ يا امرأة بكَسْرِ الهمزة، وهائِيا يا امرأتان، وهاؤُنَّ يا نِسْوةُ.

وقد تُوضع كافُ الخطاب بدَلَ الهمزة، فيُقَالُ: هَاكَ وَهَاكِ وهَاكُما وهاكُمْ وهَاكُنَّ... وفيها لُغَاتٌ أخرى.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾: أي: كان عندي احتمالان:

- احتمالُ أَنْ يُدْخلني الله عزَّ وجلَّ الجنَّة بعَفْوِهِ دُونَ حِسَاب.
- واحتمالُ أن يُحَاسِبَني حسَاباً يسيراً. وكنْتُ ظَنَنْتُ أنّي مُلاَقٍ

حِسابيَ الذي أنتظره في موقفي هذا، مع وجود رَجَاءٍ بأن يُدْخِلَني الله الجنَّة بغَيْرِ حِسَاب، إذْ كان مُؤْمِناً وَمات على الإيمان، وَيحْمِلُ بعضَ الأوزار.

فالظَّنُّ الوارد في هذه الآيَة هو على حقيقتّه اللّغويَّة، وليس بمعنى اليقين. وانْصَرَفَ ذهْنُ طائفة من المفسّرين عن تصوُّرِ الاحتمال الأوّل، فَحَمَلُوا الظّنَّ هُنا على الْعِلْم اليقيني، مع أنَّه ليس منه، بل هو من الظنّ الراجحِ الذي يُقابِلُه احتمالٌ آخر مَرْجُوح.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

عِيشَةٍ: مصْدَرٌ من مصادر فعل «عاش». تقولُ لُغة: عَاشَ يَعِيشُ عَيشاً، ومَعاشاً، ومَعِيشَةً وعِيشَةً. وهي بمعنى الحياة.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾: أي: فهو في حياة راضٍ بها كُلَّ الرِّضا، جاء في هذه العبارة وَصْفُ المؤمِن في الجنَّة بأنّ عيشته راضيه، والأصل أن يكون هو الراضي بها، فأُسْنِدَ الرضا إلىٰ الْعِيشَة على سبيل المجاز في الإسناد، ويُسَمَّى عند علماء البيان «المجاز العقلي» وهو إسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاد المتكلّم. والملابسة التي سوّغَتْ هذا المجاز كون المؤمن هو صاحب هذه العيشة، فهي جزءٌ من ذاته.

والغرض البيانيّ الإشعار بمصاحبة الرضَا لكلّ أجزاء عيشَةِ المؤمن في الجنَّة، فلا يُوجَدُ جزءٌ منها ولا عنصرٌ من عناصِرها خالياً من الرضا، وهذا المعنى لا تُؤَدِّيه عبارة: فهو راضٍ عن عيشته.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾: أي: في جنَّةٍ عالية المكان، عالية المنزلة، وعَالِيةِ الصّفات، عاليَةِ كلّ نعيم يكون فيها للمؤمنين.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾: **القُطُوف**: جمْعُ **القِطْف**، وهو يُقْطَفُ من ثمر الشّجرة سَاعَةَ قَطْفه. **والقِطْفُ**: عنقود العنب يُقْطَفُ من شجرته.

دانِيَة: أي: قَرِيبَةٌ، يتَنَاوَلُها أهل دار النعيم بأيْديهم من أشجارها في كُلّ أوضاعهم بدون مشقَّة.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: يُقَالُ لَهُمْ تَكْرِيماً وتَرْحِيباً وَدُعاءً طَيِّباً: كُلُوا من مآكلِ الجنَّةِ واشربوا من أنواع شرابها الطيّب النفيس هَنيئاً.

﴿هَنِيٓـًٔا﴾: أي: سائغاً لَذِيذاً. يُقالُ لُغةً: هَنِئَ الطَّعَامُ أو الشَّرابُ يَهْنَأُ هَنأً وَهَنَاءَةً، أيْ: ساغَ ولَذَّ.

﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾: أي: بسَبَب مَا سَبَقَ أَنْ قَدَّمْتُمْ من إيمانٍ صَحِيح صادقٍ، وعَمَلٍ صَالِحٍ كُنْتُمْ تَبْتَغُون به مَرْضَاة اللَّهِ وَثوابه، في الأيَّام الْخَالِيَةِ، حينَ كنتُمْ في رحلة الامتحان في الحياة الدنيا.

يُوَجَّهُ لهم هذا القول من الملائكة الذين يُحَيُّونَهم في الجنَّة ويُكَرِّمُونَهُم، بأمْرِ الله جلّ جلاله.

وقد يأتِيهم هذا الخطابُ من الرَّبّ جلَّ جَلاَلُهُ، تكريماً لهم وإسْعَاداً.

● ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾: أي: في موقف الحشرِ يوم القيامة، لِأَنَّهُ من أهْلِ النار الخالِدينَ فيها.

● ﴿فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾.

مقالاَتٌ يَقُولُها وَيُكَرِّرُها مَنْ أُوتي كتابَهُ بِشمَالِه، قبل أن يُحاسَبَ لأنه يعْلَم ساعَتَئِذٍ أنَّهُ من أهل النار بمُجَرّد أَنْ يتسلَّم كتابه بِشِمَاله.

فهو يتمنَّىٰ أَنْ يكون قَدْ بقي كما كانَ في البرزخ ولَمْ يُبْعَثْ، ويتمنَّىٰ أَنْ تكونَ مَوتَتُه التي ماتَها هي القاضيَةَ على وجوده كُلِّه إلى الأبد.

دلَّ على هذا ما أبانَ النصّ أنَّهُ يقولُهُ مكرّراً له: ﴿يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾.

● ﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾: «يا» حرف نداء، داخلٌ على عبارة التَّمَنِّي «لَيْتَنِي» فأيَّ شيءٍ ينادي؟

قالوا: المنادَىٰ محذوف تَقْدِيرُه نحو: يَا رَبِّ.

وقيل: هو نداءٌ للكلام الدَّالِّ على التمنّي، بتَنْزِيل الكلمة منزلة العاقل الذي يُطْلَبُ حُضُورُه، لأنَّ الحاجة تدعُو إليه في حالة الندامة.

وقيل: هو حرف تَنْبِيهٍ.

أقول:

حرف «يا» في مثل هذا الاستعمال أشْبَهُ بأن يكون حرف نُدْبَةٍ وتَحَسُّرٍ وتفجُّعٍ وتَوَجّع، على تقدير أن جملة «لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابَيْه» واقعة موقع عبارة «مُصِيبتي العظمىٰ في يأسِي من نجاتي» ولم يَذْكُر المفسرون ولا النحاة مثل هذا. أو تكُونُ العبارة على تقدير: «يا أُمْنِيَتي التي لا سبيل إلى الحصول عليها».

● ﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦﴾: قالوا «ما» اسم استفهام وهو مبتدأ وخبرُه حسابي والهاء للسكت عند الوقوف. وفعل «لَمْ أَدْرِ» معلَّقٌ عن العمل لأنّ الاستفهام له الصدارة.

أقول: أليس الأولى أن نعتبر «ما» قد تجرّدت عن الاستفهام، واقتصَرَتْ دَلاَلَتُها على الماهيّة، فيكون المعنى: ولم أَدْرِ حقيقةَ حسابِيَهْ، فهذا هو المتبادر من معنى العبارة.

● ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾: تحليل عبارة ﴿يَٰلَيۡتَهَا﴾ نظير ماسبق آنفاً في [**ياليتني**]. والضمير في [لَيْتَهَا] يعودُ على مَلْحوظٍ ذِهنا، وهي حالة الموْت الّتي كانَ فيها بين الموت والبعث، أو حالة إنْهَاءِ الحياة الأولى.

﴿كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾: أي: يالَيْتَها كانت المنهيَةَ وُجودي كُلَّه إلى الأبَد.

القضاء في اللُّغة: إمضاءُ الشيء وإتمامُهُ وإنْهاؤه. والقاضِيَةُ هي الْمُنْهِيَة.

● ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْۜ ﴿٢٨﴾﴾: أي: ما أغْنَىٰ مالي الّذِي كان لي في الدنيا شيئاً، فصَرْفَ العذابَ والْعِقَابَ هذا اليوم عِنِّي.

أصْلُ معنى «أغناهُ» كفَاه، والكفايةُ عند الحاجة إلى ما يدفع المكروه تتضمّن معنى الصَّرْفِ، فيُعَدَّىٰ تَعْدِيته.

فالمعنى: ما أغناني مالي شيئاً فَصَرَفَ عَنِّي شَيْئاً من العذاب والعقاب يقول هذا القول مَنْ كان ذا غنًى بأمواله في الحياة الدنيا.

● ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾: أي: هَلَكَ بالفناء سلطاني الذي كانَ لي في الدنيا، وابْتَعَد عنّي إلى الْعَدم بُعْداً أبَدِيًّا.

ضُمِّنَ فعْلُ «هَلَكَ» مَعْنى فِعْل «ابْتَعَد» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغْنَتِ الجملةُ عن جملَتَين.

يَقُول هذا القول من كان ذا سُلْطانٍ في الحياة الدُّنيا.

● ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾.

● ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾: الغُلُّ: طوقٌ من حديد أو جِلْدٍ، يُجْعل في عنق الأسير أو يَدِه، أو تجمعان وتَطوّقان بالغُلّ: **فَغُلُّوهُ**: أي: فاجْعَلوا الْغُلَّ في عُنقِهِ أو في يَدِه أو فيها معاً، يقال لُغَةً: غَلَّهُ يَغُلُّه.

هذا الخطاب يُوجَّهُ لملائكة التعذيب المكلّفين أنْ يقوموا به، بعد صُدُور الحكم عليه بأنَّهُ من أهل الْخُلُود في جهنَّم.

● ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾: أي: ثُمَّ أَدْخِلُوهُ جهَنَّمَ ليَصْلَىٰ نَارَهَا، أي: ليُعَذَّبَ بالاحتراق بِلَهَبِها وبجمرها.

يُقال لغةً: صَلِيَ النَّارَ، وَصَلِيَ بها، إذَا احْتَرقَ بتَسْلِيط مادَّتِها على جَسَدِه، ويُقَالُ: أصْلاَهُ النّارَ، وَأصْلاَهُ بها وفيها، وصَلاَّهُ، أي: أدْخَلَهُ النارَ ليَحْترِقَ بِها.

● ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾:

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾: أي: فأدْخلوه، يُقَالُ لُغَةً: سَلَكَ الشيء في الشّيْءِ، أي: أدْخَلَهُ فيه وجَعَلَهُ يَعْبُرُه.

وباستطاعَتِنا تَصْويرُ هٰذه السِّلْسِلَةِ التي يُعَذَّبُ بها مَنْ يُكْرَهُ على سُلُوكِها من أصحاب الشّمال، بأنَّها دوائر تُضَمُّ وتُبْسطُ بروابط بَيْنَهَا، مع تجويفِ داخِلَها قابلٍ لأنْ يَسْلُكَهُ عابرٌ فيه، وعُبُورُ تجويف هٰذه السِّلْسِلَةِ أشَدُّ عذاباً من مُجَرَّدِ الدُّخُول في لَهَبِ النار، أو التقلُّب على جَمْرِها.

● ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾: أي: طُولُها سَبْعُونَ ذِراعاً. يقال لُغة: ذَرَعَ الشَّيْءَ يَذْرَعُهُ ذَرْعاً، إذَا قاسَ طُولَهُ بالذِّراع. ولاَ يُهِمُّ المتدبّر أن يَعْرِفَ مِقْدار طُولِ الذِّراع، فهذا أمْرٌ من أُمُور الآخِرَة.

● ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾.

جاء هذا البيان إجابَةً علىٰ سؤالٍ مَطْوِيٍّ مفادُه: لِمَ هذا التعذيبُ الشديدُ له؟! فجاء الجواب:

● ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾: أي: فَقَدْ كانَ في رِحْلَة امتحانِه يَجْحَدُ وُجودَ اللَّهِ رَبّه. أو يجحد صفاته العظمَىٰ وأسماءَهُ الحسنَىٰ، أو يَجْحَدُ بعْضَها، مُشْرِكاً بِرُبُوبيّته أو بإلٰهيَّتِه، أو لا يُؤْمِنُ برُسُلِه المؤيّدين بالْمُعْجِزاتِ الرَّبَّانِيَّة، والآياتِ البيّنات، ولا ببَلاَغاتِهم عنْهُ جلَّ جَلاَلُه.

وجاء لفظ ﴿الْعَظِيمِ﴾ لِلإشارة إلى أنَّ عظَمَةَ اللَّهِ ظاهرةٌ جليَّةٌ في آثارِه في كَوْنِهِ مَا كانَ مِنْهُ صغيراً أمْ كبيراً، فلا عُذْرَ لِمَنْ آتاه ربُّهُ أدَواتِ

الإحساس والتفكير في أَنْ يَجْحَدَ مَنْ خلَقَهُ وخلَقَ الكونَ من حَوْله، ولا سيما بَعْدَ بَعْثِ الرُّسُل وإنْزَال الكُتُب.

● ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾﴾: أي: وكَانَ في رِحْلَةِ امتحانه غير ذي رحْمَةٍ بالضعفاء والبؤساء، بل كان قاسِيَ القلْبِ، فلاَ يتحرَّكُ لسانُهُ بتوجيه حضٍّ على إطعام الْمِسْكِينِ الجائع حقيقةً بسبب فَقْرِه الشديد. **الحضُّ على الأمر**: الحثُّ عليه وطَلَبُهُ بشدَّةٍ والحاح.

● ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

الْحَمِيمُ: القرِيبُ الذي تودُّه ويُوَدُّكَ، فهو يَنْصُرُك ويُدافع عَنْكَ، كما تنْصُرُه وتدافع عنه.

غِسْلِين: يعجبني في تفسير هذه الكلمة قول من قال من المفسّرين: هو نوع من الشجر يَنْبُتُ في جهنّم.

قال مجاهد: هو طعامٌ من طعام أهل النار.

وقال الضَّحَّاك: هو شجر في النار.

وهذا التفسير يتَّسِقُ مع أنواع طعام أهل النار، بحسَب دركاتِهِم في العذاب، فأشَدُّهم عذاباً يكونُ طَعَامُهُمْ من الشجرة المَلْعُونة في القرآن، وهي شجرة الزَّقّوم. والأَخَفُّ عذاباً يكون طَعَامُهم من «غِسْلِين» والأخف منهما يكون طعامُهُمْ من ضَرِيعٍ، وهو نوعٌ من الشَّجَر لا يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي من جوع.

ويُلاَحَظ أنّه لم يأت في وصْف «غِسْلِينَ» نظير ما جاء في وصْفِ ما يُؤكَلُ مِنْ شَجَرَة الزَّقوم، من أنَّه كالمهْلِ يغْلِي في البطون كغلْي الحميم، وأنه طعام الأثيم.

وأمّا الضريع، فقد جاء وصْفه في سورة (الغاشية) بأنه لاَ يُسْمِنُ ولا يغني من جوع، فهو أهون أطعمة جهنم تعذيباً لآكليها.

والمعنى: فليس لمن أخذ كتابه بِشمَالِهِ يَوْمَ الدّين قَرِيبٌ ينْصُرُه، أو

يَوَدُّه، وليس له طَعَامٌ إلاَّ من نوع شجرٍ في دار العذاب يُقَالُ له: «غِسْلِين» وهذا الطعام لا يَأْكُلُهُ إلاَّ الْخَاطِئُون.

الخاطِئ: مُرْتَكِبُ الذّنب مطلقاً، ولكن من حَكَمَ اللَّهُ عليه يوم الدين بأنَّه خاطِئ، ولم يشْمَلْهُ بعَفْوٍ وَلاَ مَغْفِرَةٍ وَلاَ تَخْفِيفٍ، فهو من مستحقي الخلود في عذاب النار، ويكُونُ طعامُه فيها من غِسْلِين، وهو وَسَطٌ أشدّ من الضريع، وأخف من شجرة الزَّقُوم، أخذا مِنْ سباقات النصوص وسياقاتها، ومن التكامل فيما بينهما. كما ظهر لي أنفاً.

❁ ❁ ❁

النّصّ السابع:

ما جاء في سُورَة (الانشقاق/ ٨٤ مصحف/ ٨٣ نزول) فقد جاء فيها بالنسبة إلى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال قول الله عزّ وجلّ.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

أضاف هذا النصّ على النصوص الّتي سبقَتِ النَّظراتُ التدبّريّة حَوْلَها، ما يلي:

(١) أنّ من يُؤتَى كتابه بيمينه يوم العرض للحساب وفصل القضاء، يَنْتَظِر مُدَّةً في الموقف، ثمّ يحاسَبُ حساباً يَسِيراً، بِدَلِيل قول الله عزّ وجلّ في النّصّ:

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾: فكلمة سَوْفَ تَدُلُّ على مرور مدَّة طَوِيلة بين استلامه كتابه، وبين محاسبته حساباً يَسِيراً.

(٢) وأنَّهُ يَنْقَلِبُ من موقف حسابه، وفصْل القضاء بشأنه، إلى أَهْلِه في الجنة مَسْروراً.

يَنْقَلِبُ: أي: يَذْهَبُ وَيَنصَرِفُ. ويأتي بمعنى: يَرْجع، والمعنى الأول هو المناسب هنا.

والمراد بأهْلِهِ زَوْجَاته من الحور العين، وسائرُ أهله في الدنيا إذا كانوا من أهل الجنة.

مَسْرُوراً: أي: بماظَفِر به من ثوابِ عظيم وأجْرِ جسيم.

وقد أبان الرسول ﷺ أنَّ هذا الحساب الْيَسِير هو نَوْعٌ من الْعَرْضِ الّذي لاَ تكونُ معه مُنَاقَشَةٌ.

روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ».

قالت عائشة: فقُلْتُ: أَفَلَيْسَ قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾؟! قال:

«لَيْسَ ذَاكِ بالْحِسَاب، وَلَكِنْ ذَلِكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ عُذِّبَ».

(٣) أنّ مَنْ يُؤْتَىٰ كِتَابه بِشِمَالِهِ ولكِنْ من وراء ظهره، ويكونُ هذا بجعل يده اليمنىٰ مغلولةً مع الغُلّ الذي في عُنُقه، وبشَدّيَدِهِ الْيُسْرىٰ إلى جهة ظهره، ويُناول كتابه بها، فإنَّهُ ينتظر مُدّة في الموقف، ثمَّ يُحَاسَبُ حِسَاباً عسيراً، فَيُنَاقشُ الحسابَ على كفْره وجرائمه، ويَقْضِي الله بشأنه، ويُصْدِرُ الحكم عليه بأنّه من أهل النّار، فَيَدْعُو على نَفْسِه بالهلاكِ الأبدي على سبيل التمنّي.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾: أي: فهو ينتظر طويلاً، ثم يجري حسابه، وفَصْلُ القضاء في شأنه، فيدعو على نفسه بالثبور.

الثُّبُور: هو الهلاكُ، إنَّهُ يتمنَّىٰ حينئذٍ أن يموت مَوْتاً أبديًّا، فيصير تراباً، لكنّه لا مَوْت لأهل النّار، ولا لأهل الجنَّةِ بعْدَ البعث، فيَوْمُ الدّين هو يوْمُ الخلُود.

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾: أي: يَدْخُلُ جهنَّم، ذائِقاً فيها عذابَ الْحَرِيق.

﴿يَصْلَىٰ﴾: أي: يَدْخُلُ ويَحْتَرِقُ ليذوق عذاب حريق النار.

السَّعِير: لَهَبُ النار. أي: يَصْلَىٰ ناراً ذَاتَ لَهَبٍ مُنْتَشرٍ ومُسَلَّطٍ عليه.

وقرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عامر، والكسائي: ﴿وَيُصَلَّىٰ سَعِيراً ﴿١٢﴾﴾ أي: وَيُدْخَلُ بإكراه وعُنْفٍ في دار العذاب، ويُحَرَّقُ بالسَّعِير.

وبين القراءتين تكاملٌ في المعنى، لأنَّهُ إذا أُدْخِلَ بعُنْفٍ مُكْرَهاً، دخلَهَا وهُوَ كَارِهٌ، ويضيف الفعل المضعّف معنى شدَّة التعذيب لكبراء الكفرة المجرمين الطغاة البغاة.

(٤) بيان أنّ من يُؤْتَىٰ كتابَهُ بِشِماله قد كان في الحياة الدنيا مَسْرُوراً ضِمْنَ أَهْلِه، غافِلاً عَنْ أَمْرِ آخِرَتِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ مستغرقاً فيما هو فيه، غَيْرَ مُهْتَمٍّ بالعمل لما ينجيه ويُسْعِدُهُ في آخِرَته، يتقلّبُ في نعم الله عليه، وهو كافرٌ به، غير معترف بمسؤوليتِهِ تجاهه.

(٥) بيان أنّه ظَنَّ حينَ كان في رحلة امتحانه في الحياة الدنيا، أنَّهُ لَنْ يرجع إلى الحياة بَعْد مَوْته وفناء جسَدِه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إنَّهُ ظنَّ ظنًّا توهُّمِيًّا أنَّهُ لَنْ يَرْجع إلى الحياة بَعْدَ الموت، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

﴿يَحُورَ﴾: أي: يرجع. تقول لغة: حَارَ يَحُورُ حَوْراً، أي: رجَع. والمَحَارُ: الرُّجوع.

فهو إذنْ كافِرٌ بالله، وكافرٌ بيوم الدين، وبَطِرٌ مُتَفَاخِرٌ مَسْرُورٌ بما يمارِسُ في الحياة الدنيا من آثامٍ وسَيِّئاتٍ وذُنُوب.

ومن استعراض النصوص الّتي جاء فيها الحديث عن أصحاب اليمين وأصْحاب الشمال في القرآن المجيد، ينكشف لنا أنَّ أهل الجنّة في الجنّة على مراتب ودرجات متفاضلات، فمنهم المقرّبُونَ، مُحْسِنُونَ وأبرار على درجاتهم. ومنهم المتقون على درجاتهم. وأنّ أهل النار في النار على منازل ودركات، وأشدُّهم عذاباً من كان منزله في الدرك الأسفل من النار.

أمّا النصوص التي جاء فيها الحديث عن أهل الجنة وأهل النار فكثيرة جدّاً، وقد اقتصرت هنا على النصوص التي جاء فيها الحديث عن أصحاب اليمين وأصحاب الشمال فقط.

اللّهم إنا نسألك الجنّة وما قرَّبَ إليها من قول أو عمل، ونَعُوذُ بك من النار وما قرّب إليها من قولٍ أو عمل.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ الطَّارِقِ

٨٦ مُصْحَف ٣٦ نزول

(١)
نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾
إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾
خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ
عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا
نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ
لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ
كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

---

٤ ـ ● قرأ ابنُ عامر، وعاصم، وحَمزَة، وأبو جَعْفَر: ﴿لَمَّا﴾ بِتَشْدِيد الميم.
وقرأ باقي القراء العشرة: [لَمَا] بتخفيفِ الميم.
﴿لَمَّا﴾ بالتشديد بمعنى «إلاَّ» فهو حرف استثناء.
و [لَمَا] بالتخفيف، اللاَّم في لما هي لام الابتداء المزحلقة إلى الخبر. و «ما» جيء به للتأكيد، فهو حرف زائد للتأكيد.
والقراءتان تشتملان على أسلوبين من أساليب تأكيد الخبر، أحدهما عن طريق النفي والاستثناء، والآخر عن طريق أدوات التوكيد.

(٢)
مما ورد في الحديث بشأن سورة الطارق

(١) من الروايات الواردات بشأن تلويم الرَّسول ﷺ معاذاً رضي الله عنه على إطالته الصلاة وهو إمام بالناس، ما رواه النَّسَائيُ بِسَنَدِهِ عن جابر قال:

صَلَّىٰ مُعَاذٌ الْمَغْرِب فقرأ البقَرَة والنِّساء. فقال النبيُّ ﷺ: «أفَتَّانٌ أنْتَ يَا مُعَاذُ؟. مَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تقرأ بالسَّمَاءِ والطَّارِق، والشَّمْسِ وضُحَاها، ونحوها؟».

(٢) وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة: «أنّ رسُولَ الله ﷺ كان يَقْرأُ فِي العِشَاءِ الآخِرَةِ ذات البروج، وَالسَّمَاءِ والطَّارِق».

❀ ❀ ❀

(٣)
موضوع السّورة

يَدُورُ مَوْضُوع هذِه السُّورَة حوْلَ تَأْكيد ثلاث قضايا مِنْ قضايا قانون الجزاء الرَّبَّانِيِّ يَوْم الدِّين، وبَعْض مقتضياته السَّابِقَةِ لَهُ في ظُرُوف الحياة الدنيا، وهذا التأكيد مقرونٌ بأدلَّةٍ كَوْنيَّةٍ عَامَّةٍ.

وأُلْحِقَ بهٰذِه الْقَضَايا بَيانٌ مؤكَّد بالْقَسَم يَتَضَمَّنُ أَنَّ مَا جَاءَ في هذه السُّورة وفي غيرها من سُوَر القرآن مِنْ أحاديث عن الجزاء الرَّبَّانِيّ يوْمَ الدِّين، إنّما هو قَوْلٌ حَقٌّ وَجِدٌّ وفَصْلٌ، لاَ تَلاعُبَ فِيه ولا هَزْل.

وأُتْبِعَ ذَلِكَ بِبَيَانِ مَوْقف كُبَراءِ مُشْرِكي مكّة من الرّسُول محمّدٍ ﷺ ودَعْوَتِه إِبَّانَ نُزُولِ السُّورَةِ، وبيان التدبير الرَّبَّاني المقابل له، وبيانِ الموقف الّذِي يَنْبَغِي للرسول أنْ يواجِهَهُمْ به في هذه المرحلة من تاريخ دعوته، ومعه الّذين آمنوا به واتَّبَعُوه.

■ فالقضايا الثلاث المتعلّقَةُ بقانون الجزاء الرَّبَّانيّ يوم الدّين ومقتضياته من قبله، هي ما يلي:

القضيَّة الأُولى: تأكيد أنَّ الإنْسَانَ الممتَحَنَ المكلَّفَ في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، مُرَاقَبٌ مُرَاقَبَةً تَامَّةً، فيها تَسْجِيلٌ كامل، يحفَظُ حِفْظاً دقيقاً كُلَّ مَا يَصْدُرُ عنْهُ من سُلوكٍ إرادِيٍّ، هو مسؤولٌ عنه في رَحْلَةِ امتحانه، دلَّ على هذه القضيَّة قول الله عزّ وجلّ في السُّورَةِ:

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾.

القضيَّةُ الثانية: تأكيد أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قادِرٌ على إرْجاع الإنسانِ إلى الحياة بَعْدَ مَوْتِهِ وفَنَاءِ جَسَدِهِ، لمحاسبته، وفَصْل القضاءِ بشأنِهِ، وَمُجَازاته، بالعدل أو بالفضل، وهذا التأكيد موجَّهٌ لمنكِري البعث، أو الشاكّين فيه، دلَّ على هذه القضية قول الله عز وجلَّ في السُّورَةِ:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾.

القضيَّة الثالِثة: بيان أنَّ الإنسَانَ حينَ تُكْشَفُ سرائِرُهُ، وهي نيَّاتُهُ من أعْمَالِه الظَّاهرة والباطنة، لدى محاسبته ومجازاته يوْمَ الدّين، يَكُونُ عاجزاً عن أن يدفَعَ عن نَفْسِه شيئاً من عقاب الله عزّ وجلّ له، إذا قضَىٰ اللَّهُ عليه بالعقاب، وأنَّه يومَئِذٍ لاَ تَكُونُ لَهُ قُوَّةٌ ما يَدْفَعُ بها عَنْ نفْسِه شيئاً من العذاب، ولا يكونُ لَهُ أيُّ ناصرٍ يَنْصُرُهُ فَيَدْفَعُ عَنْهُ من عذاب اللَّهِ شيئاً، دلَّ على هذِهِ القضيَّة قول الله عزّ وجلّ في السُّورة:

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾.

■ وَأمَّا البيانُ الَّذِي يتضَمَّنُ تأكيد أن الأحاديث المتعلّقَةَ بالجزاء الرَّبَّانيّ يَوْمَ الدّين، في هذه السُّورَةِ وَفي غَيْرِها، قولٌ حقٌ وصِدْقٌ وجِدٌ وَفَصْل قاطِعٌ مُمَيّزٌ للحقيقة، لاَ تَلاَعُبَ فِيه ولا هزل، فَدَلَّ عليه قولُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ في السُّورَةِ:

﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾.

■ وأمَّا مَوْقِفُ كُبَرَاءِ مُشْرِكي مكَّةَ إبَّانَ نُزُولِ السُّورَة، وهو موقف الإعْدَاداتِ الكَيْدِيَّةِ ضِدَّ الرَّسُول ﷺ، وضدّ الّذين آمَنُوا بِهِ واتّبَعُوهُ، وضدّ انتشار دعوته، فَدَلَّ عليه قول الله عزّ وجلَّ في السورة:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾.

■ وأمَّا التَّدْبير الرَّبَّانيُّ المقابل لكَيْدِهم، فدَلَّ عليه قول الله عزّ وجلَّ في السُّورَةِ:

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾.

■ وأمَّا الموقف الّذي يَنْبَغِي للرسول ﷺ أن يواجِهَهُم به، ومعه الّذين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، فهو مَوْقف التَّمَهُلِ والانتظار وعَدَمِ التَّعجُّلِ باتّخاذِ أيّ مَوْقفٍ تَصادُميٍّ مع من يكيدُهُمْ من المشركين.

وقَدْ دلَّ عَلَيْهِ بِصُورَةٍ تأكيدِيَّةٍ غايَةٍ في الإلْزَام، بالنسبة إلى هذه المرْحَلَةِ من تاريخ الدّعوة، قول الله عز وجلّ في آخر السورة:

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

وهكذا فالسورة ذاتُ موضوع واحدٍ متعانق الفقرات.

❁ ❁ ❁

(٤)
دروس السورة

بعد اكتشاف موضوع سورة (الطارق) الّذي سبَقَ بيانه، باستطاعة المتدبّر المتأنّي أن يُحَدِّد دُرُوسَها في مفاصل واضحةٍ منها، وهي لدى التأمّل أربعة دُرُوس:

الدرس الأول:

دَرْسٌ يشْتَمِلُ على قَسم بالسَّماء ذَاتِ النُّجوم الثواقِب الَّتِي تَصِلُ أَضْوَاؤُها إلَىٰ الأرض، على أَنَّ كلَّ نَفْسٍ مُمْتَحَنَةٍ مُكَلَّفَةٍ في ظروف الحياة الدنيا، مُرَاقَبَةٌ مُرَاقَبَةً تَامَّةً، تُسَجَّلُ عليها فيها مكْتَسَباتها الإراديَّة الظَّاهِرَةُ والباطِنة، ومِنْها سرائرها، كالنِّيَّاتِ وَمَا تُخْفي الصُّدُور من إيمان أو كُفرٍ أو نِفَاقٍ، أو غَيْرِ ذلِكَ من مكتَسَباتٍ إرادِيَّة.

ومَعْلَومٌ أنَّ الالْتِزَامَ بالْمَرَاقَبَةِ التَّامَّة مَعَ تَسْجِيلِ كلِّ المكتَسَباتِ الإراديَّة، يَسْتَلْزِمُ عَقْلاً سَوَابِقَ وَلَواحِقَ، فَمِنَ السوَّابِقِ كوْنُ النَّفْسِ مَخْلُوقاً ممتحناً مُبْتَلىٰ في ظروف الحياة الدنيا، ومن اللَّوَاحِقِ كَوْنُ هذا المخلوق مبعوثاً لحياة أخرى بَعْدَ الموت والفناء، للحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، على ما قَدَّمَ وأخَّرَ في رحلة الابتلاء.

وهو الآيات من (١ ـ ٤).

الدرس الثاني:

درسٌ يشْتَمِل على لَفْتِ أنظار الّذين كذَّبوا بِنَبأِ البعث، وإرجاع الميّت الفاني للحياة مرَّةً أخرى، إلى دليل التَّسْوية بين الإعادَة والْبَدْءِ، وذلك بتوجيه أنظارِهم لوَاقِعِ خَلْق الإنسانِ من ماءٍ دافقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والترائب.

والمعنى: أنَّ إعادة خلقه من التّرَابِ بَعْدَ أن كان واقعاً مشهوداً، أهْوَنُ من بَدْءِ خَلْقِهِ من ماءٍ مَهِين، يَرْجِعُ إلى سلسلة تطَوُّرِيَّةٍ، من حَلْقَاتِها الطين، الذي هو ترابٌ وماءٌ.

وهو الآيات من (٥ ـ ١٠).

الدرس الثالث:

درسٌ يشتمل على قَسَم آخر بالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ النافع لسُكَّانِ الأرض، وما في هذا من اتقانٍ تامٍّ، وإحكامٍ عجيب، وتنظيم رائع، وقَسَمٍ آخَرَ بالأرض ذات الصَّدْع (= الشَّقّ) وما في تنظيم عمليات الصَّدْعِ فيها من اتقان وإحكام مُدْهِشَيْن، وما فيه من نفع عظيم للعباد السّاكِنين عليها، إذْ يكونُ به إنباتُ النَّباتِ، وتفجير العيون، وإجراء الأنهار، وإخراج كنوز الأرض من معادن وغيرها.

على أنَّ أنباء الجزاء يَوْمَ الدّين وَلوازمَهُ السَّابقة لَهُ، قَوْلٌ حَقٌّ وصِدْقٌ،

لا بَاطِلَ فيه ولا كذب، وَقَوْلٌ جِدٌّ، لاَ تَهْوِيلَ فيه ولا هزْلَ ولاَ لَعِب.

وهو الآيات من (١١ ـ ١٤).

الدرس الرابع:

درس يشتمل على بيان الموقف الذي وصل إليه كُبراء مشركي مكَّة إبَّان نُزُول سورة (الطارق) وهو موقف الكَيْدِ الشديدِ ضِدَّ الرَّسُول ورسالتِه، وضِدَّ الذين آمنوا به واتَّبَعُوه، والكَيْدُ يُطْلَقُ على الحرب، وإعداد الوسائل لها، واتّخاذ الأعمال والتدبيرات الحربيَّة المختلفة.

ولم يَصِلُوا إلىٰ هذا الموقف إلاَّ بَعْد أَنْ تَنَقَّلُوا في المراحِلِ تنقُّلاً تَشَدُّدِيًّا، من مرحَلَةِ الإعراض، إلى مرحلة الإدْبَار، فمرْحلة إعلان الخصومة، فمرْحَلَةِ العِدَاءِ، فمرْحَلَةِ الإيذاءِ والمضايقة، فمرحلة المحاصرة والإضرار، فمرحلة الإضطهاد الموجّه ضِدَّ ضعفاء المؤمنين، فمرحلة الإعدادات الكيديَّة الحربيَّة.

ويشتمل على بيان التدبير الرَّبَّانيّ لإحباط كيدهم، وبيان الموقف الذي ينبغي للرسول أن يَتّخذَهُ هو والذين آمنوا معه واتبعوه في تلك المرحلة، وهو موقف التمهُّل والانتظار وعدم التعجّل باتخاذ أيّ موقف تَصَادُميّ مع المشركين، وهذا يستدعي شِحْنَةً كبيرَةً من الصَّبْر.

❁ ❁ ❁

(٥)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من دُروس السورة
وهو الآيات من (١ ـ ٤)

قال الله عزَّ وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾.

يُقْسِمُ رَبُّنَا بالسَّماءِ، وبالنجم الثاقب الذي يظهر فيها، أي: بجنْسِ النجم الشّامل لِكُلّ النجوم الّتي تُرَى في السّماء، بالنسبة إلى سُكَّان الأرض، على أنَّه ما من نَفْسٍ خَلَقَها لِيَبْلُوَهَا إلاَّ عَلَيْها حَافظٌ يُحْصِي عليها ما تكسب بإرادتها، والعبارَة تشمل كلَّ نفس، وكل ما يصْدُر عنها.

ووصف الله جِنس النَّجْم الذي يظهر لسُكَّانِ الأرضِ في السَّمَاءِ بوَصفين:

الوصف الأوّل: أنَّه الطَّارِقُ دواماً، وعظَّمَ مِنْ شَأْنِهِ بعبارَة التعجيب القرآنية فقال بشأْنِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾. الطارق: هو الذي يأتي لَيْلاً.

الوصف الثاني: أنَّه الثَّاقِبُ، أي: المضِيءُ الّذِي يَظْهَرُ ضَوْؤُه كأَنَّهُ خارِقٌ ثَقْباً في السماء، دون أن يكون له انتشارٌ ضَوْئي شامل.

الشرح التحليلي:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ﴾ الواو هي «واو الْقَسم» وهو من حروف الجرّ، والعامل محذوف لا يجوز عند النحاة مع الواو إظهارُه، والتقدير: أقسم أو أحلف والسَّماء.

السَّمَاء: تُطْلَقُ لغة على كلّ ما ارتفع وعلا، أو كان في جهة العلو من فعل: سما يسْمُو سُمُوًّا فهو سامٍ، أي: ارتفع وعلَا ارتفاعاً مادّيًا أو معنويًّا، وسماءُ كلّ شيءٍ أعلاه، والغلاف الغازي المحيط بالأرض يدخُلُ فيما يُطْلَقُ عليه لغة لفظ «سماء».

والمراد بالسماء هنا السَّماءُ البعيدة التي تظْهَرُ فيها النُّجوم الثواقب، بدليل اقتران القسم بها بالقسم بالطّارق الذي هو النَّجْمُ الثاقب.

﴿وَٱلطَّارِقِ ﴾: وهذا قَسَمٌ بالطَّارِقِ. وكلمة «طارق» اسم فاعل من فعل: طَرَقَ يَطْرُقُ طُرُوقاً، أي: جاء ليْلاً، فهو طارق.

وكلُّ آتٍ ليلاً يُقال له في اللُّغَة: طَارِق، وجمعه: «طَوَارق» وقَدْ يُجْمَعُ أيضاً على أَطْرَاق.

وجاء في الحديث أنّ الرسول ﷺ نهىٰ المسافِرَ إذا رجَعَ من سَفَرِه عَنْ أن يَطْرُقَ أهله طُروقاً، أي: عن أَنْ يأتيهم لَيْلاً، وكان الرسول ﷺ لا يفعل ذلك.

ولمّا كانت النجومُ الثواقبُ في السماء إنّما تظهر لسُكَّانِ الأَرْضِ ليْلاً، وكان هذا دأبَها في كلِّ ليْلَةٍ، كانَ من المناسب أن يُطْلَقَ على كلِّ واحدٍ منها وصْفُ الطارِق.

وإذْ كانت «ال» في الطارق للجنس، كان لفظ «الطَّارِق» يَعُمُّ كُلَّ نَجْمٍ يُرَىٰ ليلاً في السَّماءِ، فالتقدير: أُقْسِمُ والنُّجُومِ الطوارقِ ليلاً.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾: في هٰذِه العبارة يُعَظِّمُ الله عزَّ وجلَّ من شَأْن هٰذه النُّجوم الَّتي تُرىٰ في اللَّيلِ، وهي العبارة المتكرّرة للتعْجِيبِ والتعظيم في القرآن المجيد.

أي: أعظم أيُّها المخاطَبُ أيًا كُنْتَ بأمْرِ هٰذا الطَّارق الذي هو النَّجْمُ الثاقِبُ، إعظاماً لاَ تَصِلُ إليه دِرَايتُك مهما عظمت مناظيرك، ووسَائلُك الّتي تَرْصُدُ بها مُشَاهَدَةَ هذِه النجوم، متَتَبِّعاً دراسَتَها.

وقد سبق شرْحُ هذه الصيغة القرآنيّةِ المبتكرة في التعجيب والتعظيم، وتحليل عناصرها بمقتضى القواعد العربيَّة.

وفي هذا الاستفهام التعجيبي تشويقٌ للمعرفة، فتأتي الإجابة على مواقع الشوق لها. ولمّا كان الطارق يُطلقُ على كلّ آتٍ باللّيلِ، وجاء الاستفهام عنه لتعظيم أمره، كان لا بُدَّ من بيان المراد به.

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾: فَسَّرَ الله عزّ وجل بهذه العبارة المرادَ بالطَّارق

الذي أقْسَم به، أي: هُو النَّجْمُ الثَّاقِب، ودَلَّتِ القرائن على أن المراد جنْسُ النجم الثاقب إذ «ال» لإرادة الجنس، فيشْمَلُ كلَّ النُّجوم الّتي يَراهَا الراؤُون ليلاً، وهُمْ على سَطْحِ الأرض، فكأنه قال: والسَّمَاءِ والنُّجُومِ الثواقب فيها.

ولمّا كان من النجوم نجومٌ بَعِيدَةٌ جدًّا في أبعاد السَّمَاءِ السّحيقة، وهي لا تُرَىٰ بالنِّسْبَةِ إلى سُكَّان الأرض، اقتصرَتِ السُّورَةُ في لفت نظر الإنسان على ما يرَاهُ منها ليْلاً، فهيَ الَّتي تَطْرُقُ ليْلاً.

النجمُ: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو النَّجْم، **الثاقبُ**: نعْتٌ للنجم.

الثاقب: هذه الكلمة تأتي في اللُّغة بمعنيَيْن: بمعنى «مُضِيء» وبمعنى «مُحْدِث للثَّقْب» **الثَّقْبُ**: هو الخرقُ النافِذُ في الشيء حتَّىٰ غاية الْوَجْه الآخر له.

ويظهر أنّ معنى الإضاءة لكلمة «الثاقب» يرادُ به إضاءةٌ نافذة كالخرق، وليس لها انتشارٌ واسعٌ.

ويقال لغة: زَنْدٌ ثاقب، وهو الذي إذا قُدِح ظهرت ناره على شكْلِ شَرَارات ذات إضاءة ثاقِبَةٍ دون انتشارٍ لها.

فمعنى «ثاقب» يَدُور لغة حول ما يثقب الشيء ثَقْباً خارقاً له، والإضاءة الّتي لا انتشار لها، فهي تُشْبه الثَّقْب في ستارة سوداء. والمثقوبُ بأضواء النجوم ظُلْمَةُ اللّيل.

وعلى هذا المعنى وصَفَ الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) الشهاب الذي يُتبِعُ الشيطانَ الذي يحاول أن يَسْتَرِق السَّمْعَ من الملأ الأعلى بأنّه شهابٌ ثاقب، فقال تعالى فيها:

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

وفي وصف النجوم في السّماء بأنّها مُضيئةٌ إضاءةً تُشْبِه الأضواء الّتي تظهر نافذةً من ثُقُوبٍ في ستارة سوداء، إشارةٌ إلى ما فيها من منافع لسُكّانِ الأرضِ، إذْ تهديهم مواقعها إلى طُرُقاتهم في ظُلُماتِ البرّ والْبَحْر.

والقسَمُ بالسَّمَاءِ وبالنجوم الثواقب فيها، قسَمٌ بآيَةٍ عظيمةٍ كبرىٰ من آيات الله في كونه، وهي آيةٌ تَدُلُّ علىٰ أنّ علْمَهُ مُحِيطٌ بكُلِّ شيء، وأنَّ إرادَته في الخلْقِ والتَّدْبير إرادةٌ حَكيمَةٌ جليلة، وأنّ قُدْرَتَهُ عظيمةٌ لاَ يُعْجِزُهَا شَيْءٌ تتعلَّقُ بإيجادِه إرادَتُه، صغيراً كان أم كبيراً.

إنّ السَّماءَ والنجوم فيها، والتي تُعْتَبَرُ الأرضُ كُلُّهَا بالنِّسْبَة إليها بمثابة رَمْلَةٍ صَغِيرةٍ بالنِّسْبَةِ إلى سائر الأرض، ويذكر علماء الفلك أنّ بعض النجوم في السماء التي نراها بمقدار عَيْنٍ صغيرة، أكْبَرُ من الأرض بمَلاَيين المرّات، وإنّما صغّرَهَا فِي أعيُنِنَا بُعْدُها عنّا. والنجومُ في السماء ذواتُ حَرَكاتٍ ومَسِيراتٍ وأفْلاَكٍ عجيبات في إتقانها وإحكامها.

فَمِنَ الحكمة أن يُقْسِمَ اللَّهُ عزّ وجلّ بِهَا للتَّنْبيه على ما فيها من دَلاَلاَتٍ على عظمة الرَّبّ الخالق العليم الحكيم القدير.

وقد جيء بهذا الْقَسَم لتَأْكِيدِ خَبَرٍ عن بَعْضِ تَدْبيراته الصغيرة الهيّنَةِ بالنِّسْبَة إلى خَلْقِه السَّمَاءَ والنجومَ الَّتي لا تَسْتَطِيع الخلائق حصرها، ولا إدْراك أبعادِها، وإلى تدبيره حَرَكاتِها ومَسِيراتها وتأثيراتِها في هذا الكون العظيم.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤﴾.

وفي القراءة الأخرى [لَمَا].

هٰذا هو المقسم عليه المؤكّدُ بالْقَسَم. أي: ما مِنْ نَفْسٍ خَلَقَهَا اللَّهُ إلاَّ جعَلَ عليها حَافظاً يحفَظُ مَا يَصْدُرُ عَنْها من أقوالٍ وأعمال وحركاتٍ نفسيَّةٍ وفكريَّةٍ وَقَلْبيَّةٍ ونيّاتٍ، ولا يكونُ حافظاً إلاّ إذا كان مُرَاقِباً دواماً، مُشَاهِداً

لِكُلِّ مَا يُطْلَبُ مِنْهُ حِفْظُه أفيَعْجِزُ الرَّبُّ العظيم الجليل الّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ العظيمة، وخَلَقَ هٰذِه النجوم المدهِشَةَ بتَكوينها وأعدادها وإتقان مسيراتها وحركاتها في أفلاكها، عن أن يَجْعَل على كلِّ نَفْسٍ حَافِظاً مُراقباً، يُسَجِّلُ عليها كُلَّ مَا يَحْدُثُ فيها وكُلَّ مَا يَصْدُرُ عنها؟!

تَعالَىٰ اللَّهُ عن أن يكون عاجزاً عُلُوًّا كبيراً، والشّاكّون بمِثْلِ هذا الخبر ما قَدَرُوا الله حقَّ قَدْرِه.

والمناسبة بين الْمُقْسَم به والمقْسَم عليه هي التشبيه، فالسَّمَاءُ محيطَةٌ بالأرض، والنجومُ فيها كثيرة نافِذَةٌ عَيُونها من ثُقُوب ستارة اللّيل إلى الأرض، وكُلُّ نَفْسٍ مُحَاطَةٌ بالعلم الرَّبَّاني الّذي لا يَخْفَىٰ عليه منها خافية، وعَلَيها أيْضاً مُرَاقِبٌ ثَاقِبٌ لحجبُها، يراقبها في خلواتها، حتّى داخل سرائِرِها من نياتٍ ومَكْنُوناتٍ مُضْمَرَاتٍ في صُدُورها، والّتي سَوْفَ تُكْشَفُ يَوْم الحسابِ في محكمة العدل الرَّبَّانيَّة.

ودَلَّتْ عبارَةُ ﴿عَلَيْهَا﴾ على أنَّ المراد بكَلِمَةِ ﴿حَافِظٌ﴾ مُرَاقِبُ أعمال الإنسانِ ومُسَجِّلُها، إعداداً للحساب، وفَصْلِ القضاءِ، وتنفيذِ الجزاء، إذْ هي القضيَّةُ الّتي جيءَ بالقسم لتأكيدها، وإنْ كانَتْ كلمة ﴿حَافِظٌ﴾ صالحة للدّلالة على معنى حفظ الإنسان من المخاطر والمؤذيات، إلاّ ما فيه من الله عزّ وجلَّ قضاءٌ وقدَرٌ، غير أنّ هذا المعنى يُنَاسِبُه عبارة: «لَهَا» لا عبارة: ﴿عَلَيْهَا﴾.

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾: أي: ما كُلُّ نَفْسٍ «إنْ» حَرْفُ نَفْي، مثل «ما».

﴿لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾: ﴿لَّمَّا﴾ أداة استثناء بمعنى «إلاّ».

والنفْيُ والاستثناء يفيد الحصر والقصر، وهو من قصر الموصوف على الصفة، وهو هُنَا قَصْرٌ إضافيٌّ، لأنّ المَقْصُودين بالخطاب مُنْكِرو وُجُودِ مُرَاقَبةٍ دائمةٍ لأعْمَالِ الناس الظاهرة والباطنة، أو الشَّاكُّونَ فيها، فجاء القصْرُ لِرَدّ تَوَهُّمِهم.

وعلى قراءة [لَمَا] تكونُ ﴿إن﴾ هي المخفَّفَة من الثقيلة، وتكون اللّام في [لَمَا] هي اللّام المزحلقة إلى الخبر، وتُسَمَّىٰ هُنَا اللاَّمَ الفارقة، لأنَّها فارقة بين «إنْ» المخفّفَة من الثقيلة، عن «إنْ» النافية.

قالوا: و «ما» في [لَمَا] زَائِدَةٌ للتَّأْكيد. **أقول**: ما المانِعُ أنْ يَكونَ لفظ «مَا» هنا اسماً نَكِرَةً، وهو مُفَسَّرٌ بما قبله، ويكون المعنى: إنْ كُلُّ نَفْسٍ لَنفْسٌ عليها حافظ.

ففي القراءتَيْن أسْلُوبَانِ من أساليب تأكيد الخبر، أحَدُهُما عن طريق النفي والاستثناء، والآخَرُ عن طريق أدوات التأكيد (إنْ ـ والجملة الاسميّة ـ واللّام المزحلقة».

الأسلوب القرآنيّ في تأكيد الأخبار الغيبيّة:

يُسْتَفاد من أُسْلُوب التأكيد القرآنيّ في هذا الدَّرْس وفي غيره من سور القرآن، أنّ البيانَ حينما يكون متعلّقاً بخَبَرٍ غَيْبِيٍّ، لا سبيل إلى علم المقصُودِين بالخِطاب به المنكرين لَهُ إلاَّ عَنْ طَرِيق الخبر، فإنّ الْخَبَر يأتي مُقْتَرِناً بالمؤكّداتِ الخبريَّة، وَأعلاها القسم.

ويأتي التصرُّفُ الرَّبَّانيُّ الحكيم فيمَا يَصْلُح لأنْ يُقْسِمَ اللَّهُ به، باختيار الْقَسَم بما يتضمَّن نَوْعَ حُجَّةٍ تَتَّصِلُ بالْقَضِيَّةِ الّتي يُؤَكِّدُها اللَّهُ عزّ وجلّ بالقسم، أو بماله بها مُنَاسَبَةٌ ما، ولو كانت على سبيل التشبيه أو التنظير لِتَقْرِيب الْمُقْسَم علَيْه إلى أفْهام المقصودين بالخطاب، ولِيَقِيسُوا ما يَجْحَدُونَهُ من غَيبيّ، على ما لا يَقْدِرُونَ على جُحُودِه وإنكارِه من مَشْهود.

ومن هذا القبيل الْقَسَمُ بالسَّماءِ والطَّارِقِ، على وُجودِ حَافِظٍ له مُشَاهَدَةٌ دَائِمَةٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ خَلقَها الله، فهو مُراقِبٌ لها دواماً، ويُسَجِّل كُلَّ ما يَصْدُرُ عنها من أنْوَاعِ وأفرادِ سُلُوكٍ إراديّ، جَسَدِيٍّ، أو فكريٍّ، أو قَلْبِيٍّ، أو نَفْسِي.

والمَنَاسبةُ هُنَا هي تَشْبيه الْعِلْم الرَّبَّاني الذي لا يَعْزُبُ عَنْهُ مثقال ذَرَّةٍ في السماوات ولا في الأرض، بالسَّماءِ الْمُحِيطَةِ بالأَرْض، وتَشْبِيهُ الرُّقَبَاءِ من الملائكة بالنُّجُومِ الثواقِب.

الأسلوب القرآني في تجزئة العناصر الفكريّة للموضوع الواحد وتوزيعها في دروس التنزيل:

المتدبِّر المتأنّي المتتبِّع للموضُوعات القرآنيّة يُلاحظُ أنَّ الموضوع القرآني الواحد، ذا العناصر والأجزاء المتعدّدة، لا يأتي القرآن بكلّ عناصره وأجزائه في دَرْسٍ واحدٍ من دُرُوسِ التنزيل، بل يلاحِظُ أنَّ هذه العناصر والأجزاء المتعدّدة، مفصّلة وموزعة في دروس متعدّدة، ضمن عَدَدٍ من سُور القرآن غالباً، وتأتي على مراحلَ في نجوم التنزيل، وما يأتي من هذه العناصر في درس من دُرُوس التنزيل يأتي مقترناً ببعض الحجج الّتي من شأنها أن تُقْنِع طالب الحق، إذا كانت القضيّة ممّا يمكن إثباته عن طريق العقل أو شواهد الحسّ.

أمّا إذا كانت القضيّة من الأمور الغيبيّة الخبريّة الّتي ليس لها حُجَج عقليّةٌ مباشرة، فيأتي الإخبار بها مقترناً بالمؤكّدات الّتي تعارَفَ الناس على تأكيد أخبارهم بها، وأعلاها الْقَسَم، وأَحْكَمُ الأقسام ما لَه صلَةٌ بكمال المقْسِمِ صاحب الخبر، وله مُنَاسَبَةٌ تَصِلُهُ بالْمُقْسَم عليه، كالقسم الذي تدبّرناه في هذا الدرس من دُروس سورة (الطارق).

وهذا الأسلوب القرآنيُّ الذي نُلاحِظُه من تَتَبُّع دروس التنزيل وفق ترتيب النُّزُولِ، يُعَلِّمُنَا مَنْهَجاً تَرْبَوِيًّا وتعليميًّا ملائماً للطبائع البشريّة. ويَدُلُّنَا ضِمْناً على أنّه هو المنهج الأحكم والأقوم، إذ اختاره الله لنفسه في تعليمه عناصر دينه الذي اصطفاه للناس، وفي تَرْبيته لمتلقّي هذه الدُّرُوس، ومعالجته أصنافهم المختلفة، بالإقناع الذي يَتَتَبَّعُ الأَجْزَاءَ والعناصر الفكريّة،

للموضوع الكلّيّ الواحد، فيُحيطُ كلَّ جُزْءٍ منها بما مِنْ شأنه أنْ يوصِلَ الْعُمْقَ الفكريّ والنَّفْسِيَّ إلى الاقتناع، إذا كان الإنْسانُ المتلَقّي مُسْتَعِدًّا استعداداً إراديًّا للتعرّف على الحقّ، وقَبُوله متىٰ ظَهَر له، والإيمان به متىٰ اقتنع به.

أمّا إذا كان المتَلَقّي صاحبَ هوى، أو متصلّبَ الفِكْر عنْدَ سوابق عقائد، أوْ مستكْبراً، أو ذا علَّةٍ أخرى من عِلَلِ النفس، فإنّه أحَدُ شَخْصَيْن:

- إمّا أن يكون غَيْر مُسْتَعِدٍّ لقَبُولِ الحقّ والالتزامِ به، ولو ظهر له، وعرَفَ أنّه حقٌّ.

- وإمَّا أَنْ يكون غَيْر مستعِدٍّ ابتداءً لأنْ يَفْتَح نوافِذَ فكره ونَفْسِه وقلْبه، للتعرُّفِ على الحقِّ، واستقبالِ أنواره، رضاً بما هو فيه من أدناسٍ فكريَّةٍ ونَفْسِيَّةٍ، وتوهُّماً منه أنّ ما هو عليه هو الحقّ، فهو لا يُريد أَنْ يُجْهِدَ ذِهْنَهُ بالتَّفكُّرِ في غَيْرِه، ولا يُريدُ أنْ يغَيِّرَ ما هو عَلَيْهِ من مألوفٍ فكرِيّ، أَوْ مألوفٍ نَفْسِيّ، أو مألوفِ سلوكيّ، مهما كان الأمْرُ الذي يُدْعَىٰ إليه هو الأمْر الذي يجب عقلاً الإيمان به، والْعَمَلُ بمقتضاه.

أمّا الفريق الأول: فهو فريقٌ معانِدٌ مكابِرٌ، أفرادُهُ ساقِطُون في دركةٍ من غضب اللّهِ عليهم، تجعلُهُمْ في أسفل سافلين من دَرَكاتِ الجحيم.

وأمّا الفريق الآخر: فهو فريقٌ استَحَبَّ العَمَىٰ على الْهُدَىٰ، وطَمَسَ بإرادته ما وهبَهُ رَبُّه الخالق الحكيم من أدواتِ إدْرَاكٍ يستطيع أن يَعْرِف بها الحقَّ والباطل، والخير والشرّ، والحسَنَ من السلوك والقبيح منه، والصَّلاحَ والفساد، والنقْصَ والكمال.

وأفْراد هذا الفريق لا يسْمَحُون للمعرفة الحقّ أن تنفذ إلى أعماق نفوسهم وقلوبهم، فهم رافِضُون للمعرفة، راضون بالجهالة والعمى، لا

معاندون للحقّ بعد معرفته، وهم ساقطون في دركة الضالّين ضلالاً إراديًا، ويحْمِلُون تَبِعَة ضلالهم عن الحق والخير والهدىٰ.

إنَّ أفراد هذا الفريق قَدْ أَلْغَوْا من إنْسَانيتهم أهَمَّ عناصِرِ كمالِها، فَجَعَلُوا أنفسهم بإراداتهم كالأنْعام، بل أضَلَّ سبيلاً.

إنَّ الأنعام لم تَؤْتَ أدواتِ الإدراكِ التي وهبها اللَّهُ للناس، فهي لا تُسْأَلُ عمَّا ليْسَ لديها أدواته، أمَّا هَؤُلاء فَقَدْ أُوتُوهَا وعطَّلُوها، وأصَرُّوا على تعطيلها، رضاً بما هُمْ فيه من مُشَارَكةٍ حيوانِيَّةٍ للأنعام.

هذا ما يتَعَلّقُ بوسائل الإقناع الفكريّ.

العلاج النفسيُ بالترغيب والترهيب:

وأمّا ما يتَعلّقُ بمعالجة النفوس بالترغيب والترهيب، فقضيَّةٌ تَرْبَوِيَّةٌ تُشْبه الْغِذَاء اليوميَّ، لذلك نُلاحظ في نجوم التنزيل القرآني، أنّها لاَ تَخْلُو في الغالب من صُوَرِ الترغيب والترهيب، بألوان مختلفة، وأساليب مُتَنوِّعة، وتصاريفَ عجيبة، لا تَدَعُ احتمالاً مما يُمكِن أن يكون له تأثيرٌ ما إلاَّ استخدمته، وهي تُشْبِهُ صُنوفَ المطاعم والمشارب الّتي يتناولُها الناس، والمقصودُ الغذائيُّ واحد.

فيقتطع النَّجم القرآنيُّ المنزَّلُ فِكْرَةً من جُمْلَة الأفكار الكليّة عن الثواب والعقاب، أو مَشْهداً مِنْ مَشاهِدِهِ الَّتي سَوْفَ تَحْدُث حتماً، فَيعْرِضُها، تَرْغِيباً فَتَرْهيباً، أو تَرْهيباً فَتَرْغيباً.

وحين نجمع هذه الأفكار الجزْئيَّة، وهٰذِهِ الصُّوَرَ والمشاهد، نستَطِيع تَصَوُّرَ كَامِلِ عناصر الموضوع الفِكْرِيِّ، وكامِلَ المشاهد.

فما أبدع القرآن المجيد، وما أبْدَعَ بياناته التعليميَّة والتربويّة.

❀ ❀ ❀

(٦)
التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو الآيات من (٥ ـ ١٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾.

تمهيد:

في هذا الدّرْس أمْرٌ جازمٌ للإنسان المنكِر للبعث، أو الشَّاكّ فيه، تَوَهُّماً منه أنَّ إعادة الموتىٰ إلى الحياة بعْدَ الفناء أَمْرٌ غَيْرُ مَقْدُورٍ عليه، بأن ينْظُر نَظَرَ متفكِّرٍ مُتَدبّرٍ، في حَلْقة من حلقاتِ سِلْسِلَة نَشْأَتِهِ، وهي حَلْقَةُ الماء الدافق، التي قَذَفَها أَبُوهُ مَنِيًّا، خارجاً من بين الصُّلْبِ والترائب، ولم يَكُنْ شيئاً مَذْكُوراً قبْلَ أَنْ يَخْلُقَه الله بدءاً من الماء والتراب، حتّىٰ صَيَّرَهُ رَبُّه غذاءً، ثم صَيّرَهُ دماً، ثُمَّ صيّره منيًّا في داخل جسم أبيه، ثمّ قَذَفَهُ أبوه لِيَنْمُوَ إنساناً في مُسْتَودَعِ أُمِّه، حَلَقَاتٌ عَجِيباتٌ في سلسلة أطوار خَلْقِه، تُدْهِشُ كُلَّ بَاحِثٍ عالِمٍ مُتَفَكِّر.

أفيليقُ بإنْسانٍ متفكِّرٍ مُتدبّرٍ عاقل، يَنْظُرُ في أطوار نشأته وعجائب خلْقِ الله له، أن يَسْتَبْعِد أو يُنْكِرَ إعادة الله له إلى الحياة، بعد أن يَرْجِع إلى مَا كان عليه، وواضِحٌ في تصوُّراتِ الناس أنّ إعادة خلْقِ الشّيءِ على مثالٍ سبَقَ، أهْوَنُ من بَدْئِه على غير مثالٍ سبق؟!.

إنَّ متفكِّراً مُتَأَمِلاً عَاقِلاً لاَ يَليقُ بذكائِه وفَهْمِه وفطْنَتِه، أن يَسْتَبْعِدَ هٰذِهِ القضيَّة، ويُخْرِجَها عن دائرة الإمكان.

وإذَا آمَنَ بالرَّبّ الخالِقِ وقُدْرَتِه وحِكْمَتِه، فإنَّ عَلَيْه أنْ يُثْبِتَ هٰذِهِ القضيَّة ويَنْصُرَهَا بما يَمْلِكُ مِنْ حُجَّةٍ، لاَ أن يَجْحَدها، ويكَذِّبَ الأخبار

الوارِدَة بإثباتها، والّتي جاءت بها الأديان الرّبانيّةُ الحقّ، ونَطَقَ بها بلاغاً عن الله رُسُلُ اللّهِ الصادقون، المؤيَّدونَ منه بالآياتِ البيّنات، والمعجزات الباهرات.

● ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾: أمْرٌ للإنسان المنكر للبعث أو الشَّاكّ فيه، بأن يَنظُر نَظَرَ تَفَكُّر وتَدَبُّرٍ وتحليلٍ للظواهر والبواطن وأسْبَابِهما.

أي: إنْ كان لدى هذا الإنسانِ شُبُهاتٌ، حَوْلَ كون البعث من الأمور الممكنة الّتي تخضَعُ لسُلْطَانِ قُدْرَةِ اللّهِ عزَّ وجلَّ، وتوهُّمَاتٌ تجعلُه يُسْتَبْعِدُ إمكانَ إحياءِ الموتى بعد فناء أجسادهم، فَلْيَنْظُرْ مِمَّ خُلِقَ.

● ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾؟: في هذه العبارة توجيه لهذا الإنسان أنْ يَسْأَلَ نَفْسَهُ هذا السؤال، فهو يَهْدِيهِ إلىٰ التَّأَمُّل في أصْلِ نَشْأَته، الَّتي تُقْنِعُه بقُدْرَةِ اللّهِ على رَجْعِه إلى الحياة بعْدَ إماتَتِه وَإِفْنائِه.

والسؤال عن الأشياء وحقائقها هو مفتاحُ كُلِّ بحْثٍ علمي، وكلُّ إجابة صحيحة تجرّ إلى سؤال جديد، حتَّىٰ تنتهيَ سلسلة الأسباب إلى السَّبَبِ الأوّل الفعّال بإرادته على مقتضىٰ حِكْمَته.

﴿مِمَّ﴾ «من» حرْفُ جرّ «مَا» اسم استفهام حذفت الألف منه حسب القاعِدَة الإملائيّة إذا كان متّصلاً بحرف جرٍّ.

● ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾: في هذه العبارة تذكير للإنسان بما يصْلُحُ جواباً على السُّؤال: [**مِمَّ خُلِقَ**]؟

واختِيرَ في هذا التذكير من مَراحِلِ نشأتِه مَرْحَلَةُ الْمَاءِ الدَّافق، وهِيَ مَرْحلةٌ وَسْطَىٰ من مراحل أطوار خَلْقِه، وهذه المرحلة معروفَةٌ لكلِّ إنسانٍ بلَغَ الْحُلُم.

الماء الدَّافِق: هو مَنيُّ الذَّكَر الذي يَخْرج منْصَبًّا مَقْذوفاً، بموجات من

الصّبِّ مُتَتابعة، وسَمَّاهُ الله ماءً لأنّه نوع من أنواع المياه ذوات الخلائط المختلفة، وأُطْلِقَ عليه في نصوص أخرى اسْمَهُ المعروف، وهو كلمة «مَنِيّ».

دَافِق: قال الأزهري: الدَّفْقُ في كلام العرب: صَبُّ الماء، وفعل «دَفَقَ» مُتَعَدٍّ.

وقال الفيروزبادي: («دَفَق» مُتَعَدٍّ عند الجمهور) وهذا يدُلُّ على أنَّ بعض أهل اللُّغَةِ يَرَوْن جَوَاز استعماله لازِماً.

وبناءً على اعتبار فِعْلِ «دفَقَ» فعْلاً متعدِّياً ذَهب أكْثَرُ أهل التفسير إلى تأويل كَلِمةِ «دافِقٍ» وجعلها بمعنى: «مَدْفُوق» ويدخل هذا فيما يسمَّىٰ عند علماء المعاني بالمجاز العقلي.

ويرى سيبويه أنه بمعنى «ذي دفق» كقول العرب «لابن» أي: ذو لبن، و «تَامِر» أي: ذو تَمْر.

أمّا على رأي من يرى من اللّغويين أن فعل دفَقَ يستَعْمَلُ مُتَعَدِّياً ويستعمل لازماً أيضاً، فكلمة «دافق» اسم فاعلٍ من اللاَّزم، بمعنى يَتَدَفَّق، وبناءَ على هذا فلا حاجة إلى التأويل.

● ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾: أبَانَتْ هذه العبارة أنّ الماء الدافق (= المني) الذي يَقْذِفُهُ الذكَرُ يَخْرُجُ من مَكانٍ ما بَيْن الصُّلْب والترائب.

الصُّلْبُ: هو العمود الفِقَرِيُّ، وهو الفِقَرات العظميَّةُ في الظَّهر، من لَدُنِ الكاهِلِ إلَىٰ عَجْبِ الذَّنَب. وجمع «صُلْب» أصْلاَب، وأَصْلُب.

الترائب: هي عظام الصَّدْر، وأعْلاَها موضِعُ القلادة من الصَّدْر. الواحدة منها: «تَرِيبَة».

أمّا كون الماء الدافق يخرج من بين الصُّلْب والترائب، فهو من الْخَفَايا العلميّة الَّتي جعَلَها اللَّهُ عزّ وجلّ من الكنوز القرآنيّة المدَّخرة، لتَكُونَ إعجازاً عِلْمِيًّا فيه، يُكْتَشَفُ حين يَتَوَصَّل الباحثون العلميّون إلى حقيقته التكوينيَّة في الواقع.

وقد وقع كثير من المفسّرين الأقْدَمين في الخطأ لدَىٰ تفسير هذه العبارة، فقالوا: من صُلْبِ الرَّجُلِ وتَرائِبِ المرأة، إذْ لم تَكُنِ الحقيقةُ العلميَّةُ معلومةً لهم، حَتَّىٰ يُفَسِّرُوا النَّصَّ بها، وإنْ كان المنهج العملي يقضي بأن نقول فيما نجهل حقيقته: اللَّهُ أعلم بمراده. وغايَةُ مَا يمكِنُ قَوْلُه فِيمَا نجهل حَقِيقَتَهُ طَرْحُ الاحتمالات الّتي يُمْكِنُ أن يَدُلَّ عليها النَّصّ دُونَ جَزْمٍ بواحد منها، وتَرْكُ التَّحْدِيد لما تثبتُهُ الحقائق العلميَّةِ الَّتي تُكتَشَفُ بالوسائل الإنسانية.

فالله عزّ وجلَّ قَدْ جعل في كتابه كُنُوزاً إعجازيَّةً ادَّخرَها للعصور المستقبلة الّتي تأتي بَعْدَ عَصْرِ التنزيل، وهي تكْتَشَفُ تِباعاً مع تقَدُّم المعارف الإنسانيَّة، التي يُلْهِمُ اللَّهُ الناسَ البحث عنها، والْوُصُولَ إلى معرفة حقيقتها، ولو كانُوا من الكافرين به.

وهذا من البيان الرَّبَّانيّ الذي ذكره اللَّهُ لرسوله في قوله في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف / ٣١ نزول):

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

فدلَّ هذا النَّصُّ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ تَكفَّلَ بِبيَانِ خَفَايَا الْقُرْآنِ العلميّة على التراخي، الّذِي دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ العطف ﴿ثُمَّ﴾.

أمَّا مُقرَّرَاتُ البحث العلميّ حول كَوْنِ الماءِ الدافقِ، وهو مَنِيُّ الذكر، يَخْرُجُ من بين الصُّلْب والترائب، فلا أُريد أن أتَطَفَّلَ على مَا لَيْسَ لي فيه

اختصاص، ولكن أنْقُل ما كتبه باحثٌ عالم مُسْلِمٌ طبيب ذو اختصاص في هذا الفنّ. إنّه الدكتور «محمد علي البار» فهو يقول في كتابه «خلْقُ الإنسان بين الطِّبّ والقرآن» جَزاه الله خيراً وأحْسَن إليه: ما يلي[١]:

«تقول الآية الكريمة: إنّ الماءَ الدافق يخرج من بين الصُّلْبِ والترائب.

ونحن قد قُلْنا: إنّ هذا الماء (المنيّ) إنّما يتكَوَّنُ في الخصْيَة ومُلْحَقَاتها، كما تتكَوَّنُ الْبُيَيْضة في المبيض لدى المرأة.

فكَيْفَ تتطابقُ الحقيقةُ العلميَّة مع الحقيقة القرآنيّة؟

إنّ الخصية والمبيض إنَّما يتكَوَّنَانِ من الحدَبَةِ التناسُلِيَّةِ بيْنَ صُلْبِ الجَنِين وترائبه.

والصُّلْبُ هو الْعَمُودُ الفِقَرِيّ. والترائبُ هي الأضلاع (أي: أضلاع الصَّدْر).

وتتكوّن الخصيَةُ والمبيض في هذه المنطقة بالضبط، أي: بين الصُّلْب والترائب. ثم تنزل الخصيَةُ تدريجيًا حتّى تَصِل إلى كيس الصَّفَن (خارج الجسم) في أواخر الشهر السَّابع من الحمل. بينما ينزل المبيضُ إلى حوض المرأة، ولاَ يَنْزِلُ أسْفَلَ مِنْ ذَلِك.

ومَع هذا فإنّ تغذيَة الخِصْيَةِ والْمَبِيضِ بالدماء والأعْصَاب واللَّمْف تَبْقَىٰ من حيث أصْلُها، أي: من بين الصُّلْب والترائب.

فَشِرْيَانُ الخصية أو المبِيضِ يأتي من الشريان الأبْهَر (الأوْرْطي البطني) من بين الصُّلْب والترائب، كما أنَّ وريد الخِصْيَة يَصُبُّ في المنطقة نفسها.

---

(١) انظر الفصل السابع (النطفة) ولا سيما الصفحات من (١١٤) إلى آخر الفصل.

يَصُبُّ الْوَرِيد الأيْسَر في الوريد الكُلَوي الأيْسَر، بينما يَصُبُّ وريد الخصية الأيْمَنِ في الوريد الأجْوَفِ السُّفْلي.

وكذلك أوْرِدَةُ المبِيض وشريانها تَصُبُّ في المنطقة نفسها، أي: بين الصُّلْب والترائب.

والأعْصَابُ الْمُغذِّيَةُ للخِصْيَةِ أو الْمَبِيض تأتي من المجموعة العصبيّة الموجودة تحْتَ الْمَعِدَةِ من بين الصُّلْب والترائب.

وكذلك الأَوْعِيَةُ اللَّمْفَاوِيَّةُ تَصُبُّ في المنطقة نفسها، أي: بين الصُّلْب والترائب.

فهَلْ يبقَىٰ بعْدَ هذا شَكٌّ في أنّ الخِصْيَةَ أو الْمَبِيض إنَّما يأخُذَان تَغْذِيَتَهما ودِمَاءَهُمَا وأعْصَابَهُمَا من بَيْنِ الصُّلْبِ والترائب؟؟!

فالحيواناتُ المنويَّةُ لدَىٰ الرَّجُل، أو البييضَة لدى المرأة، إنّما تستقي موادّ تكوينها من بين الصُّلْب والترائب، كما أنّ منْشَأَهَا ومَبْدَأَهَا هو من بَيْن الصُّلْب والترائب.

والآية الكريمة إعجازٌ كامل، إذْ تقول: ﴿مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ ولَمْ تَقُلْ من الصُّلْب والترائب. فكلمة ﴿بَيۡنِ﴾ ليسَتْ بَلاغِيَّةً فحَسْب، وإنَّما تُعْطِي الدِّقَّةَ العلميَّة المتناهِيَة.

أقول:

بعد هذا التحقيقِ العلميّ الّذي يَكْشِفُ التوافُقَ الْكَامِلَ بَيْنَ مَا جاءَ في القرآن المجيد، وما تُقَرِّرُه الدراسَات العلميّة الإنسانيَّة، حول كوْنِ الماء الدافقِ يخْرُج من بين الصُّلْب والترائب، لا بُدَّ أن تدفعَنا الدوافِعُ الإيمانِيَّة إلى الخضوع الكامل لجلال اللَّهِ الرَّبّ الخالِق، والإذْعَانِ الكامِلِ إلَىٰ أنَّ القرآن المجيدَ كلامُ اللَّهِ جلَّ جلالُه، وتباركَتْ أسماؤه وصفاته. إنَّهُ لَكِتَابٌ

عزيز لا يأتيه الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ ولا من خَلْفِه، تَنْزِيلٌ من حكيم حميد.

وما على المتدبّرين إلاّ أنْ يُحْسِنُوا تدبُّره، أو يتَرَيَّثُوا حتَّىٰ يُهَيِّئَ اللَّهُ تَبَارك وتَعَالىٰ وسائِلَ بيانِ ما جَهِلُوا أو خَفِيَ عليهم أو اشتَبه عليهم منه، فقد تَكَفَّلَ جَلَّ وعلا بِبَيَانِه، كما ذَكَرَ في قرآنِه.

● ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ﴾ الضمير يَعُودُ على الرَّبّ الخالق المفهوم ذهناً من عبارة: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ ففِعْلُ «خُلِقَ» المبني على ما لم يُسمَّ فاعله، يَتَضَمَّنُ الدّلالةَ على خالقٍ، وهو الرَّبُّ جلَّ جلاله الذي لا خالِقَ في الوجود للكائنات غيْرُه، ولا رَبَّ سواه.

﴿عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾: أي: على إرْجاعه إلى الحياة بعْدَ إماتَتِه وإفناء جَسَدِه لَقَادِرٌ.

جاءت جملة ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ مؤكَّدَةً بمؤكداتٍ ثلاثة (إنَّ ـ والجملة الإسميّة ـ واللاّم المزحلقة إلى الخبر) وفيها توجيه الاهتمام للمقدور عليه وهو الرّجع بتقديمه على عامله **[قادر]**.

يقال لغة: رَجَعَ بمعنى انْصَرَف، على أنّ الفعل لازم.

ويقال لغة: رَجَعَهُ بمعنَىٰ أعاده، على أن الفعل مُتَعَدٍّ.

ويقال في مصْدَرِهما: «رجْعٌ» والمراد بالرَّجْع في الآية الإرجاع على التعدية، من رَجَعَهُ يَرْجِعُهُ رَجْعاً.

وجاءت هذه الآية بمثابة نتيجة عقليّة للدّليل الذي تضمَّنَهُ قَوْلُ الله عزّ وجلّ قبلها: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾.

أي: هذه الظاهرة الكونيّة المتكرّرة المشهودة تقدّم إقناعاً من وجْهَيْن:

الوجه الأوّل: أنّ الخالق الذي قَدَرَ على خَلْق الإنسان المكتمل في أحْسَنِ تقويم، من مَاءٍ دَافِقٍ يخْرُجُ من بين الصُّلْب والترائب، قادِرٌ على إعادته إلى الحياة بعد إماتته وإفناء جَسَدِه، كيف يَشَاء وعلى ما يَشاءُ، وفي أيِّ زَمَنٍ يشاء، وفي أيّ مكانٍ يَشَاء، فخريطةُ بنائه معلومةٌ ومَوْجُودةٌ لَدَيْه، وَنَوَاتُه مَحْفُوظَةٌ، وفيها كُلُّ صفاته الجسدية والنفسيَّة، وفيها سِجِلُّ حياتِه منذ نَشْأَتِهِ حتَّىٰ مماته.

إنّ هذه الحجَّةَ حُجَّةٌ بُرهانيَّةٌ دافعةٌ لكُلِّ تَوَهُّمَاتِ السُّفَهَاء، ناقصي الْعُقُول، الَّذِين تَغْلِبُهم أهواؤهم وشهواتُهم، فَتَطْغَىٰ على مراكز التَّفْكير السليم لدَيْهم، وعَلَىٰ موازِينِ الْعَقْل الصحيح الذي جَعَلَهُ اللَّهُ في فطرتهم، فتجعلهم يستَبْعِدُون الإعادة إلى الحياة بعد الموت والْفَناء، على الرُّغْمِ من مشاهداتهم المتكرّراتِ لخلْق الإنسان من مَاءٍ دافق.

الوجه الثاني: أنّ من أخبر بحَقِيقَةٍ علميّة، وهي هُنَا كَوْن الماء الدافق يَخْرُجُ من بيْنِ الصُّلْبِ والترائب، على مَا سَبَق تحليله، وهذه الحقيقة لم تُعْرَفْ للباحثين العلميّين إلاَّ بَعْدَ نُزُولِ الخبر بها بما يزيد على ثلاثة عشر قرناً، لا بُدَّ أن يكون صادقاً حتماً في كلِّ ما أخبر به من أخبار عمَّا مضىٰ وعمَّا سيأتي، ومن الأَخْبَارِ خَبَرُ البعث إلى الحياة بَعْدَ الموت والفناء، وأخبار يوم الدّين المعَدّ للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، وما في الدار الآخرة من مراتب ودرجاتِ جنَّاتِ النّعيم، ومنازل ودركاتِ الجحيم.

إنَّه جلَّ جلاله واضِعُ خُطّة التكوين، ومُقَدِّر مقادير كلِّ شيْءٍ، والقادر على خلق ما يَشاء، وهو العليم الحكيم، وهُوَ المخْبِرُ جلَّ جلالُهُ بما قَدَّرَه وقضاه، وسوف يخلقه في الأجل المحدّد له.

وهذا الوجه يفهم ضمناً وباللُّزوم الذهني، من الرَّبط بين الخبر، والأمر بالنظر في قضيَّةٍ أخرى خَبَرِيَّةٍ هي من دقائِقِ الإعجاز العلميّ في

القرآن، ولا يُخبِرُ عنها بصِدْقٍ إلاَّ العليم بها، وهو واضع خُطتها، وخالِقها، وواضِعُ خُطَّةِ الوجود كُلِهِ، ويخْلُقُ كلَّ شيءٍ في أجَلِه المحدَّدِ له.

● ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾:

﴿تُبْلَى﴾: أي: تُكْشَفُ وَتُظْهَرُ، أَصْلُ الابتلاء الاختبار للكَشْفِ، وَإِذْ حصَل الاختيارُ في الحياة الدنيا، فإنّه لم يَبْقَ في الآخِرَة إلاَّ الكَشْف.

رُوي عن ابن عمر: يُبْدِي اللَّهُ يوم القيامة كُلّ سِرٍّ منها، فيكُونُ زيْناً في الوجوه، وشيناً في الوجوه.

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: جمع «السَّرِيرَة» وهي ما يكتمه الإنسانُ ويخفيه في نفسه، ومعلُومٌ أنَّ النيّاتِ من وراء الأعمال سرائر، وثبت في الصحيح من أقوال الرسول ﷺ:

«إنَّما الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَىٰ».

وإنما تُبْلَىٰ السّرائر لأنَّ الحساب يوم الدين يجري على النيّات من وراء الأعمال.

هذه الآية: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ هي جُزْءُ قَضِيَّة، فأيْنَ جُزْؤُها الآخر؟ هَلْ نجْعَله تابعاً للآية السَّابقة: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ فنقْصُرُ من أبعاد هذه الآية، ونَنَقُصُ من دَلاَلَتِها الكليّة، فنَجْعَلُ هذه القُدْرَة خاصَّةً بالإرجاعِ يوْمَ الدِّين، مع أنَّ قُدْرَة اللَّهِ عَامَّةٌ شاملة، وإنْ كانت خُطَّتُهُ عزّ وجلَّ قد جَعَلَتِ الإرجاع العامّ للْمَوْتَىٰ أمراً مؤجّلاً إلى يوم القيامة، أمَّا الإرجاع الخاص فقد أجراه الله عزَّ وجلّ للألوف الذين خَرَجُوا من ديارهم حَذَرَ الموت، إذْ أماتهم ثم أحياهم، وأجراه للعُزَيْر، وجَعَلَهُ آيَةً لعيسَىٰ عليه السَّلام، إذْ كان يُحْيِي الموْتَىٰ بإذْن الله.

أم نَجْعَله مُرْتَبِطاً بما بَعْدَهُ، وهو قول الله عز وجل:

● ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾؟ وبالتأمُّل يَتَبيَّنُ لَنا أنَّ هذا القولَ مُرتَّبٌ تَرْتِيباً فِكْرِيًّا على قضيَّةٍ تامَّةٍ دَلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ وَلاَ يُنَاسِبُ أن يكُونَ هذا الترتيب على جُزْءِ قضيَّة.

إذن: فكَيْفَ نَسْتكْمِلُ القضيّةَ الّتي دَلَّ على جُزْءٍ منها قول الله عزَّ وجلّ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾؟.

وبقليل من التفكّر نُدْرِك أنّ جُزْءَ الْقَضِيَّةِ الآخَر محْذُوفٌ دلَّ عليه السِّبَاقُ والسِّيَاق، وفْقَ الأسلوب القرآني في اعتماد الحذف الملاحَظ ذِهْناً، لكلّ ما يُمْكِنُ إدْراكُهُ، ولا يَشْتَبِه فيه المراد.

وباستطاعتنا تقدير المحذوفات الملاحظات ذِهْناً على الوجه التالي:

﴿إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ وَإنَّهُ لَمَبْعُوثٌ إلى الحياة بَعْدَ موْتِه وفناءِ جَسَدِه، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ وحين يُجازَىٰ على ما قَدَّمَ وأَخَّرَ في الحياة الدنيا من كبائر وجرائم ومَعَاصِيَ ومُنْكرات ﴿فَمَا لَهُ﴾ يَوْمَئِذٍ ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ مَا، مهما كانت قَلِيلَةً ضَئِيلَةً، يَدْفَعُ بها عن نَفْسِه ما اسْتَحقَّ من عقاب اللّهِ المقضِيِّ عليه به، ولا شيئاً منه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يَنْصُرُهُ، فَيَدْفَعُ عنه الحكْمَ بالعقاب، أو يَدْفَعُ عنه شيئاً من عقاب الله المقضيّ عليه به.

﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾: «مِـنْ» حـرف جـرٍ زائـدٍ جِـيء بـه للتنصيص على إرادة العموم المستغرق لكُلّ أفْراد القوة وعَناصرها، ولكلّ ناصِرٍ يُمْكن أَنْ يَنْصُرَه.

مَنْ هٰذَا الذي يَمْلِكُ قُوَّةً يُغَالِبُ بها قُوَّةَ الرَّبِّ الخالق، ولا سيما يوم القيامة، يوم تأتي كُلُّ نَفْسٍ لاَ قُوَّةَ لها وَلاَ سُلْطان، تأتي مَغْلُولَةَ الْقُوىٰ، تَتَرَقَّبُ حُكْمَ الْمَلِكِ العزيز القَهارِ الدَّيَّان؟!.

يوْمَ يأتي كلُّ إنْسانٍ فَرْداً لا نَصِيرَ لَهُ وَلاَ مُعين، ولاَ خِلَّ ولا خَدِين، وليس لَهُ شفيعٌ يشْفَعُ لَهُ إلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ ورَضِيَ له قَوْلاً؟!

وقد قال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

وقال تعالى في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

* * *

(٧)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دروس السورة وهو الآيات من (١١ ـ ١٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾.

تمهيد:

في هذا الدّرْس قَسَمٌ بظَاهِرَتَيْنِ كونيَّتَيْن مُترابِطَتَيْنِ، لتحقيق غايَةٍ في الحياة الدنيا على الأرض، تتّصِل بحياة الأحياء فيها، وهما من آياتِ اللَّهِ الكَوْنيَّةِ الدَّالاَّتِ على عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وكمالِ قُدْرَتِه، ورَحمته بعباده، على قضيَّتين فِكْرِيَّتَيْنِ مُترابطَتين أيْضاً، ذَواتَيْ مَضْمُونٍ يُؤَكّدُ خبراً يتَعلَّقُ بالْحَياةِ الأُخْرَىٰ، الّتي يتحقَّقُ فيها ثَمَرَةُ الامتحان في الحياة الدّنيا، وهي الحساب، وفَصْلُ القضاء، وتنفيذُ الجزاء.

الظاهرة الأُولَىٰ: السَّمَاءُ القريبة ذَاتُ الرَّجْعِ، وهِيَ غير السَّمَاءِ البعيدة ذات النُّجُوم الثواقب.

● ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾﴾: إنَّ السَّمَاءَ ذَاتَ الرَّجْعِ هي في أَقْوَىٰ الأمارات الهاديات للمتدبّر، الغلافُ الغازيُّ المحيطُ بالأرض، وكُلُّ مَدىً خاضِعٌ لجاذبيَّةِ الأَرْضِ حوْلَها، وقد عرفنا عدّة مرّات أنّ السَّماء تطلقُ لغة على كل ما ارتفع وعلا.

ونتساءل عن السَّبب الداعي لِوَصْفِ هذه السماء القريبة منا بأنَّها ذَاتُ الرَّجْعِ، أي: ذاتُ الإرْجَاع، من فعل: رَجَعَهُ يَرْجِعُهُ رَجْعاً.

■ وتجيبنا الظّاهرة المتكرّرة الّتي أدْركها الأقدمون، وهي ظاهرة تبخّر المياه وتصاعُدِها إلى طبقاتٍ ما من الغلاف الغازي حول الأرض، وهو الذي تتكوَّن منه السَّمَاءُ القريبةُ الملتصقة بها، ضمن سُنَنٍ وأسبابٍ مُحْكَمةٍ بقضاء الله وقَدَرِه، ويَرْجع إلى الأرض مطراً، ماءً حُلْواً، أو ثَلْجاً، أو بَرَداً، لسُقْيَا الناس والدواب، ولإحياء الأرض بالنباتات المختلفات، من البزور والجذور المنبثة فيها.

فهٰذه السَّمَاءُ القريبةُ ذَاتُ رَجْعٍ لما يَصْعَدُ إليها من الأرض من بخار الماء.

■ وكُلُّ النَّاسِ يُلاحِظُونَ أَنَّ أيّ شيءٍ يَصْعَدُ في هذه السماء القريبة من الأرض والملاصقة لها بِقُوَّةٍ مَا، دون أنْ يَنْفذ ويكونَ بعيداً عنها في الفضاء الكوني، فلا بُدَّ أنْ يَرْجِعَ إِلَىٰ الأرْض متَىٰ تلاشَتِ القوّةُ الّتي جعلته يصْعَدُ فيها، وقد عرف الباحثون العلميون سبب ذلك، منذ أدركُوا قانون الجاذبيّة بين الأشياء.

فهٰذِه السَّمَاءُ القريبةُ ذَاتُ رَجْعٍ لكُلّ ما يصعد فيها من الأرض، إذْ هو يَرْجِعُ إليها بقُوَّةِ جاذبيّةِ الأرض له، وعَدَمِ إمساكِ هذه السَّماءِ له، ما لم

تكن القُوَّةُ الدافعة عظيمةَ جدًّا إلى حدِّ إخراج المقذوف الصاعد من الغلاف الغازي كُلِّه، إلى الْفَرَاغِ الكوني بعيداً عن جاذبيَّة الأرض.

■ وذكر العلماءُ الكونيُّون أنَّ الأشعة الضوئية الّتي تلامِسُ الغلاف الغازيّ حول الأرض، والذي هو السماء القريبة الملاصقة لها، تنشطر إلى ثلاثة أقسام:

(١) فقِسْمٌ قليل يسمح هذا الغلاف بعُبُوره ومروره حتّى يَنْفُذَ منه، ويَصِل الى الأرض إذ فيه نفع وفائدة لِلأرْض ونباتاتها وسُكَّانها.

(٢) وقسم آخر يمتصُّه هذا الغلاف، ويستفيد منه حرارة نافعةً، يَصِلُ أثرها إلى الأرض بتصاريفَ مختلفةٍ، ومنها تحريك الرّياح.

(٣) وقسم ثالث تردُّه هذه السّماء، وتُرْجِعه، فلا تَسْمَحُ له بالمرور، ولا تمتصُّه.

وهذا القسم الذي ينالُه الرَّجْعُ قسْمٌ ضارٌ مؤذٍ، وإذا كثُرت نسبته أهْلَك سُكّانَ الأرض ونباتاتها.

وقد أحكم الخالق العظيم بقضائه وقَدَرِه صُنْعَ هذا الغلاف، لإرجاع المؤذيات والضَّارَاتِ من الأشِعَّةِ الكونية القادمة في اتّجاه الأرض إلى الْفَرَاغ الكوني.

وبهذا يَظْهَر لنا نوعٌ من الرَّجْعِ لم يَكُن معروفاً للناس، لَوْلاَ الدّرَاسَاتُ العلميَّة الإنسانيَّةُ الّتي أثْبَتَتْهُ.

فهي إذن ثلاث صُوَر من الرَّجْعِ الّذي تتّصفُ بِهِ السَّمَاءُ القريبة من الأرض، والملاصِقَةُ والمحيطةُ بها، وهو الغلاف الغازي حَوْلها.

■ رجع المطر.

■ ورجع كُلِّ ما يصْعَد من الأرض بقوّة زائدة على قوة جاذبيتها، إليها بعْدَ تلاشي أثر القوّة الدّافعة.

■ ورَجْعُ قِسْمِ الأشعة الكونيّةِ المؤذية والضارَّةِ بعدم السماح لها بالنفوذ في الغلاف الجوّيّ إلى الأرض.

وبهذا يظهر لنا أنّ من الحكمة البيانيّة الرّبّانيّة أنْ يُقْسِمَ رَبُّنا جلّ جلالُه بالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ، لأنَّ صِفَتَها هٰذِه تدلُّ على شمول علم الله كُلَّ شيء، وتدُلُّ على جليل حكْمَتِه، وعظيم قدرته وإتقانِه لخلْقه، وفَيْضِ إنعامه على عبادِهِ سُكَّانِ الأرْض.

وقد بدأ الناس يُفْسِدُونَ بما كَسبُوا هذا الغلاف الحافظ الواقي، ذا الرَّجْع.

الرَّجْعُ: مَصْدَرُ فِعْلِي: «رَجَعَ» اللاّزم، و «رجَعَ» المتعدّي.

تقولُ لغة: رَجَعَ هو يَرْجع، وتقول: رَجعتُه أَرْجِعُهُ، رَجْعاً ورُجوعاً وَرُجْعَىٰ وَرُجْعَاناً ومَرْجِعاً.

ويُقال في لُغَةِ هُذَيلٍ: أرجَعَهُ يُرْجِعُه.

● ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾:

الصَّدْع في اللُّغَة: الشَّقُّ في الشيء الصُّلْب، كالحجَرِ والحائط والزجاج. وكذلك الشَّقُّ في الأرض.

يُقَالُ لغة: صدَع الشَّيءَ يَصْدَعُهُ صَدْعاً، وصَدَّعَهُ تَصْدِيعاً. فانْصَدَعَ وتَصدَّعَ. أي: شقَّهُ فانْشَقّ.

ويُطْلَقُ الصَّدْعُ على نباتِ الأرض، لأنّه يَصْدَعُها، أي: يَشُقُّها لِيَخْرُجَ إلى النُّور والْهَوَاء، فهي تنصَدِعُ به.

ويقال تَصَدَّعَتِ الأرض بالنباتات، أي: تَشَقَّقَتْ.

ويُقْسِمُ اللّٰهُ عزّ وجلَّ: بالأرض ذات الصَّدْع، لأنَّها آيةٌ من آياتِه كالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجع.

يَنْزِلُ مَاءُ المطر، فيتَغَلْغَلُ في تراب الأرْض، فيَخْتَلِطُ به نَبَاتُ الأرض، فَيَصْدَعُها، ويَنْمو أَشْجَاراً ونباتاتٍ مختلفاتٍ، وثمراتٍ نافعاتٍ.

ولا أرى مانعاً من تعميم دلالة كلمة (الصَّدْع) ليشْمَلَ كُلَّ صَدْعٍ نافع، كالتّصَدُّعَاتِ البركانيّة، الّتي يكون بها إخراجُ بَعْضِ كُنُوزِ الأرض ومَعَادِنِها، ويكونُ بها إمْدَادُ قِشْرَةِ الأرض بعناصر جديدة فَقَدَتْها عَبْرَ القرون بما اسْتَهْلَكَتْهُ مِنْها النباتات المختلفات، وكالتَّصَدُّعَاتِ الّتي تَتَفَجَّرُ بها الْعُيُون والْيَنَابيع العظيمة التي تَجْري أنهاراً، وكالتصدّعات التي تَمْتَلِئُ بالمياه فتكون بحاراً أو بُحَيْرات، وكالتَّصَدُّعَاتِ التي تتفجّرُ مِنها ذائباتٌ تَدُلُّ أهل البحث العلمي على ما في باطن الأرض، ومِنْها تَصَدُّعَاتٌ تُشَقُّ بها طُرُقٌ بَرِّيَّةٌ وبَحْرِيَّةٌ للسَّالكين، وتَنْفَصِل بها قارَّات، إلى غير ذلك.

غيْرَ أنَّ المناسَبَةَ بيْنَ الْقَسَم بالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ، والْقَسَم بالأرض ذَاتِ الصَّدْع تُوجِّهُ النّظَر بالدرجة الأولى، للسُّقيا التي تحدُث بالرَّجْعِ الذي هو المطر الذي نَتَجَ عَنْ تَجمُّعِ بخار الماء سُحُباً، وللصَّدْع الذي يُحْدِثُه النبات في الأرض عند بُروزِه من باطن الأرض إلى سطحها.

وبَعْدَ الْقَسَم بهاتَيْنِ الظّاهِرَتين من آياتِ الله عزَّ وجلَّ في كونه، ذكَرَ الله جلَّ جلالُهُ الْمُقْسَمَ عليه، فقال تعالى:

● ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾﴾:

﴿إِنَّهُۥ﴾: الضمير يَعودُ على قول الله تعالى في الدرس الأول: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾ وقوله تعالى في الدرس الثاني: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ وبالأحْرَىٰ يَعُودُ على ما يُفْهَمُ مِنْهُما مِنْ أَنَّ الْبَعْثَ بَعْدَ الْموتِ وَالفناءِ حقٌّ، ليَوْمِ الدِّينِ الذي يَكُون به الْحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، والجزاءُ

بِالثَّوابِ أو بالعقاب، في الجنّة دار المتقين، أو في النار دارِ عذَابِ المجرمين الكافرين الأبديّ، وتَعْذِيب العصاة المذنِبينَ على مقَادِيرِ استِحْقَاقاتهم للجزاء بالعدل، لتطهيرهم قبل نَقْلِهِمْ إلى الجنَّةِ دار نعيم المؤمنين، إذا كَانُوا مؤمنين بالله.

﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴾: أصْلُ الْفصْل الْبُعْدُ بَيْنَ شيْئَين، والحاجِزُ بَيْنَ شيئَيْن، وقَطْعُ الشيء إلى شَيْئَيْنِ وإحْدَاثُ بُعْدٍ بينهما.

واسْتُعْمل الْفَصْلُ بمعنى القضاء والْحُكْم، ومنه: يَوْمُ الْفَصْل، أي: يَوْمُ الْفَصْلِ بَيْنَ العِبَاد، فالمتقونَ يُفْصَلُ بَيْنَهُمْ بحَسَبِ مراتبهم ودرجاتهم، ومُسْتَحِقُّوا الْعَذَابِ يُفْصَل بَيْنَهُمْ بحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ ودَرَكاتهم.

ويُقَالُ لُغَةً: فَصَلَ الأَمْرَ، أي: قضاه وأَبْرَمَهُ وَبَتَّهُ.

والآيات المفَصَّلاَتُ هِيَ ذَوَاتُ البياناتِ الكاشفاتِ لأجزاءِ الموضوع وعناصِره.

وإذا كانَ هذا القوْلُ فَصْلاً فَهُو بَيِّنٌ واضِحٌ، لَيْسَ بغامضٍ وَلا بملتبسٍ بغيره، وهو القولُ القاطع الفاصل الْمُبْرَم.

ولمّا كانت عبارة: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣﴾ رُبَّما تُحْمَلُ دَلاَلَتُها علَىٰ مُجَرَّدِ البيان والوضُوح وعدم الْتِبَاسِ المضمون الفكريّ بغيره، دُونَ الدّلاَلَة على جِدِّيَّة إرادة التَّنفِيذِ اقتضَتِ الحكمةُ البيانيَّةُ إثْبَاتَ أَنَّ هذا الْقَوْلَ ليْسَ بالْهَزْلِ فقال الله تعالى:

● ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ۝١٤﴾: أي: هُو جدٌّ وحقٌ، ولَيْسَ قولاً هَزْلِيًّا تَمْثِيلِيًّا، للتَّصْوِير الأَدَبِيّ، أو لمجرّد التخويف والإرهاب، دُونَ قَصْدِ وقُوع المضْمُونِ فِعْلاً.

الْهَزْل في اللّغة: ضِدُّ الجدّ، أي: فهٰذا القول جِدٌّ يُبَيِّنُ قضيَّةً حَقِيقيَّةً

سَوْفَ تَقَعُ حَتْماً لا مَحَالة، متىٰ حَانَ أجَلُ وقوعها المقرّر بقضاء اللَّهِ وقَدَرِه.

أمّا المناسبةُ بَيْنَ الْمُقْسَم به والْمُقْسَمِ عليه فَمِنْ وَجْهَيْن: لفظيّة ومعنوية:

● **أمّا اللّفظيّة**: فَمُلاَحَظَةٌ في كَلِمَةِ: ﴿ٱلرَّجۡعِ﴾ إذْ هِيَ مُنَاسِبَةٌ للمُقْسَم عليه وهو الرُّجوع إلى الحياة بَعْدَ الموت وفناءِ الأجساد. ومُلاَحظةٌ في كَلِمَةِ ﴿ٱلصَّدۡعِ﴾ وهو الشّقّ، إذ هو مُناسبٌ للمُقْسَم عليه، فالمبْعُوثون إلَىٰ يَوْمِ الدِّين تَتَشقَّقُ الأرضَ عنهم فيخْرُجُون سِرَاعاً قائمين، ويَنْبُتُونَ في الأرض كالنَّبَاتِ.

● **وأمّا المعنويّة**: فَمُلاَحَظَةٌ فيما يَتَضَمَّنُهُ إحْيَاءُ الأرض الميّتة بِمَا يَنْزِل من السماء من ماء، ومَا يكونُ لدى إحياء الموتى من إنباتِهم بماء خاصٍّ ينزل من السّماء إلى الأرض، ويُضَاف إلى هذا أنّ ذا الفكر البصير يقيس البعْثَ غير المشهود على إحياء النبات المتكرّر في عالَم الشهود، وهذه من الحجج القرآنيّة القويّةِ على البعث.

❁ ❁ ❁

(٨)
التدبّر التحليليّ للدرس الرابع من دروس السورة
وهو الآيات من (١٥ ـ ١٧)

قال الله عز وجلّ:

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾﴾.

هٰذَا هو الدرس الأخير من دُرُوس السورة. وهو يشتمل على بيان الموقف الذي وصل إليه كبراء مشركي مكة إبّان نزول هذه السورة، وهو

موقف الكَيْدِ الشديد ضدّ الرّسُول ﷺ، وضدّ رسالته، وضدّ الّذين آمَنُوا به واتبعوه.

ويشتمل على بيان التدبير الرَّبَّاني لاحباط كيْدِهم، وبيان الموقف الذي ينبغي للرسُول ﷺ أن يتّخذه هو والذين آمنوا به واتّبعوه في تلك المرحلة من تاريخ دعوته.

● ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾: الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ يَعُودُ على من اشتَمَلَتِ السُّورَةُ على تأكيد أنباء يوم الدّين لهم بالْقَسَم بآيَاتٍ من آياتِ اللَّهِ في كونهم، لأنَّهُمْ مُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّين، وقَدْ وَصَلُوا إِلَىٰ طَوْرِ اتّخاذِ المكَايد وتَدْبِيرِها، ضدَّ الرسُولِ ودَعْوَتِه وضِدَّ الّذين آمنوا به واتَّبَعُوه.

إنَّهُمْ لَمْ يُذْكَرُوا في السُّورَةِ صَراحَةً، لَكِنَّ آياتِهَا ظَاهِرَةٌ في الدَّلاَلَة عليهم.

ومن الذي يُدَبِّرُ المكايِدَ ضِدَّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِهِ غَيْرُ الكافرين بالرَّسُول ورسالته، والمكذبين بنَبَأِ يَوْمِ الدِّين وما فيه، وهُمْ أئمة الكفر والشِّرْكِ في مكّة إبّان نزول السّورة؟!

إنّ الطّوْر الذي وصل إليه هؤلاء هو العمل المتتابع في تَدْبير المكايد الّتي يَسْتَطِيعُونَ إعدادها، بَعْدَ أَنْ يَئِسُوا من إيقاف امتداد دعوة الرّسُولِ ﷺ، وإيقاف انتشار الإسلام، وتكاثُرِ الداخلين فيه بإيمان صادق، بالوسائل الخفيفة الدعائيّة والتنفيرية من الاستجابة لدعوته، والاضطهاديَّة لضعفاء المؤمنين، وبوسائل الاستهزاء والسُّخْرِيَّة، والاتهامات الباطلات، وصناعَةِ الأكاذيب.

الكَيْدُ فِي اللُّغَة: يُسْتَعْمَل للدلالة على التدبير الخفيّ أو الظاهر، بحقٍّ أو بباطل، وفيه مَكْرُوه لِمَنْ دُبِّرَ ضِدَّه. وللدَّلالة عَلَىٰ الْحَرْبِ وإعْداد وسائلها. وللدّلالة على الاحتيال والاجتهاد. وللدَّلالَةِ على كُلِّ تَدْبِيرٍ يُحَقِّقُ لِصَاحِبِهِ النَّصْرَ أو النَّجاة.

فمادَّة كَادَ يكِيدُ كيْداً تَدُورُ حَوْل اتّخاذ أَعْمَالٍ وَتَدْبيراتٍ تُوقِعُ الْمَقْصُودِين بالكيد بما يكْرَهون، حتَّىٰ الهلاك.

ويَكُونُ الكَيْدُ في الشّرّ، مثل كَيْدِ الكافِرينَ ضِدَّ الحقّ وضِدَّ الّذين آمنوا به. ويكون في الخير، مثل كَيْدِ المؤمنِينَ لإحباط مكايدِ الْكافِرين، وردِّ سِهَامِهِمْ إلى نحورهم.

ومن الكيد في الخير كَيْدُ الرَّبّ جلّ جلاله، لِنُصْرَةِ رسُوله، ونُصْرَةِ المؤمنين، ونُصْرَةِ دِينه، وإعْلاءِ كَلِمَتِه في الأَرْض.

إنّ الكافرين يَكِيدُونَ في الشّرّ، لأنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بمكايدهم لإدْحَاضِ الحقّ، وإقامة الباطل في الأرض.

وإنّ المؤمنين يَكيدُونَ في الخير، لأنَّهُمْ يَعْمَلُونَ بمكايِدهم الشريفة، لإحقاق الحقّ ونُصْرَته، وإبطال الباطل وإزهاقه.

ودَلَّ فعل المضارع ﴿يَكِيدُونَ﴾ على أنّ قَادَةَ مشركي مكّة إبَّانَ نُزُول السُّورة، كانُوا يَعْمَلُون بَحرَكَةٍ تَتَابُعِيَّةٍ في تدبير المكايد العظيمة ضدّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِه، ففِعْلُ المضارع يَدُلُّ على التجدُّد والْعَمَلِ المتتابع، وَجاء تأكيده بالمصْدَرِ الّذي هو مفعولٌ مُطْلَقٌ، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ للدَّلاَلَةِ على عِظَمِ الكيد الّذي يَكِيدُونه، أي: يَكِيدونَ كَيْداً كثيراً وعظيماً وَذَا خَطَرٍ كبير.

وأبَانَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنَّ هذا الطَّوْرَ الّذي وَصَلَ إليه قادَةُ أَهْلِ الكُفْرِ والشِّرْك في مَكَّة، يُحْبِطُه اللَّهُ بكَيْدٍ متتابعٍ يَجْعَلُه مَرْدُوداً عَلَىٰ مُدَبِّرِيه، فقال تبارَكَ وتَعَالَى:

● ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾: ومَعْلُومٌ بالبداهَةِ أنَّ كيْد الله غالِبٌ ومَحْبِطُ كَيْدَ الْكَافِرِينَ، أي: وَأَكِيدُ عَلىٰ سَبِيلِ التَّتابُع كَيْداً أُحْبِطُ بِهِ وأفْسِدُ كَيْدَ الْكَفِرِينَ، أعداءِ رسُولي والّذِينَ آمَنُوا به واتبعوه، وأعداء ديني الذي حمَّلْتُ رَسُولي والذي آمنوا به أعْبَاءَ تبليغه للناس، فَأَنَا أتابع كلَّ حركةِ كَيدٍ شديد منهم بكَيْدٍ شَدِيدٍ غالب له.

والْغَرَضُ مِنْ هذا البيانِ طَمْأَنَةُ الرَّسُولِ والذين آمَنُوا بِهِ، بأنَّ اللَّهَ وَلِيُّهُمْ وَنَاصِرُهم وَمُحْبِطُ مَكَايِد أعدائِهِمْ، وإلْقَاءُ الْوَهْنِ والضَّعْفِ في قُلُوب أئمَّةِ المشركينَ وأنصارِهم وجُنُودِهم، إذْ لاَ بُدَّ أنْ يُؤَثِّر في أعْمَاقِ قُلُوبهم أنَّ اللَّهَ خَاذِلُهُمْ، ومُحْبِط مكايِدهم، نظراً إلى أَنَّ كُفْرَهُمْ كُفْرٌ عِنَادِيٌّ جُحُودِيٌّ، ولَيْسَ كُفْرَ مَنْ يُؤْمِنُ بأنَّهُ علَىٰ حَقٍّ، فقد عَلِمُوا بأنّهم على باطل، ولكنَّهُمْ مُصِرُّون على باطلهم اتّباعاً لأهوائهم وشهواتهم، وإيثاراً للحياة الدنيا وما فيها.

فهم إذَنْ يُدْرِكُونَ من هٰذه العبارة معنى التَّهديد والْوَعِيد بأنّهم مَغْلُوبُون.

ودلَّ قول الله عزّ وجل: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ في مُقَابلِ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ على أنّه جَلَّتْ حِكْمَتُه يُعَامِلُ عبادَه في حياة الابْتِلاء هٰذه التي يَعيشُونها ضِمْنَ قانُونِ قُدْرَاتِهم الممنُوحَاتِ لَهُمْ في الحياة الدُّنيا، ولا يُعَامِلُهُمْ بمُقْتَضَىٰ قُدْرَتِه الكليّة.

إنَّ قُدْرَة اللَّهِ الكليَّةَ، لاَ تَحْتَاجُ منه تبارَكَ وتَعَالَىٰ أَنْ يَكيد كَيْداً كبيراً، ضدّ كيد أعداء رسُولِه ودينه وأوليائه المؤمنين، إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يَقُولَ لَهُ: «كُنْ» فَهُو «يَكُون» بأمْرِ التكوين، ولو كَانَ أمْرُ التكوين مُوَجّهاً لِخَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأَرْض، أو لإزالتهما من الوجود.

لكِنَّ للَّهِ عزّ وجلَّ سُنَناً في كونه يُعَامِلُ عبادَهُ بمقتضاها، وهم في حياة الابْتِلاء.

فَيُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِين ويُحْبِطُهُ بمُقْتَضَاها، ويَكيدُ لصالح أوليائه وأنصاره وأحْبَابه بمقتضَاهَا، ويَنْصُرُهم بمُقْتَضَاهَا، ولا يَتَدَخَّلُ بالخوارِق العظمىٰ إلاَّ نادِراً، وبِقَدْرٍ مَحْدُودٍ.

وحين أَيَّدَ اللَّهُ المؤمنين في غَزْوَةِ بَدْرٍ بألاَفٍ من الملائكة، أبَانَ جلَّ جَلاَلَهُ أنَّهُ لم يَجْعَلْ ذَلِكَ إلاَّ بُشْرَىٰ لهم، ولتطمئِنَّ قُلُوبهم به، وليقْطَع طَرَفاً

من الّذِينَ كَفَرُوا، أوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبين، ولَمْ يُعْطِ اللَّهُ الْمَلاَئِكَةَ صَلاحِيَّةً أكْثَرَ من ذَلِكَ، ولَوْ أعْطَاهم لأبادُوا الكافِرين بأقْصَرِ زمَنٍ، فقالَ اللَّهُ عزّ وجلَّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) في معرض الحديث عن الملائكة الّذين أمَدَّ الله بهم المؤمنين في بدر، وخطاباً للمؤمنين:

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾.

وبعد أن طَمْأَنَ اللَّهُ رَسُولَهُ والذين آمنوا به واتَّبَعوه بأنّهم مؤيَّدُون بِنَصْرِه، أمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ ويُلْحِقُ به الّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتّبَعوه، بأنْ يُمَهِّلَ الْكَافِرِين فلا يقاوِمَهم، ولا يحارِبَهم، ولا يتّخِذَ الوسائل لمقاومتهم ومحاربتهم، بل يَصْبِر ولْيَضْبط نَفْسه، حتَّى يأذن اللَّهُ له، ومن خلال سلاسِل الأحداثِ، يَكْتَسِبُ المؤمِنُون خِبْرَاتٍ بشَأْنِ المراحِلِ الّتِي تَرْتَقِي فيها تَدْبيراتُهم، للْوُصُول إلى مرحلة المواجهة الحربيَّة الظافرة، ضمن الأنظمة السَّبَبِيَّة، لأطوار المجتمعات الْبَشَرِيَّة.

فقال اللَّهُ عزَّ وجلّ خِطَاباً لِرَسُولِه:

● ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾:

مَهِّلْ وأمْهِلْ: أنْظِرْ، وتَرَفَّقْ، وأجِّلْ. أي فأنْظِرِ الكافِرِينَ، وتَرَفَّقْ بهم، وأَجِّلْهُمْ.

جاء توجيه الأَمْرِ بالإنظار والترفُّق والتأجيل بالفعل المضَفَّفِ والفِعْل المهموز، توكيداً وتحْذِيراً من المخالفة.

رُوَيْداً: بمعنى أمْهِلْ، وفي هذِهِ العِبَارة زيادةٌ في التوكيد والتحذيرِ من المخالفة.

ثلاثُ عِبَارَاتٍ مُتَتابِعَاتٍ والمعنى واحد، وفي ظَنّي أنّنا لاَ نَجِدُ في القرآن المجيد تأكيداً على أَمْرٍ واحِدٍ مثلَ هذا التأكيد الّذي يوحي بالتحذير من المخالفة، والغرضُ تحذيرُ المؤمنين من التَّعَجُّل في اتّخاذ وسائلَ

انتقاميَّةٍ، توقعُهُمْ في ورطاتٍ يكُونُونَ فيها من الفاشلين، أو الخائبين، وإلزامهم بالصّبر، انتظاراً لما يقضيه الله من أمر، فالوقت إبّان نزول السُّورة لا يَصِحُّ فيه القيام بمواجهاتٍ انتقاميَّة، إذِ المسلمون يَوْمَئِذٍ لاَ يَمْلِكُونَ من سُنَن الأَسْباب القدرات الكافيات لمواجهة قُوىٰ مشركي مكة، وخَوْضُ المسلمين حِينئِذٍ معارك قتالية معهم عَمَلِيَّة انتحاريَّة لم يأذن الله بها.

كلمة ﴿رُوَيْدًا﴾ هي مُصَغَّر «إِرْواد» مصدر فعلِ «أَرْوَد يُرْوِدُ إِرْوَاداً» وهو بمعنى «أَمْهَلَ».

فكلمة ﴿رُوَيْدًا﴾ بمعنى «أَمْهِلْ» وهي مفعولٌ مطلقٌ لفعل محذوف تقديرُه: أَرْوِدْ رُوَيداً، أي: أَمْهِلْ إمْهَالاً.

تقول: رُوَيداً بَكْراً، أي: أَمْهِلْ بَكْراً إمْهالاً. صَغَّرُوا الْمَصْدَرَ بعد حَذْفِ زَوَائِدِه، وأقامُوهُ مقام فِعْلِه.

بهذه الآية تنتهي السورة:

﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

فما أعجب هذا الإلْزَامَ بالصَّبرِ على الكافرين، وإنظارِهم والترفُّق بهم، وعَدَمِ اتّخاذ وسائِلِ عُنْفٍ وشدَّةٍ وانتقامٍ معهم، على الرُّغْمِ من شِدَّة أذاهم ومُعَاداتِهِم للرسول ودعوته، واضطهادهم لضُعَفَاء المؤمنين.

إنَّ حكمة الله عزَّ وجلَّ قَضَتْ بأن لا تكون عُمْدَةُ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ على الخوارق والمعجزات، وإنّما شَاءَتْ حِكْمَتُه أن تكون عُمْدَتُهم على الأسباب الكونيَّة الخاضِعَةِ لسُنَنِ اللَّهِ الدّائمة، المَصْحُوبَةِ بالمعونات المحدُودَات التي يَجْعَلُها اللَّهُ للمؤمنين بمقتضىٰ هٰذِه السُّنَن، وأعطىٰ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الّذين آمنوا الوعْدَ بأنْ يُمِدَّهُمْ بها.

وقَدْ تَمَّ تَدَبُّر السُّورة بما فتح الله به،
وبما أَمَدَّ من معونة وتوفيق.

❁ ❁ ❁

ملاحق لسورة الطارق

الملحق الأوّل: مستخرجات بلاغية من السُّورة.

الملحق الثاني: حول بَيَانِ بعْضِ أَطْوار خَلْقِ الإنسانِ في القرآن.

الملحق الثالث: حول كون الإنسان مُرَاقَباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر.

الملحق الرابع: حول كلمة يوم في القرآن مراداً بها يومُ الحياة الأخرى.

(٩)
الملحق الأول
مستخرجات بلاغيّة من السّورة

في سورة (الطارق) اختيارات بلاغية عَدِيدَة أذكر منها ما يلي:

(١) الْقَسَمُ بآيات رَبَّانيَّةٍ مشْهُودَة على حقيقة غَيْبيَّة خَبريّة غَيْرِ مُشْهُودة لتَوْكيدها، وهذا في الآيات من (١ ـ ٤).

والْقَسَمُ بآيَات رَبَّانِيَّةٍ مَشْهُودَةٍ، لتَوْكيد أنَّ نَبأَ يَوْمِ الدِّين للحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء، حقٌّ وصِدْقٌ، وجِدٌّ لا هَزْل فيه ولاَ عَبَث ولاَ تَهْوِيل، وهذا في الآيات من (١١ ـ ١٤).

والمقصودُونَ بإيراد كُلٍّ من الْقَسَمَيْن، الكافِرُونَ والشَّاكُّون بحقائق يوم الدّين، وما يقتضيه ذلك اليوم من مُرَاقَبةٍ وتسجيلٍ غَيْبِيَّيْن في الحياة الدّنيا.

(٢) إيرادُ دليل الحسِّ ذي اللَّوَازِم العقليَّةِ القطعيّة، التي تُثْبت صِدْق الخبر، وهو ما يُسَمَّىٰ عند علماء البديع «الـمذْهَب الْكَلاَمِيّ» أي: على طريقة علماء الكلام في إيراد الأدلَّة والبراهين العقليَّة، لإثبات قضاياهم.

وهذا في الآيات من (٥ ـ ٨).

(٣) التوكيد بأدوات التوكيد وأساليبه في اللّغة العربية:

أ ـ بالنفي والاستثناء المفيدين للتوكيد والحصر، في ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾﴾: أي: ما كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عليها حَافظ.

ب ـ بالمؤكّدات: (إنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللاّم المزحلقة) في: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ وفي: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾.

وبالمؤكّدات: (إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ والْمَفْعُول المطلق) في: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾.

جـ ـ التوكيد مع التَّنْصِيصِ على العموم الشامل، بحَرْف الجرّ الزائد «مِنْ» في: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾.

د ـ التوكيد بعبارات متتابعاتٍ ذواتِ دلالَةٍ واحدة في: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

(٤) الإيجاز بالحذف في: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾﴾:

والتقدير: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾ وَإِنَّهُ لمبعوثٌ إلَىٰ الحياة بَعْدَ مَوْتِه وفناءِ جَسَدِه للحساب، وفَصْلِ القضاء وتَنفيذ الجزاء ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ﴾ يَوْمَ يُقْضَىٰ عليه بالعذاب ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ تَدْفَعُ عَنْهُ شيئاً من قضاء اللَّهِ وَتَنْفِيذِه ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يَنْصُرُهُ بأيِّ شَيْءٍ، فيخفف عنه شيئاً من القضاء، أو من الجزاء.

❊ ❊ ❊

(١٠)
الملحق الثاني
حول بيان بعضِ أطْوارِ خَلْقِ الإنسانِ في القرآن

ضِمْن مَنْهجِ القرآن في تجزئة الأفكار حول موضوع واحد، وتوزيع البيانَاتِ حوْلَها على نُصوص متعدِّدةٍ منه، أتابعُ تدبُّر النُّصوص الواردة بشأن توجيه الفكر للنَّظَر في أطوار خَلْقِ الإنسان في القرآن.

النصّ الأوّل:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) مُبَيِّناً ما جاء في صُحُفِ مُوسَى وإبْرَاهِيمَ الَّذِي وفَّىٰ، بشأْنِ خلْق الزَّوْجَيْنِ الذَّكرِ والأُنْثَىٰ، من نُطْفَةِ الرَّجُلِ إذا قَذَفَهَا سالكةً طريقَها إلى رحِمِ المرْأة:

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾:

فأَوْرَدَ اللَّهُ عزَّ وجلّ هٰذا البيانَ حِكَايَةً لمَا سَبَقَ أَنْ أَنْزَلَهُ في صُحُفِ إبراهيمَ وموسَىٰ عليهما السلام.

وفي هذا البيان توجيه للتفكُّر في قَضِيَّةٍ واحدة من قضايا الْخَلْقِ الرَّبَّاني من أطوار خَلْق الإنسان، وهي أنَّ الذكر والأُنْثَىٰ من المواليد يتَكَوَّنَانِ من نُطْفَةِ الرَّجل، بَعْدَ أَنْ تُمْنَىٰ في مهْبَلِ المرأةِ، إذ تأخذ النطفة طريقها للقاحِ البُيَيْضَةِ التي يخرجها مَبِيض المرأة بعد الانتهاء من الدورة الشهريَّة، وفي الأواسط ما بين بَدْءِ الحيْضِ حتَّى آخر مُدَّةِ الطُّهر.

وهذه حقيقة أثبتها العلم المعاصر، فنُطْفَةُ الرَّجُلِ هي الحاملة للقاحات الذكورة والأنوثة، وبُيَيْضَةُ المرأةِ حياديَّة، صالحة لاستقبال لِقَاحِ الذَّكر من نطفةِ الرَّجل، أو لِقَاحِ الأنثى، وهذا اللِّقَاحُ حُيَيْوِينٌ صَغِيرٌ جدًّا، مُذَكَّرٌ أَوْ مُؤَنَّث.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القيامة/ ٧٥ مصحف/ ٣١ نزول):

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

فجاء فيه بَيانُ أنّ الإنسان مخلوقٌ من مَنِيٍّ يُمْنَىٰ، وبعْدَه يُطوّرُهُ اللَّهُ

إلىٰ عَلَقَةٍ فَخَلْقٍ سَوِي، وأنّ مَنِيَّ الذَّكَرِ يَخْلُقُ الله منهُ الذَّكَرَ والأُنْثَىٰ، بأسلُوبِ الاستفهام لانتزاع الجواب من المقصود بالخطاب، ولإقناعه بأنّ يَوْمَ الدين حقٌّ، إذْ إنكارُه قائم على استبعاد الإحياء بعْدَ الإماتة والإفْناءِ، لكنّ الدَّلِيلَ العقليَّ يُثْبتُ أنَّ الّذِي بدأ خَلْقَ الإنْسَانِ من مَنِيٍّ يُمْنَىٰ قَادِرٌ علىٰ أنْ يُحْيِيَ الموتَىٰ.

وأضافَ البيانُ هُنَا أنَّ هٰذهِ النُّطفة مَرَّتْ عَلَيْها مُدَّةٌ بَعْدَ التلقيح فَكَانَتْ عَلَقَةً، فتبِعَها خَلْقٌ فتَسْوِيَة. وأكَّدَ أنَّ خلْقَ الذَّكر والأُنْثىٰ يكون من النُّطْفَة الّتي يَقْذِفُها الذكر.

النّصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) خطاباً للناس:

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

فأضاف هذا النّصّ أنَّ النطفة الْحَاوِيَة لِلّقَاحِ مَوْجودة ضمْن مَاءٍ مَهِينٍ، أي: ضِمْنَ ماءٍ قليلٍ حَقِيرٍ ضعيفٍ.

وأضاف أيْضاً من أجزاء الموضوع أنّ الله عزّ وجلّ جعَلَهُ في قرارٍ مَكينٍ، إلَىٰ قَدَرٍ مُحَدَّدٍ في خُطَّةِ التكوين، أي: جعله بعد اللّقاح عَالِقاً في مكان استقرارٍ ملائم لحفظه في رَحِمِ الأمّ، حَتَّىٰ يَسْتَكْمِلَ نُضْجَه، ويولَدَ طِفْلاً مُسْتَوْفياً كَامِلَ شُرُوط الحياة على الأرض.

كُلُّ ذٰلِكَ ضِمْنَ مقَادِيرَ تَشْمَلُ كُلَّ شَيْءٍ يَتَعَلَّقُ به.

أمَّا الْغَرَضُ الدينيُّ من هذا البيان حول الواقع التكويني، فَهُوَ ربْطُ الظَّاهِرَاتِ الكونية بدَلاَلاَتها الهاديات إلى صفات اللّٰهِ الجليلة، والهادياتِ

أيضاً إلىٰ أنَّ الخالِقَ الَّذِي قَدَرَ على خَلْقِهَا دُون مثالٍ سَبَقَ، قادِرٌ على خَلْقِ أمثالِها، وقادِرٌ على إعادتها إلى الوجود بَعْدَ العدم، وعلى إعادتها إلى الحياة بعْدَ إماتتها وإفنائها، وبذلك تندفع أوْهَامُ المكذِّبين بيَوْمِ الدّين، إذا كان تكذيبُهُم قائماً على شُبَهات.

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) خطاباً للإنسان المكذّب بيَوْمِ الدّين استبعاداً لقضيَّة الإحياء بَعْدَ الموت:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾﴾.

فأضاف هذا البيانُ وصْفَيْنِ لِلْمَاءِ الَّذِي يَخْلُقُ اللَّهُ مِنْهُ الإنسان:

الوصف الأول: أنَّهُ مَاءٌ دَافِقٌ، أي: يَخْرُجُ دَفْقاً، على طريقَةِ الْقَذْفِ الْمَوجِيِّ المتَدَافع، لا على طريقة السَّيلان، ولا على طَرِيقة الرَّشْح.

الوصف الثاني: أنَّهُ يَخْرج من بين الصلب والترائب.

وقد سبق خلال تدبّر هذه السورة شَرْحُ هٰذه الحقيقة العلمية الَّتي أثبتَتْها الدراسات العلميّة المعاصرة، فأبانت التطابق بين البيان القرآني، والحقائق العلميَّة حول هذا الموضوع.

وقد جاء أسْلُوبُ البيان في هذا النّصّ على طريقة الأمْر الجازم الحازم، بالنظر في هذه الظاهرة من ظواهر الخلْق: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ والمرادُ النَّظَرُ التفكُّرِيُّ، بعد أنْ تَدرَّجَ البيان، من مُجرَّدِ الخبر حكايةً لما أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ في الكتب السابقة، إلى لَفْتِ النظر بطَرِيقَةِ الاسْتِفْهَام الرَّقيق دُون مُوَاجهة: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ فإلى الشَّدِّ إلىٰ التأمُّلِ في هٰذِهِ الظَاهِرَة، بطَرِيقةِ الاسْتِفْهَام الْعَنِيفِ الذي فيه معنى التلويم، مع المواجَهَةِ بالخطاب: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول) خطاباً للمكذبين للرَّسُول ﷺ، والمكذبين بيوم الدين، بَعْدَ تقديم مَشْهَدٍ مُقْتَطَعٍ من مشاهد عذابهم في الجحيم يوم الدّين:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

فأضاف هذا النّصُّ أنَّ المنِيَّ الَّذِي يُمْنِيه النَّاسُ شهوةً، وتُخْلَقُ منه السُّلالاَتُ البشرِيَّة، لاَ يَخْلُقُ الناسُ منه شيئاً، بل اللَّهُ عزَّ وجلَّ هو الخالق له.

وفي التوجيه الاستفهاميّ في هذا النّصّ معنَىٰ التوبيخ والتقريع، ومعنى التعجيز والتحدّي.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (السّجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول) متحدّثاً عن بعض صفاته جلَّ جلاله، وبعض ظواهر خلقه:

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

جاء هذا النَّصُّ خِتاماً للنصوص القرآنيَّةِ التي تحدَّثَتْ عن بعض أطوار خَلْقِ الإنسان، بَعْدَ أنْ وَصَلَ الْبَيان القرآنِيُّ إلى ذِرْوَة الإقناعِ الكلاميِّ الحارِّ العنيف، فكان من الحكمة خَتْمُ الموضوع ببيانٍ خَبَرِيٍّ هادِئٍ بارِدٍ شَبِيهٍ بالبيان الذي بدأت به النُّصوص بحَسَب تَرْتيبِ النُّزُول.

وأضاف هذا النصُّ بيان أَنَّ الجرْثُومَةَ الصُّغْرىٰ التي يُنْشِئُ الله عزّ وجلَّ

الإنسانَ منها، بَعْدَ أن بَدأ خَلْقَ الإنسانِ الأول من طين (ماءٍ وَتراب) وبعد أن خَلَقَ مِنْهُ زَوْجَه، يَسْتَلُّهَا اللَّهُ جلَّ جلالُهُ اسْتِلالاً مِنْ مَاءٍ مَهِين.

أي: تُنْزَعُ انْتِزَاعاً بِرِفْقٍ من ماءٍ مَهِينٍ، هو النطفة المنَوِيَّة.

وأيُّ رِفْقٍ عَجيب هذا الرِّفْقُ الَّذِي يُنْتزعُ بِهِ الْحُيَيْوينُ المنَوِيُّ، الملَقِّحُ لبُيَيْضَةِ الأنْثىٰ من داخل النطفة، وتُتْرَكُ نُظَرَاؤه التي قد تَصِلُ أعدادُها إلى نحو مئتي مليون.

ما أعجب صُنْعَ اللَّهِ العليم الحكيم القدير؟! وما أدَقَّ بياناته التكامُلِيَّة وَأحْكَمها؟!

وبهذا تَمَّ عِقْدُ الموضوع وإقفالُه عند نُقْطَةٍ هادِئَةٍ مِثْلِ النُّقْطَة الَّتي بدَأَ بها.

هذه النصوص كلُّها تَدُور حول حلْقةٍ وسْطَىٰ من سلسلة الأطوار الَّتي يمُرُّ بها خَلْقُ الإنسان مَرْحَلةً فَمَرْحَلَة، وهذه الحلقة قد سبقتها حلقات، ويأتي بَعْدَها حلَقات، وقد جاء في القرآن بيانات موزَّعَاتٌ فيه حول معالَم بارِزَةٍ منها، وطُوِيَتْ أطوارٌ خفيَّةٌ على الناس تقع بينها، اكتفاءً بذِكْر الظَّاهرات، لأنَّ الفكْرَ العلميَّ يسْتطيع استدعاء بعض ما لم يُذْكَرْ صَراحة، ثم يَكُونُ للبحث العلميّ التجريبي أدوارٌ مُهِمَّة في اكتشاف عجائبِ صُنْعِ اللَّهِ عزّ وجلّ، في الأطوار الخفيَّة الَّتي يحتاج اكتشافُها إلى أجهزة وأدواتٍ ووسائلَ، لا يَصِلُ النَّاسُ إليها إلاّ بعد تطوُّراتٍ حضاريَّةٍ واسعة، في أحقاب زَمَنِيَّةٍ متعدّدة.

ومن المعالم البارزة التي جاءت في القرآن موزَّعةً حول أطوار خلْقِ الإنسان المعالم التالية:

الْمَعْلَمُ الأول:

خَلْقُ الإنسان وكلِّ دابَّةٍ على الأرض من ماء، دلَّ على هذا الْمَعْلَم قول الله عزّ وجل في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول):

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

الْمَعْلَم الثاني:

خَلْقُ الإنسان من تراب، دلَّ على هذا المعْلم قول الله عزَّ وجلَّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

الْمَعْلَمْ الثالث:

خَلْقُ الإنسان من طينٍ، أي: من مزيج من ماءٍ وتراب، دَلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

المعلم الرابع:

مَرْحَلَةُ الطِّينِ اللاَّزِبِ، أي: الطِّين اللَّزِج اللاَّصِق، دلَّ على هذا المعلم قولُ الله عزّ وجلَّ في سورة (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿... إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾.

المعْلَمُ الخامس:

مَرْحَلَةُ الْحَمأ المسْنُون، الّذي أخذ يتحوَّل إلى صَلْصَالٍ، دَلَّ على هذا المعلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾.

الْحَمأ: هو الطِّينُ الأَسْوَدُ الْمُنْتِن.

الْمسْنُون: أي: المصَوّر المصقول المملّس.

الصَّلْصَال: الطين اليابس الذي إذَا نُقِرَ بشيْءٍ أعطىٰ صَوْتاً فيه تَرْجيع.

المعْلَمُ السّادِس:

مرحلة الصَّلْصَالِ الذي صَارَ كالفخَّار، دلَّ على هذا المعلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾.

المعلم السابع:

مرحلة ظهور الإنسان الأوّل الذي خلقَ الله عزّ وجلّ منه زَوْجه، دلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً... ﴿١﴾﴾.

المعلم الثامن:

مرحلة التغذية من نبات الأرْض، دلَّ على هذا المعْلَم قول اللَّهِ عزّ وجل في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

المعلم التاسع:

مرحلة النُّطْفةِ الأمْشَاج، أي: ذاتِ العناصر المختلفة المختلطة، دلَّ على هذا المعْلَم قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

المعْلَمُ العاشر:

مرحَلَةُ الماءِ الدافق الذي يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْب والترائب، دلّ على هذا المعْلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾.

وقد سبق شرح هذا النصّ باستِفَاضَةٍ لدى تدبُّر السّورة.

المعْلَمُ الحادي عشر:

مرحلة تَحْدِيد الذّكُورَةِ والأُنوثَةِ عِنْدَ اللّقاح، دلَّ على هذا المَعْلَمِ قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾.

وقد سبق تدبُّر هذا النّص، وتحليلُ ما جاء فيه، وما دَلَّ عليه من دَلالات.

المعْلَمُ الثاني عشر:

مَرْحلة العلقة في بطْنِ الأمّ، دلَّ على هذا المعْلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول):

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾.

المعلَمُ الثالث عشر:

ظَاهِرَة التقدير الحكيم تكْويناً مِنَ النُّطْفَة، دلَّ على هذا المعْلَم قول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

المعَلَمُ الرابع عشر:

مَرْحلة جعْلِهِ في رَحِمِ أُمِّهِ في قَرَارٍ مَكِينٍ إلى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، دَلَّ على هذا المعْلَم قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سُورة (المرسَلاتِ/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ (٢٠) فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (٢١) إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢٢) فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ (٢٣)﴾.

المعلم الخامس عشر:

ظاهرة تَحْسِين صُورةِ الإِنْسان، وجَعْلِ كُلّ فَرْدٍ بصُورَةٍ مُتميِّزَة، دلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجلّ في سورة (التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣)﴾.

المعْلَم السادس عشر:

ظاهرة المضغة المخلّقَةِ وَغيْرِ المخلّقَة، مع بيان الفواصل الزمنيّة المتراخيَة بين بعض المراحل البارزة من خَلْقِ الإنسان، ومرحلة الطفولة، ومرحلة الرّدّ إلى أرذل الْعُمر، دلّ على هذه المراحل قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ (٥)﴾.

وأضافت سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) مرحلَة الشَّيْخوخة بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

وجاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بيانٌ يُشِير إلى أطوار الشيخوخة وما بَعْدَها حتى أرْذَل العمر، فقال الله عزّ وَجلَّ فيها:

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

نُنَكِّسْهُ: أي: نَجْعَلْهُ متنازلاً شيئاً فَشيئاً حتى يكون أَعْلاه هابطاً إلى مستوى أسفله، على عكْس نَشْأتِه الأُولى، إذْ يكونُ فيها مُتصاعداً شيئاً فشيئاً حتَّى يبْلُغ أشُدَّه.

المعْلَمُ السابع عشر:

ظَاهِرَة الترتيب مع التراخي النِّسْبيّ أو مع التعقيب النسبيّ، بين آخر بعْضِ المراحل السابقة وأوَّل تالِيَاتِها، مع إضافة ذكر معالم لم تذكر في نُصُوصٍ أخرىٰ، جاء هذا في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

السُّلاَلَة: ما استُلَّ مِنَ الشَّيْء وانْتُزِعَ برِفْق، كانْتِزاع الشَّعْرَةِ من العجين اللّيّن الطَّرِي. وهكذا تُسْتَلّ أغْذِية النباتات من الطين، وعناصر بناءِ الأجساد من الأَغذية، وعناصر النطفة المنويّة من الْجَسَد.

الْعَلَقة: قِطْعَةٌ من الدَّم الغليظ المتماسك.

المعْلَمُ الثامن عشر:

ظاهرة جعل الإنسان في أحْسَنِ تَقْويم، دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (التين/ ٩٥ مصحف/ ٢٨ نزول):

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

المعْلَم التاسع عشر:

تَسْوِيَة الإنْسَان، ونفخُ الرُّوح فيه، وخَلْقُ سمعه وبَصَرِه وفُؤاده، دل على هذه الأمور قول الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

المعْلَمُ العشرون:

بَيَانُ أَنَّ الأَطْوَار الّتي يَمُرُّ بها خَلْقُ الإنْسَان إنَّما تَتِمُّ بِعَمَلِيَّاتِ خَلْقٍ متتابع لا بِالتِّلْقائيَّةِ السَّبَبِيَّة. مع التنبيه على الظلُمات الثلاث التي يكُونُ فيها الجنينُ وهو في بَطْنِ أُمّه، دلَّ على هذه الحقائق قولُ الله عزَّ وجل في سورة (الزّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿... يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

المعلم الحادي والعشرون:

ظاهرة الفرق الشاسع بين طَوْرَين متباعِدَيْن: النُّطْفَة، والخصيم المبينِ المعبّر عمّا في نَفْسِه، دلّ على هذه الظاهر قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾﴾.

الخصيم: المخاصم المجادل المنازع لنفسه أو لغيره بحقٍّ أو بباطل في خصومة بين فريقين.

المعْلَم الثاني والعشرون:

آيَةُ التزاوُج بين الذكُور والإناث، دلَّ على هذا المعلم قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

وبعد ذكر هذه المعالم الدّالّة على خَلْق الإنسان ضمن سِلْسِلَة أطوار، يحتَاجُ شَرْحها إلى سِفْرٍ كامل، أقول:

لَقَدْ كان نوحٌ عليه السَّلامُ حكيماً فيلسوفاً إذْ قال لقومه كما جاء في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول):

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: مَا لَكُمْ لاَ تخافُونَ عظمة الله، ولا تَتَرقَّبُونَ عَدْلَهُ وَعقابَهُ الحكيم، إذَا أنْتُمْ أصْرَرْتُمْ على الكُفْرِ ومُعَانَدَةِ الحقّ، وأنْتُمْ تلاحِظُون خَلْقَ اللّهِ لَكُمْ في أطوارٍ مُسايِرَةٍ لحياةِ كلِّ واحدٍ منكم؟!.

❁ ❁ ❁

(١١)

الملحق الثالث

حول كون الإنسان مراقَباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر

لدينا قضيتان:

القضيّة الأولى: كَوْنَ الإنسان في حياة الابتلاء مُرَاقباً دواماً، علَيْه حفظَةٌ يَعْلَمُونَ ما يَفْعَلُ، ويُسَجِّلُونَه، ويَحْفَظُونه، حتَّىٰ يَشْهَدُوا به يَوْم الدِّين.

القَضِيَّةُ الثانية: كَوْنُ الإنسان محفُوظاً بِعِنَايَةِ اللَّهِ وَحفْظه، ممَّا يُحِيطُ بِهِ من مخاطرِ ومهلكات، وقد جعل الله له من الملائكة من يحْفَظُه بأمْرِ من الله عزّ وجلّ، وعلى وفْقِ قضائه وقَدَرِهِ فيه.

■ **أمّا القضيّةُ الأولىٰ**: فَنلاحظُ فيها، أنّ الله عزَّ وجلّ اختار أن يُسَمِّي المُرَاقِب العالم المسجِّل الحافِظَ لِمَا سَجَّلَ مِنْ كسب الإنسان في حياة امتحانه، والشَّاهِدَ به علَيْهِ يَوْمَ الدِّين بأحد أوصافه، وهو وصف «حَافظ» لأنه يَلْزَمُ مِنْ كوْنِه حَافظاً أَنْ يكونَ مُرَاقباً وعالماً وَمُسَجِّلاً، فاسْتَغْنَىٰ بوصف «حافظ» عن ذِكْرِ هذه اللّوازم.

وعُلِمَ الْغَرَضُ من هذا الحفظ، وهو الإعدادُ ليوم الحساب وفَصْلِ القضاء، وتقديمُ ما أعَدَّ، والشَّهَادَةُ بِهِ، من النُّصُوصِ الكثيرة، الَّتِي دَلَّتْ عَلَىٰ أنَّ الإنسانَ مُمْتَحَنٌ في هذهِ الحياة الدنيا، ومُحَاسَبٌ على ما كَسَبَ فِيها، ويُقْضَىٰ لَهُ أو عليه على وفق ما كسب.

ثمَّ يُجَازَىٰ علَى وفْقِ القضاء، وَعُلِمَ أيضاً من النُّصوص الّتي دلّتْ علىٰ أنّ الحفظَةَ يَشْهَدُونَ يومَ الحساب بما حَفِظُوا على الإنسان، من مكتَسَبَاتٍ إرَادِيَّةٍ فِي الحياة الدنيا.

وأتَابعُ اسْتِعْرَاضَ نُصُوصِ هذه القضيّة بشيء من التدبُّر فيما يلي:

النصّ الأول:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾.

فقد أبان هذا النَّصُّ أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ عَلِيمٌ دَواماً بِكُلِّ شَيْءٍ من سُلوك الإنْسَانِ، حتَّىٰ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نفسه. وأنَّه جَلَّ جلالُه جعَلَ عليه ملَكَيْن رَقِيبَيْنِ، يَتَلَقَّيَانِ ما يَصْدُرُ عنه، بالتَّسْجيلِ والحِفْظ، فما يَعْمَلُ من عَمَلٍ وَمَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ تَمَّ تَسْجِيلُهُ وحِفْظُه من قِبَلِ رقِيبٍ مِنَ الملائكةِ عَتِيدٍ شديد تامِّ الاستعداد للقيام بوظيفته.

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هذا النَّصّ لدى تَدَبُّرِ سورة (ق).

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)﴾.

وقد سبَق تدبُّر هذه الآيَة، خلال تدبُّرِ هذه السورة على ما فتح الله به.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١)﴾.

دَلَّ هذا النَّصُّ علىٰ أنَّ الإنْسَانَ مُحَاطٌ بالْعِلْمِ الرَّبَّانِيِّ، وَوَاقِعٌ تَحْتَ سُلْطَانِ الرَّبِّ الْقَاهِرِ.

ودَلَّ أيْضاً على أنَّ اللَّهَ جَلَّ جلالُهُ يُرْسِلُ على عبادِهِ حفَظَةً من الملائِكَةِ يَقُومُونَ بوظيفة المراقبة والتَّسْجيل والحفظ، مع عِلْمِ كُلٍّ مِنْهُمْ بِمَا يُسَجِّلُ وَيَحْفَظُ لِيَشْهَدَ بِهِ يَوْم الدِّين، أخذاً من دَلاَلَةِ نَصٍّ آخر.

﴿مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾: أي: ما كسَبْتم من كسْبٍ إراديّ، وذكر النهار للأشعار بأنّ النهار للعمل، والليل للراحة، أما علم الله فهو شاملٌ لما يَكْسِبُ الناس باللّيل والنهار كما جاء في نصوصٍ أخرى.

النَّصّ الرابع:

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الإنفطار/ ٨٢ مصحف/ ٨٢ نزول):

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ أنَّ الحافظين من الملائكة كِرَامٌ، أي: يُسْرِعُونَ في تسجيل الحسنات، وقد يتمهَّلُونَ في تَسْجِيلِ السَّيِّئَاتِ، رجاءَ توبة المذنب واسْتِغفاره.

وأضاف أنَّهُمْ كاتِبُونَ، أي: فَهُمْ يَتَلَقَّوْنَ، ويَكْتُبُونَ ما تَلَقَّوْهُ مِنْ كَسْبِ الإنسانِ الإراديّ.

وأضاف أنَّهُمْ يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُ الناسُ المراقَبُونَ، أي: فَلَيْسُوا مُجَرَّدَ أَدَوَاتِ تَسْجِيلٍ لا تَعْلَمُ مَا تُسَجِّلُ، بَلْ هُمْ يَعْلَمُون مَا يُسَجّلون، لأَنَّهُمْ يُسَجِّلُونَ النيّات من الأعمال، ويُسَجِّلُونَ مَا تُكِنُّهُ الصُّدُور.

● وأمّا كَوْنُ الإنْسَانِ مُرَاقباً مِنْ قِبَلِ رَبِّه العليم فبيانه قد جاء في عدّة نصوص، منْهَا النُّصُوصُ الكثيرة الّتي تُثْبِتُ أنَّ الله عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور،

ومنها ما جاء في النصّ السابق من سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) وفي النصّ السابق من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) ومنها النصوص التالية:

النص الأول:

قول اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكايَةً لما قالَهُ هُودٌ عليه السَّلاَمُ لِقَوْمِهِ:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: إنَّ رَبِّي مُهَيْمِنٌ وَمُسَيْطِرٌ بِسُلْطَانِهِ علَىٰ كُلِّ شَيءٍ، وهو حَفِيظٌ لِكُلِّ ما يَجْرِي فيهِ أو مِنْهُ أَوْ عَلَيهِ، ومنه حفظ ما تَكْسِبُونَ في رحلة امتحانكم.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سَبَأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾.

النصّ الثالث:

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾.

النصّ الرابع:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾.

■ **وَأَمَّا الْقَضِيَّة الثانية:** وهي كَوْن الإنسان محفوظاً بعِنَايَةِ اللَّهِ وَحِفْظِهِ

مِمّا يُحِيطُ بِه من مَخَاطِرَ وَمُهْلِكاتٍ، فقد دَلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الرَّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ... ﴿١١﴾﴾.

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ﴾: أي: للإنسان مُعقّبات، وهم جَماعات من الملائكة يَعْقُبُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً ليَقُوموا في الناس بما كلَّفَهُمْ الله إيّاه من وَظائف، ومنها حفظ كلّ إنسان ممّا يحيط به من مخاطر.

وقد جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي هُرَيرة، أنّ الرسول ﷺ قال:

«يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ باللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بالنَّهارِ...».

ومن وَظائف هؤلاء ما جاء بيانه في الآية (١١) من سورة (الرّعد) من أنهم يَحْفَظُونَ كُلّ إنسان بأمْرِ الله، من شرّ كلِّ ذي شرٍّ خَفِيٍّ أوْ ظاهر، ومن أذىٰ كلِّ ذي أذى في خِضَمِّ هذا الكَوْنِ المشْحُونِ بالمخاطر، فَلا يُصِيبُ الإنسانَ مِنْها شيءٌ، إلاّ بقضاء الله وقَدَرِه، أو بإذْنه.

❁ ❁ ❁

(١٢)
الملحق الرابع
كلمة يوم في القرآن مراداً بها يوم الحياة الأخرىٰ

جاءت تَسْمِيَةُ يوْمِ الحياة بعد الموت وفناء الأجساد في القرآن المجيد، بأسماءٍ كثيرة مشتقة من أوصافه أو ممَّا يجري فيه.

وأسْتَعرض منها في هذا الملحق ما جاء مضافاً إليه كلمة «يَوْم».

وبعده أسْتَعْرِضُ النصوص التي جاء فيها بيانٌ لبعْض ما يجري في هذا اليوم.

■ **أمّا ما جاء مضافاً إليه كلمة يَوْم،** ففيما يلي:

(١) فَمِنْ كون هذا اليوم آخِرَ الْيَوْمَيْنِ الْمُقَرَّرَيْنِ لامتحان المكلّفين وحِسَابهم وجزائهم، سمَّاه الله عزّ وجلّ: «**الْيَوْمَ الآخِرَ**».

ونجد هٰذه التسمية في (٢٦) نصًا قُرْآنِيًا.

(٢) ومن كونه اليومَ الذي يَتِمُّ به الدِّين (أي: الجزاء) سمَّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الدّين**».

ونجد هٰذه التسمية في (١٣) نصًا قُرْآنِيًا.

(٣) ومن كونه اليوم الذي يقومُ فيه الموتى إلى الحياة بعد الموت والفناء سمّاه اللَّهُ عزّ وجلّ: «**يَوْمَ القيامَة**».

ونجد هذه التسمية في (٧٠) نصًا قرآنيًا.

(٤) ومن كونه اليوم الذي يُبْعَثُ فيه الخلائق من أَجْدَاثهم بعد الموت والفناء، سمّاه اللَّهُ عزّ وجل: «**يَوْم الْبَعْث**».

ونجد هذه التسمية في نصَّيْن من القرآن المجيد.

وذُكر في القرآن بعبارة: «**يَوْمَ يُبْعَثُونَ**» ستّ مرّات.

(٥) ومن كونه اليوْم الّذي يحاسب الله عزّ وجلّ فيه العباد على ما كَسَبُوا في رحلة امتحانهم، سمّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الحِسَاب**».

ونجد هذه التسمية في (٤) نصوص قرآنيّة.

(٦) ومن كونه اليوم الذي يفْصِلُ الله عزّ وجلّ فيه حُكْمَهُ في

المُمْتَحَنِين في الحياة الدنيا من عباده، سمّاه الله عزّ وجل: «**يَوْمَ الفَصْل**».

ونجد هذه التسمِيَة في (٦) نصوص قرآنيّة.

(٧) ومن كونه اليوم الذي تتلاقَىٰ فيه الخلائق أوّلُها وآخِرُها، ظَالِمُها وَمظلُومها، مَشْهُودُها وغَيْر مَشْهُودِها، سمَّاهُ الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ التَّلاقي**».

ونجد هذه التسمية في الآية (١٥) من سورة (غافر/ ٤٠).

(٨) وَمن كون وقائعه وأحداثِه قريبة بالقياس على سلف من عُمْرِ الحياة الدنيا كلّها، وقريبة بالنسبة إلى إحساس الخلائق بين الموت والبعث، إذْ يُلْغَىٰ من إدراكهم الإحساس بمرور الزمن، سَمَّاهُ الله عزّ وجلّ «**يَوْمَ الآزِفة**».

الآزفة: هي القريبة لغة.

ونجد هذه التسمية في الآية (١٨) من سورة (غافر/ ٤٠).

(٩) ومن كوْنه يَوْماً يكْثُرُ فِيه التنادِي بَيْنَ الخلائق، سَمّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ التَّنَادِي**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٣٢) من سورة (غافر/ ٤٠).

(١٠) ومن كوْنه يَوْماً تُجْمَع فيه الخلائق، سمَّا اللَّهُ عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الْجَمْع**».

ونجد هذه التسمية في نَصَّيْنِ من القرآن الكريم.

(١١) ومن كونه يوماً يخرج فيه الناس من الأجداث إلى ربّهم ينسِلُونَ، سماه اللَّهُ عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الْخُرُوج**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٤٣) من سورة (ق/ ٥٠).

(١٢) ومن كوْنه اليوم الّذي يتحقَّقُ فيه وعِيدُ الله للكافرين المكذبين

بما جاءهم به رسول الله ﷺ، سمّاه الله عزّ وجلّ: «**يَوْمَ الْوَعِيدِ**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٢٠) من سورة (ق/ ٥٠).

(١٣) ومن كونه اليوم الذي وعَدَ الله عباده، سمّاه الله عزّ وجلّ: «**اليوْمَ الْمَوْعُود**».

ونجد هذه التسمية في الآية (٢) من سورة (البروج/ ٨٥).

(١٤) ومن كونه اليوم الّذِي يَخْسَرُ فيه الكافرون والعصاة منازلهم ومراتبهم الّتي كانت مُعَدَّةً لهم في الجنّة، وكانوا يستحقّونها لو أنّهم آمَنُوا وأطاعوا، فيقَعُ علَيْهم الْغَبْنُ الّذي غَبَنُوا بِهِ أنْفُسَهم، إذْ يُورِثُ الله عزّ وجلّ المؤمنين مراتبهم ومنازلهم فيها، سَمّاه اللّهُ عزَّ وجل: «**يَوْمَ التَّغَابُن**» أي: هو يَوْمٌ يَخْسَرُ فيه الكافرونَ خُسْراناً عظيماً، ويَرْبَحُ فيه المؤمِنُونَ رِبْحاً عظيماً.

ونجد هذه التسمية في الآية (٩) من سورة (التغابن/ ٦٤).

■ **وأمّا النصوص الّتي جاء فيها بيانٌ لبعض ما يجري في هذا اليوم،** ففيما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا . . . ﴿٣٠﴾﴾.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

(٣) قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢):

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ﴿١٠٩﴾﴾.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢) أيضاً:

﴿هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ... ﴿١١٩﴾﴾.

(٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ... ﴿٧٣﴾﴾.

(٦) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ... ﴿١٢٨﴾﴾.

(٧) قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن المنافقين:

﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ... ﴿٧٧﴾﴾.

(٨) قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾﴾.

(٩) قول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول):

﴿... مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾﴾.

(١٠) قول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) حكاية لدعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾.

(١١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول) أيضاً:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾.

(١٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿... وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

(١٣) قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... ﴿٨٤﴾﴾.

وقوله تعالى فيها خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ... ﴿٨٩﴾﴾.

(١٤) قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾.

(١٥) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

(١٦) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرّوم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول):

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

(١٧) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزّمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول):

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾.

(١٨) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول):

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾.

وقوله فيها حكاية لقول الأبرار:

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

(١٩) قول الله عزّ وجلّ في سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول):

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

(٢٠) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الطّارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول):

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾.

وسبق تدبّر هذه الآية لدى تدبر سورة (الطارق).

والحمد لله رَبّ العالمين

❀ ❀ ❀

سُورَةُ القَمَر

٥٤ مصحف ٣٧ نزول

سورة (القمر) سورة مكيّة كلُّها. وقيل: إلاّ الآيات (٤٤ و ٤٥ و ٤٦) لكن جاء في صحيح البخاريّ عن عائشة رضي الله عنها أنّ الآيـة: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ قـد أُنـزِلـت فِـي مكة، وهي جاريَةٌ تلعب.

وعلى هذا فالمدَنِيّ مِنها إنْ صَحَّ مُقْتَصِرٌ على قول الله عزّ وجلّ فيـهـا: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

❊ ❊ ❊

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟
وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا
فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾
فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا

٣ - ● قرأ أبو جعفر: [مُسْتَقِرٍّ] بالجرّ.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مُسْتَقِرٌّ﴾ بالرَّفع.
قراءة الجمهور واضحة فمستقرٌّ خبر «كل».
وقراءة أبي جعفر تحتاج تأويلاً، ومنها أن خبر «كلّ» مطويٌّ مقدَّرٌ ذهناً، والمعنى: وكلُّ أمرٍ مُسْتَقِرٍّ بالقضاء حاصل لا محالة في أجله.

٥ - ● قرأ يعقوب: [فَمَا تُغْنِي] بإثبات الياء في الوقف.
وقرأ الباقون بحذفها في الوصل والوقف.

٦ - ● قرأ ورش، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [الدَّاعِي] بإثبات الياء في الوصل فقط.
وقرأ البزّي ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرةِ بحذفها في الحالين.

٦ - ● قرأ ابن كثير: ﴿نُكْرٍ﴾ بإسكان الكاف. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [نُكُرٍ] بضمها.

٧ - ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿خُشَّعاً﴾ جَمْع «خاشع».
=

أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ﴿٧﴾ مُّهۡطِعِينَ
إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ
قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي
مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا
ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ
ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾
وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٥﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ
﴿١٦﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتۡ
عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا
فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ
﴿٢٠﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ

= وقرأ باقي القراء العشرة: [خَاشِعاً] على الإفراد، تنزيلاً لاسم الفاعل منزلة الفعل.
والقراءتان وجهان عربيان جائزان، وكلاهما فصيح لأنَّ «خُشَّعاً» جمع تكسير.

٨ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو وأبو جعفر: [إلى الدّاعي] بإثبات الياء وصلاً.
وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة بحذفها في الحالين.

١١ ـ ● قرأ ابن عامر، وأبو جعفر ويعقوب: ﴿فَفَتَّحۡنَا﴾ بتشديد التاء.
وقرَأ باقي القرّاء العشرة: [فَفَتَحْنَا] بتخفيف التاء.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، إذْ هما على التوزيع في الأزمنة والأمكنة.
فالمبالغة تناسب قِسْماً من الحدث، والقراءة الأخرى تناسب قِسْماً آخر من الحدث.

١٢ ـ قرأ ابن كثير، وابن ذَكوان، وشُعبة، وحمزة، والكسائي: [عِيُوناً] بكسر العين.
وقرأ باقي القراء العشرة بضمها. والقراءتان وجهان عربيان.

١٦، ١٨، ٢١ ـ أثبت الياء في كلمة [وَنُذُرِي] في المواضع السّتة من السّورة: ورْش
وصْلاً، ويَعْقُوب في الوصل والوقف. =

مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا
نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا
بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ
﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ
أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ
فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ
وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ
مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ
حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ﴿٣٤﴾ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ
نَجۡزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾
وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾

= وحذفها باقي القراء العشرة، في الحالين.
وهي وُجوه عربيَّةٌ في النطق جائزة.

٢٦ ـ ● قرأ ابنُ عامرٍ، وحمزة: [سَتَعْلَمُونَ] بتاء المخاطبين.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بياء الغائبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.
فقد خاطبهم الله عن طريق رسولهم بقوله: [سَتَعْلَمُونَ].
وخاطب رسوله صالحاً والذين آمنوا به بقوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾.

٣٠، ٣٧، ٣٩ ـ أثبت الياء في كلمة [وَنُذُرِي] في المواضع السّتة من السّورة: ورَشٌ وصلاً، ويَعْقُوب في الوصل والوقف.
وحذفها باقي القراء العشرة، في الحالين.
وهي وُجوه عربيَّةٌ في النطق جائزة.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ
النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢)
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ
نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ
السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ
وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ
(٤٨) إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ
كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن
مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ
وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِى مَقْعَدِ
صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)

(٢)
ممّا ورد في السُّنّة بشأن سورة (القمر)

روىٰ الإمام أحمد ومُسْلِمٌ وأهل السُّنَن عن أبي واقِدٍ اللَّيْثي قال:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْرَأُ في الْعِيدِ بقاف واقْتَرَبَت».

أي: كان يقرأ في عِيدَي الفِطْرِ والأَضْحىٰ بسورة (ق) وسورة (الْقَمر) المبدوءة بقوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾.

❀ ❀ ❀

(٣)
سبب نزول السورة

سألَ أهْلُ مكة النبيَّ ﷺ آيَةً تُثْبِتُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ حقًّا، فأشارَ بأصبعه إلى القمر في ليلةٍ كان فيها بدراً، فانْشَقَّ شِقَّيْنِ، حتَّىٰ رأَوْا جبلَ حراء بين الشِّقَّين، فقال لهم الرسول ﷺ: «اشْهَدُوا اشْهَدُوا».

فقالوا: سَحَرَنا مُحَمَّد، وقالوا: إنْ كان سَحَرنا فإنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أن يَسْحَرَ الناس كُلَّهم، فاسألوا المسافِرين، وحين قَدِمَ المسافِرون من كلِّ جِهَةٍ سَأَلُوهم، فقالوا رأَيْنا أنّ القمر قد انْشَقَّ.

وأصَرَّ قادَةُ مشركي مكة على كُفْرِهم، وزعَمُوا أنَّه سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ قَوِيّ، بَلَغ من قُوَّتِه أنْ يُؤَثِّر على الناس خارج حدود مكَّة البعيدين في أسفارهم عنها.

فأنزل الله عزّ وجلّ سورة (القمر) لمعالجة موقف المشركين المعاند لهذه الآية العظيمة، وتحذيرهم من عقاب شامل، كما حصل لمجرمي الأمم السّابقة.

وروايات انشقاقِ القمر آيةً للرسول ﷺ، في أواسط العهد المكيّ من تاريخ بَعْثَتِه بلَغتْ مبْلَغَ التواتر عند المحدِّثين.

وسيأتي إن شاء الله ذكر طائفة منها لدى تدبّر قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

❀ ❀ ❀

(٤)
موضوع السورة

يَدُور موضوعُ سورة (القمر) حول بيان الموقف العناديّ المكابِرِ الّذِي وقفَه قادة كُفّارِ قُرِيشٍ، من آية انشقاق القمر العظيمة، بَعْدَ أنْ طَلبُوا من الرسول ﷺ آيَةً مادِّيَّةً كُبْرَىٰ تُثْبِتُ صِحَّةَ نُبوّته، وصِدْق رسالته، وبيانِ موقفهم العناديّ من الأنْبَاء الزاجِرَة، الَّتِي سَبَقَ في نُجُوم التَّنْزِيلِ توجيهُهَا لهم. وبيانِ الموقف الذي يُوصِي الله رسُولَهُ بأنْ يَتَّخِذَهُ مَعَهُمْ، بَعْدُ أنْ وصَلُوا إلى حالةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْها غالباً، وهو التولّي عنهم، بإدَارَةِ ظهره إليهم، والاشْتِغَال بآخرين لم يَبْلُغُوا بَعْدُ مَا بلغ إليه هؤلاء من عِنَادٍ ومكابرَةٍ واسْتِكْبَار ومُعَاداةٍ لدعوة الحقّ الرَّبَّانِيَّة.

وبعد هذا تشتمل السورة على معالجتهم ومعالجة أمثالهم، بالترهيب، وبالبيان الإقناعيّ، وبالترغيب.

فجاء فيها الترهيب بإيجاز من بعض أهوال يَوْم القيامة.

وبعده جاء التحذيرُ من إنزال العقاب المهلك إهلاكاً عامًّا في الدنيا، بأُسْلُوب عرضِ موجزاتٍ من قِصَصِ بعض المهلَكِين الأولين من كُفَّارِ الْقُرون الأولى، في خمس فقرات، تناولت بإيجاز:

إهلاك قوم نوح عليه السّلام، وإهْلاَكَ عَادٍ قَوْمِ هُودٍ عليه السلام، وإهْلاَك ثمود قوم صالح عليه السلام، وإهلاك قوم لوط عليه السلام، وإهلاك فِرْعَونَ وآله وجنودهم.

مع المعالجة بالإقناع لكفار قريش، بأنّهم ليسوا عند الله خيراً من المهلكين الأولين.

وبعده جاءت طمأنة الرّسُول والمؤمنين بأنَّ جَمْعَ كُفَّار مكَّة سيُهْزَمون في معاركَ قتاليةٍ مستقبليّةٍ، فأنزل الله في العهد المدنيّ آيَتَيْن أُضِيفَتا إلى

سورة (القمر) كما ذكر مُقَاتل من المفسِّرين، وهُمَا عند الجمهور من التنزيل المكيّ مع تنزيل آيات السورة، وهُما:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

وبعْدَ هذا البيان جاء الترهيب بتقديم لقطة مخيفة من عذاب المجرمين في النار يوم الدين، وهو مقرون ببيانِ أَنَّ كُلَّ شيْءٍ قد خلقه الله جلّ جلاله بقَدَرٍ، وأنّ نَفَاذَ أمْرِه يكون مثل لَمْحٍ بالْبَصَر، وأَنَّ أفْعَالَ الناسِ مسجَّلَةٌ عليهم صِغَارَها وكبارَها، أي: فهم سَيُحَاسَبُونَ عليها.

وأخيراً جاء ترغيب الذين آمنوا واتَّقَوْا بأنهم سوف يكونون يوم الدّين في جنَّاتٍ ونَهَر، في مَقْعَدِ صِدْقٍ عند مَليكٍ مقتدِر.

وبهذا ظهَرتْ لنا وحْدَةُ مَوْضُوعِ السُّورَةِ مُتَماسِكَةَ العناصر، متعانقة الفِقَرات، بديعةَ الترابط.

❁ ❁ ❁

(٥)
دُرُوسُ السُّورَة

تشتمل سورة (القمر) على خمسة دروس متعانقة حول موضوع واحد كما سَبَقَ بيانُه.

الدرس الأول:

درسٌ يشْتمل على بيان موقِفِ أئمة الكُفْر والشِّرْكْ في مكّة إبَّان تنزيل السورة، بعْدَ طلَبِهم آيَةً حِسِّيَّةً كُبرىٰ، فأشَارَ الرَّسُول ﷺ إلى الْقَمَر ليلة البدر، فانْشَقَّ نِصْفَيْن مُتَبَاعِدَيْنِ، وبيانِ موقِفِهِمْ من الأنباء الزواجر التي أنزلَها الله عزّ وجلّ في نجوم التنزيل، قبل إنزال سورة (القمر).

فموقِفُهُمْ قد كان موقف المكابرة والعناد والإصرار على الكفر،

زاعمين أنَّ الرَّسُولَ ﷺ سَحَرهم، مع الاستمرار على موقفِ العِدَاء وتدبيرِ المكايد التي جاء بَيَانُها في سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول).

ويشتمل أيضاً على بَيَانِ الموقف الّذي يُوصي الله عزّ وجلّ رسولَهُ بأَنْ يَتَّخِذَهُ معهم، وهو التولّي عَنْهُمْ بإدارة ظَهْرِهِ إليهم، ليتابعَ بَذْلَ جَهْدِهِ واجتهاده لدعوة آخرين لم يَصِلُوا إلى حالة ميؤوس منها.

وهو الآيات من (١ ـ ٥ وعبارة: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ من الآية ٦).

الدرس الثاني:

يشتمل على تَرْهِيبٍ بإيجاز من بعض أهوال يوم القيامة وهو من: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾﴾ وحتى غاية الآية ٨).

الدرس الثالث:

يشتمل على تحذير الكفرة المعاندين المصرّين على رفض الحق، وعلى اتّباع الباطل، من إنزال العقاب المهلك لهم إهلاكاً عامًّا في الدنيا، إذَا وصَلُوا إلى دركَةِ استحقاقهم هذا الإهلاكَ العامَّ، بإسْلُوب عَرْضِ موجزاتٍ من قِصَصٍ بعض المهلَكِين السَّابقين من كُفَّار القرونِ الأولى، وجاء هذا الدَّرْسُ مُفَصَّلاً إلى خمس فقرات:

الفقرة الأولى موجزُ قِصَّةِ إهلاك قوم النبيّ الرسول نوح عليه السلام.

الفقرة الثانية: موجَزُ قِصَّةِ إهْلاك «عَادٍ» قومِ النَبِيّ الرسول هود عليه السلام.

الفقرة الثالثة: موجَزُ قِصَّةِ إهلاك «ثمود» قَوْمِ النبيّ الرسول صالحٍ عليه السلام.

الفقرة الرابعة: موجزُ قِصَّةِ إهلاكِ قَوْمِ النبيّ الرسول لُوطٍ عليه السَّلام.

الفقرة الخامسة: لمحةٌ من إهلاك فرعون وآله وجنوده.

وهو الآيات من (٩ ـ ٤٢).

الدرس الرابع:

يشتمل على معالجة معاندي كُفّار قريش باقناعهم بأنَّهم ليْسُوا عند الله خيراً من المهلَكين الأولين، الذين أُهْلِكُوا بسبب كُفْرِهم وعنادهم وطغيانهم.

ويشتمل على طَمْأَنَةِ الرَّسول ﷺ والذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، بأنّ جمْعَ قادة كُفَّارِ مكّة سيُهْزَمُون في معاركَ قتاليَّةٍ مستقبلية قادمة، وبَيَانِ أنّ السَّاعَة موعد تعذيبهم العذابَ الأكبرَ والأشَدَّ من الهزائم التي سَتَلْحَقُ بهم، ومن القَتْلِ التي يُقْتَلُ به صناديدهم وعُتاتُهم.

وهو الآيات من (٤٣ ـ ٤٦).

الدرس الخامس:

● يشتمل على بَيَانٍ ترهِيبيّ بأسْلُوبِ تقديم لقْطَةٍ تصويريَّةٍ مخيفَةٍ من عذاب المجرمين في النّار يوم الدِّين، وهذا البيان مقرون بما يلي:

(١) ببيانِ أنَّ كُلَّ شيءٍ قد خلقه اللَّهُ عزَّ وجلَّ بقَدَر، وهذا القدر يشْمَلُ كُلَّ ما يَخْضَعُ للتَّقْدِير في الْكَمّ والكَيْف والزّمن وسائر الأشياء القابلة لأنْ تكون ذات مقادير.

(٢) وببيان أنّ نَفَاذَ أمْرِ الله يكُونُ مثْلَ لَمْحٍ بالْبَصَر.

(٣) وببيان أنّ أفعالَ العباد الظاهِرَةَ والباطنَةَ مسجَّلَةٌ عليهم صِغَارَها وكبارَها، أي: والمكلّفُون منهم سَوْف يحاسَبُونَ عليها.

● ويشتمل على بيانٍ ترغيبيٍّ للّذِينَ آمَنُوا واتّقَوْا، بأنَّهم سيكونون منعمين يوم الدّين في جَنَّاتٍ ونَهرٍ، في مَقْعَدِ صِدْقٍ عنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ، في مقابل الْبيَانِ التَّرْهِيبيِّ للمجرمين.

وهو الآيات من (٤٧ ـ ٥٥ آخر السورة).

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبُّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ٥ مع عبارة ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ من الآية ٦)

قال الله عزّ وجل:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾.

● قرأ جمهورُ القرّاء الْعَشَرَةِ: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ بالرَّفع، على أنه خَبَرُ [كُلُّ].

وقرأ أبو جَعْفر: [مُسْتَقِرٍّ] بالجرّ، وهذه القراءة تحتاج إلى تأويل، وأحْسَنُ التأويلات فيما أرىٰ أنْ يكون خَبَرُ [كُلُّ] مَطْوِيًّا مُقَدّراً ذِهناً، والمعنى: وكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٍ بالقضاء غَيْرِ مَنْسُوخٍ حاصِلٌ لاَ مَحالَةَ فِي أَجَلِه.

● وقرأ جمهورُ الْقُرّاءِ الْعَشَرَةِ ﴿فَمَا تُغْنِ﴾ بحَذْفِ الياء في الوصل والوقف تخفيفاً، وهو من اللّهجاتِ العربيّةِ الإيجازيّة.

وقرأ يَعْقُوبُ بإثْبَاتِ الياء في الوقف [فَمَا تُغْنِي] على الأصل دون حَذْف.

والقراءتان من التيسير على الناطقين، وهما تدخلان في الأحرف السبعة التيسيريّة، على الناطقين العرب بحسب لهجاتهم.

● قول الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾﴾.

اقْتَرَبَتْ: أي: دَنَا وَقْتُ وُقُوعِهَا، يُقَالُ لُغَةً: اقترَبَ الْوَعْدُ، أي: دنا

وقْتُ وُقوعه. واقترب القوم: أي: دنا بعضهم من بعض.

السّاعة: جزءٌ من أجزاء الوقت، وإن قلَّ. وأطلقت في الاصطلاح الديني على الوقت الذي قضىٰ الله عزّ وجلّ أن يُنْهِيَ به ظروف هذه الحياة الدنيا وأنظمتها، وعلى الوقت الذي يبعث الله فيه الموتى إلى الحياة الأخرى، والقرائن تُبَيِّنُ المراد، وتُطْلَقُ في القرآن أيضاً على وفق المعنى اللّغويّ، ولكن منكَّرَةً دُون تعريف.

وانْشَقّ: أي: وانْصَدَعَ. فابْتَعَدَ قِسْمٌ منه عن قِسْمٍ آخر.

في هذه الآية بيانُ قضيَّتَيْن:

القضيَّة الأولى: اقترابُ السَّاعَةِ، الّتي تأتي بَعْدَهَا أحداث يَوْمِ القيامة، وما فيه من حساب، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وتنفِيذِ جزاء.

القضيـة الثانيـة: انشقاق القمر آيةً حِسِّيَّةً كُبرىٰ للنبيّ الرسُولِ محمّد ﷺ، وهي دالَّةٌ على أنّهُ نبيُّ اللّهِ حقًّا وصِدْقاً، وأنّه رسُولُه الأَمِينُ، فهو يُبَلّغ عنْهُ مَا يأمُرُه بتبليغه للعَالمين.

وجاءت القضيّة الثانية هذه بمثابة البرهان على صدق القضيَّة الأولى، قضيَّةِ السَّاعَةِ المسْتَتْبِعَةِ لبَعْث الموتىٰ إلى الحياة الأخرى التي يكون فيها الحسابُ، وفَصْلُ القضاء، وتنفيذُ الجزاء، بالنسبة إلى الّذين وُضِعُوا مَوْضع الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، من الإنس والجنّ.

فخَبَرُ السَّاعَةِ وخَبَرُ اقترابها بالنَّظَر إلى بَدْءِ نَشْأَةِ الحياة الدنيا، وبالقياس على الزَّمن الذي مضى منها، يَشْهَدُ لصِدْقه وصِحَّتِهِ إجْراءُ مُعْجزَةِ انشقاق القمر لِمُبلّغ هذا الخبرِ عن رَبّه، لأنَّ انشقاق القمر في السَّماءِ لاَ يُمْكن أن يَفْعَلَهُ إلاَّ اللّهُ خالِقُ السَّمَاوات والأَرْض، فإذا أَجْرَاه لبعض عباده فإنَّه يَدُلُّ بذلك على أنّهُ صَادقٌ فيما يُبَلِّغُ عن ربّهِ من غيبيّات.

شرح القضيَّة الأولى:

إنَّ جُمْلَةَ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ خَبَرٌ عن أمْرٍ غَيْبِي بالنِّسْبَةِ إلى المخاطبين، وهم لا يَسْتَطِيعُون أَنْ يُدْرِكُوا ما يَدُلُّ عليه هذا الخبر، لا عن طريق العقل المجرَّد، ولا عن طريق الدّلائل العلميَّة الكونيّة، وظاهراتِ الأَشياء وأماراتها.

لكِنَّ حادثَةَ انشقاق القَمَرِ في السماء، الّتي وقَعَتْ بحضور طالبي آيَةٍ كبرى من الرسول ﷺ، فأجراها لهم بإشارة إلى الْقَمَرِ بأصبعه، تَشْهَدُ لَهُ بأنَّه نبيُّ الله ورسولُهُ حقًّا وَصِدْقاً.

إنَّها قضيَّةٌ حِسِّيَّةٌ مَشْهُودَة، ذَاتُ دَلاَلَةٍ عَقْلِيَّةٍ مُلْزِمَةٍ لذوي العقول المنْصِفَة، بأنَّ مَنْ أجْرَاها اللَّهُ عزّ وجلّ له نبيُّهُ ورَسُولُه، فَمَا يُخْبِرُ به عن الله لا بُدَّ أن يكون حقًّا وصِدْقاً، ومنه الإخبار باقتراب السَّاعة.

فذكر القضيَّتين مُقْتَرِنَتَيْن في صدر السّورة بيانٌ يتضَمَّنُ الخبر والدّليل على صِدقه، وهذا الأسلُوبُ القرآنيُّ هو من روائع الإيجاز في الاستدلال القائم على عرض القضيَّةِ، وعرض ما يَدُلُّ على صِدْقِها، مقترِنَيْن، دون التصريح بأنَّهُ دليل عليها. كَمَنْ يَتَحَدَّى المصارعين وَيأتي إلى جِدَار لم يَسْتَطِعْ إمالَتَهُ عَدَدٌ مِنهم، فيدفَعُهُ بِيَدِهِ فَيُسْقِطه.

قضيّة الساعة واقترابها:

لقد أخفى الله عزّ وجلّ وقت قيام السّاعة عن كلّ خَلْقِه، فهي لا تأتي إلاَّ بَغْتَةً بصُورَةٍ مُفاجِئةٍ، وقد ثَقُلَ عِلْمُ وَقْتِ حُدُوثِها في السَّماواتِ والأرْض.

وإذْ أخْفَى الله عزّ وجل الْعِلْمَ بوقت قيام السَّاعَةِ عن كلّ خَلْقِهِ، حَتَّى عن الملائكة المقَرَّبين، فإنّ مَعْرِفَة قُرْبِ وَقُوعِها أو بُعْدِهِ، لا يُمْكِنُ أنْ يُدْرَكَ

ما لَمْ يأتِنا الْوَحْيُ عن الرَّبّ الّذي قَضىٰ وَقَدَّرَ، ببيان يَدُلُّ عليه.

وقد أخبرنا الله عزّ وجلّ في قرآنه باقترابها، وبلَّغنا ذَلِكَ نَبِيُّهُ ورَسولُه المؤيد مِنْ قِبَلِه بالمعجزات والآيات الباهرات، ومنها معجزةُ انشقاق القمر، فوجب التسليمُ بصحّة الخبر وصدقه.

والغرض من الإعْلام باقتراب الساعة التخفيف من استبعاد وقوعها، أو استبعادِ وقْتِ وُقوعها الَّذِي يُولّدُ في النفُوسِ الغفلة عنها، اشتِغَالاً واهتماماً بالقضايا الْقَرِيبة المستَعْجَلَة من أمور الحياة الدنيا، مع بيان حقيقة من الحقائق المستقبليّة التي لا تُعْلَمُ إلاّ عن طَرِيق الْوَحْي الرَّبّاني، لِخِدْمَةِ أغْرَاض الدّين.

ويَسْأل سَائلٌ مَا المُرادُ بالسَّاعةِ المذكورة في قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ ﴾؟

فأقول: يُمْكِنُ أنْ يكُون المرادُ بها ساعَةَ إنْهاءِ ظرُوف هذِه الحياة الدّنيا، وهذا الإنْهاءُ يَسْتَلْزِم عقلاً الإعْلامُ باقترابِ ساعةِ القيامة، والبعثِ للحياة الأخرىٰ، الّتي يَكُونُ فيها الحسابُ، وفَصْل القَضاء، وتنفيذ الجزاء، إذْ يَوْمُ الْبَعْث والْحِسَاب ومَا يَجْرِي فيه هو المقْصُودُ بِبَيَانِ اقْتِرابه فَبِهِ تَتَحقَّقُ الغايةُ من الامتحان في رحلة الحياة الدنيا.

ويُمْكِنُ أن يكُونَ المرادُ بِها ساعةَ القيامة والبعث، وهذا يتضَمَّنُ الإعلامَ باقترابِ ساعةِ إنْهاء ظروف هذه الحياة الدنيا، الذي هو مُقدّمة من مقدّمات الإعداد الكَوْنيّ لظُرُوف الحياة الأخرى.

وجاء النَّصُّ مُطْلقاً لأن كُلّاً من المعنَيَيْن صالحٌ ومستلزمٌ للمعنى الآخر، وهذا من بديع الإطلاقات القرآنية، الّتي تستفادُ منها عدَّة معانٍ صالحةٍ ومُرَادَةٍ.

والمراد باقترابها الاقترابُ النِّسْبيّ الذي يلاحظ فيه عُمْرُ الحياة الدينا مُنْذُ بَدْءِ الحياة على الأرض حتى إنهائها، فإذا بقي الرّبْع أو الخمس أو

السّدْس أو أقلُّ من ذلك مهما بلغ من القرون، فإنّ المرتَقَبَ بعْدَهُ أجَلٌ قريب بالنسبة إلى ما مَضَىٰ من الحياة على الأرض.

نصوص قرآنية بشأن اقتراب الساعة:

النصّ الأول: ما جاء في أوّل سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزل) وهو ما تدبّرناه آنفاً.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بشأن منكري البعث:

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾، أي: فسيُحرِّكونها حركة المُسْتَبْعِدِ المتعجِّبِ المنكِر.

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، أي: أرجو وأترقَّب أنْ يكون قريباً وهو تعبير مضمونه الجَزْمُ، وظاهره الرجاء والترقُّب للأمر القريب لأن المحادثة مع منكري البعث إنكاراً كليًا، وهم يُمَاحِكُونَ في السُّؤالِ عن وقْتِهِ بِشَكْلٍ مُحَدَّدٍ، وقد أخفاه الله عزَّ وجَلَّ عن كلّ عباده في الأرض وفي السماوات.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ﴾، أي: يَوْمَ يدعوكُمْ رَبّكُمْ لمحكَمَةِ الْعَدْلِ فتستجيبون لِدَعْوَتِهِ وتحضرون للحساب، وأنتم لا تملكون غير ذلِكَ يَوْمَئِذٍ، وتَجْعَلُونَ استجابَتَكُمْ لربّكمْ مَقْرُونةً بِحَمْدِهِ والثناء عليه لعلّه يخفِّفُ عنكم.

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: وحينَ تُبْعَثُونَ تَظُنُّونَ أنَّكُمْ ما

لَبِثْتُم بَيْنَ الْمَوْتِ والْبَعْثِ إلاَّ زَمَناً قَليلاً، كَسَاعَةٍ مِنْ نهار، لأنَّ الْمَوْتى يُلْغَى من نُفُوسِهم الاحْسَاسُ بمرور الزَّمن، فاللحظةُ ومِلْيَاراتُ السِّنِينَ بالنِّسْبَةِ إليهم سواء، ومن مات في عهد آدم ومَنْ مَاتَ آخر الناس، يكون إحْسَاسُهُمَا بما مضى من الزمن سواءً.

النصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة(الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، أي: أنزل الكتاب مشتملاً على قسمين، فما فيه من أخبار وأنباء فهي حقٌّ مطابق للوقع، وأنزل الميزانَ، فما فيه من تشريعات وأحكام وتكاليف فهي قائمة على العدل، وجاء التعبير عن العَدْلِ بالميزان، لأنّ الميزان رَمْزُ العدل، الذي هو إعطاء كُلّ ذي حقّ حَقَّهُ.

وهذه العبارة داخِلَةٌ في عموم قول الله تعالى في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾؟ جاء التعبير هنا عن اقتراب السَّاعَةِ بأسْلُوب طرحِ احتمالِ قُرْبها، الّذي يُرادُ به الإعلامُ بقُرْبِها بأسْلُوب فنيٍّ أدبيّ، مُقَدَّمٍ بصيغة سُؤال.

أي: وأيُّ شيءٍ يجعلُكَ تَدْري أنّ السَّاعَةَ غَيْرُ واقِعَةٍ أيُّها المكذّب بها، أوْ أنّها بَعِيدَةُ الْوُقُوع، إنَّكَ لا تَمْلِكُ أيَّ دَليل، وإذا كان الأمر كذلك فالاحتمالات سواءٌ بالنِّسْبَةِ إليك، ومن البصيرة العقليّة الاحترازيَّة أنْ تَضع

نُصْبَ عينيكَ احتمالَ قُرْب وُقُوعِها لِتَتَّخِذَ حِذْرَكَ، وتبادِرَ إلى ما يَقِيكَ من عذابِ الله الذي يُمْكِن أن يُوَاجِهَكَ بَعْدَهَا، إذا قَدَّمْتَ أوْ أخَّرْتَ ما يُفْضِي بِكَ إليه.

وهذا الأسلوب الاستفهاميُّ التعجيبي أُسْلوبٌ بارِعٌ بَدِيعٌ من طُرُقِ الإقناع بِتَوَقّي عقاب الله يَوْمَ الدين.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، أي: يَسْتَعْجِلُ وُقوعَ السَّاعة مُسْتَهينين بها وبأنْباءِ قِيامها، الّذين لا يُؤْمِنُونَ بها. فاستعجالهم أسلوبُ من أساليب الجدَلِ الكلاميّ.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أَلَآ﴾ ألا أداة استفتاح وتنبيه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: إنّ الذين يجادلون بشأن قيام السّاعة شاكّين أو مشكّين بها، ورافضين الإيمان بها.

المماراة: المجادلة القائمة على المخالفة والالتواء عن الحق. يقال لغة: مَارَىٰ فُلانٌ فُلاناً يُماريه، أي: ناظره وجادله. وخالَفَهُ وتَلَوَّى عليه.

﴿لَفِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾، أي: لَواقِعُونَ في ضَلالٍ بعيدٍ عن موْقعِ الْحقّ.

النص الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) بشأن العذاب الواقع للكافرين يَوْمَ الدّين:

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾، أي: إنّ بعْضَ الْكافِرين يَرَوْنَ عَذَابَ يَوْم الدّينِ أمراً بَعيداً على فرض أنّهُ حَقٌّ، فبَيْنَ زمَنِ وُجُودِهم في الحياة الدُّنيا وَزَمَنِ حُصُولِهِ يَوْمَ الدّين إنْ صَحَّ الخَبَرُ بهِ، قُرونٌ، وأحقابٌ طويلة جدّاً.

لكنّ الله بِجَلالِ رُبُوبِيّته وبِعِلْمِهِ الشامل يَراه قَرِيباً، إذْ لَيْسَ بَيْنَ الموت

والبعث الذي يَحْصُل فيه هذا العذاب إلاّ فاصل البرزخ، وهذا الفاصل بالنسبة إلى إحساس نُفُوسِ الموتىٰ قليلٌ جداً، إنّهم حين يُبْعَثُونَ يُقَدِّرُون أنَّهُم لم يَلْبَثُوا بيْنَ الموت والبَعْثِ إلاَّ عَشِيَّةً أو ضُحَاهَا، أي: كَنَوْمَةٍ في الضُّحىٰ، أو نومةٍ في الْعَشِيّ، والحقُّ أنّ العِبْرَةَ بإحساس النفوسِ لا بِطُولِ الزَّمن خارج إحْسَاسِهَا.

النصّ الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول) خطاباً للكافرين.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾.

فأبانت هذه الآية أنّ الْعَذابَ الذي يُوجّهُ الله عزَّ وجل الإنْذارَ به لِلْكَافِرين سَيكُونُ قَرِيباً بالنِّسْبَةِ إلى إحْسَاسَاتِهِم، لأنّهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بَعْدَ مَوْتِهِمْ إلاّ بِسُرْعَةِ ملاقاتهم له يوم الدين، غير الّذِي يُلاقُونَهُ مِنْ عَذَابِ نَفسِيٍّ في مُدَّةِ البرزَخِ الّتي لاَ يَشْعُرُون بمُرُور الزَّمَنِ فيها.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: يَنْظُرُ بِعَيْنَيْهِ ما كَسَبَ في الحياة الدُّنيا من كَسْبٍ إراديّ، يُعْرَضُ عليه فيه شَرِيطٌ كامِلٌ بالصُّورَةِ والصَّوتِ والنِّيَّاتِ وحركاتِ النفس كُلِّها.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾، أي: ويقول الكافر متمنّياً أن يكون مثل البهائم الّتي يَقُولُ الله عزَّ وجَلَّ لها: كوني تراباً، فتكون بَعْدَ أنْ يَقْتَصَّ للمَظْلُومَاتِ مِنْهَا مِنْ ظَالِمَاتها في الحياة الدُّنيا.

النصّ السادس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزولاً) خطاباً لرسوله: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾، أي: يَسْأَلُكَ الناس عن وقْتِ وُقُوعها.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: قُلْ يا مُحَمَّد ما عِلْمُ وقْتِ وُقُوعِها عِنْدَأحدٍ إلاّ عِنْدَ الله، فَهُوَ وَحْدَهُ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ العليم بوقت وقوعها.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، أي: وقُلْ يا مُحَمَّدُ للسَّائِلُ الذي يَسْأَلُكَ عن وَقْتِ وُقُوعِ السَّاعَةِ، لَعَلَّ السَّاعَةَ تكونُ قَريباً.

وشَرْح هذه العبارة وتحليلها سَبَقَ لدَىٰ شَرْحِ شَبيهها آنفاً في النّصّ الثالث من هذه النصوص.

❁ ❁ ❁

أمّا قول الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول):

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ لرسوله أيضاً في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول)،

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: فإنْ أصَرّوا على إدارة ظهورهم لدعوتك يا مُحمَّد، والابتعادِ عنها ابْتِعَاداً كُلّياً، فقل لهم: آذنتُكُمْ، أي: أَعْلَمْتُكُمْ إعلاماً على سواءٍ بَيْني وبَيْنَكم، بأنَّ الحالة بَيْنَنا حالَةُ حَرْبٍ، لا حَالَةُ سِلْم، واعْلَمُوا بأنَّكُمْ سَتُهْزَمُونَ، وما أدْري أقريب أم بعيد ما تُوعَدُون من هَزِيمتكم.

فهذان النَّصّان متعلّقان بما وُعِدوا من عقاب معجَّل في الحياة الدنيا.

❁ ❁ ❁

ما ورد في السنة بشأن اقتراب الساعة:

١ ـ روى البخاريُّ ومسلم وأحمد والترمذي عن أنس رضي الله عنه، أنّ النبيَّ ﷺ قال: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ».

وَرَوَى البخاري ومسلم وأحمد عن سَهْل بن سَعْد مثله.

كَهَاتَيْن: أي، كالفَرْقِ ما بيْنَ الإصبع السَّبابة والإصبع الوسطى، فما بقي من الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما مضىٰ منها، كالفاضل من الوسْطَىٰ بالنسبة إلى السَّبَّابَة.

قال راوي الحديث عن قتادة عن أنس، وسمعْتُ قَتَادَةَ يقولُ في قصصه: «كفَضْل إحداهما على الأخْرَى» فلا أدري أذكَرَهُ عن أنَس أو قاله قتادة[1].

٢ ـ وروى الترمذيُّ عن الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدّاد، عن النبي ﷺ قال: «بُعِثْتُ في نَفْسِ السَّاعَةِ فَسَبَقْتُهَا كَمَا سَبَقَتْ هٰذِهِ هٰذِهِ وأشَارَ بأصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ والْوُسْطىٰ».

٣ ـ وروى البيهقيُّ في شُعَبِ الإيمان عن أنسٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ[2].

«مَثَلُ هٰذِهِ الدُّنيا مَثَلُ ثَوْبٍ شُقَّ من أوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ، فبقي مُتَعَلِّقاً بِخَيْطٍ في آخِرِهِ، فَيُوشِكُ ذَلِكَ الخيطُ أن يَنْقَطِع».

❁ ❁ ❁

شرح القضية الثانية (وهي انشقاق القمر):

إنَّ جملة ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ خَبَرٌ عن أمْرٍ وَقع وشَهِدَهُ طالِبُوا آيةٍ حسّيَّة من الرسُول ﷺ، فأجرىٰ الله آية انشقاقِ القَمرِ العظمىٰ، وشَهِدَها مُسافِرُونَ

---

(١) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٥٠٩.

(٢) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٥١٥.

كانُوا خارِجَ مكَّة في أسفارهم البعيدة، وشَهِدَها من شَهِدَها من المسلمين.

والأَصْلُ حَمْلُ الكلام على حقيقته، ولا يُصارُ إلى تأويله إلاّ إذا ثبت خلاف ذلك.

وما جاء في الأحاديث المرويَّة الصّحيحة يُثْبِتُ بيقينٍ أنَّ القمر قد انْشَقَّ للنبيّ محمّد ﷺ، إذْ طَلَبَ كُبَراءُ قَوْمِهِ أنْ يأتِيَهُمْ بآيَةٍ حِسّيَّةٍ، فجاءَهُمْ بها، إذْ أشارَ إلى القمر أمام طالبي الآية منه، فانْشَقَّ نِصْفَيْن، فكان فِلْقَتَيْن، فِلْقَة ظَهَرَتْ أمَامَ الجَبَلِ، وفِلْقَةٌ ظَهرَتْ وَراءَهُ، وظَهَرَ الجبلُ بَيْنَ الْفِلْقَتَيْن.

قال كثيرٌ من مُتَتَبِّعي الرّوايات: إنّ خَبَرَ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ للرسُولِ ﷺ مُتَوَاتِرٌ، فهو أمرٌ قَدْ وَقَعَ يَقِيناً.

ومن الرّوايات الواردة بشأن انشقاقه ما يلي:

١ ـ روَىٰ البخاريّ ومُسْلِمٌ عن أنس، قال: إنّ أهلَ مَكَّةَ سَأَلُوا رَسُولَ الله ﷺ أنْ يُرِيَهُمْ آيَةً، فأراهُمُ الْقَمَرَ شِقَّتَيْنِ حَتىٰ رأو حِراءَ بَيْنَهُمَا»[1].

٢ ـ وروى البخاريُّ ومُسْلِمٌ عن ابن مسعودٍ قال: انْشَقَّ القَمَرُ عَلى عَهْدِ رَسُول الله ﷺ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةً فَوْقَ الجَبَلِ، وفِرْقَةً دُونَهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اشْهَدُوا»[2].

٣ ـ وروى الإمام أحمد عن أنسٍ قال: سأل أهْلُ مَكَّةَ النبيَّ ﷺ آيةً، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ مَرَّتَينِ، فقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾.

٤ ـ وروى الإمام أحْمَدُ عن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِم عَنْ أبيهِ قال: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ فِرْقَتَيْنِ، فِرْقَةً عَلَىٰ هٰذَا الْجَبَلِ، وفِرْقَةً علىٰ هٰذا

---

(١) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٨٥٤.
(٢) انظر «مشكاة المصابيح»، رقم الحديث ٥٨٥٥.

الْجَبَلِ، فَقَالُوا: سَحَرَنا مُحَمَّد. فَقَالُوا: إنْ كَانَ سَحَرَنَا فإنَّهُ لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ.

٥ ـ وروى ابْنُ جَرير بِسَنَدِهِ عَن ابْنِ عَبَّاس في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ قال: قد مَضَىٰ ذَلِكَ، كَانَ قَبْلَ الهجرة، انْشَقَ الْقَمَرُ حَتَّى رَأَوْا شِقَّيْهِ.

٦ ـ وروى البيهقيُّ عن عبْد الله بْنِ عُمَر في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ قال: وقَدْ كان ذَلِكَ على عَهْدِ رَسُولِ الله، انْشَقَّ فِلْقَتَيْنِ، فِلْقَةً مِنْ دُونِ الْجبَلِ، وفِلْقَةٌ مِنْ خَلْفِ الْجَبَلِ، فقال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ»،

وهكذا رواه مسلم والترمذيُّ من طُرُقٍ عن شعبة عن الأعمش عن مجاهد.

٧ ـ وعند البخاريّ عن عبد الله بن مَسْعُود قال: انْشَقَّ القَمَرُ على عهد رسول الله ﷺ، فقالَتْ قُرَيْشٌ: هٰذا سِحْرُ ابنِ أبي كَبْشة. قال: فَقَالُوا: انظُروا مَا يأتِيكُمْ بِهِ السُّفَّار[١]، فإنَّ مُحَمَّداً لاَ يَسْتَطِيعُ أنْ يَسْحَرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ، قال: فَجَاءَ السّفَّارُ، فَقَالُوا ذَلِكَ.

٨ ـ وروى البيهقيُّ عن مَسْرُوقٍ عَنْ عَبْد الله، قال: انْشَقَّ الْقَمَرُ بِمَكَّةَ حَتَّىٰ صَارَ فِرْقَتَيْنِ، فَقَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: أَهْلَ مكَّةَ، هٰذا سِحْرٌ سَحَرَكُمْ بِهِ ابْنُ أبي كَبْشَةَ[٢]، انْظُرُوا السَّفَّارَ، فإنْ كَانُوا رَأَوْ ما رَأَيْتُمْ فَقَدْ صَدَقَ، وإنْ كَانُوا لم يَرَوْا مِثْلَ ما رَأَيْتُمْ فَهُوَ سِحْرٌ سَحَرَكُمْ بِهِ.

---

(١) **السُّفَّار**: المسافرون.

(٢) **ابن أبي كبشة**: يعنون محمّداً نِسْبَةً إلى أبيه من الرضاعة، زوج مرضعته حليمة.

قَالَ: فِسُئِلَ السَّفَّارُ. قال: وَقَدِمُوا مِنْ كُلِّ جِهَةٍ فَقَالوا: رَأَيْنا.

٩ ـ وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال: انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلىٰ عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ حتَّىٰ رَأَيْتُ الْجَبَلَ مِنْ بَيْنِ فُرجَتَيْ الْقَمَرِ حينَ انْشَقَّ.

فهل بعد هذه الرّوايات الثابتاتِ من أسانيد مختلفة مجالٌ لتشكُّك بَعْضِ المتشككينَ الذين يحاولون تأويل النّصّ القرآني، وحَمْلَهُ على أنَهُ خَبَرٌ عمّا سَيَحْدُثُ مُسْتَقْبِلاً عِنْدَ قِيامِ السَّاعَة، أو قُبَيْلَها.

خطأ ابن كيسان:

زعم ابن كَيْسان أنَّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ على التقديم والتأخير، وأنّ الأصل انْشَقَّ الْقَمَرُ واقْتَرَبتِ الساعة، مُتوَهِّماً أنّ انشقاق القمر سابقٌ لاقتراب السّاعة.

لقد ظنّ أنَّ اقترابَ السَّاعة هو وقُوعُها، فوقَعَ في الخطأ، مع أنّ اقتراب السّاعَةِ شَيْءٌ، ووقُوعَ السَّاعَةِ شَيْءٌ آخرُ، فاقْترابُ السَّاعَةِ حَاصِلٌ قَبْلَ انْشِقَاقِ الْقَمر حتماً.

❁ ❁ ❁

قَوْلُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

بعد الإعلام بالقضية الأولى، والتّنبيه على القضيّة الثانية، أبان الله عزّ وجلّ أن من صفات المكذّبين بالحق، الكافِرين به كُفْراً إرادياً. بتأثير عوامل نفسيَّةٍ غير منطقيَّةٍ ولا عقليَّةٍ، أنْ لا يُوَجِّهوا أَنْظَارَهُمْ لرؤيَةِ الآيات الدَّالآتِ على صِدْقِ الرَّسول، وصِدْقِ مَا جاء به عن ربِّه، إلاَّ عَلى سبيل النُّدْرَة، دَلَّ على هذا استعمال حرف الشرط [إن] دون حرف الشرط «إذا».

والسبب في نُدْرَةِ تَوْجِيههم أنظارهم لآيات الله اتّبَاعُهُمْ لأهواء نُفُوسهم وشهواتها، ونوازِعِها واستجابتُهم لنوازغ الشياطين، وهٰذه عوارض مَرَضِيَّةٌ

تُغْشِي أَبْصَارَهُمْ وَبَصَائِرَهُمْ، أو تُعْمِيها فهم لا يَرَوْنَ آيات الله.

وإنْ يَرَوْهَا على سَبيل النُّذْرة، وذلكَ حين تكونُ حِسّيَّةً وظاهِرَة للجميع، فلا يُنْكِرُها إلاَّ أعْمَى أصَمُّ، فإنَّهُم يُعْرِضُونَ عنها، فَيُعْطُونَها عارضهم، وهو جانبهم، ولا يُوَاجِهُونَهَا، ثُمَّ يُوَجّهُونَ النَّاس للتَّشْكيكِ فيها، فيَصِفُونها بما يُخرِجُها عَنْ كَوْنِها آيَةً حَقيقيَّةً، تَحْمِلُ دَليلاً بُرْهَانِيًّا على صِدْقِ الرَّسُول في رسالته، وفيما جاء به عن ربّه، كأنْ يَصِفُوها بأنّها عَمَلٌ من أعمال السِّحْر، أو أثَرٌ مِنْ آثاره.

ففي شأن أئمة الكفر من مشركي قريش، الَّذين لم يَسْتَفِيدوا مِنْ معجزة انشقاق القمر لرسول الله ﷺ، ولا يستفيدون من أيَّةِ آيَةٍ يَرَوْنها، لأنَّهم كافِرونَ عن تصميم إراديٍّ، علىٰ الرُّغم من أنّهم مُسْتَيْقِنُونَ داخِلياً من صِدْقِه، وصِدْق ما جاءهم به عن رَبّه، إذْ نُفُوسُهُمْ وأهْواؤُهم وشَهَواتُهُمْ نَافِرَةٌ، أنْزَل الله عزّ وجلَّ هٰذِهِ الآيَةَ.

فالمعنى: لَقَدْ رَأَوْا آيَةَ انْشِقَاقِ الْقَمرِ، فأعْرَضُوا وقالُوا: سَحَرَكُم محمد، كَما جاء في بعض الرّوايات التي سَبَقَ ذِكْرُها.

وإنْ يَرَوْا مُسْتَقْبَلاً على سبيل النُّذْرة آيةً ما، مع التَّشْكِيكِ في أن يُوَجّهوا أنظارهم وعقولهم لها، يُعْرِضُوا عنها، ويَقُولُوا مثل ما قالوا في آيَةِ انْشِقاقِ القَمرِ، سَحَرَكُمْ مُحمَّد.

وبالتأمل نُلاحِظُ أنّ بَيْنَ الآيةِ الأولى: والآية الثانية. كلاماً مطويّاً مُقدَّراً، يُمْكِن اسْتِنباطُهُ باللَّوازِمُ الذِّهْنِيَّةِ، وتقديرُهُ كما يلي:

اقتربَتِ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمرُ، فأعْرَضَ أئِمَّةُ الكُفْرِ والشّركِ في مكّة عن آية انْشِقَاقِ الْقَمرِ، وقالوا: هذا سِحْرٌ، وهو دِيْدَنُهُمْ مع كلّ آيةٍ سَيَرَوْنَها، إنْ سَمَحُوا لأنْفُسِهم بأنْ يَرَوْها، أو غَلَبَتْهُمْ الآيَةُ باعتبارها حِسّيَّةً أوْ عَقْلِيَّةً قاهِرَة، وإن شأنَهُمْ أنْ يُعْرِضُوا غير مُبَالِينَ بدلالات آياتِ الله المُقْنعَاتِ مَنْ لديهم استعدادٌ لقبول الحقّ واتباعه.

الإعراض: إعطاء الجانب، وهو منزلةٌ وُسْطَىٰ بَيْنَ الإقبالِ والإدبار، عُرْضُ الشيء في اللّغة، جانبه، وعارضا الإنسان صفحتا خدَّيه.

مُسْتَمِرٌّ: جاء في تفسير هذه الكلمة، أنّها بمعنى: «ذاهب» أيْ: يَمُرُّ ويَمْضي، فلا يبقىٰ، شأنه كشَأنِ كُلِّ أعمال السَّحَرَة.

وجاء في تفسيرها، أنّها بمعنى: «شديد قويّ» اشْتقاقاً من المِرَّةِ وَهِيَ في اللّغة القوّة والشِّدَّة.

وتأتي هذه الكلمة في اللُّغة، بمعنى: «مُعْتَاد متكرر على طريقة وَاحِدَة» وهذا المعنى ألْصَقُ المعاني بمفهوم النّصّ فيما أرى، بَعْدَ أن اكتَشَفْنا ما فيه من مطويَّاتٍ.

على أنّ المعانيَ الثلاثَةَ كُلَّها ممّا يُمْكِنُ أنْ يتَحَدَّثُ به أئمة الكُفْرِ والشّرْكِ هؤلاء، ويكون الأمْرُ على التوزيع فيما بينهم.

وقد يكون من التدبُّر الأمثل حَمْلُ اللفظ على هذه المعاني كُلِّها، فبعضهم يزْعَمه سحراً يمُرُّ ويَمْضِي، وبعضهم يراه شديداً قوياً، وبعضهم يزْعُمُ أنه من الأمور المعتادة المتكرّرة الّتي يأتي بِمِثْلِها السَّحَرَة.

وقد عرفنا أنّ من أساليب القرآن الإيجازيّة استعمال اللّفظ الواحد في معانيه المتعدّدة، إذا كانت قابلةً للاجتماع بوجْهٍ من الوجوه، إذْ لا تنافُرَ بينها ولا تضادّ. وهذا من عوامل وَفْرة المعاني في القرآن المجيد، ومن عناصر الإعجاز فيه.

❀ ❀ ❀

قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾ أي: أعْرَضُوا عن آية انشقاق القمر ودَلالتها، وكان عليهم أن يسْتفيدُوا منها الدّلالة على أنّ محمّداً رسُولُ الله حقاً وصِدْقاً وأنّ ما جاءَ به

عن ربّه بلاغٌ حَقٌّ وصدق، ولكنّهم كذّبوا رَسُول الله محمّداً، وكذّبُوا ببلاغاته عن رِبِّه، فلم يؤمنوا بالقرآن، ورفَضُوا اتّباع الرَّسُول فيما جاءهم به.

وإذْ رَفَضُوا اتّباع الرَّسُول على صراط الحقّ والخير والْهُدَىٰ والفضيلة، لم يكُنْ لهم إلاَّ أن يَتَّبِعُوا أهْوَاءهم، لأنَّهم ما داموا أحياء في هذه الحياة الدينا فلا بُدَّ أنْ يَتَحَرَّكُوا في اتّجاهٍ ما، فإذْ لَمْ يَتحرَّكُوا متَّبعينَ الرَّسُول على صراط الله، فلا بُدَّ أنْ يَتَحَرَّكُوا مُتَّبِعِينَ أهْوَاءَهم، أمّا السُّكُونُ بلا حَرَكَةٍ فَهِيَ طَبيعةُ الموْتى.

هذا ما دَلَّ عَلَيْهِ قوله تعالى؛ ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾. أي: ولو صَدَّقُوا بأنّ محمّداً رسول الله، وَصَدَّقُوا بما جاءَهُمْ به عن ربّه، لاتَّبَعُوه، وسَلَكُوا صراط الله المستقيم.

واتّباعُ الأهواء يشْمَلُ اتّباعها في القضايا الفكريّة، واتباعَها في القضايا الاعتقاديّة، واتّباعها في القضايا النفسيّة، واتباعها في القضايا العاطفيّة، واتّباعَها في القضايا السُّلوكية في مُخْتَلِف شُؤُونِ الحياة.

وبما أنّ أهْواء النّاس لا تَتَطابَقُ غالباً، فلا بُدَّ أن يكون مُتَّبِعُو أهوائهم في أمْرٍ مَرِيجٍ مختلط من أمُورٍ غير متجانِسة، ولا مُتوافقة، كما قال تعالى فيما سَبَقَ أنْ أنْزَلَ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

فتكامل النَّصَّان في الدّلالة، والمعنى: وكَذَّبوا بالحقّ لما جاءهم واتَّبعُوا أهْوَاءَهم فَهُمْ فِي أمْرٍ مَرِيج.

قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

مُسْتَقِرّ: أي: ثابتٌ مُتمكّنٌ، لا شيء يُغيّره عن ثباته، ولا شيء يُزَلْزِله، يقال لُغَةً: استقرّ الشيء، أي: ثبت وتمكّن. واستقرَّ بالمكان، أي:

تمكَّنَ فيه وثبت. **مُسْتَقِرّ**: اسم فاعل من استقر بمعنى ثبت وتمكن وقرّ في مكانه.

فما المرادُ بقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾.

أقول: إذا خَرَجَتْ شِرْذِمَةٌ قليلةٌ من الشعب على نظام الدّولة القويّة، وجَحَدَتْ سُلْطَتَها، واتَّبَعَتْ أهواءها، وقد رَتَّبَتْ الدولةُ لمُحَاسَبَتِها ومُعَاقَبَتِها يَوْماً مُحَدَّداً لَمْ يَحِنْ حينُه بَعْدُ، وتَرَكَتْ لَهَا فُرْصَةَ التَّوْبَة وإصْلاحِ شُؤونِها وَطَاعَةِ الدّولة وَنظامها.

وهذه الشّرذِمة في خروجها على الدولة ونظامِها لا تُؤثّر على شيءٍ من أمور الدولة المستقرّة الثابتة، ولا تَضُرُّ بأعْمالِها إلاَّ أنْفُسَها.

ولإشعار هٰذهِ الشرذمة المتمرّدة بعَدَمِ تأثيرِ تَمَرُّدِها على شيءٍ من أنظمة الدَّولة وأمُورِها الثابتة المستقرّة، قال الرّئيس: إنّ شَرْذَمَةً جَحَدَتْ دولتَنا، وكذَّبَتْ مبْعُوثِينَا، وبَلاَغَاتِنا، واتَّبَعَتْ أهْوَاءَها، فَلْتَعْلَمْ أنّ دَوْلَتنا وأنْظمَتنا وكُلَّ أُمُورِنا مستقرَّةٌ مَحْمِيَّةٌ، لا يُؤثِّرُ على شيءٍ منها أيّ خارجٍ على نظامِنا، ومُتمرِّدٍ على طاعَتِنا، وحِينَ يأتي وقْتُ الحساب والعقاب فإنّنا نأْتي بكلّ خارجٍ منهم مكبّلاً بالحديد مَسُوقاً، لِيَلْقَىٰ جزاءه، وهو لاَ يستَطِيعُ أنْ يَفْلَتَ منّا.

أليس هذا الكلام مُنَاظراً لقول الله عزّ وجلّ بشأن الكافرين المعاندين ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾؟؟

إننا نفهم من هذا القول، أنَّ تكذيبهم واتّباعهم لأهوائهم لا يُغيّر من أنظمة الكون وقوانينه المستقرّة الثابتة شيئاً، ولا يُخْرِجُ شيئاً من مُسْتَقِرّاتِ أُمُور الله عن استقراره، فلنْ يَضُرّوا الله شيئاً.

إنهم لا يَضُرُّونَ إلاّ أنْفُسَهم، فكُلُّ أمْرٍ لله في كَوْنِهِ ثابت مُسْتَقِرٌّ، لا يُقَلْقِلُهُ ولا يُغَيّرُه تكْذِيبُ المكذّبين، ولا تمرُّدُ المتمرّدين. ولا اتباعُهُمْ أهواءهم، مهما اجتمعوا لذلك وحَشَدُوا كُلَّ قواهم.

إنّهم لا يَسْتَطِيعُون أنْ يُغيّروا شيئاً من قوانين الكَوْن وأنظمته، في السّماوات والأرض، لأنّها من أمْرِ الله عزَّ وجلّ، وكلّ أمْرِ لله جلَّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه مستقرٌّ، فهم بأعمالهم لن يضرّوا الله شيئاً.

إنَّهم لا يَسْتَطِيعون أن يَمْنَعُوا عن أنفسهم عقاب الله إذا جاءَ أجَلُهُ، لأنَّهُ من أمْرِ الله، وكلُّ أمْرِ لله جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُهُ مُسْتقرّ، فهم بأعمالهم لن يضرّوا الله شيئاً.

إنّهم لا يَسْتَطِيعُونَ أنْ يَمْنَعُوا ظُهُورَ دين الله على الدّين كُلِّه، لأنّه من أمْرِ الله، وكُلُّ أمْرِ لله جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُه مُسْتَقرٌّ، فهم بأعمالهم لنْ يَضُرّوا الله شيئاً.

إنهم لا يَسْتَطِيعُون أنْ يَظْفَروا بالانتصار أخيراً على رسُول الله والذين آمنوا معه، فقد قضىٰ الله أنْ يَنْصُرَ رسُولَهُ والمؤمنين، وهذا من أمرْ الله، وكُلُّ أمْرِ لله جلَّ جلالُه وعَظُمَ سلطانُه مُسْتَقِر فهم بأعمالهم لن يضرّوا الله شيئاً.

وهكذا إلى سائر القضايا الّتي هي من أمْرِ الله في ظاهراتِ الكَوْنِ، أو في قانون الاجتماع البشري، أو في تاريخ الناس مما هو من أوامر الله فيهم.

المكذبون الذين اتّبعوا أهواءهم وعصاة المؤمنين لن يَضُرّوا الله شيئاً:

فالذين كذَّبوا واتَّبعُوا أهْواءَهُم لا يَضُرُّونَ الله شيئاً، وكذلك عصاة المؤمنين، وقد جاء التصريح بهذا المعنى في عدّة نُصُوصٍ قرآنيّة:

النص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكاية لمقالة هود عليه السلام لقومه:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أي: فإن تتولَّوْا مُدْبرين.

إنّ ربيّ مُهَيْمنٌ بِسُلْطَانِه على كُلِّ شيءٍ، وهو عظيم الحفظ لكلّ شيء في ملكوت السّماوات والأرض، فلا تَسْتَطيعون تغيير أي شيءٍ من قوانينه، وأنظمته، وسُنَنِه.

النص الثاني:

قول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) خطاباً للمؤمنين:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

النص الثالث:

قول الله عزّ وجل في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) أيضاً خِطاباً لرسوله ﷺ بشأن المنافقين أو المرتدين:

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾.

النص الرابع:

قول الله عزّ وجل في سورة (مُحمّد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾: أي: ووقفوا موْقف المحاربينَ الأعداء، في شِقٍّ مُقَابلٍ لشِقّهِ، يُدَبّرون المكايد ويمكُرون.

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي: وسيُبْطل الله أعمالهم الَّتي يُعِدُّونها ويكيدونها ضدّ الرّسول والذين آمنوا به واتّبعُوه.

النصّ الخامس:

قوله الله عزّ وجلّ في سُورةِ (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) خطاباً للذين آمنوا مُحَذِراً لهم من التخلّف عن الخروج إلى القتال ناصِرين لرَسُوله، إذا أُمِرُوا بالخروج أمْرَ إلزام:

﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾.

* * *

قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾.

أي: وأُأكِّدُ أنّ المتحدَّث عنهم وهم كبراء كفّار قريش إبّان تنزيل السورة جَاءهم من أخبار الأولين وقِصَصِهم ما يكْفي لازْدِجَارهم عن كُفْرِهِمْ وعِنَادهم ومعاداة الرّسول والذين آمنوا به واتّبعُوه، وازْدِجَارِهم عن اتّباعِهِمْ أهواءَهُم.

فعْلُ «جَاء» يُستَعْمل لازماً، فتقول: جاء الرَّجلُ. ويسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّياً، فتقول: جاء النّبأُ الرَّجُلَ.

تقول: جاء يجِيءَ جَيْئاً، ومَجِيئاً، وجَيْئَةً، أي: أتَى.

وتَقولُ: جَاءَهُ يجيئه، بمعنى: جاءَ إليه.

وتقول: جاءَ بالشيءِ، أي: أتَى به وأحْضَره.

والفعل في الآية هنا على التعدية.

﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾: الأنباء جَمْعُ «النَّبأ» وهو الخبر، واشتقاقُه من نَبأَ الشّيْءُ، إذا ارْتفع وظهر، ففي الأنباء من عُموم الأخبار ما يلْفِتُ الأنظار إليها، لارتفاع مضامينها، ولأهَمِيّتِها، وكذلك أخبار الأوّلين التي جاءت في القرآن، فهي ذَوَاتُ بُروز وأهَمِّيَّة، لما فيها من عِبَرٍ وعظاتٍ جليلات.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾: أي: ما فيه ازْدِجار، على أنَّ «مُزْدَجراً» مصْدَر ميمي، وهذا أحْسَن الوجوه، وأبْعَدُها عن التكلّف، والمعنى ما فيه كَفٌّ وامتناع، فعله «ازْتَجر» على وزن «افْتَعَل» مطاوع فعل: «زَجَرَهُ» وهو مثل «انْزجَرَ» في المعنى، تقول: زجَرْتُهُ فانْزَجَر، وازتَجَر، وتُقْلَبُ تاء «افتعل» دالاً، بعْدَ الزاي، والدَّال، والذّال، وبهذا صار فعل «ازْتَجَرَ» بصيغه «ازْدَجَرَ» والمصدر الميمي منه مُزْدَجَر.

الزّجر: الكَفُّ، والمنْعُ، والنهْيُ، والنَّهْرُ.

والازْدِجارُ: الامتناع والامْتِثال للزواجر.

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾: بدل من «ما» في عبارة: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾. أي: إيْرادُ أنباءِ الأوّلين التي فيها مُزْدجَرٌ لِمَنْ يتلقّاها بوعْيٍ وعقْلٍ وَرُشْدٍ، هو من أساليب الدَّعْوة والنصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحكيمَةِ جدّاً، فهي في الحقيقة حكْمَةٌ بالِغَةٌ غايَة ما يُمْكِنُ اتخاذُه من أسَاليبَ حكيمةٍ، تَدُورُ على مِحْوَرَي الرَّغَب والرَّهَبِ في النفوس، لَمَا فيها من إثارَةِ الْخَوْفِ في عُمْقِ النفس إثارةً تَجْعَلُ العاقل الرّشيد يَزْدَجِر.

فمن كَانَ لدَيْه استعدادٌ ما للتأثُّر بما يُحَرِّكُ في النفس مركز الخوف لدَيْها، وسَمِع أنْبَاءَ الأوّلين، وما جرى لهم من عقوبات ربَّانيّةٍ أهْلَكَتْهُمْ إهلاكاً عامّاً، لاقَوْا فيه عذاباً أليماً، بسبب كِبْرِهم وعنادهم وكُفْرِهم وطغيانهم، فلا بُدَّ أنْ يزْدَجِرَ عن كُفْرِه وطغيانه، ويُقْلِعَ عن عناده وكِبْرِه.

الحكمة في الأمور[(١)]: وضْعُ الأشياء في مواضعها، عملاً، أو فكراً، أَوْ مَعْرِفة، أو اعتقاداً، أو غير ذلك من صُوَر السُّلُوك الإرادي.

وتكون الحكمةُ باختيار أفضل الأشياء وأَتْقَنِها وأحْسَنِها من كُلِّ ذلك، لِمَا تُخْتَارُ له.

والله جلّ جلالُهُ وعظُم سلطانه، أحْكَمُ الحاكِمين، وأحْكُمُ المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وحكْمتُه بالِغَةُ الغايةَ دواماً في كُلِّ شيء.

والحكيم: هو الّذي يضَعُ الأشياء في مواضعها، ويَخْتارُ أفضل الأشياء وأتْقَنها وأحْسَنها في الأمور المختلِفَةِ، لما يُعْطِي أحْسَنَ نتيجة.

والسّبب في كَوْنِ عَرْضِ قِصَصِ الأَوَّلِينَ، للاتّعاظ والاعتبار بما جرَىٰ لهم بمقتضى سُننِ الله في عباده، حِكْمَةً تَرْبَوِيَّةً بالغةً، أنَّ مُعْظَم الناس يضعُفُ عندهم تأثير الإقناع الفكْرِيّ وحْدَه، ويَضْعُفُ عندهم تأثير الترغيب والترهيب عن طريق الكلمةِ والوَعْدِ والْوَعيد فقط، حتَّى إذا شاهَدُوا الْعَوَاقِبَ في غَيْرِهم كانَتْ هذه المشاهدة للعواقب بالغةً في التأثير بهم غاية ما يُمكِنُ أن يُقدّمه توجيه تَرْبَوِيٌّ، ولَيْسَ فوقَهُ من وسيلة إلاّ إنزال العقاب الفعلِيّ، أو تقديم الثواب الفِعْلِيِّ، لِمَن يُرَادُ إقناعه.

لكِنّ هذا يتنافى مع حكمة الابتلاء لتحقيق الحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، والجزاء، بعْدَ انتهاء ظروفه كُلِّها، وهو غير داخلٍ في الخطَّة أصلاً.

فثبتَ أنّ عَرْضَ قِصَصِ المهْلَكِينَ من أهل القرون الأولى القائمة شواهدها في آثار دِيَارِهِمْ حِكْمَةٌ بالغةٌ حقّاً، أي: بالغة غايَةَ ما يُمْكِنُ اتّخاذُهُ من وسَائِلَ إقناعيَّةٍ ترْبويَّةٍ ذاتِ تَأْثِيرٍ في النُّفُوس المستعدَّة للتأثُّر بالمخيفات.

أمّا الْعُقُوباتُ الْجُزْئيَّةُ التَّرْبَوِيَّةُ الَّتي يُنْزِلُهَا اللَّهُ بالْعُصَاة المعَانِدِين، دُونَ

---

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق سورة (القمر) حول الحكمة في القرآن المجيد.

إهْلاَكٍ عامٍّ، كأنواع الرِّجْزِ الّتي أنزلَها الله عزّ وجلّ أيّامَ مُوسَىٰ عليه السّلام، على آل فِرْعَون ومُتَابِعيهم في مصر، فهي تَدْخُلُ في قائمة وَسَائِلِ الحكمة البالغة، لكِنَّهَا تُصَنَّفُ ضمن الوسائل الْعَمَلِيّة، لا ضِمْنَ الوسائل الإقناعِيَّةِ البيانيَّة، فتِلْكَ لها تَصْنِيفٌ خاصٌّ، فيظَلُّ عرضُ قِصَصِ الأوّلين الّتي تُقَدِّمُ للمخاطبين بمَضَامِينِها عِبَراً وعظاتٍ، في مجال التوجيه والنُّصْح البيانيّ حِكْمَةً بَالِغَةً.

وهذه القصص تُقَدّمُ إنْذَاراً بالنَّظِير مُقْرُوناً بشاهِدٍ تاريخيٍّ مأخُوذٍ مِنَ الْوَاقِعِ، ومَعَهُ أدِلَّةُ إثباته، فَهَلْ فَوْقَ هذا وسيلةٌ إقناعيَّة؟!.

لكنَّ الّذين كذّبوا الرسول محمّداً ﷺ، وكذّبوا بما جاءهم به عَنْ رَبّه، من كبراء كُفّار قُريشٍ إبّانَ تنزيل السُّورَة لم يَنْتفِعوا بالنُّذُرِ القوليّة، ولا بِعَرْضِ قِصَصِ الأولين فيما سبَقَ إنزالُه من سُور، وهي السُّور التالية:

- (المزمّل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول).
- (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول).
- (الفيل/ ١٠٥ مصحف/ ١٩ نزول).
- (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول).
- (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول).
- (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

وبياناً لعدم انتفاعهم بعَرْضِ طائفةٍ من قِصَصِ الأولين في هذه السُّور، قال اللَّهُ عز وجل:

- ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾: أي: فلَيْسَ للنُّذُرِ مَعَ وَفْرَتِها غَنَاءٌ عندَ هؤلاءِ.

عبارة: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ تدلُّ على كلامٍ مطويٍّ، والمعنى: فما

أغنَتْ هؤلاء ما تضمّنَتْه هذه الأنباءِ مِنْ نُذُرٍ، وقَدْ كَشَفُوا عَنْ عِنَادٍ وإصرارٍ على الباطلِ شَدِيدَين، ولا تُغْنِيهِمْ مَعَهُما في المستقْبَلِ النُّذُرُ، مهْما كان شأنُها، وَمَهْما كان إرْهابُهَا وتخْوِيفُها، فَدَلَّ تَعْرِيفُ النُّذُرِ بأداة التعريف الكماليَّة، على كمال هذه النُّذر ببُلُوغها غاية الإرهاب والتخويف.

ومعنى: ﴿فَمَا تُغْنِ﴾ فَمَا تكْفِي وما تَنْفَع، يُقال لغةً: أغْنَىٰ الشيءُ إذَا كفَىٰ ويُقال: ما يُغْنِي عنكَ هذا، أي: مَا يُجْزِئ عنكَ وَمَا يَنْفَعُك.

﴿ٱلنُّذُرُ﴾: جمع «النَّذِير» وهو يأتي اسْماً للإنْذار مصْدر «أنْذَر» ويأتي بمعنى «المنْذِر».

الإنْذار: هو الإخبار بالعواقب غير السَّارَّة، التي فيها شرٌّ، أو ضُرٌّ.

المنذر: هو المخبر بالعواقب غير السَّارّة.

وإذا حَمَلْنا لفظ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ على معنَيَيْنه، طبقاً لأسْلُوب القرآن في استخدام اللَّفظ ذي المعاني المتعَدِّدَةِ في معانيه، ما لَمْ تكُنْ متعارضةً لاَ تَجْتَمِع، كَانَ المرادُ: فما تُغْنِي هؤلاءِ الإنْذاراتُ ولا المنذِرُونَ، وهذا من عوامل وفْرَة المعاني في النّصّ القرآني.

● قول الله عزّ وجل: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ هذهِ آخِرُ فقْرَةٍ من فقرات هذا الدرس الأول من دُروس السّورة، أي: فأدِرْ وجْهَك عن هؤلاء، وَوَلِّهِمْ دُبُرَك، وانْصَرِفْ إلى دعوة غيرهم من الذين لم يَصِلُوا إلى حالة ميؤوسٍ منها كحالَتِهم.

التولّي: أمْرٌ أشَدُّ من الإعراضِ فلا يُفَسَّرُ به، إنَّه إعْطاءُ الدُّبُر، والانصراف لشأن آخر، أمَّا الإعراضُ فهو إعْطاء عَارِضَةِ الوجه، وهي صفحة الخدّ، والمرادُ بالإعراض إعطاء الجانب دُونَ مواجهةٍ، أمَّا التولّي فيكون بإدَارَة الظهر للمتولَّىٰ عنه، وإعطائِهِ الدُّبُر مع الانصراف.

فالإعراض وَسطٌ بين المواجهة والتولّي.

وإذِ انكشف أنَّ المعنيّين من كبراء كفّار قريش قَدْ وصَلُوا إلى حالة ميؤوس منها، إبَّان تنزيل السّورة، كان من الحكمة أن يأمُر الله رسوله بأن يَتَولّىٰ عنهم، لينْصَرِفَ إلى غيرهم، ويُوَجّه جَهْدَهُ واجْتِهادَه لآخَرِينَ يُرْجَىٰ أنْ يُوجَدَ فيهم مَنْ يسْتجيب.

إنَّ حالَ هؤلاء قَدْ تَصَلَّبَ إلى الحدّ الّذي صاروا فيه قوماً ميؤوساً من استجابتهم لدَعْوَةِ الحقّ، فقد ظهر بالامتحان والتجربة، أنّهم كَفَرَةٌ مُعَانِدُون مكابرون مُصِرُّونَ على باطِلِهِمْ، مَهْما ظهَرَ لَهُمْ أنّ الْحقّ هو ما أنت عليه يا مُحمّد، لا ما هم عليه، فَمِن الْخَيْرِ لك، ومِنْ تَوْفير الْجَهْد، وعَدَم ضياع الوقت سُدىً، في مُتَابَعَة اجْتِذَابِهِمْ إلى الإيمان والإسلام، أَنْ تتولَّىٰ عَنْهُمْ مُدْبِراً، وتَنْصَرِفَ إلى مُجَاهَدَةِ غيرهِم مِمَّن لَمْ ينْكَشِفْ بَعْدُ من أمْرِهِمْ ما انكَشَفَ من أمْرِ هؤلاء.

وهذا التولّي هُوَ من الحكْمَة في سُلُوكِ الدّاعي إلى سَبيلِ رَبّه، بالنسبة إلى مَنْ أدْبَر وانْصرَف مُسْتغرقاً في ضلالٍ بعيد، ومعانداً مكابراً.

ولمّا لَمْ يكُنْ هَؤُلاءِ قَدْ وَصَلُوا إلى حالة ميؤوسٍ مِنْها إبَّانَ نُزُول سُورَة النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) أَمَرَ اللَّهُ رسُولَهُ بالإعراضِ فقَطْ عمَّن تولَّىٰ، فقال الله له فيها:

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: أعْطِ عَارِضَكَ فقط لمَنْ أعْطَاكَ ظَهْرَهُ وتولّىٰ، أمَّا من عانَد وكابر وأظهرَ عِداءَه ومُشَاقَّته، ووصل إلى حالة تدبير المكايد، فَتَولَّ عَنْه.

ومن هذا التوجيه القرآنيّ: نستَفِيدُ أنّ مَوْقفَ الداعي إلى سبيل ربّه ينبغي أنْ يكون مع غير المستجيبين لدعوته موقفاً متوسِّطاً لا موقفاً مكافئاً، يُقَابل فيه الموقفَ بنظيره تماماً.

فلا يُقابِلُ المتوَلّيَ المدْبِرَ بالتولّي والإدبار، بل بنِصْفِ هذا المقدار، والنصف هو الإعراض.

ولا يقابل الكافرين المكابرين المعاندين المكايدين، الذين دخلوا مرحلة المضايقة والأذى، وممارَسَةِ صُوَرٍ أُولَى من المقاومة وتدبير المكايد، بمثل أعمالهم، بل يقابلهم بالتولّي والإدبار فقط، أو مع الانصرافِ عنهم، للاشتغال بقومٍ مطموعٍ في استجابتهم، لم تَصِل تجربتهم إلى مرحلة اليأسِ من استجابتهم.

وهكذا تعطينا دقائق البيانِ القرآني مَا ينبغي للدُّعَاةِ أن يتحلَّوْا به، وما هو المطلوبُ منهم من سلوكٍ في سبيل الدَّعوة إلى سبيل رَبّهم.

وهذا من الحكمة التي أمر الله عزّ وجل بها في الدعوة.

وبهذا انتهى تدبّر الدرس الأول من دروس سورة (القمر) وقد اشتمل على البيانات التاليات:

(١) بيان أن عتاة مشركي مكة إبَّان تنزيل السورة، قد وصلوا إلى مرحلة الأعراض عن أيَّةِ آيَةٍ يَرَوْنها، وعَدَمِ التأثر بها، والإصرارِ على موقفهم العِنَاديّ المتعنت، واصفين الآيات العظمىٰ بأنها سِحْرٌ مستمرّ.

(٢) بيان موقفهم من الرسول ورسالته، وهو موقف المصِرّ على التكذيب والعناد والمكابرة.

(٣) بيان موقفهم الحركي في تصرُّفاتهم، وهو اتباعهم أهواءهم المختلفة.

(٤) بيان أنّ اتّباعهم أهواءَهُمْ لا يؤثّر على أيّ أمْرٍ من أمور الله في كونه، فكلُّ أمْرٍ مسْتقرٌّ على فوق النظام الرَّبَّانيّ، وهم لا يضُرُّون إلاَّ أنفسهم.

(٥) بيان أن موقفهم تجاه أعظم الزواجر البيانية البالغة، هو موقف متبلّد حِسّ الخوف من العواقب الوخيمة المهْلِكة، التي أنزلها الله بكفار القرون الأولى.

(٦) بيان الموقف الذي ينبغي أن يُعامِلَهُمُ الرَّسُول به وهو موقف التولّي عنهم للانصرافِ إلى مجاهدةِ غيرهم من الذين لم يَصِلُوا إلى حالة مَيْؤُوس منها.

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة وهو من (بعض الآية ٦ ـ ٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

● قرأ ورْشٌ، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [**يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي**] بإثبات الياء في الوصل فقط. وقرأ البَزّي ويعقوب بإثباتها في الوصل والوقف.

وقرأ باقي الْقُرّاءِ العشرة بحذفها في الحالين ﴿ٱلدَّاعِ﴾.

وهي وجوه عربيّة جائزة في النطق.

● وقَرَأ ابْنُ كثير: [**نُكْرٍ**] بإسْكان الكاف. وقرأ باقي القرّاءِ العشرة: [**نُكُرٍ**] بضم الكاف، وهما وجهان جائزان لغة والإسكان تخفيف.

● وقَرَأ نافع، وابْنُ كثير، وابنُ عامرٍ، وعاصِمٌ، وأبو جعفر ﴿خُشَّعًا﴾ جمع «خاشِع».

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**خَاشِعاً**] على الإفرادِ تنزيلاً لاسم الفاعل منزلة الفعل.

والقراءتان وجْهانِ عرَبيّان جائزان، وكلاهُما فصِيح، لأنّ خُشّعاً جمع تكسير، بخلاف خاشعين، فلو جاءت القراءة خاشعين أبْصارُهم، لكان ينبغي حمْلُها على لُغة أكلوني البراغيث.

لكن جاءت ﴿خُشَّعًا أَبْصَـٰرُهُمْ﴾. والمعنى على القراءتين واحد.

تمهيد:

في هذا الدرس ذكر خَمْسِ لقَطَاتٍ تَصْويريّة بيانيّة تُصَوِّر مقاطع من أحداثِ يوْمِ البعث، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء:

اللَّقطة الأُولى:

دعْوةُ الدّاعي من الملائكة النّاس المبْعُوثين منْ أجْدَاثِهم إلى شَيْءٍ شديدٍ عظيم، هو موقف الحسَاب للمحاكمة، وفَصْل الأحْكام، بالاستنادِ إلى مَا قَدَّموا مِنْ أعمالٍ أوْ أخَرُوا.

اللّقطة الثانية:

مشهَدُ خُشُوع أبْصار أهل الحشر، **خاشِعُ البصر**: هو الذي يَرْمي ببصَرِه إلى الأرض، ويَخْفِضُ طَرْفه.

اللّقطةُ الثالثة:

خروجُ المبعوثين من قُبُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ.

اللّقطة الرابعة:

إقبالُ المبْعُوثين شَطْرَ مَكانِ الداعي، يَعْدُونَ مُسْرعين خائفين، يَمُدُّونَ أعْنَاقهم، ويَخْفِضُون رُؤُسَهم، وينْظُرُونَ بانكسَارٍ وَذُلٍّ وخُشُوعٍ.

اللقطة الخامسة:

تَرْديدُ الكافرين قولَهُم: «هَذا يَوْمٌ عَسِرٌ». أي: يَوْمٌ صَعْبٌ شديد، والمرادُ شِدَّة ما فيه من مخاوف على الكافرين.

وهذا يَدُلُّ على أنّ المؤمنين يُيَسِّرُ اللّهُ لَهُم أمور هذا اليوم، فهم لا يقولون: هذا يومٌ عَسِر.

❁ ❁ ❁

● قول الله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴾.

أي: «اذْكُرْ» أيُّها المتلقّي لهذا البيان، بمعنى: ضَعْه في ذاكرَتِكَ لتستحضِرَه حيناً فحيناً مَا حَييتَ: يَوْمَ يَدْعُ الدّاعي من الملائكة بَعْدَ البعث، إِلَىٰ شيءٍ نُكُرٍ شَديدٍ صَعْبٍ.

إنّ هذا الداعي من الملائكة الذي يصيح صيْحةً واحدةً، يَنْبَغِي أن يَدْعُو الناسَ إلى موقف الحساب، وفَصْلِ القضاء، ويأتي بَعْدَهُما تنفيذُ الجزاء.

إنَّهُ لَمَوْقفٌ شَدِيدُ الْهَوْلِ، عظيم المخاطر، ترجُفُ من هوله القلوب، إلاَّ من طمأنه اللّهُ بأنَّه من الناجين من العذاب.

﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ﴾: قال أهل اللُّغَة: النُّكُرُ والنُّكْرُ بضم الكاف وإسْكانها، هُو الأمْرُ الشّدِيد الصَّعْب.

وموقف الحساب لفَصْلِ الحكم يوم الدّين، شيءٌ صَعْبٌ شديد على الكافِرين والْعُصَاةِ المسرفين على أنفسهم، ومن الحقّ أن يُقَالَ بشَأْنِه شيءٌ نُكُر.

ويَدُلُّنا على أنَّ دَعْوَة الدَّاعِي هٰذِه تكونُ بعْدَ البعْثِ وصْفُ الله عزّ وجل لحظات البعث، بأنَّها لحظاتٌ يَخْرُجُ فيها الناس أحياءً فإذا هُمْ قيامٌ

يَنْظُرون، فينسِلُون، أي: يُسْرِعون في اتّجاهات مختلفَات، كأنهم يُوفِضُون (أي: يُسْرِعُون) سَعْياً إلى نُصُبٍ في أماكن مختلفة، كما كان المشركون في الدنيا يُوفضون إلى معبوداتهم من الأوثان عنْدَ المخاوف الّتِي لا يملكون دفعها، وقد جاء هذا الوصف في عدة نصوص:

● ففي سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾: أي: من رُقادنا، أو من مكان رُقَادنا. **الرُّقاد**: النّوْم.

ويمكن أن تكون الصيحة التي جاءت في هذا النصّ هي صيحة الدّاعي إلى شيءٍ نُكُر.

● وفي سورة الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) قال الله عز وجل:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

فالخروج من حالة الموت إلى الحياة، فالْوُقُوف والنَّظَرُ بَدَهْشَةٍ، كحالة المستيقظ مِنْ نَوْمٍ يَجدُ نَفْسَه في أرْضٍ لا عَهْدَ له بها، أمُور سَابقَةٌ لدعوة الداعي، إلى الأمر الخطير الصَّعْب الشديد، وهو موقف الحساب، وفَصْلِ القضاء.

● وفي سورة المعارج/ ٧٠ مصحف/ ٧٩ نزول) قال الله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: **أجْداث**: جمع «جَدَث» وهو القبر.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾: **النُّصُب**: حجارة كان المشركون يذبحون ذبائِحَهُمْ عليها، وكل ما عُبِدَ من دون الله من أصنام، قيل هو مفرد، وقيل: هو جمع.

● **يُوفِضُونَ**: يسْرِعون. والمعنى: كأنَّهُمْ يُسْرِعُون إلى معبودات مختلفات من الأصنام، في أماكن شتى، فكلُّ فريق يسعىٰ مُسْرعاً إلى جهةٍ هائماً، لا يَدْري إلى أيْن يَسْعَى من فَرْطِ الدهشة والخوف.

وهذا يكون سابقاً لدعوة الدَّاعي إلى شيءٍ نُكُر، لأنَّهم إذا صاح بهم الدَّاعي صيحةً واحدة كانوا جميعاً عند ربّهم مُحْضَرين.

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: مُنْكَسِرَةً يَنْظُرُونَ بأعْيُنِهِمْ إِلَىٰ الأرْضِ مِنْ ذِلّتِهِمْ، وأجْفَانُهم مُنْخَفِضَة.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾: أي: تَغْشَاهُمْ وَتَعْلُو حَواسَّهُمْ ذِلَّةٌ.

فَدَلَّتْ هذه النُّصُوصُ بما تضمَّنَتْه من مفهومات، على أنَّ دَعْوَة الداعي إلى شيءٍ نُكُرٍ تكُونُ بَعْدَ البعث وإسْراع المبعوثين إلىٰ جهاتٍ مختلفات من دَهْشَتهم وحيرتهم في أرض القيامة.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالىٰ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿خُشَّعًا﴾: جمْعُ «خاشع» وهو من يَرْمي ببَصَرِه نحو الأرض، ويغضُّ طرفه. ويقال: خَشَعَ بَصَرُ الرَّجُل، يَخْشَعُ خُشوعاً، أي: انْكَسَر.

وسبق توجيه قراءة [**خَاشِعاً**].

والمعنى: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلقِّي يَوْمَ يَدْعُ الداعي مَدْعُوِّين من المبعوثين خُشَّعاً أبْصارُهم، يَخْرُجونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كأنَّهُمْ جَرادٌ منتشر، وليس هكذا يكونُ كُلُّ المبعوثين، بل يكون للخائفين من المصير التعيس.

خُشَّعاً: مفعول به لفعل [**يَدْعُو**] ونُزِّلَ ﴿خُشَّعًا﴾ أو [**خَاشِعاً**] الوصف منزلة الموصوفِينَ به، اكتفاءً بالصِّفة.

﴿أَبْصَـٰرُهُمْ﴾: فاعل لـ ﴿خُشَّعًا﴾ أو [**خَاشِعاً**] إذْ هو يعمل عمل فعله.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾: الأظهر من جهة المعنى أنْ تكون هذه العبارة على الاسْتِئناف، أي: هؤلاءِ الخائفون الخاشعة أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنّهم جرادٌ مُنْتَشرٌ.

جاء وصفهم بالجراد إشارةً إلى أنّ نَوَيَاتِ أجسادهم في مدافنهم تفْقِسُ عنهم، فينْبُتُونَ ويكبرُون، ويخرجون، كما يخْرُجُ الجراد وينتشر، بعد أن تفقس عنه بيوضِه.

إنَّهُمْ حِينَ يُبْعَثُون، فيَكُونُونَ قياماً يَنْظُرُون، فيُسْرِعُون هائمين مُنْتَشِرين في مختلِف الاتجاهات، يكونون عِنْد خروجهم من قبورهم مثل الجراد المنتشر الطائش.

وبعد أن ينتَشِرُوا ويَتَوَزَّعُوا في الجهات، تكُونُ لقطة مَشْهَدِهم كالفراشِ المبثُوث، وهو ما جاء بيانه في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾﴾.

وتجري الأحداثُ سَرِيعَاتٍ مُتَتابعَاتٍ حَتّىٰ كأنَّها تَحْدُثُ في وقْتٍ واحد، دلَّ على هذا سَوْقُ الْجُملَ دُونَ حَرْفِ عطْف، بينها.

● قول الله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾: أي: فإذا سَمِعُوا صيحة الداعي تَوَجَّهُوا له، وأسْرَعُوا إلى جهته يَعْدُون، بذلٍّ وخضوعٍ، يَمُدُّونَ أعناقهم، ويخفضون رُؤُوسهم، ويَنْظُرون بانكِسَارِ نَحْو الأَرض، وَيَغُضُّون من أجفانهم.

مُهْطِعْ: اسم فاعل من فعل «أَهْطَع» وجاء في معنى هذا الفعل عند

أهل اللُّغة: «أقْبَلَ علَىٰ الشيْءِ بِبَصَرِه فلَمْ يَرْفَعْهُ ـ نَظَرَ في ذُلٍّ وَخُشُوعٍ ـ أقْبَلَ مُسْرِعاً خَائِفاً ـ مدَّ عُنُقَهُ وصَوَّب رَأْسَهُ، أي: خَفَضَهُ وأمَالَه ـ أسْرَعَ فى الْعَدْو».

وكلُّ هذه المعاني صالحةٌ لتفسير: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ بها.

● قول الله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾: أي: يُردِّدُ الكافرون قولَهُمْ: هذا يَوْمٌ عَسِرٌ، أخذاً من الفعل المضارع ﴿يَقُولُ﴾ الدَّال على التكرير المتجدد.

كلمة ﴿عَسِرٌ﴾ مثل كَلِمةِ «عَسِير» أي: هذا يَوْمٌ شَدِيدٌ صَعْبٌ على الكافرين.

ومن بيان أنَّها مقولة الكافرين عَلَىٰ وجه التحديد، نفهم أنَّ الذّين آمَنُوا في الحياة الدنيا ومَاتُوا على الإيمان لا يقولونها، لأنَّهُمْ وإنْ كانُوا عُصَاةً فقد ضَمِنُوا الجنة بوعد اللَّهِ، ولو بعد أنْ ينالوا ما يستحقُّون من عذاب على كبائرهم، ويطمعون في أن يغفر الله لهُمْ ويَرْحَمَهُم، أو أنْ يخفِّفَ من عذابهم الذي يستحقّونه بحسَبِ ذُنُوبهم وآثامهم.

يضاف إلى هذا أنّ الله جلَّ جلاله وعظُمَتْ رَحْمَتُه، يُيَسِّرُ على المؤمنين أمْرَ هذا اليوم الْعَسِر الْعَصِيب، وهُمْ يَشْعُرون بهذا منذ ساعَةِ بعثهم.

ودلَّ على أنّ هذا اليوْمَ عَسِيرٌ علىٰ الكافِرِينَ فقط، قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

أي: أمّا المؤمِنُونَ فَيُيَسِّرُهُ الله لهم.

وقول الله عزّ وجل في سُورَةِ (الْفُرْقَانِ/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) بشأن يَوْم القيامة:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

نظرة عامة حول هذا الدرس:

نلاحظ في هذا الدرس الثاني من دُروس سورة (القمر) أنَّ الله عزّ وجلّ قَدَّمَ لنا لقطاتٍ مِنْ أحوال الكافرين يَوْمَ البعث.

● فَهُم يخرجون من مدافنهم كالجراد التي تَفْقِسُ عنه بيوضه، ويُسْرِعُون مُنْتَشِرين هائمين في كلّ اتّجاه، كالجراد المنتشر.

● وحين يَسْمَعُونَ الداعي من الملائكة يَدْعُوهم، يُسْرِعُون مُهْطِعِينَ، مقبلين شَطْرَ الجهة التي دعَاهم إليها، خاشعةً أبصارُهم مِنكَسِرَةً أجفانُهم، يَرْمُون أبصارهم إلى جهَةِ أرض المحشر تَذَلُّلاً وخُضُوعاً، ويخافون من هول الموقف، إذْ هم مَدْعُوُّون إلىٰ شَيْءٍ نُكر شَدِيد صَعْبٍ عَسِير.

● وهم في سعيهم إلى الجهة الّتي دَعَاهم الداعي إليها يُرَدِّدُون: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾.

وهذه اللّقَطاتُ الّتي أبرزها هذا الدّرس، قَدْ ألْمحَتْ إلَىٰ مَطْوِيَّاتٍ فيما بَيْنها، وقد استطَعْنَا مِنْ غَيْرِ تكَلُّفٍ اكْتِشَاف بعْضِها.

هذه اللّقَطاتُ هي بمثابَةِ مَنْ لَدَيْهِ شَرِيطُ صُوَرِ مشاهد، فثنَىٰ بعْضَهُ على بَعْضٍ، فجَعَل في مكانِ الإرَاءَة الظَّاهِرَة مقاطِعَ مُنْتَقياتٍ، وطَوَى في الأثناء مَقَاطِعَ كثيرة، بَعْضُها يُمْكِنُ الاسْتِدْلاَلُ عليه من المعروض من الشريط للنظر، وكثيرٌ منها يصْعُبُ الاستدلال عليه، لكِنَّ نُصُوصاً أُخْرَىٰ في القرآن قد كشَفَتْه، فعَرَضَتْ مَقَاطِعَ أُخْرَىٰ مُنْتَقيات، وطَوتْ بين المثاني مقاطِعَ، فَمَنْ اسْتَطاع أَنْ يَجْمَعَ هذِهِ النُّصوص المتعَدِّدة، واستطاع أنْ يُؤلِّف بَيْنها

تأليفاً مُتَلائِماً، أمكنه أن يَمُدَّ من شَرِيط المشهد الطّويلِ، ما يُحْسِنُ به التأليف التَّتابُعِيَّ بيْنَ اللّقَطاتِ المعْرُوضاتِ في الإراءَات الْمُتَعَدِّدات الموزّعاتِ في السُّوَر.

عنْدئذٍ يراها متكاملاتٍ غيْر مُتَناقِضَاتٍ وَلاَ مُتعارضات. وهذا الأسْلوبُ القرآنيُّ هو من عناصر الْعُمْق فيه، ومن عناصر الإعجاز البديع، إذْ هو كتَابٌ حقٌ لاَ يأْتِيه الباطل من بين يَدَيْه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حَمِيد.

ولعلّنَا بهذا نَستَطِيعُ أنْ نَفْهَمَ معنىٰ وصْفِ القرآن بأنَّهُ مثاني، في قَوْل اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾.

وبهذا نَنْتَهِي من تدبُّر الدرس الثاني على قدر الاستطاعة من دروس سورة القمر، والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

❃ ❃ ❃

(٨)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس السورة وهو الآيات من (٩ ـ ٤٢) وفيه خمس فقرات

تمهيد:

هذا الدرس يشتمل على الإقناع بقانون الجزاء الرّبّاني، والإنْذار به، عن طريق عرض أمثلة تاريخيَّة، من عقوبات الله العظمىٰ، بالإهلال العامّ الشّامل، لأقوام من كبار مجرمي الأمم السابقة. الذين كذَّبوا رُسُل رَبّهم، وكذّبُوا بالنُّذُر الّتي أَنْذَرُوهم بها تَبليغاً عن الله ربّهم جلّ جلالُه وعظم سُلْطَانه.

وقد جاء عرض هذه الأمثلة في هذه السّورة مصحوباً بموجَزاتٍ من قِصَصِهم مع رُسُلِ رَبِّهم، تحقيقاً لِهَدَفِ التذكير بتكذيب الأوَّلين بالنذر، وابتعاداً عن التكرار التطابقي، بتوزيع لقطاتٍ مختلفَاتٍ من قِصَصِ الأمم المهلكة، على جملة من سُور القرآن المجيد، بمناسباتٍ تستَدْعي التذكير بعقاب اللّهِ لهم، مع اختيار اللّقطات الملائماتِ للأحوال التي وصل إلَيْها القوم الذين كان التنزيل يُعالِجُهُمْ بالدَّرَجَةِ الأولى، ويَرْسُم الله عزّ وجلّ لنا بذلك منهج العلاج الأحسن والأقوم للذين نوجّه لهم أساليب الدَّعوة إلى سبيل ربِّنا، ومنْهاجِ دينه القويم.

واشتمل هذا الدرس على خمس فقرات سبقَ ذكرها لدىٰ بيان دُروس السورة، وهي تتعلّق بموجزات من إهلاك قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط عليهم السلام، والفقرة الخامسة تتعلّقُ بإهلاك فرعون وآله وجنوده، وهم بَعْضُ قوْمِ موسَىٰ وهارون عليهما السلام.

وبفَنِّيَّةٍ بديعة فصَل الله عزّ وجل بين الفقرات بآية:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

فجاءت مُكرَّرَةً أرْبَع مَرَّات للإشارة إلى أنه دَرْسٌ واحدٌ من خمس فقرات، وقد فصّله الله عزّ وجل تيسيراً للذِّكر على طريقة الله في القرآن الذي يَسَّرَه كُلَّهُ للذِّكرِ.

أوّلاً: الفِقَرة الأولى
إهلاكُ قَوْمِ نوح عليه السّلام
الآيات من (٩ ـ ١٧)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا

فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

- قرأ ابْنُ عَامر، وأبو جعفر، ويعقوب: **[فَفَتَّحْنَا]** بتَشْديد التاء.

وقرأ باقي القُرّاء الْعَشَرة: ﴿فَفَتَحْنَآ﴾ بتخفيف التاء.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذْ هُمَا على التوزيع في الأزمنة والأمْكِنَة، فالمبالغة التي دلَّ عليها التشديد تناسب قِسْماً من الْحدَث، والقراءة الأُخرىٰ بالتخفيف تناسِبُ قِسْماً آخر من الحدث.

- وقرأ ابن كثير، وابْنُ ذكوان، وشعبة، وحمزة **[عِيُوناً]** بِكَسْرِ الْعَيْن.

وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿عُيُونًا﴾ بضمّ العين.

والقراءتان وجْهان عَرَبيان جائزان.

- أثبت الياء في الوصل من كلمة: ﴿وَنُذُرِ﴾ وَرْشٌ، فقال في الوصْلِ **[فَكَيْفَ كَانَ عَذَابي وَنُذُرِي ولقَدْ يَسَّرْنا]**.

وأثبت هذه الياء في الوصْلِ والوقف، يعقوب فقَرَأَ في الحالين: **[وَنُذُرِي]** وحذَف هٰذِه الياء في الحالين باقي القرّاء العشرة.

وإثباتُ ياء المتكلّم وحَذْفُها في النُّطْق وجْهَانِ عربيّان جائزان، ويَكْثُرُ في القرآن حذفها للإيجاز، ولِدَواعٍ جماليّةَ في اللفظ.

هذه الفقرة تُقَدِّمُ بإيجازِ بيَانَ بعضِ مَشاهدَ من أحداث إهلاك الله لقَوْمِ نُوحٍ عليه السَّلام بالإغراق الشَّامِلِ الرَّهيب.

وقبل هذه الفقرة بشأن قوم نوحٍ عليه السلام، جاء نَصَّانِ مقتضبان:

النص الأوّل: قول الله عزّ وجلّ في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول):

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾﴾.

النص الثاني: قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فحقّ ما أنْذَرْتُهُمْ بِهِ مِنْ وَعِيدٍ بالإهْلاَك فأهْلَكْتُهُمْ.

ومَا جاء في سُورَةِ (القمر) قَدْ جَاءَ مَبْنِياً عَلَىٰ الْبَيَانَيْنِ السَّابقين في نجوم التنزيل، الَّذَيْن جاءا في سورتي: (النجم) و (ق).

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾: أي: كذَبَتْ قبل كبراء مشركي قريش المعاندين المكابِرِينَ المصرّين على كُفْرِهم، قَوْمُ نوح عليه السلام.

هذه الجملة قد جاءت في النّص الّذي في سورة (ق) لكنْ لم يأتِ في سورة (ق) بيان أيّ تفصيلٍ عن تكذيب قوم نوح عليه السلام، فجاءت سورة (القمر) تُعْطِي شيئاً من التفصيل، إذْ جاء فيها:

● قول الله عزّ وجل: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾.

فجاء في هذا النصّ بَيَانُ ثلاثِ قضاياً مفرَّعةٍ بالفاء لتفصيل البيان المجمل في: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾:

القضية الأولىٰ: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ أي: فكذَّبُوهُ في أنَّه نبيُّ اللَّهِ ورسُولُه، وكذَّبوا بما جاءَهُمْ به مِنْ بلاغات عن ربّه، وكَذَّبُوا بالوعيد الذِي أنذرهم به في الدّنيا وفي الآخرة.

وشَرَّف الله عزّ وجلّ نوحاً بقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ فأبان بهذا أنَّ نُوحاً عليه السَّلام قد كان متحقِّقاً بعبوديَّتِه الصَّادِقة لعظَمَةِ رُبوبيَّة الله جلّ جلاله.

القضيَّةُ الثَّانية: دَلَّ عليْها قول اللَّهِ تعالىٰ: [**وَقَالُوا مَجْنُونَ**] أي: وقال قومُه الذين كذبُوه: هذا رجَلٌ مَجْنُونٌ، مريضٌ بداء الجنُون.

هذا الاتّهام بالجنون ذَرِيعةٌ يلْجأُ إليها كُبَراء كُفَّارِ قوم كلِّ رَسُولٍ، حينما تَدْمَغُهُمُ الحجج البرهانيّة، ولا يَجِدُون حُجَجاً صحيحةً يَدْفعُون بها حجج رُسُلِهم العقليّة المنطقية، ويَخْرِصُون على أنْ يَسْتُروا عَجْزَهُمْ عن أتْبَاعِهم من عَامَّةِ قَوْمِهِمْ، فيُطْلِقُونَ على رسُولِهِمْ عبارة: مجنون. وتُرَدِّدُها جماهيرهم تَرْدِيداً ببغاوِيّاً، ظانّين أنّ رَسُولَهُمُ الذي يدعوهم إلى الإيمان بربّهم ونَبْذِ الشِّرْكيَّات الّتي كان عليها آباؤهم وأجدادهُمْ، والْبُعْدِ عن السُّلُوكِيَّاتِ الّتي فيها ظلْمٌ وعُدْوان، وبغي وطُغيانٌ، وفُحْشٌ وخُسْران، هو مجنونٌ فِعلاً كما قال لهم قادتُهُمْ وأئِمَّتُهم.

والاتّهامُ بالجنُونِ شتيمةٌ يلْجَأ إليها كلُّ مفْتَرٍ مُراوِغٍ مُجْرِمٍ مخاصم بفُجور، لا يَمْلِك قُدْرَة على مقارعَةِ الحجَّةِ بالحجَّةِ المكافئة، والمنطق العقليّ بمنْطِقٍ عقليٍّ مثله.

القضيّة الثالثة: دَلَّ عَلَيْهَا قولُ الله عزّ وجل: ﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: ومُنِعَ من مُتَابعة دَعْوَتِه إلى رَبِّه، وانْتُهِرَ بعُنْفٍ مصحوبٍ بتهديد.

وقد دَلَّ على تَهْدِيدِهِ بالقتل رجماً بالحجارة، قول اللَّهِ عزَّ وجل في سورة (الشُّعَراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في معرض الحديث عن نوحٍ عليه السلام وقومه:

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾: أي: لَنَرْجُمَنَّكَ أنْتَ ومَنْ آمَنَ بِكَ واتَّبَعَكَ.

وكان هذا الزَّجْرُ المصحوبُ بالتَّهدِيدِ بالرجم، في أواخرِ حياة نوح مع كُفَّارِ قَوْمه، قَبْل إهلاكِهِمْ بالْغَرق الذي جاءهم به الطوفان.

الزَّجْرُ في اللُّغَة: المنْعُ والنهيُ والانتِهَارُ، وازْدَجَرَه، أي: أسرف واشتَدَّ عليه في ذلك، أصْل فعل «ازْدَجَر» هو «ازْتَجرَ» على وزن «افتعل» من فعل «زَجَر». قُلِبَتِ التاء دالاً لوقوعها بعْدَ الزاي، وهو قياسٌ مطّرِدٌ في صيغة «افْتَعَل» ممّا فاء كلمة الفعل فيه: «زايٌ ـ أو دالٌ ـ أو ذَال».

هَلْ كانَ نُوحٌ عليه السَّلام أولَ رُسُلِ اللَّهِ للناس؟

للعلماء في هذهِ المسألة رَأيَان:

● فالذين يَرَوْن أنّ نوحاً علَيْه السَّلامُ أوّلَ الرُّسُل، أخذاً بظاهر حَدِيث الشَّفَاعَةِ يُؤَوِّلُون النُّصُوص التّي تَدُلُّ على خِلَافِ هٰذا الرأي تَأْويلاتٍ لاَ يَخْلُو بَعْضُهَا من التَّعَسُّف.

وحديث الشفاعةِ عند البخاريّ ومسلم عن أنس رضي الله عنه في بَعْضِ رواياته قال: قال رسُولُ الله ﷺ:

«يَجْمَعُ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القيامَةِ فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَىٰ ربِّنَا حَتَّى يُرِيحَنا مِنْ مَكَانِنَا، فَيأْتُونَ آدَمَ، فيقولُون: أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِه، ونَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وأَمَرَ المَلائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ويَقُولُ: ائْتُوا نُوحاً أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ويَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذي اتَّخَذَهُ اللَّهُ خَلِيلاً، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، ائْتُوا مُوسَىٰ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ،ائْتُوا عِيسَىٰ، فَيَأْتُونَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّداً ـ ﷺ ـ فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَىٰ رَبِّي، فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِداً، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُقَالُ لِي: ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهُ، وَقُلْ يُسْمَعْ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ، فأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِي، ثُمَّ أَشْفَعُ، فَيَحُدُّ لي حَدّاً. . .» إلى آخر الحديث.

وجاء في روايَات أُخرَىٰ عِنْد البخاري ومُسْلِم لَيْسَ فيها أنَّ نُوحاً عليه السَّلامُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعثَهُ الله.

● والّذينَ يَرَوْن أنّ نُوحاً عليه السَّلام لَيسَ أوّلَ رَسُولٍ بَعثَهُ اللَّهُ للنَّاس يَسْتَدِلُّون بقَوْل الله عزّ وجلّ في سورة (الْفُرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

فهذا النَّصُّ يَدُلُّ دَلاَلَةً ظَاهِرَةً علَىٰ أنَّ قَوْمَ نُوحٍ كَذَّبُوا رُسُلاً، لا رَسُولاً واحداً، وإخراجُ هذا النّصِّ الْقُرآنِيّ عَنْ ظَاهِرِه، يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَأْويلٍ مُتكلّف، وأهْوَنُ منه تأويلُ مَا جَاءَ في بَعْضِ رِوَايات حَدِيث الشَّفَاعَة.

فَروايات أحاديث الشفاعَةِ لَمْ تَذْكرْ من الرُّسُل إلاّ أولي العزم العظام، (نُوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومُحَمّد عليهم الصلاة والسَّلام) ويُمْكِن حَمْلُ عِبَارة: «ائتُوا نوحاً أوّلَ رَسُولٍ بَعثَهُ اللَّهُ» في بَعْضِ الرّوايات، على أَنّهُ أوّلُ الرُّسُلِ الْعِظَامِ من أُولي العزم، بِدَليلِ أنَّ الرُّسُلَ كَثيرون. ولَمْ يَجْرِ التوجيهُ في كُلِّ رِوَاياتِ الحديث لِغَيْرِ أولي الْعَزْمِ من الرُّسل.

ويبقَىٰ بِهذا قَوْلُ الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ على ظاهِرِه، ونفهم منه أنّ قوْمَ نُوحٍ قَدْ تتابَعتْ عليهم رُسُلٌ وأنبياء مُتَعَدِّدُونَ، وكان نُوحٌ عليه السَّلاَمُ آخِرَهم، أوْ كان مع نوحٍ في مراحلِ دَعْوَتِه الأولىٰ لِقَوْمِهِ رُسُلٌ، كما كان هارونُ مع موسى عليهما السلام، وقضَىٰ هؤلاءِ الرُّسُل آجالَهُمْ، وبقِيَ نوحٌ عليه لسَّلامُ في قَوْمِه حتّى الطُّوفان، فَما بَعْدَه، وهو الّذِي خصَّهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بالذِّكْر.

ويُرَجِّحُ هذا الفهْمَ أنَّ إدْرِيسَ عليه السَّلامُ (= خنوخ وعُرِّبَ أَخْنُوخ) من الْمُرْسَلِين، وأنّهُ كَانَ قبل نوح عليهما السّلام عنْدَ أكثر العلماء المحقّقين.

ويُرَجّح هذا الفَهم أيضاً أنَّهُ قَدْ ثَبَتَ في نصوص القرآن المجيد، أنَّهُ ما من أمَّةٍ في تَاريخ النَّاسِ إلاّ جاءَهَا نبيٌّ رَسُولٌ أَمَرَها بعِبَادَةِ الله واجتناب الطّاغوت، وحَذَّرها وأنْذَرَها بعذاب اللَّهِ يَوْمَ الدِّين، مع احتمال معاقبتها بعذابِ مُهْلكٍ في الدّنيا، إذا قضَتْ حكْمَةُ اللَّهِ إبادَتهم.

● فقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سُورَةِ(فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ومَا مِنْ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ السَّابقَةِ إلاَّ مضَىٰ فيها نبيٌّ رسُولٌ بعَثَهُ الله مُبَلِّغاً مَطْلوبَهُ من عباده الممتَحنِينَ في الحياة الدنيا، ومُبَشِّراً لمن اسْتَجَاب وأطاع بالثواب العظيم، ومُنْذِراً لِمَنْ أَبَىٰ وعَصَىٰ بالْعَذَاب الأليم.

ويدخُلُ في هذا العموم من جاء قَبْل نوحٍ عليه السَّلام من الأمم.

● وقال اللَّهُ عزّ وجلّ في سورة (النَّحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾: أي: فمِنْهُمْ من حَكَمَ اللَّهُ له بالْهِدَايَةِ، بالاسْتِنَادِ إلَىٰ مَا قَدَّم في رحلة امتحانه من إيمانٍ وَعَمَلٍ صالح.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾: أي: ومِنْهُم مَنْ حَقَّتْ وثَبتَتْ عليه عقوبَةُ ضَلاَلَتِهِ الْمُعَجَّلة، إضافَةً إلى عُقُوبته المؤَجَّلة إلى يوم الدِّين، بالاستناد إلى ما قَدَّم في رحلة امتحانه من كُفْرٍ وعُصيان، وَبَغْي وعُدْوان، وتَكْذِيب لِرُسُلِ المَلَكِ الدَّيَّان.

﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: أي: مِـن أهـل الـقـرون

الأولى، فآثارُ إهلاكهم وتدمير دِيارهم بَاقِيَةٌ تَدلُّ على انْتِقَام اللَّهِ منْهُمْ بالإهلال الشَّامل.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فدعا نوحٌ عليه السَّلامُ عَقِب زَجْرِهِ بِشِدَّة، وتَهْدِيدِه بالقتل رجْماً بالحجارة إذَا لَمْ يَكُفَّ عنْ مُجَاهَدَته في الدعوة إلى ربّه، وكان قَدْ صَبَرَ عَلَيْهم صَبْراً طويلاً جدّاً قُروناً مُتَتَابِعةً بلَغَتْ أَلْفَ سنةٍ إلاّ خَمْسِين عاماً، فلمَّا عَلِمَ أَنَّهُمْ جادُّونَ فيما هَدَّدُوهُ به، دَعَا رَبَّهُ بِأَنِّي مَغْلُوبٌ في دَعْوَتي لِقَوْمِي، لَمْ أظفَرْ مِنْهُم بمسْتَجِيبين للدِّين الَّذي أَمَرْتَني يَا رَبّ بأنْ أُبلّغَهُمْ إيَّاهُ غير القِلّة القليلة جداً، ومغْلُوبٌ في مجال متابعة دعْوَتي، إذْ زَجَرَني كُبراء قَوْمي بِشِدَّةٍ عن الاستمرار في دَعْوَتي، وهم أصْحابُ قُوَّةٍ لا أمْلِك بقوايَ التّغلُّب عليها، أو مُقَاوَمَتها، فانْتَصِر يا رَبّ لِدِينِكَ وَلِرَسُولك.

وطَوَىٰ النَّصّ أحْدَاثاً كثيرة لَمْ يأتِ فيه ذِكْرُها، منها أَمْرُ الله له بأن يصْنَعَ الفُلْكَ، ومِنْها سُخْرِيَةُ مَلأ قومه منه كُلَّما مَرُّوا عليه وهو يصْنَعُها إلى غير ذلك من أحداث[1] إذِ اقْتَضَت الحكمة البيانيَّة التربوية توزيع لقطات قصّته على مواضع متعدّدةٍ من القرآن المجيد، وإنزالها منجمّة علىٰ مراحل من سَيْر دَعْوَةِ الرّسول محمد ﷺ لقومه.

وفي هذا تعليم للدُّعاة إلى دين الله كيْفَ يُبلّغون، وكيْفَ يُعلّمُونَ، وكيف يُربُّون.

● قول الله عزّ وجل: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا

(١) انظر كتاب «نوح عليه السلام وقومه في القرآن» للمؤلف وهو يشتمل على كلّ النصوص القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع مع نظرات تدبُرِيّة تكاملية.

ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

في هذا النص بيانُ تِسْعِ قضايا أوجزت الحدث العظيم، الذي أغرق الله عزّ وجلّ به كُفَّارَ قَوْمِ نوحٍ عليه السَّلام، إيجازاً فنّيّاً بَديعاً، مع التَّنبيهِ على العبرة الجليلة التي يَجِبُ أنْ يَنْتَفِعَ بِهَا كُفَّارُ القرون اللاّحقة، فيتَّعِظُوا بها، ويَحْمُوا أنفُسَهم من أمثالها بالإيمان والعمل الصالح، واتِّباع الرَّسول فيما جاء به عن ربّه.

تحدَّث الله في هذا النّص بضمير المتكلّم العظيم، الدالّ على عزّةِ رُبوبيّته، وسلطان جبروته وقهره.

القضيّة الأولى: دَلّ علَيْها قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾: **مُنْهَمِرٍ**: أي: منصَبٌّ بِشِدَّةٍ وَتَتابع.

أي: استجبنا لدُعَاء نوح، فأجْرَينا الأحداث الّتي أغْرقْنَا بها كُفّار قَوْمِه، ونَصَرْنَاهُ، فَأَنْجَيْناه والَّذِين آمَنُوا مَعَه بتَدْبيرنا الحكيم، وعِنَايَتِنا المرافقة لكلّ صغيرة وكَبيرَةٍ، بَدْءاً مِنْ أمْرِنا له بأن يَصْنَعَ الْفُلْكَ، حتَّىٰ غايَةِ رِحْلتِه الْبَحْرِيَّة ورُسُوِّ الْفُلْكِ، وهُبُوطِ ركَّابِه على أَرْضٍ طيّبَةٍ مُباركة، وقَدْ تَمَّ إغْراقُ الْكافِرين.

وجاء التعبير البديع عن إنزال الأمطار الْغَزيرة بعبارة: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾: فدلَّ هذا التعبير على أنّ السَّماءَ كانت بمثابَةِ خَزَّانٍ عظيم، مَلِيءٍ بالْمَاء المشابه في سَعَتِهِ وكثرة الماء فيه ببَحْرٍ واسِعٍ كبيرٍ على قَدْر السّماء، ولهذا الخزّان أبوابٌ موزَّعة على ساحة السماء.

وفتح الله جلَّتْ قُدْرَتُه وَعَظُمَ سلطانُه، هذِهِ الأَبْوابَ الكثيرة المنتشرة

كَعُيُونِ الغرابيل، فانهَمَرتِ المياهُ على مَقَادِيرها، مُنصَبَّةً كَأنَّها شَلَّالاَتٌ مُوَزَّعَاتٌ توزيعاً مُنتَظِماً على مواقِعها من الأرض.

إنّها لَصُورَةٌ تمثِيليَّة رائِعَةٌ، تُقَدّمُ بصِدْقٍ فنّي مَا يَشعُرُ به مُشاهِدُ المشهَدِ بعيداً عن أن يكون في داخله.

القضيّة الثانية: دلَّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾:

فَجَّرَ الشَّيْءَ: أي: جعَلَ الشيءَ يَنْبَعِثُ من الباطن إلى الظاهر بقُوَّة وشِدَّة. فَتَفْجِيرُ عيُونِ الماء في الأرض، جَعْلُ الماء يخْرُج من ثُقوب الأرضِ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ، فيَدْفَعُ كلُّ تَالٍ منه السَّابقَ له دَفْعاً قَوِيّاً، مَا دامَتِ الدَّفَقَات المائيَّة تَخرُج من الثقوب والشقوق بتَتَابع.

والتعميم في إسناد التفجير إلى كُلّ الأرض، يُوحِي في دلالَتِهِ الأولى، بأنَّ سَطْحَ الأرضِ كُلَّهُ قَدْ تفجَّرَ مَاءً، وجاء لفظ «عُيوناً» عَقِبَهُ تمييزاً، فحدَّدَ الصُّورَة الّتي تَمَّ تَفْجِيرُ الْأَرْض على وفقِهَا، وهي صورةُ عُيُونٍ مائِيَّةٍ مُتَفَجّرة مُوزَّعَةٍ على كلّ مَساحَةِ الْأَرْضِ، كَعُيُونِ الْغِرْبال، والغرَضُ الدَّلاَلَةُ علىٰ كثرة الْعُيُونِ المتفَجِرَةِ، الّتي يتَخَيَّلُ مَعَها الناظر أنَّ الأَرْضَ كُلَّها تَحوَّلَتْ عُيُوناً مَائِيَّةً مُتلاصِقَةً تَتَفَجَّر.

ولا أُحِبُّ هُنَا مُتَابَعَةَ النحويّين في قولهم: أي: وفَجرْنَا عُيُون الأرض، فقولهم هذا يُلْغِي دَلاَلَة الصُّورَةِ البلاغيّة الأدبيّة الرَّائعة، ويَجْعَلُ التعبير صِيغةً من صيغ تحويل المفعول به إلىٰ تمييز. مع أنّ العبارة تَدُلُّ على أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قَدْ جَعَلَ كُلَّ مَوْقعٍ في الأرض عيناً تتفجرُّ ماءً مُتَدَفِّقاً، لا أنَّهُ جَعَلَ الْعُيُون الّتي فيها تتفَجَّرُ وتتدفَّق، وفَرْقٌ كبيرٌ بَيْن الدَّلاَلَتَيْن، وهذا الْفَرْق يُدْرِكه أصحاب الحسّ الأدبيّ الرفيع.

ولا مانع من فهم الجملة وفق أسْلُوب التضمين، الذي يكون تأويلُها معه كما يلي: وفَجَّرْنَا الأَرْضَ علىٰ امتداد سُطُوحها، فجَعَلْنَاها عيُوناً مائيَّةً مُتَدفِّقة.

ولا مانع أيضاً من اعتبار «عيوناً» نائباً مناب مفعول مُطْلق مبيِّنٍ لنَوْعِه، والتقدير: وفَجَّرْنَا الأَرْض تفجيراً عَيُوناً، أي: فنَوْعُ التفجير كان بِبَعْثِ العيون المتدفّقة، ونظيره: خطْتُ القُماشَ سراويل، وقطَّعْتُ اللَّحْمَ إرْباً إرْباً.

ولا شكَّ أنّ إبقاءَ النَّصّ مُوحِياً بدلاَلَتِه الأدبيَّة البلاغيّة الرائعة خَيْرٌ من التأويل الذي يُلْغي منه هذه الدلالة.

القضيَّة الثالثة: دلّ عليها قول الله عزّ وجل: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢﴾: أي: فالتقىٰ دون تراخٍ في الزمَنِ الماءان: الماء المنهمر من السَّماء، والماء المتفجِّرُ عُيوناً من الأرض، على أمْرٍ من أمُورِ اللَّهِ الحكيمة، قدْ قُضِيَ بقضاء اللَّهِ، بَعْدَ أن قُدِرَ بتَقْدِيره لكل عناصِره وصفاته.

وجاء الاستغناء بلفظ الأمْرِ عن القضاء، لأنّ الله عزّ وجلّ لا يأْمُرُ بأمْرِ إيجادٍ أَوْ إعدام إلاَّ إذا قضاهُ وبَتَّ القرار به، فالأمْرُ بقول: «كُنْ» من العزيز القهار، تابعٌ للقضاء، وقضاءُ الله جلَّ جلالُه مُسْبُوقٌ بتَقْدِيره لكلّ صغيرٍ وكبيرٍ ممَّا قَضَاهُ وفْقَ حِكْمته وعِلْمِهِ سُبْحانه.

فاقتضت الحكمة البيانيَّةُ الإعْلاَمَ بأنَّه قَدْ قُدِرَ، وجاء ختم الجملة بعبارة ﴿قَدْ قُدِرَ ﴾ مناظراً لرُؤوس الآيات في هذه الفقرة، وبفَنّيَّة رائِعةٍ، فيها إيجازٌ وإبْداع، ووَقْعٌ مُحبَّبٌ على الأسماع.

وجاء فعل ﴿قُدِرَ ﴾ مبنيّاً لما لم يُسَمَّ فاعلُه إيجازاً، للعلم به بداهَةً، إذْ لا أحد يُقَدِّرُ مثْلَ هٰذهِ المقادير إلاَّ اللَّهُ عزّ وجلّ. وجاء مؤكّداً بلفظ ﴿قَدْ﴾ الدَّالّ على تحقّق ثبوت الخبر الذي تضمَّنَه البيان، لرفع توهّم أنّ ما حَدَثَ ظاهرةٌ من الظواهر الكونيّة الطبيعيَّة، كمَا يزعُمُ الدهريّون الطبيعيون. أي: نُؤَكِّدُ لكم أنّ انهِمَارَ الماء من السَّماءِ، وتَفَجُّرَهُ مِنَ الأرض عيُوناً أمْرٌ قَدْ قُدِرَ بالتقدير الدقيق الحكيم الشَّامِلِ لكلّ الدَّقائق والتفاصيل، قَبْلَ الأَمْرِ

بِهِ إيجاداً، وقَبْلَ قَضَائه وإمضائه، وظاهِرٌ أَنَّ خبراً من هذا القبيل يحتاج تأكيداً، لدفع الأوهام والشُّكوك.

فما هي الغايةُ من الأَمْرِ العظيم الّذِي قَدْ قُدِرَ والْتَقى الماءُ على تَحْقيقِها؟

إنّ الذّهْنَ ليَسْتَدعيهَا بداهَةً، ولو لم تُذْكَرْ في النصّ، إنَّها إهْلاَلُ كُفَّارِ قَوْمِ نُوحِ الّذين كَذَّبُوهُ، وزَجَرُوه، وتَوعَّدُوه بأن يَرْجموه إذا لم يكُفَّ عمّا هو فيه من دعوة إلى دين ربّه مجاهداً مجادلاً.

وفي عبارة: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ من إبداع وفنيَّته مَا يُثِيرُ قِمَّة العجب، إذْ لَمْ يأتِ التعبير عن أهلاك قوم نوحٍ بالأسْلُوب المباشر، بل بالرّمْزِ والإشارة واللّمح، واقتضى التَّعْبِيرِ بانهمار الماء من السّماء، وتفجيره من الأرض عُيوناً، اسْتِدْعَاءَ التساؤل عن الرابط بين الْمَاءَيْن، والتَّسَاؤُلِ عن الغاية من ذلك، فجاء البيَانُ على مقدارِ تَشَوُّفِ نَفْسِ المتلَقِّي وَتساؤلِهَا، أي: إنّ التقاء الماء المنهمر من السَّماء، والماء المتفجّر من الأرض، قَدْ كانَ على أَمْرٍ قد قُدِرَ، فَهُما آيَتانِ عظيمتان من آيات الله التقتا على تحقيق أمْرٍ من أمُور الله قَدّرَه الله وقضاهُ، وأنْجزَ تَنْفِيذَهُ بالتكوين.

أمّا بيان هذا الأمر فَلاَ لُزُوم للتصريح به:

● ألم يَدْعُ نوحٌ رَبَّه، أنّي مَغْلُوبٌ فانْتَصِرْ، وقد انتصر الله له، فعلَىٰ مَنْ يَنْتَصر؟ وَمَاذا يُحَقِّقُ في هذا الانتصار، إذا مَلأَ الأرض ماءً بما أَنْزَلَ مِنَ السَّماء وبما فَجّرَ مِنَ الأرض؟

لا شَكَّ أنّه إهْلاَكُ كُفَّارِ قَوْمِ نوحِ الّذِين كفَرُوا وظَلَمُوا وطَغَوْا، بالطوفان الذي كانوا فيه مُغْرَقين.

القضيّة الرابعة: دلّ عليها قول اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣﴾: أي: وحَمَلْنَاهُ لِنُنْجِيَهُ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ على مَرْكَبَةٍ بَحْرِيَّة تَطْفُو على الْمَاءِ، وتَجْرِي فيه.

ولَمْ يَأْتِ التَّعْبيرُ عن هذه المركبةِ البحريَّة في هذا النّصّ باسْمِ السفينة، أو الفُلك، وإنّما جاءت الكنايةُ عَنْهَا بذِكْرِ الأشياء الأساسيّة التي صُنِعَتْ مِنهَا، وهي الألواح الخشبيَّة الّتي أَعَدَّها نُوحٌ النجّارُ الماهر بِنَفْسِه، متّبعاً إرْشاداتِ الوحْي الرّبّاني له، والدُّسُر.

الدُّسُر: هي المسامير التي تُثبّتُ بها الألواح بَعْضُها ببعض، وهي أيضاً الخيوط والحِبَال اللّيفِيَّةُ الّتي تُشَدُّ بها الألْوَاح بَعْضُها إلى بَعْض.

وقد يُصَاحِبُ ذلك غَمْسُ الألواح والدُّسُر بما يَمْنَعُ تَسَرُّبَ الماء إلى دَاخل السفينة، ولا يَنتحَلُّ بالماء كالزّفْتِ ونَحْوه.

ومن الإلماح البلاغيّ البديع الكنايةُ عن الشيء بذكر بعض الموادّ التي يتألّفُ منها، فَهٰذِهِ الكنايةُ وأمثالُها ممّا يُرْضي ويُمْتِعُ ذَكَاء أصحاب الذوق الأدبيّ الرَّفيع.

القضيّة الخامسة: دلَّ عليها قولُ اللّهِ عزّ وجلّ: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا . . .﴾: أي: وهٰذِهِ المركبة التي حَمَلْنَاهُ وَمَنْ معه عليها، ذَاتُ الألواحِ والدُّسُرِ، مِنْ صِفَاتِهَا السَّبَبِيَّةِ أَنَّها تَجري عَلَىٰ المَاءِ، ومِنْ صِفَاتِها المحاطَةِ بعِنَايتِنَا ـ علىٰ الرُّغم من كونِهَا عَملاً بِدَائِيّاً في صِنَاعَةِ الفُلْك يَحْمِلُهَا بَحْرٌ مِنَ الماء عظيم متلاطِمُ الأَمْوَاج ـ أَنَّهَا تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا، أي: تَجْري مَحْفُوفَةً بأكْملِ الحفظ والرِّعَايَةِ والحماية من أيِّ شيءٍ يَضُرُّها أَوْ يُؤْذيها، أو يُعَرِّضُ راكبيها لأيّ خطر أو ضَرَرٍ.

إنّ العين فيما يَعْلَمُ الناسُ أرَقُّ وأَلْطَفُ حَاسَّةٍ تُحْفَظُ مِنْ أَقَلّ الأقْذَاءِ وأَصْغَرِها، وهي أكمل حاسَّةٍ للمراقبة تُحيطُ إحاطَةً شَامِلَةً بما تراقبُهُ لحفظه، فإذا كانَتْ مَرْكَبةُ نوح عليه السّلام تَجْري بأعين الله الرَّبّ القدير على ما يشاء، فَذَلِكَ يَدُلُّ علىٰ أنّها في غايةِ الحفظ والرعاية والحماية والمراقبة التّامّةِ لكُلّ حَرَكَةٍ مِنْ حَرَاكاتها على توالي اللّحظَاتِ، وأصغر الأجزاء الزمنيّة.

القضيّة السّادسة: دلَّ عليها قول اللَّهِ عزَّ وجلّ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ في هذه العبارة إضافة بيان يَدُلُّ على الغايَة الجزائيّة من هذا الاهتمام الشديد بحفظِ سفينة نوحٍ عليه السلام كُل هذا الحفظ، إنّها مكافأتُه بثوابٍ معجّلٍ له ولمن معه في الحياة الدُّنيا، جزاء كَوْنِهِ جاهد في الله حَقَّ جهاده في دعوته إلى الله، فَكُفِرَ منْ قِبَلِ قَوْمِه.

كُفِرَ: أي: جُحِدَ وَكُذّب.

لم يأت في هذه العبارة: جزاءً لِنُوح، وإنما جاء فيها: جزاءً لمن كانَ كُفِرَ، لبيان أنّ الجزاءَ لوحظ فيه كونُه كُفِر، أي: أمّا صالحاتُه الأُخرى ومُجَاهَداتُه من أجل ربّه فجزاءُها فوْقَ ذلِكَ يَوْمَ الجزاء الأكبر، وقد تكون عبارة ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ تَعُمُّ من رَكِبَ معه في السّفينة، وهم الّذِين آمَنُوا به، فقد كانوا دعَاةً إلى اللَّهِ مَعَهُ، وكُفِرُوا مِنْ قِبَلِ قَوْمِهِ أيضاً، وتعرَّضُوا للزَّجْرِ والتهديد بالرَّجْم أيضا.

القضيّة السّابعة: دلَّ عليها قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾: أي: ولَقَدْ تركْنا فُلْكَ نُوحٍ آيَةً، بَاقيةً زمَناً طويلاً من بَعْدِه، لتكون علامة على حادثَةِ الطوفان، ومذكِّرَةً بقصّةِ نوحٍ عليه السَّلاَمُ وقَومِه، وشاهداً على عقاب الله عزّ وجلّ للمكذّبين الظالمين الطُّغَاة، وعِبْرَةً لمَنْ يعتبر، وذكرى لمَنْ يَذّكر.

جاء في صحيح البخاري، قال قتادة: بَقِيتْ بَقَايا السفينة على الجوديّ، حتّى نظرَتْهَا أوائل هذه الأمّة.

وقد رأى هذه الآية من رآها، وسَمِع بها مَنْ سمع، وظلّت الأُمَمُ تَتوارث خبر طوفان نوح عليه السلام.

وهذه العبارة: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ مع دلالتها على ما تقدّم شرحه فهي أيضاً كنايةٌ عن وصولها إلى مستقرٍّ ملائم، ونُزولِ نوح عليه السّلام

منها إلى أرْضٍ جَافَّةٍ صالحة، ونزول مَن كانوا معه، وإنْزَالِهم الحيوانات الّتي كانت في السفينة لتجد أرزاقها في نباتات الأرض، وليَبْدَؤوا حياة استقرارٍ على اليابسة.

هذا المطويُّ المدلُول عليه بالكِنَايةِ في هذه السورة، قد جاء التصريح به في سورة (العنكبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

القضيَّةُ الثامِنَةُ: دلَّ عليها قولُ الله عزّ وجل: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾؟: يَدُلُّ هٰذا التّسَاؤل البديعُ على الغرضِ الدينيّ مِنْ تَرْكِ سفينة نوح عليه السَّلام آيَةً بَاقيةً أزماناً طَوِيلة، شَهِدَتْهَا فيها أجْيَال مُتَتَابعةٌ من بعده. وهو أن تكون للادّكار، أي: للتذكّر الآخذ بيد المتذكّر للاتعاظ، إذا كان لدَيْه استعدادٌ للاتّعاظ الإراديّ ورغبَةٌ فيه. مع ما في هذا التَّسَاؤلِ من حضٍّ عى الادّكار والاعْتِبَارِ بما جَرَىٰ لقوم نوح عليه السلام، وقد جاء هذا الحضّ بأسْلُوب الاستفهام. ومع ما فيه أيضاً من إشْعَارٍ بقلّةِ المدَّكّرين، لأنّ السُّؤالَ يَسْأَلُ عن واحدٍ مُدَّكرٍ يعتَبر بما جرىٰ للأوّلين من عقابٍ رَبَّانيّ.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾؟ «هل» حرف استفهام يُسْتَفْهَم به عن التصديق الإيجابي (أي: عن وقُوعِ النِّسْبَة بين المسْنَدِ والمسند إليه). «مِنْ» حرف جرٍّ زائدٍ جيءَ به للتَّنْصِيص على الاستغراق الشامل لكلّ أفراد العام «مُدَّكِرٍ» مُبْتدأٌ مجرورٌ لفظاً مرفوعٌ مَحلاً، والخبرُ محذوف مقدَّرٌ ذِهناً، أي: فَهَلْ من مُدَّكِرٍ مَوْجودٌ؟

لفظ «مُدَّكِر» أصْلُهُ «مُذْتَكِر» من فعل «اذْتَكر» على وزن افتعل، وقُلِبَتِ التاءُ دالاً إذْ جاء قبلها ذالٌ، وهذا قياسٌ مُطرِدٌ، ثُمَّ قُلِبَتِ الذال دالاً وأُدْغِمَتْ بالدَّال بَعْدَها، فصار الفعل «ادَّكَرَ» واسْمُ الفاعل مِنْهُ «مُدَّكِر». وأَصْلُ فعل «اذْتَكر» ذَكَرَ، أضيفَتْ إليه تاء «افْتَعل».

القضيَّة التاسعة: دلّ عليها قول الله عزَّ وجلّ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾؟:

أي: فعلَىٰ أيَّةِ حالٍ كان عَذَابِي لكُفَّارِ قَوْمِ نُوحٍ؟. وعلى أيَّةِ حَالٍ كانَتْ نُذُرِي لِقَوْمِ نُوحٍ؟

نُذُرِي: أي: إنذاراتي الّتي بلّغَهُمْ إياها رسولي نوح. **الإِنْذَار**: الإعلام والإخبارُ بعواقب غَيْرِ سَارَّةٍ.

في هذه الجملة سؤالٌ ينتَزِعُ الجواب انْتزَاعاً منْ كُلّ ذي فكر عادِيّ يَفْهَمُ المسائل السّهلة، دون حاجة إلى رَوِيَّةٍ وَتَأَمُّل فيقُول:

- لَقَدْ كانَ العذابُ عذاباً شَدِيداً مخيفاً، يُثير الرَّهَبَ والاتّعاظ والادّكار.

- ولقد كانت النُّذُرُ الَّتي أَنْذَرَ اللَّهُ بها قَوْم نُوحٍ على لِسَانِ رسولهم نُذُراً صادقةً، حَقَّقَ الواقِعُ الثابتُ في التاريخ ما جَاءَ فيها بلا نُقْصَان، وَظَلَّتْ آيَتُهُ بَاقِيَةً حقباً كَثِيرَةً وشَهِدَتْها أجيالٌ فَأَجْيَالٌ من الناس.

فما أَبْدَعَ هٰذا الإيجاز وَما أحكه؟!! وما أَغْزَرَهُ دَلاَلاَتٍ وَأَوْفَاه بالمقصود من البيان في المرحلة الّتي نزلَتْ فيها سورة القمر؟!!

- قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾؟

التَّيْسِير: التسهيل والتخفيف.

للذِّكْرِ: أي: للحفظ والتذكُّرِ، عِنْد كلِّ مُناسبَةٍ داعيَةٍ لتذكُّر ما يُلائم المناسَبةَ من آياتِ القرآن.

وقد جعل الله عزّ وجلّ هذه الآيَةَ فاصلاً يَتَكَرَّرُ بِفَنِّيَةٍ بيَانِيَّةٍ أَدَبِيَّةٍ، دَالاً بهَذَا الصَّنِيعِ علىٰ أنَّ توزيع لَقَطَاتٍ مختلفاتٍ منْ قِصَصِ المهلَكين الأوّلين على نُجُوم التنزيل، وبمناسباتٍ مختلفات، لَهُ حِكَمٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنْها تَيْسِيرُ القرآن للحفظ والذّكْرِ، بالنسبة إلى من يُهِمُّهم أن يحفَظُوه، ويُرَتِّلُوهُ، وَيَتَذَكَّروه.

ولا يخفىٰ ما في هذا من دعوة لحفظ القرآن وتدبُّرِهِ وَتَذَكُّره، والاتعاظ بمواعظه، والاعتبار بعِبَرِهِ، وتَفَهُّمِ دَلَالاته، والعمل بوصاياه، بأداء ما أوجب الله على عباده، واجتناب ما نهاهم عن فعله أو عن الاقتراب منه.

ومن تيسير الله عزّ وجل القرآن للذكر سَلاسَةُ آياته، وحُسْنُ انتقاء كَلِمَاته، وإتقانُ تراكيبه، وما فيه من صُوَرٍ بيانية رائعة، تَثْبُتُ في الذاكِرَةِ لحُسْنِهَا وإبْدَاعها، وَمَا فيه من كنايات بَعِيداتٍ عَنِ التعبير المباشر، وما فيه من مَطْويّات مختلفاتِ الْعُمْقِ، الَّتي يحتاج استخراجها إلى مقادِيرَ من ذكاء المتلَقِّين، فمنها ما يُسْتَخْرَج بالذكاء القليل، ومِنْها عميقٌ يَتطَلَّبُ ذَكاءً من مُسْتَوَىٰ ذكَاءِ العباقرة، وما فيه أيضاً من إعجاز بلاغِيٍّ فَرِيدٍ مُعْجِبٍ، تَعْشَقُهُ النفوس، وتلْتَقِطُهُ بلَهْفَةٍ، وتحفَظُه.

وكلُّ ذي حسٍّ أَدَبيٍّ يُدْرِكُ أنَّ النُّصُوصَ الأدبيَّة الرَّفيعة المثيرة للإعْجَاب، تتَعَلَّقُ بها النفوسُ والقُلُوب، فتحفَظُها، وتردّدها، وتتذَكَّرُهَا حيناً فحيناً.

ومن هذا كانت الأمثالُ الدّارِجَةُ أكْثَر النُّصُوص ثباتاً في ذاكرَةِ الناس، وكذلك روائع أبيات الشعر، وروائع قصائِده، وجُمَلُ الْحِكَم البديعةُ المحرَّرَة.

❁ ❁ ❁

ثانياً: الفقرة الثانية
موجز إهلاكِ عَادٍ قوم النبيّ الرسول هود عليه السّلام
الآيات من (١٨ ـ ٢٢)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾.

● أثبت يَاءَ المتكلّم في كَلِمةَ: ﴿وَنُذُرِ﴾ في الآيتين (١٨) و (٢١) ورَشٌ في حالة الوصل ويعقوب في حالتي الوصل والوقف. وحذفها في الحالين باقي القرّاء العشرة، وهي وجوه عربيَّةٌ جائزَةٌ، والياء في حالة الحذف مقدَرَة ذهناً، وفي حذفها إيجازٌ وجمال في النطق، ولا سيما إذا اقتضاه تناظُر رُؤُوس الآيات.

تمهيد:

هذا النصّ رابع نصٍّ نزل بشأن عادٍ قوم هود عليه السلام، سبقه ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) ثُمَّ مَا جاء في سورة النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) ثُمَّ مَا جاء في سورة(ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

وجاء في هذهِ النُّصوص تَدَرُّجٌ ارْتِقَائِيٌّ تكامُلِيٌّ في البيان، يحسب المناسبات الداعيات، دون تكرارٍ في العناصر، باستثناء ما يقتضيه الرَّبْطُ والتوجيه للعظة والاعتبار، فالتوجيه للعظة والاعتبار هو بمثابة الجرْعَات الدوائيّة التي يَسْتَدْعِيها العلاج الدعويُّ التربويّ.

وفي هذا النَّصّ الرابع من سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بَيَانٌ موجَزٌ جدّاً لوسيلة إهلاكهم، مع إلماحٍ خاطفٍ لمشهد إهلاكهم، بإبراز لقطة تَصْوِيرِيَّةٍ مِنْهُ، تَكَرَرَتْ طَوَال يَوْم نَحسٍ مُسْتَمرّ عليهم.

فبعد عبارة العنوان ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ الّتي لا بُدَّ مِنها مَدْخَلاً للحديث عن إهلاك القوم، جاء البيان الموجز الّذِي سبقت الإشارة إليه.

«عادٌ» أُمَّةٌ من العرب البائدة، مُسَمَّاةٌ باسم جدّها «عاد» وهو من سُلالة سام بن نوح عليه السلام. وكانوا يسكُنُون الأحقاف. وهي أرض من جنوب شبه الجزيرة العربيّة، تقع في شمالِ حضرموت، ويقع في شمال الأحقاف الرّبع الخالي، وفي شرقها عُمان، وموضع بلادهم اليوم رمال قاحلة، وهي مُطِلَّةٌ علىٰ البحر يقال لها الشِّحْر، واسْمُ واديهم «مُغِيث».

بفَنِّيَّةٍ بدَيعة جاء البيان الموجز عن إهلاك عادٍ مَحْصُوراً بحاصِرَيْنِ مُتَماثلين، كَقَوْسَيْنِ نَضَعُهما في كتاباتنا المعاصرة للتَّمييز والتَّنْبيه ولَفْتِ النظر، لكِنَّ أقواسَنا خُطُوطٌ رَمْزِيَّة لا معنىٰ لها في ذواتها، أمَّا الحاصِران المتماثلانِ في هذا البيان الموجز فقد جَاءَا في جُمْلَةٍ كلاميَّةٍ تَنْتَزِعُ الاعتراف بصيغتها الاستفهاميَّة، وتُوجّه للعظة والاعتبار والادّكار، وهي قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾؟ قَبْلَ عرض اللقطات المختارات من مشهد إهلاكهمْ، وبعد عرضِها، فما كان قبل عرضها فهو توطئة لتقديم الجواب، ويتبعه بيان كيف كان العذاب وكيف كانت عاقبة النذر، وما كان بعده فهو لانتزاع الجواب من المتلقي، وهذا الاستفهام استفهام تقريري يُوجَّهُ لانتزاع الاعتراف بعظَمَةِ العذاب، وصِدْقِ أنْباءِ النُّذُور، (أي: الإنْذارَات).

والمعنى: فعلىٰ أيّ حالٍ كانَ عذابي لقَوْمِ عادٍ؟ وعلى أيّ حال كانت نُذُري لقَوْمِ عاد؟

وقد سبق آنفاً تحليلُ هٰذِهِ العبارة.

وبين هاذَين الحاصرين جاء قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ ﴾.

جاء تأكيد هذا النبأ بمؤكّدَين: «إنَّ» والجملة الإسمية، لأن المقصود بالخطاب المكذبون.

الرّيحُ الصّرْصَر: هي الرّيح الشديدة البرودة، القويّة السَّريعة، الّتي تَصْطَدِمُ بالأشياء، فتنطَلِقُ بِهَا أصواتٌ يتواتَرُ فيها ما يُشْبِهُ حَرْفَي الصّاد والرَّاء، فَسُمِّيَتْ صَرْصراً.

في يَوْمِ نَحْسٍ: أي: في يومِ جَهْدٍ وَضُرٍّ وَعَذَابٍ وَشِدَّةٍ وآلام،

وإضافةُ «يَوْم» إلى «نَحْس» على معنَىٰ الاختصاص، والمعنى: في يوْمٍ اختصَّ بالنَّحْسِ المنصَب على عادٍ قَوْم هُودٍ عليه السَّلامَ إذْ كَذَّبوا رسُولَ ربّهم، وكَذَّبُوا بما جاءهم به عن رَبّه، وظَلَمُوا وطَغَوْا وَبغَوْا.

فوسِيلةُ تَعْذِيب وإهلاك عادٍ كانَتِ الرِّيحَ الصَّرْصَر.

مُسْتَمِرٌّ: أي: شَدِيدٍ قَوِيّ، ومُتَكَرِّرٍ في نوازِل النَّحْسِ بتَتَابُعٍ وَتَلاحُقٍ، حتَّىٰ تَحقَّقَ إهْلاكُ القوم جَمِيعاً.

جاء في هذا النصّ بيانُ أنَّ الرّيحَ الصَّرْصَر تتابعَتْ على عادٍ في يوم نَحْسٍ مُسْتَمِرّ، للإشارة إلى أنَّ إهلاكَهُمْ قَدْ تَمَّ في هٰذَا اليوم.

لَكِنَّ الرِّيح وأسْبَابَ النَّحْسِ لم تَنْتَهِ في هذا اليوم بل بَقِيَتْ سَبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ حُسُوماً، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحاقة/ ٦٩ مصحف / ٧٨ نزول):

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

وقد جاء هذا التكميل البيانيُّ وفق أسلوب التَّدَرُّج البياني في النصوص القرآنيّة والتكامل في توصيلِ المعلوماتِ المراد بيانُها.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: أي: تَقْتَلِعُهم اقْتِلاعاً بشِدَّة، مهما استمسكوا بثوابت في الأرض. فإذا نَزَعَتْهُمْ وَرفَعَتْهُمْ طَرَحَتْهُمْ صَرْعَىٰ، أي: هَلْكَىٰ مَقْتُولينَ مَطْرُوحين.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾: أي: فيكُونُونَ بَعْدَ انْتزاعهم ورفعِهم وطَرْحِهِمْ وإهلاكهم وتناثُرِهم صَرْعَىٰ، كالنَّخل إذَا قُلِعَتْ مِنْ جُذُورها، وطُرِحَتْ أرْضاً، وعَدَتْ عَلَيْها الأواكِلُ فَأَكَلَتْ بُطُونَها فَجَوَّفَتْها.

﴿أَعۡجَازُ﴾: جَمْعُ «عَجز» وهو مؤخرّ الشيء وأسفله، وأعْجَازُ النَّخْلِ هِيَ أُصول شَجَر النَّخْل.

﴿مُّنقَعِرٍ﴾: أي: مُنْقَلِع من أُصوله، ومُنْقلِب مطروح على الأرض، ويأتي لفْظُ «مُنْقَعِرٍ» بمعنىٰ قَدْ أُخْرِج ما في بَطْنِه، فَهُوَ مَنْزُوعُ الجوف.

وُصِفَ النخلُ هنا بالتذكير ﴿مُّنقَعِرٍ﴾ ووصف في سورة (الحاقة) بالتأنيث ﴿خَاوِيَةٍ﴾ لأن لفظ النخل اسم جنس، يصحّ فيه التذكير والتأنيث، فالتذكير يلاحظ فيه اللّفظ، والتأنيث يلاحَظُ فيه المعنى.

قول الله عزّ وجل: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾ قد سبق تحليل هذه العبارة.

قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾﴾.

سبَق تَدَبُّرُ هٰذَا النَّصّ في آخِرِ موجز إهلاك قوم نُوحٍ عليه السلام.

❊ ❊ ❊

ثالثاً: الفقرة الثالثة
موجز إهلاك ثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام
الآيات من (٢٣ ـ ٣٢)

قال الله عزّ وجل:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴿٢٥﴾ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾﴾.

● قرأ ابْن عامر وحمزة: [سَتَعْلَمُون] بتاء المخاطَبين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿سَيَعْلَمُونَ ﴾ بياء الغائبين.

وبين القراءتَيْنِ تكامُلٌ في الأداء البيانيّ، فقراءة الجمهور تتحدّث عن كُفَّار «ثَمود» الغائبين خطاباً لرسُولِهم والّذِينَ آمنوا به واتَّبَعُوه.

وقراءة ابن عامر وحمزة تخاطب كُفَّار ثَمُود خطاباً مباشراً، وفيها حكايةٌ لما وقع.

وكلا الأمْرَيْنِ مَقْصُودَان في البيان.

● وكلمة: ﴿وَنُذُرِ ﴾ في الآية رقم (٣٠) فيها القراءات السّابقات في أمثالها من السُّورة بالنسبة إلى إثبات ياء المتكلم أو حذفها.

تمهيد:

هذا رابع نصّ نزل بشأن ثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام، سبقه ما جاء في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول) وهو قولُ الله عزّ وجلّ فيها بشأنهم وشأن عاد وفرعون ويلْحَقُ به قومه:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

ثُمَّ ما جاء في سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن إهلاك اللّهِ أُمماً سابقة:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ ﴾.

ثُمَّ مَا جاء في سُورَة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وقد سَبَقَ تدبُّر هذه النّصوص خلال تَدَبُّرِ سُورِها.

وقد جاء في هذهِ النصوص تَدرجٌ ارْتِقَائِيٌّ تَكامِلِيٌّ في البيان بِحسَبِ المناسَبَاتِ الدَّاعِيَاتِ، وقَدْ جَاءَ البيانُ مجزَّأً مُتكاملاً لا مُكَرَّراً.

في هذا النّصّ الرابع من سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) جاء تفصيلٌ موجزٌ لقصَّةِ ثمود الّتي انتهَتْ بإهلاكهم بالصَّيْحة، وفيها لقطاتٌ مُنْتَقيات تشتملُ علىٰ بيان تكذيبهم رسُولَ رَبِّهم، وتكذيبهم بما جاءهم به عن الله، وعلى بيان ذريعتهم الَّتي تَذَرَّعُوا بها، لرَفْضِ الإيمان الّذي دعَاهم إليه رسُولُهم صالح عليه السّلام، ورَفْضِ اتّباعه في طاعة الله، وفي الإسلام له، وعلى بيان امْتِحَانهم بالآيةِ الَّتي طَلَبُوها، وهي آيَةُ النَّاقة، وعلى بيان عَقْرِهِمْ لها، وعلى بيان إهلاك الله لهم بالصيحة.

موجز قصة ثمود مع رسولهم صالح عليه السلام:

ذكروا أنّ كبراء ثمود اجتمعوا يوماً في ناديهم، فجاءهم نبيُّ الله ورسُولُهُ صالحُ عليه السلام، فدعاهم إلى سبيل ربِّهِمْ، ووعظهم، وذكَّرَهم بأنْباءِ الْمُهْلَكينَ من قبلهم، قوم نوح، وعادٍ قوم هود.

وقال لجماهيرهم: اتَّقُوا الله وأَطِيعون، ولا تُطِيعُوا أَمْرِ الْمُسْرِفين، الّذين يُفْسِدونَ في الأرْضِ ولاَ يُصْلِحُون.

فقالوا له: مَا أَنْتَ إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا، فأْتِنَا بآيَةٍ إن كُنْتَ من الصادِقين.

وقالوا له: إنْ أنْتَ أَخْرَجْتَ لَنَا مِنْ هٰذِهِ الصَّخْرَةِ نَاقَةً، وَأشَارُوا إلى صَخْرَةٍ مُعيَّنَةٍ لَدَيْهِم، وحَدَّدُوا لَهُ أَوْصَافَهَا الَّتي طَلَبُوا أن تكون مُتصِفَةً بها،

وشدَّدُوا مُتَعَنِّتِينَ في بيان الصّفات التي يجب أن تكونَ علَيْهَا، ومنها أن تكُون حُبْلىٰ عُشَراء[١] طويلة.

فقال لهم رسُولُهُمْ صالحٌ عليه السَّلام: أرَأيْتُمْ إنْ أجبتُكُمْ إلى ما سَألْتُمْ، وفْقَ الأوصَافِ الّتي وصَفْتُمْ، أتُؤمِنُونَ بأنّي رَسُولُ اللّهِ إليكم، وتُصَدِّقُوني فيما أُرسِلْتُ به؟؟.

قالوا: نعم.

فأخذ عُهودَهُمْ وَمَواثِيقَهُمْ على ذلك.

ثم قام صالحٌ عليه السَّلام إلىٰ مُصَلاَّهُ، فصَلَّىٰ لِلَّهِ عزَّ وجلَّ، ثمَّ دَعَا رَبَّهُ أن يُجِيبَهُمْ إلى ما طَلَبُوا.

فَأَمَرَ اللَّهُ تِلْكَ الصَّخْرَة الَّتي عَيَّنُوهَا أن تَنْفطِرَ عن ناقَةٍ عظيمة عُشَراءَ[١] مُتَصِفَةً بالصِّفَاتِ الَّتي طلبَهَا القوم.

فلَمَّا عَاينوها قد انفطرت عَنْها الصّخرة، وجاءت على وفق الأوصاف الّتي طَلَبُوها دَهِشُوا، إذْ رأَوْا أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ قد استجاب لدعاء صالح عليه السلام، وأثبت لهم بهٰذه الآية أنّه رسول ربّهم حقاً وَصِدْقاً.

فآمَنَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ، وبقي أكْثَرُهُمْ على كُفْرِهِمْ وشِرْكِهِم وعِنَادِهِمْ.

وقال لهم الرسولُ صالح عليه السلام: هذه نَاقة اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوها تأكُلْ في أرض الله، ولا تَمَسُّوها بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قريبٌ أليمٌ، في يوم عظيم.

وقال لهم: إنّ الله قد جعل ماءَكم قِسْمةً بينكم وبينها، فلها شِرْبُ يَوْمٍ معلوم، لا تسْتَقُونَ أنتم فيه، ولَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ، لا تأتيكُمْ هي فيه فتُشَارِكَكُمْ سُقْيَاكم.

---

(١) عُشَراء: أي: حُبْلَىٰ مضىٰ على حملها عشرة أشهر.

فقد جعل الله جلَّتْ قدرتُهُ وعظُمَتْ حكمتُه هذه الناقة الّتي أخْرَجَها لهم على وَفْق ما طلبوا، فِتْنةً لهم، أي: امتحاناً كاشفاً لما في نفوسهم، فَجَعَلَ لَهَا فيهم شروطاً:

الشرط الأول: أنْ تُتْرَك سَائمةً تأكُلُ مِنْ أَرْضِ الله كما تَشاء، فهي ناقَةُ الله.

الشرط الثاني: أنَّ الماء الذي يَشْرَبُونَ منه في دِيارِهم قِسْمَةٌ بَيْنَهُم وبَيْنَها، فهم لا يُشَارِكُونَها في نَوْبَتِها، وَهي لا تُشَارِكُهُمْ في نَوْبتِهِمْ.

الشرط الثالث: أنْ لا يَمَسُّوها بِسُوءٍ، فإذا فَعَلُوا أهلَكَهُمُ اللَّهُ بعذاب يومٍ عظيم في الحياة الدنيا، دون إمهالٍ إلى يوم الدّين مع ما سوف يلاقون من عذاب خالدٍ يوم الدّين.

وهذا شأن الخوارق الّتي يُرْسِلُها الله وفْقَ طَلبِ الأقوام، بخلاف الآيات الّتي يُؤَيّدُ اللَّهُ بها رُسُلَهُ على ما يَشاءُ هو، دُونَ تَحْدِيد تَعَنُّتِيّ من القوم.

فلَمَّا عَقَرُوا الناقة أهلكهم الله بالصيحة المقْتَرِنة بالرَّجْفة وبالصاعقة.

وعند المؤرخين في قصتهم تفصيلات، أرجو أن أذكُرَها في موضع آخر من عرض لقطات من قصتهم في القرآن المجيد.

❁ ❁ ❁

التدبّر التحليلي للنصّ.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ثَمُودُ﴾: قَوْمٌ من الْعَربِ البائدة، يُنْسَبُون إلى أَحَد أجْدادهم «ثمود» نَشَؤُوا وتَكَاثَرُوا بعْدَ «عادٍ». وكانُوا خُلَفَاءَ في أرْض الْعَرب من بعْد قوم عادٍ الّذِي أُهْلِكُوا. ورُبَّما كان الّذين آمَنُوا بِهُودٍ عليه السّلام، ونَجَوْا من الهلاك معه أجداداً لهم، أو من أجدادِهم، وقَدْ تكونُ ثَمُودُ هي عاداً الأخرى، إذْ قَوْمُ هُودٍ هم عادٌ الأولى.

وثمود هم قوم النبي الرسول صالح عليه السلام، وكانُوا يَسْكُنُونَ الْحِجْرَ، وهو بيْنَ الحجاز وتبوك، وتُعْرَفُ مَسَاكِنُهم بمدائن صالح، وآثارهم فيها ظاهرة حتى الآن، يزورها محبُّو زيارة الآثار.

ولفظ «ثمود» اسم جمع لجماعة من الناس، فيجوز في العربية تذكيره وتأنيثه، كنُظَرائه، وقد كثُر في القرآن تأنيثه، وجاء مصروفاً وممنوعاً من الصرف.

﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ النُّذر هنا جمع «النذير» الذي هو اسم مَصْدَرِ فعل «أَنْذَر يُنْذِرُ إِنْذاراً». فالمعنى: كذّبوا بالإنْذَارات الّتي أنذرهم بها رسُولهم صالح عليه السلام، فهي إذن إنذارات مُتَعَدِّدات أَنْذَرَهُمْ إيَّاها عَاجِلَةٌ في الحياة الدُّنيا، وآجلةٌ إلى يوم الدين.

ولا يَصِحُّ هُنَا حَمْلُ النُّذرِ على الرُّسُلِ المنْذِرين، لأنَّ الاسْتقراء للاستعمال القرآنيّ دلَّ على أنَّ التكذيب إذا كان لمبَلِّغ الخبَرِ أو البيان تعدَّى الفعل إليه بنفسِه دُون وساطة حرف جرّ، أمّا إذا كان للخبَرِ أو للبيان نفْسِه، فإنّه يتعدّىٰ إليه بحرفِ الباء. مثل: ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ ـ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

ولمَّا كانَت الإنْذاراتُ لاَ تُوَجَّه إلاَّ بَعْدَ الدَّعْوَةِ إلى الإيمان وأركانه، والدَّعْوة إلى الإسْلام والطَّاعة، كانَ ذِكْرُ النُّذُرِ هُنَا دَالاً عَنْ طريق اللُّزوم الذهْنِي على أنّهم كَذَّبوا رسُولَهُمْ صالحاً عليه السّلام، وكذّبوا برِسالته، وكذّبوا بما جاءهم به عن رَبّه، وأخيراً كَذَّبُوا بإنْذَارَاته.

فكان من الإيجاز البديعِ الاقتصار على بيان تكذيبهم بإنْذَاراتِ رسُولهم، لما فيه من دلالَةٍ عَقْلِيَّةٍ على تكذيبهم بما تقتضي دَعَوَاتُ المرسَلِين بيانَه قَبْل إخْبَارِهم بالإنْذَارات، وإذْ كذّبوا بإنْذاراتِ الرَّسُولِ فقَدْ كَذَّبُوا الرَّسُولَ لُزوماً، وكذَّبُوا بكُلِّ مَا جَاءَهُمْ به عن ربّه.

● قول الله تعالى: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾.

في هٰاتَيْنِ الآيتَيْن تلخيصٌ لأرْبَع مقالات قالَها كُبَراءُ كُفَّارِ ثمود، ورَدَّدَتْهَا جماهيرُهُمْ التابعون لهم في مواجهة دعوة نبيّ الله ورسُولِه إليهِمْ صالحٍ عليه السلام، مُعْلِنين بها استكبارهم عن الاستجابة له.

وجاء عطفُ مقالاتهم هذه بحرف «الفاء» الذي يدُلُّ على الترتيب مع التعقيب، نظراً إلى أوّل مراحِلِ تكذيبهم لرسُولهم، لا إلى مرحلة تكذيبهم بالنُّذُرِ الَّتي أنذرهُمْ بها، إذْ إنّ ذِكْرَ النُّذُرِ قد دلَّ على ما قبلها من مراحل باللُّزوم العقلي.

● فَهُمْ قَدْ كَذّبوا رَسُولَهم مُنْذ أبْلَغهُم بأنّ الله عزّ وجلّ قد جعله نبيّاً، وبعَثَه رَسُولاً إليهم، فاقتضت دقَّةُ البيان أن يكون العطف بحرف «الفاء» الدّالّة على الترتيب مع التعقيب، وهٰذا التكْذِيبُ قَد جَرَّ سِلْسِلة تَكْذِيبات كانت الحلقة الأخيرة منها تكذِيبَهُم بالنذر.

وفيما يلي مُتابَعَةٌ تحليليّة تَدَبُّرِيَّة للمقالات الأربع الّتي قالُوها:

المقالة الأولى: دلَّت عليها عبارة: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ﴾؟! استفهامٌ تعجُّبِيٌّ استنكاري، يَنِمُّ عن مُنْتَفِخِ الكِبْرِ في صدورهم، إنَّهم يُعْلنُون بهذا رَفْضَهم لاتّباعِ رَسُولٍ بَشَرٍ مِنْهُمْ، وهُوَ واحِدٌ ليْسَ بجماعة، أي: فكَيْفَ يتَلاءَمُ مَعَ مكانَتِهم العظيمة، ومَنْزلَتِهم الرَّفيعة، أنْ يَتَّبِعُوا بَشراً منْهم واحداً يَزْعُمُ لَهُمْ أنه رَسُولُ الله إليهم.

فَهُمْ يَرفُضُون أوّلاً أن يكون الرَّسُولُ من البشر. وعلى فَرْضِ قَبُولِهم أن يكون من البشر، فإنَّهم يَرفُضُون أنْ يكُونَ شخْصاً واحداً، ليْسَ مَعَهُ رَسُولٌ آخَرُ أَوْ عَدَدٌ من الرُّسُل.

﴿أَبَشَرًا﴾ منصُوبٌ على الاشتغال، أي: أنَتَّبِعُ بشراً واحداً حالةَ كَوْنه منّا، أي: من جنْس البشر نَتَّبِعُهُ.

المقالة الثانية: دلَّت عليها عبارة: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾.

بهذه العبارة أكّدوا زاعِمِينَ أنَّهم إذا اتَّبعُوا بَشراً واحداً من البشر، فإنّهم يكونُون إذاً لَفِي ضَلاَلٍ في مَسِيرتِهم في حياتهم، وفي جُنُونٍ في عقُولِهم وأفكارهم، وهٰذا أعْظَم ما قَدَّمُوه من ذريعةٍ، لتزيين نُفْرَتِهم واستنكافهم عن اتّباع رَسُولهم.

﴿إِذًا﴾ حَرف يدلُّ على المفاجأة في الحال، ويَختَّصُ بالجمل الإسميّة، ولا يحتاج إلى جواب، ولا يقع في ابتداء الكلام.

﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾: أي: لفي جَهْلٍ وضَيَاعٍ، وَبُعْدٍ عمّا هو حقٌّ وخَيْرٌ وَرُشْد.

﴿وَسُعُرٍ﴾: أي: وفي جُنُون، فالسُّعر يأتي في اللّغة بمعنى الجنون، وَيصِفُ الْعَربُ الناقَةَ الْهَوْجاء بأنّها مسعورة، كأنّ بها جنوناً.

ويظهر أنّ هذه المقالة صادرة عن كبراء ثمود، ليصُدُّوا بها جماهيرهم عن اتّباع رسُولهم، أي: فمن اتبعه وهو بَشَرٌ واحِدٌ منهم كانَ منْغَمِساً في جَهْلٍ وَضَياع، وكان مُنْغَمساً في جُنُون، ومعلوم أنَّ الأَتْبَاعَ يَرَون قادتَهم أَهْلَ عقل ورُشْدِ وحسن فهم للأمور، وإدراك للحق والباطل، والخير والشرّ.

دلّ حَرْف «في» علىٰ أنّ الضّلالَ والسُّعْرَ يكون بمثابَةِ ظرفٍ مُحيطٍ بمن اتّبَعَ بَشَراً واحداً مِنهم.

ويُلاحَظُ أنَّهُمْ أكَّدُوا مقالتهم هذه بالمؤكدات التالية: «إنَّ ـ والجملة الإسْميَّة ـ واللّام المزحْلَقَة» ليقْبَل كلامَهُمْ أتباعُهم، وليُشْعِرُوهُم بأنّهم مؤمِنُون بما يقولون، غيْرُ شاكّين، ولا ظانّين، وهذا مِنْهم مبالغة في المكر ومعانَدَةِ الحقّ.

المقالة الثالثة: دلّت عليها عبارة: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!!.

وفي هذه العبارة استفهام تعجُبيٌّ إنكاريّ أيضاً، وهي تدلُ علىٰ

إنكارِهم الشَّدِيد أنْ يَكُونَ هذا الواحد منهم، وهو صالحٌ عليه السلام، مُخْتَاراً اختياراً خاصّاً مِنْ بَيْنِهِمْ مِنْ قِبلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، للنُّبُوَّةِ والرِّسَالَةِ، ولإِلْقَاءِ الذِّكْرِ عليه، وهو الكتاب الرَّبَّانيّ، المطلُوبُ منهم أَنْ يتلَقَّوْه ويتفَهَّمُوا دلالاتِه، ويحفَظُوهُ، وَيَذْكُرُوا أوامره ونواهيه ووَصَاياه عِنْدَ المناسَبَات الداعيات، ليعملوا بها.

ولا يخفى على المتدبّر أنّه قد حصل الاسْتِغْنَاءُ ببيان إلْقاء الذّكْر عليه، عن التصريح بالتعجُّب من اختياره للنُّبوَّة والرّسالة، نظراً إلى أنَّه لا يُلْقَىٰ الذّكْرُ الرَّبَّانِيُّ عليه، إلاَّ بَعْدَ اصطفائه بالنّبُوّةِ والرّسالة.

وهذا الاستفهام التعجُّبِيّ الإنكاريُّ من قادة ثمود، الدَّالُّ على معنىٰ إنكار نبوّته ورسالته، يتضمَّن إشعاراً بأنّ غَيْرَه من كُبَرَاءِ قَوْمِه أحقُّ منه بذلك، فليس من المعقول أن يختاره الله بالخصوص من بَيْنِ مَنْ هُمْ أَحَقُّ بِذَلِكَ من قومه، في زَعْمِهم ومفاهِيمِهِم الطّبقيَّةِ الاستكْبَارِيَّة.

إنَّ تَصَوُّرَاتِهم الباطِلَاتِ في حدود مفهوماتهم المرتَبطَاتِ باعتباراتٍ دنيوية، تَجْعَل حقَّ الامتياز في القوم لأهل المال، أو أصحاب الْعُزْوة والجنود والأنصار، أو أَرْبابِ الأنْسَابِ والأمجاد والمفاخر المتوارثَةِ في الأعراق وفي الأسر، وهذه كلُّها تصوُّراتٌ ومفهوماتٌ باطلات لا وزن لها في ميزان الحقيقة.

إنّ الله عزّ وجلّ لا ينظُرُ إلى هٰذه الاعتبارات الّتي لا ترفع في الحقيقة قيمة الإنسان عنْدَه، إنّما ينظُر جلَّ جلاَلُه إلى قِيَم الفضائل الذّاتيَّةِ، والفضائل الإرَادِيّة في الْتِزَام الحقّ وسلوك سبيل الْهُدَىٰ والخيرِ والكمالِ، في الإنسان الذي يَصْطَفِيه لنبوَّتِه ورسالته، وهو جلّ جلالُهُ أعلم بعباده وما في قلُوبهم مما يُؤَهلهم للاصطفاء، أو لا يُؤَهِّلُهُمْ له، كما قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ في سورة الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿... ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ... ﴿١٢٤﴾﴾.

ودلَّ فِعْلُ ﴿أُلْقِيَ﴾ على أنّ الكتاب الَّذِي أُنْزِلَ على صالح عليه السّلام قد أُنزِلَ عَلَيْهِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، فالإِلْقَاء فيه مَعْنَىٰ الطَّرْح بمرَّةٍ واحِدةٍ، بخِلاف معنَىٰ الإنْزَالِ، والتَّنْزِيل، فلا يَدُلأن على معنى الإلقاء جُمْلَةً واحدة.

ومادة «الإلقاء» في القرآن قد استعملت وهي تُشْعِرُ بمعنى الطَّرْح جملة واحدة في نُصُوصٍ متعدّدة، فمنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) خطاباً لموسَىٰ بما امْتَنَّ به عليه وهو طِفْلٌ يجري به التابوت على شاطئ النيل:

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشَأنِ مباراته مع سَحَرةِ فِرْعَوْن:

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجل في سورة (الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول):

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

ومن الظاهر أنّ كُلَّ مَنْ يُلْقي اللَّهُ في قَلْبِه الرُّعْبَ يُلْقِيه فيه دُفعةً واحدة.

وإذْ أَنْكَرَ كُبَراءُ كُفَّارِ ثَمود أن يكون صالحٌ عليه السّلام نبيّاً رَسُولاً مختاراً من الله، قامَتْ في أذهانِهم احتمالاَتٌ أُخرى، تُبْعِدُ عنه أن يكون كذّاباً، لكنَّهُمْ رَفَضُوا هذِه الاحتمالاَت حَتَّىٰ لا تَخِفَّ عَداوَتُه والحَنَقُ علَيْه في نُفُوسِ أَتباعهم، فقالوا: لاَ عُذْرَ له بَلْ هُوَ كذّابٌ مُسْتَكْبِرٌ يُرِيد الْعُلُوَّ في الأَرْض، ومنازعَة الكُبَراءِ مَكَاناتهم، وهذا ما دَلّت عليهم مقالتهم الرابعة.

المقالة الرابعة: دلّت عليها عبارة: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾.

طوى النّصّ ما قام في أذهان كبراء كُفَّار ثمود، من احتمال أنْ يكونَ مَعْذُوراً في ادّعاء أنَّهُ نبيٌّ رَسُولٌ، كأَنْ يكونَ قَدْ تهَيّأ لهُ ذَلِكَ، أو أَثَّرتْ عَلَيْه الجنّ، أو أَثَّرَتْ عليه أعمال سِحْرِيَّة، لكنَّهُمْ رفَضُوا التصريحَ بها، ورفَضُوها جملةً وتفصِيلاً بدلالة حرف «بل».

أي: لا عُذْرَ لَهُ فيما ادّعاه بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ.

﴿كَذَّابٌ ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «كاذب» إنَّهُمْ لَمْ يَكْتَفُوا بأنْ يَقُولوا هو كاذب، بل اتَّهَمُوه بأَشْنَع دَرَكات الكذِب، مع أَنَّهُمْ ما عرفُوه في حياته معهم قبل النبوّةِ إلاَّ صادقاً أميناً.

﴿أَشِرٌ ﴾: أي: مُسْتَكْبِرٌ بَطِر، يُقالُ لغة: أَشِرَ فُلانٌ أَشَراً فَهُوَ أشِرٌ، أي: بَطِرَ واسْتَكْبرَ، ومُرَادُهُمُ اتِّهامُهُ بأَنّ ادّعَاءه أَنَّهُ رسُولُ الله نابعٌ من كِبْرِه في نفسه، ورَغْبته في أَنْ تكونَ لَهُ السّيادة في قومه، وأن تكون لَهُ القِيادة والرِّيَاسة والسُّلْطَانُ والأَمْر والنَّهْيُ، فلا هو صادقٌ في قوله: إنَّهُ رسُول الله، ولا هو معذور بادّعائه، على احتمال أن تكون قد جرتْ له أمورٌ وَرُؤىً أَوْهَمتْه أنّه نبيٌّ ورسولٌ، كالَّذِي يَأْتيهِ رَئِيٌّ من الجنّ، فيُخْبِرُهُ بأشياء، يَزْعُم له فيها أنَّها من أمُورِ الغيب، بَلْ هو كذَّابٌ أَشِرٌ.

لكنَّهُمْ في الحقيقة هُمَ الكذَّابُون الأَشِرُون، كذَّابُونَ في إيهامهم وتَزْويرِهم على جماهيرهم، بأَنَّهُ ليْسَ رَسُولاً من عنْدِ رَبّهم، مع اقتناعهم في أعْمَاقِ نفوسهم وقُلُوبهم بأنّه رسُولٌ صادقٌ وليس بكاذب.

وأشِرُونَ، أي: مستكْبرون بطِرُونَ، يُريدُونَ بتَكْذِيبه ورفْض اتّباعه، وتَحْريضِ جماهيرِهم على تكذيبه والتّولّي عنه، المحافَظَةَ على زَعَاماتهم ورِياسَاتِهم في قومهم، وعلى مصالحهم الدنيويَّة الّتي يَخْشَوْنَ فواتَها إذا آمَنُوا به واتَّبعوه، وهذا ما أبانَه الله عزَّ وجل بقوله لرسوله صالح عليه السَّلامُ إبَّانَ الحَدث:

- ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾﴾.

وخاطَبَهُمْ على لسان رسُوله صالح عليه السّلام بقوله لهم إبّان الحدَث:

- ﴿سَتَعْلَمُونَ غداً مِنَ الْكَذّابُ الأشِرُ﴾.

كما جاء في القراءة الأخرى المتواترة.

وفي هذا البيان، إيماءٌ لحالَةِ الرَّسُولِ محمد ﷺ، وحالَةِ من كَذَّبَهُ مِنْ قومه وزعَمَ أنَّهُ طَالِبُ زَعَامَة، فكَأَنَّ الله عزَّ وجلَّ يخاطِبُهُمْ بمثل ما خاطب به ثموداً قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام.

وقد جِيءَ بهٰذه الجملة مقتطَعةً مُخْتزلَةً مِنْ فَصْلٍ مِنْ فُصُولِ قِصَّةِ صالحِ عليه السّلام وقومه ثَمُود، ومُوَجَّهَةً كأَنَّ الحَدَثَ يَجْرِي اللآن.

وهذا الأسْلُوبُ من مبتكرات القرآن المجيد.

وجاءَتْ كلمة ﴿غَدًا﴾ فيها دالَّةً على الزَّمَنِ المسْتَقْبلِ حِينَ ينزل بهم عقابُ الله، ويَنْصُرُ الله رَسُولَه، وعلى يوم الدّين، باعتبار أنّ الحياة الدنيا كُلَّها يَوْمٌ، وأنَّ الآخِرَةَ يَوْمٌ بَعْدَه، فَهُو الْغَدُ بالنسبة إلى يوم الحياة الدُّنيا.

- قول الله تعالى حكاية لقوله لصالح عليه السّلامُ مُقْتَطعاً من الحدث الذي جرى في زمانه:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾﴾.

سيأتي إن شاء الله عَرْض قصّة الناقة التي أرسلها الله آية لَهُمْ بناءً على طلبهم بعد تحليل النصّ، وجاء تعريف الناقة بـ (الـ) العَهْديَّة، للإشارة إلى شروطهم التي وضعوها لها.

﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾: أي: امتحاناً لهم واختباراً، فقد طلَبُوا معجزة النّاقة فأجرها الله عزَّ وجل لصالح عليه السلام آيةً تشهد له بأنهُ نبيُّ الله ورسوله حقّاً، وهي مع ذلك امتحان لقومه بشروط حياتها فيهم، إذْ تعنتوا بتحديدها، وتحديد أوْصَافِها، ومكان خروجها من صخرة معيّنة.

﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾: أي: فانتظرهم، واجعلهم تحت مراقبتك وملاحظتك لما سيكون منهم، كالحارس الذي يرعىٰ ما يحرسُه بمراقبته وحفظه، يقال لغة رقبه: أي: انتظره ـ لاحظه ـ حَرَسَهُ ـ حفظه ـ.

وفي هذه الصيغة التي أضيفت إليها تاء الافتعال التوجيه للعناية التّامَة بتكلُّفِ الانتظار مع المراقبة وشِدَّة الملاحظة، دون استعجال. **ارْتَقَب**: على وزن «افتعل» من فعل: «رَقَبَ» قبل الزيادة.

﴿وَاصْطَبِرْ﴾: من فعل «اصْطَبَرَ» اصْتبر، بإضافة تاء افتعل لفعل «صبَر» ثم قلبت التاء طاءً لتتلاءم مع الصاد.

أي: واصْطَبرْ بتَكلُّفٍ ومُجَاهَدَةٍ لنفسك على أذاهُمْ وكُفْرِ مَنْ أَصَرَّ على الكُفرِ مِنهم، ولا تَسْتَعْجِلْ لهم أيّ أَمْرٍ، إنَّهُمْ سيضيقون ذَرْعاً بامتحانهم بالنَّاقة المعجزة ضمْن الشروط الّتي وُضِعَتْ لهم، وسيَعْمَلُونَ مَا يُسَبِّب إهلاكهم إهلاكاً عَامّاً شَامِلاً، على وفْقِ الْوَعِيد الَّذِي أُعْلِمُوا به.

● قول الله تعالى حِكَايَةً لقوله أيضاً لصالحِ عليه السَّلام مُقْتَطعاً من الحدث الذي جرىٰ في زمانه:

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

أبان الله عزّ وجل في قوله هذا لرسولهم الشرط القاسي في امتحانهم بمعجزة الناقة الّتي أخرجها لم من صخرة عيَّنُوها، ووفق الصفات التي حَدَّدُوها.

﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾: أي: وخَبِّرْهم بهذا الخبر البارز ذي الشأن الشّديد عليهم.

﴿أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾: أي: مقْسُومٌ بَيْنَهم وبين النّاقة المعجزة على نِصْفَيْن، والمراد بالماء ماءُ الشُّرب الذي تشرب منه قبيلة ثمود كُلُّها في موطن إقامتهم.

يقال لغة: اقْتَسَمَ الرَّجلان الشيءَ بينهما اقتساماً، أي: أَخَذَ كُلٌّ مِنْهُما نَصِيبَهُ منه. **والقِسْمَة**: اسم من اقتسام الشيء، وتُطْلَقُ القِسْمَةُ عى النّصيب.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾: **الشِّرْبُ**: بكسر الشين، نَوْبَة الاستقاء من الماء. والنَّصِيبُ الْمُعَيَّنُ للشارِب منه.

مُحْتَضَرٌ: أي: يحْضُرُهُ مَنْ لَهُ نَوْبته، أو يحضُرُهُ مُسْتَحقُّهُ دون مَنْ لاَحَقَّ له فيه، وجاءت صيغة «مُحْتَضَر» من احتضر على وزن «افتعل» الدّال على التكلف والمبالغة، لتدلّ على أنّه يلزم ضبط مواعيد حضورهم وحضور الناقة لورود الماء بانتظام دون اختلاف ولا عدوان.

وما لم يُصَرّحُ به في هذا النّصّ جاء بيانه في غيره من النّصوص الموزعة في القرآن المجيد.

● ففي سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩) قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾.

فأضاف هذا النَّصّ بيان شَرْطٍ آخر من شُروط استجابة الله لهم في آيَة النـاقَة الّتي طَلَبُوها، وهو أن تأْكُلَ من أرْض الله على ما تشاء، وأن لا يَمَسَّهَا أحدٌ بِسُوءٍ، فإذا مَسُّوها بسُوءٍ أَخَذَهُمُ اللَّهُ بعذابٍ أليم.

● وفي سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قال الله عزّ وجلّ ضِمْن عرض لقطات من قصّة صَالِحٍ عليه السلام، وقومه ثمود:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾: أي: لها شِرْبُ يَوْم مَعْلُوم من مَاءِ ثَمُود، ولَكُم شِرْبِ يَوْم آخر معلوم، على سبيل المهايأة اليوميّة فأضاف هذا النص بَيانَ المراد بكون الماء قِسْمةً بَيْنهم، الّذي جاء في سورة (القمر). التي نتدبرها.

وأضاف هذا النّص بيان أنّ إجراء آية النّاقة قد كان استجابة لِطَلبهم آية.

قالوا: وكانت هذه الناقة تَرْعَىٰ حيْثُ شَاءَتْ من أَرْض ثَمُود، وَتَرِدُ الماء يَوْماً بَعْدَ يوم، وكانَتْ إذا وردَتِ الماءَ تَشْرَبُهُ كُلَّه في يومها، وكانُوا يأخُذُون حاجتَهُمْ مِن الماء في يَوْمهم لِغَدِهم.

قيل: وكانوا يَشْرَبُونَ جميعاً من لَبَنِها كِفَايَتَهُمْ، واللَّهُ أعلم.

● قول الله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

على الرُّغم مِنْ آيَةِ النـاقَةِ الّتي أجراها اللَّهُ عزّ وجل لرسوله صالح، على وَفْقِ طلبِ قومه، فإنّ معظَم قومه ثَمود لم يُؤْمِنُوا وأصرُّوا على كفْرهم وعنادهم، لكنَّهم كانوا بالنسبة إلى ناقة الله على حذر، فالتزمُوا بِمُراعاة

شُرُوطِها حيناً من الدَّهر، ثُمَّ ضَاقَتْ صُدورهم، فعَزَمُوا على أن يتخلَّصُوا مِنْها، غير أنَّ كبراءهم خافوا أن يباشِرُوا عَقْرَها بأنفسهم، فنادَوْا صاحِبَهُمْ، وهو أشقاهم، كما جاء في سورة الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) بقول الله عزّ وجل فيها:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

قيل: واسْمُ أشْقَىٰ ثمود: «قُدَارُ بْنُ سالِف».

وقد سبَقَ تدبُّرُ هذا النّصَ ضمن تدبُّر سورة (الشمس).

وأَشْقَىٰ «ثمود» هو الذي جاء التعبير عنه في سورة (القمر) بعبارة ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ للإشارةِ إلىٰ أنّ كُفَّارَ ثمود كُلَّهُمْ أشْقِياء، إلاَّ أنّ الّذِي عَقرَ الناقةَ مِنْهُمْ قد كان أشْقَاهُم، وكانَ هٰذا أخْبَثَ تسْعةِ رَهْطِ أشقياء من ثَمُود، وهو قائِدُهُم، وكان هؤلاء أكثر قومهم سَفَاهَةً، وجُرْأَةً على الشّرّ وارتكاب كبائر الإثم.

ونَسْتفيد من عبارة ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ أنَّ الصُّحْبَةَ لاَ تَتَحقّقُ إلاَّ بالمشَارَكةِ في جملَةٍ من الصّفات.

ودَلَّ مَا جاء في سُورَةِ (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) على أنّ هذا الأشقىٰ ورهْطَهُ تقاسَمُوا بالله على أنْ يقْتُلُوا صالحاً وأَهْلَهُ بيَاتاً، بَعْدَ أن عَقَرَ قائِدُهُم الناقة، فقال الله عزّ وجلَّ فيها ضمن عرض لقطات من قصة صالح عليه السَّلامُ وقَوْمه ثَمُود:

﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ

كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

● ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾: يُقَالُ لغة: تَعَاطَىٰ الرَّجُلُ، أي: قامَ على أطراف أصابع رِجلَيْهِ، ورفَعَ يَدَيْهِ إلى الشيء ليأخُذَهُ.

ويقال: تَعاطىٰ الشَّيْءَ، أي: تناوله. وتعاطىٰ الأَمْرَ أي: رَكِبَه.

فَعقَر: أي: فَعقَرَ النَّاقة الّتي أخرجها الله عزّ وجلّ آيةً لصالحٍ عليه السَّلام. وجعَلها فِتْنةً، أي: امتحاناً كاشفاً لكُفَّارِ قَوْمِه.

العَقْر في اللُّغة: يأتي بمعنى قَطْعِ إحْدَىٰ قوائم البعير ليَسْقُطَ على الأرض، ويتمكَّنَ الْعَاقِرُ مِنْ ذَبْحِه، ويقال: عَقَرَ الحيوانَ، إذا ذَبَحَهُ.

ويُمْكِن تَصْوِير ما قام به قُدار، أشقى ثمود، أخذاً من قول الله تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾ أنّ هذا الأشقى أسْرَع عقب مناداة قَوْمِهِ له مُحَرضِين إيَّاه على التخلُّص من الناقة، فتناول سلاحَهُ بخفَّةٍ، وأقْبَلَ مُتَباسِلاً يَمْشِي على رؤوس أصابع رِجْلَيْهِ، مَادّاً يَدَيْهِ بسلاحه إلَىٰ الأعْلَىٰ، وأقبل بجُرْأَةٍ إلىٰ الناقَة، فَعقَرَهَا أوّلاً حتَّىٰ سقطَتْ على الأرض، وعَقَرَهَا ثانِياً فذَبَحَها.

فما أبدع هذا التصوير الذي دلَّت عليه بإيجاز جميل عبارةُ ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴾.

● قول الله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾﴾؟.

سبق تدبُّر هذه العبارة، إذْ جاء نظيرها في موجز إهلاك قوم نوح عليه السلام، وموجز إهلاك عادَ قوم هود عليه السلام.

وفي كلمة﴿ٱلنُّذُرُ ﴾ القراءات الّتي سبق بيانها في النظائر بشأن إثبات ياء المتكلم أو حَذْفِها.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

في هذه الآية جواب السؤال الذي تضمّنته الآية السابقة، وهي عبارة مؤكَّدةٌ بـ (إنَّ، والجملة الإسمية» جاء فيها استعمال ضمير المتكلم العظيم، للدِّلاَلَةِ على عزّة الرُّبوبيّة، وسُلْطان الجبَّار القاهر فوق عباده، الذي هو على ما يشاءُ قدير.

﴿صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾: أي: صَوْتاً عظيماً واحداً، كافِياً للإهلاك والإبادة.

﴿فَكَانُوا۟﴾: أي: فَكَانَ كُفَّارُ ثَمُود.

﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: **الْهَشِيمُ في اللّغَةِ**: يأتي للدَّلاَلة على عدة معانٍ:

● يأتي بمعنى الْمَهْشُوم المتكَسِّرِ من النباتات والأشجار وغيرها من الأشياء.

● ويأتي بمعنى الشجرة البالية، الّتي يأخُذُها الحاطب كيْفَ يشاء.

● ويأتي بمعنى اليابس من كُلّ شيءٍ، ولا سيما الأشجارُ والنباتات.

المحتظر: هو الذي يُريد أن يصْنَعَ حَظِيرَةً لمَاشيته، فيجْمَعُ أعواداً، وأشجاراً يابِسَةً قَدِيمَةً، وأشواكاً من الهشيم، ويَجْعَلُها أكواماً، لِيُقِيمَ مِنْها السِّيَاجَ حَوْلَ حظيرَته.

شبّه الله عزّ وجلّ قتلَىٰ ثَمُود بَعْدَ إهلاكهم بأَكْوامٍ من الهشيم الّتي يجمعها المحتظر لإقامَةِ حظيرَته.

وهذه الصيحةُ الصَّوْتِيَّةُ قَدْ كانت مصحوبةً بالرَّجْفَةِ الّتي تَزَلْزَلَتْ بها الأَرْضُ من تحتهم، ومصْحُوبَةً بصَاعَقَةِ عذاب عظيمة:

دلَّ على الرَّجْفَة قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول): بشأنهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

ودَلَّ على الصاعقة قول الله عزّ وجل في سُورَةِ (فصِّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول): بشأنهم:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾: **الْهُون**: الذُّل، والخزي، وهو مصدر «هَانَ، يَهُونُ، هُوناً، وهَوَاناً، ومَهَانَة» فهو من قبيل الوصف بالمصدر على التأويل بمشتقّ، أي: العذاب الْمُهِين، أو هو بدلٌ من العذاب، فيكون المعنى: فأخذتهم صاعَقَةُ العذاب، وهي أيضاً صاعِقَةُ الْهُون، أي: صاعقة الذّلّ والخزي.

وانتهىٰ الأمْرُ بطَحْنهم وَتَسْويَةِ الأرض فَوْقهم، كما جاء في سورة (الشمس/ ٩١ مصحف/ ٢٦ نزول) فقال تعالى فيها بشأنهم مع رسولهم وناقة الله:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾﴾.

يقال لغة: دَمْدَمَ الْقَوْمَ، وَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ، أي: طَحَنَهُمْ مُهْلِكاً لهم.

ويقال: دَمْدَمَ عَلَيْهِ الْقَبْرَ أو الأرض، أي: أطْبَقَهُ عليه، وسَوَّىٰ الأرض فَوْقَهُ.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾:

هذه الآية الفاصلة بين فقرات المهلَكين الأولين المختارين للذّكرِ في هذه السّورة، والتي تكرّرت أربع مرّات، وقد سبق تدبُّرها في آخر فِقرَةِ إهلاك قوم نوح عليه السلام على قَدْرِ أوعِيَتنا الفكريّة.

❀ ❀ ❀

رابعاً: الفقرة الرابعة
موجز إهلاك قوم النبيّ الرسول لوط عليه السّلام
الآيات من (٣٣ ـ ٤٠)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

● في كلمة: ﴿ٱلنُّذُرِ﴾ في الموضِعَيْنِ القراءاتُ الّتي سبق بيانها في النظائر بشأن إثبات ياء المتكلّم أو حَذْفها.

هذا النّصّ هو ثاني نَصّ نزل بشأن قوم لوطٍ عليه السّلام، بحسب ترتيب النزول، فقد سبقه ما جاء في سورة (ق/ ٠٥ مصحف/ ٣٤ نزول).

فقد ذُكِرُوا فيها بعنوان «إخوان لوط» ضِمْن مجموعةٍ ممَّن كذَّب الرُّسل فحَقَّ علَيْهم وعيد الله.

لَمْحةٌ عن لُوطٍ عليه السلام وقوْمِه:

لوطٌ عليه السّلام هو ابْنُ أخي إبراهيم عليه السلام، فلُوطٌ هو ابْنُ هارَان، وهاران أخو إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد كان لُوطٌ قبل نُبُوَّته من المؤمنين، آمن بعمّه إبراهيم، وهاجر مَعَه حتَّىٰ اسْتقرَّا في أرْضِ فلسطين من بلاد الشّام.

ثُمَّ أَمَرَ إبراهيم عليه السلام ابْنَ أخيه لُوطاً، أن ينْزَحَ بما يَمْلِكُ من أموال عن مَواطن إقامَتِه مع عَمِّه، ويَذْهَبَ إلى أَرْضِ الْغَوْر، المعروف بِغَوْرِ

زُغَر، فارْتَحَلَ وأَقام بمَدِينةِ سُدُوم من ذَلِكَ الْغَوْر، وهي مدينة تَتْبَعُها عِدَّة قُرى، هي: «صَبْغَة ـ عَمْرَة ـ أَدْما ـ صَبُويم ـ بالِع».

وسَدُوم وقراها كانت في مكان البحْرِ الميّتِ المعروف الآنَ في الأرْدُنّ.

فنزل لوط عليه السّلام في أرض سَدُوم، وليس بينه وبين أهلها نَسَبٌ.

واصطفاه الله بالنبوّة، وأرسله رَسُولاً إلى أهل مدينة سَدُوم وما حولها من قُراها. وكان أهل هذه الأرض من أفجر الناس، وأكْثَرِهم كُفْراً وظُلماً، كانُوا قَوْمَ سُوءٍ فاسِقِين، يَعْمَلُون الخبائث، ويَأْتُونَ الرِّجال شَهْوَةً مِنْ دون النساء، ويَقْطعُون السَّبِيلَ، ويَأْتُون في نَادِيهم المنكر، ولم يَكُنْ فيهم رَجُلٌ رَشيد.

فدعاهم لوطٌ عليه السلام إلى الْإِيمان والإسلام، ونَهَاهُمْ عن سَيِّئاتهم وفواحِشهم ومُنْكراتهم، ونَهَاهم عن ظُلْم عباد الله وقَطْعِ سبيل المسافِرين، فَكَذَّبُوه، وكَذَّبُوا بما جاءهم به عن ربّهم.

فأَنْذَرَهم عقابَ الله وعذابه ومعجّل نِقْمَتِه، فكذَّبوا بالنُّذُر، أي بالإِنْذَارات الّتي أنْذَرَهُمْ بها.

ولَمَّا أَكْثَر علَيْهِمْ مواعظه، ونُصْحَهُ لهم، قال بعضُهم لبَعْضٍ أخْرِجوا لُوطاً ومَنْ آمَنَ به من أَرْضِكُمْ، إنَّهُمْ أُنَاسٌ يتَطَهَّرُون.

ثُمَّ قال له كُبَراءُ قَوْمه: لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لتكُونَنَّ من المخْرَجِين، ثم قالوا لعامّتِهِمْ: أَخْرِجوا آل لُوطٍ من قَرْيَتِكُمْ، إنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرون.

ووضع كُبَراءُ قَوْمِهِ عليه عزْلاً اجتماعِيّاً، فَنَهَوْه عن أَنْ يَلْتقي بأَحَدٍ من الْعَالِمِين، من قومهم ومن خَارجِ قومهم.

ولمّا صار اختيارُهم بإراداتهم سَبِيلَ الْهُدَىٰ أمْراً ميؤوساً منه، فلا أحد مِنْهُم لدَيْهِ استعداد لأنْ يستجيب لدعوته، وعَلِمَ اللَّهُ ذَلِكَ فيهم، قضَىٰ جلَّتْ حكمَتُه وعَظُمَ سلطانُه أن يُهْلِكَهُمْ إهلاكاً جماعيّاً عامّاً.

فبَعَثَ اللَّهُ من رُسُلِه من الملائكة من يُعَذِّبُهم ويُهْلِكُهُمْ ويَقْلِبُ بلادهم عَالِيَها سافِلَها. وأمَرَهُمْ بأن يَمُرُّوا بإبراهيم عليه السلام مبشرين إيَّاه بإسْحَاق من زوجته العاقر سَارة، ومُبَيّنينَ له أن الله سيُصْلحها لِلْحَمْلِ والولادة، ومُبَلّغين إياه بما كلَّفَهُمُ اللَّهُ إياه من إهلاك قوم لوط، باعتباره شيخ النبوّة والرِّسالة في زمانه، وباعتبار لُوط موجهاً بقيادتِه إلى أهل سدوم. وحاول إبراهيم عليه السَّلام أن يسألَ رَبَّهُ إمْهَالَهُمْ، فقالوا له: يا إبراهيم أعْرِض عن هذا إنّه قد جاء أَمْرُ ربّك وإنهم آتيهِمْ عذاب غيرُ مَرْدُود.

وكان الملائكة قد جاءُوا إبراهيم بصورة ضُيوف، ولمَّا لَمْ يَمُدُّوا أيْدِيَهُمْ إلى ما أعَدَّ لهم من طعام، أوْجَسَ منهم خِيفَة، عندئذٍ كَشَفُوا له عن حقيقة أمرهم، وبشَّرُوه وبَلَّغوا.

ثم ذهبوا إلى لوطٍ عليه السلام في منزله في سَدُوم، فَدَخَلُوا عليه، وكانوا على صُوَرِ شبابٍ مُرْدٍ حِسان، فَرَحَّبَ لوط عليه السلام بهم، وعَلِمَ كُبراء قَوْمِهِ بأنَّ لُوطاً استضاف شباباً مُرْداً حِسَاناً، فأقْبَلُوا إليه وقالوا له: ألم نَنْهَكَ عن العالمين.

وأرادوا الدُّخول عَنْوَةً إلى داره لاغتصابِ ضُيُوفه، وممارسة الفاحشة بهم، فحاول منعهم فلم يستجيبوا له.

عندئذ قال له ضيوفه: إنّا رُسُلُ رَبّكَ أَرْسَلْنَا لإهلاك قَوْمِكَ ورمَوْا في وجوه المحتشدين على باب داره مَا أحْرَقَ عيونهم، وطَمَسَ أبصارَهُم، فانْكَفَؤُوا عن دَارِهِ يَذُوقُون عَذابَ حَرْق العيون والوجوه.

وقال الملائكة لِلُوطِ عليه السَّلَام إنّ إهلاك القوم العامّ سيكون عند

الصُبْح، وقَدْ قضىٰ الله بأن ينجيكَ وَأَهْلَكَ ممَّا سَيُنْزِلُهُ بقومك، إلاَّ امْرَأَتَك، فإنَّها سَتَكُونُ من الهالكين مع قومها، لأنَّها كانَتْ مُشَايعةً لهم على جرائمهم.

ولمَّا دَنَا الوقْتُ قالوا له: اخْرُجْ أنْتَ وَأَهْلُكَ قَبْلَ الصُّبْح، أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب، وابْتَعِدْ عن كُلّ حُدُودِ أَرْضِهِمْ، فإنّ العذاب نازلٌ عنْدَ الصُبْحْ، فخَرَج بأهله، وأنْزَل اللَّهُ وسائل الإهلاكِ العامّ بقومه، فَأرسَلَ عليهم حاصباً من السَّمَاء، وأمْطَرَهم بحجارة مُحْرِقة، مُسوَّمةٍ عند الله، وأَخَذَتْهُمْ الصيحة مُشْرِقين، وأذاقهم الله عذاباً أليماً في الدنيا، دون العذاب الأكبر، وقلبَ أَرْضهم عالِيَها سافلها، ودَ فَنهُمْ في باطِنِها، فَهُمْ وبلادُهم في قَاعِ الْبَحْرِ الميّت.

وأنجىٰ اللَّهُ لوطاً وَأهْلَهُ إلاَّ أمْرأتَهُ كانت مع الهالكين.

التدبّر التحليليّ للنصّ:

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿قَوْمُ﴾: لفظ يُطْلَقُ على جماعة من الناس تجمعهم جامِعةٌ يَقُومُون لها.

﴿بِٱلنُّذُرِ﴾: هُنَا جَمْعُ «النذير» الذي هو مصْدَرُ فعل «أَنْذَرَ يُنْذِرُ إنْذاراً» أي: كذَّبوا بالإنْذارات التي أنذرهم بها رسُولُهُمْ لوطٌ عليه السّلام. فهي إنذاراتٌ متعدّدات أنْذَرَهم إيّاها، عاجلةٌ في الحياة الدُّنْيا، وآجِلَةٌ إلى يوم الدِّين.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا﴾: جاء في هذه العِبَارَة اسْتِعْمال ضمير المتكلّم العظيم، إشعاراً بعظمة رُبوبيَّةِ الرَّبّ، وسُلْطانِ جبروته وقَهْرِه، إذِ الموضوع يتعلَّقُ بإهلاك المجرمين، وهم قوم لوط عليه السلام.

الإرْسال: هو التوجيه لأداء مهمَّةٍ ما بتُؤدَةٍ وَتَرَفُّقٍ وأَنَاةٍ وتَعَقُّلٍ وحِكْمةٍ.

﴿حَاصِبًا﴾: أي: ريحاً شَدِيدةً بَلَغَتْ شِدَّتُهَا أَنْ تَحْمل الحصباء من الأرض، وهي الحجارة الصغيرة. وتَرْفَعُها في الْجَوِّ، ثُمَّ تَهْوِي بها حاصِبَةً، أي: رامِيَةً ما تَقَعُ علَيْه من أحْيَاءَ وأشياء، فَهِيَ من صُوَر العذاب الَّتِي يُرْسِلُها الله على مَنْ يُرِيد تعذيبَهُم وإهْلاَكَهُم. وقد وصف الله هذا الحاصب بأنَّهُ عَذَاب، أي: وسِيلَةُ عَذَاب، كما جاء في الآية (٣٩) من هذا النّصّ.

وجاء في نصوصٍ أُخْرى وصْفُ هذا الحاصِب بأنَّهُ مَطَرٌ من حجارة من سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (أي: من طين مَتَحجِّر مُجْتمع مُتَّسِق) وقد يكون للنّار أثرٌ في تحجُّرِه. وجاء وصف هذه الحجارة بأنَّهَا مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ الله، أي: مُعَلَّمه بعلامات خاصَّةٍ تميِّزُها عمَّا سِوَاها.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾: أي: إلاّ لوطاً عليه السلام وآله، فقد نجّاهم الله عزّ وجل بوقت السَّحَر، إذْ صَبَّحَ اللَّهُ القوم بالعذاب فأنزل عليهم وسائله بعْدَ الصُّبْحِ.

كلمتا أهل وآل في دلالات النصوص القرآنية:

ولم تدخل زوجَةُ لوط عليه السَّلام في هذا الاستثناء، وإنْ كانَتْ من أهله، لأنَّها في المفهوم الدِّينيّ ليْسَتْ من آله، إذْ كلمة (آل) لا تُسْتَعْمَلُ غَالباً إلاَّ في أشراف القوم، ولمَّا كانت امرأة لوطٍ كافِرَةً، لم تسْتَحِقَّ أنْ تكُونَ مُكْتَسِبَةً شَرَفَ لُوطٍ والتابعين له، فَلَمْ يُنْظَرْ في هٰذا النّصّ إلى اسْتِثْنَائِهَا من آله الناجين، إذْ هي في الحقيقة لا يَصِحُّ أن تكون من آله.

لَكِنْ جاء اسْتِثْنَاؤُها من عموم أهله، في نصوص (الأعراف) و(الشعراء) و (النمل) و (هود) و (الصَّافَات) و (العنكبوت) إذ ذُكِرَ في هٰذِهِ النّصُوصِ لفظ «أَهْلِ» لا لفظ «آل». وقد دلَّنَا هٰذا الاستعمال القرآنِيُّ على أنَّ الكَفَرَةَ من أهل النبيّ لاَ ينبغي أن يَدْخُلُوا في عُمُومِ آلِهِ بحَسَبِ المفهوم

الدينيّ، وإنْ كَانُوا يَدْخُلون في عُمُومِ أَهْلِه، باعتبار النسب أو المصاهرة دون ملاحظة الشَّرف والمشاركة في الفضيلة الدّينيَّة.

ولمَّا قَطَعَ ابْنُ نُوحٍ عليه السَّلام، الذي دعاه أبوه للرُّكوب في السَّفينة صِلَتَه النسبيّة بأبيه بكفره، إذْ عَلِمَ الابن أنّ الرُّكوبَ في السفينة شَرْطُهُ الإيمان، قال: سآوي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي من الماء، فهو بكُفْرِه قدْ قَطع صِلَتَهُ النسبيَّة، فكان من المغرقين، ولم يكُنْ نوحٌ عليه السَّلامُ يَعْلَمُ أنَّ ابْنَهُ هذا كان من الكافِرِين، وكان اللَّهُ عزّ وجَلَّ قَدْ وَعَدَهُ بِأَنْ يُنْجِيَهُ وَأَهْلَه، فقال: ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول] فقال اللَّهُ له: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ﴾ أي: فَهُو بكُفْرِه وسُلُوكِه عَمَلٌ غير صالح، فهو ليس من أهْلِكَ الذين وَعَدْتُك بأنْ أنجيهَمْ معك.

أمّا ما جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزل) في الآيتين (٥٩ ـ ٦٠) من استثناء امرأة لوط من عموم آله فهو جارٍ على مفهوم الناس الذين لا ينظرون إلى المفهوم الدينيّ الأحقّ بالاعتبار، كما جاء استعمال الآل بالنسبة إلى أهل فرعون، مجاراة لمفاهيم الناس.

وبهذه النَّظْرة الشّاملة أدركنا التكامل في الأداء البيانيّ القرآنيّ بشأن كلمة الآل، استعمالاً وتوجيهاً إلى ما هو الأحقُّ بالاعتبار.

وذَكر الله عزّ وجلّ في النصّ الذي نتدبَّرُه من سورة (القمر) آل لوطٍ، ولم يذْكُرْ لوطاً نفسه، لأنَّ لُوطاً عليه السلام يُفْهَمُ باللُّزوم العقليّ أنّ الله قد أنْجَاه، إذْ هو الأحَقُّ والأَوْلَى بالنجاة، فَدَلَّ هذا الصنيع القرآنيُّ على أنَّ من الأدلة في أساليب الكلام مَا يُسْتَدلُّ عليه بأنّه هو الأولى بالأمْرِ ممَّن ذُكر، أوْ ممّا ذُكِرَ بصريح العبارة.

● قول اللَّهِ تعالى: ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

أبان الله عزّ وجلّ في هذه الآيَةِ أنَّ نجاة آل لُوطٍ من العذاب الذي

قَضَاهُ على كُفّار قَوْمِهِ قَدْ كانَ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِهِ أنْعَمَ بها عليهم، وأنَّها قَدْ كانت جزاءً مُعَجَّلاً أثابَهُمُ الله به في الدُّنيا، استنباطاً من قوله: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ وهذه الجملة تَدُلُّ على أنّ من سُنَنِ اللَّهِ عزّ وجلّ أنْ يَجْزِيَ في الحياة الدنيا جزاءً مُعَجَّلاً كُلَّ مَنْ شَكَرَ، بما تقضي به حِكْمَتُهُ مِنْ جزاءٍ يَسُرُّ الشَّاكِرين.

والمعنى: نجيَّنا آل لُوطٍ نَجاةَ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا، وهذه النعمة جاريَةٌ وفْقَ سُنَّتِنا لعبادنا الشَّاكِرين.

ولا يخفى الغَرضْ من استعمال ضمير المتكلم العظيم هنا الدّال على جلال الربوبيَّة.

الشُكْرُ: مُقَابَلةُ إنْعَامِ المنْعِمِ بما يُرْضِيهِ منْ فعْلٍ أو تركٍ، أو أي شيء، وقد يشمل القول الذي يُرْضي المنعم، وتختص عبارات تمجيد المنعم بعنوان «الحمد» أو «الثناء» أو «المدح».

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَقَدۡ﴾ جيء بها لتأكيد مَضْمُون الجملة بعدها وتحقيقه.

﴿أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا﴾: أي: أخْبَر لوطٌ قومَه بأنَّنا سَنَبْطِش بِهِمْ بطْشَةَ انتقامٍ كُبْرَىٰ، إذَا لَمْ يُقْلِعُوا عمَّا هُمْ فِيه من كُفْرٍ وبَغْيٍ وفُحْشٍ كانوا فيه من المسْرِفين السَّابقين فيه كُلَّ الناس، بمَجَانَةٍ ومُجَاهرةٍ ووقاحة بالغة الغاية.

البَطْشَة: هي المرّة من البطْش، والبَطْشُ الأخْذُ بِقُوَّةٍ وعُنْفٍ وشِدَّةٍ عنْدَ الصَّوْلَة. السَّطْوُ في سُرْعَةٍ.

يُقَال لُغَةً: بَطَشَ بالشَّيْء، إذا أمْسَكَهُ بِقُوَّةٍ، ويقالُ: بَطَشَ عليه، إذا سَطَا في سُرْعَةٍ وَقُوَّةٍ.

ومعلومٌ أنَّ بَطْشَةَ اللَّهِ العزيز الجبّار لاَ تُبْقي وَلاَ تَذَر.

﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾: أي: فكَذَّبوا بالنُّذر، أي: بالإنْذارات الّتي كرَّرها عليهم لوط عَلَيْه السّلام. فَسَّرَ الفَرَّاءُ التماريَ بالتكذيب في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ وهذا المعنى هو الملائم هنا فيما أرى، لأنّ الله عزّ وجلّ قال بشأنهم في أوّل النصّ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾.

التَّمارِي: يأتي في اللُّغَةِ بمعنى المجادلة، ويأتي بمعنى التشكُّكِ.

والمجادَلَة تُشْعِرُ بالتكذيب، فهم قد كذَّبوا بالنُّذرِ وجادَلُوا لوطاً عليه السَّلام بشأنها.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿رَاوَدُوهُ﴾: تأتي المراودة في اللّغة بمعنى المخادَعَةِ والمراوغة، وتأتي بمعنى طَلَب الْفُجور والفاحِشَة، يقال لغة: رَاوَدَ المرأة. أي: طَلَبَ أنْ يَفْجَرَ بها.

فكُبَرَاءُ قوْمِ لوط طلَبُوا منْهُ أَنْ يفْجُروا بضيوفه الشباب الحسان.

فمعنى ﴿رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾: طَلَبُوا منْهُ أن يُخلِّي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ضَيُوفه، وَيُمَكّنَهُمْ مِنْ أَنْ يَفْجُرُوا بهم، وأنْ يبتَعِدَ عن طريقهم، لِيَصِلُوا إلى ما يبتغون في ضيفه.

كلمة «ضَيْف» يستوى فيها المفرد، والمثنىٰ، والجمع، والمذكر والمؤنث، ويُحْمَلُ لفظُها في كُلِّ استعمالٍ على ما يُنَاسبه.

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾: أي: فأعْمَيْناهم. أصل الطَّمْس، المحْوُ والإزالة. يقال لغة: طَمَسَتِ الرّيحُ الأثَرَ، أي: أزالته ومَحَتْه.

وطَمَسَ الْغَيْمُ الكواكب، أي: حجبَ ضَوْءَها. ويقال: طَمَسَ عيْنَهُ وَطَمَسَ على عينه، أي: أَعْمَاها.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾: هذا ما قالَهُ أَمْرُ الله التكوينيّ، الذي دلّهُمْ عليه واقِعُ حالهم عنْدَ طَمْسِ أعْيُنِهم، وَإِذاقَتِهم آلامَ الطَّمْسِ بموادّ حارقة، إذْ شَعَرُوا بصِحَّةِ النُّذُر الّتي أنذرهم بها رسُولُهُمْ لوطٌ عليه السّلام، وقال كلُّ واحد منهم في نفسه: صدَق لوط، وصَدَقَتِ النُّذُرُ الّتي بلَّغها عن ربّه، وهَا نَحْنُ نَذُوق عذابَ الله وعَاقِبَةَ نُذُرِه.

لمّا جاءت الملائكة المأمُورُون بإهلاكِ قوم لوط، وإنزال العذاب بهم، وقَلْبِ أرضهم عاليها سافلها، جاءوا إلى لوطٍ عليه السّلام بِصُوَر شباب مُرْدٍ حِسَان، فلَمْ يَعْرِفْهُم لوطٌ أنّهم رُسُل من الملائكة، فخاف عليهم من قومه أن يبْتغُوا فيهم الفاحشَةَ، فَسِيءَ بهم، وضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً، وقال هذا يَوْمٌ عَصِيب.

وعلم قومُهُ بضُيُوفه، فجاء كُبَراؤهم إليه يُهْرَعُون، يبتَغُون الفاحِشَةَ الشَّاذَّة عن سَوَاء الفِطْرة، فَحَاوَلَ لُوطٌ عليه السّلام دفْع قَوْمه عن ضيوفه بما يَمْلكُ من وسائل، وصار المحاصرون لداره من قومه يُنَازِعُونَهُ ويدافِعُونه، ليدخُلُوا إلى داره عَنْوةً، عندئذٍ كَشَفَ الرُّسُل من الملائكةِ للوطٍ حقيقتهم، فقالوا له كما جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢):

﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

لقد كان الوقت ليْلاً، وكانَ قَوْمُهُ الطُّغَاةُ الفاسِقُون يُريدون اقتحام بابه، ليصلوا إلى ضُيُوفِهِ داخِلَ داره، فنالَهُمْ من الله عذابُ طَمْسِ العيون.

● قول الله تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: عبارة تأكيد وتحقيق للخبر الذي تَضمّنَتْه الجملة.

﴿صَبَّحَهُم﴾: جاءَهُمْ في وقْت الصّباح، وهو أوّل النهار عند الصُّبْح.

﴿بُكْرَةً﴾: الْبُكْرَةُ هِيَ أَوَّلُ النَّهَار إلى طُلوع الشمس.

﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾: أي: عذابٌ ثابتٌ مُتَمكّنٌ تمكُّناً تامّاً من الّذِين نُزِلَ بهم، فهُو غير متقطِّع، ولاَ تخفُّ شِدَّتُه، ولا يتذبذب بين القوَّة والضعف.

يقال لغة: استقرّ بالمكان، أي: تمكَّنَ فيه وسَكن وثبت.

دلّت هذه العبارة على أنّ العذابَ الذي نزل بهم بدَأَ عنْدَ طلوع الصبح، واسْتَمرَّ مُسْتَقِرّاً يَذُقونه وهم أحياء حتّى الإشراق، لأنَّ الصيحة التي أهلكتهم قَدْ أخذَتْهُمْ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْس، كَمَا قَال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ في سُورَة (الحجر/ ١٥/ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأنهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾.

● ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾: سبق تدبُّرُ هٰذه العبارة، والتعبير بها هُنَا يُؤَكّد أَنّهم ذَاقُوا الْعَذابَ وهم أحياء، كَما ذاق العذاب الّذِين طُمِسَتْ عُيُونُهُمْ، ثم جاءتهم الصيحة الَّتِي أَهْلَكَتْهُمْ، ودَمَّرَتْ ديارهم، وجاءت الرجفْةُ، والصَّاعقة، والتفجيرات التي جَعَلَتْ بلادهم عاليَها سَافِلَها.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هذه الآية الفاصلة بين فقرات المهلَكين الأوّلين، المختارين للذِّكر في هذه السّورة، والتي تكرَّرَتْ فيها أربع مرّات، وقد سَبَقَ تدبُّرها بتوسُّع في آخر فقرة إهلاك قوم نوح عليه السلام، على مقادير أوعيتنا الفكريَّة.

❋ ❋ ❋

خامساً: الفقرة الخامسة
موجز مختَزَل بشأن إهلاك فرعون وآله

قال الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

تمهيد:

قصّة فرعون وآله مع موسى وهارون عليهما السّلام قصّة طويلة جدّاً، وقد جاءت موزَّعَةً في القرآن بنصوص متعددة من سُوَره، والْغَرضُ المناسبُ لحال كفّار قريشٍ إبّان تنزيل هذه السّورة التي نَتَدَبَّرُها، هو عَرْضُ لقْطَةِ تَكْذِيبِ فرعون وآله بالنُّذُر المتعدِّدة الّتي أنذرهم بها موسَىٰ وهارون عليهما السلام، لمعالجة كُفَّار قريشٍ في قضيَّةِ تكْذِيبهم بالنُّذُر التي أنْذَرَهُمْ بها رسول الله ﷺ.

وهذا يَدُلُّنا على أنَّ من أَسَاليبِ العلاج الدعوي للكافرين تجزئةَ عناصِرِ العلاج، بتجزئة القضايا الكُبْرىٰ الّتي يعالجها الداعي، إلى قضايا صغرى، ومعالجة كلّ واحدة منها معالجةً خاصَّةً بها، ولو كانت من الأُصُول الاعتقاديَّةِ الجذُور، مع لزوم التقيُّد بالتَّدرُّج، والأخذ بالأَوْلَويّات، بالبدء بما هو الأولىٰ في ترتيب البناء الفكري، أو بما هو الأولى بأن يُبْدأَ به من وسائل العلاج، وهكذا بالتصاعد المتدرّجَ، حتّىٰ الفروع ففروع الفروع تَسَلْسُلاً مع الشجرة الفكريّة، وتسلسلاً ارتقائياً مع الوسائل العلاجيّة.

إنّ تَصْديق المدعُوِّينَ بالنُّذرِ الرَّبَّانيَّةِ الّتي يُبَلِّغُها الرَّسُول عن ربّه، من الأصول الاعتقادية، وهو جُزئيّة من جزئيات وجوب التصديق بكلّ ما يُبَلِّغ عن رَبّه، والتكْذِيبُ بها يوقِعُ في الكُفرِ لا محالة، والكُفْرُ جزاؤه الخلود في النار يوم الدين.

لكِنَّ مُعَالجة هذه الجزئيَّة تأتي بَعْدَ معالجة الإيمان بالله وبصفاته،

وبوحدانيّته في ربُوبيّته وإلهيّته، وبَعْدَ معالَجةِ صِحّة رسالة الرّسُول، وبَعْدَ معالجة الإيمان بيَوْم الدّين.

فالإنذار بالعقاب المُعجّل في الدنيا، من الجزئيات العقَدِيَّة المتأخّرةِ في تَدَرُّج البناء الفكري، عن القَضَايا التي سبق ذكرها.

ونُلاحظُ أن السُّوَر السَّابقة لسُورَةِ (القمر) في ترتيب النزول، قد نزل فيها التَّلْويح والتَّصريح بالعقوبات المعَجَّلات إنْذاراً للكافرين، ثم كان من المناسب في العلاج إبّانَ نُزُول سورة (القمر) أنْ تكون هذه السُّورة مُشْتَمِلَةً على معالجةِ جُزْئِيَّةِ تَكْذِيب كُبَرَاءِ كُفّارِ قريشٍ بالنُّذُر الّتي أنْذرَهُمْ بها رسُول الله محمّد ﷺ.

وأفْضَلُ علاجٍ يُؤَثِّر فيمَنْ لَدَيْه استعدادٌ إرادِيٌّ للتأثّرِ هو عَرْضُ أمْثِلَةٍ مِنَ الواقع، تَشْتَمِلُ علَىٰ تكْذِيب الأُمَم بِنُذُرِ رُسُلِهِمْ، فكانَتْ عَواقِبُ تكذِيبهم بها أنْ تَمَّ تَحقُّقُ مَا أَخْبَرَ به الرُّسُلَ من إنذاراتٍ بِعُقُوباتٍ مُعَجَّلاتٍ في الدنيا، كان بها تَعْذِيبُ الأقوام وإهلاكُهُمْ.

فالعناية في سورة (القمر) قد كانت مُوجَّهةً لِعَرْضِ فِقَراتٍ من إهلاك بعْضِ المكذبين الأولين بالنُّذُر، مع ما جاء فيها من ذكر مرافقاتٍ تدعو الحكمة البيانيّة والعِلاجيَّةُ أن تُذْكَرَ فيها.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ﴾: عبارة فيها تأكيدٌ وتحقيق لمضمون الجملة بعدها.

﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾: «**النُّذُرُ**»: فَاعِلُ «**جاء**» و«آلَ فِرْعَوْن» مَفْعُول به مُقَدَّمٌ على الفاعل، والْغرَضُ البلاغي من هذا التقديم توجيهُ اهْتِمَام المتلَقّي للمتحَدَّثِ عَنهُمْ ضِمْنَ المكذّبين الأوّلينَ بالنُّذر، فالتكذيب بالنُّذر عنوان عُرِفَ مُنْذُ بيان تكْذِيب قَوْمِ نوحٍ بالنُّذر، فنَفسُ المتلقّين تتطَلَّعُ مع كُلّ فِقَرَةٍ لِلْمُكَذِّبين، فهم الأولىٰ بالتقديم في العبارات المسوقات لبيان إهلاكهم.

مع ما في تأخيرِ كلمة ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ من مُراعاة نَسَقِ رؤوس الآيات وتَنَاظُرِها.

إنّ فِرْعَوْنَ هو رأس آله، فَهُو أوّلُ من جاءَتْهُ النُّذُر، وقَدْ دَلَّ الفكْرُ على دُخُولِه فيمن جاءَهُمُ النُّذر، إذْ هُوَ أَوْلاَهُمْ بالإنْذارِ، وقَدْ عَلَّمَنا اللَّهُ عزّ وجلّ بهذا الأسْلُوب من التعبير، أَنَّ من البيان الرفيع حَذْفَ مَا يُفْهَمُ أنّه مَشْمُولٌ بِحُكْم القضيَّةِ من باب أولى.

﴿ٱلنُّذُرُ﴾: هي الإنذارات بعقوبات اللّهِ المعجَّلات في الدنيا، والمؤجّلات إلى يوم الدّين.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

ذكْرُ آلِ فِرْعُون يسْتَتْبع جنودَهُمْ، وكلَّ مَنْ يتأثَّرُ بهم في عقائدهم ومبادئهم واتّجاهاتهم وقراراتهم، ويَقَعُ في مُقدّمَتِهم فرعون نفسه، لأنّ ما يَقُولُهُ فِرعَوْن قَدْ كان يقُولُه كُلُّ آلِهِ، وكُلُّ شعبه، باستثناء القِلَّةِ النادرة، كزَوجَةِ فِرْعَوْن، ومُؤْمِنِ آل فِرْعَون

فكُلُّ شَعْبِ مصْر الخاضعين بالْوَلاَء التامّ لِفرعَوْنَ وآلِهِ، قَدْ كانوا يقولُون مثل مقالة فرْعَون وَآلِهِ بالنِّسْبَةِ إلى الآيات الّتي أجْراها اللّهُ لموسىٰ وهارون عليهما السلام، ومجموعُها تِسْعُ آياتٍ كُبْرَىٰ، إلاّ أَنَّ الذِينَ أَغْرَقَهُمُ الله في البحر هُمْ فِرْعَوْنُ وآلُهُ وجُنُودُهُمْ الّذين جنَّدُوهم لِمُتَابعَةِ بَنِي إسْرَائيل، حين أَمَر الله موسَىٰ عليه السَّلام بأنْ يُخْرِجَهُمْ من مِصْرَ، ويَتَوَجَّه بهم شَطْر سِيناء، في طريقهم إلى دخول الأرض المقدّسة في فلسطين، إنْ أطاعوا التوجيه.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾: أي: كَذَّبَ فِرْعُونُ وآلُهُ وَمَنْ يتْبَعُهم من شعب مصر، بالآيَات العظمىٰ التي أجراها اللّهُ في مِصْرَ بعَظَمَةِ ربوبيّتِهِ التي يناسِبُها ضَمِيرُ المتكلّم العظيم، على يَدِ مُوسىٰ عليه السَّلام وَوَزِيره أخيه هارون النبيّ الرسُول عليه السلام:

وتكذيبُ المكذّبين هؤلاء بكلّ آياتِ الرَّبّ الجليل العظيم، الّتي أجراها اللَّهُ تأييداً لصدق موسى وهارون، بأنّهما نبيّان ورسُولان لله الرّبّ الخالق جلّ جلاله، ليْسَ إنْكاراً لِوُجُودِ أَعْيَانِها، فقد كانَتْ أعيانُها حقائقَ مَشْهُودَةً للجميع، إنّما كَذَّبُوا بكَوْنِها آياتٍ رَبّانِيةً يُؤَيّد الله بها رَسُولَيْه مُوسَىٰ وَهارون.

وهٰذه الآياتُ قَدْ كانَتْ أيضاً بمثابَةِ إنْذاراتٍ بِعَذَابٍ شاملٍ مُهْلِكٍ، لأنّها كانت مُخِيفَاتٍ، ومُشْتَمِلاتٍ على إنْذاراتٍ غَيْرِ مُهْلِكَاتٍ إهْلاَكاً عامّاً شاملاً.

والآيات الّتي كذّبوا بها هي بعْضُ الآيات التّسْع الّتي أعطاها اللَّهُ عزّ وجلّ لموسَىٰ عليه السّلام، وقد جاء تفصيلُها مُوَزَّعاً في سُوَرٍ متعدّدةٍ من القرآنِ المجيد.

الآياتُ الّتي آتاها الله عزّ وجل لموسى عليه السّلام:

الآية الأولى: انقلاَبُ عَصَاهُ حيَّةً مخيفَةً تَسْعىٰ، ثُمَّ ابْتلاعُهَا حبَال سَحَرَةِ فِرْعَوْنَ وَعِصِيِّهُمْ.

وتَكْذِيبهم بهذه الآيَة، قَدْ كان بإنْكارِ أَنْ تكون آيَةً رَبَّانيَّةً، وبادِّعَاء أَنَّها عَمَلٌ من أعمال السِّحر، الذي اشتهرت به مصر في أيّام الفراعِنَة.

الآيَة الثانية: أن يُدْخِلَ مُوسَىٰ عليه السَّلاَمُ يَدَهُ في جيبه، فَيُخْرِجَها بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ، تَتَلألَؤُ نوراً.

وتكذيبهم بهذه الآية قد كان بادّعاءِ أنّها عَمَلٌ مِنْ أعمال السّحر أيضاً.

الآية الثالثة: أية «الرِّجْزِ» وهو العذاب، فقد ابتلاهم اللَّهُ عزّ وجلّ بأنواعِ عامَةِ من الرّجْزِ، وكان كلُّ واحد مِنْها مَسْبُوقاً بإنْذَارٍ من موسىٰ عليه السّلام، وهي ما يلي

(١) رِجْزُ سَنَواتِ الجدْبِ والقحط، وكان ذلك بسبب قلّة مياه النيل، وانحباس أمطار السَّمَاء عن أرض مصر.

(٢) رجْزُ نَقْصِ الثمرات، وكان ذلك بسبب ما يُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْها من جوائح وآفات.

(٣) رجْزُ الطُّوفَان، وكان ذلك بسبب ارتفاع فيضان النيل ارتفاعاً أتْلَفَ الزُّرُوع وهدَمَ المساكن، أو بسبب أمطارِ غَزيرَةٍ نَشأ ذلك عنها.

(٤) رجْز الجراد، وكان ذلك بإرْسال جيوش الجراد الجرَّارَة المتكاثرة، الّتي لا تمرُّ على زرْع أو ثمر أو شَجَرٍ أو أيّ رزقٍ إلاّ أكلته.

(٥) رِجْزُ الْقُمَّل، وهو نوعٌ من الحشرات الصغيرات، اللّواتي تُقِضُّ مضاجِعَ الناس إذا انْتَشَرَت فيهم.

قيل: هو كبارُ القراد. وقيل: هو صغار الجراد. وقيل: هو البقُّ. وقيلَ: هو حَشَرَة تَغْمِسُ نَفْسَها في جِلْدِ الإنسان وتأكُلُ مِنْهُ وتتوالد، ويكون ظهرها مُسَاوِياً بعد انغماسها لِسَطْحِ جِلْد الإنسان، وقيل غير ذلك.

(٦) رجْزُ الضَّفادع، وكان من أمْرها أنَّها كَثُرَتْ عندهم كثْرَةً نَغَّصَتْ عليهم مَعيشَتَهُمْ، فكانت تَسْقُطُ في أطْعِمَتِهِم، وَفُرُشِهِم، وملابِسِهم.

(٧) رجْزُ الدَّم، وكان ذلك باستحالة الماء لأهل مصر دماً، أو مختلطاً بالدَّم. وقيل: سلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِم الرُّعاف. وقيل: أُصِيبُوا بوبَاءِ الدُّمّل، حتّىٰ فَشَا في الناس وفي البهائم.

وتكذيبهم بهذه الأنواع من الرّجْزِ الَّتي أنزلها اللَّهُ عزّ وجلّ بهم قد كان بادّعاء أنَّها ظواهِرُ طبيعيَّة من ظواهر الكَوْن، وليسَتْ آثارَ قَصْدٍ رَبَّانيّ يُؤيّدُ الله بها رسُولَه مُوسَى وأخاهُ هارُون، ويُنْذِرُ بها فرعونَ وآلَه وجنودَهُما بعذابِ مُهْلِكٍ شامل.

أمّا بقيّة الآيَاتِ التِّسْع، فقد أجراها الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام، بَدْءاً من يوم عبور البَحْرِ وإغْرَاقِ فِرْعَوْن وآله وجنودهما، وما بَعْدَ خُرُوجه من البحر مع بني إسرائيل نَاجين إلى صحراء سيْنَاء.

﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: اسْتُعْمِلَ أخْذُ اللَّهِ للنّاس في القرآن كنَايَة عن الانتقام مِنهُمْ بعذَابٍ مُهْلِك.

الأصْلُ في الأخذ تناوُل الشيء والقبضُ عليه وحيازَته، ويَحْمِلُ الأخْذُ أحياناً معنىٰ مَا يُؤْخَذُ له الشيء، فأخذ المذنب يحْمِلُ معنىٰ مُعَاقَبتِهِ بذنْبه، ولو لم يحْصُل أخْذٌ جسَدِيٌّ.

وجاء في العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم لأنَّ الحدَثَ الّذِي أنْجىٰ الله عزَّ وجلّ به موسَىٰ وبني إسْرَائيل، وأغْرَق بِهِ فِرْعَوْنَ وآله وجنودَهما، قد كان حَدَثاً عظيماً لا يَفْعَلُه إلاَّ الرَّبُّ الجليل العظيم القدير المقتدر العزيز.

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾: مفعُولٌ مُطْلَقٌ مُبَيِّنٌ لنَوْع الأَخْذ بإضَافَته إلى اسْمَيْن من أسماء الله الحسنىٰ، هما: عزيز، ومقتدر.

الْعَزِيزُ: هو القوي الغالبُ الذي لا يُغْلب.

المقْتَدِر: هو ذو القدرة البالغة الغاية، فَصِيغَةُ «المقْتَدِر» أبلغ من صيغة «القَادر» أخْذاً من زيادة المبنى الّتي تَدُلُّ على زيادَة المعنى.

وقَدْ كَانَ أخْذُ الله لهم بمُعْجِزَةِ فَلْقِ الْبَحْرِ لِمُوسَىٰ عليه، وَدُخُول بني إسْرَائيل عَابِرِين سَالِمِين مِنْ مَكانِ الْفَرْقِ، واتّباع فِرْعَونْ وآله وجُنُودِهم بني إسْرَائيل من المكان الذي عَبرُوا مِنه، ولمَّا نجا بنوا إسْرَائيل وخَرجوا من البحر عن آخِرِهم، وتَوسَّطَ فرعون وآله وجُنُودُهم طَرِيقَ الْعُبُور، أَمَرَ اللَّهُ البحر بأن يَنْضَمَّ بعْضُه إلى بَعْضٍ، فأهلكهم الله جميعاً، بسُلْطَان عزّتهِ واقتداره، فكانوا غرقىٰ هَلْكىٰ، وأخَذَ الله جسَدَ فرعون إلى الشاطئ، ليكون عبرَة لمن يعتبر من جبابرَة الأرض، كما جاء في نصّ آخر.

❁ ❁ ❁

(٩) التدبّر التحليلي للدرس الرابع من دُرُوس السّورة وهو الآيات من (٤٣ ـ ٤٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

تمهيد:

بعد أن جاء في السّورة عرض أمْثِلَةٍ خمسةٍ من المكذّبين بالنُّذُر، من كُفّار القرون الأولى، وكيْفَ أهلكهم الله جلّت قُدْرَتُه وعَظُم سُلْطانه، إهلاكاً شاملاً، بعَدْلِه وحكمته، فحقّق فيهم نُذُره الّتي بلّغهم إيّاها رُسُله، وأنْزَل بهم ما كانوا به يُكَذِّبون، وفي هذا العرض بيانٌ للّذِين كَذَّبوا بالنُّذُر الَّتي أنْذَرَهُمْ بها رسُول الله مُحمَّدٌ ﷺ، وفي مُقَدّمتهم كُبراء قُرَيشٍ، بأنَّهُمْ إذَا أصَرُّوا على موقف التكذيب الّذي اختاروه لأنفسهم، جعَلُوا أَنْفُسَهم عُرْضَةً لأنْ يُجْرِي الله فيهم سُنّته الّتي سَبَقَ أن أجراها في أمثالهم من أهل القرون الأولى، فَسُنَّةُ الله في عباده واحدة، وبهذا المفهوم يكون الخطابُ مُوجَّهاً بالْقَصْدِ الأول للمكذبين بنُذُر الرسول إبّان تنزيل سورة (القمر) ثمّ لكلّ مَنْ يُكَذّب من بَعْدِهم حتَّىٰ انتهاء مدَّة امتحان الناس في الأرض.

- ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾؟!.

سُؤالان يُوَجِّهُهُما الرَّبّ جلّتْ قُدرتُه وعَظُمَ سُلْطانُه للمكذبين المعاصرين للتنزيل، فَمَنْ بَعْدَهم.

وهذان السُّؤالاَن مبْنِيّان على قاعدةٍ أساسيَّة: هي أنّ سُنَّةَ الله في عباده واحدة، إذْ كُلُّهُمْ خَلْقُه وصَنْعَتُه وعَبِيدُه، وكُلُّ الممتَحَنين من خلْقه في الحياة الدنيا على سواء، يخْضَعُون لسُنَّةٍ ربَّانِيَّةٍ واحدة، فلاَ فَضْل لِفَرِيقٍ منهم على فريق آخَرَ بعُنْصُر، أولَوْن، أو لُغَةٍ، أو أرض، أو مساكن ومنازل، أو أعراق

أو أنسَاب، إنّما يكون التفاضُل فيما بينهم بالأعمال الاختياريَّةِ المكْتَسَبَةِ، من أعمال قلبيّة ونفسيَّة وفكرية، وأعمال ظاهرة بالجوارح تُعَبِّر عن الإرادات في داخل النفس، وتُعَبِّر عن الغايات والمقاصِدِ والنِّيّات، وتُتَرجِمُ العَقَائِدَ والمفهومات الراسخات، أو تكون آثاراً لفضائل الأخلاق ورذائِلها بأعْمَالٍ إراديَّة.

وبناءً على أنّ سُنَّةَ اللَّهِ في جميع خَلْقِه واحدةٌ، كَانَ مِنَ الإلزام في مناظَرَتِهِمْ طَرْحُ هَذَيْن السُّؤالَيْن عليهم:

السؤال الأول: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾؟!.

أي: أكُفَّارُكُمْ أيُّها المكذّبُونَ بالنُّذُرِ الَّتِي أنْذَرَكُمْ بها مُحَمَّدُ بن عبْدِ الله، رسُولُ الله إليكم، خَيْرٌ من كُفَّارِ أهل الْقُرون الأولى، الذين كذّبوا رُسُلَ ربّهم، وكذَّبُوا بالنُّذُرِ الَّتي أنْذَرُوهم بها بلاغاً عن ربّهم، وأَصَرُّوا على كُفرِهِمْ وظُلْمِهم وطغيانهم، فأخَذَهُم الله بذُنوبهم، وأهْلَكَهُمْ إهلاكاً عَامّاً شاملاً، حينما كانت أحْوالُهُم الميؤوس منها تَسْتَدْعي تعذيبهُمْ بالْعَدْل، وإبادتَهُمْ حَسْماً لشُرُورهم وطغيانهم.

فبماذا يجيب المطروح عليهم هذا السؤال؟.

فإن قالوا: نعم كُفَّارُنَا خَيْرٌ من كُفَّار الْقُرون الأولى الذين أهلكهم الله إهلاكاً عامّاً.

قيل لهم: بماذا؟

فإن قالوا: بالعرْقِ، أو باللُّغَة، أو باللَّون، أو بكونهم سُكَّانَ البلد الحرام، أو بكونهم ذُرّيَّة النّبي الرّسول إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، أو بغَيْر ذلك.

كانَ الجوابُ المفْحِمُ لَهُمْ: إنَّ مُهْلَكِي الْقُرون الأولى، كلّهم بشَرٌ

مِثْلَكُمْ أبُوهم آدم وأمُّهم حواء، والّذين نَشؤوا بعْدَ نوح عليه السَّلام هُمْ ذُرِّيَّة نوح عليه السلام، وهو رسولٌ من أولي العزم، وعادٌ وثمودُ وقوم لوطٍ سامِيُّون وعَرَبٌ مِثْلُكُمْ وقد أهلكهم الله.

وإذْ قد اشتركتم معَهُمْ في صفَةِ الكُفْر بالله وبرسُوله وبما جاء به الرَّسُولُ عن رَبّه، فلا فَضْلَ لكم علَيْهم بشيءٍ عند ربّكم، فسُنَّةُ الله فيهم هِيَ سُنَّةُ اللَّهِ فيكُمْ.

وهذا جوابٌ مُسْكِتٌ مفْحِمٌ دامِغٌ، لا يَجِدون من مُحاصَرته لهم مَهْرَباً.

وبسُقُوط احتمال كَوْنِهم خيراً من كفّار القرون الأولى، يأتي السُّؤال الثاني، لإسقاط الاحتمال الآخر الذي ليس بعده احتمال ثالث، وهو أن تكون لهم براءة خاصَّةٌ فيما أنزل الله من كتب.

السؤال الثاني: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾؟!.

أي: بَلْ أَلَكُمْ بَيَانُ براءَةٍ من عذاب الله إذا كفَرْتم بِهِ وبرسوله، وكذَّبْتُمْ بالنُّذُرِ؟!.

أو: ألَكُمْ بيَانُ براءَةٍ من التكاليف الدّينيّة، أو من الامتحان في الحياة الدُّنيا؟!

ويُشْتَرَطُ في بَيَانِ البراءة إذا ادَّعَيْتُموه، أن يَكُونَ في أيّ كتاب من الكُتُب الرَّبَّانِيّة السَّابقة، المنزَّلَةِ على رُسُلِهِ السّابقين.

إنَّهم لن يَسْتطيعوا أنْ يأتُوا ببيان في كتابٍ منْ كُتُب الله المنزّلة يُثْبِتُ بَراءَتَهُمْ من عذاب الله إذا كَفَرُوا. أوْ يُثْبِتُ إعفَاءَهُم من التكاليف الدّينيَّة، أو إعفاءهم من الامتحان في الحياة الدنيا.

البراءة في اللّغة: هي الخلاصُ والسَّلامة، والمراد الخلاصُ والإعفاء من المسؤوليّة والجزاء.

الزُّبُر: جمع «الزَّبُور» وهو الكتاب المزبور، يقال لغة: زَبَر الكاتبُ الكِتَابَ، أي: كتبه، أو أتقن كتابته فهُو مَزْبُورٌ وزَبُور.

وكلمة ﴿أَمْ﴾ هُنَا هي: «أم المنقطعة» وهي بمعنى «بل» وهٰذِه تتضَمَّنُ استفهاماً مُسْتَأْنفاً بَعْدَ كَلَامٍ يَتَقدَّمُها.

والمعنى: أَكُفَّارُكُم خَيْرٌ من أُولئكُمْ؟! بل أَلكُمْ براءةٌ في الزُّبُر؟!

فالكلام جارٍ على طَرْح استفهام حولَ قَضِيَّةٍ، فالإضرابِ عنه وطرح استفهامٍ آخر حول قضيَّةٍ أخرى، ضمن الموضوع نفسه.

فبماذا يُجِيبُون عَلىٰ هذا السؤال الثاني؟

إنّهم لا يسْتَطِيعُون أن يَدَّعُوا ويُثْبِتُوا ادّعَاءَهم، بأنَّ الله عزّ وجلَّ قَدْ مَنَحَهُمْ براءة من عذابه، أو براءة من التكاليف الدّينيَّة، أو براءة من الامتحان في الحياة الدنيا.

وبَدَهِيٌّ أنَّهُمْ لو ادَّعوْا هٰذهِ البراءة، فإنّ ادّعاءَهُمْ لها لاَ يكون صَحِيحاً، ما لَمْ يَكُنِ النَّصُّ المثبتُ لها مُنَزّلاً من عند اللّهِ جلَّ جلاله، في كتاب من كُتُبه الثابتة بيقينٍ عن رسولٍ من رُسُل الله جل جلاله.

وأنّىٰ لَهُمْ أَنْ يُثْبتُوا ذلك، فكُلُّ الكُتُب الرَّبَّانِيَّة المنزّلة، تُثْبِتُ أَنَّ النَّاسَ جَمِيعاً مَوْضُوعُونَ في الحياة الدنيا موضع الامتحان، والممتَحِنُ لهم هو الرَّبُّ الخالق جلَّ جلاله.

والامتحان يتناول قضيَّتَيْنِ كُبْرَيَيْنِ:

القضية الأولى: الإيمانُ بما أَوْجَبَ الله عزَّ وجَلَّ الإيمانَ به، الشّاملُ لأركان الإيمان وفروعها وتفصيلاتها على ما أنزل على رسوله.

القضيَّة الثانية: الإِسْلام لله في أوامره ونواهيه وأحكام شريعته ومنهاجه لعباده، وطاعَتُهُ، وشُكْرُهُ بالعبادات الّتي شَرَعَها لَهُمْ.

فلا أحَدَ من الناس معفيٌّ من مسؤوليّة هذا الامتحان، إذا كان مُسْتَوْفِياً شُرُوطَهُ، وهي الشروط الّلازمة لتوجيه التكاليفِ الاعتقاديّة، والفكريَّة، والنفسيَّة، والجسَديَّة، من كلِّ عَمَلٍ إراديٍّ بَاطنٍ أو ظاهر.

إذَن: فلا براءة لهم في الزُّبرُ من مسؤوليّة التكاليف الدينيَّة، ولا براءة لهم من الجزاء بالعدل، على عدم التزامِهِمْ بمسؤوليّاتهم الدّينيَّةِ فعلاً أَوْ تَرْكاً.

وإذْ ثَبَتَ أنَّهُ لا امتيازَ لهم ولا لغيرهم على سائر النّاس بخيريَّةٍ خاصَّةٍ عند الله، تَجْعَلُهُم فوقَ المسؤوليّات والعقُوبات، وإذْ ثَبَتَ أنه لا براءة لَهُمْ في الزُّبُر، فقد فَقَدُوا كُلَّ مَهْرَب من عذاب الله عزّ وجَلّ، يُمْكن أن يتصوَّرُوا أَنْ يكون لهم مَهْرباً.

وبعد هذا فما الذي يجْعَلُهُمْ يُصِرُّون على كُفْرِهِمْ وتكذيبهم بالنُّذُر، والحالُ أنَّهُمْ مُحَاصَرُونَ بما لا مَهْرَبَ لَهُمْ منه؟.

مثْلُ هٰذه المحاصَرة الفكريَّة كافِيَةٌ لإقناع مَنْ يُريدُ الاقتناع، وإلزامِ وإفْحامِ المكابرين، وكشفِ عنادِ المعاندين، وبيانِ ضعف عقُولِهم وضَآلَتِها، وَضعْفِ إراداتهم أمَام أهوائهم وشَهَواتِهِمْ وكِبْرِهم وغُرورِهم بأنفسهم، تأثُّراً بأوْهامِهِمْ ومفهومَاتهم السَّخِيفات.

فلْيَرْتقِبُوا عقابَ الله لهم إذا لم يَتُوبوا، أُسْوةً بمن أنزل الله بهم عذابه وعقابه من مجرمي القرون الأولى.

وقد نَزَلَ فعلاً بمجرميهم فيما بَعْدُ، ما يسْتَحِقُّونَ من عذابٍ وعقاب، بحكمة الله العليم العزيز المقتدر، حينما نَصَر اللَّهُ رسُولَهُ والمؤمنين في المواجهات القتاليّة الّتي أظفر اللَّهُ بها أولياءه على أعدائه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿أَمْ﴾ مثل سابقتها في الآية (٤٣).

﴿جَمِيعٌ﴾: اسْمٌ للجماعة المجتمعة على أَمْرٍ واحد، المتماسكة في وَحْدَةٍ.

والجَميعُ: المجتَمِعُ، يُقال: حيٌّ جميع، وقَوْمٌ جَمِيع، أي: مجتمعون مُتماسِكُون، مُتَّحِدُو الرأي والهدف، مترابطو القوى.

ويُوَلُّون الدُّبُرَ: أي: وَيَجْعلون مُحاربيهم من المسلمين يَلُونَ أَدْبَارهم، أي: يَتْبَعُونها قتلاً وأَسْراً.

والمعنى: بل أيقول قادة وأئمة الكُفْرِ في قُرِيشٍ نَحْنُ كتلَةٌ واحِدَةٌ مجتمعون مُتَمَاسِكُون، متَّحِدُو الرأي والهدف، أَقْوِياء، فإذا اجتمعنا وحاربنا محمّداً والّذين آمَنُوا معه، فلا بُدَّ أن ننتصر.

ويُطَمْئِنُ اللّهُ العزيز القّهار، الّذِي بيده النّصر، وهو على ما يشاء قَدير، رسُولَهُ والمؤمنين بأنّ الْجَمْع الذي يَجْمَعُه مشركو مكة لحربهم، سَيُهْزَمُون، وسَيُولُّونَ الأدبار، أي: وسيجعلون المسلمين يَلُونَ مُتَابِعَينَ أَدْبَارَهم قتلاً وأَسْراً.

الدُّبُر: الظَّهْرُ، ومن كلّ شيءٍ عَقِبُه ومُؤَخَّرُه، وهواسْم جنْس إفرادي، يَصْدُقُ على القليل والكثير، فيُوَلُّون الدُّبُر، مثل يُوَلُّون الأدبار في الدَّلاَلَة، وفيه معنىٰ أَنَّهم سيكونُون جَمِيعاً في الفرار والإدْبار، كأَنّ لهم دبُراً واحداً.

وجاء وصف «جميع» بكلمة «منتَصِر» على الإفراد مراعاة للفظ «جميع» وإن كان معناه جمعاً غير مفرد، ومثل هذا مما يجوز فيه الوجهان.

منتصر: اسم فاعل من فِعْلِ «انْتَصَر يَنْتَصِر» فهو مثل الفعل المضارع في الدلاَلَةِ على الحَالِ والاسْتِقْبال، والمراد هُنَا الدَّلالة على الاستقبال، ونظيرُهُ، كثير في القرآن.

وأبان الله عزّ وجل بقوله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ أنهم سيكونُون جَمْعاً ولا يكُونُون جميعاً، لأنهم عندئذ لا يكونُون على رأيٍ واحدٍ، ولا على هدف واحد، ولا على قلبٍ واحد، فالْجَمْع يُطْلَقُ على أي عَددٍ مجتمع، ولو كانت أفْراده متنافرة، ولَيْسَ بينهم جامعة تربطهم بقوة.

يقال لغة: هُزِمَ الْعَدُوُّ، أي: كُسِرَتْ شَوْكَتُهُ وغُلِبَ.

وإذا صَحَّ أنّ هاتين الآيتَيْن (٤٤ ـ ٤٥) من التنزيل المدني، فإنّ ضَمَّهما إلى سُورَة (القمر) يُشْعر بأنَّ كبراء مشركي مكَّة جعَلُوا يُرَدِّدُون قولهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ قبيل نزول هذه السّورة، وأخَّرَ الله عزّ وجلّ إنْزَالَ البيانِ حَوْلَها، وبِشَارَةَ الرَّسُول والمؤمنين بالنصر إلى الْعَهْدِ المدني، أَخْذاً بِحِكْمَةِ كِتْمَان التدبيرات الْحَرْبِيَّة، إذْ إنّ سماعَ المشركين في العهد المكيّ قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ قَدْ يُشْعِرُهُم بأنَّ خِطَّةَ الرَّسُولِ تَعْتَمِدُ على تَدْبِيرِ أمُورٍ حَرْبِيَّةٍ مُسْتَقْبَلِيَّة، ويجري الإعداد لَهَا سِرّاً، فيعْمَلُون علىٰ مبادَرَتهم بحرْب الرسول والمؤمِنين، قبل أن يُعِدُّوا لحَرْبهم ما يَلزَمُ مِنْ إعدادات.

ويظهر أنّ نُزُولَهُما في العهد المدَنِي قد كَانَ قَبْلَ غَزْوة بَدْرِ الكُبْرى فَقَدْ صَحَّ أَنَّ النبيَّ ﷺ خَرج من العريش يوم بَدْرٍ، وهو يَثِبُ في الدّرْع ويَقُول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

وأمَّا مَا رُوي عن مقاتل مِن أنَّ الآية (٤٦) من التنزيل المدني أيضاً مع الآيتين (٤٤ و ٤٥) فَمُعَارِضٌ بما صَحَّ عن عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها.

● روى البخاريُّ بسنده عن يُوسُفَ بْنِ مَاهَك، قال: «إنّي عند عائشة أُمّ المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ إذْ جاءها عراقِيٌّ فقال: أيُّ الكَفَنِ خَيْر؟

قالت: وَيْحَكَ، ومَا يَضُرُّك؟.

قال: يَا أُمَّ المؤمنين أَرِني مُصْحَفَك.

قالت: لِمَ؟

قال: لعلّي أؤلّف القرآنَ عليه، فإنَّهُ يُقْرَأُ غير مُؤلّف[1].

قالت: وَمَا يَضُرُّك أيَّهُ قَرأت قبل، إنّما أُنزِلَ أوَّل مَا أُنْزِل منه سُوَرٌ مِنَ المفصَّلِ، فيها ذكْرُ الْجنَّة والنَّارِ، حَتَّىٰ إذا ثَابَ النَّاسُ إلى الإسلام، نزل الْحَلاَلُ والحرامُ، ولَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الْخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الْخَمْرَ أَبَداً، ولَوْ نَزَل: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدعُ الزّنا أبداً، لَقَدْ نَزَلَ بمكَّةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ، وإنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعَبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾ ومَا أُنْزِلَتْ سورة (البقرة) و (النّساء) إلاَّ وأنا عنْدَه.

قال: فأَخْرَجَتْ لَهُ المصحف، فأَمْلَتْ عليه آيَ السُّور[2]».

فدلَّ هذا الحديثُ على أنَّ هٰذِهِ الآيَةَ من التنزيل المكيّ.

● وقد روى أهل السِّيرَ والمغازي، أنَّ النبيّ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ، اشتدّ في دعائِه لِرَبِّه في الْعَرِيش الّذي نُصِبَ له، وجَعَلَ يُنَاشِدُ رَبَّهُ مَا وَعَدَهُ من النّصرِ، ويقول فيما يَقُول:

«اللَّهُمَّ إنْ تَهْلِكْ هٰذِهِ الْعِصابَةُ الْيَوْمَ لاَ تُعْبَدُ، اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ أَبَداً».

وبالَغ الرّسُول ﷺ في الابْتِهال، وَمَدّ يَدَيْه إلى السَّمَاءِ، حتَّىٰ سَقَط رِدَاؤُه عَنْ مَنْكِبَيْهِ، وأبو بكر يَقُولُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بَعْضَ مُنا شَدَتِكَ رَبَّك،

---

(١) أي: غير مؤلّف السُّور، ويظهر أنّ هذا كان قبل أن يرسل عثمان المصاحف الموحَّدة إلى الآفاق، كما قال ابنُ كثير.

(٢) رُبما تكون قد أمْلَتْ عليه أوائل آي السُّور، وأواخِرَها، للْفَصْلِ بين كلّ سُورَةٍ والَّتي تليها بحسب مُصْحَفِها تلبيَةً لطلبه.

فَإنَّ الله مُنجزٌ لَكَ مَا وَعدَك، حَسْبُكَ يَا رَسُولَ الله، ألْحَحْتَ على رَبِّك، وَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَألْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ، ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِن وَرائِهِ.

وخَفَقَ رَسُولُ الله ﷺ خَفْقَةً وَهُوَ في الْعَرِيش[1]، ثُمَّ انْتَبَهَ فقال: «أبْشِرْ يَا أبا بَكْرٍ، أتَاكَ نَصْرُ الله، هٰذا جِبْرِيلُ آخِذٌ بِعِنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ، علىٰ ثَنَايَاهُ النَّقْعُ[2]».

ثُمَّ خَرَجَ الرَّسُول ﷺ من الْعَرِيش، واتَّجَهَ نَحْو المقاتلين، وَجَعَل يَثِبُ في الدِّرْع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾.

● وروى البخاري بسَنَدِهِ عن ابنِ عَبَّاسٍ، أنَّ رسُول الله ﷺ خَرَجَ مِنَ الْعَرِيش يَوْمَ بَدْرٍ، وهو يَثِبُ في الدِّرْعِ، ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾[3].

قال ابن حَجَر في الفتح: وقد روىٰ عبد الرزّاق عن مَعْمَر، عَنْ أَيُّوب، عن عِكْرِمة: أنَّ عُمرَ قال: لمّا نَزلَتْ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾ جعلْتُ أقولُ: أيُّ جَمْعٍ يُهزَمُ؟ فلَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، رأيتُ النبيَّ ﷺ، يَثِبُ في الدِّرْع وهو يَقُولُ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥﴾.

فدَلَّ هذا على أنّها نَزَلَتْ قَبْلَ مَوْقِعَةِ بَدْرٍ، وقَبْلَ الخروج إليها، فهي مدَنيَّةٌ فيمَا يَظْهَرُ والله أعلم، وكانت من بَشَائر ما سَيَحْدُثُ من نَصْرِ الرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ على عَدُوِّهم، قبل موقعة بدر حتماً.

● قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦﴾.

---

(١) أي: نام نومَةً يَسِيرَة.

(٢) **النَّقْع**: أي: الغبار.

(٣) انظر فتح الباري لابن حجر، الحديثان: (٤٨٧٥ ـ ٤٨٧٧).

[بل السَّاعَة مَوْعِدُهم]: أي: سَاعَةُ البعث للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

﴿أَدْهَىٰ﴾: أفْعَلُ تَفْضِيلٍ من الداهية، وهي الأمْر المنكَرُ العظيم من الشدائد، والنوائب، والمصائب.

يقال لغة: دَهَتْهُ دَاهِيَةٌ دَهْيَاءُ وَدَهْوَاء.

﴿وَأَمَرُّ﴾: أي: أَشَدُّ مَرارة، يقال لغة: مَرَّ الشيء يَمُرُّ مَرَارَةً، وأفعل التفضيل منه «أَمَرُّ».

وأيُّ شيءٍ أشَدُّ مرارَةً على الكافرين من عذاب يَوْمِ الدّين؟! وأيُّ داهِيَةٍ أَدْهَىٰ مِنْهُ؟!

والمعنى: لا نَصْرَ لَهُمْ في الدنيا، بَلْ هم سَيُهْزَمُونَ ويغْلَبُون، ولا نجاة لهم في الآخرة، بل هم سوف يُعَذَّبُونَ عَذاباً أَلِيماً خالداً، في جَهَنَّمَ وَبِئْسَ المصير، وهذا سَوْف يكون أشدّ وآلم وأقسَىٰ وأشدّ مَرارَةً من هزيمتِهِمْ يَوْم غزْوةِ بَدْر.

❁ ❁ ❁

(١٠)
التدبّر التحليلي للدرس الخامس من دروس السُّورة وهو الآيات من (٤٧ ـ ٥٥) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

تمهيد:

هذا آخر دَرْسٍ مِن دُرُوس السُّورة، وهو دَرْسٌ يشْتَمِلُ على كُلّيّاتٍ ومفهوماتٍ عَامَّاتٍ، من قَضَايا القاعدة الإيمانيَّة في الدِّين المنزّل من لَدُن رَبّ العالمين، الذي اصطفاه الله العليم الحكيم للناس أجمعين، وهذه الكليّاتُ والمفهوماتُ حقائقُ لا نَقْضَ لها، ولها ارتباط فِكْرِيٌ تَأْصِيليٌّ بما جاء في دُروس السُّورة قبل هذا الدَّرْسِ الأَخير، فما جاء في هذا الدرس هو بمثابة الحصيلة الختامية، الّتي ينبغي أن تقَدَّم في موادَّ دُسْتوريَّة، فما أحكم القرآن وأبلغه.

● ففي هذا الدرس بيانُ عَاقِبَةِ المجرمين والمتَّقِينَ يَومَ الدِّين مع عرض لقطَةٍ من عذاب المُجْرِمِينَ في دار العذاب، مَقْرُونَةٍ بحكاية ما يُقالُ لهم وهم يُعَذَّبُون، مُقْتَطعاً من الحَدَثِ نَفْسِه، ومَذْكُوراً ضِمْن هذا الدّرس كأنَّه يُقَالُ لَهُمْ الآن، ومعَ عَرْضِ لقطةٍ من نعيم المتقين في دار النّعيم، مَقْرونَةٍ بِتَكْرِيمٍ من الرّب الكريم المليك المقتدر.

● وفي هذا الدّرس حُكْمٌ علَىٰ المُجْرِمين بأَنَّهُمْ يتَخَبطُونَ في ضَلاَلٍ في الحياة الدُّنيا، وبأَنَّهُمْ في جُنُونٍ يُشْبِهُ جُنُونَ النُّوقِ المسعورة الْهَوْجاء.

● وفي هذا الدَّرْسِ بَيانُ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ اللَّهُ في الوجود أو قضىٰ بأن يَخْلُقه، فَهُو مَسْبُوقٌ بِقَدَر، أي: بتَقْدِيرٍ شَاملٍ مُحَدِّدٍ لكُلّ الْمَقَادِيرِ في الذَّوَاتِ والصِّفَاتِ، والأمكِنَةِ والأَوْقاتِ، لكُلّ صَغِيرٍ وكَبِيرٍ في الوجود، مَا مضىٰ، ومَا هُوَ مَوْجُودٌ، ومَا هُو آتٍ.

وبهذا التَّقْدِير الحكيم ينَالُ الْمُعَذَّبُونَ عذابَهُمْ في النَّارِ، ضِمْنَ نظام غَيْرِ نظام الحياة الدُّنيا وتَقْديرِ المقادير فيها، فالَّذِين يُسْحَبُونَ في النّارِ على وجُوهِهِمْ يُعَذَّبُون دون أنْ يَتَعَرَّضُوا للْمَوْتِ والفَنَاء، لأنّ مَقَادِيرَ يَوْم الدِّين غَيْرُ مَقَادِيرِ الحياة الدنيا، وذوات المعذبين تتلاءم مقادِيرُها مع مقادير العَذَاب في الجحيم.

وبهذا التقدير الحكيم ينال المنعَّمون أنواعَ نعِيمهم في الجنَّة خالدين، ضِمْن نظام غَيْرِ نظامِ الحياة الدُّنيا وتقدير المقادير فيها، فأنْواعُ السَّعادَاتِ واللّذَّاتِ العظيمات الخالدات، تتطَلَّبُ مقادِيرَ في ذَواتِ المنعمين غَيْرَ المقادير الَّتي كَانُوا عليها في الحياة الدنيا، لِتكُونَ إحْسَاسَاتُها ملائماتٍ للّذَّاتِ العظيمات الخالدات، وأنْ تكون غير عرضَةٍ للأعْراضِ والأمْراضِ والآلام والموتِ والفناء، فمقاديرُ يوم الدِّين غير مقادير الحياة الدنيا.

● وفي هذا الدَّرْس بيان أنَّ أَمْرَ التكوين الرَّبَّاني إنَّما هو كلمة واحدَةٌ يَتِمُّ بها تَكْوِينُ المقضِيِّ المقدَّرِ، بزَمَنٍ مُباشرٍ لَهَا، كَلَمْحٍ بالْبَصَرِ فيما يُدْرِكُهُ النَّاسُ من تنفيذ إرادة الرُّؤيَة بحَرَكَةِ اللَّمْحِ البصري.

● وفي هذا الدَّرْس تذكِيرُ المجرمين الذين ما زالُوا على قَيْدِ الحياة، بإهْلاَكِ اللَّهِ أمْثَالَهُمْ في الْقُرُونَ السَّالفَاتِ، وفي هذا التذكير تَنْبِيهٌ ضِمْنِيٌّ على سُنَّةِ اللَّهِ الثابتَةِ في عبادهِ، أوَّلِهِمْ وآخِرِهم، فَلْيَتَّذَكَّرُوا، ولْيَتعِظُوا.

● وفي هذا الدَّرْس بَيَانُ أَنَّ أعْمَالَ الْعِبادِ الظَّاهِرَة والباطِنَةَ مُسَجَّلَةٌ في كُتُب مَلائِكَةِ المراقَبَةِ والتسجيل.

أي: فهي سَوْف تُعْرَضُ عليهم يوْمَ الدّين، وسَوْفَ يُحَاسَبُون عليها، وسَوْف تكُونُ قراراتُ الجزاء بمقْتَضَاهَا، ضِمْن مَبْدَأي الْعَدْلِ، والفضل، وبالفضل يعفو اللَّهُ عن كثيرٍ من الذُّنوب، ويغْفِرُ كثيراً منها.

● وفي هذا الدَّرْس بَيَانُ أَنَّ كُلَّ صَغيرٍ وكبيرٍ في الوجود، ما كان، وما هو كَائِنُ، وما سيكون، أو سوف يكون، كُلُّه مُسْتَطر، أي: مكْتُوبٌ كِتَابَةً راسِخَةً ثابتَةً، لاَ تتآكَلُ، وَلا تَتَعرَّضُ لِمَا يُتْلِفُها، إلاَّ بأَمْرِ الله جلّ جلالُه في المحْوِ والإثبات، يمحو اللَّهُ ما يشَاءُ ويُثْبِتُ وعِنْدَهُ أُمّ الكتاب، وهو علْمُهُ جلّ جلالُهُ.

التدبُّر التحليلي:

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾.

سبق في السّورة أنّ ثمودَ قومَ النبيّ الرسول صالح عليه السلام، قالُوا بشأن رسُولهم:

﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: إنّنا إذا اتّبَعْنَا بَشراً منّا واحداً وهو «صالح» فإنّنا نتخبّطُ في ضَلالٍ مِنْ أَمْرِنا غَيْر مَهْدِيّين، وتكُونُ أَذْهَانُنا وأَدْمِغَتُنا مَغْمُوسَةً في جُنُون يجْعَلُنَا نَتَصرَّفُ في حياتنا على غير هدى، كَتَصرُّفِ النّاقةِ المَسْعُورَةِ الْهَوجَاء.

فقال الله عزّ وجلّ بَعْدَ عَرْضِ إهلاك طائفة من المجرمين الأوّلين، الّذين كذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم، وكذَّبوا بِنُذُرِهم، وبما جاءوا به بلاغاً عن الله عزّ وجل ومنهم ثمود:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: إنَّ الّذين كذَّبُوا رُسُلَ رَبّهم، وكذَّبوا بما بلَّغُوهم إيَّاه من النُّذُرِ، هم المنغَمِسُونَ في ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (أي: وجُنُون).

وهم بتَكْذِيبهم ومعانَدَتِهم الحقَّ الّذي جاءهم من رَبِّهم صاروا مُجْرِمِين.

المجرم في اللّغة: فاعل الْجُرْمِ ومُرْتكبُه، وهو المتعدّي بذنْبٍ كبير، **والْجُرْمُ:** التّعَدّي بغير حقّ.

وجاء لفظ «المجرمين» في القرآن عنواناً مُقَابِلاً للمسلمين، ووصْفاً للكافرين الّذِينَ أَهْلَكَهُمُ الله في الدنيا، ووصفاً للمعذبين في النار عذاباً خالداً.

ولدى تتبّع النُّصوص نُلاحظ أَنَّ المجرِمَ في لسان الشرع، يُطْلَقُ على الكافر، كما أَنَّ كُلَّ كافر يُطْلَقُ عليه أَنَّه مُجْرم، بَدْءاً من المشركين، حتّىٰ أخسّ دَرَكات الكافِرين، وهم أهل الدَّرْك الأسْفل من النار.

أليس الّذي يُعَرّضُ نَفْسَه لعقاب الرَّبّ عزّ وجلّ في الدنيا، ولِلْخُلُودِ في النار دار العذابِ يوم الدّين، مُنْغمِساً في الضَّلالِ والضياع والتخبُّطِ على غير هُدىً؟!

أليس منْغَمِسَ الفكر والرأي وأدواتِ الإدراك لديه في جنُونٍ، يَصْرِفُهُ عن إدْرَاك الحقّ.

كَلِمَةُ «**سُعُر، وسُعْر**» بضمّ العين وإسكانها تأتي في اللُّغَةِ بمعنى: «الجنون» كما سبَق بيانُه في تدبّر الآية (٢٤) من السورة.

وبهذا المعنى فسَّر أبو عليٍّ الفارسيّ عبارة ﴿وَسُعُرٍ﴾ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ وليْسَتِ الكلمة جَمْعَ «سَعِير» بمعنى النار.

أقول:

ما قاله «أبو عليّ الفارسيُّ» صَحِيحٌ، وهو الذي يُنَاسِبُ معنى الآية، ولا سيما أنَّ أمْرَ عَذَابِهِمْ في الآخِرة، قَدْ نُصَّ عليه في الآيَة التالية، ومن أسْلُوب القرآنِ أن يُضِيفَ المعانيَ تأسِيساً، ولا يُكَرِّرَهَا تأكيداً.

ويَأْتي السُّعُر في اللُّغَةِ بمعنىٰ الْعَنَاءِ والعذاب، ويأتي بمَعْنَىٰ الشَّهْوَةِ مع الجوع.

وهٰذان المعنيان يُوافِقَان حال المجرمين في الدنيا، فهم في عناءٍ نَفْسِيٍّ دائم، وفي شَهْوَةٍ وجُوعٍ لِمتَاعِ الحيَاةِ الدّنيا، وهُمْ في عذابٍ نَفْسِيٍّ تَتَواتَرُ عَلَيْهِم لَفَحاتُ آلامه.

فتُحْمَلُ كلمَةُ «سُعُر»في هذه الآيَةِ على كُلّ هٰذِه المعاني، وهذه المعاني قَدْ تُوجَدُ مجتمعةً عند بَعْض المجرمين، وقد تُوجَدُ مُوَزَّعَةً على أفْرادهم، بحَسَبِ حالة كُلٍّ مِنْهم.

● قول اللَّهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿يُسْحَبُونَ﴾: السَّحبُ: جَرُّ الشيءِ على الأرض، يقال لغةً: سَحَبَ الشيءَ يسْحَبه سَحْباً، أي: جرَّهُ على الأرْض، فانسَحَبَ، أي: فانْجَرَّ على وجه الأرض.

ومنه سحْبُ البساط، إذ يكون بجرِّه على وجْهِ الأرض مبسوطاً والمعنى أنَّ المجرمين يوم الدّين يُسْحَبُونَ في النار دار العذاب يومئذٍ على وجوههم، زيادةً في تَعْذِيبهم الذي يتجدَّد بالسَّحْب، وإهانَةً وتحقيراً لهم، لأنّهم في مُدّة امتحانهم في الحياة الدنيا وَلُّوا ظُهورَهُمْ، لَدعْوةِ رُسُل رَبّهم، ولم يستجيبوا لها جُحُوداً واستكباراً، وعَادَوْها وقاوَمُوها، وحاربُوها، وأرادوا نُصْرَةَ الباطلِ وإزهاقَ الحقّ الرَّبّاني.

والسَّحْبُ على الْوُجوه يقتضي جَمْعَ الأيْدِي والأَرْجُلِ من وراء، ورفْعَها حتَّىٰ تبقى الوجوه والصُّدُورُ والْبُطُون على الأرض.

﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾: أي: وَيُقالُ لهم وهم يُسْحَبُون في النَّارِ على وجُوهِهِمْ بلسَانِ الحالِ وبلسَانِ المقَالِ: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾: أي: ذوقُوا آلامَ مَسِّ حَرَارَة ما تُسْحَبُونَ عليه من أرْضِ «سَقَر».

هذه العبارة مقتطَعَةٌ من الحدث المستقبليّ الذي سوف يكون حتماً، ومقدَّمَةٌ في النّصّ، كأن المجرمين يخاطبون بها الآن، وهذا من الإبداعات القرآنيَّة الّتي لم تكن معروفة عند البلغاء، ويُقَدِّرُ النحاة لمثل هذه العبارة فِعْلاً على الوجه التالي: أي: يقال لهم يومئذٍ: ذُقُوا مَسّ سَقَر. وأرى أنّ مثلَ هذا التقدير يُضْعِفُ من قيمة إبداع الاقتطاع والمفاجأة به.

﴿مَسَّ﴾: المسُّ في اللّغة إلصاق الجسم بالجسم مع حركة.

﴿سَقَرَ﴾: اسْمُ علم من أسماء جهنّم دار عذاب المجرمين يوم الدّين، وهو ممنوع من الصرف للعلميّة والتأنيث.

ومادّة هذه الكلمة في اللّغة تَدُورُ حَوْل معنيَيْن:

المعنى الأول: الْبُعْدُ، ومعلومٌ أَنَّ جهَنَّم عَمِيقَةٌ جداً، بَعِيدَةُ الغُورِ.

المعنى الثاني: شِدَّةُ الحرارة، وكذلك حال جَهَنَّمَ.

يقال لغة: سَقَرَ الشيءُ يَسْقُرُ سَقْراً، أي: بَعُدَ.

ويقال: سَقَرَتِ النّارُ أو الشَّمْسُ فُلاَناً، أي: لَوَّحَتْ جِلْدَهُ، وغَيَّرَتْ لَوْنَهُ، وآذَتْهُ وآلَمَتْهُ بِحَرِّها.

فاشْتُقَّت كلمة «سَقَرَ» علماً على جَهنَّم من هذه المادّة اللّغوية.

وبِسَحْبِ وُجُوه المجرمين على أَرْضٍ صُلْبَةٍ حارَّةٍ من أرْضِ جهنَّم يحْدُثُ تَمَاسٌّ يكوي وُجُوههم بالحرارة، فَيَذُوقُون لَذْعَهَا ذا الإيلام الشديد.

وقد اسْتُعْمِلَ الذَّوْقُ في القرآن المجيد لكُلّ ما يُحِسُّ بِهِ ذوُو الأحساس من آلاَمٍ وَلَذّاتٍ ظاهراتٍ وباطنات.

وأصل الذَّوْقِ في اللُّغةِ يُعبَّر به عن ذَوْق طُعُومِ المآكل والمشارب، ثُمّ عُمّم على الإحساس بما يلَذُّ ويُمْتِعُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، والإحْسَاسِ بما يُؤْلِمُ أو تَنْفِرُ مِنْهُ النفوس من كلّ شيءٍ، حتَّىٰ الموت، فقد قال الله عزّ وجلّ بشأنه في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

هذه الآية قد قدَّمَتْ لقْطَةً من صُوَرِ عذاب المجرمين يوم الدين في سَقَر. وصِلَتُها واضِحَةٌ بِدُرُوس السُّورَةِ، إذْ بدأت بالحديث عن المجرمين الذين كذّبُوا بالنُّذر التّي أنْذَرَ بها رسول الله محمد ﷺ، ثم ضَرَبَتْ أمْثِلَةً مِن المجرمين السّابقين من أهل القرون الأولى، وكيف أنزل الله عزّ وجل بهم عقابه المعجل في الحياة الدنيا، فلا بُدَّ من عَرْض صُوَرٍ مِنْ عذابهم يَوْمَ الدِّينِ ليتكامل الموضوع تكاملاً ملائماً للإقناع والموعِظَةِ الحسنة.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾:

يتحدّث الله عزّ وجل في هذه الآية بضمير المتكلّم العظيم، لأنّ أعْمَالَ الخلْقِ المقدّرِ بغايَةِ التقدير الحكيم، لا يَعْمَلُها إلاّ الرَّبُّ الخالقُ العظيم الجليل، الذي وَسِعَ كلَّ شيءٍ عِلْمًا، وهُوَ على ما يَشاءُ قدير.

أي: إنّا بِكَمالِ وعظَمَةِ صفاتِ الرَّبُوبيَّة قَدْ خَلَقْنا كُلَّ شيءٍ بقَدَر، أي: بتَحْدِيدِ تَمَّ فيه تقديرُ كلِّ صَغِيرٍ وكبير من ذاتِ وصفات، ومكانِ وُجودِ وَزمانه، وكُلِّ ما يخضع لتقدير أجزائه.

إنّ التكوين لا بُدَّ أن يكون مسبوقاً بعِلْم شامل، وتقديرِ كامل، لكلّ جزء مِنْ الأجزاء التي تحتاجُ تحديداً، وبَعْدَهُ يتِمُّ القضاء، وهُوَ بمثابَة القرار بالتكوين، ثُمَّ يكونُ الْخَلْقُ في المكان والزّمانِ المحدَّدَيْنِ، بأمْرِ التكوين الرَّبَّاني: «كنْ» فهو «يكون» على وقف المقادير التي قضاها الله عزّ وجلّ.

والقضيَّةُ الّتي أبَانَتْها هذه الآيَةُ لَها صِلَةٌ بكُلِّ مَا جاء في السُّورة مما يحتاج إلى تقديرِ حَكيم، من الرَّبّ العليم الحكيم القدير، حتّىٰ عَدَدُ قَطَراتِ الماء التي نزلت من السماء أو نبعت من الأرض في طوفان نوح، وحتّى عَدَدُ الحجارة الّتي أمطرها الله على قوم لوط، وحتّى كلُّ جزئيَّةٍ من جزئيَّات الريح الّتي أهلك الله بها عاداً، وحتَّىٰ مقدار قوة الصيحة التي أهْلَكَ الله بها ثمود قوم الرسول صالح عليه السلام.

وقد يَخْطُر في بعض أذْهَانِ المتلَقِّين سؤالٌ حوْلَ سَحْبِ المجرمِينَ يَوْمَ الدّين في النار على وجُوههم، واضِعِينَ في تصَوُّرهم نِظَامَ الحياة الدّنيا، ونظام مقاديرها، فجاءت الإشارة بقول الله عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ إلى أنّ مقادير نظام يوم الدين، مختلفة عن مقادير نظام الحياة الدنيا، فلا يُقَاسُ مَا في الآخرة عَلَىٰ ما في الدنيا بالنّسْبة إلى تَحْدِيد المقادير.

• قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ۝٥٠﴾:

أي: وَما أمْرُنا التَّكْوِينيُّ في إيجاد الأشياء أو إعدامها، الذي يسْبِقُهُ قَدَرٌ فقضاء، إلاّ كَلِمَةٌ واحدة، وهي كلمة: «كُنْ» كما جاء بيانه في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾.

فإذا قال اللّهُ عَزَّ وجلَّ لما أَرَادَ تكوينَهُ: ﴿كُن﴾ كان المراد على ما قضاه، ووفق مقاديره، دُون فاصِلٍ زمنِيّ، بل يُوجَدُ بَعْدَ أمْرِ التكوين كلمْحِ بالْبَصَرِ لِمُريد هذا اللَّمْحِ.

والتشبيه بلَمْحِ الْبَصَر تشبيهٌ تقريبيٌّ، لتعريفنَا كيْفَ يكُونُ إيجاد المكوّنَاتِ مَهْمَا عظُمَتْ عَقِبَ أمْر التكوين فوراً.

فقد جاء في نصٍّ آخَرَ بيانُ أنّ المكَوَّناتِ تُوجَدُ بعد أَمْرِ التكوين الرَّبَّانيّ بأَقْرَب من لمْحِ الْبَصر، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: وما أمْرُ وُجود السَّاعةِ بَعْدَ أَمْرِ التكوين الرَّبَّاني، سواءٌ أكانت ساعَةَ إنْهَاءِ نِظَام يَوْم الحياة الدنيا، أم كانت ساعَةَ إيجادِ نظام اليوم الآخِر وَبَعْثِ الأحياء بعد الموت، إلاَّ كَلَمْح الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ من سُرْعَةِ لمْحِ الْبَصَر لمن تتوجَّهُ إرادته لأنْ يَلْمَح ببَصَرِهِ.

وصلة هذه الآية (٥٠) بما سبَقَ أن جاء في دُرُوس سورة (القمر) تابعٌ لِصِلَةِ الآيةِ (٤٩) الّتي قبلها، والّتي سبَقَ بيانها.

وفي هذه الآية (٥٠) الإعلامُ بأنَّ السَّاعَةَ الْمَقَدَّرَةَ المقضيَّة بالقضاء

الْمُبْرَم، لاَ تَحْتَاجُ أكْثَرَ مِنْ أَمْرِ التكوين الّذي تَحْدُثُ به فَوْراً. وَبأنَّ انشقاق القمر، وكلَّ الأحداث الّتي كان بها إهلاك المكذّبين بالنُّذرِ من كُفَّارِ الْقرون الأولى، لم تَحْتَجْ أَكْثَرَ من أَمْرِ التكوين، فكانَتْ بَعْدَهُ فَوْراً حَسَبَ مَقادير ذواتها وَصِفَاتها وأَزْمِنَتِها وأمْكِنَتِها.

وهكذا كُلُّ أوامر الله التكوينيَّة المسبوقة بقَدَرِهِ فقضائه، فَلْيَحْذَرِ المكذِّبون المعاندون، أنْ يُصِيبَهُمْ من اللّهِ ما أصَاب الّذين من قبلهم.

● قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾﴾؟!.

الكلام في السورة يدور حول المكذّبين بالنُّذُرِ التي أنْذَرَ بها محمّد ﷺ، وأوَّلُ المقْصُودين هم معاصرو التنزيل، وفي مقدمتهم كُبَرَاءُ مُشْرِكي مكَّة الّذين أصَرُّوا على العناد ورفْضِ الحق الربَّاني.

على أنَّ السُّورَة تُعالجُ كُلَّ المكَذّبين إلى أنْ تَقُومَ الساعة.

وفي هذه الآية يخاطب الله عزّ وجلّ المكَذّبين بالنُّذر خطاباً مباشراً، فيقول لهم مُؤَكّداً بعبارة: «لَقَدْ»: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾.

﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾: **أشياع**: جَمْع «شِيَع» ومُفْرَدُها «شيعَة» فأشياع جَمْعُ جَمْعٍ، وتُطْلَقُ الأشياع على الأشباه والأمثال.

الشّيعةُ: القوْمُ أو الجماعَةُ من الناس الذي يجتمعون على أمْرٍ ما. وكُلُّ قَوْمٍ أَوْ جماعَةٍ لهم أَمْرٌ واحِدٌ مُتَّفِقُون عليه، أو لهم مذهَبٌ واحِدٌ يَسِيرُونَ عليه، أو لهم طريقَةٌ واحِدَةٌ يَتَّبِعُونها، وَلوْ لَمْ يُنَاصِرْ بعضُهُمْ بعضاً، ولو لم يكُونُوا في زَمَنٍ واحدٍ.

فاللَّاحقُون الذين هم على مذهب السَّابقين هم من شيعتهم، والسَّابقون الَّذِين هم على مذهب اللاَّحقين هم من شيعتهم أيضاً.

والشيعة في الغالب يُنَاصر بَعْضهم بَعْضاً فيما اجتمعوا عليه.

ويُشيرُ لفظ ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ بالجمع إلى أنّ كفّار القرون الأولى كانوا مختلفي المذاهب الكُفْرِيَّة، لكنهم مجتمعون على التكذيب بالنُّذُر(١).

والمعنى: ولقد أهلكْنا أمْثَالَكُمْ وأشْبَاهَكُمْ الَّذِين تَجْتَمِعُونَ معهم على طريقة واحدة في التكذيب بالنُّذُرِ، الّتي جاءتهم عن ربّهم، على ألسنة الرُّسُل الذين بَعَثَهُمُ الله إليهم.

وبما أنَّ سُنَّتَنَا في عبادِنا السَّابقين واللاَّحقين واحدة، فاعلموا أنَّكُمْ إذا وصَلْتُمْ إلى مثل الذي وصل إليه المهْلَكُون السابقون من كُفْر وطُغْيان، وظُلْم وَعُدْوان، فإنَّنا سَنُنزِلُ بِكُمْ إهْلاَكاً عامّاً شَامِلاً، مُمَاثِلاً لما أنْزَلْنَاهُ بِالْمُجْرِمينَ السَّابقين.

● ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾: أي: فَهَلْ مِنْ مَتَذَكِّرٍ يَضَعُ في ذاكِرَتِهِ سُنَّتَنا هذه في عبادنا، لتكون واعظَةً لَهُ، فيَجْتَنب ما يجعله من المجرمين، الذين يستحقُّون الإهلاك العامّ المعجَّل في الحياة الدنيا، ثُمَّ العذاب الأبديَّ الخالد يَوْمَ الدِّين في سَقَرَ.

استعمل الاستفهام في الحضّ والحثّ على التذكُّر الدافع إلى الاعتبار والاتعاظ.

إنَّ وضْعَ الفكرةِ ذاتِ التأثير النَّفْسِ في الذَّاكِرة حيَّةً دواماً، أو متناوبَةً آناً فآناً، أو آنا ثُمَّ آناً، من شأنِه أن يَجْعَلَها مُتتابعَةَ الطَّرقاتِ على غُدَدِ التَّحْرِيضِ في النَّفْسِ، وبهذا التتابُعِ التَّحْرِيضي يتَّجهُ ذو الإرادَةِ الواعيَةِ العاقِلَة إلى تَحْقِيقِ ما يَنْفَعُهُ ممّا آمن بمَنْفَعتِه، واجتناب ما يَضُرُّه ممّا آمَنَ بمضَرَّتِهِ، وهكذا يكُونُ الاعْتِبَارُ والاتعاظ.

(١) فما أبدع الدّقة في البيان القرآني، والقرآن حينما يتحدّث عن فِرَق أهل ملة واحدة، يأتي بلفظ «شِيع» وحينما يتحدّث عن فرقة معينة ذات مذهب واحد يأتي بالمفرد «شيعة».

مُدَّكِر: أصلها مُذْتكِر، من صيغة «اذْتكَر» على وزْنِ «افتعل» تحويلاً من فعل «ذكَر». وقلبت التاء دالاً بَعْدَ الذّال، ثم قلبت الذال دَالاً، فصارتَا دالاً مُشَدَّدَةً «ادَّكَرَ» واسم الفاعل منه «مُدَّكِر».

● قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾:

أي: وكُلُّ شَيْءٍ فَعَلَهُ الموضوعُونَ في الحياة الدنيا موضع الابتلاء، للحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء يوم الدين، مكْتُوبٌ ومُسَجَّلٌ في الزُّبر.

الزُّبُر: هي الكتب، جمع «زبور» وهو الكتاب المزبور.

والمراد بالزُّبُرِ هنا صُحُفُ ملائكة تسجيل أعمال العباد وكتُبُهُم.

وقد صَرَّحَ هذا النَّصُّ بالأفعال، وبما أن القول فعْلٌ منْ أفعال اللّسان، فهو يَدْخُل في عموم الأفعال.

وسبق أن جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) التصريح بتسجيلِ الأقوال، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

والتصريح بسجيل الأقوال يتضَمَّنُ باللُّزُوم الذهنيّ تَسْجيلَ سَائِرِ الأَفْعَال، لأنّ الأفعالَ ذَاتَ الآثار الماديَّة، أَدلُّ في ظروف الحياة الدُّنيا على تَوجُّه الإرادة الموضوعة موضع الاختبار، من الأقوال الّتي هي أفعال في اللّسان معبِّراتٌ عن معاني قد يكون اللّسان فيها صادقاً وقد يكون غيْرَ صادق، على أنَّ الأعمال ذات الآثار الماديَّة قد يدخُلُ فيها النفاق أيضاً، ولكن بصورة أقلّ من الأقوال.

وبعد تنزيل سُورَة (القمر) أنزل اللَّهُ عزّ وجلّ بيانات أخرى بشأن كتب تسجيل أعمال العباد، فيها تفصيلات مُكَمِّلاَتٌ لمَا أنزل الله في سُورَتي (قٓ)

و (القمر) ومنها قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾:

﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾: أي: جَعَلْنا كلَّ عَمَلِه وكَسْبِهِ في الحياة الدُّنيا الّذي هو بمثابَة الطائر الي يَطير من قَفَصِهِ، مُعَلَّقاً بمَنَاطِ المسؤوليّة لدَيْه، المعبَّرِ عَنْهُ بالْعُنُقِ، فَهوُ يوم الدين مسؤول عنه ومحاسَبٌ عليه.

وارتباط قول الله تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ بما جاء في دروس السّورة، أنَّ المكذبين بالنُّذر، قد يقع في توهمهم أنَّ أفْعَالَهم الّتي يفْعَلُونَها تُنسَىٰ فَلاَ يُحَاسَبُونَ عليها، ولا يجازَوْنَ، فكان من الحكمة البيانيَّة التصريح في الدرس الأخير من دروس السورة بأنّ كُلَّ شيءٍ فَعَلُوه بإراداتهم من أفعال ظاهرة أو باطنه، مُسَجّلٌ مُدوَّنٌ في الكتُب المخصَّصَة لتسجيل أعمال العباد جميعاً، فلا يَظُنَّنَّ ظَانٌّ منهم أنَّ أفعالَه متروكة منسيَّة، ليس وراءها حسابٌ، وفَصْل قضاء، وتنفيذ جزاء.

● قول الله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾:

﴿مُّسْتَطَرٌ﴾: أي: مكتوبٌ مُسَجَّلٌ تسجيلاً ثابتاً، لا يتَعَرَّضُ للتآكل والمْحوِ مهما تطاولت الأزمان.

والمعنى: أنَّ كُلَّ صَغِيرٍ وكبيرٍ في الوجود، ما كان ومضى، وما هو كائنٌ الآن، وما سيكونُ أو سَوْف يكون في المستقبل مكتوبٌ مُسَجَّلٌ مُسْتَطر.

السَّطْر في اللُّغة: الخطُّ والكتابة، وهو مصدَرُ سَطَر الكتاب يَسْطُرُهُ سَطْراً، أي: خَطَّهُ وكتبه.

ويقالُ في التوكيد: سَطَّرَه، أي: كتبه بعناية.

ويقال عند شدّة العناية المصحوبة بتكلّف استَطَر الكتاب، ومنه اسم المفعول: «مُسْتَطَر».

والغرض بيانُ ثباتِ المستَطَرِ عند الله، وعَدَمِ تعرُّضِه للتآكل والمحو.

ولمّا كانت الأمور الصغيرة مما يتهاون الناس به في حياتهم، جاءَتِ البيانات القرآنيّة منبِّهَةً على الصغير قبل الكبير، لِتَدُلَّ على أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ لَيسَ لَدَيْهِ تَهاوُنٌ بشيءٍ في كونه، فكلُّ صغير وكُلُّ كبير مشْمُولٌ بالتقدير والقضاء، والإيجاد والإعدام، بنِسْبَةٍ واحدة من العناية.

وما دلّتْ عليه هٰذِه الآيةُ بعُمُومِها، قد جاء تفصيلُه في عدّة نصوصٍ قرآنيّة، فمنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (الواقعة/ ٥٦ مصحف/ ٤٦ نزول):

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يُونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾﴾.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾.

(٦) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾.

هذا الكتاب المبين هو اللَّوْح المحفوظ، وهو كتاب علم الله الشاملِ كلَّ شيء.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾:

في مقابلِ بيانِ لقْطَةٍ من عذاب المجرمين يوم الدين، اقتضىٰ البيان الحكيم تقديم لقْطَةٍ من نعيم المتقين، وفق المنهج القرآني الذي يُتْبِعُ الترهيب بالترغيب، والعكس، فما اقتضىٰ السّياق ذكره أوّلاً منهما، فالآخر يأتي بَعْدَه، لأنّ الموعظة الحسنة ترغيب وترهيب، على مِحْوَرَيْ الرَّغَبِ والرَّهَبِ في النفس، وهما في النَّفْس مُتلازِمَان.

وإذا كان العقابُ الرَّبَّانيُّ قائماً على صفة الْعَدْل، فالثوابُ الرَّبَّانيُّ قائم على صِفَات الفضل والجود والمنّ والكرم.

وكما جاء تأكيد عقاب المجرمبن بمؤكدين: «إنّ ـ والجملة الاسمية» جاء تأكيد ثواب المتقين بهذين المؤكدَيْن أيضاً، مراعاة لحال المخاطبين في الأمْرَين، وليتَّسِق البيانان في نَسَقٍ متماثل متكافئ، وهما حاصران للدرس الأخير من دروس السّورة، بِبَيان صُورةٍ من صُور عقاب المجرمين في أوّله، وبيان صُورةٍ من صُور ثواب المتقين في آخره.

[**المتقون**]: هم أهل مَرْتَبة التقوى، وهٰذه المرتبة ذات درجات متفاضلات كثيرات.

وأدْنىٰ درجاتها دَرَجَةُ الإيمان والبراءَةِ من الشِّرْك، الّذي هو أخف

دَرَكاتِ الكُفْر وأهونُها، وأخَسُّ منه إنكار وجود ربّ خالق، والجمع بين الكفر والنفاق.

وبالبراءة من الشرك يَحْمي المتقي نَفْسَه من الخُلود في النار.

وتَرْتَقِي دَرَجَاتُ المتقين، وأعْلاَها دَرَجَةُ تأدِيَةُ كُلّ الواجبات الدينيَّة، وَتَرْكُ كلِّ المحرَّمات الدينيَّة.

وفوق مرتبة المتقين تأتي مرتبة الأبرار، وهم الذين يتوسعون في أَعمَال البرّ من المندوبات والنوافل، ولهذه المرتبة درجات متفاضلات كثيرات.

وفوق مرتبة الأبرار تأتي مرتبة المحسنين، وهي ذات درجات متفاضلات كثيرات.

وقد عرَّف الرسول ﷺ الإحسان بقوله: «أن تعبدُ الله كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تكن تَرَاهُ فإنَّه يراك» فالإحسان حالة كيفيَّةٌ تكمن بإتقان العبادة مع كمال الإخلاص لله فيها.

وكُلٌّ من الأبرار والمحسنين يوصفون بأنَّهم متَّقُون، لأنَّهم مُتَّقُون وزيادة، والدَّرَجَةُ الأدْنَىٰ شَرْطٌ طبيعي للدَّرَجَةِ الأعلى، فلا يكون المؤمن من الأبرار حتى يكون من المتقين، ولا يكون من المحسنين حتى يكون من المتقين، وحتى يكون من الأبرار غالباً.

فالجميع يدخلون في عُمُوم المتقين، فالثواب المذكور في النَّصِّ وعْدٌ لهم به جميعاً.

﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾: الجنّات جمع «جَنَّة» وهي ما يحتوي على أشجارٍ وثمارٍ وزُرُوع وأنهار وقُصُورٍ، وكلّ مَا يُمتِعُ النَّفس والحواسّ.

ودار النعيم يوم الدّين فيها جنَّاتٌ متعدِّدَاتٌ، ويجْمَعُها جَمِيعاً اسم

«جنَّة» باعتبار أنَّها كُلَّها بمثَابَةِ دارٍ للنعيم، كشَأْنِ دَارِ الحياة الدنيا بكُلِّ ما فيها من أَرْضٍ وسَمَاوَاتَ.

وهذه الجنَّة الجامعة العامّة عَرْضُها السَّمَاواتُ والأرض، أُعِدَّتْ للمتقين.

﴿وَنَهَرٍ﴾ يقال لغة: نَهْرٌ ونَهَرٌ بإسْكان الهاء وفَتْحِها، والْفَتْح أفْصَح، وهو مَجْرَى الْمَاءِ المنخفض عن سَطْح الأرض، وجَمْعُهُ «أَنْهَارٌ» و «نُهُرٌ» و «نُهُور».

ويقال لغة: نَهَرَ الماءُ، إذا جَرَىٰ في الأرض، وجعل لنفسه نهراً، وتقول: نَهَرْتُ النَّهَرَ، إذا حفَرْتَه.

قال الفرّاء: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ معناه أنهار، أي: أُطْلِق المفردُ وأريد به الجنس، فيشْمَلُ كُلَّ الأنْهار الّتي في الجنّة.

وجاء في نصوص كثيرة جداً في القرآن الكريم وصْفُ الجنة بأنّ فيها أنهاراً تجري من تحتها.

وجاء في سورة (محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ في وصف الجنة:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ . . . ﴿١٥﴾﴾.

وقد يكون النَّهَرُ الْمُرادُ في سُورَةِ (القمر) نهراً عظيماً يمرُّ في جميع الجنّاتِ على تعدُّدِها، وهو غير الأنْهارِ الّتي جاء ذِكْرُها في سائر النُّصُوص، فهي موزّعةٌ في الجنّاتِ دُونَ أن يكون كلُّ واحدٍ منها مارّاً فيها جَمِيعِها.

● ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾: المقْعَدُ: هو مكان القعود. أي: في مكان إقامَةٍ مُطْمَئِنَّةٍ مُرِيحَةٍ لاَ عَنَاءَ فيها.

يقولُ العرب: رجُلُ صِدْقٍ، أي: رجُلٌ نِعْمَ هُوَ رَجُلاً، وامرأَةُ صِدْقٍ، أي: امرأة نِعْمَتْ هي امرأةً.

فهي صيغة من صِيَغِ الثناء والمدْح، فعبارة ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ على هذا هي بمعنى: في مقْعَدٍ نِعْمَ هو مقعداً.

وهذا التعبير هو من إضافة الموصوف إلى صفته، وأصْلُه: رجُلٌ صِدْق، وامرأةٌ صِدْقٌ، ومَقْعَدٌ صِدْقٌ، وقَدَمٌ صِدْقٌ.

أي قد حقَّقَ الموصُوفُ في الواقع كُلَّ مَا يُطْلَبُ مِنْ كمال صفاته، فاسْتَحقَّ الثناء والمدح، بما يَدُلُّ على كمال المطابقة بينه وبين الصُّورة المثْلَىٰ لنَوْعِه، وذلك هو الصِّدْقُ حَقاً، إذْ لم يَكْذِبْ في واقِعِهِ أن يُطَابِقَ بين الاسم وكَمَالِ المسمَّىٰ.

- ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾:

﴿مَلِيكٍ﴾ من صِيَغِ المبالغة لمالك، ولفظ «مَليك» على وزْنِ «فعيل»، ونظيرُهُ «مَلِك» على وزن «فعِل». ومعنى المليك والمِلك: المتصرف بالأمر والنهي في عباده، وهو المالك لكل شيء.

﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ هُوَ من أسْمَاء الله الحسنى، أي: ذو القدرة الكاملة. والمقْتَدِرُ أبْلغُ من القادر أخْذاً من زيادة المبنى.

وجاء هذا الاسم أيضاً في قول الله عزّ وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾..

سوابق الحديث في نجوم التنزيل عن ثواب المتقين في الجنة.

جاء الحديث عن ثواب المتقين في (نجوم التنزيل قبل سورة القمر) في ست سُوَر، كما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ (٤٠) عَنِ الْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢)﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤)﴾.

فأبان هذا النّصّ أن جَنّاتِ النّعِيمِ يَوْم الدّين، قد جعَلَها الله ثوابَ المتقين، أي: فمن فوقهم من الأبرار والمحسنين.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي (٣٠)﴾.

فأبان هذا النصّ أَنَّ نفوس أصحاب الجنة تكون مطمئّة، ورَاضِيَةً بما هي فيه من نعيم، ومَرْضيَّةً مِنْ قِبَلِ رَبّها.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ (١١)﴾.

فجاء في هذا النّصّ شَرْحٌ للمتَّقِينَ، بأنّهم الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحات، وجاء فيه بيان أن جنّات النعيم تَجْري من تحتها الأنهار، وأنّ أصحابها فيها قَدْ فَازُوا فَوْزاً كبيراً.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

فأضاف هذا البيان أشياء لم تأتِ في النصوص السابقة، وهي واضحة.

(٦) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

وفي هذا البيان تفصيلاتٌ لم تذكَرْ في النُّصوص السَّابقة.

فإذا أضفنا إليها ما جاء في آخر سورة (القمر) الّتي سبقَ تَدبُّرها بما فتح الله وهو قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

ونظرنا إليها نظرةً تدبُريَّة مُتأنِّية، وجدْناها مُتكامِلَةَ الدَّلاَت فيما بَيْنَها، غَيْرَ مُكرَّرات، وهٰذَا مِنْ عَناصِرِ إعْجاز القُرْآن المجيد.

وبهذا تمَّ تَدبُّر سُورَةِ (القمر) على ما فتح الله وألْهَمَ وأمَدَّ بعونه وتوفيقه، والحمدُ لَهُ على ما يَلِيق بجلاله وعظيم سلطانه.

❁ ❁ ❁

ملاحق لسورة القمر

الملحق الأول: مستخرجات بلاغيّة من السورة.

الملحق الثاني: حول إعراض الكافرين المعانِدين عن آيات الله.

الملحق الثالث: حول الحكمة في القرآن المجيد.

(١١) الملحق الأوّل
مستخرجات بلاغية من سورة القمر

تشتمل سورة (الْقَمر) على جماليات وروائع بلاغيّة متعدّدة، أُقَدِّم منها في هذا الملْحَقِ المسْتَخْرَجات التاليات:

أوّلاً:

آيات سورة (القمر) مُقَدَّرةٌ بكَلِمَاتِها وَفَواصِلِها عند رؤوس الآيات منْها تقديراً حكيماً بَدِيعاً، فيه سَلاسَةٌ جميلة في الأسْماع، فلا تَجدُ فيها كَلِمةَ غَيْرَ مُحْتَلَّةٍ موقِعهَا الْجَميل في اللّفظ، وغَيْر محتلَّةٍ مَوْقِعَها الجميل في النفس، مع كمال الدّقّة في أداء المعاني.

وعلى الرُّغْم من أَنَّها تُشْبِهُ السَّجْعَ، إذ جاءت رؤوس آياتِها على حرف الراء، إلاَّ أَنَّها لاَ تَنْزِلُ إلىٰ مُسْتَوىٰ سَجْعِ أَعْظَم فُصَحاءِ العَرب، ولا تُشْبِهُ سَجع الكُهَّانِ بحالٍ من الأحوال، فهِي نَمَطٌ فَرِيدٌ بَدِيعٌ من التّسْجِيع، الذي لا حشْوَ فيه ولا لَغْو، ولَيْسَ فيه اسْتِدْعاءُ كَلِمَاتٍ بمعانيها استدعاءَ يَحْسُنُ الاستغناءُ عنه.

ثانياً:

وفي السُّورَةِ إيجازَ القِصَرِ، وإيجَازُ الحذْفِ:

فمن إيجاز القِصَرِ مَا يلي:

(١) كَلِمةُ: «مُسْتَمِرّ» من قَوْلِ الله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ فيها إيجاز الْقِصَر، لدَلاَلَةِ هذه الكلمة على المرور والمضي، وعلى العادة المتكرّرة، ولِدَلاَلَتِهَا عَلَىٰ الْقُوَّةِ والشّدَّة المأخُوذَة من المِرَّة وهي القوة، كما سبق في التدبر.

(٢) وكلمة: السّاعة الصالحة للدلالة على ساعة إنهاء ظُرُوف الحياة الدنيا، وللدلالة على ساعة البعث.

(٣) وجُمْلَةُ ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ من الجُمَلِ الكلّيَةِ الْعَامَّة، التي تشمَلُ كُلَّ أَمْرٍ مِن أمورِ الله وَقوانِينِه وأنظمته في الوجود، وبيَانِ أَنَّهُ مُسْتَقِرٌّ لا يتأثَّرُ بِكُفْرِ الكافِرين، ولا تكذيب المكذِّبين، ولا معانَدَة المعانِدِين، ولا جَبَرُوتِ الجبَّارِين، فهٰذِه الكليَّةُ من إيجاز القِصَرِ.

ومعظم الكليّات الكبرى في هذه السُّورةِ من إيجاز القصر، إذ كانَ من الممكن صياغةُ عباراتٍ أطْوَلَ مِنها دون حشْوٍ، وعباراتٍ أُخْرَىٰ فيها إطْنَاب.

وفي السّورَة من إيجاز القِصَر قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ۝٥٣﴾ وليس من الإطناب تفصيل «شيْءٍ» إلى «صَغِيرٍ وَكَبيرٍ» لأنّ الغرض في البيان دفْعُ تَوَهُّم التَّهاوُنِ بكتابَةِ الصغير.

وَتوجد أمثلة أخرى من إيجاز القِصَر في السُّورة تركْتُها لاستخراج دارسها بتدبر.

ومن إيجَازِ الحذْفِ ما يلي:

(١) عبارةُ: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ وعبارةُ: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ۝٤٨﴾.

والمحذوف فيها فعل «اذْكُر» العامل في الظرْف «يَوْمَ».

(٢) وعبارة: ﴿...أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: بل أَلَكُمْ بَيانٌ براءَةٍ في الزُّبُر، أو صَكٌّ براءة في الزُّبُر من التكاليف الدينيّة، أو من الامتحان في الحياة الدنيا.

(٣) عبارة: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۝٤١﴾ أي: ولقد جاء فرعون وآلَهُ وأتباعهم النُّذُرُ.

(٤) عبارة: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥﴾ أي: عند هؤلاء المعنيّين بالخطاب.

وفي السورة مطويّات كثيرات لم تذكر بصريح العبارة جاءَ بيانها في تدبّر السورة، وفيها من إيجاز الحذف أمثلة أخرى تركتُها لاستخراج دارسها بتدبر.

ثالثاً:

التشبيه المرسل المجمل في قول الله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ وفي قول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾:

- أمّا كوْنُ التشبيه فيهما مُرْسَلاً فلِذِكْرِ أداة التشبيه.
- وأما كوْنه فيهما مُجْملاً، فَلِعَدَم ذِكْرِ وَجْهِ الشَّبَه.

والغرض من التشبيه فيهما تَقْرِيب صورة الحدَثِ بِصُورَةٍ مشهودة بالْحِسّ.

رابعاً:

استقطاع النّصُوص من أزمانها الماضية أو المستقبلَة، وعَرْضُها بألْفَاظها دُونَ الإشارَة إلى أنّه كان كذا فيما مضىٰ، أو أنّه سيَكُونُ كَذَا فيما سَيَأتي، أو سَوْف يكون.

ونجدُ هذا الفنَّ البديعَ في قول الله عزّ وجلّ:

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

ونجده في قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾ ونظيرها في الآية (٣٩).

وفي قول الله عزّ وجلّ:

﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾.

خامساً:

خروج الاستفهام عن أصل دلالته، للدلالة على معاني أخرى:

فجاء الاستفهام مستخدماً للدلالة على الإنكار في النّصُوص التالية:

(١) في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥ .. (٢٤)﴾؟.

(٢) وفي قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا .. (٢٥)﴾؟.

(٣) وفي قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ (٤٣)﴾؟

سادساً:

استخدام ضمير المتكلّم العظيم في كثيرٍ من آيات السُّورَة، لأنّ البيان الوارد في السّياق يشتمل على أعمال خَلْقٍ لا يفعَلُها إلاَّ من له الرُّبوبيَّةُ العظمىٰ القادرة على كلّ شيء، مِثْل: **[فَفَتَحْنَا ـ وفَجَّرْنَا ـ وحَمَلْنَاهُ ـ إنَّا أَرْسلنَا ـ ولَقَدْ يَسَّرْنَا ـ كذَّبُوا بآيَاتِنَا ـ بَطْشَتَنَا ـ وَمَا أَمْرُنَا]**.

سابعاً:

تأكيد بعْضِ الجُمَل ببَعْضِ المؤكّداتِ، لأنّ أحوال المقصودين بالبيان تقتضي تأكيد البيانات الوارداتِ في السّياق لهم.

- فجاء التأكيد بعبارة **[لَقَدْ]** في السّورَة عِدَّة مرَّاتٍ.
- وَجاء التأكيد بمؤكِدَيْنِ: «إِنَّ والجملة الاسميَّة» في عدّة مواضع من السُّورة.

ثامناً:

الابتعاد عن التعبير المباشر باستخدام الكنايات، والإشارات اللَّمحيّة، في عدَّة مواضع جاء شرحها خلال تدبُّر السُّورة.

إلى غير هذه العناصر البلاغيّة ممّا يُمكِنُ اسْتِخْراجُهُ بالتَّأمُّل من السُّورة.

❁ ❁ ❁

(١٢)

الملحق الثاني
حول إعراض الكافرين المعاندين عن آيات الله

تحدَّث القرآن المجيد حول موضوع إعراض الكافرين المعاندين المكابرين الذين يستكْبرون في الأرض، ويتَّبِعونَ أهواءهم وشهواتهم، ونزعاتهم، ويستجيبون لنزغَاتِ الشياطين، عن آياتِ الله الكونيّة وآياتِه الإعجازية، وآيَاتِه البَيانيّة المنزّلة، وآياته الجزائية، في نُصُوصٍ متعدّدة موزعة في طائفة من سُوَره.

وأتابع في هذا الملْحَقِ استعراضَها بشيءٍ من التدبر:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن أئمة الكفر والشرك في مكة، إبّان نزول السورة، وبمناسبة ذكر آيَةِ انشقاق القمر للرسُول محمد ﷺ:

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾.

وقد سبق تدبُّر هذا النَّصّ، ضِمْن الدراسة التدبُّرِيَّة لهذه السّورة.

النص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) مُبيِّناً ما قالَهُ آل فِرْعَوْنَ لموسَىٰ عليه السَّلام، بعد أنْ أخذهم الله بالسنين المجدِبَة، ونقص من الثمرات، لعلّهم يتَذَكَّرُون:

﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٣٢﴾.

وفي التعقيب على قَوْلِهم هذا كان الإجراء الرَّبّاني ما أبانه اللّهُ عزّ وجلّ في الآية التالية:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

فَقَدَّمَ اللَّهُ عزَّ وجلّ بهذا لكفّارِ قريش المعاندين المستكبرين، ولكلّ أمثالهم المعاصرين والآتين في العصور اللاّحقة، ما فيه عبْرَةٌ وعِظَةٌ بما كان من الذين سَلَفُوا من كُفَّار القرون الأولى، وبما أنزل الله بهم من عقاب.

النصّ الثالث:

قَولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً مُبيّناً بَعْض ما كتبَهُ في الألواح الّتي آتاها موسى عليه السلام.

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾.

فأبان اللَّهُ عزّ وجلّ في هذا النّصّ أَنَّ مِنَ الْقَوانين والسُّنَنِ الْعَامَّةِ الّتي فطَرَ الله الناسَ عليها، أَنَّ مَنْ تَكَبَّرَ في الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ، طَمَسَ كِبْرُه على بَصِيرَته، فجعَلَهُ يَنْصَرِفُ عن آيات اللَّهِ، وبهَذا الانصرافِ عن آياتِ اللَّهِ وعَدَم التأثر بها والاستفادة من دلالاتها، يكون من شأنه أنّه إنْ يَرَكُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُ بها، وأنّه إنْ يَرَ سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخذْه سبيلاً، وأَنَّهُ إنْ يَرَ سَبيلَ الْغَيّ يتّخِذْه، سبيلاً.

فالتكبُّرُ في الأرض بغير الحقّ يُوَلِّد كُلَّ هٰذهِ القبائح والمنكراتِ والكُفريّات.

وفي هذا تحليلٌ تَعْريضيٌّ غير مباشر لحَالِ مُتكبِّري كُفَّارِ مَكَّة، الذين كذّبُوا رسُول الله محمّداً ﷺ، وكذَّبُوا بما جاءهم به، ضمن بيان سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ العامَّةِ في النفوس الإنسانيّة.

النصّ الرابع:

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأن الذين كذَّبوا رسُولَ الله محمّداً ﷺ، وكذّبوا بالقرآن الذي جاءهم به عن ربّه جلّ جَلاَلُهُ وعظُمَ سُلْطانه:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

فأبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ في هذا النّصّ دَأْبَ الكفّار المعاندين الذين كذّبوا رسُول الله، وكذبوا بما جاءهم به عن ربّهم، وهو أنّهُمْ ما تأتهم من آيَةٍ إعجازيَّة، أَوْ آيةٍ قُرْآنِيَّةٍ بُرْهَانِيَّةٍ، إلاَّ كانُوا عَنْهَا مُعْرِضين، غير مكْترِثين لها، ولا عابئين ولا مبالين بها.

النص الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [يوسف/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول) خطاباً لرسول الله ﷺ:

﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

تحدّث هذا النّصّ عن آيات اللَّهِ الدَّائِمَاتِ في ظاهِراتِ الكون، لا عن آياته الطَّارِئَاتِ الخارِقاتِ لنظام الكَوْنِ الْمُعْتاد.

فالآياتُ الدَّائماتُ في ظاهرات الكَوْن تَدُلُّ على طائفة من صفات اللَّهِ الجليلات، وتدُلُّ على رُبُوبيّته الدّائمة لكلّ ما سواه، وعلى وَحْدَانِيَّتِهِ في رُبُوبيّته، المستلزمةِ لوحدانيّته في إلَهِيَّتِهِ.

لكِنَّ الكافرين المعاندين المكابرين يَمُرُّون على آياتِ الله الكثيرات الْمُنْتَشِرَاتِ في السَّمَاوَاتِ والأرض، فيُعْرِضُون عنها غير مُكْتَرِثين لها، ولا عَابئين بدلالاتها.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بشأنِ أئمةِ الكفر والشرك في مكّة إِبَّانَ التنزيل:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾.

أي: فَسَوْفَ يأتِيهم يَوْم القيامة تحقيقُ أَنْباءِ مَا كانوا به يَسْتَهْزِئُون، مُنْكِرِينَ البعث، والْحِسَاب، وفصلَ القضاء، وتحقيقَ الجزاء في الجنة دار نعيم المتقين، أو في النار دار عذاب الظالمين.

والمراد بالآيات الّتي تأتيهم الآياتُ الإعجازية الكونيّة، والآياتُ البيانية القرآنية.

النص السابع:

قول الله عزّ وحل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

إنّ كِبْرَهُمْ واتّباعَهُمْ لأهوائهم وشهواتِهم ونزعاتهم، واستجابتهم لنزغاتِ الشياطين، أمورٌ جَعَلَتْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً(١)، ضِمْنَ أنظمة الله وَقَوانِينه وسُنَنِهِ السَّبَبِيَّةِ، فمنعَتْها من أَنْ تَفْقَهَ دَلالَاتِ آيات كتابِ الله المنزَّل، وجعَلَتْ أيْضاً في آذانِهِمْ وَقْراً(٢)، فحجَبَها عن استماع آيات الله المنزّلَات على رسوله.

---

(١) **أَكِنَّةً**: جمع «كِنَان» وهو كلُّ غطاءٍ يحجُبُ ويَسْتُر.

(٢) **وَقْراً**: الوقْرُ الصَّمَمُ، أو ثِقَلٌ في السّمْع قريبٌ من الصمم.

وأَبان هذا النصّ أنَّ هؤلاء قد انْطَبَقَ عليه قَانُونُ السُّنَنْ السببيَّة، الذي جاء بيانه في النّص الثالث من هذه النصوص، وهو ممَّا كَتَبه الله عزّ وجلّ لموسَىٰ في الألواح، وهو الآية (١٤٦) من سورة (الأعراف) فهؤلاء إنْ يَرَوْا كُلَّ آيةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بها، والسَّبَبُ أَنَّهُمْ يَتَكَبَّرونَ في الأرض بغَيْرِ الحقّ.

وهم يجادلُونَ في آياتِ اللَّهِ المنزّلاَتِ في كتابه، فيقولونَ عنها: إنْ هذا إلاَّ أَسَاطِير الأوّلين، أي: مَكْتُوبَاتُ الأوّلين، أَوْ خرافاتُ وَأكاذِيبُ الأوّلين.

النص الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً بشأن كُبَراء كفّار ومجرمي مكّة إبَّان تنزيل السورة:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

إنّ كُفْرَ هؤلاءِ كُفْرٌ عِنادِيٌّ سَبَبُه مَا في نفوسِهِمْ مِنْ كِبْرٍ، يمنعهم من أن يُؤْمِنُوا بِمَنِ اصطفاه الله رسُولاً، ومن أن يَتَّبِعُوه، ويَجْعَلُونَ إيمانَهُمْ مَشْرُوطاً بأَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ مِثْلَ مَا آتاه لِرُسُلِهِ.

فجاء في البيان الرَّبَّاني: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

وجاء البيان الرَّبَّانيّ بأنَّ هؤلاء المستكبرين سَيُعَاقَبُون بِصَغَارٍ عند الله يوم الدِّين، وبعذاب شديد بسبب ما كانوا يُمكُرُونَ ضدّ دين الله، ورسُولِه والذين آمنوا به واتّبَعُوه.

النصّ التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) خطاباً لرسوله:

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) وَقَالُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥)﴾.

يَسْتَسْخِرُون: أي: يَسْتَهْزِئُونَ.

فأضافَ هٰذا النَّصّ أنَّهُمْ تَجاوَزُوا دَرَكَةَ الإعْراضِ، وانْحَطُّوا إلى دَرَكة الاستهزاء بآيَاتِ اللَّهِ الباهرات، ويُكَرِّرُونَ مَقَالَتَهُمْ القديمة: إنْ هٰذا إلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ.

النص العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أوّل سورة مدَنيَّة التنزيل بشأن أهل الكتاب، وخطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ... (١٤٥)﴾.

هذا البيان يَدُلُّ على أنّ الذينَ أُوتُوا الكِتَابَ وهم اليهود بالدرجة الأولى، ثم النصارىٰ، لا يَنْقُصُهُم الاقتناعُ بصِدْق رسالتك، ولكِنْ يَحْجُبُهُمُ التَّعَصُّب الأَعمى، والمصالح الدُّنيويَّة الخاصَّة، عن الإيمان بكَ نَبيّا رَسُولاً، وعن اتّباعِ شَرِيعَتِكَ، والتَّوَجُّهِ في الصَّلاة لقبلتِك.

النصّ الحادي عشر:

نصّ جاء في سُورَةِ (يُونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نُزُول) خِطاباً من الله لرسوله بحسب الظاهر، وهو في الحقيقة خطابٌ لكُلِّ مُكَلَّفٍ يُدْرِكُ دَلاَلاَتِ هذا الخطاب.

وهو نصٌّ مَدَنِيٌّ التنزيل، ضُمّ إلى سُورَةِ (يونس) التي هي من أواسط التنزيل المكيّ، مُرَاعَاة للمناسبة الفكريَّة الَّتي اقتضت ضَمَّهُ إليها، وتأخير تنزيله قَدْ رُوعي فيه مقتضىٰ حال وجود الرسول في المدينة. وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

لقد خاطب الله رسُوله بهذا النّصّ بحَسَب الظّاهر، باعتباره أوّل المكلّفين المأمُورين بالإيمان وبالإسلام لمَا أنزل الله، والغرضُ أن يَسْمَع هذا الخطاب الموجَّهَ للرّسُولِ غَيْرهُ من المكلّفين، ليَعْلَم أنّ الرسول مكلّفٌ أنْ يكونَ أوّل المؤمنين المسلمين، وأنّهُ غَيْرُ مُستثْنىً من قانون العقاب والجزاء، لو عَصىٰ أو كذَّب، لكنّه لا يَفْعَل ذَلِكَ حتماً، لأنّ الله لم يصْطَفِه لِرَسَالَتِه الخاتمة إلاّ عَالِماً بما يتحلّىٰ به من كمالٍ بَشَرِيّ.

ويُعْتَبرُ هذا الخطابُ من أرْوع الأساليب التربويَّةِ وأَحْكمها للآخرين، إذْ يُذْكِرُونَ به أنَّ الرَّسُولَ مع ارتفاع منزلته عِنْدَ رَبّه، وعُلُوِّ مقامِهِ وَشأنِه، لَمْ يَرْفَع الله عنْهُ موادَّ التكاليف الموجّهة لِغَيْرِهِ، ولاَ قَانُون العقاب لو كذَّبَ أو شكَّ أَوْ عصىٰ.

فَلْيَعرِفْ كُلُّ مُكَلَّفٍ مَوْقِعَهُ بيْنَ يَدَيْ رَبِّه جلّ جلاله، وأَمَامَ تكَالِيفِ الدِّين الموجَّهَةِ لجميع المكلَّفين على سواء.

إنَّ رسُولَ الله محمّداً ﷺ لاَ يُمْكن أن يكون من الشاكّين، ولا يُمْكِنُ أنْ يكُونَ من الّذين كذّبوا بآياتِ الله، لكِنْ إذا سَمِعَ الشَّاكُونَ والمكذِّبُونَ هذا الخطاب للرسول أيْقَنُوا أنَّ الأمْرَ شامِلٌ وَجدٌّ.

فإذا كانَ الرَّسُول نفسه ﷺ مع ارتفاع منزلته عند ربّه وعُلُوّ مقامه، غير مَعْفِيٍّ من قضايا الإيمان والإسلام، فَمَا يكونُ شأنُ سائر الناس؟.

إنّه أسْلُوبٌ يُعْطِي الإقناع، ويُلْقِي الخوفَ في قُلُوب الشاكّين والمكذبين.

أمّا قول الله عزّ وجلّ في هذا النصّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾.

فهو يَدُلّ على أنَّ الّذِين حقَّتْ عليهم كَلِمَةُ اللَّهِ بأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوا آخر ظرُوف امتحانهم، وتَقَلَّبَتْ علَيْهِمْ كُلُّ صُورِه ووسائله، فأصَرّوا على الكُفْر، وعلى معانَدَةِ الحق الذي دمغتهم حُجَجهُ، فَلَزِمَهُمْ الحكْمُ علَيْهم بالإدانَةِ واسْتِحقَاف العقاب على الكُفر، هٰؤلاء لا يُؤْمِنُون مَهْمَا أمْهِلُوا، فإيمانُهُمْ مَيْؤُوسٌ منه، بعْدَ أنْ مَرُّوا في كُلِّ ظُروفِ امْتحانِهِمْ، إقْنَاعاً وتَرْغيباً وَتَرْهيباً، ومُعَالجةً تَرْبويَّةً، بكُلّ ما يُورِث استجابَةَ مَنْ لديه استعدادٌ ما للإيمان.

إنّهم لا يُؤْمِنُون وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ تُورِثُ في الْعَادة اقتناعاً فِكْرِيًا، أَوْ تُحرّكُ النفوسَ بِرغبةٍ أو بِرَهبة.

وإيمانُهُمْ لاَ يكونُ إلاَّ إذا رَأَوْا بأعْيُنِهِمْ وَأَحسُّوا بأجْسَادِهم العذابَ الأليم.

لكنّ هذا الإيمان لا يَنْفَعُهم حينئذٍ، لأنَّ العذاب الأليم إنّما يأتي حينما تَنْتَهي مُدَّةُ الامْتِحان، ويأتي دور الحساب، وفَصْلِ الْقَضاء، وتنفيذ الجزاء.

❁ ❁ ❁

عدم استجابة الله لما يقترحه الناس من آيات حسيَّةٍ

وقد أبان الله عزّ وجلّ حكْمتَهُ في عدم تلبيته طلَبَ الناس الآيات الّتي يقْتَرِحُونها على الرسول، وهي أنَّ تجربَة الأمم السابقة قد أثبتَتْ أنَّ إجابَة مطالِبِهِمْ في إنْزَالِ الآيات على ما يَقْترحون، لم تجعلْهم يُؤْمِنون، بل كذَّبُوا بها، فاقتضىٰ قانون الابتلاء في الحياة الدُّنيا، إنْهاءَ مُدَّةِ امتحانهم، وإنْزَال الهلاك الشامل بهم، إذا استجاب لطلبهم فلم يُؤْمِنوا، كما حَصَل لثمود قوم النبيّ الرسول صالح عليه السلام.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾.

وموضوع آيات الله الكونية، والإعجازيّة، والجزائيّة، والبيانيَّة، موضوع طويل جدّاً.

وأكْتفي الآن بهذا الملْحق، عسَىٰ أن يفتح الله بِملاَحِقَ أُخْرى في سُورٍ أخرى.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه.

❁ ❁ ❁

الملحق الثالث
حول الحكمة في القرآن المجيد

جاء في القرآن المجيد استعمالُ لفظ الحكمة في عدّة نصوص، أتابع استعراضها بشيء من التدبر، بعد بيان المراد بلفظ الحكمة، ولفظ الحكيم.

الحمة في الأمور: وضْع الأشياء في مواضعها، عملاً، أو فكراً، أو مَعْرفةً وفَهْماً وَفِقْهاً، أو اعتقاداً، أو غير ذلك من صُوَر السُّلُوك الإرَاديّ.

والحكيم: هو الذي يضَعُ الأشياء في مواضعها، ويختار أفضل الأشياء وأتْقَنها وأحْسَنها في الأمور المختلفة، لمَا يُعْطي أحْسَنَ نتيجة.

والله جلّ جلاله وعظم سلطانُه، أحْكَمُ الحاكِمين، وأحْكم المختارين من البدائل الصالحة للاختيار، وحِكْمتُهُ بَالِغةُ الغاية دواماً في كلِّ شيء، في الْخَلْق والإبداع، والتكليف، والمحاسبة، وفصل القضاء، والجزاء، وغير ذلك من كلّ أمْر.

والحكمة ترجع إلى جذرَيْن:

الجذْرُ الأوّل: الحكمة في المعرفة، وتكون بمطابقة العلم للواقع، أو لأحسن صورة ممكنة تقترب من مطابقة ما هو الكمال في الشيء.

الجذر الثاني: الحكمة في السّلوك، سواءً أكان خُلُقاً، أم عملاً فكريّاً أو جسديّاً، أم تصرّفاً في قول، أو إفتاء، أو حكم، أو سياسة، أو إدارة، أو تجارة، أو حرب، أو غير ذلك.

وتكون الحكْمةُ في السُّلوك بممارسة الأحسن والأفضل دَوَاماً، ممّا تُوَجّه له الحِكمة في المعرفة، بحسب الاستطاعة، وضمن حدودها.

● فمن الحكمة في المعرِفَة مَعْرِفَةُ أحسن الوسائل لصيانة الأشياء مِمَّا يؤذيها أو يُتلفُها. ومَعرفَةُ أحسنِ الوسائل والخطط الحربيَّة لتحقيق النصر والظفر. ومعرِفَةُ أحسن العلاج للشفاء من المرض. ومعرفة أحسن الطُرق لإصلاح اقتصاد الأمّة وتنمية ثرواتها. ومعرفة وجوه الإنفاق الرابح الجالب للخير العاجل والآجل، ومعرفة وجوه الإنفاق الخاسر الجالب للشرّ والضرّ العاجل والآجل، ومعرفة الأحكام التي هي الأقرب إلى تحقيق كمال العدل والإنصاف. وهكذا بلا حصر.

● والحكمة في السُّلوك تكون بتطبيق وممارسة ما تقتضيه الحكمة في المعرفة، كمُمَارسة أحسن الوسائل لصيانة الأشياء مما يؤذيها أو يُتْلِفُها، ومُمَارسة أحْسَن الوسائل والخطط الحربيّة لتحقيق النَّصْرِ والظفر، وهكذا إلى سائر الأشياء.

فالحكيم في الطبّ يستخدم أحسن العلاج مما هو متَاحٌ له لشفاء مريضه.

وذو المال الحكيم يُنْفِق من ماله في سبيل الله ليظفر بالأجْر العظيم المضاعف عنْد ربّه أضعافاً كثيرة، ولا ينفق شيئاً من ماله في معصية الله، وإن جلَبَ له لذَّات عاجلاتٍ.

والقاضي الحكيم يَحْكُم بما هو الأقرب لإحقاق الحقّ، وتحقيق الإنصافِ إذا لم يستَطِعْ إحْقاقَ كمال الحق والْعَدْل.

والسّياسي الحكيم هو الذي يُحْسِنُ إدارة رعيَّتِه بما يحقّقُ الأمْنَ والخَيْر والسّعادة والرفاهية للمجموع الأغلب، وفق المقدار الممكن في الظروف الداخليّة والخارجيّة.

وروى البخاري ومسلم عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال:

«لا حَسَدَ إلاَّ في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالاً، فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ في الْحَقِّ، ورَجُلٍ آتاه اللَّهُ الْحِكْمَةَ فَهُوَ يقضي بها ويعلّمُها».

فدلَّ هذا الحديث على الحكمة في المعرفة في قول الرسول: «ويُعَلّمُها» وعلى الحكمة في السُّلوك في قوله: «فَهُوَ يقضِي بِهَا» والقضاء بالحكمة نوع من أنواع السُّلوك الحكيم.

وفيما يلي استعراض النصوص بشيء من التدبّر:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجل في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بشأن كبراء مشركي قريشٍ إبّان التنزيل:

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ..﴾.

وقد سبق تدبُّر هذا النّص باستفاضة في موضعه من السّورة.

النّص الثاني:

قول الله عزّ وجلَّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول): بشأن داوُد عليه السّلام:

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

والحكمة التي آتاها الله عزّ وجلّ داوُدَ عليه السّلام هي تعاليم الدّين الحكيمة، وحُسْنُ الإدارَة والسِّياسَةِ في مُلْكِه، وحكْمَتُه في أَحكام الْعَدْل، والحكْمِ بالحقّ، وعَدَمِ اتّباع الهوى.

النص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ . . .﴾.

المشَارُ إليه بعبارَة [ذَلِكَ]: «أحكام معاملة الوالِدَين ـ الأمر بإيتاء ذوي الحقوق الاجتماعيّة حقوقهم ـ النَّهيُ عن التبذير ـ مخاطبةُ السَّائِلين الّذين يَرىٰ المسؤول الإعراضَ عنهم ابتغاء رحمة يرجوها من ربّه بالرِّفْق والقَوْلِ الحسَنِ الميْسُور ـ التوسُّط في الإنفاق بين القبض الشديد والْبَسْط المسْرِف ـ النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر ـ النهي عن الاقتراب من الزّنى ـ النهي عن قتل النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق ـ الإذن بالقصاص بالعدل دون إسراف ـ النهي عن اقتراب مال اليتيم إلاّ بالّتي هي أحْسَن ـ الأمر بالوفاء بالعهد ـ الأمر بإيفاء الكيل والوزن ـ النّهي عن اتّباع ما ليس للإنسان به علم ـ النَّهي عن المشي في الأرض مرحاً ـ».

ويُقاس على هذه الأمور سائر الأوامر والنواهي الرَّبَّانِيَّةِ التي اشتملت عليها آيات القرآن المجيد.

النّص الرابع:

قول الله عزّ وجل في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴿١٣﴾﴾.

وقد اشتملَتِ الآيَاتُ في هٰذه السُّورةِ بعْدَ هاين الآيتين، وحتى غاية الآية (٩) على أوامر ونواهيَ رَبّانيَّة، ووصَاياً أوصَىٰ بها لُقْمَانُ الحَكِيمَ ابْنَه، وهي جميعها داخِلةٌ تحت عنوان الحكمة، وهي بالتّتَبُّعِ من أوّل النّصّ حتّىٰ آخِرِه ما يلي:

«الأمر بالشُّكر لله والنَّهيُ عن مقابلة نعم الله بالكُفْر والجحود ـ النّهي عن الإشراك بالله في رُبُوبيّته وإلٰهيّته ـ الأمْرُ بالشُّكْرِ للوالِدَيْن ـ النهي عن طاعتهما في معصية الله ـ الأمْرُ بمُصَاحَبَتِهما في الدنيا بالمعروف ـ الأَمْرِ باتّباع سبيلِ من أناب إلى الله ـ النَّهْيُ عن معصية اللَّهِ مَهْمَا كانت بالاستخفاء التامّ، فالله مُحِيطٌ بكلّ شيءٍ عِلْماً ويُحْضِرُه يوم الْحِسَاب ولو كان في باطن صخرة ـ الأمر بإقامة الصّلاة ـ الأمْرُ بالأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر ـ الأمر بالصَّبرْ على المصائب ـ النَّهْيُ عَنْ الكِبْرِ بتَصْعِيرِ الْخَدِّ للناس أو المشي في الأرض مرحاً ـ الأمر بالْقَصْدِ في المشي وهو التوسط بين البطء والاستعجال ـ الأمْرُ بالغضّ من الصَّوْت».

ويُقاسُ على هذه العناصر المشمولة بعنوان «الحكمة» كلُّ ما جاء في الإسلام من شرائع وأحكام وأخلاقٍ وآداب.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾.

إنّ ما جاء به عيسَىٰ عليه السَّلامُ الداخلَ تَحْتَ عُنْوان «الحكمة» أوامرُ ونواهي ووصايا تتعلّق بالقاعدة الإيمانية، وتتعلّق بأنواعِ السُّلوك الباطِنِ والظّاهر، والالتزام بصراط الله المستقيم، عبادةً لله، وطاعةً له، واتّقاءً لعقابه

على المعصية والمخالفة. ويدخل في هذه كُلُّ شَرائع الدّين، وأحكامه، وأخلاقه، وآدابه.

النص السادس:

قول الله عزّ وجل في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) خطاباً للرسول ﷺ، ولكلِّ داعٍ إلى الله من أُمّته:

﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾.

دَلَّتنا النُّصُوصُ السَّابِقَةُ على أنّ المُوعِظَةَ الحَسَنة، والمُجَادَلَةَ بالّتي هي أحْسَنُ مِنَ الحِكْمَة، إلاَّ أنَّ هذا النَّصّ المتَعَلِّقَ بالتَّوْجيه لأساليب الدَّعْوَة إلى سبيل الله، خَصَّصَ الحِكْمَة بالأساليب والوسائل الفكريَّة الّتي تُوصِلَ العقُول إلى الاقتناع بالحقّ، أو بما هو خَيْر وأحْسَن وأفضل، وخَصَّصَ الموعظة الحسنة بما يؤثر على الأنفس بالترغيب والترهيب، وأفْرَزَ الجدال بالّتي هي أحْسَن بعنوان خاصٍ به - مع أن الحوار الجدليّ لا يخرج عن وسائل الإقناع الفكريّة العقلية، ووسائل الترغيب والترهيب - للتّنبيه على وجوب التزام الدّاعي إلى سبيل رَبّه بالطريقة التي هي أحْسَنُ في التأثير على العقل والنفس، وأحْسَنُ في آداب البحث والمناظرة، من الطريقة التي يَسْلُكُها الخَصْمُ المُجَادِل.

وهذا تخصيص اصطلاحيٌّ في مجال الدَّعوة إلى سبيل الله.

الجمعُ بين لفظتي الكتاب والحكمة في طائفة من النصوص القرآنية:

جاء في القرآن المجيد عشرة نصوص اقترنت فيها لفظتا «الكتاب» و«الحكمة» مثل قول الله في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

وإذْ قد سبَقَ أنْ عَرَفْنا من بيانات النّصُوص التي جاء فيها تفصيل لكثير من مفرداتِ الحكمة، أنّ «الحكمة» عنوانٌ ينضوي تحته الأوامر والنواهي والوصايا التي تتعلّقُ بالقاعدة الإيمانيّة توجيهاً للإيمان بأركانها وعناصرها، وهذا الإيمان سلوكٌ إراديٌّ قلْبيٌّ، وتتعلّقُ بأنواع السّلوك الأخرىٰ، من السّلُوك الظاهر والباطن، الشامل لشرائع الدين وأحكامه وأخلاقه وآدابه، فيُمكنُ أن نفهم أنّ المرادَ بالكتاب فيها من عموم ما أنزل الله، ما يشْمَلُ الحقائقَ العلميّة إثباتاً أو نفياً، دون أنْ يكون فيها أمْرٌ أو نهيٌ أو توجيهٌ لسلوك إراديّ حكيم ظاهرٍ أو باطن، وما يَشْملُ الأخبار التي لا تُوجِّهُ ضمناً لسلوك إراديّ حكيم، ولا تُحذِّرُ ضِمْناً من سلوك إراديّ غير حكيم.

ويجوز أن يكون عطفُ «الحكمة» على الكتاب من عَطْفِ الخاصّ على العام، لتوجيه عناية المكلّفين للالتزام بالوصايا الرّبّانيّة المتعلّقة بالسُّلوك الإرادي الظاهر والباطن.

الجمع بين عبارتي: «آيات الله» و«الحكمة».

وجاء في نصّ واحد من نصوص القرآن المجيد الجمع بين عبارتي: «آيات الله»و «الحكمة» وهو قول الله عزّ وجل في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لنساء النبيّ ﷺ وعلى آله:

﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾.

الذي يظهر لي في هذه الآية أنّ عَطْفَ «الحكمة» على «آياتِ الله» فيها، هو من قبيل عطف الخاصّ على العامّ، لتوجيه عنايَةِ نِساءِ النبيّ للْحِرْصِ على الالتزام بالْوَصايا الرَّبَّانيَّة المتعلّقة بالسُّلُوك الإرادي الظّاهر والباطن.

إذْ جاءَ قَبْلَ هٰذه الآيَةِ تَخْصِيصُ نِسَاءِ النبيّ بوصايا مُشَدَّدة نظراً إلىٰ أنَّ

المطْلُوب مِنهُنَّ أنْ يَكُنَّ أسْوَةً حَسَنَةً لِسَائِرِ النِّساءِ، فقد جاء قبلها قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: إنّما يُريدُ الله بإلزامِكُنَّ المُشدَّدِ، بهذه الأوامر والنواهي، لِيُذْهِبَ عنكُمُ الرِّجسَ يا أهل بيت النبيِّ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهيراً زائداً عن تطهير غَيْرِكُنَّ، إذا اسْتَجَبْتُنَّ فَأطَعْتُنَّ الله ورسوله، وَعَمِلْتُنَّ بوصايا الله لَكُنَّ.

وَمَنِ يُؤْتِ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتي خيراً كثيراً.

وجاء في القرآن المجيد نَصٌّ واحِدٌ تَحَدَّثَ الله فِيه عَنِ الحِكْمَةِ في إنْفَاقِ الأمْوَالِ ابْتِغاءَ مَرْضاةِ الله، واتْبَعَهُ بالثناء على مَنْ أُوتِيَ في سُلُوكه في حياته الحكمة، وأبان جلَّ جلالُهُ أنْ مَنْ أُوتي الحِكْمة فقد أُوتِيَ خيراً كثيراً، وهو قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بَعْدَ حَدِيثٍ طَويلٍ حول إنْفاق الأموال في سبيل الله وأجْرِ المنفقين العظيم، وبيان شُرُوط الإنفاق السَّليم وآدابه، الّتي يتحقّقُ بها الثواب العظيمُ عند الله:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

وشرح هذا النصّ وتحليله تحليلاً تدبُّرياً يحتاج صفحات مطوّلات لا تتناسب مع هذا الملحق، والله وليُّ التوفيق والسداد.

❁ ❁ ❁

سورة ص

٣٨ مصحف ٣٨ نزول

(١)

نص السورة وما فيها من فرش القراءات

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ (١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ
(٢) كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ (٣)
وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ
(٤) أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ (٥) وَٱنطَلَقَ
ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ
(٦) مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ (٧)
أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ
عَذَابِ (٨) أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ (٩) أَمۡ
لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ
(١٠) جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ (١١) كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ
قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ

---

١ ـ ● قرأ ابنُ كثير [والقُرَانِ] بتسهيل الهمزة، وحمزة في حالة الوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿والقُرْءَانِ﴾.

٨ ـ ● قرأ يعقوب [عذابي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿عَذَابِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الحالين.

وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ
ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا
لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ
﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ
﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ
مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ
ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُواْ لَا تَخَفْ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ
نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾
قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ

---

١٣ ـ ● قرأ نافع، وابنُ عامر، وأبو جعفر، وابن كثير: [وَأَصْحَابُ لَيْكَةَ].
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ﴾.

١٤ ـ ● قرأ يعقوب [عقَابي] بإثبات ياء المتكلّم في الوصل والوقف.
وقرأ باقي القراء العشرة ﴿عِقَابِ﴾ بحذف ياء المتكلم في الحالين.

١٥ ـ ● قرأ حمزة، والكِسائي، وخَلَفٌ: [فُوَاقٍ] بضمّ الفاء.
وقرأ باقي القرّاء العشرة ﴿فَوَاقٍ﴾ بفتح الفاء. والضمّ والفتح وجهان عربيان للكلمة.

٢٢ ـ ● قرأ قنبل، وحمزة: [السِّرَاطِ] بالسين.
وقرأ خلف عن حمزة: [الصراطِ] بإشمام الصاد صوت الزاي.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الصِّراطِ﴾ بالصاد. وهي لهجات عربية.

لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا
هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ۩
(٢٤) فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ (٢٥)
يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا
تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقۡنَا
ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ (٢٨) كِتَٰبٌ
أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٢٩)
وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠) إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ
بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن
ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا
بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ (٣٣) وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ
جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي

---

٢٩ ـ ● قرأ أبو جعفر: [لِتَدَبَّرُوا] أصلها: لتتَدَبَّرُوا.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ بضمير الغائبين، وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٣٢ ـ ● قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [إنِّيَ أَحْبَبْتُ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿إنّي أحْبَبْتُ﴾ بإسكان ياء المتكلم ومدّها.

لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي
بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾
وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ
بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ
عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم
مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا
فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ
﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ
﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ

٣٥ ـ ● قرأ نافع، وأبو عمرو وأبو جعفر: [مِنْ بَعْدِيَ إِنَّكَ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿مِن بَعْدِي إِنَّكَ﴾ بإسكان ياء المتكلّم ومدها.
٣٦ ـ ● قرأ أبو جَعْفر: [الرِّيَاحَ] بالجمع.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الرِّيحَ﴾ بالإفراد.
٤١ ـ ● قرأ حمزة: [مَسَّنِي الشيطانُ] بإسكانِ ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿مَسَّنِيَ الشيطان﴾ بفتح ياء المتكلم.
٤١ ـ ● قرأ أبو جعفر: [بِنُصُبٍ] بضم النون والصاد، وضم الصاد إتباع لضم النون.
وقرأ يعقوب: ﴿بِنَصَبٍ﴾ بفتح النون والصاد.
وقرأ باقي القراء العشرة: [بِنُصْبٍ] بضمّ النون وإسكان الصاد.
والمعنى في القراءات الثلاث واحد، وهو المشقة والتّعب والإعياء.
٤٥ ـ ● قرأ ابن كثير: [عَبْدَنَا] بالإفراد.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿عِبَادَنَا﴾ بالجمع.
والمعنى في القراءتين على الجمع.
٤٦ ـ ● قرأ نافع، وهشام، وأبو جعفر: [بِخَالِصَةِ ذِكْرَىٰ] على الإضافة، دون تنوين. =

ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ
مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾
جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا
بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ
﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ
مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ
يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾
وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا
بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ
قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ
عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم
مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾

= وقرأ باقي القرأ العشر: ﴿بِخَالِصَةِ ذِكۡرَى﴾ بتنوين خالصة.
وهما وجهان عربيان والمعنى احد.

٥٣ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [مَا يُوعَدُونَ] بياء الغائبين.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿ما تُوعَدُون﴾ بتاء المخاطبين.
وبين القراءتين تكامل في الأداء البياني.

٥٧ ـ ● قرأ حفص، وحمزة، والكسائي، وخلف: [وَغَسَّاقٌ] بتشديد السّين.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَغَسَاقٌ﴾ بتخفيف السين.
وهما وجهان عربيان للكلمة.

٥٨ ـ ● قرأ أبو عمرو، ويعقوب: [وَأُخَرُ] جمع أُخرَىٰ.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿وَآخَرُ﴾ والآخر هو أحد الشيئين.

٦٣ ـ ● قرأ نافع، وحمزة، والكِسائي، وأبو جعفر، وخَلَف: [سُخرِيًّا] بضم السّين. =

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ
إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا
ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ
﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ
بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ
سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ
لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠
خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا
فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ
فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۙ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ

= وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكَسْرِ السين.
وهما لغتان لمصدر سَخِرَ منه وسخر به.

٦٩ ـ ● قرأ حفصٌ: [لِيَ مِنْ عِلْم] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِي مِنْ عِلْم﴾ بإسكان ياء المتكلم.
وهما كما سبق بيانه وجهان عربيان.

٧٠ ـ ● قرأ أبو جعفر: [إلاَّ إنَّمَا] بكَسْرِ همزة إنَّما.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿إلاَّ أَنَّمَا﴾ بفتح همزة أنَّما.
وتخريج الكسر عند أبي جعفر كون الجملة على سبيل الحكاية.

٧٨ ـ ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [لَعْنَتيَ إلىٰ] بفتح ياء المتكلم.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لَعْنَتِي إلىٰ﴾ بإسكان ياء المتكلم.

يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾
لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ
عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ
﴿٨٧﴾ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴿٨٨﴾

٨٣ ـ ● قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وابن عامر: [الْمُخْلِصِينَ] بكسر اللام.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام.
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

٨٤ ـ ● قرأ عاصم، وحمزة وخلف: [قَالَ فَالْحَقُّ] برفع الْحَق.
وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿قَالَ فَالْحَقَّ﴾ بنصب الْحَق، ولتخريج هذا وجوهٌ عند النحويين، وبما أنَّه خطابٌ لإبليس فأرى أنَّهُ على تقدير: فأُقسِمُ الْقَسَمَ الحقَّ، ولاَ أقول إلاَّ الحقَّ، لأَمْلأَنَّ جهنَّمَ مِنكَ وممَّنْ تبعَكَ مِنهُمْ أجمَعِين، فهذا هو الحقُّ الّذي أَطْلُبُ مِنكَ أن تعلَمه.

(٢)
الأطوار التي تنقّلت فيها مواقف أئمة الكفر في مكة حتّى نزول سورة (صۤ)

مرّت حركات أئمة الكفر في مكة، حتى نُزُولِ سورة (صۤ) ضِدّ دعوة الرسول محمد ﷺ، في أطوار تصاعُدِيَّة حتَّى بَلَغُوا مبلغ من هو في عِزَّة وشقاق، وكان هذا الطور الأخير إبّان نزول سورة (صۤ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

وتَتَبُّعاً لِما جاء في السُّوَر المنزَّلَةِ حتى نُزُولِ سورة (صۤ) تتكشَّفُ للباحث المدقِّقِ الأطْوارُ التي تَنَقَّلَتْ فيها مواقف أئمة الشِّرْك والكُفْر في مكة، بدأً من إعلان الرَّسُول محمّد ﷺ دَعْوَته، وهي الأطوارُ التالية:

الطور الأول: كانُوا أوّل الأمْرِ في طَوْرِ بُروز بعضِ القيادات المكذِّبَة، الناهية للرسُولِ عن متابعة دَعْوَته، مع رغبتِهِم في المداهنة.

وكانَ هذا إبّان نُزُول سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول).

وقد دلَّ على هذا الطَّوْر قول الله عزّ وجلّ لرَسُوله فيها:

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

ورافَق هذا الطَّوْرَ مُحاولاتٌ أُولَى لِفتْنَةِ مَنْ آمَنَ بالرَّسُول عن دينه، وصِدِّ الذين لديْهم استعدادٌ للإيمان به واتّباعه عن أن يؤمنوا به ويَتَّبِعُوه، مع اتِّهامِهِمْ الرَّسولَ بأنّه مجنُونٌ إذْ دعا إلى أمْرٍ جديدٍ خالَفَ فيه قومه.

ففي سورة (العلق/ ٩٦ مصحف/ ١ نزول) نجدُ قولَ الله عزَّ وجل:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾.

وفي سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول) نجد قول الله عزّ وجلّ:

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾

الطَّوْر الثاني: طورٌ ظَهَرَتْ فيه بعضُ الدِّعَايَاتِ الإعلاميّة المضادّة، وبعض الحركات العدائية، دلَّ على هذا الطَّوْر ما جاء في سورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول)، إذ جاء فيها قولُ الله عزّ وجلّ بشأن الوليد بن المغيرة:

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

ودلّ عليه ما جاء في سورة (المسد/ ١١١ مصحف/ ٦ نزول) وما دلّت عليه من أعمال أبي لَهبٍ وامرأته.

الطّور الثالث: طورٌ ظهرَتْ فيه حركَةُ تَصَيُّدِ ما يُمْكن أن يُثير به الكافرون وَخَزاتٍ إعلاميَّة، ضدّ دَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ ورسالته، وكان هذا الطور إبّان نزول (الضحى/ ٩٣ مصحف/ ١١ نزول) إذْ أشاع بعضهم أنّ رَبَّ محمّد قَدْ قلاَه، فقال الله له فيها:

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾.

الطُّور الرابع: طَوْرٌ ظَهَر فيه بعض المجاهرين ببغض الرَّسُول محمدّ ﷺ، وكان هذا الطور إبّان نُزُول سورة (الكوثر/ ١٠٨ مصحف/ ١٥ نزول) إذْ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ③﴾.

شانِئَكَ: أي مُبْغِضَك.

الطور الخامس: طوْرٌ ظهرت فيه من أئمة الكفر المفاوضات الاستدراجية للرَّسُول ﷺ، عسَىٰ أن يتنازل عن بعض دَعْوَته، وكان هذا الطور إبّان نزول سورة (الكافرون/ ١٠٩ مصحف/ ١٨ نزول).

الطور السادس: طَوْرٌ دارَتْ فيه حَرَكَاتُ الحسَد، ورغَباتُ الكيد سِرّاً، وانْطَلَقَتْ فيه الوَسَاوسُ تَنْفثُ في صُدور النّاسِ لتَصُدَّ عَنْ دين الله، وكان ذلِكَ إبَّان نُزول سورة (الفَلَق/ ١١٣ مصحف/ ٢٠ نزول) وسورة (الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول).

الطور السابع: طورٌ انطلقَتْ فيه عبارات التعجّب من مبادئ التوحيد، وأنباء يوم الدين، والتعجُّب من خبر حادثتي الإسراء والمعراج للرسُول محمد ﷺ، وكان هذا الطّور إبّان نزول سورة (النجم/ ٥٣ مصحف/ ٢٣ نزول) إذْ جاء فيها قول الله عزَّ وجلّ:

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ⑤⑨ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ⑥⓪ ﴾.

الطور الثامن: طَوْرُ فِتْنَة بعض جبابِرَة مَلأ مُشْرِكي مكّة لِعَبيدِهِمْ وإمَائِهِمْ بالتَّعْذِيب الشَّدِيد، لإكراههم على تَرْكِ الدّين الَّذِي آمَنُوا به، واتَّبَعُوا فيه رسول الله ﷺ محمَّداً ﷺ وبدأ في هذا الطور اسْتِغْراقُ هؤلاء الجبابِرَة في التكذيب وكانَ هذا الطَّوْرُ إبّان نزول سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول) وقد دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾.

وقوله تعالى فيها:

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾.

الطور التاسع: طورٌ ظَهرَ فيه الْهَمْزُ واللَّمْزُ والطّعْنُ الخفيُّ بِالرَّسُول وبالَّذِينَ آمنوا به واتّبعُوه.

وقد ظهرت هذه الحركاتُ الكيديّة من قِبَلِ ذوي الغنى والوجاهة والاستكبار من أئمة الكفر.

وكان هذا الطور إبّان نزول سورة (الهمزة/ ١٠٤ مصحف/ ٣٢ نزول).

الطور العاشر: طوْرٌ انْطَلَقَتْ فيه عبارات التكذيب الصريح العلنيّ الجازم، والاتّهام العلَنِيّ للرَّسُولِ بالافتراء على الله.

وكان هذا الطّوْر إبّانَ نُزُول سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول). إذ جاء في صدرها قول الله عزّ وجل:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾﴾.

وجاء في أواخِرِها قول الله عزّ وجلّ لرسوله:

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

الطور الحادي عشر: طورٌ اتَّخَذَ فيه أئمة الكُفْر في مكّةَ رسُولَ الله هَدَفاً وَغَرَضاً مُسْتَحِلّينَ في البلد الحرام إيذاءَهُ، غير عابئين به ولا بحُرْمَةِ البَلَدِ الحرام، ولكن ذلك لم يَصِل إلى مستوى إعلان المواجهة بالقُوَّة الغالبة، ذات السلطان.

وكان هذا الطّوْرُ إبّان نزول سورة (البلد/ ٩٠ مصحف/ ٣٥ نزول).

وقد دلّ على هذا الطوْر قول الله عزّ وجل فيها:

﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾.

أي: والحال قد اتَّخَذَكَ بعضُ أئمته هدفاً وغرضاً، فهم يستحلّون فيه إيذاءَك، ورَمْيَ سِهَامِ كَيْدِهم عَلَيْكَ، وتوجيهها إليك.

الطور الثاني عشر: طوْر تدبير ملأ كفّار قريش المكايد ضِدَّ الرسُول ﷺ وضدّ الذين آمنوا به واتبعوه.

وكان هذا الطَّوْر إبّان نزول سورة (الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول) وقد دلّ على هذا الطور قول الله عزّ وجلّ فيها لرسُوله:

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾﴾.

الطور الثالث عشر: طَوْرُ الإصرار العنيد على رفض تصْدِيق الرسُول مع ظهور آية انشقاق القمر بناءً على طلَبهم، وطَوْرُ التَّوجّه لإعداد العدّةِ بغية التخلّص من الرسول، ودعوته، خوف انتشارها، ووصُولِ الذين يؤمنون بها إلى مستوىً يَعْجزون عن قمْعِه والانتصار عليه.

وكان هذا الطور إبّان نزول سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) وقد دلَّ عليه قول الله عزَّ وجلّ بشأنهم:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

الطور الرابع عشر: طورُ إبراز الْقُوَى المادّيَّة الغالبة، وإظهار العداء

للرَّسُول وَدَعْوَتِه والَّذِينَ آمنوا به واتبعوه، وطَوْر الوقوف في شِقّ مَنْ يَهُمّ بأن يُعلِنَ حَرْباً إذا اسْتَدْعىٰ الأمر ذلك.

وكان هذا الطَّوْرُ إبَّان نزول سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وقد دلّ على هذا الطور قول الله عزّ وجلّ في صدرها: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾.

❁ ❁ ❁

(٣)
موضوع سورة (ص) وسبب نزولها

وصَلَ كُبَراء مشركي قريش إبَّان نُزول سُورة (صٓ) إلى طَوْر المُعْتَزّ بقُوَّتِهِ المتفوّقة الْغَالِبَةِ، الْمُعْلِنِ عداوته، والواقف في شِقّ الْمُسْتَعِدّ للحرب، بغيةَ إيقافِ مَسيرة دعوة الرسول محمّد ﷺ، والتَّنْكِيل بِمَنْ آمَنَ به واتَّبَعه، والتَّخَلُّصِ منهم ومن الرسول.

فاقتضى هذا الطَّوْرُ إنْزَالَ هذهِ السُّورَة لِبَيَانِهِ، وبيان مقَالاتِ أئمة الكُفرِ فيه الَّتي يَتْبَعُهُمْ فيها جماهيرهم، ويُرِدُّونَها بِغَباءٍ، واقتضت معالَجتهُم من خلال الطور الذي وَصَلُوا إليهِ علاجاً فِكْرِياً، وعلاجاً نفسياً، واشتمل العلاج النفسيُّ لهم على الإنذار بعذابٍ من الله يُنْزِلُه الله عليهم، وعلى تثبيطِهِمْ وإضعاف عزائمهم، بأنَّهُمْ إذا أعَدُّوا جيشاً لقتال الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا مَعَهُ فَهُمُ المَهْزُومُون المغْلُوبُونَ، واشتمل على التلويح بإهلاك شامل لهم، كما حَصَلَ للمهْلَكِينَ السَّابقين من مُجْرِمي القرون الأولى، إذا أصَرُّوا على ما هم فيه، ووَصَلُوا إلى مِثْلِ ما وَصَلَ إليه المهْلَكُونَ السَّابقون.

واقتضى هذا الطَّوْر الْعِدائيُّ الذي وصل إليه كُبَراء وأئمة مشركي مكّة، والَّذِي جعَلَهُم يُفكِّرُون بأن يُعِدُّوا الوسائل الحربيّة، ويَقِفُوا مَوْقِفَ الْمُشَاقِّ الْمُحَارِبِ، ويُطْلِقُوا الأقوال الجارحة المؤلمة للرَّسُول ﷺ، والمحرِّضة

لأتباعهم على معاداته وحَرْبه وحَرْب الَّذِينَ آمَنوا به، أنْ يُوَجِّهَ الله عَزَّ وجَلَّ لرسوله علاجاً تَرْبَوياً، فيأمُرَهُ أوّلاً بالصَّبْرِ على ما يَقُولون، وأن يذكُر له نماذج ثلاثةً من رُسُلِهِ السَّابقين، وفي كُلِّ نموذج ثلاثة رُسل.

أمّا النموذج الأوّل: فذكَرَ الله عزّ وجل فيه الرُّسُلَ: داودَ، وسليمان، وأيوب عليهم السلام، مع بعض تفصيلٍ عن قِصَصِهم، وما تعرَّضوا له من بلاء، وأثنى عليهم بأنهم أوَّابُون، أي: رجَّاعون.

وأما النموذج الثاني: فذكر الله عزّ وجل فيه الرّسل: إبراهيم، وإسْحاق، ويعقوب عليهم السلام، وأثنىٰ عليهم ثناءً عظيماً، وأبان أنّهم عنده من المصطَفَيْنَ الأخيار، وأنّهم لا هَمَّ لَهُمْ إلاَّ ذِكْرَىٰ الدار الآخرة.

وأمّا النموذج الثالث: فذكر الله عزَّ وجل فيه الرّسلَ: إسماعيل، والْيَسَعَ، وذَا الكِفْل عليهم السلام، وأثنى عليهم بأنّهم من الأخيار.

وفي ذِكْر هٰؤلاءِ النماذج الثّلاثَة من الرُّسل إشعارٌ ضِمْنيٌّ غَيْرُ مُصرَّحٍ به للرّسُولِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بأنْ يختار لنفسه النموذج الذي يُرْضيه، حتَّىٰ يَهَبَه الله إيّاه، ويَبْلُوهُ من خلاله.

هَلْ يريد نموذج أهل المال والملك، فيتعَرَّض لامتحانات، وابتلاءات، يكون الثناء عليه في آخر الأمر: «إنَّهُ أوّاب» كما أثنى الله على داود، أو «نِعْمَ الْعَبْدُ إنَّهُ أوّاب» كما أثنى الله على سليمان وأيُّوب.

أم يريد نموذج الذين لا هَمَّ يَشْغَلُ نفوسَهُمْ وأفكارَهُمْ إلاّ ذِكْرَىٰ الدار الآخرة، والعملَ لَهَا، حتَىٰ يكون ثناء الله عليه في آخر رحلة امتحانه، مثل الثناء الذي أثنىٰ به على إبراهيم وإسْحَاقَ ويعقوب عليهم السلام، وهو قوله جلّ جلاله بشأنهم: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

أم يُرِيد نَمُوذَجَ الَّذِينَ هُمْ بَيْنَ بَيْنِ، فيكون الثناء عليه في آخر رحلة

امتحانه، مثل الثناء الذي أثنى الله به على إسماعيل والْيَسَعَ وذِي الكفل عليه السلام، وهو قوله جلّ جلالُهُ بشأنهم: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾.

وقد أثْبَتَتْ سيرة الرسول محمد ﷺ في حياتِه أنّه اختار لنفسه النموذج الأسْمىٰ، نموذجَ إبراهيم وإسْحٰق ويعقوب عليهم السلام، وارتَقىٰ إلىٰ أعْلَى ذِرْوَةِ هٰذا النموذج، فكان سَيِّدَ الأوَّلين والآخِرين.

واقتضى الْبَيَانُ الحكيم في السُّورَةِ بَعْدَ تَرْبية الله لرسوله وتخييره تقديم لقطات مِنَ الجزاء الأخرويّ بالثواب، ولقطات من الجزاء الأخرويّ بالعقاب، مُكَمِّلات لما نزل قَبْلَها في نجوم التنزيل.

واقتضىٰ البيان الحكيم في السُّورة الإعلام بأنّ الْغَايَةَ من خَلْقِ ذوي الإرادات الحرّة ابْتِلاؤهم بالإيمان بأنّ الله هو الإلٰهُ الواحد المعبود بحقٍّ، إذْ هُو الرَّبُّ الواحد الذي لا ربَّ سواه، وابتلاؤهم بالإسلام له والسَّمْعِ والطاعة.

وقصّة خلْقِ آدم والأمْرُ بالسجود له، واستكبارُ إبليس عن الطاعة لأمر الله، وطَرْدُهُ، وجَعْلُه مع مَنْ يتّبعُه في جهنّم يوم الدّين، أولىٰ مراحِلِ ابتلاء ذوي الإرادات الحرّة، بشأن توحيد الرُّبوبيّة، وتوحيد الإلٰهيَّة لله عزّ وجل، والسَّمْعِ والطَّاعةِ والإسلام له، دُونَ مُعَانَدةٍ ولا اسْتِكْبار.

فجاء عرض هذه القصّة لإبراز هذه الحقيقة.

وجاء ختم السورة بعدها بتعليم الله رسوله ما يقُوله لقومه، لدفع اتّهامِهِمْ له بأنّه ذو غَرَضٍ دُنيويّ يسْعَىٰ إليه في قومه، وبيان أن ما جاء به ليس ذكراً لهم وحدهم، بل هو ذكر للعالمين كُلِّ العالمين، وبأنّ ما اشتمل عليه هذا الذكر وهو القرآن من أنباء مستقبليّة سيعلمون تحقُّقها بعد حين.

وبهذا ظهر لنا أن عناصر سورة (صٓ) تدور حول موضوع واحد، وهي عناصر مترابطة ترابطاً فكرياً وثيقاً.

❁ ❁ ❁

(٤)
دروس سورة (صٓ)

تشتمل سورة (ص) على أربعة دُروسٍ:

الدرس الأول: يشتمل هذا الدرس على بيان الطّوْر الّذي وصل إليه كُبَراءُ مشركي مكة، ويُلْحَقُ بهم أتباعهم، تجاه الرّسُول محمّد ﷺ ودعوته، والذين آمنوا به واتّبعوه، إبّان نزول السورة، وهو طَوْرُ مَنْ هو في عِزَّةٍ بقوته، وشقاقٍ ظاهرٍ في عداوته.

ويشتمل على بيانِ مقالاتهم في هذا الطَّوْر، ومعالجات مختاراتٍ لهم فيه، ببيانات من الرَّبِّ العزيز الحكيم.

وهو الآيات من (١ ـ ١٦)،

الدرس الثاني: ويشتمل هذا الدرس على معالجة نفس الرسول ﷺ، تجاه الطور الذي وصل إليه قومه في بلده، وهم أهْلُه وعشيرته، إذْ آلَمتْهُ وأحْزَنَتْهُ أقوالُهُمْ ومواقِفُهُمْ من دعوته، وبوادر توجُّهِهم لاستخدام القوَّةِ الحربية، لقَمْعِ دعوته، واضطهاد الذين أمنوا به واتبعوه.

فأمر الله رسوله بأن يَصبِر على أقوالهم، وعرض عليه ثلاثة نماذج من المرسلين السّابقين، مشعراً له ضِمْناً بهذا العرض أن يختار لنفسه النموذج الذي يُرْضِيه منهم، حتَّىٰ يقضي الله له به.

وهو الآيات من (١٧ ـ ٤٨).

الدرس الثالث: ويشتمل هذا الدرس على عرض لقطات ترغيبيّة من نعيم المتقين في جنّات عدْنٍ يوم الدّين، وعرض لقطات ترهيبيّةٍ من عذاب الطاغين في جهنّم يوم الدّين.

وكلٌ من اللّقطات الترغيبية، واللقطات الترهيبيّة، لقطاتٌ فيها بيانٌ

تكامُليٍّ مَعَ مَا سَبَقَ أن جاء في نجوم التنزيل النازلة قبل سورة (صَ) على منهج القرآن في بياناته التكامليّة المجَزَّأة على مراحل من التنزيل، ضمْن حَرَكِيَّة حَكِيمَةٍ، تعليميَّة وتربوية.

وهو الآيات من (٤٩ ـ ٦٤).

الدرس الرابع: درس يعلّم الله عزّ وجل فيه رسوله محمداً ﷺ ثم كلّ داعٍ إلى الله من أمّته، ما يقوله للناس بشأن توحيد الإلٰهية وتوحيد الرُّبوبية لله عَزَّ وجل، مع ذكر قصَّةِ خَلْق آدم واستكبار إبليس عن طاعة الله بالسُّجُودِ لآدم، وطرده ووعيده بأن يكون هو ومن اتّبَعه من الإنس والجنّ في جهنم خَالِدِين يَومَ الدّين، وهذه القِصَّة أبانت أنّ إبليس مؤمِنٌ بربّه إلا أنّه جَحَد إلٰهيَّتَهُ استكباراً، فلعَنَهُ الله إلى يوم الدين، وأوعده بالعذاب الأبديّ الخالد في جهنّم وبئس المصير، وكذلك كلُّ من جحد إلٰهيَّة الله واسْتَكْبَرَ عن عبادته.

ويعلّم الله في هذا الدرس رسوله أن يبيّن لقومه أنّهُ مَا يطْلبُ من الناس أجراً على دعوته، وأنّه يتلقّىٰ الذكر عن ربّه، وليس هو من المتكلّفين المتصنّعين كالسحرة، وأن هذا القرآن ذكر للعالمين كلّهم لا للعرب فقط، وأنّ أنباءه سَيَعْلَمُ الناس أنها حقٌ.

(٥)
التدبر التحليلي للدرس الأوّل من دروس السورة
وهو الآيات من (١ ـ ١٦)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا
بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي
شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ
الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾
جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو
الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا
كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن
فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾.

تمهيد:

جاء في هذا الدرس بيان الطور الذي وصل إليه أئمة الكفر ومَلَؤُهم من مشركي مكة، إبّان نزول سورة (صۤ) وهو طورٌ يشتمل علىٰ مواقف قديمة ما زالُوا يُصِرُّونَ عليها، ويكابرون فيها، ويعاندون الحقّ مُتَشَبِّثين بها، ومواقف جديدة تَطَوَّرُوا إليها في حركة حياتهم الكُفْرِيَّةِ العناديَّة.

أولاً: فمن مواقفهم القديمة التي ما زالُوا يُصِرُّون عليها ما يلي:

١ ـ موقف الكفر بالرّسُول وبما جاء به عن ربّه، على الرُّغم مِن أنّ القرآن المجيد آيةٌ عُظْمَىٰ على صِدْقه، لو تَدَبَّرُوا آياته، وتَبَصَّرُوا بدلالاتها، وانْتَفعُوا من عظاتها في الترغيب والترهيب، ومن عِظَاتها أنباءُ المُهْلَكِينَ من كُفَّارِ القرون السَّابقة.

وقد جاء بيان هذا الموقف في الآية (١) وبعض الآية (٢).

٢ ـ موقف الإصرار على التكذيب بيوم الدّين، إذْ طلَبُوا تعجيلَ ما يُحبّون من حظوظهم وجعلَها في الحياة الدنيا، إشعاراً بأنّهم لا يُؤْمِنون بيوْم الدّين، رَدًّا على تَرْغيبهم فيما عند الله من نعيم عظيم في جنّات النعيم يوْمَ الدّين.

وقد جاء بيان موقفهم هذا في الآية (١٦).

ثانياً: ومن مواقفهم الجديدة الّتي تطوَّرُوا إليها في حركة حياتهم الكُفْرِيَّةِ العنادية ما يلي:

١ ـ أنَّهم قد وَصَلُوا إلى طَوْرِ المعتزّ بقوَّتِه الغالبة، الواقف في شِقِّ المعادِي الذي يُفكِّرُ في الإعداد للْحَرْب، وقَمع دعوة الرسول محمّد ﷺ بقُوَّةِ السِّلاح، واضطهاد الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ والتَّخلص منْهُمْ قتلاً أو أسْراً وتَشْتِيتاً.

٢ ـ توجيه الدِّعاية الإعلاميَّةِ بأنَّ محمّداً ساحِرٌ كَذَّاب. وقد سبق في نجوم التَّنزيل بيانُ أنّهم كلَّما رأَوْا آية من آياتِ الله الّتي يُؤيِّدُ الله بها رسوله، زَعَمُوا أنّها سِحْر. وأنَّهُم كَذَّبُوا ببلاغاته لهم عن ربّه.

لكنّ الموقف الجديد هو تحريك الدّعاية الإعلاميّة النَّشِطَةِ بأنّه ساحِرٌ كَذَّاب، خوفاً منهم على جماهيرهم، أن يُؤْمنُوا به ويتَّبعُوه، وصدّاً لسائر الناس عن النظر إلى دعوته والتفكّر فيها.

٣ ـ الترويج الدعائيُّ التضليليُّ لجماهيرهم بعبارات التعجب من أنّ محمّداً جعَلَ الآلهة المتعدِّدةِ إلٰهاً واحداً، وإطلاقُ عبارة: «إنَّ هذا الشيْءُ عُجابٌ».

٤ ـ أنَّهم لمّا شَعَرُوا بالهزيمة الفكرية القائمة على عقيدة الشِّرْكِ، أمَامَ دعْوَةِ التَّوْحِيد، تكاتَفُوا ومَشَوْا مُتَعَاضِدِينَ مُتَجَلِّدِين، يُوصي بَعْضُهُمْ بعضاً أنْ يُتابِعُوا مَسِيرَتَهُم الشركيَّة، ويَصْبِروا على آلِهَتِهِمْ، مُتَّهِمِينَ الرَّسُولَ بأنّهُ طالِبُ مُلْكٍ وسُلْطان، ومتذَرِّعِين لِتَحْسِينِ مَا هم فيه من شِرْكِ واسْتِبْعَادِ فِكْرَةِ الرَّبِّ الواحد، الذي هو الإله الواحد، بأنَّ الملّة النصرانيَّة الّتي هي الملّة الآخِرَةُ قبل دعوة محمد، والّتي تؤمن بها وتَتْبَعُها أُمَمٌ كثيرة، ولها دُولٌ قويَّةٌ في الأرض، قائمةٌ على تَعَدُّدِ الآلِهَةِ، وليس فيها هذا التوحيد الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله.

ثالثاً: وقد جاء في هذا الدَّرْس ثم في دروس السورة بعده، حتّىٰ الدرس الأخير منها، علاجٌ رَبَّانيٌّ لهذه المواقف القديمة والجديدة.

ومن هذا العلاج ما جاء مُلْحقاً باللّقطات المختارات من قصّة داود عليه السلام في الدرس الثاني من دروس السورة.

ومن هذا العلاج ما جاء في الدرس الثالث من دروسها، إنْ هو درس جاء فيه عرضُ لقطات ترغيبيّة، من نعيم المتقين في جنّاتِ عَدْنٍ يوم الدِّين، وعرض لقطات ترهيبيّة من عذاب الطّاغين في جهنّم يوم الدين.

ومن هذا العلاج ما جاء في الدرس الرابع من دروسها، إذا اشتمل على تعليم الله للرسول ﷺ ما يقولُه للمعاندين من قومه، مع عرض لقطات من قصّة خَلْقِ الإنسان الأول، وما فيها من بياناتٍ تتعَلَّقُ بتَوْحِيدِ الرُّبوبيَّة وتوحيد الإلهيَّة لله عزّ وجلّ، وما يَقُوله أخيراً لهم، من ردٍّ خِتاميٍّ على اتِّهامه بأنّ له مصلَحَةً شخصيَّة دُنْيَويَّة من دعوته، بإعلان أنّهُ ما يسْألهم من أجْرٍ، وبأنّ ما يُبَلِّغُهم عن ربّه من آيات القرآن ليس من عنده ولا من تصَنُّعِه، وأنّ هذا الذّكْر الرَّبّاني ليس لهم وحْدَهم دون الناس، بل هو ذكر لكل العالمين، وأنّ أنباءَهُ المستقبليَّةَ والتاريخية والكونية سيعلمونها بعد حين.

❁ ❁ ❁

التدبر التحليلي:

● قول الله عزّ وجلّ ﴿صٓۚ﴾ افتتح الله عزَّ وجلَّ هذه السورة بحرف «ص» والله أعْلَمُ بالمراد به، وبسائر الحروف المقطّعة الّتي افتتح الله بها أوائل بعض السّور، وقد سَبق بيانُ وجوه التأويل المطروحة احتمالاً بشأنها لَدَى تَدَبُّر أوّل سورة (القلم).

وسمّيت هذه السّورة بحرف(صٓ) من حروف ا لتهجّي.

● قول الله عزّ وجل: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾.

أقْسَمَ الله في هذه العبارة بالْقُرْآن الّذي وَصَفَهُ جَلَّ جلالُه بأن ذُو الذِّكرِ، أي: المتَّصِفُ بأنّه يَسْتَحِقُّ أنْ يكُونَ ذِكراً للعالمين، وهذا الاستحقاق ملازم له ملازمة الصاحب الذي لا يفارق صاحبه.

﴿ذِي﴾ أي: صاحب، يُرْفَعُ بالواو، ويُنْصبُ بالألِف، ويُجَرُّ بالياء، وهو أحد الأسماء السّتّة التي لها هذا الحكم بشروط.

فدلَّ هذا الوصْفُ للقرآن المجيد على أنّ من خصائصه أنّهُ كتابٌ يَصْلُح بَعْدَ تَلَقِّيه واستجماع آياته لأن يُذْكر دواماً، في الألسنة، والقلوب، والأذهان، في كلّ زمانٍ ومكان.

ولا يقتصر الإعجابُ به، والانجذاب إليه، والانتفاعُ بمضامينه على أزمان تلقّيهِ، بلْ يظلُّ كذلك دواماً، لأنّه لا يَبْلَىٰ علىٰ كثْرَةِ ترداَدِ ذِكْرِهِ ولا يَخْلَقُ، بسبب حلاوة لفظه، وكمال معانيه، وعُمْقِ دلالاته التي تَتجدَّد كُلَّمَا تعمَّقَ المتفكرون المتدبِّرونَ المستنبطون بحثاً عنها، وبسَبَب كَوْنِه مُيَسَّراً للذّكْرِ، وحقاً وصِدْقاً وهادياً للّتِي هي أقوم، وهذه أمورٌ لا تَبْلَى ولا تخْلَقُ مهما مرّتِ الدُّهور، وكرّت العصور، ولا سيما إذا كانَتْ من الكلّيّات العامّة الّتي تنطبق على أفرادٍ لا تُحْصَر، ومتجدّدات من الأحداث والأشياء لا تَقِفُ عنْد حدّ.

فما اشتمل من الكلام على الحقّ والصّدْقِ والْعُمْق والهداية للّتي هي أقوم، مع كمال صياغته، وحلاوة لفظه، وتيسيره للذّكْر، يكون صالحاً بعْد تَلَقّيه لأنْ يُذْكر دواماً، على كرّ العصور، وتتابعُ الدُّهور، للاستمتاع بحلاوته، واسْتجلاء ما في أعْماقه، واستنباط ما في باطنه، واكتشاف خفَايا دلالاته، وما يشتمل عليه من معاني ثَرَّةٍ مُتجدِّدةٍ جَليلة.

بخلافِ النُّصوص الَّتي لا تشتمل على الحقّ والصّدق والعُمْقِ والهداية للَّتي هي أقوم، أو اختلَطَ فيها الحقُّ بالباطل، والسّمينُ بالْغَثّ، أو كانت مُعَقَّدَةً غير مُيَسَّرَة، أو كانت سَطحيَّةً لا عُمْقَ فيها، فإنّها مَهْما كانت ذاتَ صياغة حسنة بليغة، لا تَعْدُو أن تكون نُصُوصاً زمنِيَّةً، تُذْكَرُ في حينِ الانبهار بها، ثُمَّ يخْبُو وهَجُها، ثُمَّ تَنْطَفِئ، ثم تَمْحُوها الأيَّامُ والشُّهورُ والدُّهور، فلا تكُون ذِكراً في الألسنة والأذهانِ والْقُلوب، فلا تَصْلُح لأن تكون ذِكْراً دواماً.

وقد اعْتَاد النَّاسُ أنْ تكُونَ جُمَلُ الْحِكَم، وجُمَلُ الأمثال، وبعْضُ فرائد أبيات الشِّعْر، دَائِرةً على ألْسِنَتِهِمْ، حاضِرَةً في ذاكرتهم، عند المناسبات الّتي تُلائمها، لتَميُّزِها ببعض الصّفات اللّواتي سَبَقَ بيانُها للقرآن المجيد.

ولَنْ يجد المتَتبّعُونَ هذه الْجُمَل من الحِكَم والأمثال، وهٰذه الفرائد من مُقلّداتِ الشِّعْر، إلاَّ حصيلَةَ منتقيات نادرات من آداب أُمَّةٍ بكاملها.

لكِنَّ القرآن المجيدَ صالحٌ لأن يكون كُلُّه كذلِكَ ذِكْراً دواماً، مع تَمَيُّزِ حِكَمِهِ، وأمْثَالِهِ وآياته بكلّ الخصائصُ الّتي تُؤهّل النَّصّ البيانيَّ لأنْ يكون ذِكراً دواماً، في الألسنة والأذهانِ والقلوب.

فمن الحقّ والدِّقَّةِ في الوصْفِ أن يَصِف الله عزّ وجلّ القرآن المجيد بأنّه ذو الذّكر، وبأَنْ يُسَمِّيَه ذكراً، وبأن يَصِفه بالذِّكْرىٰ (الذِّكْرىٰ: مصْدَرٌ كالذِّكر) وبأن يصِفَهُ بأنَّه تَذْكِرَة (أيْ: كبطاقَةِ مُذَكِّرَةٍ بأمْرٍ مُهِمّ).

أمّا ما في القرآن من عُمْقٍ تتدفّقُ منه دواماً معَاني جديدة، فهو أمْرٌ يجْعَلُهُ لدى ذوي الأذهان الْقَادِرَة على استنباط المعاني العميقة، نصّاً يَذْكُرُونه آناً فآناً، مهما تَدَبَّرُوه وتفكّروا في معانيه، ودَلالاتِ مَبانِيه، ولَوازِمها الفكرية، فيكون لديهم جَدِيداً ممتعاً حُلْواً، كُلَّما تكشَّفَتْ لهم فيه معاني

جديدة، يَهْدِيهم إليها ذكْرُهُ بذاكرتهم، أو تَرْدِيدُ آياته بألسنتهم.

وبهذا يحتفظ القرآن بكونه ذكراً دواماً، بخلاف سائر النُّصوص.

إنَّ هٰذه الخصوصيَّة لا نجدُها في غير القرآن المجيد من كلام الناس، وكذلك أيضاً استحقّ أن يكون ذا الذّكر، أي: ذا الشّرف العظيم.

فالْقَسَمُ بالْقُرآنِ ذِي الذّكر قَسَمٌ به من خلال ملاحظةِ إحدى خصائصه الكُبْرى، وهي كونُه كتاباً صالحاً لأنْ يُذْكَرَ دواماً، وكتاباً يجب على الذين آمنوا بالله ورسُوله أنْ يَذْكُرُوهُ آناً فآناً، لِيَسْتَنْبِطُوا معَانيه، ويَعْمَلُوا بأحْكَامِهِ وَوَصاياه.

وفي القسم بالقرآن ذي الذّكر توجيه لأنظار المتفكّرين إلى أنّه آيةٌ معجزةٌ مِنْ آياتِ الله الكُبْرىٰ، الّتي تَستَحِقُّ أن يُقْسِمَ الله بها، وكوْنُه معجزةً دليلٌ على أنّ محمّداً الّذي يُبَلِّغُهُ عن رَبّه صادقٌ في نُبُوَّتِهِ، وصَادِقٌ في رسالته، فهذا القرآن لا يستطيع البشَرُ مُتَفَرِّقين ولا مُجْتَمِعين أنْ يأتُوا به ولا بمثْله، بل هو تنزيل من الله العزيز الحكيم.

وقد تضمّن هذا القسم توجيهاً إقناعياً، ودليلاً هادياً لمن تفكّر وتَدَبّر، إلىٰ الإيمان بالرَّسُول، وبما جاء به عن ربّه.

والمقْسَمُ عليه محذوف تقديره: إنّ محمّداً الذي يبلّغ هذا القرآن ذا الذّكر عن ربّه صادقٌ في نبوّته، وصادق في رسالته، لأنّ هذا القرآن لا يمكن أن يأتي بمثله بشر، فليس محمّدٌ ساحراً ولا كذاباً.

ممَّا جاء عن القرآن في مراحل التنزيل حتّى نزول سورة (صٓ):

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول).

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: يتلقَّونه أوّلاً، فيتفكّرون في معانيه ويتدبَّرونه ثانياً، فيَعْمَلُون بِمَا يَهْدِيهِمْ إليه ثالثاً، ثُمَّ يَجْعَلُونه ذِكْراً لهم آناً فآناً، يراجعون آياته، ويذكُرُون منه دواماً ما يلائم الأحوال، والمناسبات، التي تَسْتَدْعي منه بياناً بشأنها.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول).

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

فجاء في هذا النّصّ وصْفُ القرآنِ بأنّهُ مجِيدٌ، أي: جامعٌ لكُلّ الصّفات السّامِيات العظيماتِ الجليلاتِ، التي تُناسِبُ نصاً بيانياً، تردّدُه الألسنة، وتحتفظ به الذّاكرات.

وجاء فيه وصْفه بأنّه مسْطُورٌ في لَوْحٍ محفُوظٍ عند الله بحفظه.

النص الثالث: قول الله عزّ وجل في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول).

﴿قٓ وَالْقُرْءَانِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾.

فأقْسَمَ الله عزّ وجلّ بالقرآن باعتبار أنّهُ مَجيدٌ، وآيةٌ عظيمة جليلة من آياته جلّ جَلاَلُه.

النصّ الرابع: قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

وقد جاءت هذه الآية مكرَّرة في سورة (القمر) أربع مرّات، مقطعاً فاصلاً بين عرض موجزات من قصص بعض المهلكين السابقين، الذين كذّبوا بالنُّذرِ الّتي أنذرهم بها رُسُل ربّهم.

النصّ الخامس: قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾.

فأقسم الله عزّ وجل بالقرآن باعتباره كتاباً مؤهّلاً لأن يكون ذكراً للعالمين جميعاً، كما سبق بيانه لدى تدبّر هذه الآية.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: المعنيّون بهذه العبارة الملأ من مشركي قريش، وأتباعُهم اللاَّحقون بهم.

﴿فِي عِزَّةٖ﴾، العِزَّة: القوّة الغالبة، يقول العرب: مَنْ عزَّ بَزَّ، أي: مَنْ غلَب سَلَب.

فالمعْنِيُّون من الذين كفروا، وهم الملأ من مشركي مكة، وقد بَدَؤوا يتحدَّثون فيما بينهم أنّهم في مَنَعَةٍ بقُوَّتِهم الغالبة للرسُول والّذين آمَنُوا به واتّبعوه، وأنّه قد صَارَ من مصلحتهم للمحافظة على مكانتهم الاجتماعيَّة أن يَلْجَؤُوا إليها، وأن يسْتَخْدِموها في اضطهاد المسلمين وتشتيت شملهم، وفي مقاومة دعَوَة الإسلام.

﴿وَشِقَاقٖ﴾: الشّقاق في اللّغة، العداوة والخلاف. يقال لغة: شاقّهُ مُشاقَّةً وشِقاقاً، أي: خالَفَه وعاداه.

قال الزَّجّاج: الشِّقاق، العَدَاوة بين فريقَين، والخلافُ بيْنَ اثْنين، سُمِّيَ ذلك شقاقاً، لأنَّ كلَّ فِريقٍ من فِرْقَتَي الْعَداوةِ قَصَدَ شِقاً (أي: ناحيةً) غير شِقِّ صاحِبِهِ.

وفي التعبير عن هؤلاء المعنيّين أنّهم في عزَّةٍ وشقاقٍ، إشْعارٌ بأنّهم في محيطٍ يُحِيطُ بنُفُوسِهم وتصَوُّرَاتِهِم، من مشاعِر اعتزازِهم بقُوَّتِهم الغالبة. ومَشاعِرِ عداوتهم للرسول ودعْوَته ولِلّذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، وهذا المحيط

بنُفوسهم وتصوّراتِهم لا بُدَّ أنْ يَصْرِفَهُمْ عن كلّ حقٍّ وبَصِيرةٍ سليمة ورُشْد.

لقد كان الواجب العقليُّ على هؤلاء الذين هم في عزّةٍ وشقاقٍ، أنْ يسارعوا إلى تصْدِيقِ الرَّسُول والإيمان به واتّباعِه، باعتبار أنّ ما نزل من القرآن قبل إنزال سورة (صۤ) كافٍ لإقناعهم بأنّ مُبلِّغَهُ عن ربّه نبيُّ الله ورسُولُه حَقاً وصِدْقاً، فما فيه من مَجْدٍ وشَرَفٍ عظيمٍ مُعْجِزٍ، وما فيه من بيان لاَ يستطيع أن يأتي بمثله بشرٌ منفردِين ولا مجتمعين، كَافٍ لأنْ يكونَ شاهداً فكْرِياً عَقْلِياً، علىٰ أنّ محمّداً الذي يُبَلّغُهُ عن رَبّه نبيُّ الله ورسُولُه حقًّا وصِدْقاً.

وهذا الشاهد الفكْريُّ العقْلِيُّ شاهِدٌ بُرْهانيٌّ لِمَنْ تَدَبَّرَهُ وتفكّر فيه، واستَبْصرَ وُجُوه إعْجَازِه.

لكنَّ الملأ من مشركي قريشٍ أصرّوا على تكْذِيبِ الرَّسُولِ محمد ﷺ حتّى نزول سورة (صۤ) إذْ لم يَعْبؤوا بهذا الشّاهد الفكريّ العقليّ الذي اشتمل عليه القرآن المجيد، ولم يتوجّهُوا للاستفادة منه، بل انْصَرفوا عنه غير مكترثين له، ووصَلُوا في مواجهة الرسول ودَعْوَتِهِ والّذينَ آمَنُوا بِهِ واتّبَعُوه إلى طَوْرِ الشُّعُور بالاعتزاز بالقوّة الغالبة، القادرة على إيقاف الدّعوة الإسلاميّة، ومَنْعِ انتشارها، وطَوْرِ الْعَدَاوَة والشِّقاق، والمواجهة بالقُوّة العسكريّة المسلّحة.

هذا ما دَلَّ عليه قول الله عزّ وجلّ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾﴾.

فأشار حرف الإضراب «بل» إلى مطوِيّ لم يُصَرَّحْ به في اللفظ، وهو أنّ المَعْنِيِّين بعبارة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لم يستفيدوا من إعجاز ما نزل من القرآن، بل لَزِمُوا مواقفهم الأولى الّتي أعْلَنُوا فيها تعجُّبَهُم مِنْ أن يَجيئهم مُنْذِرٌ مِنهم، وأعْلَنُوا فيها أنّ محمّداً ساحِرٌ كذّابٌ، ووَصَلُوا إلى طَوْر المعتزّ بقوته الغالبة، والواقف مواقف المواجهة بالعداوة والمخالفة والشقاق.

وتدلُّ عبارة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ علىٰ أنَّ هؤلاء قد كان تكذيبُهم للرسُول ودعوته ناشئاً عن سَتْرِ أدِلَّةِ الإيمان، وسَتْر شواهد الحقّ الّتي ظهَرَتْ لهم، ودَفْنِها، لأنّ أصْلَ الكَفْرِ الدَّفْنُ والسَّتْر. والكُفْرُ هو جُحودُ الحقّ مع العلم بأنه حقٌّ.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾.

إنّ الموقف العِدَائيّ الّذي تطَوَّرتْ إليْه مواقف أئمة الشِّرْكِ والكُفْرِ في مَكَّة، إذْ وصَلُوا إلى حالة من هو في عزَّةٍ وشقاق، يلائمه من العلاج تذكيرهم بمَا كانَ من الله العزيز الحكيم الْقَهَّار، من إهلاك أمْثالهم ومن كانوا أشَدَّ مِنهُمْ قُوَّةً من كُفَّار الْقُرُون الأولى.

فجاءت هٰذه الآية متضمّنةً هذا العلاج الحكيم.

﴿كَمْ﴾ هذه «كَمْ» الخبريّة، ومعناها عَدَدٌ كثير، وهي في محل نصبٍ على أنّها مفعولٌ به مقدّم على عامِلِهِ، والتقدير: عدداً كثيراً من الأمم، أهلكنا من قبلكم.

﴿أَهْلَكْنَا﴾ أي: إهلاكاً جماعياً عِقابياً في الحياة الدنيا، وجاء في هذه العبارة استعمال ضمير المتكلّم العظيم، لأنَّ موضوع الإهلاك الجماعيّ العقابيّ يلائمه الإشعارُ بعظمة الرُّبُوبيّة وسلطانها وجبروتها وقَهْرِها وجَليلِ حِكْمَتها.

أي: عَدَداً كَثيراً من كُفَّار أهْل القرون الأولىٰ أهلكناهم مِنْ قَبْل هؤلاء الذين وصلوا إلى طور من هُمْ في عزَّة وشقاق، وذلك حينما وصَلُوا مع رُسُل ربِّهم إلى طور استخدام الْقُوَّةِ المسَلَّحَةِ لِقَمْعِهِم واضطهاد الذين آمنُوا بهم واتَّبَعُوهم، والتنكيل بهم، بغية إطفاء أنوار الدَّعْوَة الرَّبّانيّة بالْقُوَّة، والتخلّص المادّيّ من الرّسل.

وهذه الآية تُشعِرُ بأنّ من سُنَنِ الله الدائمة في الأمم، أن يُهْلِكَ الأقوام الذين يَصِلُون إلى طَورِ الميؤوس من استجابة فئاتٍ منهم حيناً فحيناً لدَعْوَةِ رُسُل

ربّهم، الواقفين موقف القمع والاضطهاد والتهديد للتخلّص من الرسول ودعوته.

فالله جلّ جلاله وعزّ سلطانه لن يترُك رسوله محمّداً والذين آمنوا به واتّبَعُوه، دُونَ أنْ يُؤيّدهم بنَصْرِه، ولو بإهلاك القوم المعادين لهم إهلاكاً عقابياً جماعيّاً عامّاً، إذا اقتضَتْ حِكْمَتُه ذلك.

وفي هذا التذكير وعْدٌ ضِمنيٌّ للرسُول والَّذِين آمنوا معه بأنّ الله ناصِرُهم، وإنْذارٌ للذين هم في عزَّةٍ وشقاقٍ بأنّ الله خاذِلُهم، أو مُهْلِكُهُمْ، إذا اقتضت حكمته ذلك، فليكُفُّوا عن الموقف العدائيّ الذّي هم فيه، مُغْتَرِّينَ بما هم فيه من مشاعر العزّة والقوّة الغالبة التي تنفث سُمُومُها في صدورهم، وتُحرضُهم على الوقوف في شِقّ المحارب المقاتل.

وهذا التهديد الضّمْنيُّ المنذرُ بإهْلاكها إذا وصَلوا إلى مثل ما وصل إليه السابقون من الأساليب البيانية الحكيمة في التربية.

﴿مِن قَبْلِهِم﴾ أي: مِنْ قبل هؤلاء المعنيّين في السّورة.

«قَبلُ» ظرفٌ لمكانٍ مُبْهم، ثم استعير ظرفاً لزمانٍ مُبْهَم، ويكُونُ منصوباً على الظرفية، وقد يجرُّ بحرف الجرّ «مِنْ» تصريحاً بالْعَامل.

وارتقى النّصّ هنا تأكيداً بالتصريح بلفظ «مِنْ» في ﴿مِنْ قبلِهِمْ﴾ عن النصّ المشابه الذي جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) السابقة نزولاً، فقد جاء فيه قول الله عزّ وجل: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ . . . (٣٦)﴾ ولم يأت فيه: وكم أهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِم، مراعاةً لحكمة الارتقاءفي المؤكدات بلاغيّاً.

﴿مِّن قَرْنٍ﴾ القرْنُ من الناس، أهل زَمَانٍ واحِدٍ، وسُمّوا في اللُّغَةِ قَرْناً، لأنّهم اقْتَرَنُوا معاً في ذلك الزمان، وكلُّ أُمَّةٍ لرسُولٍ عاشُوا في زمانه هم قَرْنُه.

وجاء في كلام الرسول ﷺ، عن عمران بن حصين، قوله: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْني، ثُمَّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونهم. . .»[١].

---

(١) صحيح الجامع الصغير رقم ٣٢٩٤.

قَرْني: ، أي: أصحابي.

ثم الّذين يلونهم: أي: التابعون.

ثم الّذين يلُونهم، أي: تابعو التابعون.

والمراد المجموع العامُّ لا الجميع.

لفظ ﴿مِّن قَرْنٍ﴾ تمييزُ لبيان المبهم الّذي دلَّت عليه كلمة **[كم]** بأنّه ذو عدد كثير، أي: قُروناً ذواتَ عَدَدٍ كثير أهلكْنا من كُفَّارٍ سابقين كانوا في عزَّةٍ ضِدّ رُسُل رَبّهم، وفي شقاقٍ لهم.

والمراد بفعل: ﴿أَهْلَكْنَا﴾ قضينا أن يُهْلَكُوا انتصاراً لرُسُلنا والّذين آمنوا معهم، وأَمَرْنا بتنفيذ إهلاكهم في الأوقات المحدَّدة في القضاء، بدليل قول الله عزّ وجل في الآية: ﴿فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

أي: فَنَادَوْا حينَ رَأَوْا بوادِرَ مُهْلِكاتِهم مُقْبلةً شَطْر دِيَارهم، مستغيثين مُسْتَصْرِخينَ بهٰذا النداء، عَسَىٰ أن يَجِدوا مَنْ يُغيثهم ويُنْجدهم فيصْرِف عنْهم، أو يُساعدُهم على أنْ يَنُوصُوا، أي: أن يتَحرَّكوا فارّين عن منازل المهلكات.

[لات]: كلمة «لا» هي النافية، زيدَت عليها التاء لتأنيث اللفظ، أو للمبالغة وتأكيد النفي وهو الأرجح فيما أرى(١).

﴿مَنَاصٍ﴾، أي: ملجأ ـ مفرّ. مَهْرَب. تقول لغة: ناصَ الرَّجُلُ إذا تحرّك فاراً، وناصَ الفرَسُ، إذا رفع رأسه نافراً، ويقال: نَاصَ إلى الشيء إذا الْتَجى إليه.

---

(١) «لا» من «لات» يعمل عمل ليس بشرطين: كون معموليها اسْمَيْ زمان، وحذف أحد معموليها، والغالب أن يكون المحذوف اسْمَها كما في الآية هنا، والتقدير: وَلَاتَ الحينُ حينَ مناص.

ولكنَّ نجاتَهُمْ قد كان ميؤوساً منها، إذْ قَضَىٰ الله إهلاكهم، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: ولَيْسَ هذا الحينُ الذي نادوا فيه مستغيثين حين مناصٍ لهم.

والمعنى: أنّ هؤلاء القرون الّتي قضىٰ الله أن يهْلِكَهُم لم يكنْ لهم مفرٌّ أو مَهْرَبٌ أوْ مَلْجأٌ يلْجؤون إليه، ولا مُغِيثٌ يُغيثُهم، ويُساعِدُهم على النجاة.

إنّ قضاء الله لا مُنْجِيَ مِنه غيرُه جلَّ جلاله، ولا مَفَرَّ منْهُ ولا مَنْجَا ولا مَلْجأ، بل هو نافِذٌ لا مَحالة، وَتَحْقِيقاً لقضاء لله تمَّ تنفيذُ إهلاك المهْلَكينَ مِنْ كُفَّارِ القرون السَّابقة.

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾.

الحديث عن أئمة الكُفْر والشِّرْك في مكّة إبّان نُزُولِ السّورة، وقد سبق بيانُ موقفهم العَمليّ في الآية الثانية، وهو أنّهم في عِزَّةٍ وشقاق.

أما موقفُهم الفكري والإعلاميّ ضدّ الرسُول ودعوته فقد جاء في الآيات من (٤ ـ ٨).

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ﴾ هٰذه الجملة معطوفة على ما جاء في الآية الثانية من كونهمْ في عزَّةٍ وشقاق، أي: وصَلوا إلى حالة من هم في عزَّةٍ وشقاق في تَدْبيراتهم العملية، وعَجِبوا أنْ جاءهم مُنْذِرٌ مِنهم.

﴿وَعَجِبُوٓاْ﴾ الْعَجَبُ المراد هُنا هو اسْتِبْعادُ واستنكار أنْ يكون الرَّسول بشراً مِنهم، مع إطلاق التَّعْبِير عن تكذيب الرسول بعبارات التعجُّب والاستبعاد المشعر بأنّه مِنْ غير الممكن أن يكون رسُولُ الله بَشَراً من البشر.

وجاء التعبير عن الرَّسول بعبارة «مُنْذِر» لأنّ الرَّسول محمَّداً ﷺ قد بَلَّغَهُمْ، وبَيَّنَ لهم، وأقام لهم الحجج والبراهين، وقدّم لهم الآيات الباهرات، ووصَلَ في آخر الأمْرِ مَعَهم إلى مرحلة الإنذار بعذَاب الله، فهو في هٰذه المرحلة بالنسبة إلى المعنيّين في السُّورة مُنْذِر.

الإنْذَار: الإعلام بما هو مخوفٌ منه، ويتّقيه أُولُو الألباب. وموقفهم التعجُبيُّ هذا قد سَبَقَ بيانُه في صَدْرِ سُورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقول الله تعالى:

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ...﴿٢﴾﴾.

فدلّ قوله تعالى في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ...﴿٤﴾﴾.

على أنّهم ما زالوا مُصِرّين على مَوْقِفِهم الفكريّ السَّابق، وهو مُجَرَّدُ التعجُبِ والاسْتِغْرابِ، ولم يَسْتَطِيعُوا أنْ يُضيفوا حُجَّةً قابلةً للمناقشة والمناظرة، ومَعْلُومٌ بِالبَدِيهَةِ الْعَقْلِيَّة أنّ التعجُّبَ المجرَّدَ عن دليلٍ يَنْفِي وقُوعَ المتعجَّب منه، لا يصِحُّ الاعتماد عليه للنَّفْي والإنكار، إذا كان المتعجَّبُ منه من الممكِنَات العقلية، فكيف به إذا كان من مُقْتَضَياتِ الحكمة، ونظائِرُه ثابتةٌ في التاريخ، وآيَاتُ صدقه قاطعة.

﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾، أي: منذرٌ بَشَرٌ منهم.

- ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾.

كان مقتضىٰ الظاهر أنْ يُقال: وقَالُوا هذا ساحرٌ كذاب، لأنّ الحديث ما زال مقصوداً به أئمة الكفر والشّرك في مكة إبّان التنزيل، فاستعمال الضمير هو الملائم لمقتضىٰ الظاهر، ولكن خُولِفَ هذا المقتضى واسْتُخدِم الاسم الوصْفيُّ المنطبقُ عليهم وهو ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للدّلالة على أنّ الكُفر

العناديَّ الإداريَّ السَّاتِر لأدلّة الحقّ قد صار علامةً بارزة دالَّةً عليهم.

﴿هَٰذَا﴾ في استخدام الكافرين اسْمَ الإشارة «هذا» مراداً به رسولُ الله محمد ﷺ، ما يَدُلُّ على أنَّهم قد وصَلُوا إلى حالة الاستهانة به أمَامَ النَّاسِ، لدى الحديث عنه.

﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، **ساحِرٌ**: أي: بالنسبة إلى الآيات الباهرات الدّالاّت على صِدْق نُبُوَّتِه ورسالته. **كَذَّابٌ**: أي، بالنسبة إلىٰ مايُبَلّغه عن رَبّه.

ولا نَجِدُ بياناً صريحاً فيما نزَل قبل سورة (صٓ) قال فيه الكافرون عن الرَّسُول: «هذا ساحِرٌ كَذّابٌ» ولكن جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قولهم عن آية انشقاق القمر: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ وجاء في سُورة (المدثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) قول بعضهم عن القرآن ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، وجاء في سورتي (ق) و(القمر) بيان أنّهم كذّبوا، ولكِنَّ تكذِيبَهُمْ بمَضْمُون ما جاء به الرَّسُولُ لا يَلْزَمُ مِنْهُ حتماً أن يكونُوا قد اتَّهَمُوهُ جازِمين بأنّه ساحِرٌ كذَّابٌ، لاحتمال أنْ يكونُوا قد تَصَوَّرُوا أنَّ ما هو فيه ناتجٌ عن تَهيُئاتٍ خاصَّةٍ، أو بتأثير مَسٍّ من الجنّ.

فقولهم: «هٰذا ساحرٌ كذَّابٌ» موقِفٌ فكريٌّ مُضافٌ إلى مواقفهم السَّابقة.

● ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾.

﴿عُجَابٌ﴾، على وزه «فُعال» كلمة تستعمل فيما يُثيرُ أعظم التعجُّب والاستغراب، للإشعار بإنكار النفوس والأفكار له.

﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؟! استفهامٌ تعجُّبيٌّ إنْكاريُّ، أي: كيف ينفي محمّدٌ وجُودَ آلهة متعدّدة، ويَجْعَلُ العباداتِ كُلَّها في دَعْوتِه الجديدة مستَحَقّة لإلَهٍ واحدٍ لا شريك له؟! إنّ هذا الأمْرَ الّذي يَدّعِيه لشيءٌ يُتَعَجَّبُ منه أشَدَّ العجب!!

وهذا العنصر منْ عناصر مَوْقِفِهم الفِكْرِيّ في هذه المرحلَةِ لَمْ يُثْبتِ البيان القرآنيُّ فيما نزل قبْلَ سُورة (صٓ) أنّهم قَدْ صَرَّحوا به، فهو موقفٌ فِكْرِيٌ مُضَافٌ بصريح الْعبَارة، وهو على ما يظهر ممّا بزر في هذا الطور من أطوارهم تجاه الرسول ﷺ ودَعوته.

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧ أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا . . .﴾.

﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾، أي: ذهَبُوا مُسرِعين، الانْطِلاقُ الذهابُ بِسُرْعَة، لأنّ «انْطَلَقَ» مطاوع «أطْلَق» وأصل الإطلاق التحرير من القيد، ومن عادة المقيّد إذا أُطلق مِنْ قَيْدِه أنْ يذهب مسرعاً بعيداً عن المكان الذي كان مقيداً فيه.

الملأ: أشْرافُ الْقَوْمِ وسَرَاتُهم الّذِينَ يَمْلَؤُون عُيُون العامّة.

جاء في سبب النزول ما رواه الترمذيُّ وحسَّنه عن ابنِ عبَّاسٍ قال: مَرِضَ أبو طالبٍ، فجاءَتْهُ قُرَيشٌ، وجاءه النبيُّ ﷺ، وعند أبي طالبٍ مَجْلِسُ رجُلٍ، فقام أبو جَهْلٍ كي يمنَعَ النبيَّ ﷺ من أن يجلس، وشَكَوْه إلىٰ أبي طالب.

فقال: يا ابْنَ أخي، ما تُريد من قَوْمِكَ؟

قال: إنّي أُريدُ مِنْهُم كلمةً واحِدةً تَدينَ لَهُمْ بها الْعَربُ، وتُؤدِّي إليهم الْعَجَم الجزية.

قال: كَلِمةً واحدة!!

قال: يا عَمِّ، يقُولُوا: لا إلٰه إلا الله.

فقالوا: أإلهاً وحداً؟! ما سَمِعْنَا بِهٰذا في الملَّة الآخِرَة، إنْ هٰذا إلاّ اخْتِلاقٌ.

قال: فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ . . .﴾.

هذا الذي ورَدَ في سبب النزول يَدُلُّنا عَلَىٰ أنَّ مَلأَ قُريشٍ خَرَجُوا بَعْدَ عيادَةِ أبي طالب في داره مُنْطَلِقِينَ مُسْرِعين في خُطَواتهم، ويَدُلُّ أيضاً على أنّ أفكارهم قَدْ أخَذَتْ تتأثّر بدَعْوَةِ الرسول ﷺ إلى التَّوْحيد، لَكِنَّ نُفُوسَهُمْ أبَتْ ذَلِكَ، فانطَلَقُوا مُسْرِعينَ هُرُوباً مِنْ شَيْءٍ بَدَأَ يَتَسَلَّلُ إلى داخِلهم، وجعَلَ بعضُهم يُثَبّتُ بعضاً وهُمْ منطلقون.

لقد انْطَلَقَ هؤلاء الملأُ قائلين فيما بينهم متواصِين، وقائِلينَ لأتباعهم ومَنْ يتأثّرُ بهم: امْشُوا على تقاليدِ ملَّتِكُمْ، واصْبُرُوا علىٰ عبادَةِ آلِهَتِكُمُ المُتَعَدِّدَةِ، ولا تتأثَّرُوا بدَعْوَةِ التوحيد التي جاءكم بها محمد، فَتُزَحْزِحَكُمْ عن عقيدتكم في آلِهتكم، أمّا دَعْوَتُهُ إلى عبادة الله وحْدَه لا شريك له، وإنكارُه صِحَّةِ عبادة الأصنام، وادّعَاؤه بأنّها لا تَضُرُّ ولا تَنْفَعُ فهو شيءٌ يُريدُ به أغراضاً خاصّةً لنفسه، إذْ يَجْعَلُ نفسه بدَعْوَتِهِ الجديدَة هو السيِّد والقائِدَ وصاحب الأمر والنهي والسُّلْطانِ فيكم.

وقائلين أيضاً: مَا سَمِعْنا بهذا التوحيد الذي جاء به محمّد في الملَّة الآخرة، وهي النصرانية المثلّثة. وقائلين: إنْ هذا إلاَّ اختلاقٌ يفتريه محمّدٌ على الحقيقة، وقائلين على سبيل التعجُّب، وبأسلوب الاستفهام الإنكاريّ التعجُّيّ: أأُنْزِلَ عليه الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا؟!!

وتتخلَّص مَقُولاَتُهم الّتي قالُوها وهم منْطَلِقُون مُتَماسِكُونَ يُثَبّتُ بعضُهُمْ

بَعْضاً، على الصَّبْرِ على عقائِدِهم ومفهوماتهم الشركيّة، وعباداتهم لآلِهَتِهِم من الأوثان، بمقولاتٍ سِتٍّ مُفَصَّلاتٍ جاءت بَعْدَ «أنْ» التفسيرية في عبارة: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ﴾ أي: انْطَلَقُوا قائلين أقوالاً تَفْسيرُها فيمَا يلي:

المقولَةُ الأولىٰ: دلَّ عليها ﴿ٱمْشُواْ﴾، أي: امْشُوا على طريقة آبائِكُمْ وأجْدادِكُمْ، ومِلَّتِهِمْ من الشِّرْك، وما ورِثْتُموهُ عَنْهُمْ من مفهومات وأعمالٍ وتقاليد.

المقولة الثانية: دلَّ عليها: ﴿وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، أي: واثْبُتوا صابرين على عبادة آلهتكم، ولا تتأثَّرُوا بما جاء به محمَّد مِنْ دعوةٍ إلىٰ التوحيد، ومِنْ جدَليات تُبَيِّن أنّ آلهَتَنا لا تنفع ولا تضرُّ.

المقولة الثالثة: دَلَّ عليها: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾، أي: إنَّ هٰذا الذي يدْعوكم إليه محمّد من التوحيد، ونَبْذ عبادة الأصنام، ووجوب القيام بعبادة الله وحْده لا شريك له، لَشيءٌ يُرادُ لمصلحة خاصَّةٍ له، وليس لأنّه هو الحقُّ والصّدْق.

وأكَّدُوا مقولتهم هذه بمؤكّداتٍ ثلاثة: «إنّ ـ والجملة الاسمّية ـ ولام الابتداء المزحلقة إلى الخبر.

المقولة الرابعة: دلَّ عليها: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾، أي: ما سَمعنا بهذا التوحيد، وجَعْلِ الآلِهةِ إلٰهاً واحداً، في الملّة الآخرةِ من مِلَلِ أهْلِ الكتاب، وهي ملّةُ النصارى، إذْ كانُوا يَعْرِفُونَ أنَّ النصارىٰ مُثَلِّثون، يَعْبُدونَ الله ومريم وعيسى.

أمّا هم فيَرَوْنَ أنّهم على ملّة إسماعيل وإبراهيم، وهي من المِلَل الأولى.

وتَفْسِيرُ الملّة الآخرَةِ بالنَّصْرانيَّة مَرْوِيٌّ عن ابن عبَّاسٍ وأصحابه.

فملأُ مشركي مكّة يُحاوِلُون بهذا القول تثبيتَ أنفسهم على عقيدة الشرك وتَعدُّدِ الآلهة، وتحسين ما هم فيه قياساً على المشهور عندهم من عقيدة النصارى.

المقولة الخامسة: دلّ عليها: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾: ﴿إِنْ﴾ حرْف نفي مثل «ما». ﴿هَٰذَا ﴾، أي: التوحيد الذي جاء به محمّد.

﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾ **الاختِلاقُ**: افتِراء الكَذِبِ وتعمُّده.

أي: ما هذا الذي يَدَّعيه محمَّدٌ من أنه لا إلٰه إلا الله وحْدَه لا شريك له، إلاَّ اختلاقٌ يَخْتَلِقُه من عنده، أي: قولٌ يفتريه ويخترعه من عند نفسه.

المقولة السادسة: دلّ عليها: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾؟!!

أي: أيُعقَل أنْ يَخْتَارَ الله مُحمَّداً بخصوصه من دون كلّ عظماء قومه وحكمائهم، وأذكيائهم ومَلَئِهِم، فيُنْزِلَ عليه القرآن، الذي يُريد منّا أن نجعله ذِكراً نَذْكره آناً فآناً، وننتفع به دواماً؟!!.

إنّ هذا لأَمْرٌ مستنكرٌ وغير معقول، فمحمَّدٌ إذَنْ غَيْرُ صادقٍ في دعوته، وهو في بيانه الآسِرِ، وفي الآيات الّتي يأتي بها ساحرٌ، وهو في دعوته الّتي يَدْعُو إليها كذّاب.

وبالرُّجوع إلى ما نَزَلَ من قرآنٍ قبل سورة (صٓ) لا نَجِدُ أنّ كُفَّارَ مكَّة قد صرَّحوا بهذه المقولاتِ السّتّ من مَوْقِفِهم الفكريّ الّذي وَصَلُوا إليه في مَرْحَلَةِ نزول هذه السّورة، فهي من المقولات المضافة في بيَانِ موقِفِهم الفكري، ومن العناصر المضافة في البيان القرآنيّ عنهم، والله أعلم.

● قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿. . .بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾.

بعد بيان الموقف الحركيّ الماديّ لأئمة الشّرك والكفر في مكّة، والموقِفِ الفكريّ، في الطّور الّذي وصَلُوا إليه إبّانَ نُزول هذه السّورة، كان من الحكمة مُتابَعَةُ مُعالَجتِهِم بالإقناع وبالترهيب. وكان من الحكمة معالجة الرّسول ﷺ والذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، بأنّهُمْ سُيُواجِهُونَ مُضطَهِديهِم، ومُهَدِّديهم بالحرب، في معارك قتاليّة، وسيكونون هم المنتَصرين عليهم، وسَيَكُون هٰؤلاء الذين هم الآن في عزةٍ وشِقاقٍ هم المهْزُومِين والمغلوبين.

● قول الله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ أي: بل هُمْ في شكٍّ من القرآنِ الّذي أُنزِلُهُ علىٰ محمد، والّذي هو بيانيْ الذي يجب عليهم أن يذكُرُوه آناً فآناً، ليُحْيُوا في ذاكرتهم مطلوباتي منهم في رحلة امتحاني لهم.

يُشْعِرُ حرفُ ﴿بَلْ﴾ بمحذُوفٍ مطويٍّ في الكلام بين قولِه تعالى حكايةً لمقولَتِهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!!

وبين قوله تعالى في العلاج: ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ فما هو هذا المحذوف المطويُّ؟

جاء في صَدْرِ السّورة القسَمُ بالقرآنِ ذِي الذّكرِ على أنّ الرّسُولَ محمداً صادقٌ فيما يُبَلّغ عن ربّه، وفي هذا القسَم توجيهٌ لتدبُّر القرآنِ نفْسِه، دون النظر إلى مُبلّغِه، فهو بيانٌ عظيم يجب أنْ يُدْرَسَ ويُفْهَم بحَدّ ذاته، دون النظر إلى النبيّ المختار لإنزاله عليه، بسبب ما فيه من سمُوّ وكمالٍ وبيان مُعجز لا يَسْتطيع أنْ يأتي به ولا بمثلِه بشرٌ، وهذا كافٍ لأن يُؤسّس الاقتناع في الأفكار والقلوب الواعية، بأنّه ليْس كَلاَمَ بشر، وإنّما هو تنزيلٌ مِنْ لَدُن عزيز حكيم، ربّ السّماوات والأرض، وربّ كلّ شيء.

فلو أنّ الناسَ وَجَدُوهُ في صُنْدوق، أو في حفيرة، أو في جُبّ، أو في صحراء، أو في مغارة، أو علىٰ جَبَلٍ لكان عليهم بعدَ قِراءَته، وتدبُّر ما جاء فيه أن يُؤمِنوا بأنّه منزّلٌ من عند الله بوسيلة ما.

أما وسيلة التوصيل فغير ذاتِ أهميَّةٍ في الموضوع. أليسوا يفعلون كذلك فيمايستخرِجُونَه من كنوز، وفيما يَجِدُونَ من جواهر نفسية في أماكن محتقرة، أفيُهْمِلُونها ولا يعبؤون بها، إذا وجَدُوها في المقابر، أو في المستنقعات، أو نحو ذلِكَ؟!!

فكيف بهم إذا وجدوها في أماكنَ شريفة، أو قدّمها لَهُمْ كريم ذو خُلق عظيم، وفضائلَ شامخات؟!!

هذا الإقناع يُسْقِط عجبهم من أن يأتيهم منذرٌ بشرٌ منهم ويُسْقِطُ مقولتهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!! مستنكرين ذلك، لو شاءُوا أن يقتنِعُوا بالحقّ.

أي: فمالَهُمْ وللرَّسُول المصْطَفَىٰ الّذي اختير للنبُوَّةِ والرِّسالَةِ الخاتمة؟ لِيَنْظُروا فيما جاءهم به، ولْيَنْظُرُوا مُتَدَبِّرين هٰذا القرآن الّذي يُبَلِّغُهم إيّاه، فإنّهم إذا تَبَصَّرُوا به وتفهموا آياته بتدَبُّر، اقْتَنَعُوا بأنّه تنزيلٌ من رَبّ البشر وليس من كلام البشر، واقْتناعُهُمْ هٰذا يَهْدِيهِم إلىٰ أنَّ مُبَلِّغَهُ عن ربّه نبيُّ الله ورَسُوله حقاً.

لكنّهم ليسوا في التفكّر في معانيه ولا في مبانيه، وهو ذكري لهم، وهُمْ مُنْغَمِسُونَ في شَكٍ مِنْ كَوْنِه ذكْرِي، صارِفٍ لهم عن تَدَبُّرِه والتفكُّرِ فيه.

وليسوا مَعْذُورين في أن يَجْعلُو الشَّكَّ بأنّه ذكْرٌ مِنْ عنْد الله، لِعَوارِضَ خارجَةٍ عن جَوْهره، صارفاً لهم عن تدبُّره، وتفهُّم دلالاتِ آياته.

فَهَلْ من العَقْل أن يَرْفُضَ الإنسانُ كَنْزاً في صُنْدوق قدّمه إليه من لا يَراهُ أهْلاً لِحَمْلِ كَنْزٍ نَفِيسٍ ثمين؟!!

إنّ علَيْه أن ينْظُر بعَقْلٍ ورَوِيَّةٍ وحِكْمَةٍ فيما في الصُّندوق، وأن يتبصَّرَ

به، ثُمَّ يَحْكُمَ، وليس من العقل والفهم الصحيح في شيءٍ، أنْ يَرْفُضَ الصُّندوقَ ابتداءاً، وأمارات كوْنِهِ كنزاً عظيماً بادِيَةٌ عليه، لمُجَرَّدِ أنّه لم يُعْجِبْهُ حامِلُ الصندوق، ومُقَدِّمُه إليه، أو جاء هذا الحامل للصندوق على خلاف ما يُحِبُّ ويَهْوَىٰ، كأنْ كَانَ يَهْوَىٰ أنْ يكون حامل الصندوق مَلِكاً، أو أميراً، أو زعيماً، أو كبيراً من كبراء قَوْمه.

هٰذه المَعاني المطويَّة أغنىٰ عن التصريح بها، الْقَسَمُ بالقرآن ذي الذكر في صَدْر السورة، وقَوْلُ الله عزّ وجلّ في الآية (٨) ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى . . .﴾.

● قول الله تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾.

وقرأ يعقوب **[عذابي]** بإثبات يَاءِ المتكلّم في الوصل والوقف.

كلمةُ ﴿بَل﴾ في هذه الجملة تُشير أيضاً إلى كلامٍ مطويٍّ غَيْرِ مذكُورٍ في اللَّفظ، وبالتفكُّرِ والتَّدَبُّر نَسْتَطيعُ أن نُدْرِكَ معاني هذا المحذوف.

أي: وإنّ ما في ذِكْرِي وهو القرآن الذي يبلّغه رسولي محمّد، من إنذارِ لهم بعذابي، إذا لم يُؤْمِنُوا ولم يُسْلِمُوا ولم يكُفُّوا عن مقاومة رسولي ودعوته، واضطهادِ الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، كافٍ لإثَارَةِ مخاوِفِهم، فإيقاظهم من غَفَلاتِهم، وما هم فيه من مُلْهيات الحياةِ الدُّنيا، فَهَزّ نُفُوسِهِمْ، ونَفْضِ ما تراكم عليها من غاشيات، وتَوْجِيهِهِم لاستبصار الحقّ الذي يشتمل عليه ذكري.

لكنّهم في حَالَةٍ هُمْ مَعَها أعْنَدُ وأقْسَىٰ وأشدُّ من أنْ يكفِيهُمُ الإنذارُ الكلاميُّ، المؤيَّدُ بالشواهد الفكريَّةِ والأدلَّةِ التاريخيَّة مِنْ أحداث الماضي.

بل هم بحاجَةٍ إلى أكثر من ذلك، حتَّىٰ يَستَيقظُوا، وهذا الأكثر هو أن يَذُوقُوا بعض عذابي، وهو الأمر الَّذي تقضي الحكمة التربويّة بإذاقتهم إيّاهُ بَعْد زمَنٍ قريب، فهُمْ على مَقْرُبَةٍ من أن يَذُوقُوا عذابي.

هذه المعاني المطويّة أغنىٰ عن التصريح بها قول الله عزّ وجلّ ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾، أي: عذابي كما جاء في قراءة يعقوب. وهذا القول قد دلَّ على قضيتين.

القضية الأولى: أنّهم لم يَذُوقوا بَعْدُ عَذَابَ الله، وهم من الناس الّذين لا تكفيهم الإنذاراتُ الكلامية، المؤيَّدةُ بالشواهد التاريخية الدالَّةِ على سُنَّةِ الله في الأمم.

القضيةُ الثانية: أنّ زمنَ إنزالِ عذابِ الله فيهم قد صار وشيكاً قريباً، بحسَب مقتضىٰ الحكمة التربويّة، إذا لم يتداركوا أنفسهم بالتَّوبة والإيمان الصحيح الصادق، فَلْيَتَرَقَّبُوا عذابَ الله الذي سَيَنْزِل بهم بعْدَ حين ليس بالبعيد.

- فمعنى النفي في [لمّا] دَلَّ على القضية الأولى.
- ومعنى اقتراب وقوع المنفي بها دلَّ على القضية الثانية.

وكلمة [بل] أشارَتْ إلى المحذوفات المطويّاتِ الّتي يصلُ إلى إدراكها المتدبِّر المتأنّي الْبَاحِثُ في الْعُمق، تتبُّعاً للوازم الكفريّة، وما يقتضيه اللّفظ المصرَّحُ به من معانٍ لم يُصَرَّحْ بها.

إنّ التَّلويح باقتراب أيّام تعذيبهم، علاجٌ يلامِسُ مَحَاوِر الخَوْف في نفوس الّذين لَدَيْهِم ظنٌّ باحتمال كون ما جاء في الإنذار حَقاً وصِدْقاً، وهذا العلاج مِنْ شأنه أن يَهْدِمَ أوْهامَ العناد، ويُهيلَ رُكامَاتِ الإصْرار على التقاليد العمياء.

فالخوفُ في داخل النفوس من العوامل التي تهزُّها هزّاً عَنِيفاً، فتنْفُضُ عَنْهَا رَكاماتِ الْقَتَرِ والغبارِ والغِشَاوَاتِ، وتَجْلُو رُؤْيَتَها عسَىٰ أنْ تَسْتَبْصرَ الحقّ.

● قول الله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ۝٩﴾؟!!

﴿أَمۡ﴾ هنا بمعنى «بل» الدّالّة على الإضراب، منضماً إليه معنى الاستفهام، فيصير المعنى: بل أعندهم...؟

أي: بل، أعِنْدَهم خزائن رَحْمَة ربّك تفويضاً من قبله، فهُمْ يتصَرّفُون بها على ما يشاؤون، حتّىٰ يُعْطوا منها أو يُمْسِكُوا بِحَسَبِ أهوائهم، وهو جلّ جلاله وعَظُمَ سلطانه الْعَزِيزُ الْغَلاَّبُ، الذي لا يحتاج في كونه إلى أوصِياء على خزائن رحمته، ولا يحتاج إلى مُعِينينَ له في التصرّف فيها. وهو سبحانه الوهّاب، الذي يَهَبُ من خزائنِ رحمتِه بحَسَبِ حكْمَتِه، لا بحَسَبِ أهواء عباده؟!!

فأيُّ شأنٍ لهم في تصرُّفاتِ الله بخزائن رحمته، ومُنْها اصْطِفاءُ مَنْ يشاءُ من عباده لِرسالاته وَوَحْيِهِ؟!!

لقد كان علَيْهم أنْ يَعْرِفُوا حُدُود أنفسهم، فلا يقُولُوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾؟!! لكِنَّهم لَمْ يَفْعَلُوا بل كان منهم اعتراضُ مَنْ يتوَهَّمُ أنّه يملك الاقتراح على الله العزيز الوهاب، فيما يتصرَّفُ به من خزائِنِ رحمته، وهم في الواقع لا يملكون شيئاً من ذلك، لأنَّ الأمْرَ كُلَّه في الوجود كُلّه لله وحْدَهُ، جلَّتْ قُدْرَتُه وعظُمَ سلطانه، وهُمْ عَبِيده وخلْقٌ من خلقه، وهو بحكمته يفعل ما يشاء ويختار.

● قول الله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ۝١٠﴾.

أي: بل. ألَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ وَمَا بَيْنهما، حتّىٰ يكون من حقّهم أنْ يعْتَرِضُوا على الرَّبّ الخالِقِ فيما يَمْنَحُ منهما أو فيما يَمْنَعُ. أو أن يعْتَرِضوا عليه في اصطفائه من يشاء من عباده بالوحْي والرّسالة، وفي حَجْب ذلِكَ عَمَّنْ لا تقتضي حكْمَتُه مَنْحَه.

لقد كان عليهم أنْ يَعْرِفُوا حُدُود أنفسهم، فلا يعترضوا على اصطفاءاتِ الرَّبِّ، لكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

بل كان منهم اعتراضٌ يشبه اعتراض من له مُلْكُ السَّماوات والأرض وما بينهما.

وإنْ بلَغَ بِهِمْ الغرورُ إلى زَعْمِ أنّ لهم مُلْكَ السَّماوات والأرض، إذْ وجَدُوا أنّ الأسباب الّتي توصّلوا إليها باكتشافاتهم، ممّا سخَّر الله للنَّاس في كَونه، تُمَكِّنُهُمْ من اجتياز الفيافي والقفار، وعُبُورِ البحار، والصُّعُودِ إلى ما فوق السُّحُب، والوصول إلى بعض الأفلاك والأقمار ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أي: فلْيَسْتَخْدِمُوا الأسْباب المسخَّرَة لَهُمْ، على طريقة الارتقاء من سبَبٍ إلى سبب آخر فوقه، ثم إلى سبب آخر فوقهما، وهكذا تَسَلْسلاً مع الأسْباب ضمن سلَّم الأسباب الّتي جعَلَها الله لَهُمْ مُسَخَّراتٍ في كونه، فهل يستطيعون بعد رحلة الارتقاء في سلّم الأسباب حتّى آخر الدَّهر المقضيّ لحياةِ الناس، أن يُثْبِتُوا أنّ لهم مُلْكَ السَّمَاوَاتِ والأرض وما بينهما، دون أن يكونوا خاضعين لسُلطان رَبِّهم وَرَبِّ السّماوات والأرض وما بينهما ومالِكِ كُلّ شيءٍ ومَليكه، ودون أن يكونوا خاضعين لسُلطانِ قوانِينِه في عوالم الموجودات؟؟.

السبب عند أهل اللُّغة: كلُّ شيءٍ يتوصَّلُ به إلى مطلوبٍ ما كائناً ما كان.

وتدلُّنا عبارة: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ على قاعِدَةٍ كونيَّةٍ تعتمد عليها المبتكراتُ والمخترعاتُ الصناعيّة، وهي أنّ للأسْبابِ في الكون سُلَّماً ارتقائيّاً، وأنّ كُلَّ دَرَجَةٍ سببيَّة هي شرطٌ للارتقاء إلى الدَّرجَةِ السببيَّة التي فوقها.

وتدلُّنا هذه العبارة أيضاً على التوجيه الرّبّانيّ للأخذ بأسْبابِ الارتقاء

العلْميِّ والْعَمَلي الذي لا يتناهى، ما بَقِيتْ في الكون أبعادٌ يَطْمَحُ الإنْسان إلى اكتشافها، ومعرِفَةِ أسرارها وقواها، وما بقيت في الكون أسْبابٌ مُسَخَّرة له.

وهذه العبارة نفسها تُشْعِرُ ضِمْناً بما توصَّل إليه الناس في هذا الْعَصْرِ، من استخدام الأسباب التي سخَّرَها الله لهم، حتّى عرَفُوا كثيراً من طاقاتِ الكَوْن، واسْتَخدَموها لِنَسْفِ الجبال، واستخراج كثير من كنوز الأرض، وعُبُورِ الأجواء، والوصول إلى القمر وبعض الأفلاك، فهلْ تستطيع الدُّولُ العظمىٰ، المستخدمة لهذه الأسباب، أن تَدَّعي أنّ لها مُلْك السماوات والأرض وما بينهما، وتتمرَّدَ على قوانين الله وأنظمته في كونه، وأنْ تكونَ مشاركةً لله في رُبوبيَّته لكل شيء؟؟!

وهل تستطيع أن تفرض على الله اختياراتِها وأهواءَها، فيترك من أجلهم ما يشاء ويختار؟!!

ولو اتّبعَ الله الْمَلِكُ الحقّ أهواءَهُمْ لفسدت السموات والأرض، ومن فيهن، كما قال الله عزّ وجل في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ . . (٧١)﴾.

وبهذا تَمَّ الحصار الفكريُّ لمكَذِّبي الرسُولِ في دفع مقولتهم الفاسدة، بشأن محمّد ﷺ: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟!!

فقد تضمّن هذا الحصارُ الفكريُّ التَّنبيه على أنّ الاصطفاء بالنبّوة والرّسالة، لا يَخْضَع لأهواء الناس ومفهوماتهم الطَّبَقِيَّة، بلْ إنّ الله عزّ وجلّ يصطفي بحكمته لرسالته من يشاء من عباده، وهُوَ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه أعْلَمُ بعباده، وأعلم بمَنْ يصْلُحُ منْهُمْ لذلك.

فاستنكافُ كُبَراء كفار مكّة عن الإيمان بِنُبُوَّة محمّد ورسالته، على الرُّغم من وجود الآيات الباهرات الدّالاّت عليهما، واستنكارهم أن

يَصْطَفيَهُ الله من بينهم، فيجعَلَه نبيّاً ورسولاً، ويُنَزِّلَ عليه الذِّكرَ، ولا يختار عظيماً من عظمائهم لهذه المهمَّة العظيمة، واقتراحُهم أن يكون النبيُّ الرسُول المختارُ رجلاً من عظماء رجالهم، إنّما هو تَدَخُّلٌ منهم في خصائص رُبوبيّة الله في مُلْكِهِ، وفي تصَرُّفاتِهِ في خلقه، الّتي يتصَرَّفُها بمقتضى حكمته المقتَرِنَة بعلمه الشامِلِ كُلَّ شيء.

والله جلَّ جلاله وعظُمَ سلطانُه، لم يجْعَلْ خزائِنَ رحْمَتِهِ الّتي يمْنَحُ مِنْها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عباده، ما يشاء بحسَب حكمته وعلمه بهم تَحْتَ تَصَرُّفِ أحَدٍ مِنْ عباده، ولَوْ كَانَ مَلَكاً مُقَرَّباً، فكيف بهؤلاء المعْتَرِضينَ أصحابِ الأهواء؟! كيف تكونُ لهم مُقْتَرَحاتٌ مقبولاتٌ لدى العليم الحكيم العزيز في اختيار من يُعْطي من رحمته، ومَنْ يُسمِكُ عَنْهُ فلا يُعطِيه.

وعلى طريقَةِ الحصَارِ الفكريّ حوْلَ هذا الاعتراض بالذَّاتِ أبان الله عزّ وجلّ لهم أنّ هذا الاعتراض يمكن أن يكون مقبولاً في إحدى حالتين.

الحالة الأولى: أنْ يُوجِّهَهُ مُفَوَّضٌ بالتَّصَرُّف، ومَنْ له حقُّ الاعتراض، وقد جاء إسْقاط احْتِمالِ التَّفْويض بالتصرّف، واحتمال أن يكون لهم حقّ الاعتراض، في قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾ وقد سبق شرح هذه الآية.

الحالة الثانية: أن يُوجّهَهُ مَنْ له مُلْكُ السَّماواتِ والأرْض وَما بينهما، فإن كانُوا يَزْعُمُونَ أنَّ لهم مُلْكَ السَّماواتِ والأرضِ وما بينهما، فليقوموا بِعَملٍ ما يُثْبِتُونَ به أنّهم يملكون ذلِكَ بحقّ، لكنّهم لا يستطيعون مع تسخير الأسباب لَهُم، وقد جاء إسْقاط هذا الاحتمال في قول الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾ وقد سبق شرح هذه الآية. وسبق بيان أنهم لا يستطيعون أن يخالفوا قوانينَ الرَّبّ الخالِقِ في كونه، فهو الحاكم عليهم بقوانينه فيما سخَّر لَهُمْ، وأمْرُهُ وسُلْطانُه في المسخَّرَاتِ هو النافذ، وقُوَّتُه هي القَاهِرة الغَلاَّبَة.

● قول الله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ جاء في صدر هذه السّورة بيان أنّ الذين كفرُوا (أي: كبراؤهم وأئمّتُهم) في مكّة قد وصلوا إلى طَوْرِ الّذين هم في عزّة وشقاق، أي: في استشعارهم بأنّهم القوّة الغالبة تجاه بدء تكاثر أعداد الذين يُؤمِنُون بالرسول ويتّبعونه، وفي تهيُّؤ نفوسهم للقمْعِ قبل أن يصِلَ المسلمون بالتنامي والتكاثر إلىٰ أن يكونوا هم أصحاب القوّة الغالبة.

واقتضى هذا البيان علاجَ الذين كَفَروا، بالتّلْويح بأنّهم إذا تفاقم أمْرُهم نَزَل الله عزّ وجلّ بهم إهلاكًا عامّاً شاملاً، كما أهْلَكَ أقواماً سابقين استحقوا الإهلاك بكفرهم، ومقاوماتهم لدعوات رُسُل ربّهم، فقال الله عزّ وجلّ في هذا العلاج:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾.

وقد سبق شرح هذا العلاج.

واقتضىٰ هذا البيان أيضاً عِلاجَ الرّسُول والّذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، بما يطْمَئِن قُلُوبَهُمْ بأنّهُمْ هُمُ المنصُورون، وبأنّ الذين هم اليوم في عِزَّةٍ وشقاق هُمُ المهزومون المغلوبون، حين يحين وقت المواجهة القتاليّة بين الفريقين، فقال عزّ وجل: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ فكان هذا وَعْداً وبشارةً من الله جلّ جلالُه للرّسُول واللذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، بانتصارهم على هؤلاء الذين كَفَرُوا، والذين هُمُ اليوْمَ في عزّةٍ وشقاقٍ تُجاهَهم.

وفي هذه الآية تَعْيينٌ للأمر الّذي يَتِمُّ به تأييدُ الله لأوليائه، وخَذْلُه لأعدائه، فهِيَ مَعارِكُ في مُواجَهاتٍ قتاليّة، يتحقّقُ فيها نَصْرُ الله للرسُول والمؤمنين معه، ويتحقّقُ فيها خَذْلُ الله للّذين هم اليوْمَ في عِزَّةٍ وشقاق. وهَزِيمَتُهم وانْكِسارُهم أمام المؤمنين الّذين يَرَوْنَهم في قِلّةٍ وَذِلَّة.

وقبل سورة (صٓ) جاء في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بيَانُ

أنّ هٰؤلاء الّذين هم في عزَّةٍ وشقاق صاروا يقولون، «نَحْنُ جميع مُنْتَصِرٌ» فقال تعالى فيها:

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقد سبق شرح هذا النصّ لدى تدبُّر سُورَةِ (القمر).

والوعْدُ بنَصْرِ المؤمنين وهزيمة الّذين هم اليوم فِي عزَّة وشقاق، في قول الله تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾ قدْ جاء بأسْلُوبٍ رَمْزِيٍّ عامّ، يفْهَمُهُ الرّسولُ ﷺ، ويَفْهَمُهُ أهْلُ الْفَطَانَةِ، والذّكاء والألمعيّة من المؤمنين.

﴿جُندٌ مَّا﴾ صيغة مبهمةٌ عامّةٌ، صالحةٌ لأنْ تَنْطَبِقَ على ذوي العزّةِ والشقاق، وعلى غيرهم.

جُنْد: اسم جنْسٍ جَمْعِيّ يُفرِّقُ بينه وبين واحِدِهِ بالياء، فواحده: جنْدِيّ، واسم الجنس الجمعيّ يطْلَقُ على القليل والكثير، ويجوز في نعته التذكير والتأنيث. **والجُنْدُ** العسكر.

[ما] هذه في عبارة «جُنْدٌ ما» وأشباهها تُسمّى عند النحاة: «ما الإبْهاميّة» وهي الّتي إذا اقترنَتْ باسْمِ نكرةٍ زادَتْهُ إبْهاماً وشيوعاً. وهذا الإبهام هو المسوّغ للابتداء بالنكرة.

«جُنْدٌ ما» مبتدأ «مَهْزُومٌ» خَبَره.

﴿هُنَالِكَ﴾ في هذه العبارة إشارةٌ إلى المكان الذي سَيُهْزَمُ فيه جنْدُ الذين كفروا والذين هم في عزّةٍ وشقاق، فهو مكان بعيدٌ عن مكان نزول النصّ في مكة، لاستعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، فاللاّم في «هُنَالِك» للبُعْد، والكاف لخطاب الرّسول، وخطابِ كُلّ مُؤمِنٍ يُدْرِكُ رَمْزَ الخطاب، ومَضْمُونَ الوعْدِ المطَمْئن، على سبيل الخطاب الإفراديّ.

﴿مَهۡزُومٞ﴾ اسمُ مفعول من فعل «هزم» الْعَدُوَّ، إذا كَسَرَ شَوْكته وانْتَصَرَ عليه. واسْمُ المفعول يدُلُّ على ما يدلُّ عَلَيْهِ الْفِعل المضارعُ المبنيُّ لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، إذْ قد يَدُلُّ على الحال، وقد يَدُلُّ على الاستقبال، والقرينَةُ هي التي تكشف المراد.

وقد تحقَّق فيما بَعْدُ انهِزَامُ جُنْدِ كُفَّارِ قُريش، في غزوة بَدْرٍ الكبرى، ثم في غَزْوَةِ الأحزاب، ثمّ في فتح مكة.

وهذا الخبر من مُعْجِزات القرآن الخبرية، الّتي أخبر الله عز وجلّ عنها فيه، وتحقَّقَتْ كما جاء في خبره.

﴿مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، أي: من أحزاب الكفر ذوي المذاهب المتفرّقة، والتكتُّلات المختَلِفَات، بخلاف المؤمنين بالله ورُسُلِه وكُتُبه، وبما جاءهم من عند الله على لسان رُسُله فهُمْ جميعاً حِزْبُ الله عَبْرَ تارِيخِ البَشريَّة، ولَيْسُوا بأحزاب، وهُمْ جميعاً أمّةٌ واحدة، وليسوا بأُمم مختلفة، كما قال الله عزَّ وجلَّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

فالأمَّة الرّبّانيّة حزبُ الله على صراطٍ واحدٍ هو صراط الله المستقيم، من عَهْدِ آدم إلى أن تقوم الساعة.

والّذين كَفَرُوا برُسل الله أو ببعضهم أَوْ ببَعْضِ ما جاءوا به عن ربّهم، هم أحْزابٌ شَتَّى متفرّقة، تجرُّهم أسبابٌ متعدّدة موصولة جميعها بالشيطان، فكلٌّ منها يَصِحُّ أن يقال فيه: هو من حزب الشيطان، على الرُّغمِ من اختلافه مع سائر الأحزاب المتعادية فيما بينها، والّتي هي في الواقع أحزابٌ متفرّقة، فالشيطانُ له مناهج وسُبُلٌ ضالة متباينة، وليس له صراط واحد، لكن كلّ سبُله ومناهجه توصل إلى الجحيم يوم الدين.

● وكون الّذين كفروا أحزاباً لا حِزْباً واحداً، من القضايا التي دلّتْ عليها بيانات قرآنيّةٌ مُتعدِّدة، فمنها ما يلي:

١ ـ ففي سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) التي نتدبَّرُها ذكَرَ الله عزّ وجلّ قوْمُ نوحٍ وعاداً وفِرْعَوْنَ ذَا الأوتاد وثمودَ وقومَ لوط وأصحاب الأيكة، وقال بشأنهم ﴿...أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ۝ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾، أي: أولئك الأحزاب من الكفّار المكذّبين الّذين واجهوا رُسُل ربهم فيما مضى بالتّصدي للقمع بالقوة الماديّة المسلّحة، واستعمل اسم الإشارة الخاص بالبعيدين لبُعد زمانهم، ولبعد منزلتهم في اتجاه الدرك الأسفل من النار.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: ما كلُّ حزب منهم إلاّ هو حزبٌ كذّب الرُّسل، أي كذّب رسُولَه وكذّبَ سائرَ الرُّسل، فجرَّه تكذيبه إلى قبائح وشرور وفساد في الأرض أدّت إلى إهلاكه[1].

٢ ـ وفي سورة (مريم/١٩ مصحف/٤٤ نزول) ذكر الله عزّ وجلّ الّذين كَفرُوا بعِيسىٰ عليه السلام، ولم يُؤْمِنُوا بأنه عبْدُ الله ورسوله، فقال فيها بشأنهم:

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

٣ ـ وفي سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول) ذكر الله عزَّ وجلّ رسولَهُ محمّداً ﷺ بأنّهُ علىٰ بيِّنَةٍ من ربّه، وبأنّهُ يَتْلُوهُ شاهدٌ مِنْ ربّهِ، هو القرآنُ المُعْجِزُ الذي يشْهَدُ لَهُ بأنّه رسُولُ الله حقّاً وصِدْقاً، وبَعْدَ هذا قال الله تعالى:

---

(١) الذي ظهر لي في الإعراب هو ما يلي: «أولئك» مبتدأ «الأحزابُ» بدَلٌ منه، وجملة «إنْ كلٌّ إلاّ كذّبَ الرُّسل» خبرُ المبتدأ. وبهذا نَتَفَادَىٰ تأويلاَتٍ ذكرها بعض أهل التأويل، وهي لا دَاعِيَ لها.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ . . . ﴿١٧﴾﴾.

٤ ـ وفي سورة (غافر/٤٠ مصحف/٦٠ نزول) ذكر الله عزَّ وجلَّ الّذين كَفَروا بمُحَمَّدٍ وبما جاء به عن ربّه، وقال بَعْد ذلك:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

ولـمّا كانت الأمّة الرَّبَّانِيَّةُ أمّةً واحِدَةً وإنْ كانت أتباعَ رُسُلِ الله متَعدِّدين، كان لا بُدَّ أنْ يَكُونَ صِراطُها واحداً، أمّا مِلَلُ الكُفْر، فهم أُمَمٌ، وهُمْ يَتْبَعُونَ سُبُلاً مُتَفرِّقَةً متضادّة، وقد أبَانَ الله عزّ وجلّ هذا الواقع في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بقوله:

﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

● قول الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

وقرأ يعقوبُ: [عِقَابِي] بإثباتِ ياء المتكلِّم في الوصل والوقف.

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: أي: فثبت ووقع عقابي لهم حتى صارَ أمراً واقعاً حقّاً، لأنهم استحقوه.

﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي: وفرعَوْنُ صاحبُ المباني العظيمة التي تشبه الْجبَال، وتُعْرفُ هٰذِهِ في مصر بالأهرامات. وقد وصَفَ الله الجبال بأنّها أوتاد، أي: بمثابة الأوتاد المثبّتة لبيوت الشعر، إذ هي منغمسة في الأرض ومُثَبِّتَةٌ قشرَتَها حتّى لا تميد بمَنْ عليها.

أو وفرعَوْنُ صاحب الملك القويّ الثّابِتِ، شبِّهَتْ أسباب تثبيت ملكه بالأوتاد.

الوتد: هو عودٌ قويٌ يُدَقُّ أكثَرُ من نصفه في أرض متراصَّة، ثُمَّ يُرْبَطُ بما بَقِي منه فوق الأرض حَبْلٌ من حبال بيت الشَّعر، أو مِقْوَدُ الفرس، أو غيرُ ذلك لتثبيت المربوط به.

واستُعِيرَ لَفظُ «الأوتاد» للجبالِ، ولِلْمَبَاني العظيمة، ولوسائل القوَّة الّتي يُثَبِّتُ بها الملوكُ مُلْكَهُمْ، وأصْحابُ السلطان سلطانهم.

وذُكِرَ فرعَوْنُ دُونَ أركان مُلْكه، وجُنودِه، وسائرِ قومه، لأنّه كان صاحب الكلمة النافذة فيهم جميعاً، دون معارض، الأمر الذي جعله يقول لكبراء مملكته: ما علمت لكُمْ من إلَهٍ غيري، كما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى . . . ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: الأيْكَةُ الشَّجَرُ الكثيف الملتفُّ، ويخفَّفُ اللّفظ فيقال فيه: «لَيْكة» وأصحاب الأيكة هم مَدْيَن» قوم النبيّ الرسول شُعَيْبٍ عليه السلام، وهل الأيكَةُ اسم غيضتهم أو اسم قريتهم؟ احتمالان أوردهما المفسرون. وقد تكون قريتُهم قد سُميّت باسم غَيْضَتِهم، والله أعلم.

والحديث عن هؤلاء الأقوام الّذِين جاءوا في هذا النصّ، قد سبق لدى تدبُّر السُّوَرِ التي جاء فيها ذكرهم.

فقد سبق فيما نزل من القرآن قبل سورة (صَ) توجيه أنظار الذين كفَرُوا للاعتبار بما جرى لقوْم نوحٍ وعادٍ وفِرْعَوْنَ ذي الأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكَة من إهلاكِ الله لهم بسبب كفرهم.

ولكِنَّ توجيه الأنظار للاعتبار بِمَا جَرَىٰ لهُمْ للاتّعاظ بهم قد جاء في مُناسباتٍ مختلفات، وفي مَعارضِ أَنْواعٍ من كفْرِهِمْ وسوء أعمالهم.

● ففي سورة (قَ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) جاء توجيه الأنظار

لإهلاكهم بغية الاعتبار بهم، في معرض تكذيب كفّار مكة بالبعث ليوم الدين، يَوْمِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء.

وهذا الصنيع البيانيُّ يدُلُّ علىٰ أنّ هؤلاء الأقوام كذّبوا بالبعث ليوم الدين، فجرّهم هذا التكذيب إلى أعمال كفريّة شَنِيعةٍ، كان من نتائجها عقابُ الله المعجّل لهم بالإهلاك العامّ الشّامل.

● وفي سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) جاء أيضاً توجيه الأنظار لإهلاكهم مع بعض تفصيل لأقوالهم وأعمالهم، بغية الاعتبار بهم، في معرض تكذيب كفّار مكّة للرسول محمد ﷺ، وعدم الإيمان بنبوّته ورسالته، وجاء في تفصيلات توجيه الأنظار للاعتبار بقصص هؤلاء المهلكين الأوَّلِين، أنَّهم كذّبوا رُسُلَ ربّهم، فوقع علَيْهم ما أُنْذِرُوا به.

فدلَّ هذا الصّنيع البيانيُّ. على أنّ هؤلاء الأقوام كذّبوا رُسُلَ رَبّهم، فجرّهم ذلك إلى أعْمالٍ كفريَّةٍ شَنِيعة، كان من نتائجها عقاب الله المعجّل بالإهلاك العامّ الشامل، ونزل بهم ما أنذرهم به.

● وفي سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) الّتي نتدبَّرها، جاء أيضاً توجيه الأنظار لإهلاكهم بصورة مجملة، في معرض بيان أن كفّار مكة قد وصَلُوا إلى طور ذي عزّة وشقاق، طور الواقف من الرسول ودعوته والذين آمنوا به واتّبعوه موقف المعتزّ بقوّتِه، المهدِّدِ بالقمع المسلّح.

فدلَّ هذا الصنيع البياني على أنّ هؤلاء الأقوام قد وصَلُوا مع رُسُلِهم إلى طَوْرِ ذي عزّةِ وشقاقٍ، وتصَدٍّ لقمع الرسُل وإسكاتِ دعوتهم بالقوّة المادّية المسلّحة، فأنزل الله بهم عقابه، فأهلكهم، وأنْجَىٰ رُسُلَه والذين آمنوا معهم، من كيد الكافرين وسلطانهم القويّ الغالب.

وهنا أقول: إنّ القصّة الواحدةَ يُؤْتَىٰ بها للاعتبار والاتعاظ، بمناسبة موضوع مُعَيّن، ويُؤْتَىٰ بها للاعتبار والاتعاظ بمناسبة موضُوع آخر، ثم يؤتى بها للاعتبار والاتعاظ بمناسبة موضوع ثالث، وهكذا.

ومع ذلك نجدُ في توجيه الأنظار للاعتبار والاتعاظ بقصص الأوّلين في القرآن تَكَامُلاً في عناصرها، لا تكراراً متطابقاً، ففي كلِّ مرّةٍ نجد تَغْييراتٍ وإضافاتٍ، فإذا نظرنا إليها متدبّرين نظرة كليّةً جامعة، وجدناها فيما بيْنَها متكاملات غير مكَرَّراتٍ تكريراً تطابقيّاً.

● قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾. وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف: **[مَا لَها مِنْ فُوَاقٍ]** بضم الفاء، وهما لُغتان عربيتان للكلمة.

﴿وَمَا يَنظُرُ﴾: أي: وما ينتظر. يقالُ لغة: نظَرَ فلانٌ الشّيْءَ، أي: انتظَرَه، وفي المثل: «وَإِنَّ غداً لِنَاظِرِه قَريب» أي: لمنتظره.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: المعنيون من كفّار قريش الذّين وصلوا إلى طور مَنْ هم في عزّةٍ وشقاق.

﴿إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: صيحة واحدة تُهْلِكُهُمْ، كالصّيحَةِ الّتي أهْلَكَتْ ثمودَ، للْمُقَارِبَةِ بين حالهم وحال ثمود، الذينَ طلبوا آية النّاقَة، فبعثها الله على وفق ما طلبوا، فلم يُؤْمِنُوا، ثم عقروا الناقة، فأهلكَهُمُ الله بالصَّيْحة وهؤلاء طلبوا آيَةً حسّيَّة، فأجرى الله لرسوله آيَةَ انْشِقَاق القمر، فزعموا أنَّها عمل من أعمال السّحر، وأصَرّوا على كفرهم، فأوشكوا أن يَسْتَحِقُّوا إرسال الصيحة المهلكة المماثلة للصيحة الّتي أهلك الله بها ثموداً.

﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ الْفَوَاقُ، والْفُواقُ، بفتح الفاء وضمّها، الْمُهْلَة، أي: ما ينتظر هؤلاء إذا كانوا ينتظرون شيئاً من ربّهم، مُقَابِلَ إصرارهم على كفرهم وعنادِهم، ووقوفهم من الرّسُولِ والمؤمنين موقف ذي عزّةٍ وشقاق، إلاّ صيحةً واحِدَةً تُهْلِكُهُمْ، ولس لهذه الصيحة مُهْلَة، بين انطلاقها وإهلاكهم.

ويُطْلَقُ الفَواق والْفُواق على الوقت بين قبضتي الْحَالب للضَّرْع، وعلىٰ

ما يأخُذُ المحتَضَرَ عنْد النَّزْع، وكلّ المعاني ترجع بالتأويل إلى أنَّ صيحة الإهلال تَأْخُذُهم أَخْذَةً واحدةً كَقَبْضَةِ الحالب للضّرْع، وهذه القبضة ليس لها فواق بعدها، فهي صيحة مهلكة بزَمَنٍ يَسِير جدّاً.

● قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾:

إنّ هؤلاء المعنيّين في السورة قَدْ كذَّبُوا الرَّسُول، وكذَّبُوا بما جاء به عن ربّه، وكذّبوا بنَبَأ يوم الدّين، وكذّبُوا بالنُّذُر المعجلة.

قيل: وقد طَلَبُوا على سَبِيل الاستخفاف بالنُّذُر المعَجَّلة، استعجال ما أُنْذِرُوا به مِنْ عقابٍ في الدنيا، كالعقاب الذي أنزله الله عزّ وجلّ بالمهلَكِين الأوّلين، فقالوا أمام الرَّسُولِ وبعض المؤمنين: «رَبَّنَا عَجِّلْ لَنا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَاب» قالوا هذا القول على سبيل الاسْتِخْفَافِ والتحدّي للرَّسُول، وهم في الحقيقة لا يسألونَ الله أن يُنَزِّلَ بهم عقابه، ولكنّهم يَرَوْن كذِبَ الرَّسُول ويتحدَّوْنه، فقالوا مقالتهم هذه تعبيراً عن تكذيبهم، وتحدِّيهم للرسول.

القِطُّ في اللّغة: النصيب، وأصله الصَّكُّ الّذي تكْتَبُ به الجوائز والأَرْزاق، وكان يكتب على قطعة من الجِلْدِ قُطَّتْ من جلْدٍ كبير.

فهم يستعجلون نصيبهم من العذاب تكذيباً واستخفافاً، ويتوهَّمُونَ أنَّ ما سيأتيهم من الله إنّما هي جَوَائِزُ وأرْزاقٌ، لا عَذابٌ وعقابٌ كما يُنْذِرُهم الرّسول.

وربّما يكون المراد أنّهم يسألونَ ربَّهُمْ أَنْ يُعْطِيَهُمْ كُلَّ حظوظهم في الدنيا، على اعتبار أنَّهم يكَذِّبُون بأنباء يوم الحساب، وبهذا قال جماعة من أهل التأويل، ورجَّحَهُ ابْنُ جرير الطبري. والله أعلم.

❁ ❁ ❁

(٦)
التدبر التحليلي للدرس الثاني من دروس السورة
وهو الآيات من (١٧ ـ ٤٨)

وتضمّن هذا الدرس معالجة الرسول محمّد ﷺ وتخييره بين نماذج من الرُسل، فما يختارُ من نموذجٍ يُيَسِّرُه الله له، ويَبْتَلِيهِ من خلاله، وفيه بعض بيانات علاجية للكافرين.

وقد قسَّمْتُ هذا الدَّرْس إلى خَمْس فقرات:

الفقرة الأولى: تتعلق بأمر الرسول محمد ﷺ بالصبر، وَعرض بعض قصة داود عليه السلام، وما جَرَىٰ له من امتحان، ومَا وصَّاه الله به بعد أنْ غفر لَهُ وجعلَهُ خليفةً في الأرض، مع ملحقات نافعاتٍ، ولها صلة بما جاء في الدرس الأول، وفيها بيانٌ للرسول محمد ﷺ.

وهي الآيات من (١٧ ـ ٢٩).

الفقرة الثانية: فيها عرض بعض قصَّةِ سليمان، وما جرى له من امتحان، وما وهبه الله من مُلْكٍ لا ينْبَغِي لأحد من بعده، بعد أن غفر له.

وهي الآيات من (٣٠ ـ ٤٠).

الفقرة الثالثة: فيها عَرْض بَعْضِ قصَّةِ أيّوب عليه السلام، وما ابتلاه الله به، ثم رفَعَ عَنْه البلاء برَحْمَتِه، وأثنىٰ عليه بالصَّبْر وبأنَّه أوَّاب.

وهي الآيات من (٤١ ـ ٤٤).

الفقرة الرّابعة: فيها الثناء العظيم، والتقويمُ الرَّفيع لإبْرَاهيم وإسْحٰق ويعقوب عليهم السلام، وفيها تَوْجِيهٌ ضمنِيٌّ للرسول محمدٌ ﷺ أن يختار لنفسه الاقتداء بهٰؤلاء الرُسل، بعيداً عن الْمُلْكِ والْغِنَى. وهي الآيات من (٤٥ ـ ٤٧).

الفقرة الخامسة: فيها الثناء على إسماعيل واليسع وذي الكفل عليه السلام بأنهم من الأخيار. وهي الآية (٤٨).

أوّلاً

التدبر التحليلي للفقرة الأولى من الدرس الثاني من دروس السورة وهي الآيات من (١٧ - ٢٩)

قال الله عزَّ وجل خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ
مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ
الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ
دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ
وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ
فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ
الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا
فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ
﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ
﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ
كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٩﴾﴾.

تمهيد:

في هذه الفِقْرة يأمُرُ اللَّهُ عزّ وجلّ رسُولَهُ بالصَّبْر، ويَعْرِضُ عليْه فيها، نموذَجَ مَلِكٍ رسُولٍ هُوَ دَاوُد عليه السلام، وما تَعرَّضَ لَهُ خلال سُلْطَانِ مُلْكِهِ من فِتْنَةٍ وابْتِلاءٍ، مع بَيَانِ التَّقْويم الرَّبَّانِيّ الّذي وضعه اللَّهُ له، وجعله فيه على درجة من دَرَجَاتِ المحسنين، فوصَفَهُ بأنّه أوَّابٌ، وقال بشأنه: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

وفي هذه الفقرة يُبيّنِ اللّهُ عزّ وجَلَّ أنّه جعَلَ داوُد خليفة في الأرضِ لِمَلِكٍ قَبْلَه، وخلافَتُه هٰذِه خلافَةٌ دينيةٌ مُعَانَةٌ، وأوصاه في خلافته بوصايا.

وفي هذه الفقرة بيانُ حِكْمَةِ الجزاءِ يوم الدّين، بعد الحساب وفصل القضاء، وبَيانُ أنّه ليس من الحكمة التسوية بين المصلحين والمفسدين، ولا بين المتقين والفجّار.

وختم الله هٰذه الفقرة ببيانٍ مُوَجَّهٍ للرَّسُول بصريحِ الخطاب، بشأن القرآن ذِي الذكر، وأبانَ لَهُ أنه كتابٌ مُبارَكٌ ليتَدبَّر الناس آياته، وليتَذَكَّرَ مَا فِيهِ أولُوا الألباب فَيَعْمَلُوا بأوامره ونواهيه ووصاياه، ويَبْتَغُوا رِضْوانَ الله وجناتِ النعيم الخالد يوم الدين، في دَارِ كَرَامَةِ ربّ العالمين.

● قول الله تعالى لرسوله محمّد ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾:

جاء في الدرس الأوّل من دروس السورة، بيانُ أنّ كُبَراءَ الّذين كفروا في مكّةَ اتَّهَمُوا الرسُول بأنَّهُ سَاحِرٌ كذَّابٌ، وبأنَّهُ ذو مصْلَحةٍ شخصِيَّةٍ مِنْ دَعْوَته، كَرَغْبَةِ الملْكِ وُحبّ السُّلطان والْعُلُوّ في ٱلأَرْض، وَبأَنَّ مَا جاء به من دَعْوَةِ التَّوحيد هو من افتراءاته الّتي اختلقها بدليل أنّ الملَّةَ النصرانيَّة الّتي وصَلَتْ إليهم تَحْرِيفَاتُهَا قائمةٌ على التثليث لاَ التوحيد، وزَعَمُوا أنَّهُ غَيْرُ مؤهَّلٍ بحسَب وَضْعِهِ الاجتماعيّ في قَوْمِهِ لأَنْ يصْطفِيَه اللّهُ من بيْنِ قَوْمِهِ بالنُّبُوّة والرِّسَالة، فَيُنْزِلَ عليه القرآن الّذي يجب على الناس أن يجعلوه ذِكْراً لهم.

فأَمَرَ اللّهُ رَسُولَهُ بأنْ يصْبِرَ على ما يقولُونَ بشأنه، فلا يغْضَبَ ولا ينفعلَ ولا يَثُور، ولا يقابلَ شتائمهم بشتائم مُضَادّة، بل يُواجِهُهم بالْحِلْم والتغاضي، ومتابعة ما هو فيه من تبليغ رسالته للناس، والدَّعْوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالّتي هي أَحْسَن.

واستعمال الفعل المضارع: ﴿يَقُولُونَ﴾ يَدُلُّ على أنها أقوالٌ يكرّرُونها إعلامياً للصدّ عن الرسول ودعوته، ولتثبيطِه عن متابعة تأْدِيَة رسالته، بإيذائه واستثارة غضبه.

والصّبْرُ المطلوب هُنَا يكُونُ بضبط نَفْسه عن عدّة أمور:

(١) بضبط نفْسِه عن مقابلة أقوالهم بمثْلِها، أو بأشَدَّ منها، أو بأقَلَّ وأخفَّ مِنها، لأنَّ هٰذهِ المقابلَة تَجُرُّ إلى تَصْعِيد الشتائم، وتحوُّلِ الدَّعْوَةِ عَنْ مَسِيرِها.

(٢) وبضبط نَفْسِه عن إظهار الغضب والتأَثُّر والانْفِعَالِ منها، لأنّ ذلِكَ شيءٌ يَسُرُّهم، ويَشْفِي غَيْظَهُمْ، ويَجْعَلُهم يَزِيدونَ من توجيه هذا السّلاح القائم على السِّبَاب والشتائم ضدّه، وضدّ الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

(٣) وبضبط نَفْسه عن التحرُّكِ العمليّ للمقاومة بوسائل القوّة المادّيّة، فهٰذا من شأنِه التعجيلُ بإحداث المواجهاتِ المسَلَّحَةِ بين المسلمين وأعدائهم، قبل الاستعداد المكافىءِ لهذه المواجهات ضمْن سُنَنِ الله السَّبَبِيَّة، وهذا التعجيل رُعُونَةٌ تُفْضِي إلىٰ مَا لا تُحْمَدُ عُقْبَاهُ في مسيرة الدعوة وانتشارها، وتُمَكِّنُ الَّذِينَ كَفَرُوا من قَمْعِها، مع اتّخَاذ الذّرائع الإعلاميّة لهذا القمع مَهْمَا كان عنيفاً شدِيداً.

● وقد سبق أن أمَرَ اللّٰهُ عزّ وجل رسوله بالصَّبْرِ في سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول) فقال اللّٰهُ له فيها: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾.

وهذا أَمْرٌ بالصَّبْرِ عامٌ غير خاصّ بما يقولُهُ الكافِرون عنه، وما يوجّهونه له من شتائم.

ثمّ في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) فقال الله عزّ وجل له فيها:

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾.

وتتابَعتْ أوامر الله لرسوله بالصَّبْر، في مراحل التنزيل المكّيّ، والتنزيل المدني، ويُلْحقُ به حملة رسالته من أمته[١].

(١) انظر الفصل الأول (وجوب تحلّي حامل الرسالة بصفة الصبر) من الباب الثاني من كتاب «فقه الدعوة إلى الله وفقه النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» للمؤلف.

● قول الله تعالى: ﴿. . وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾﴾.

ما جاء في هذه السورة بشأن داود عليه السلام، هو أول نصٍّ أنزله الله عزّ وجلّ في القرآن بشأنه، ثمّ أنْزَل بَعْدَهُ تِسْعَةَ نُصُوصٍ أُخْرَى في مُنَاسَبَاتٍ متعدّدات، إلاّ أَنَّ ما جا عنه في سورة (ص) أكثرها بياناً عنه، وهي جميعاً فيما بَيْنَها متكامَلاَتٌ غَيْرُ مُكَرَّرَاتٍ، وعرضُها في دراسة متكاملةٍ يكْشِفُ هٰذه الحقيقة.

﴿وَٱذْكُرْ﴾ فعل أمْرٍ معطوف على فعل: [اصْبِرْ] أي: وضَعْ في ذاكِرَتِكَ ما سَنُبَيِّنُ لِكَ.

﴿عَبْدَنَا﴾ أي: الّذي صَدَق في عبُودِيّته لَنَا، مُسْتَشْعِراً عظَمة رُبُوبيَّتِنا، ومجتهداً في عبادَتِه لَنِا وطاعته لأوامرنا ونواهينا، دلّ على هذا إضافة «عبْد» للمتكلّم العظيم الرَّبّ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانه. وفي هذه الإضافة تشريف وتكريم له.

﴿دَاوُۥدَ﴾: هو النبيّ الرّسُولُ الملِكُ، وهو من الرُّسُل المذكورين في القرآن المجيد، وهو من بني إسرائيل، من سبْط «يَهُوذا» بن «يعقوب» وهو إسرائيل عليه السّلام، بن «إسحاق» بن «إبراهيم» عليهما السلام.

﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾: أي: صاحبَ القُوَّةِ والشّدَّةِ بالنسبة إلى البشر.

الأيْدُ، والآدُ في اللُّغة: القُوَّة. يقال لغة: آدَ فُلاَنٌ يَئِيدُ أَيْداً وآداً، إذا اشتَدَّ وقَوِي. ويقال: رَجُلٌ أَيِّدٌ. أي: قَوِيّ. والتأييد التقوية، يقال لغة: أيّدَهُ يُؤَيّدُه تأييداً إذا قَوَّاه.

وكان لداوُد قوَّتان: قوّةٌ جسَدِيَّةٌ نادرة، وقوّة نفسيَّةٌ وإراديَّة فائقة، فبقوته الجسديّة والنفسيّة قتل الجبّار المصارع المخيفَ «جَالُوت» بحجَرٍ رَمَاهُ به من مقلاعه، وبقوّته الجسَدِيّة كان يصْنَعُ بيَدَيْه الدُّرُوعَ من زَرَدِ الْحدِيد، وكانت له قُوىً جَسَدِيَّةٌ أُخْرَىٰ.

وكانت له عليه السّلام قُدْرَةٌ جسديَّةٌ ونفسيَّةٌ على قيام اللّيل طويلاً،

فقد كان يقومُ ثُلُثَ اللَّيْل يُصَلّي، كما في صحيح البخاري. وقُدْرَةٌ فائقة على الجهاد في سبيل الله ببسالة وشجاعةٍ وإقدام، فلا يَفِرُّ إذا لاَقَىٰ العدوّ. وقُدْرَةٌ على الصّيام، إذْ كان يصُومُ يوْماً وَيُفْطِرُ يوماً. وكان يأكلُ من عَمَلِ يَدِهِ في صناعة الدُّرُوع. وكان له صوت قويٌّ عظيم، فائق الحسْنِ والجمال، يتَرَنَّمُ به في تَسْبيح الله وذِكْره في الوديان بُكْرَةً وعَشِيّاً، فتُرَدِّدُ الجبال صدَىٰ تَسْبيحه وذِكْرِه لرَبّه بترنيم بديع.

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: أي: إنَّهُ كان كَثِير الرُّجُوع إلى مراقبة الله وَذِكْره وَطَاعَته، كلّما ابتَعَدَ عن ذلك ولو ابتعاداً قليلاً.

﴿أَوَّابٌ﴾: صيغة مبالغةٍ لاسم الفاعل «آيب» من فعل: آبَ يَؤُوب أَوْباً وإياباً وَأَوْبَةً وأيْبة، إذا رجع، فمعنى «أوّاب«كثير الرُّجوع.

وقد أثنى اللَّهُ عزّ وجلّ في القرآن على الأوّابين، أي: على الرَّجاعين بالتوبة إلى الطاعة والاستقامة، وأبان أنَّه غَفُورٌ لهم، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿٢٥﴾﴾.

ووعد الله الأوّابين الحفيظين بالجنّة يوم الدين، فقال الله عزّ وجل في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: لكلّ رَجّاعٍ إلى رَبّه بالتوبة والاستغفار، حفيظٍ على حُقُوق الله عليه، مُهتَمّ بأدائها.

وفي سورة (صٓ) الّتي نَتَدَبَّرُهَا وصف الله عزّ وجلّ كُلاًّ مِنْ دَاوُدَ وسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ بأنَّهُ أَوَّابٌ، أي: كثير الرُّجُوعِ إلى الله، ولا يكونُ كثير الرُّجُوع إلاَّ مَنْ كَانَ كثير عوارض الابتعاد، ولم يَرِدْ مثْلُ هذا الوصف في القرآن لِغَيْرِهم من الرُّسُل، إنمّا جاء وصف إبراهيم عليه السَّلامُ بأنّه مُنِيبٌ،

من فعل «أَنَاب» بمعنى رجَعَ، ولم يأت في وصفه أنَّهُ «أوَّابٌ» بمعنى كثير الرجوع.

فهل في هذا الصنيع القرآنيّ إشارةٌ إلى أنّ اشتغال داود وسُلَيمانَ بالمُلْكِ وما فيه من زينة الحياة الدّنيا، واشتغالَ أيُوبَ بأمور الدُّنيا، وجمْع الأموال الوفيرة، قد كان يُشْعِرهُمْ بأنّ ذلك يصرفُهم عن مُرَاقبة الله دَواماً، وذكْرِ الله دواماً، فيؤُوبُون إلىٰ الله تعالى ذاكرين مُرَاقبين له، ومُحَاسِبين لأنفسه، كُلَّما وجَدُوا أنفسهم مشغولين بأُمُور دُنياهم، وبالنَّظَرِ إلى تكرُّرِ هذا الأمر منهم، لتكَرُّر ما يكون منهم من اشتغالٍ بأمُور دُنْيَاهم، خصَّهُم الله عزّ وجل بهذا الوصف «أوَّاب» دون سائر المرسَلِين المذكورين في القرآن المجيد؟؟.

هذا الفهم غير بعيد، ولعلَّ فيه توجيهاً ضمنيّاً للرسول محمد ﷺ أنْ لا يَطْلُبَ الْمُلْكَ، ولا المال الوفير من الدُّنيا، لئلاَّ يَشْغَلَه ذلك، فيَصْرِفَه عن مُراقبةِ الله وذكْرِه دواماً، فيحتَاجَ أن يكُون أوّاباً إلى رَبِّه آناً فآناً.

ولهذا لـمَّا عُرِضَ عليه المالُ الكثير الوفير، وأنْ تكون له جبال من الذهب، آثر الكفاف صلوات الله وسلاماته عليه، حمايَةً لِنَفْسِه من أن تشغله أمُورُ الدنيا عن رَبّه ومُراقبته والحضور معه دواماً.

● قول الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾:

العشيُّ: هو الوقت من الْعَصْر إلى غروب الشمس في الأرجح.

الإشراق: هو الوقت الّذي يظهر فيه ضوْءُ الشّمس واضِحاً بَعْدَ شروقها، وهو أوّلُ وقت الضُّحىٰ.

تدلّ هٰذه الآية على أنّ الله عزّ وجلَّ قد آتى داود عليه السَّلام صوتاً نديّاً عظيماً حسناً، يملأ الوادي المحاط بالجبال، إذْ كانَ يترنّم به مسبّحاً ذاكراً رَبّه بالزَّبُور بالعشيّ والإشْرَاق، فتُرَدِّدُ الجبالُ صدَىٰ صوته تسبيحاً

وذِكراً، بما جعل الله عزّ وجلّ فيها من تسخير لرَجْعِ الصَّوْت، إذْ تحكي تسبيحه، فيتردَّدُ التسبيح والذِّكْرُ بين الجبال على مثْلِ ما ينطلقان منه، دلّ على هذا قول الله تعالى: ﴿مَعَهُۥ﴾ ولم يقُلْ: له.

وكان من عادة داوُد عليه السّلام أن يترنّم بتسابيحه وذِكْرِه بمزامير الزّبور بالْعَشِيّ والإشراق في الوِدْيان بصوْتٍ عالٍ جميل صدّاح، فترجّع الجبال صدَىٰ صوته النَّدِيّ الحسن.

فدلّ هذا البيانُ على أنّ الله عزّ وجلّ قد منح داوُد هذا الصوت المتميّز، وأنّ داوُد كان يستَعْمِلُه في التَّسْبيح والذّكر مترنّماً بآياتِ الله في الزَّبُور، بالعشيّ والإشراق.

ولهذا التسخير الوارد في الآية احتمالان:

(١) إمّا أن يكون بمَنْح داوُدَ الصَّوْت العظيم، الّذي تَنْتجُ عنه مُسَخَّراتُ الأصْدَاء، وهُو الأرجح.

(٢) وإمّا أن يكون بجَعْلِ الجبال تُرَجِّعُ معَهُ زِيَادَةً على قانونها المعتاد في التسخير، والله على كلّ شيءٍ قدير.

● قول الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾:

أي: وسَخَّر الله عزَّ وجلَّ أيضاً لداوُدَ عليه السَّلام الطَّيْرَ مَحْشُورَةً (أي: مجموعة له) لاستماع ترانيمه الحسنة النديّة المطربة، فتسْكُنُ صَوافَّ في الجوّ مستَمِعَةً لصوته، وقد تترنّم معهُ وتصلّي وتسبّح، فإذا انتهىٰ انصَرَفت إلى مواطنها وأعشاشها وأرْزاقها، وفي الوقت المخصَّص لنَوْبَة الإشراق أو العشيّ التي يترنّم فيها تؤوبُ له، فتسْكُنُ صوافَّ في الجوّ لتَتَسَمَّعَ وتترنّم وتسبّح وتصلّي، كلٌّ قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه.

الحشر: هو الْجَمْع والسَّوْق. **فالمحشور**: هو المجموعُ المسُوق

لمكان الحشر، فدلَّ هذا على وجود حاشرٍ يحشُرُها، وقد يكون دافعاً ذاتياً فيها خلقه الله في أجهزتها الداخليّة، وهي دوافع نفسيَّة فيها.

والمراد بعبارة: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ جنس الطير، وهو ينطبق على صنف من الطير يَقْطُنُ في مدَىٰ صَوْته، وعلى أصنافٍ من الطير، وليس المراد كلَّ الطَّيْرِ في عُموم الأرض.

﴿مَحْشُورَةً﴾: أي: وسخّرْنَا له الطير حالةَ كَوْنِها مَحْشُورة.

وقد جاء في أخبارٍ متعدّدَةٍ عن جماعةٍ من السَّلَف، أنَّ داوُد عليه السّلام قد أُعْطِيَ من حُسنِ الصَّوْتِ ما لَمْ يُعْطَ أحَدٌ قَطُّ، حتى إنّ الطَّيْر والْوَحْشَ ينْعَكِفُ حولَه لاستماع ترانيمه.

وفي الحديث عن النبي ﷺ أنّ أبا موسَىٰ الأشعريَّ قد أُعْطِيَ مزماراً من مَزامير داوُد عليه السلام، أوْ مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُد.

رواه أحمد وابن ماجه في سننه وغيرُهما، وله أصل في صحيحي البخاري ومسلم.

رواه أحمد وابن ماجه في سننه وغيرُهما، وله أصل في صحيحي البخاري ومسلم.

فقد روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنّه قال له:

«يا أَبَا مُوسَىٰ، لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مَزَامِير آلِ دَاوُد»[١].

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: التنوين في لفظ ﴿كُلٌّ﴾ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: كُلُّ الطَّيْرِ المحشورة لاستماع ترنيماته في التسبيح والذِّكْرِ، أوَّابٌ لَهُ

---

(١) الجامع بين الصحيحين رقم الحديث (٣٦٦) جمع وترتيب «صالح الشامي».

كُلَّ صباحٍ ومساء، فدلّت صيغة «أَوَّابٍ» التي هي من صيغ المبالغة. على كثرة رُجُوعِها له في نوبات تسبيحه وذكره في العشيّ والإشراق.

● قول اللّهِ تعالىٰ: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

في هٰذه الآية بيان ثلاث مِنَنٍ امْتَنَّ الله بها على داود، غير منّتَيْ تَسْخير الجبالِ يُسَبّحن معه بالْعَشيّ والإشراق، وحَشْرِ الطَّيْرِ كلٌّ له أوّاب، اللّتين سبَقَ شَرْحُهما وتَدَبُّر ما يتعلّقُ بهما.

والمنَنُ الثلاث المبيَّنَةُ في هذه الآية (٢٠) هي ما يلي:

المنَّةُ الأولى: دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾: أي: جعلنا مُلْكَهُ مُلْكاً شَدِيداً قوياً، وأعَنّاهُ على القيام به ثابتاً قَوِيّاً.

يقال لغة: شَدَّ الشَّيْءَ وشَدَّدَه، أي: قَوّاهُ بِمَعُونَتِه ومؤازَرته وإمْداداته.

وشدُّ مُلْك داود عليه السلام قد كان:

● بمنْحِهِ الْهَيْبَةَ وَقُوَّةَ السُّلْطان.

● وبمَنْحِهِ الجُنْدَ والأنْصارَ والمحبّينَ والأعوان.

● وبخَذْلِ أعدائه وخُصُومِه ومُنافِسِيهِ، وإلقاء الرُّعْبِ في قُلُوبهم من سَطْوَتِه وَقُوَّةِ جُنْدِه وسلطانه.

المنة الثانية: دلّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾:

الحكمة الّتي آتاها الله عزّ وجل لداود ترجع إلى العناصر التالية وهي:

(١) تعاليم الدّين الحكيمة، والالتزام بها، والعمل بوصايا الله التي أوصاهُ بها.

(٢) حُسْنُ الإدارة والسّياسة في مُلْكِه.

(٣) التزامه بأحكام العدل، والحكم بالحقّ، وعَدَم اتّباع الهوى.

(٤) الدَّعْوة إلى سبيل الله باستعمال أحسن الأساليب التي يُرْجَىٰ منها أَنْ تُعْطي أفضل النتائج.

(٥) معرفة أفضل الأشياء مُلأَمَة أو مُطابَقَةً لما تُطْلَب له.

والحكمة ترجع إلى جذرين:

الجذْرُ الأول: الحكمة في المعرفة.

الجذر الثاني: الحكمة في السُّلوك، سواءٌ أكان خُلُقاً، أم عملاً جَسَدِيّاً، أم تصرُّفاً في قولٍ، أو إفتاء، أو حُكْمٍ، أو سياسة، أو إدارة، أو تجارة، أو غير ذلك.

وتكون الحكمة في السُّلوك بممارسة الأحسن والأفضل دواماً، ممّا توجّه له الحكمة في المعرفة، بحسب الاستطاعة، وضِمْن حدودها[١].

المنّة الثالثة: دلّ عليها قولُ الله تعالى: ﴿وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾: أي: وآتيناهُ الخطَابَ الْفَصْل، وهو الكلام البليغُ المحرَّرُ المعاني: الفاصِلُ في القضايا الّتي يُبيِّنُها في كلامه. المطابق للحكمة المعرفيَّة الّتي آتاهُ اللّهُ إيّاها.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾﴾.

تمهيد:

خطابٌ للرسول ﷺ أوّلاً، فلكُلِ مُتلَقٍّ على سبيل الخطاب الإفرادي، وفي هاتين الآيتين شروعٌ في عَرْضِ قصَّةِ تَنْبيهٍ رَبانيّ نَبَّهَ الله عزّ وجلّ به داود عليه السلام، بشأن سلوكٍ جرَىٰ منه استدعىٰ هذا التَّنْبيه، من خِلالِ

(١) انظر الملحق الثالث من ملاحق سورة (القمر/ ٣٧ نزول) حول الحكمة في القرآن.

تحكيمِه في قضيَّةٍ مشابِهَةٍ لما جَرَىٰ منه، عَرَضها عليه خَصْمَانِ اقتحما علَيْهِ خلوته في محرابه وهو يَعبُدُ ربَّه، ولم يكن من عادته أن يقتحم عليه وهو في خَلْوَته أحد، إذْ كان يمنع من ذلك، ويأمرُ حُرَّاسه بأن لا يأذَنُوا لأحد بالدُّخول عليه. والحكمُ الّذي لا بُدَّ أن يحكم به في هذه القضيَّة يُشْعِرُه بأنّه يحكُم به على نفْسِه في السلوك الذي جرى منه.

وهي طريقةٌ حكيمةٌ من طُرُق التربية الرَّبَّانيَّةِ للمقرَّبين، إذا وقَعَتْ منْهم هفواتٌ لا تليقُ بمقاماتهم.

وقد تزيَّد الإسرائيليُّون في رواية الهفوة التي جَرَتْ من داوَد عليه السّلام، كعَادتهم في اتّهام أنبيائهم ورُسُلِهم بالكبائر، ذريعةً لتهوين كبائِرهم وموبقاتهم الّتي يرتكبُها كَهَنَتُهم وأحبارُهم ورُؤساؤهم ومُلوكهم.

وقد جاء بيان هذه القصّة الّتي تزيّد الإسرائيليُّون فيها، في الإصحاحين الحادي عشر، والثاني عشر، من سِفْر صَمُويل الثاني، فَنَسبُوا إلى داود عليه السّلام أنّه ارتكبَ الفاحشة مع زوجة أحد قادَتِه الكبار المخلصين، واسْمُه: «أُورِيَّا الْحِثّي» ثُمّ دبَّر ضدَّه مكيدة التخلُّص منه في مَعَارِك الجهادِ في سبيل الله، ثُمَّ تَزَوَّجَ من زَوْجته وضَمَّهَا إلى نِسائه، وأَمَاتَ الله الولَد الّذي حمَلَتْ منه بالزّنا، ثم ولَدَتْ له ولداً سمَّاه: «سُلَيْمان» وهو الذي وَرِثَ المُلْكَ بَعْدَ أبيه.

فإذا جرَّدْنَا من هذه القصَّة الإسرائيليَّة ما زاده الإسرائيليون افتراءً على داوُد عليه السلام، ممّا لا يليق بمقام النبوّة، وأضَفْنَا ما تَدُلُّ عليه قصَّةُ خَصْمَيِ التحكيم القرآنيَّةِ، بقي من الْقِصَّةِ ما يُمْكِنُ أن ينْسَجِم معه ما جاء في القرآن من مُعَاتَبة الله عزّ وجلّ لداودَ على سلوكٍ جرَىٰ منه.

وبالتجريد من الزوائد الإسرائيليّة يمكن أن نُصَوِّر القصّة على الوجه التالي:

رأى داوُد عليه السّلام عرضاً ومن دون قَصْدٍ منه زوجة «أُورِيَّا الحِثّي» أحد قواده الكبار، وكانت امرأةً حَسْناء، فاستحْسَنَها وتمنّاها، وخَطَرَتْ له خواطِرُ من الأماني، ورُبَّما سأله أَنْ يتنازَلَ له عَنْها، فلمّا سقط «أُورِيَّا الحِثّي» قتيلاً في المعارك الجهاديَّةِ وجد في نفسه راحَةً بما جَرَىٰ، ثُمَّ خَطبَ هذه المرأة الّتي اسْتَحْسَنَها ضمن أحكام الزواج الشرعي، وضمّها إلى نِسائه بزواجٍ شَرْعيٍّ، فولَدَتْ له سليمان عليهما السلام.

وجاء في سِفْر «صَمُويل الثاني» أنّ اسْمَ هٰذه المرأةِ «بَتْشَبَع بنت أَلِيعَام».

وغيرَّ الإِسْرَائيليُّون في قصَّةِ الخصمَيْن، وأوردوها حكايةً عرَضَها فيما زعمُوا النبيُّ «نَاثَان» على داوُد، فغضب من حالِ الخصْم المعْتَدِي على صاحبه، فأمَرَ بقتله، فقال له: «نَاثَان»: أَنْتَ هو الرَّجُلُ الذي فعل ذلك.

إلى غير ذلك من تغييرات وتلفيقات وتحريفات، وهم يَزْعمونَ أنّ داود عليه السّلام مَلِكٌ فقط وليس نبيّاً ولا رسولاً.

أمّا قصّةُ الخصْمَيْن كما جاءت في القرآن، وأشارت ضِمْناً إلَىٰ ما كان من داوُد عليه السلام، دون بيانٍ لها، فهي أنّ داود عليه السلام كان في خَلْوَته في محرابه، في يوم أو وقت لا يأذَنُ لأحدٍ بأن يدخُل عليه فيه، لئلاَّ يعكِّرَ علَيْه خلوته بربّه، وهو مجْتَهِدٌ في الذّكر والتسبيح والْعِبَادة وتلاوة آيات الله المنزّلات، ولا بُدَّ أنْ يكون قد جعل على الأبواب حُرَّاساً، فهم لا يمكّنُون أحداً من الناس أن يَدْخُلَ عليه في أوقات خلوته.

فبعث الله ملائكةً علىٰ صورة بشرٍ، فتسَوَّرُوا عليه سُور مَكَانِ خلْوته، من أَمْكِنَةٍ لا تقع عليها عُيُونُ الحرّاس، واجتازوا السّاحة، ودخَلُوا الغرفة الخاصّة بخلْوته الّتي يَعْبُد الله فيها، دون استئذان منه.

فأفْزَعَتْهُ منْهم هذه المباغَتَةُ، وسبَقَ إلى ظَنّهِ أنّهم يُريدون به شرّاً، للتخلّص من مُلْكِه.

إنّ عارضةَ الْفَزَع هذه في مثل الحالَةِ التي هو فيها، ولا سيما إذا كانت ليلاً، تكون رَدَّ فعْلٍ تِلْقَائيٍّ طبيعيّ، ولو كان من أشجع الناس وأكثَرِهم بأساً، ولو كان نبيّاً رسولاً، ولا سيما إذا كان مستغرقاً في ذكره وتأمُّلاته ومُنَاجَاته لرَبّه.

وأدرك الملائكة الداخلون عليه ما أصابَه من فزع، ومع أوّل اللّحظات قالوا له: لا تخف. أو قال متكلّمهم عنهم جميعاً ذلك. وأتْبَعُوا طمأنته ببيان الغاية من دُخولهم علَيْهِ قائلين: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

﴿خَصْمَانِ﴾: أي: نحْنُ أصحابَ الغرض من الدُّخولِ عليك خَصْمان جئْنَا نَتَقَاضَىٰ عِنْدَكَ، فاحكُمْ بَيْنَنَا بالْحَقّ، ولا تَجُرْ، واهْدِنا إلى الصراط المستقيم بعْدَ نُطْقِك بالحكم.

فحكم بينهما، وانصرف الخصمان، وراجع داود نفسه، ففطِنَ إلى أنّ الله عزّ وجلّ قد امتحنه ونبَّهَهُ بهذا الإجراء على خَطِيئَتِه، فاستغفر ربَّهُ وخرَّ راكعاً، وأنابَ ساجداً، فغفَرَ الله له ذلك الذي كان منه.

التدبُّر التحليليّ للنصّ:

● قول الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ في هذه العبارة شروع في عرض قصّةٍ تتعلّق بداود، بأسلوب الاستفهام عن العلم بنبأ حادثة جرَت له.

ونُلاحظ في اختيار هذا الأسلوب التنويعَ البديع، فقد كان الكلام قبله في السّورة عن داود بأسلوب الرّواية الخبريّة، وبعْدَه انتقل إلى أسلوب الاستفهام عن نبأ حادثة جرَت له.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾؟ أي: يَا محمَّد، ثُمَّ يا كُلَّ مُتَلَقٍّ لهذا البيان، فهو خطاب لكلّ متلَقٍ بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، ﴿أَتَىٰكَ﴾ أي: جاءَكَ.

الإتيانُ والمجيءُ يستعملان في الحسّيّات المادّية، وفي غيرها من المعنَوِيَّات والفِكْرِيَّاتِ.

﴿نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾: **النَّبأُ**: هو الْخَبَرُ البارزُ ذو الأهميَّةِ اللاّفِتُ للانتباه.

الْخَصْمُ: هو المخاصِمُ حول قضيّة من قضاياَ الحقّ، مطالباً، أو مَدافعاً، أو مدّعياً البراءة، أو نحو ذلك. ولفظ «**الْخَصْم**» يسْتَعمل هكذا في المفرد والمثنّىٰ والجمع والمذكّر والمؤنّث، وقد يُثَنَّىٰ فيقالُ: خَصْمَان، وقد يجْمع على خصوم، وخُصَماء، وخُصْمان، ويطّرِدُ فيه «خِصام» مثل: كَلْبِ وكلاب، وصَعْبِ وصِعَابِ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾. أي: أَلَدُّ المخاصِمِين.

● ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾ أي: وقْتَ تَسوُّرِ جماعَةِ الخصمين المحراب. دلَّتْ هذه العبارة على أَنَّهُمْ كانُوا جماعَةً، وهم المتخاصِمَانِ، وبيّنَةُ المدَّعِي (شاهدان علىٰ الأقل).

﴿تَسَوَّرُوا۟﴾: أي تَسلَّقُوا سُورَ المحراب، ودخَلُوا إلى الساحَةِ الداخليَةِ بوسيلةِ تَسلُّق السُّور واجتيازه، لاَ عن طريق الأبواب، لأنّ الأبواب مقفَلَةٌ ومحروسة، ولحكمةٍ ما فَعَلُوا هذا، إِذْ كان باستطاعتهم وهم ملائكة أن يكونوا داخل المحراب دون وسيَلةِ التسلّق، ولعلَّ الحكمة أن يراهم بعض الناس من غير الحرّاس، فيُشيعُوا أنّ بعض المتسلِّقين دخلوا على داوُد وهو في خَلْوته في محرابه.

السُّور: هو كلُّ ما يحيط بشيء، ويكون مانعاً من العبور الطبيعيّ دخولاً وخروجاً، سواءٌ أكان بناء أمْ غير بناء، ويُجْمَع «سُور» على «أسوار» كأسوار المدُن، وأسوار القصور، وأسوار الحدائق والبساتين، ونحو ذلك.

﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: قالوا: المحرابُ ارْفع مكانٍ في الدّار أو المسْجِد، وهو في البيوت غُرْفةٌ عالية منعزِلَةٌ يُرْتَقَىٰ إِلَيْها. ومحراب المسجد صَدْرُه، وأشْرَفُ مَوْضِع فيه.

وقيل: المحرابُ الموضع الذي ينفَرِدُ فيه الملِكُ، فيتباعد من الناس.

قال الأزهريُّ: وسُمّي المحرابُ مِحْرَاباً، لانفراد الإمام فيه وبُعْدِه عن الناس.

من هذا نستدلُّ على أنَّ محراب داود عليه السلام قد كان بناءً خاصّاً لخلوته بربّه وعباداته، وكان ضِمْن ساحةٍ مُحَاطَةٍ بسُورٍ له بابٌ أَوْ أبوابٌ تُقفل وتُحْرَسُ.

رُوِي عن ابن عباس[1]، أنّ داوُد عليه السلام جزّأ أَزْمانَهُ أَرْبعَةَ أجزاء، يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواصِّ أموره، ويوماً لجميع بني إسرائيل، فيعِظُهُمْ ويُبْكِيهم.

● ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾: يدلُّ تكرير «إذْ» الظرفيَّة الزَّمانيَّة، في العبارتين: ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ على أنّ مِحْرابَهُ يقَعُ في بناءٍ حولَهُ ساحةٌ فارِغَةٌ، وهذه السَّاحة مُحاطَةٌ بسُورٍ، وأنّ هؤلاء الملائكة الّذين جاءُوا علىٰ أشْكَالِ وصُوَرِ بشر، تَسَوَّرُوا أوّلاً السُّور، واجتازُوهُ إلى السَّاحة، وأنَّهم مَشَوُا المسافة حتّى بلغوا مكان محرابه، ففتحوا الباب الذي لا حُرَّاسَ عليه، ولا قفل له ودَخَلُوا عليه.

فكلمة «إذ» الأولى دلّت على وقت التسوّر، وكلمة «إذْ» الثانية دلّت على وقت دخولهم المحراب، وبهذا الفهم نتفادى التأويلات الّتي لا داعيَ لها.

● ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾: أي: حصل له فزعٌ تِلْقَائِيٌّ من مباغَتَتِهِمْ له، بدُخولهم عليه وهو في خلْوَتِه، واستغراقه في عباداته ومناجاته لربّه، وهذا أَمْر طبيعيٌّ يحصُلُ لكلِّ الناس مهْما كانوا شُجْعاناً، ولو كانوا أنبياءَ ومُرْسلين، فَلا يتنافَىٰ هذا الفزع من كمالات النبوّة.

---

(١) كما جاء في البحر المحيط وغيره.

والظُّنونُ الجالبة لهذا الفزع في مثل الحالة الّتي كان عليها داود عليه السّلام في محرابه كثيرة.

الفزع: الخوفُ والذُّعْرُ.

● ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾: أي: لا داعيَ للخَوْف، فإنَّنا لَمْ نَدْخُلْ عليك بِشَرٍّ أو ضُرٍّ أَوْ أذىٰ.

● ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: أي: أمرنا أو شأننا أننا خصمان، بغَىٰ بعضُنا على بعْضٍ.

البغيُ: تجاوز حدّ الحقّ، والاعتداءُ، والظُّلْم، يقال لغة: بغَىٰ عليه يَبْغِي بَغْياً، ولا بدَّ أن يكون الناطقُ بهذا القول من الخصْمَيْن هو مَنْ يدّعي أنَّ الظُلْم وقَعَ عليه، ولكِنْ أبهَمَ فقال: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ لِيَتْرُكَ لداود حُرِّيَّة إصدار الحكم الذي يَراه في قضائه بينهما.

● ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾: طلبوا منه أَمْرَيْنِ:

الأول: أن يَحْكُمَ بالحقّ، أي: بما يَراهُ حقّاً، وهذا إيجابي بجانب الحق.

الثاني: أنْ لا يُشْطِطَ، أي: أن لا يجوز ولا يَظْلِمَ، وهذا سَلْبِيٌّ لتحذيره من الظلْمْ والجور.

الشَّطَطُ: مجاوزة القَدْر والحدّ في كلّ شيءٍ له قَدْرٌ وحَدٌّ.

والشَّطَطُ: الظلْم والجورُ في الحكم.

يقال لغة: «**أشَطَّ**» في حُكْمِهِ أو في قَضَائه، ويقال أيضاً: «شَطَّ» أي: جار وخرج عن واجب العدْل.

ويقال: «شَطَّ» و «أَشَطَّ» في سِلْعَتِه، إذا جاوز القدْر وتباعَدَ عن الحقّ.

ولكن ما فائدة مطالبتهم له بأن يَحْكُمَ بالحقّ، وبأن لا يَجُورَ في حكمه، ومثل داود عليه السلام لا يُنْتَظَر منه أن يحكُمَ بالباطل، ولا أنْ يَجُورَ؟.

أما كان يكْفِي الاقتصار على أحد الأمْرَين، لأنَّه إذا حَكَمَ بالحقِّ لم يكُنْ جائراً؟؟.

أقول: لمَّا كان المتقاضيان عنده مَلَكَيْن في حقيقة أمْرِهما، وقَدْ جاءَا لِمَوْعِظَتِه، وتنبيهِهِ على ما كان منه في مشابه قضيتهما، ولمَّا كان من معاني الشطط تجاوُزُ الْقَدْرِ الذي يليق بمثله، إلى ما لا يليق بمثله، ولو لَمْ يكن فيه مجاوزة لحدود الحقّ، كان من الحكمة أن يُقَدِّما له في الكلام ما يتضمَّنُ دَلالات رَمزيّةً على أنّ ما كان منه قد كان من قبيل الشطط في التصرّف، باستغلال سلطته في الملك، ولو لَمْ يجاوز فيه حُدودَ الحقّ فيما يظهر، فمن الحقّ ما هو شطَطٌ لا يليقُ بنَبِيٍّ رسُول، مسْؤول عن المحافظة على مرتبة المحسنين.

● ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: أي: وبَعْدَ أن تَنْطِقَ بالحكم الّذي تَراهُ في قضيتنا، وَجِّهْ لنا الإرْشادَ والنُّصْح المناسب الذي يَهْدِينا إلى التزام سواء الصّراط، هدايةَ دلالَةٍ وإرشادٍ وترغيب في الخير، وترهيب من الشرّ والإثم.

سواءُ الصراط: هو الصراط المسْتَوِي المستقيم الّذي لا الْتِواء فيه، ولا تعرُّجات ولاَ تَشعُّبَات.

والمراد صراط السُّلوك في الحياة، وأصْلُ الصراط الطريق الواسع الواضح، ونُقِلَ في الاصطلاح الدينيّ إلى ما ينبغي أن يَعْمَلَه الإنسان في حياته من سلوك نفسي وفكريٍّ وجَسَديٍّ ظاهر.

وهذا الطلَبُ التوجيهيُّ يرمُزُ ضمناً إلى أنّ الخصمين ومن معهما هم رُسُلٌ من الملائكة، أرْسَلَهُمُ الله إليه لتذكيره، وموعظته، وتعليمه أصُول

القضاء، ولإشعاره بخطيئته الّتي كانت منه، لذلك كان في كُلّ قولٍ وعَمَلٍ منهِمْ دلالَةٌ رمْزيَّة لمَا جاءُوا من أجْلِه.

ويظهر أن دَاوُد عليه السلام لمّا هدأَتْ نَفْسُه، أجْلَسَ الخصْمَيْن ومن معهما في مجلس قضاء، لِيَقضي بينهما، وسأَلَهُما عن خصومتهما.

ونلاحظ من حِلْمِه وسَعَةِ صدْرِهِ وكمالِ عقْلِهِ أنَّه لم يُعَاتب القوم على الدُّخول عليه بغير استئذانٍ في وقْت خلْوته، ولم يسأَلْهُمْ كيفَ دخَلُوا عليه مع أنّ الأبواب الخارجيَّةَ مقْفلَةٌ، والحرَّاسَ يراقبون ولا يمكّنُونَ أحداً من الدُّخول عليه بغيْرِ إذْنٍ منه.

● ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾:

أي: قال المدّعي مِنَ الخِصْمَيْن الّذِي يشْكُو خَصْمه: إنَّ هٰذا أخي لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً ولِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ.

لقَدْ ذكَر أنَّ خَصْمَهُ أخٌ له، فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ ويُريد بذلك أنَّهُ أَخُوه في الدّين على ما يظهر، أي: ليس هو من الكفّار الأعداء، ولسْتُ أنا من الكفّار الأعداء المقاتلين حتّىٰ يسْتَبيح حُقُوقي.

وأشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ ليبَيّن أنّه يَدّعي عليه حضُوريّاً، وأنَّهُ هو عينُه المدَّعَىٰ عليه، ولَيْسَ وكيلاً ولاَ نائباً عنه.

﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾: قرأ حَفْصٌ ﴿وَلِىَ﴾ بفَتْحِ ياءِ المتكلّم، وقرأ باقي القراء العشرة بإسكانها.

النَّعْجَةُ: هي في اللّغةِ الأنثَىٰ من الضَّأْنِ والظِّبَاءِ والشَّاءِ الْجَبَلِيّ، والبقر الوحشيّ، والجمْعُ نِعَاجٌ، ونعجات.

والعربُ تُكَنّي بالنَّعْجَةِ والشَّاةِ عن المرأة.

روىٰ ابْن جريرٍ الطبريّ عن السُّدّيّ أنّ داوُد عليه السّلاَمُ كانَ له تِسْعٌ وتِسْعون امرأة، فإنْ صحّ هذا الخبر فإنّنا نَلْمَحُ أنَّ الملَكَ المتمثّل بصُورَةِ المدَّعي على أخيه قد استخدم العدد المطابق لعَدَد نساء داود عليه السلام، أمّا هو فليس له إلاّ نعجةٌ واحدة، كما أنّ «أورِيّا الْحِثّيّ» ليْسَ له إلاّ زَوْجَةٌ واحدة. ونلاحظُ أيضاً أنّه استخدَمَ لفظةَ تَدُلُّ على الأنْثَىٰ من الضَّأنِ أو الظباء أو نحوهما، وتدلُّ بالتوسُّعِ على المرأة، لِيتمَّ التّتابُعُ الرَّمزيُّ في عَرْض القضيّة.

﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾: أي: فقال لي أخي هذا: ﴿أَكْفِلْنِيهَا ﴾: أي: اجْعَلْها تحت كفالَتي، ضِمْنَ حَظِيرة نعاجي، وتنازَلْ أَنْتَ عنها.

ولم يأت في التعبيرِ ملّكْنيها، ولاَ هبني إيّاها، ولا بِعْنِي إيّاها، ليدُلَّ التعبيرُ على المعنَيَيْنِ: الْمَعْرُوضِ في الظاهر، والمرموز له في الباطن.

فالمعروضُ في الظّاهر أنّ صاحب النعاج التِّسْعِ وتسعين، قَدَّم طلَبَهُ نعجَة أخيه مقْرُوناً بذَرِيعةٍ تُقْبل، إذْ قال لأخيه: إنّك صاحِبُ نَعْجَةٍ واحِدَةٍ، وليس لديْكَ استعداداتٌ لرِعايَتِها وحِمَايَتِها والقيام بما تحتاج إليه، أمّا أنَا فعِنْدي كُلُّ الوسائل لذلك، وأنَا أُعَوِّضُكَ بما يجْعَلُكَ في غِنىً عنها، هذه ذريعة يمكِنُ أنْ تُقْبل.

والمرموز إليه في الباطنِ أنَّ داود الّذِي لَدَيْه تِسْعٌ وتِسْعُون امرأةً، واسْتَحْسَن أنْ يَضمَّ إلَيْهِنَّ زَوْجَةَ «أورِيّا الْحِثّيّ» بوسيلةٍ ما، وقد تكون هذه الوسيلة أن يطلب منه أن يطلّقها برضاه دون إكراه، فإذا صارت خليّة من زوج، وجاز لداود أن يخطبها ويتزوّجها، ضمّها إلى زوجاته، وتُشِيرُ عبارة: ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ إلَىٰ أنّها إذا صارت زوجةً له كانت في كفالَتِه، لا في مِلْكه، فإنَّ الزوجات لا تُمْلَك.

ورُبّما كانت ذَريعته في الظّاهر أنّه قال لزوجها «أُورِيّا الْحِثّي» أنت

رجلٌ من المجاهدين الأبطال، وأنت في مُعْظَم أوقاتك منْصَرِفٌ إلىٰ الجهاد في سبيل الله، وفي معارك القتال، وزوجتُك في بيْتِكَ وحيدةٌ لا حامِيَ لها ولاَ حارسَ، وليسَ عنْدَها مَنْ يكْفُلُها، فَمِنَ الأحسن لك ولها أنْ تكون ضِمْنَ نِسَائي، في كفالَتي وتحت حمايتي، ومتى عزمت على الاستقرار عوضناك بمن تُحِبُّ من النساء.

فدلّت هذه العبارة على المعْنَيَيْن: المعنى الظاهر، والمعنى المرموز إليه، بطريقة بارعة بديعة جدّاً، فكأنّها سهْمٌ ذو فرعْين يصيبان هدفين برمية واحدة.

﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾: أي: وغلبني وقَهَرني في مخاطبته ومحادثته لي.

يقال لغة: عزَّهُ يَعُزُّهُ عَزّاً، إذا قَهرَهُ وغَلَبَهُ.

وهُنَا نتساءَلُ: كيف تكونُ الغلَبَةُ والْقَهْرُ في الخطاب، مع أنَّ الحقّ في القضيَّة المعروضة ظاهرٌ لصاحبِ النَّعجة الواحدة، وليْسَ فيها شُبُهَاتٌ يتَمكَّنُ منْ خِلاَلِها الطَّامعُ بالنعجة الْمُكَمِّلَة المئة عنده، أن يُزَيِّنَ بحُسْنِ بيانه وعرضِه حُجَجاً يَغْلِبُ بها أخاه، الذي هو خَصْمُه في هذِهِ القضيَّة؟؟.

وبالتأمُّل التّدبُّريّ ينكشِفُ لنا أنّ بعْضَ الكلام يكون ظاهِرُه عرضاً، ولكِنَّهُ في باطِنِه مُلْزِمٌ، لأنّ مَنْ يُوجَّهُ له لا يَسْتَطِيعُ مخالفته.

كأن يطْلُبَ الأَبُ على سبيل العرض من ابْنِه أمْراً أو شيئاً، أو يَطلُبَ الأخ الأكبر ذو الولايَةِ من أخيه الأصغر الذي ما زال تحت ولايته أمراً أو شيئاً، فالابْنُ البارُّ، والأخ الأصغر البارُّ، لا يملكان إلاّ الطَّاعة، وهما كارِهَانِ مَغْلُوبَانِ، على الرُّغْمِ من أن الطَّلبَ قد جاء على سبيل العرض مع التخيير بحسب الظاهر.

وأشدُّ من ذلك أن يطلُبَ ذو السُّلْطانِ أو الملِكُ من بعْضِ مُحِبّيه

ومعظّميه من رعيّته أمراً أوْ شيئاً لنفسه، فإنّه لا يَمْلِكُ إلاّ الموافقة السَّريعةَ والطّاعة، ولو كان طلبُه على سبيل العرض لا الأمْرِ الإلزاميّ، وهو مع موافقته الظاهرة قد يكون كارهاً غَيْر راضٍ.

فإذا سُئِلَ: كيْفَ وافقتَ وأنت كارهٌ؟. قال: وهل أمْلِكُ أن لا أوافق، أنا مضطَرٌّ مغْلُوب، فلو أنني رفضْتُ لأغضبْتُ سلطاني أو مَلِكيّ، فتعرَّضْتُ بسبب غَضبه لأُمورٍ هيَ أشَدُّ عليّ ممّا أتخلّىٰ عنه لأجْلِه، وأنا في قَلْبِي كارِهٌ غَيْر موافق.

فكان من الإبداعِ في البيان، للدّلالة على العرض التَّخْييريّ في ظاهره، الملْزِم في باطنه، عبارة ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ ولكِنَّ هٰذِه المعاني التي سَبقَ بيانُها لا تُسْتَخْرَجُ إلاّ بالتَّأمُّل الدقيق.

ولا بُدَّ أن يكونَ دَاوُد عليه السّلاَمُ قد تَثَبَّتَ من أنّ صاحب النعْجَةِ الواحدة هو صاحبُ الحقِ، عن طريق البيّنة، أو عن طريق اعتراف المدَّعَىٰ عليه من صِدْق الادّعاء، أو اجتمعا معاً، إذْ لا يُتَصَوَّرُ مِنْهُ أن يتسَرَّعَ في الْحُكْم قَبْل التثبُّت، وقد وصفه الله عزّ وجلّ في صَدْرِ الحديث عنه، بأنّه آتاه الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ، ومعلوم أنّه ليس من الحِكْمَةِ إصدار الحكم بناء على السّماع من أحَدِ الْخَصْمَيْن، دُون التثبُّتِ من صِدْقِ الادّعاء، فمثْلُ هذا لا يفْعَلُه أقَلُّ القُضاة حكْمَةً، فضلاً عن نبيٍّ رسُولٍ حكيم، لَهُ مَجْلِسٌ يَقْضي فيه بين الناس.

- ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾:

في هذه العبارة مثالٌ من أمثلة فصل الخطاب الذي آتاه الله عزّ وجل داود عليه السلام، ففيها تأكيد أن طالب النعجة من أخيه مستنداً إلى سلطته في خطاب العرض، قد ظلَمَهُ بهذا الطلب الملزم في باطن الأمْر. وجاء التأكيد بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾.

﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ﴾: أي: بسُؤَالِهِ نَعْجَتَكَ، فالسُّؤالُ مَصْدَرُ فِعْلِ سألَ، بمعْنَىٰ طلَبَ، يُقال لُغةً: سَأَلَ فُلَاناً الشيَ، أي: استعطاه إيَّاه، ولفظ «سُؤال» في العبارة مضافٌ إلى مفعوله، فالمصدَرُ قد يُضافُ إلى فاعله، وقد يضافُ إلى مفعوله، وهنا من إضافته إلى مفعوله.

أمّا تَعْدِيةُ السُّؤال بحرف الجرّ «إلَىٰ» في قوله تعالى: ﴿بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾ فَهُو على تَضْمِينِ معنَىٰ «يَضُمُّ» أو نحوه، والتقدير: لَقَدْ ظَلَمَكَ بسُؤالِهِ نَعْجَتَكَ ضَامّاً لَهَا إلى نِعَاجه.

● ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ ... ﴿٢٤﴾﴾.

استجاب داوُدُ عليه السلام في هذا الْقَول لطَلَبِ المدَّعِي من الخصْمَيْن، في قوله له: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ فَبَعْدَ أن نطَقَ داوُدُ بالحكم أبان أنّ كثيراً من الْخُلَطاء لَيَبْغِي بعضُهم على بعض إلاّ الّذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالحاتِ وقَلِيلٌ ما هُمْ.

الْخُلَطَاء: جَمْعُ «خَلِيط» ويُطْلَقُ الْخَلِيطُ على الشّرِيكِ الّذي يخْلِطُ مالَهُ بمالِ شَرِيكه. ويُطْلَقُ على القوم الّذين أَمْرهُمْ واحِدٌ، وهذا المعنى الثاني هو الأنْسَبُ فيما أَرَىٰ لمضمونِ النصّ من المعنىٰ الأوّل.

﴿لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾: أي: ليَعْتَدِي بعضُهُمْ على بَعْضٍ فَيَظْلِمُهُ في حقُوقِه، فيتعرَّضُ لعقاب الله العادل.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾: أي: وقليل جدّاً هم الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات الّذين لا يَبْغُونَ على إخوانهم.

لفظ ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿وَقَلِيلٞ مَّا﴾ نَكِرَةٌ إبْهامِيَّة يُؤْتَى بها للدّلالة على التكثير، أو التعظيم، أو التّعجُّب، أو تأكيد ما وُصِفَ بها.

والمناسبُ هُنَا إرادةُ تأكيد التعبير عن القلّة الشديدة، حتّىٰ كأنّهم نادِرُون.

• ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾:

بعد أن نطَقَ داود عليه السلام بالحكم الحقّ في القضيَّة الّتي عرضها عليه الخَصْمان، وقدّم النُّصْحَ المناسبَ للقضيَّة التى قضىٰ فيها، أخذ يتفكّرُ في هذا الحدث الذي جرى له.

وطوى النَّصُّ أن الْخَصْمَيْن قَبِلا حُكْمَهُ ونُصْحَه وهَدْيه، وانْصَرفوا من حيث دخَلُوا، فلمَا عاد داوُد إلى خَلْوَتِه أخذ يتفكّرُ في هذا الأمر الّذي حدثَ له وهو في عُزْلَتِه وخَلْوَتِه، وأَخَذ يُحَاسِبُ نَفْسَه، ويَسْتَرْجِعُ ما كان من عَمَله، ويقولُ في نَفْسِه: كيْفَ دخلَ عليَّ هؤلاء في وقْتٍ لا يَدْخُلُ عَلَيَّ فيه أحد، والْحُرَّاسُ لا يمكّنُون أحداً من الدُّخول عليّ فيه؟! وكيف خرجوا من عندي دون أن يُحْدِثوا حَدَثاً يَدُلُّ عليهم؟!

هُنَا أخذَت الظُّنُون تَتَوارَدُ علَىٰ تفكيرِه بعد هذه المراجعة، فظَنَّ ظنّاً قَوِيّاً راجِحاً، يُفِيدُ عِلْماً ظَنّيّاً، أنّ الّذين دخَلُوا عَلَيْه هم ملائكة جاءُوا على صُوَرٍ بَشَرِيَّةٍ، وأنّ الله عزّ وجلّ لَمْ يرسِلْهُمْ إلاّ لِكَشْفِ ما امْتَحَنَهُ بِه في قضِيَّتِه الخاصَّة، ولِكَشْفِ ما امتحنه به من قضاءٍ في قضيَّةٍ مُنَاظِرَةٍ لقضيَّتِه الخاصَّة، الّتي ما كان يليق به وهو نبيٌّ رسُولٌ من أهل مرتبة المحسنين أن تَصْدُر عَنْه.

لقد نجح في الامتحان الثّاني، فحكم بالحقّ، ولم يتَّبع الهوى، ولَمْ يقِسْ صاحِبَ النّعاج التّسع والتّسْعِينَ على نَفْسِه فيما بَدَرَ منه من خطيئةٍ لا تليق بمثله، فلَمْ يُخَفِّف عنه في إصادار الحكْم رغبةً في التخفيف عن نَفْسِه.

وبعد أن وضَحَ له الأمْرُ، إذْ قَابلَ النظير بالنَّظِير، ظهَرَ لَهُ أنَّه لم يكن كما ينبغي أن يكون في الامتحان الأوَّل، وأَدْرَكَ أن الأمْرَ عِتَابٌ من الله له على ما كان منه ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾: أي: سأل ربَّه أنْ يَغْفِرَ له مَا كَانَ منه ﴿وَأَنَابَ﴾: أي: ورجع إلى اللَّهِ بالتَّوبَة، بَعْدَ أن ابتَعَدَ قليلاً عن مقام القرب، بفِعْلِ ما لا يليقُ بمثله، وإنْ لم يكن معصيةً بالنسبة إلى غيره من المتَّقين، أو الأبرار، إذْ هو من المحسنين أهل المرتبة العليا.

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ﴾: أي: غلَبَ على ظَنِّه، دون أن يكون ما وصَلَ إليه عِلْماً يقينيّاً، وغلبَةُ الظَّنّ كافيَةٌ لأَنْ تُشْعِرَهُ بأَنَ اللَّهَ عزّ وجل قد امتحنه.

﴿أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ﴾: «**أنّما**» أداة حصر، أصْلُها «أنّ» الّتي تنصِبُ الاسم وترفع الخبر، و «مَا» الكافة لحرف «أنّ» عن عمل النصب والرفع، ومعناها الحصر.

«**فَتَنَّاهُ**»: أي: امتحنّاه واختبَرْنَاهُ وابْتَلَيْنَاهُ. إنَّ مادَّة: «**فَتَنَ**» ومُشْتَقاتها تَدلُّ في الغالب على معنى الامتحان والابْتلاء، وقد تدُلُّ على معنى الإحراق والتعذيب بالنار وعلى معنى الإغراء والإغواء للإيقاع في الإثم، وعلى غير ذلك من المعاني.

لقد امْتُحِنَ داود عليه السلام امتحانَيْنِ، امتحاناً في سلوكه الشَّخصيّ، فصدَر عنه ما لا يليق بأهل مرتبة المحسنين. وامتحاناً في الحكم والقضاء، فحكَمَ ولم يَتَّبع الهوىٰ، وكأنّه قد حَكَمَ على نَفْسِه، فكان في هذا الامتحان من ذوي الدَّرجَةِ العليا من درجات الإحسان.

﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ﴾: أي: فَعقِبَ وُضُوحِ الظَّنِّ الرّاجح لدَيْهِ سأَلَ رَبَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ خطِيئته.

الاستغفار: طلبُ المغفرة، أي: السَّتْر، يُقَال لغةً: غَفَرَ الشَّيءَ يَغْفِرُهُ غُفْراً وغُفْرَاناً ومَغْفِرَةً، إذا سَتَرَه، وغُفْرَانُ الخطيئة يقتضي عدَمَ المؤاخَذَةِ عليها.

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾: خرَّ: أي: أسْرَعَ في الْهُوِيِّ للرُّكُوعِ دون بُطْءٍ.
يقال لغة: خَرَّ الشيءُ يَخِرُّ وَيَخُرُّ خَرّاً وخُرُوراً إذا هوى من عُلْوٍ إلى الجهة السُّفْلَىٰ.

رَاكعاً: حالٌ مقدَّرة، أي: ليستَقِرَّ راكعاً. **الرُّكُوع**: الانحناء، وأقصَىٰ لركوع أن تَمَسَّ الرُّكبتان الأرض.

﴿وَأَنَابَ﴾: معنى «أناب» في اللّغة «رجَعَ» والمراد الرجوعُ بالتَّوْبَة، راسم الفاعل منه «منيب» وقد جاء في القرآن بمعنى الرجوع إلى الله بالتوبة رالطاعة.

وأرىٰ أنّ فعل «وأناب» يُعْطِي دَلاَلَتَيْن بالنِّسْبَةِ إلى دَاوُد عليه السَّلام، دليل وجود حرف العطف الدّال على فكرة جديدة مضافة.

الأولى: أن دَاوُد رجع إلى ربّه بصِدْق التوبة والنّدم، والحرْص على ن يحافظ على شروط مرتبة المحسنين وذلك من عُمْق قلبه.

الثانية: أنَّه عليه السَّلام سجَدَ بعْدَ أَنْ أخذ حظَّهُ من الرُّكُوعِ، فيكون لمعنى: وأناب ساجداً، لأنَّ السُّجُود أدَلُّ على كمال الخضوعِ والذّل لله، رقد كان السُّجود معروفاً في عبادات بني إسرائيل، وهو موروث فيهم منذ عهد إبراهيم عليه السلام، إذ أمره الله بأن يطَهِّرَ بيْتَهُ في مكةَ للطائفين رالعاكفين والرُّكَّع السُّجُود، وصحّ عن الرسول محمد ﷺ أنّ أقرب ما يكون العبْدُ من رَبِّه وهُوَ ساَجدٌ.

روى مسلم وأبو داود والنَّسَائي وغيرهم عن أبي هريرة، أنّ النبيّ ﷺ قال:

«اقْرَبُ مَا يكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ».

أي: فأكثروا الدُّعاء وأنتم ساجدون لِرَبّكم في صلواتكم، وبهذا تَتَحقَّقُ الإنابَةُ لله في حالة الجسد، وفي حالة النفس والقلب.

فالعبارة على تقدير: فاستغْفَر ربَّه وخَرَّ راكعاً وأَنابَ ساجداً، فحصل في النَّصِّ الحذفُ اكتفاءً بدلالة ما قبله.

● ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ﴾: أي: ذلِكَ الّذي كان منه، جاءت الإشارة إليه باسم الإشارة الموضوع للبعيد، لاستبعاد شبهة أنّه حكم استناداً لاستماعه من أحد الخصمين دون الآخر، فالمشارُ إليه أمْرٌ آخرَ بعيد عن ظروف قضائه بين الْخَصْمَيْن.

● ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾:

الزّلْفى: اسْمٌ يأتي بمَعْنَى القُرْبةِ والدَّرَجَةِ والمنْزِلَة، ومادّة الكلمة تدلُّ على الْقُرْب والتقريب. يقال لغة: أزْلَفَ الشيءَ وزَلَفَهُ وزَلَّفَهُ، إذا قَرَّبَه. ويقال: زَلَفَ إليه وازْدلَف، أي: دنَا إليه وقرُبَ منه. **والزُّلْفَةُ**: الطَّائِفَةُ من أوَّل اللّيل لقُرْبها.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: وَحُسْنَ مَرْجع، وحُسْنُ المرجع إنّما يكون في جنّات النعيم، وفيما قبل دخولها بعد البعث.

حُسْنَ: مصْدَرُ «حَسُنَ يَحْسُنُ» وهو ضِدُّ القبح. وإضافَةُ «حُسْن» إلى «مَآب» من إضافة المصدر إلى فاعله، أي: وحَسُنَ مآبُ دَاوُد يوم الدّين. أو من إضافة الصّفَة إلى الموصوف، على تأويلِ المصْدَر بمشتقّ والوصْف به، والتقدير: ومآبٌ حُسْنٌ، أي: هو كُلُّه حُسْنٌ.

وجاء تأكيد الجملة بـ «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللام المزحلقة».

● قول الله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

خَلِيفَة: على وزن «فَعِيلَة» إذا كان بمعْنَىٰ «فاعل» فَهُوَ مَنْ يخْلُفُ غَيْرَه في شيءٍ من الأشياء، أَوْ في أَمْرٍ من الأَمُور. كالوارث يخْلُفُ مَنْ وَرِثَهُ في أمواله بَعْد موته، وكالسُّلْطَان يخْلُفُ السُّلْطَان الذي كان قَبْلَه على كُرْسيّ الحُكْم، والأجيالُ الناشئة تخْلُفُ الأجيال السابقة لها، في الانتفاع بالأوْطَان، وامتلاكِ الأشياء التي كانت لها، وإذَا كان لَفْظُ «خَلِيفَة» بمعنى «مَفْعُول» فكُلُّ مُنْتَفع بشيءٍ أو مالِكٍ له من عباد الله، سيكون مَخْلُوفاً من قِبَلِ ذِي انتفاعٍ جديدٍ، أو ذِي مِلْكٍ جَدِيد، إذا مات السابق، أو انتهت مُدَّةُ انتفاعه به، أو انْتَهتْ مِلْكِيَّتُهُ له.

والدَّوْلَةُ المسلمة خَلَفَتْ دُوَلَ الفرسِ والرُّومان والأحباش وغيرها من دَوَلِ الأرض، حينما مَكَّنَ الله المسلمين من إسقاط هذه الدُّوَل واستخلاف المسلمين، إذْ جعل في أيديهم الحكْمُ والسُّلطان في كثير من مشارق الأرض ومغاربها.

وقد جعل الله دَاودُ عليه السلام مَلِكاً على بني إسرائيل وغيرهم، خَلَفاً لطالوت، وكان قد جعل جلَّ جَلاَلُه «طالُوتَ» خليفةً بعْدَ مقتل الملك الوثني الجبار، «جالُوت» على يَدِ داود عليه السلام.

إنّه بعد استِغْفارِ داوُد عليه السلام. وركُوعِه، وإنَابَتِه لربِّهِ سَاجداً تائباً من عارضة الخطيئة الّتي كانت منه، ممّا لا يليق بأهْلِ مَرْتبة المحسنين، وبَعْدَ نَجاحِه في الحكم بالْحَقّ في قَضِيَّةِ الْخَصْمَيْن، الذي كان بمثابَةِ الحكْمِ على نَفْسهِ في القضيَّة المناظِرَة، استحقَّ أَنْ يجعَلَهُ اللَّهُ خَلِيفَةً في الأرض لِمَنْ سَلَفُوا من قَادَةِ المؤمنين، ذوي السُّلْطَان الّذين يقيمون الحقّ والْعَدْلَ بين الناس، والمؤَيَّدين من عِنْدَ الله عَزَّ وجلَّ بالمعونة والتمكين، والتوفيق والتسديد.

فكان هذا استخلافاً مُعَاناً، فَوْق الملْكِ الّذي سبَقَ أن آتاه اللَّهُ إياهُ، فكان فيه خليفة لطالوت.

فوجَّه الله له بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾ وَظيفَةَ الاستخلاف المؤيَّد المعان، ضِمْنَ سلْسِلَةِ ذَوِي السُّلْطانِ المستخلَفين من القادة والملوك المؤمنين.

ولم يَجْعَلْه الله خليفة عنْهُ، كما يتَوَهَّمُ بَعْضُ الّذِين خَدَعَتْهُمْ هذه المقالة، المتسلِّلَةُ إلى فرِيق من المسلمين تسلُّلاً خبيثاً، مناقضاً لأسس العقيدة الإسلاميَّة.

فالله جلّ جلاله قَيُّومُ السماواتِ والأرض، المهيمنُ على كلّ شيءٍ، وبيَدِه الأمْرُ كلُّه، لَهُ الخلْقُ، ولَهُ الأَمْر، وله الحكْمُ والقضاء في كلّ شيءٍ، وَلَمْ يسْتَخلِفْ عنه أَحداً.

وإذْ جَعَلَ الله عزّ وجلّ دَاوُدَ خليفةً، أي: حاكماً في الأرض ذا سلطان مُعَانٍ مؤيَّدٍ بتأييد الله منْصُورٍ بنصره، فإنَّ عليه في هذا السلطان واجباً لا خيرَة لَهُ من أمْرِه فيه، وهو أن يحكُمَ بين الناس بالحقّ، وأن لا يتّبع الهوىٰ، فإذا اتَّبعَ الْهَوَى أضَلَّهُ عن سبيل الله.

● ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾: أمْرٌ من الله جَلَّ جلالُه لداود عليه السَّلام بأنْ يَحْكُمَ بَيْنَ النّاس بالْحقِّ، والحكْمُ بالحقِّ من ظواهره الالتزام بالعدلْ، والعدل هو إعطاء كلّ ذي حقٍّ حَقَّه، والحكْمُ بالحقّ هو سبيل اللّهِ في الحكم.

يقال لُغَةً: حَكَمَ بالأمر يَحْكُم حُكْماً، أي: قضَىٰ به، فالباء للتعدية، والمعنى: قضَىٰ الحقَّ، أي: أمْضَاهُ بنُطْقِه بالحكْم الّذي هو الحق.

● ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الْهَوَىٰ: مَيْلُ النَّفْسِ إلى ما تُحِبُّ وتشتهي ولو كان فيه شرٌّ وضرٌّ وإثْمٌ وعِصْيَان، وفي الْهَوَىٰ معْنَيُ السُّقُوطِ والْهُبُوطِ من علُوٍّ إلى سُفُولٍ غالباً، وقد يرتقى الإنسان فيكون هَوَاهُ تَبَعاً للحقّ والخير والفضيلة ومرضاة الله عزّ وجلّ.

وفي هَذه العبارة بيانُ أَنَّ اتِّباعَ الْهَوَىٰ يُبْعِدُ الْحَاكِم عَنِ الحكْم بالحقّ، فالْهَوَى في النفوسِ لَهُ مُيولاَتٌ وانحرَافَاتٌ لاَ تُحْصَر، واتِّباعُهُ يُخْرِجُ عَنْ سبيل اللَّهِ، إلى سُبُلٍ ومتَعرِّجَاتٍ ومتَاهَاتٍ ومَهَالِكَ، وضلالات، تتلاعَبُ فيها الشَّيَاطين وتَقُود سالكيها أو تَسُوقَهُمْ إلى عواقب وخيمة، وعقوباتٍ من الله جسيمة، واتِّباع الْهوىٰ يوصل إلى اعتناق الباطل، والاسْتِمْسَاك بالأفكار والمفهومات الفاسِدات، ويُوصِلُ إلى الظُّلْم والْعُدْوان والْبَغْي والفساد العريض في الأرض.

وحينما يَتَّبعُ الإنسانُ الْهوىٰ تَغْشَىٰ بصيرَتُه، وتُظْلِمُ نَفْسُه، وتكون تطلّعاتُه إلى زِيناتِ الحياة الدُّنيا وحُبِّ الشهوات منها شُغْلَه الشَّاغِلَ، فينْسَىٰ اللَّهَ وَالدَّارَ الآخِرَةَ ويَوْمَ الْحِسَاب، فيسْقُطُ في الخطايا والموبقات، ويرتكب كبائر الذُّنُوب والآثام، ويسْتَحِقُّ بذلك العذاب الشديد عند ربّه جلّ جلالُه جزاءً وِفَاقاً.

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾:

﴿يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: يُقَالُ لُغَةً: ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ، إذَا جَارَ وخرجَ عن حُدُودِه ذاتَ اليمين أَوْ ذَاتِ الشِّمَالِ، وسبيل الله صراطه المستقيم(١)، وهُوَ تعليماتُ دينه الذي اصطفاه لعباده.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾: أي: لَهُمْ عَذَابٌ شدِيدٌ عنْدَ رَبِّهِم، بسَبَب جَوْرِهِم عن سبيل الله، وسُقُوطِهم في المعاصي والمخالفات وارْتِكَاب كبائر الإثم، أمّا السَّبَبُ الأول فقد جاء في قوله تعالى:

﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾: أصْلُ النِّسيَانِ في اللُّغَة التَّرْكُ، وتَرْكُ الشَّيْءِ وإهمالُه يصْرِفُهُ عن الذَّاكِرَة، فلا يخْطُر في البال.

---

(١) انظر الملحق الرابع من ملاحق سورة الفاتحة حول تدبر آيات الصراط ونحوه في القرآن.

والمرادُ بِنِسْيانِ يَوْم الْحِسَابِ تَرْكُ الْعَمَل بما يُحقِّقُ النجاة من العذاب، والظَّفَرَ بالنعيم المقيم في جنَّاتِ النّعيم يَوْمَ الدّين، بَعْدَ الْحِسَابِ وفَصْلِ الْقَضاء، فالعذاب الشديد لهم سَبَبُهُ الأولُ نِسْيان يوم الحساب.

جَاءَتْ تَسْمِيَةُ يَوْم الدِّينِ بيَوْمِ الحسَاب، لأنَّ الْحِسَاب بعْضُ ما يجري في ذَلك اليوم، وجاء التذكِيرُ هُنَا بالحسَاب لأنّه مُقَدِّمَة فَصْلِ القضاء، الّذي يكون بمقْتَضَاهُ تَنْفِيذُ الجزاء، وبتَنْفِيذ الجزاء يكون العذاب الشديد للّذين تَركُوا في الدنيا الْعَمَلَ ليوْم الدّين، يوم الحساب، وفَصلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء.

ويُلَاحظ في هذا النّصّ ترتّبُ حلقات سِلْسِلة الأسباب بعْضِهَا على بعض، فاتّباع الهوىٰ يُنْسِي العمل للنجاة والظفر يومَ الدّين الذي يكون فيه الحساب. وفَصْلُ القضاء، وتحقيقُ الجزاء، وهٰذا يؤدّي إلى الضلال عن سبيل الله والسقوط في المعاصي وكبائر الذُّنوب، تنازُلاً حتَّىٰ دَرَكة الكُفر بِاللّه وجحود يوم الدين، وهذا يؤدّي إلى استحقاق العقاب والعذاب الشديد بِقَدْر تنازل الدركات، ويكون لكلّ مُذْنب استحقَاقٌ من العَذاب بما يُلائم الدركَة التي انحدَرَ إليها.

وفي هذه الآية بيان ضمنيٌّ تعريضي للذين كذبوا بإنذارات الرسول محمد ﷺ، بأن ما جاءهم به هو إحدى القضايا الدينيّة الاعتقادية التي جاء بها المرسلون من قبله.

● قول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

في هاتَيْن الآيتَيْن استثمار لبعض ما جاء في قصّة داوُد عليه السّلام، المعروضة في هذا الدرس الثاني من دروس السّورة، لإقامة الدليل العقليّ

على قضيَّة الجزاء يوم الدِّين، الّتي جَحَدَها وتَعَجَّبَ من نَبَئِها الْمُصِرُّونَ على كُفْرِهم من كُبَرَاءِ مكَّة، الَّذِينَ جاء بيانُ تعجُّبِهِم في الدَّرْس الأوّل من دُرُوس السورة في قول الله تعالى في أوائلها:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾﴾.

فمع كوْنِ هَاتين الآيَتيْن من توابع الدرس الثاني فقد جاءَتَا موصولتين ببعْضِ ما جاء في الدرس الأوّل منها، وهذا من عناصر وحدة موضوع السّورة القرآنيّة.

عرض الدليل العقلي الذي جاء في هاتين الآيتين بعبارة مبسوطة:

(١) يَبْدأ الاستدلالُ من أرْضيَّةٍ فكريَّةٍ يَقِفُ عليها المعنيُّون بالخطاب، وهم مشركو مكة إيَّانَ التنزيل.

إنّهم كانوا يؤمنون بأنّ الله جلَّ جلالُهُ خالقهم وخالق السَّماء والأرض ومابينهما، إذَنْ فَهٰذِه قضيَّةٌ مفروغٌ منها، لا يحتاجون إلى إقامة دليل عليها.

(٢) وبناء على أنَّ الله عزّ وجلّ هو خالق السَّماء والأرض وما بَيْنهما، وخالِقُ ما فيهما من أشياء وأحياء ونباتات، وخالِقُ الناس أجْمعين، فهل يَجِدُونَ في شيءٍ من خَلْقِ الله مَخْلُوقاً غَيْرَ مُتْقَنٍ وغير حَكِيم؟.

لا بُدَّ أن يكون الجوابُ القطعيُّ ولو بَعْدَ تأمُّلٍ وبَحْثٍ وتفكير: لا نَجِدُ في هذا الخلْقِ الرَّبّانيّ شيئاً غَيْرَ مُتْقَنٍ وغَيْرَ حكيم.

إنَّهُ صُنْعُ الله الَّذِي أتْقَنَ كُلَّ شيْءٍ، وأحكمَ كُلَّ شيء، وإتقان الأشياء، ووضْع كلّ شيءٍ في مَوْضِعه الملائم له بحكْمَةٍ تامَّة، لاَ بُدَّ أن يكُونا مصحوبَيْن بعِلْمٍ شامل.

إذَنْ فالخالق جلَّ جلاله مُتْقِنٌ حكيمٌ عليم، وهذه نتيجةٌ منَ الضَّرُوريّ أن يُسَلّم بها، ويعْتَقِدَهَا كُلُّ عاقلٍ مُنصفٍ يَنشُد الحقّ، وليْس له هوىً على خلافه.

(٣) عند هذه المرحلة الإقناعيَّة يحْسُنُ طرحُ السُّؤال التالي:

أليسَ في النّاس مَؤْمُنُون باللّهِ ويَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ الَّتي تُرْضيه، وآخَرُون كافرون بالله، ويُفْسِدُون في الأرض، أو مؤمنون إلاّ أنَّهم يُفْسِدُونَ في الأرض فِسْقاً وظُلْماً وعدواناً؟؟.

أليس في الناس مؤمنون بالله ويتَّقُون مَا يُسْخِطُهُ، ويتَّقون عقابه. وآخَرُون فُجَّارٌ ينْطَلِقُونَ على أهوائهم وشهواتهم في المعاصي والشرور، دون خَوْفٍ مِنْ جزاءٍ وعقاب؟؟.

لا بُدَّ أن يكون الجواب التّلْقائي دون تأمّلٍ وتفكير طويل: بلَىٰ، فهذه الأقسام من الناس موجودة كلُّها.

(٤) وعند هذه المرحلة الإقناعيَّة يحسُنُ طرح السؤال التالي:

أليْس الخالقُ المتْقِنُ الحكيم الْعَلِيمُ هو الذي خلَقَ النَّاسَ، ومَنَحَهُمْ قدرات الفهم والعلم، ومَنَحَهُمْ إرادَاتِهِم الحرَّةَ المختارة، الَّتي يختارون بها أنواع سُلُوكهم في الحياة من خَيْرٍ أو شَرّ، ونفْع أو ضَرّ، وَعدْلٍ أو جَوْر، وإحسانٍ أو عدوان، وغير ذلك من أضْدّاد، وسَخَّرَ لهم بقضائه وقدره وخلقه مع ذلك، ما في الأرض وما في السَّمَاءِ وما بيْنَهما؟؟

لا بُدَّ أن يكون الجواب العقليُّ المنطقيُّ: بلى. فالخالق هو الذي منحهم كلَّ ذلك، ومكَّنَهُمْ من سُلُوك طريق الخير، وطريق الشرّ، وعرَّفهم بهما، وبيّنَ لهم حُسْنَ سُلُوكِ طريق الخير، وقُبْحَ سُلُوكِ سُبُلِ الشرّ، وجعلَهُمْ يُدْرِكون أنّ فاعل الشرّ ينبغي أن يُعاقب، وأن فاعل الخير ينبغي أن يُوقَىٰ العذاب، ويُكْرَمَ ويُثاب.

(٥): وعند هذه المرحلة الإقناعيَّةِ يَحسُنُ طَرْحُ السؤال التالي: هَلْ يليقُ بالخالق المتقن الحكيم العليم أن يَخْلُقَ الناس بهذهِ الصفاتِ، الّتي من ظواهر اختياراتهم الحرّة معها، أن يُوجَدَ فيهم مؤمنون وكافِرون، ومُسْلِمُونَ

ومُجْرِمُونَ، ومُصْلِحونَ ومُفْسِدُونَ، ويَتْرُكُهُمْ سُدىً، دون أن يُثيبَ مُحْسِنيهِمْ، ويعاقب مُسِيئيهم؟؟.

لا بُدَّ أنْ يكون الجوابُ حتماً: هذا لا يليق، ولا يُمْكن أنْ يكون، فصفاتُ الرّبّ العظيم الجليل الحكيم العليم القدير تأبَىٰ ذلك، بل هو أمْرٌ غير ممكنٍ عقلاً.

(٦) وعند هذه المرحلة الإقناعية يحْسُنُ طرح السُّؤال التالي:

ألَسْنَا نَجِد مُفْسِدين مُجْرمين كفَّاراً جبّارين يموتون قبل أن ينالُوا عقابَهُمْ العادل؟

ألَسنَا نجد مسلمين مؤمنين مُتَّقِين وأبراراً ومحسنين يموتون قبل أن ينالوا ثوابهم على أعمالهم الصالحة؟.

لا بُدّ أن يكون الجوابّ الحتميُ: بلَىٰ. فهذا أَمْرٌ مَشْهُودٌ ومتكرِّرٌ دواماً.

(٧) وعند هذه المرحلة الإقناعية يحْسُنُ طرح السؤال التالي:

فأيْنَ إذَنْ تطبيقُ حكْمة الله في فَضْلِه وعَدْله، وهو الأمْرُ الذي لا بُدَّ أَنْ يكون بمقتضىٰ برهان العقل، من خلال النظر في صفات الرّب العظيم الجليل الحكيم العليم القدير العدل الرحيم ذي الجلال والإكرام والإنعام؟؟

هُنَا يتيقَّظُ فِكْرُ العاقل الحصيف المنصف الذي ينْشُد الحقّ، وليس له هوىً على خلافه، فيقُول:

لا بُدَّ أن يكون الخالق الحكيم قد أعدّ في خُطّتِه ظُروفَ حياة أُخْرى غير هذه الحياة الدنيا، ليُقيم فيها الجزاء بالعدل أو الفضل على مقتضى حكمته وواسع فضله ورحمته، وعظيم عدْله.

(٨) وهنا نَصِل إلى المطلوب، ويكون الدليل العقلي الذي تنقَّل بنا

في مراحل، كلُّ مرحلةٍ منها يلْزَم عنها المرحلة الّتي تليها، دليلاً برهانيّاً مُلْزِماً، مُثْبِتاً ضرورةَ يوْمِ الدين بالدليل العقليّ البرهاني.

ومن أنكر هذا فلا بُدَّ أَنْ يَلْتَزم مقولَةً عن الله أخرى تنفي حكمة الله في الخلْق، وتثبت أنّ خلْقَ السّماء والأرض وما بينهما، وخلْق الإِنس والجنّ باطِلٌ وعَبَثٌ من العبث.

هذا ما دلَّتْ عليه الآيتان:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

ينفي اللّهُ جلَّ جلالُهُ وعَظُم سلطانه، باستخدام ضمير المتكلّم العظيم، أَنْ يكون قد خلق السَّماءَ والأَرْضَ وما بينهما من إنْسٍ وجنٍ وملائكة وحيوان ونبات وغير ذلك باطلاً دون قَصْدٍ حكيم، وغايَةٍ حكيمة، ويبيّن أنَّ ذلك التصوُّرَ المستَبْعَدَ إلى ظُلُماتِ المستحيلات العقلية ظَنُّ الَّذِينَ كَفرُوا، وهو حتماً ظَنٌّ ضعيف جدّاً من دَرَكَةِ التوهُّماتِ الباطلات.

باطلاً: الباطِلُ ضِدُّ الحقِّ، والعملُ الباطلُ، هو الذي لا يُؤَدّي إلى غايَةٍ حكيمة، ومن العمل الباطل إجراءُ اختبارٍ يكون فيه ظالم ومظلوم، ومُسْلِمٌ ومُجْرم، ومُحْسِن ومُسِيء، ثُمّ ينتهي الامتحان دون حساب، وفَصْلِ قضاء، وتحقيقِ جزاء، هذا أمْرٌ لا تسْتَسِيغُه نُفوسُ الأطفال الصّغار، فضلاً عن أهل العقل والرشد والرأي السديد. ومن العمل الباطل تضييع الأوقات والطاقات سُدَىٰ بلا فائدة تجنىٰ، كالمرأة الحمقاء الّتي تنقض غَزْلها مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أنْكَاثاً، وكالرجل الأحمق الذي يَهْدِم بنياناً لا ليقيم مكانه بُنْياناً أفضل منه، إنما يَفْعَلُ ذلك لمجرَّدِ العبث.

فهل تقبلُ العقول أن يخلُقَ الله الإنسانَ في أحْسَنِ تقويم، ويُسَخِّرَ له

ما في الأرض والسماء، فهو يتصرّف بالأشياء ضِمْن قوانينها وأنظمتها باختياره الحرّ، وهذا التصرّف ينجم عنه ظالِمٌ ومظلوم، وذو غِنىً ومَحْروم، ومُسِيءٌ ومُحْسِن، وكافِرٌ ومُؤمن، وتقيٌّ ومُجْرِم، ثُمَّ لا يكون بعد ذلك حسابٌ، ولا فَصْلُ قضاء، ولا جزاء؟!!

إنَّهُ تمكين لذوي القوَّةِ من أن يكون الباطل هو العزيز الفائق، وأَنْ يكون الحقّ هو الذَّليل الزاهق، وهذا عند كلّ العقول السليمة عملٌ باطل، وكلُّ ما يُؤَدّي إلى باطلٍ فهو باطل.

إذا كانت الغاية من الخلْق هذا الأمْرَ الباطل، فإنّ الخلْقَ نفسه عمل باطل، يُفْضِي إلى تمكين الباطل من إزهاق الحقّ.

فمن زعم أنه ليس بعد هذه الحياة الدّنيا حساب، ولا فَصْل قضاء، ولا تنفِيذُ جزاء، لزِمَهُ أن يَدّعي أنّ الله جلَّتْ قُدْرَتُه وعظمت حكمته، قد خلَقَ هذا الخلْقَ باطلاً وعبثاً، وهذا جحودٌ لكمال صفات الله عزّ وجلّ، وهو من الكُفر بالله، وإنّ الّذين يقولون هذا ما قدروا اللَّهَ حقَّ قَدْره، إنّهم بهذا الزعم ليس لهم إلاّ الأوهامُ التي هي أضعف الظُّنون الساقطة بالبداهة، وهي أوهام زيَّنَتْها لهم رغباتهم الفاجرات بالتحرُّر من قيود الحقّ والخير والفضيلة، ورغباتهم باتّباع أهوائهم وشهواتهم.

﴿. . فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾: **فويلٌ**: أي: فعذابٌ شديدٌ لهم من عذاب النار، الذي يذوقون فيه عذابَ الحريق.

و «ويل» وادٍ في جهنّم، كما سبَقَ بيانه لدى تدبر سُوَرِ (الماعون والهمزة والمرسلات) «ويْلٌ» مبتدأ. «للذين كَفُروا» في محلّ رفع خبر.

وفي هذه العبارة وعيد من الله جلّ جلاله لهم بعذاب شديد في النار يوم الدين.

- ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: بَلْ أَنَجْعَلُ المؤمِنينَ الصَّالحين كالكفَرَةِ المفسدين في الأرض، سواءً محياهم ومماتهم، فَنُنْهِي رحلة امتحان هؤلاء وهؤلاء، دُونَ وضع خُطَّةٍ مستقبليّة يكون فيها حسابٌ وفَصْلُ قضاء وتنفيذ جزاء؟؟!.

بل. أنجعل المتقين عقابَ رَبّهم، كالْفُجَّار الذين يَنْبعِثُون لارتكاب الجرائم والآثام الكبرى، بكلّ ما لديهم من طاقات وقُوىً، واندفاع إلى الشرّ بوقاحة ومَجَانة، دون مُراقبة لحساب ولا جزاء؟؟!.

«أَمْ» فيها معنى الإضرابِ والاستفهام في الجملتين، والاستفهام هنا استفهامٌ إنكاريٌّ فيه معنى التعجيب من ظنّ الّذين كفروا.

والمعنى أنّ حكمة الله الرّب الجليل العظيم خالق الكون بحكمته، تَأْبىٰ هذا الباطل وهذا العبث، بل هو سَيُقِيم عَدْلَهُ وفضله يوم الدين، كما أنذر وبشَّرَ في كلّ ما أنزل من كتاب على رُسُله.

﴿ٱلْفُجَّارِ﴾: جمع «الفاجر» وهو المنبعث انبعاثاً وَقِحاً في فعل الشرّ والضرُّ والظلم والعدوان، وارتكاب كبائر الإثم والعصيان.

وفي الآية محذوفٌ دلَّ عليه التقابل، فالذين آمَنوا وعَمِلُوا الصالحات، يقابلهم الكافرون المفسدون في الأرض، فجاء في الآية الاكتفاءُ بعبارة: ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن التصريح بعبارة كالكافرين لأنَّ التقابل يَدُلُّ على المحذوف.

ومرتبة «المتقين» يقابلها دَرَكَةُ «الْفُجّار» أي: الذين ليس لديهم أدنىٰ درجات التقوىٰ المنجيَةِ من الخلود في عذاب النار.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

وقرأ أبو جَعْفر: **[لِتَدَبَّرُوا]** بالتاء بدَلَ الياء، وبتخفيف الدّال، وأصلُها «لتتدبَّرُوا» ثَقُلَ تكرار التاء فحذفتِ الثانية، وهي تاء الفعل تخفيفاً. ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾

وهي قراءة باقي القراء العشرة، أصْلُها «لِيَتَدَبَّرُوا» قُلِبَتِ التاء دالاً لقُرْب مَخْرَجهما وأدْغِمَتْ بالدّال بعدها.

وفي القراءتين تكامُلٌ بيانيّ، فالّتي بتاء الخطاب يخاطبُ الله بها الرسُولَ والذين آمنوا، والّتي بياء الغيبة يتحدَّثُ اللَّهُ بها عن الآخرين الذين لم يُؤْمِنُون، أي: ليَتَدبَّر مِنْهم آياته الّذِين لديهم استعداد للاستجابة للحقّ.

هذه الآية من الدرس الثاني ذات اتصالٍ بأول عُنْصُرٍ من عناصر موضوع السورة الوارد في أوّل آيات الدرس الأول منها، وهو قول الله عزّ وجلّ: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١﴾ وقد سبقَ تدبُّر هذه الآية.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ﴾: خِطاب للرّسول محمد ﷺ، أي: القرآن المجيدُ ذُو الذّكر هو كتابٌ أنزلْنا بعْضَه إليك وسنُنْزِلُ سَائرهُ إليك تباعاً بحسَب مقتضيات الحكمة التعليميَّة والتربويَّة، فَإنْزَالُهُ جميعاً قد تَمَّ به الْقَضاءُ فَهُو في حُكْم الَّذِي قَدْ أُنْزِلَ كلُّه باعتبار ما سَيؤُول إليه الأمْر. وأنزلناه محفوظاً حتَّىٰ وصَلَ إليك كما أَنْزَلْناه وقد سمَّىٰ الله عزّ وجلّ القرآن «كتاباً» وعرَّفه بأداة التعريف «الكِتَاب» في عِدَّةِ نُصوص، تَوجيهاً لكتابَتِهِ، وتكليفاً بها، حَتَّىٰ يَكُونَ نصًا قطعيَّ الثبوت، مُدَوَّناً مُبَيَّناً في كتابٍ مكتوب، محفوظٍ من التحريف والتبديل، في أيّ حرْفٍ من حرُوفه، وأيّ كلمة من كلماته.

وسَمَّاه اللَّهُ «قُرْآناً» وعرَّفه بأداة التعريف «القرآن» في كثيرٍ من النصوص، توجيهاً لجمعِهِ وَقِرَاءَتِه من المصْحَفِ المكتوب المدَوَّنِ المحَرَّر المحْفُوظ.

وسَمّاهُ الله «ذِكْراً» وعرَّفه بأداة التعريف «الذِّكْر» في عدّة نصوص، توجيهاً لحفْظِهِ وتذكُّرِه واستحضار آياته في الذاكرَة، عند كُلّ مناسبة داعية.

وسمّاه الله «الفرقان» للدّلالة على ثلاثة أمور.

الأمر الأوّل: أنَّه مُفرَّقٌ مُفَصَّلٌ في آياته ومعانيها تفصيلاً محكماً.

الأمر الثاني: أنّه يَفرِقُ ويَفْصِلُ بين الحق والباطل، والخير والشرّ، وبين ما فيه سعادة الناس وما فيه شقاؤهم.

الأمر الثالث: أنّهُ حُجَّةُ اللَّهِ على عباده بما فيه من إعجاز وحُجَجٍ برهانية دامغة.

فالْفُرْقَان في اللّغة مصْدَر فَرَقَ الشيءَ يَفرُقُه ويَفرِقه فَرْقاً وفُرْقَاناً، والمصدر يُسْتَفادُ منه أنّ القرآن فارِقٌ ومَفْرُوق.

ويأتي الفرقان في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ الحجَّةِ والبُرْهَان.

وقد جاء في القرآن تعبيران حول إنزاله، ففي بعض النصوص قال الله عزّ وجل: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ فجاءت التعدية فيها بحرف «إلى» وفي نصوص أخرى قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ فجاءت التعدية فيها بحرف «على» فما الحكمة من هذا التنويع؟.

الذي يظهر لي أنَّ التعدية بحرف «إلى» قد جاءت للدلالة على معنى توصيل المنزّل من القرآن إلى الرسول كما أنزله اللَّهُ من لَدُنْه. وأنّ التعدية بحرف على قد جاءَتْ للدّلالَة على ما في القرآن من تكاليف يجب على الرسول وسائر المؤمنين أن يَحمِلُوها بقُوَّةٍ، ويَعْمَلُوا بها، فهي أحمالٌ وأعباءٌ ملقاة على ظهورهم، وهم مسؤولُون عن واجباتها.

﴿مُبَٰرَكٌ﴾: وصف الله عزّ وجلّ هذا الكتاب (القرآن) بأنه مبارك، أي: ذُو بركة.

البركة: هي النماء والزيادة في الحسيّات وفي المعنويَّات. ورُوِي عن ابن عبّاس رضي الله عنه أنَّ البركةَ الكثرة في كُلّ خَيْر.

ويقال لغة: بَارَكَ اللَّهُ الشيءَ، وبَارَكَ فيه، وبارَكَ عليه، أي: وضع فيه البركة.

ومعنى كوْنِ القرآن مباركاً أنّه لاَ تَنْضَبِ فيوض معانيه، وأنّه ذُو خَيْرَاتٍ كثيراتٍ جِدًّا فكريّة ونَفْسِيَّةٍ وشفائيّة وغير ذلك.

لكنّ هٰذِهِ المعانيَ المباركة الثرّة لا يقتَبِسُ منْهَا إلاّ الّذِين يَتدَبَّرونَ آياته.

● ﴿.. لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾:

في هذه العبارةِ بيَانُ أنّ من أغراض إنْزال هذا الكتاب غرضَيْن:

الغرض الأول: تدبُّر آياته.

الغرض الثاني: تذكُّر أولي الألباب.

تدبُّر النصّ: هو التّفكُّر الدّقيق العميق الّذي تُلاحَظُ فيه العواقب ببصيرة، حتّىٰ الأطراف البعيدَةُ التي يدُلُّ عليها النّصّ، وبالتدبّر السليم تَحْصُل المعرفة الشّامِلةُ للنصّ، من أوائله حتى أواخره، ويدخُل فيها اللّوازم الفكريّة الّتي يقتضيها النّصُّ قبل مَعْناه المطابق لِلَفْظِه، وبَعْدَ معناه المطابق للفظه.

والتدبُّر: هو النظر في عواقب الأمور وأدبارها وما تَؤُول إليه.

ومنه التدبير، وهو وضع الخطط الشاملة للأمور من بداياتها حتى أدبارها.

فتدبُّر كلمة «الذِّكْرِ» عنواناً للقرآن المجيد، يَتَطَلَّبُ استدعاء اللّوازم التي يستدعيها الفكر، والّتي تكون قبل كونه ذِكْراً، وهي تَبَلُّغه باصغاء، والإيمانُ به، وتَفَهُّم معانيه، وحفْظُها في الذاكرة، وحفظ مَا يجِبَ حفظه من نصوصه، وتذكُّر ذلك عند المناسبات الداعيات للعمل بها، وهذه هي الحلقة الأخيرة من سلسلة اللّوازم الفكريّة، فأُطْلِقَ على القرآن أنه ذِكْرٌ للعالمين.

وتدبُّر عبارة «رَبّ العالمين» يتطلَّبُ استدعاء اللّوازم الفكريَّة الّتي تلزم عن كونه ربّ العالمين، وهي وحدتُه في ربُوبيته فلا شريك له فيها، وكونُه مالكاً لمَنْ هو ربُّهم، فهم عبيده، وَمَلِكاً علَيْهم فلا حُكْمَ إلاَّ حَكْمُهُ ولا سُلْطانَ إلاَّ سُلْطَانُه، وكَوْنُهُ إلَهاً لهم، فلا معبود بحقٍّ للعالمين سواه. كلُّ هذه اللّوازم الفكريّة تأتي عَقِبَ فهْم كوْنِ الله رَبّ العالمين بالتَّتبع التدبُّرِي الذي جرَّ إلى آخر حلقات سلسلة اللّوازم الفكريَّة.

وهكذا يَنْبغي أن يكون تَدَبُّر آيات القرآن المجيد ذي الذكر.

ولكن ليس الغرض من تدبُّر آيات الله مجرَّدَ التَّرَف الْعِلْمِيّ، والافتخار بتحصيل المعرفة، والتوصُّل إلى كشْفِ المعاني للتَّعالي بمعْرِفَتها واكتشافِها، إنّما وراء الفهم غَرَضُ التَّذَكُّرِ عند المناسبات الدَّاعيات، ومَعَ التذكُّر تكون العِظَة، ويكون العمل بموجب العلم، وهذا التذكر المقصودُ لا يحظَىٰ بِهِ إلاّ أُولو الألباب، وهم أهل العقول الحصيفَة، والأذهان النظيفة، والنّفوس الشريفة. وهذا ما دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

لبُ الرَّجُل: ما جُعِلَ في قَلْبِه من العقل، ولُبُّ كلِّ شيءٍ خالِصُهُ وخيارُه فالذين لا يتدبَّرون القرآن ولا يتذكَّرون ما يجب أن يتذكروه منه، ليسوا بأولي ألباب.

❁ ❁ ❁

التدبر التحليلي للفقرة الثانية
من الدرس الثاني من دروس السّورة وهي الآيات من (٣٠ ـ ٤٠)

قال الله عزَّ وجل:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ

بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ
وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى
لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ
﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا
فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

تمهيد:

اشتملت هذه الفقرة على مقتطفاتٍ مختزلاَت من قصّة حياة سليمان بن داود عليهما السلام، وهي معطوفة على المقتطفات المختزلات من حياة أبيه داوُد، دون أن تُستَفْتَح بعبارة: «واذْكُرْ» مثل أشباهِهَا في السّورة، لأنّ حال سليمان كحال أبيه عليهما السّلام، فكُلُّ منهما قد آتاهُ الله المُلْكَ، وكلٌّ منهما قد خصَّه الله بتَسْخِير بعض ما خلَق تسخيراً خاصًّا، وكلٌّ مِنْهما أوّابٌ كثيرُ التوبة والرُّجُوعِ إلى الله، وكلٌّ منهما قد امْتُحِنَ فوقع منه ما لا يَنْبَغِي أن يَقَع من مثله، وكلٌّ منهما أناب إلى ربّه مسْتَغْفِراً تائباً فغفر الله له، وكلٌّ منهما قال اللّهُ عزّ وَجَلَّ بشأنه:

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

إذن فالتذكير بقصة حياة سليمان نظير التذكير بقصّة حياة أبيه داود عليهما السّلام، من حيثُ الغرضُ من هذا التذكير الموجَّهِ للرسول محمّد ﷺ للتأسّي، واختيار ما يُحِبُّ لنفسه من أحوال الرُّسُل عليهم السّلام، فكان مُجرَّدُ العطف هو المناسِبَ، لتشابُهِ مضمون القِصَّتَيْن.

وفي عبارة: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ ربْطٌ بقِصَّة داوُد، وتوطِئَةٌ لذِكْر مقتطفاتٍ من قصَّةِ سليمان تُلائِمُ الْغَرضَ مِنَ التذكير بهما.

إنّ الإنسانَ يُحِبُّ الولَدَ الوارثَ لأمْجادِه، إذْ يَشْعُرُ أنّه امتدادٌ لبَقائِه، فيُعَوِّضُ به عَنْ رغْبَته في اسْتِمْرار البقاء في هذه الحياة الدُّنيا، ولو كانَ على يَقِينٍ بأنّه سَيَخْلُد يومَ الدين.

وهذِهِ الرَّغْبَةُ من الفِطَر الإنسانيَّة الَّتي تُلازِم النَّاسَ، ولو كانوا أنبياء ومُرْسَلِين.

والإنسانُ قد يُحِبُّ أن يكونَ ولَدُهُ الوارثُ لأمجاده من الزّوجَةِ الَّتي أحَبَّها، وكان لداودَ عليه السلام أولادٌ من زوجاتٍ سابقات للمرأة الّتي تَعَلَّقَتْ نَفْسُهُ بها، فتَزَوَّجها، فولَدَتْ له سليمان.

ونلْمَحُ من الدَّلالات الضِّمْنِيَّة لقَوْلِ الله تعالَىٰ: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ ومن استعمال ضمير المتكلّم العظيم أنّ الله جلّ جلاله وعظم سلطانه قد حقَّقَ لداود عليه السّلام الرَّغْبَتَيْن: فجعل وارِثَ الْمُلْكِ والأَمْجادِ وأهمُّها الأمْجادُ الدينيّة مِنْ أوْلادِه، وجعَلَ هذا الوارثَ من الزّوْجة الّتي تعلَّقَتْ بِهَا نَفْسُهُ.

وبهذه العبارة الرابطة دخَلَ الْبَيَانُ بابَ الحديث عن سليمان.

التدبر التحليلي:

● قول الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا﴾: **الهِبَةُ**: الْعَطِيَّةُ الخالية من الأعْواضِ والأغراض، يقال لغة: وهَبَ لَهُ الشّيْءَ يَهَبُهُ وَهْباً وَوَهَباً وَهِبَةً.

وعطاءات الله جلّ جلالُهُ كلُّها هِبَات، إنّه هو الكريم الوهَّاب.

ومَنْحُ الذُّرِّيَّة الصالحة الماجدَةِ مِنْ أعظم هباتِ اللَّهِ لعَبْدِه.

﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾: هذا هو عنوان البيان الآتي في السورة عن سليمان، وفيه وَصْفَانِ له:

الوصف الأوّل: وصف يَسْتَحِقُّ أنْ يُمْدَحَ من أجله، وهو تحقُّقُهُ بعبوديَّةٍ لرَبِّه وهذه يَسْتَحِقُّ من أجلها أن يقول اللَّهُ بشأنه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾.

إنّ عبارةَ المدْحِ الدَّارِجةَ في اللِّسَان العربيّ هي عبَارَةُ: نعم الرَّجُلُ فُلان، ونحوها.

قال النحاة من علماء العربية: «نِعْمَ» فعلٌ جامدٌ لإنْشَاءِ المدح على سبيل المبالغة، أي: مع غرَضٍ تعظيم هذا المدح، وبيان أنّه كبير، وفاعل فعل المدح «نعم» هُنا كلمة «الْعَبْدُ» فالفاعل هنا اسم ظاهرٌ معرَّفٌ بـ «ال» الجنسيّة، وجملة المدح هذه تحتاج إلى اسم يكون هو المخصوص بالمدح، ويُعْرِبُهُ النحاة مبتدأً متأخِّراً، والجملة من «نِعْمَ» وفاعِلِه في محلّ خبر متقدّم.

لكن المخصوص بالمدح في الآية وهو لفظ «سليمان» محذوفٌ إيجازاً، للعلم به من الجملة السّابقة.

وجاء بعد ذلك في عرض مقتطفاتٍ من قِصَّةِ حياتِه مثالٌ مما استحقّ به عبارة المدح، وهو رغبتُه في إعْدَاد خيول الجهاد في سبيل الله، لنشر دين الله، واهْتِمَامُهُ بها تَدْرِيباً واستعراضاً لها، وحَثًّا على اقْتِنَائها، وهذا أَمْرٌ يستحقُّ المدْحَ المبالغ فيه.

الْوَصْف الثاني: بيانُ أنّه أوّابٌ، أي: رجّاعٌ إلىٰ الله بالاستغفار والتوبة وذِكْرِ الله، كلَّما شَغَلَتْهُ شَواغِلُ الْمُلْكِ والسُّلْطان، أو تعَرَّضَ لِمَا لاَ يليقُ بمَقَامِ نُبُوَّتِه وَرِسَالَتِه، مِمَّا قَدْ يُبْعِدُهُ عن مقَامِ قُرْب المقربين الْمُحْسِنين، ولو كَانَ من الأعمال الّتي لا تُسْتَنْكَرُ من المتقين، ولا من الأَبْرار.

وجاء بعْدَ ذلك في عَرْضِ مقتطفاتٍ من قِصَّةِ حياتِه، مثَالٌ غامِضٌ ممَّا فُتِنَ به، أي: امْتُحِنَ به، فكان منه ما لاَ يليقُ بأمثاله من الأَنبياء والمرسَلِين، ثُمَّ أنابَ إلى ربّه، وقال: ربّ اغفِرْ لي، ولَمْ يتنازَلْ عن رغْبَتِه في مُلْكٍ وسُلْطَانٍ أوْسَعَ ممّا لدَيْه من ذلك، فَأَتْبَعَ اسْتغفارَهُ بقوله في دعائه لربّه:

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

إذن فالبدء بالحديث عن سليمان عليه السلام قد كان عنواناً مِنْ شقَّيْن.

وتفصيل الحديث عنه قد كان بضرب مِثالَيْن: فالمثال الأول مثالٌ للشقّ الأوّل من العنوان، والمثال الثاني مثال للشِّقّ الثاني من العنوان.

وبعد عرض المثالَيْن قال الله عزّ وجلّ بشأنه مثل قوله بشأن أبيه داود عليهما السلام: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هذا ما تكشفُه النظرة الكُلِّيَّةُ الإجمالية، لما جاء عن سليمان عليه السلام في هذه السّورة.

أوّلاً: تدبُّر المثال الأول لما استَحقَّ به المدْحَ

● قول الله تعالى بشأن سليمان:

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

● قرأ نافِعٌ، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفَر: ﴿إنِّيَ أَحْبَبْتُ﴾ بفتح ياءِ المتكلم، وقرأ الباقُونَ بإسْكَانِها.

﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾: هو الوقْتُ من الْعَصْرِ إلى الغروب.

﴿ٱلصَّـٰفِنَـٰتُ﴾: صِفَةٌ للخيل، استُغْنِيَ بِذِكْرِها عَنْ ذكر الموصوف، الصَّافِنُ من الخيْلِ هو القائم على ثلاث قوائم، وقد أقام الرابعة على طَرَفِ الحافِرِ، أو قَلْبَ حافِرَ الرابعة، وهذه حَرَكَةٌ تفعلُها الخيْلُ عند سُكُونِها واقفةً، ولا سِيَّمَا عِنْدَ تَهَيُّئِهَا لِلْجَرْي.

﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جَمْعُ «الجواد» وهو الفرسُ السَّابقُ، يقال لغة: «جواد» للذكر والأنْثىٰ، ويجمَعُ «جَواد» على «جِياد، وأَجْيَاد، وأجاويد».

وقصّة هذه الحادثة الّتي ذكرها الله عزّ وجلّ بصُورَةٍ مُوجَزَةٍ مُخْتَزلَةٍ، أخذاً من دلالات البيان القرآني الدّالّ عليها في هذه السورة:

كان سليمان عليه السَّلام مولَعاً باقْتِنَاء الْخُيُولِ واستعراضِهَا، لأنَّها من أفعل الوسائل في الْعُصُور السالفة للجهاد في سبيل الله، بغيَةَ نَشْرِ دين الله، وقَمْع الكُفْر والشِّرْكِ والْمُشْرِكين والمفْسِدِين في الأرض.

وفي عشيَّةٍ من الْعَشَايا، وهي في العادة تكون بعد وقت العصر، حتّىٰ غُروب الشمس، طلب سليمانُ عَرْضَ موكب خيوله عليه، فَعُرِضَتْ عليه أَرْتَالاً، ورُبَّما رَافَقَ ذلِكَ سِبَاقَاتٌ بيْنَ بَعْضِها.

ولا بُدَّ أَنْ تَسِيرَ مارَّةً قُرْبَ مَجْلِسِهِ في اسْتِعْرَاضِها، متّجهةً في طريقها ومُنْصَرِفَةً نَائِيَةً عنه، وهِيَ مِنْ نُقَايَاتِ الخيول وجيادها، ورُبما كانت مُسْرَجَةً مُلْجَمةً علَيْها فُرْسانُها، واستمرت مَسِيرة عَرْضِ الخيول حتّىٰ اسْتَتَرَ آخِرُ أَرْتَالِهَا عن نَظَرِه، انْعِرَاجاً ذاتَ الْيَمِينِ أو ذاتَ الشّمال، أو هبوطاً في طريقٍ نَازِلَةٍ، أو نحو ذلك.

وشعَرَ سليمانُ عليه السَّلامُ وهو يسْتَعْرِضُ خُيُولَهُ، أنَّه ابْتَهَجَ بهذا المشْهَدِ الرائع، وسُرَّ بِه، وخَافَ أنْ يكونَ قد مالَ إلى مباهج الحياة الدُّنْيا، ورغبَةِ الْعُلُوِّ في الأرض، وخافَ أنْ يَفْهَمَ شَعْبُه ذلك عنه، فقال لحاشِيَتِه والنَّاسِ مِنْ حَوْله: إنّي أَحْبَبْتُ اقْتِنَاءِ جِيَادِ الخيُولِ وَتَدْرِيبَها واسْتِعْراضَهَا حُبَّ الْخير، أي: لاَ حُبَّ التَّفَاخُر والتَّعَاظم والْعُلُوِّ في الأرْض الّذِي لا يَلِيقُ بأهل الْقُرْبِ من الله جَلَّ جَلاَلُه، وهذا الْخَيْرُ هو الجهادُ في سبيل الله لنشر دين الله وإعلاء كلمته.

وهذا الحبُّ الّذي أحْبَبْتُه للخُيُولِ ناشِيءٌ وصادرٌ عن ذِكْرِ رَبِّي، لا عن انْشِغَالِ نَفْسِي بمباهج الحياة الدنيا وزِينَتِهَا وَمَفَاخِرِها.

ثمّ طَلَبَ من أُمَرَاءِ سَاسَةِ الخيُولِ أَنْ يَرُدُّوها عليه، فَرَدُّوها، فلَمَّا وَصلَتْ إلى مكان الْعَرْضِ قافلةً، قامَ من مجْلِسِه ونَزَل إلى طريق الْعَرْضِ، وأخَذَ يُعبِّرُ عن تكريمه لها إشعاراً بتكريم الغايةِ منها، فجعل يَحْنِي ظَهْرَهُ تواضُعاً فَيَمْسَحُ بِسُوقِها، ويُقيمُ ظَهْرَهُ فيَمْسَحُ بأعْنَاقِها.

أمّا ما ذكَرَهُ بعْضُ أهْلِ التأويل حوْلَ هذه الحادثة، فليس لهم فيه خبَرٌ مرفوع إلى الرسول محمّد ﷺ، بلْ فيه إشْكَالاَتٌ فكرِيَّةٌ لا تتلاَءم مع سُمُوّ هذا النّصّ القرآنيّ الجليل، وفيه نِسْبَةُ تَرْكِ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ صَلاَةَ الْعَصْرِ مِنْ أجْلِ اسْتِعْرَاضِ خُيُولِه حتَّىٰ غَرَبَتِ الشَّمْسُ، بدُون دليلٍ عن الرسول ﷺ، وفيه أنَّه عَقَرَ الخيولَ وقتَلَها لأنَّها شَغَلَتْهُ عن صَلاةِ الْعَصْرِ دُون دليل أيضاً، وفيه اعتبار المثلَيْنِ وَارِدَيْن لشِقّ أنَّهُ أوّابٌ من العنوانِ المشتَمِل على شِقّيْنِ، وهذا ممّا يَنْبُوا عنه أسْلُوبُ البيان القرآنيّ الرفيع السَّامِيّ.

وهل في غَضَبِه وعَقْرِ الْخُيُول وقَتْلِها فضيلَةٌ تكَفِّرُ عن خطيئَةِ تأخير الصلاة عن وقتها، وما ذَنْبُ الخيولِ وهي ذوات أثمانٍ باهظة، وتُعَدُّ للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله.

إنّه لأمْرٌ مستَنْكَرٌ أن يُورد بعض أهل التأويل هذا الْوَجْهَ الذي لا دليل عليه.

لكلّ ما سَبَقَ كان الالتزام بما في النّصّ من دلالاتٍ لا تَكَلُّفَ فيها، ولا تحتاج إلى تأويلاتٍ غير مُسْتَسَاغات، هو الأحْرىٰ بأَنْ يكُونَ عُمْدَةَ التَّدَبُّرِ الأَمْثَلِ لِكِتَاب اللَّهِ عزّ وجلّ، والله أعْلم.

وخلاصة ما يدُلُّ عليه النَّصُّ هو ما عَرَضْتُه من قصَّةِ هذه الحادثة التي ذكَرَتْها الآيات من (٣١ ـ ٣٣) فلنتَدَبَّرْ هذه الآيَات تَدَبُّراً تحليليًّا:

• ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝٣١﴾:

﴿إِذْ﴾: ظَرْفٌ لزَمَنٍ مَاضٍ، وهذا الظَّرْفُ مضاف هُنَا إلى الجملة الَّتي بَعْدَه، أي: حينَ عَرْضِ الصَّافِنَاتِ الجيادِ عليه بالعشيّ.

والمعنى: نِعْمَ العبْدُ سليمانُ حينَ عَرْضِ الصَّافِنَاتِ الْجِيَادِ عَلَيْهِ بالْعَشِيّ، وكان منه ما كان من تكريم لأهَمّ وسائل الجهاد في سبيل الله يَوْمَئِذٍ، وتَصَرُّفٍ نَاشيءٍ عن ذِكْرِ رَبّه، وناشيءٍ عن حُبِّهِ لِلْخَيْرِ ابتغاءَ مَرْضَاة ربّه.

أو: اذْكُرْ مثالاً من أمْثِلَةِ مَدْحِهِ بعبارة «نِعْمَ الْعَبْدُ» إذْ عُرِضَ عليْهِ بالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الجياد.

الْعَرْضُ في اللّغة للجُنْدِ أو الخيُولِ ونَحْوِهَا: هو إمْرَارُهم واحداً فواحِداً، أو صَفًّا فصَفًّا، ثُنَائِيًّا أوْ ثُلَاثِيًّا أوْ أكْثَر، للمشاهَدَة والتَّفَقُّد.

● ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي... ﴿٣٢﴾﴾:

أي: فقال: إنّي أحْبَبْتُ اقْتِنَاءَ الخيلِ، وتَرْبِيَتَها، وتَدْرِيبَهَا، واسْتِعْرَاضَهَا، حُبَّ الْخَيْرِ، وهذَا الخير هو الجهاد في سبيل الله، لإعْلاء كَلِمَته. أيْ: لا حُبَّ التَعَاظُمِ والتَّفَاخُرِ بها، وحُبَّ الْعُلُوِّ في الأرض.

إنّه لو كان حبُّهُ للْخَيْلِ حُبَّ هذه الأمور من زينَةِ الحياة الدّنيا، لكان أمْراً غَيْرَ مَحْمُود، وغَيْرَ لائِقٍ بمقام النُّبُوّةِ والرّسالة.

وكلمة «حُبَّ» من عبارة «حُبَّ الْخَيْر» منصوبَةٌ على أنّها مفْعُولٌ مُطْلَقٌ، مُبَيِّنٌ لِنَوْعِ عامله.

أي: إنَّ حُبَّهُ للخَيْلِ هو من نَوْعِ حُبّهِ للْخَيْر، وهو الجهادُ في سبيل الله لإعلاء كلمته، لا من نَوْعِ حُبِّ زِينَةِ الحياة الدُّنيا، كالتفاخُرِ، والتباهي، وابتِغَاء العلُوّ في الأرض.

﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾: حرف الجرّ «عَنْ» هنا في هذه العبارةِ يَدُلُّ على العامل المحذف الذي يقتضيهِ المعنى، أي: حُبًّا ناشئاً أو صادراً عَنْ ذِكْرِ رَبِّي.

ويُمْكِنُ حَمْل حرف «عَنْ» هُنا على معنىٰ التعليل والسببيَّة، أي: بسبب ذِكْرِي رَبِّي، أو لأجْلِ القيام ببعض واجباتِ ذِكْرِي لِرَبِّي.

«عن» في اللّغة يأتي بمعنى «المجاوزة» وهذا المعنى يلائمه أن نقول فيه: ناشئاً أو صادراً عَنْ ذِكْرِ رَبِّي. ويأتي بمعنى التعليل، وهذا المعنى

يلائمه: بسبب ذِكْرِي رَبّي، أو لأجْلِ القيام ببعض واجبات ذكري لِرَبِّي.

• ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾: أي: حتّىٰ توارَتْ أَرْتَانُ الْخَيْلِ بالحجاب.

توارَتْ: أي: اسْتَتَرَتْ.

بالْحِجَابِ: الحِجَابُ هُوَ الشيءُ السَّاتِرُ أيًّا كان، ويُطْلَقُ الْحِجَابُ على ما أشْرَفَ مِنَ الْجبلِ.

والمعنى: كان تواريها بِسَبَب الحجابِ السَّاتِرِ، لا بسبَبِ الْبُعْدِ الزّائِدِ الذي تختفي فيه الأشخاصُ عن الأعين.

• ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

• ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾: أي: قال سُلَيْمانُ عليه السّلام لأمراء ساسة الخيْلِ، بَعْدَ أَنْ توارَتْ عَنْ نَظَرِهِ بالحجاب في آخر العرض: رُدُّوهَا عَلَيَّ.

ولعلّه استعمل عبارَةَ ﴿عَلَيَّ﴾ دون عبارة «إليَّ» للإشارة إلى أنَّها انطَلَقَتْ مِنْ مَكانِ استعراضه لها في طريقٍ صاعِدَةٍ، ثم توارَتْ في منْعَطَفِ جَبَلٍ، أو في طريقٍ نازِلَةٍ، فكان المناسِبُ أن يَقُولَ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ لأنَّها متَىٰ ظَهَرَتْ مُقْبِلَةً من مَكانِ احْتِجَابِها أقبلَتْ عَلَيْه مِنْ عُلوّ.

• ﴿.. فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾:

طَفِقَ: من أفعال الشروع، أي: شَرَعَ يمْسَحُ مُتابعاً عمَلَهُ.

وأفعال الشروع تعْمَلُ عملَ «كَانَ» فَتَرْفَعُ المبتَدَأ وتَنْصِبُ الخبر، إلاّ أن خَبَرَهُنَّ يَجِبُ أن يكونَ جُمْلَةً.

واسْمُ «طَفِقَ» هُنَا ضَمِيرٌ يَعُودُ علىٰ سليمانَ عليه السَّلام، وخَبَرُهَا جملَةٌ مَحْذُوفه، دلَّ عليها المفْعُولُ المطْلَقُ الباقي منها، وهو كَلِمَةُ ﴿مَسْحًا﴾ والتقدير: فطَفِقَ يَمْسَحُ مَسْحاً بالسُّوقِ والأَعْنَاق.

السُّوق: جَمْعُ «سَاقٍ» وهو من الحيوان ما بَيْنَ الرُّكْبَةِ والْقَدَم. وقراءةُ «قُنبُلٍ» عن «ابْنِ كَثِير»: [بالسُّؤْقِ] و [بالسُّؤُوقِ] لُغَةٌ من لُغَاتِ العرب، قاعِدَتُها هَمْزُ كُلِّ واوٍ ساكنة قَبْلَها ضمَّةٌ[١].

الأعْنَاق: جمع «عُنُق» وهو الواصِلُ ما بين الرأس وسائر الجسد، «ال» في كَلِمَتَي السُّوقِ والأعناق هي «ال» التي تأتي بدلاً من الإضافة، أي: في سوقِها وأعْنَاقِها.

دلَّ مَسْحُهُ سُوقَها على تواضُعِهِ، إذْ كان يَحْنِي لِذَلِكَ ظَهْرَه.

هذا هو النصّ، وهذا ما دَلَّت عليه فقراته، ولا داعيَ بَعْدَ هٰذَا لاتّباع رواياتٍ لَمْ يُرْفَعْ شَيْءٌ مِنْهَا إلى الْمَعْصُوم، وهي لا تليق بمقام النبوَّةِ ومقام الرِّسالة، مع التكلُّفِ في حَمْلِ النَّصِّ علَيْها.

ثانياً: تدَبُّرُ المثالِ الثَّانِي مِنْ أمْثِلَة
وَصْفِ سُلَيمَان عليه السَّلَامُ بأنَّهُ أَوَّابٌ

● قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿فَتَنَّا﴾: قال أهْلُ اللُّغَةِ: الفِتْنَةُ تَرْجِعُ إلى معنى الابتلاءِ والامْتِحَانِ والاخْتِبَارِ، في مختلِفِ الاستِعْمَالِ الأصْلِيّ لمادّة هذه الكلمة، ومشتَقاتها.

ولَمَّا كانت معادنُ الذّهب والفِضَّةِ ونَحْوِها إذَا أرادَ فَاحِصُوهَا امْتِحانَها لِمَعْرِفَةِ جَيِّدِها من رَدِيئِهَا، أَوْ أرادوا نَفْيَ خبثها، أذابُوها بالنّار، أو أحْمَوْها بها، حتّىٰ تكونَ كُتْلَةً جَمْرِيَّة، وبهذا يَنْكَشِفُ لهم الجيّدُ من الرّديءِ، ويَمْتَازُ

---

(١) ذكر هذه القاعدة أبو حيّان الأندلسيّ في تفسيره: «البحر المحيط».

الْخَبَثُ فَيَعْزِلُونه، ويَصْطَفُون الخالص من المعدن، ومن هذا أَطْلَقَ العرَبُ لفظ «الفِتْنَةِ» ومشتقّاتها على الإحراق بالنار، أو العرض على النار، سواءٌ أكان للاختبار والامتحان، أم كان للتعذيب والإكراه على فِعْلِ أمْرٍ أو تَرْكِ أمْرٍ.

ولمَّا كانَتِ الأشياءُ المحبُوبَةُ المرْغوبَةُ للنفوس إذا امْتُحِن الإنسانُ بها مَالَ إلَيْها، وتَعلَّقَ بها، كالنّساء والأموال والْبَنِين، فتنكَشِفُ بالامْتِحانِ اسْتِقَامَتُه، أو مَيْلُه وعَجْزُهُ عن المقاومة، أَطْلَقَ الْعَرَبُ علَيْها أنَّها فِتْنَة.

وكذلك الأشْيَاء المكروهةُ الّتي تَنْفِرُ النفوسُ مِنْها، وتَمِيلُ عَنْها، تُسمَّىٰ «فِتْنَةً» أيضاً، باعتبارها من الأشياء التي يحصُل بها الامتحان.

وأطْلَقَ العربُ «الفتنةَ» على مُجَرَّدِ المَيْلِ والإعجاب. وقالوا: «فُتِنَ فُلَانٌ» إذا ذهَبَ عَقْلُه بالشيء الذي فتَنَهُ فمالَ إليه.

وقالوا: فُتِنَ فُلَانٌ، وافْتُتِنَ، وافْتَتَنَ، إذا لم يصْمُدْ في الامتحان، بل سقَطَ فيه، ولَمْ تَظْهَرْ من مَعْدِنِه القوَّةُ ولا الاستقامة تُجاهَ ما امْتُحِنَ به.

فبالتوسُّع أُطْلِقَتِ الفِتْنَةُ ومشتقّاتُها على وسيلة الامتحان، وعلى العرض على النار، وعلى الإحراق بها، وعلى السُّقُوطِ في الامتحانِ وعدم النجاح، وهو من إطلاق السَّبَب على المسَبَّب، أو من إطلاق الوسيلة على إحدى الغايتين فقط، وهي السقوط والْخَيْبة.

فمعنَى قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾: ولَقَدِ امْتَحَنَّا سُلَيْمَانَ واخْتَبَرْنَاهُ وابتلَيْنَاهُ، وجاء التأكيد بعبارة: ﴿لَقَدْ﴾ لِدَفْعِ تَوهُّم أنّ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ لاَ يُمْتَحَنُونَ بسبب العِصْمَةِ الّتي عَصَمَهُمُ الله عزّ وجلّ بها، بل يُمْتَحَنُونَ بشِدَّةٍ، ولكِنْ في حُدُودِ مرتَبَتَي الأبرار والمحسنين، لاَ في حُدُودِ مَرْتَبَةِ المتّقِين، إذْ هم في حُدُودِ مرتَبَةِ المتقين مَعْصُومون، وعلى النّاس أن يتأسَّوْا بِهِمْ فيها.

فلا بُدَّ أنْ يكونَ امتحانُ سُليمانَ عليه السَّلام، بما تكونُ مقاوَمتُه فيه أضعف المقاومات في كيانه، مع أنّه شديدُ المقاومة بوَجْه عامٍّ في سائر أُمورِه، لاصطفاء الله له بالنُّبوّةِ والرّسالة.

ومن دراسة تاريخِ حياته عليه السّلام، نَجِدُ أنَّ احْتِمَالَ ضعف مقاومته يَتردَّدُ بيْنَ أمْرَين:

الأمْرُ الأول: رغْبَتُهُ فِي النّسَاء، وقُدْرَتُه النَّادِرَةُ أو الْفَرِيدة على الجِماع.

فقد ثبت في صحيح البخاريّ أنَّ سُلَيْمانَ عليه السّلام طافَ في إحدى لياليه على تِسْعِين امرأةً من نسائه، رجَاءَ أن يَحْبَلْنَ منه جميعاً في تِلْكَ اللّيلة، فيأتين بِفُرْسَانٍ يُقَاتِلُونَ في سبيل الله، ولم يقُلْ: إنْ شاء الله، فلم تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إلاّ امرأةٌ واحدةٌ جاءت بشِقّ رَجل.

قال رَسُولُ الله ﷺ:

«وَايْمُ الّذِي نفسُ محمّد بِيَدِهِ لَوْ قَالَ: إنْ شَاءَ اللَّهُ لَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُرْسَاناً أَجْمَعُونَ».

وفي عَدَدِ النّسَاءِ اللاَّتي قال سُلَيْمانُ لأَطُوفَنَّ اللّيلَةَ بِهِنَّ روايات، كلُّها في الصحيح، فهنّ «مائةٌ، أو تِسْعُونَ، أو سَبْعُونَ، أبو سِتُون» والله أعلم، وقُدْرَتُه على يَطُوفَ علَىٰ سِتّينَ زَوْجَة في لَيْلَةٍ واحِدَة، عَجَبٌ عُجَابٌ في قُدْراتِ الرِّجال.

وجاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر الملوك الأوّل عند أهل الكتاب:

«٣ ـ وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةٍ مِنَ النّسَاءِ السَّيِّدَاتِ، وثَلاَثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِي، فَأَمَالَتْ نِسَاؤُهُ قَلْبَهُ».

ويفترِي الإسرائيليون على سليمان عليه السَّلام أكاذيب حول مَيْله لآلِهَةِ نِسَائِهِ الْوَثَنِيَّات، تأثُّراً بمَيْلِهِ لِمَنْ أحبَّ مِنْهُنَّ.

أقولُ: فلعَلَّ امْتِحَانَ سُلَيْمَان عليه السَّلامُ منْ جهَةٍ من أَحبَّ مِنْ نِسَائِهِ الْوَثَنِيَّاتِ، أنَّه لم يشْتَرِطْ عَلَيْهِنَّ الإِسْلاَمَ وإلاَّ طَلَّقَهُنَّ، وهذا يلْزَمُ منْهُ الرِّضَا بِبَقَائِهِنَّ وثنيَّاتٍ يَعْبُدْنَ أَوْثانَهُنَّ وهُنَّ على عِصْمَتِه.

ومثلُ هذا الأمرِ إنْ جاز من آحَادِ المؤْمِنينَ المسلمين، بالنسبة إلى شريعة أهل الكتاب، فإنَّه أَمْرٌ لا يَليقُ بمقامِ نبيٍّ رسولٍ مثْلِ سليمان عليه السلام، وهذا مِنْ مِثله يحتاج إلى إنابة إلى الله تعالى واستغفار، لأنّ واجبات أهْلِ مرتبةِ الإحسان فَوْقَ واجباتِ أهل مرتبة البرّ، وواجباتُ أهْلِ هَاتَيْنِ المرتَبَتَيْن فوق وَاجِباتِ أهْلِ مرتبة التقوىٰ.

الأمر الثاني: حُبُّهُ لِلْمُلْكِ والسُّلْطان، وهذا ظاهرٌ ممَّا في القرآن المجيد عنه، إذْ جاء في النّصّ الّذي نتدبَّره دُعَاؤُهُ لِرَبّه:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

وقد نُعَلِّل هذا الْحُبَّ برَغْبَتِهِ في نُصْرَةِ دِين الله عن طَريق الْمُلْك.

ولكن كيف كان امتحانُ سُلَيْمان عليه السلام في هذا الأمْر الّذي قد تَضْعُفُ مقاوَمَتُه تُجاهَهُ، إذا تعرَّضَ فيه لشيءٍ يخْشَى منْهُ أنْ يكون سبباً في انْتِزَاع مُلْكِه منه؟.

جاء في سفر الملوك الأوّل من كتب أهل الكتاب الإصحاح (١١).

(١٤) وَأَقَامَ الرَّبُّ خَصْماً لسُلَيْمانَ «هَدَدَ الأَدُومِيّ» كان من نَسْلِ الملِكِ في «أَدُوم».

(٢٣) وأَقَامَ اللَّهُ لَهُ خَصْماً آخَرَ «رَزُونَ بْنَ أَلِيدَاعَ».

وجاء فيه أنَّ يَرُبْعَامَ بْنَ نَابَاطَ الأَفْرَايِيميّ قَامَ ضِدَّ سُلَيْمانَ لِيَنْتَزِعَ مِنْهُ

الْمُلْكَ، وحَاوَلَ سليمانُ قَتْلَه، إلاَّ أنَّ «يَرُبْعَام» هَرَبَ إلى «شِيشَق» مَلِكَ مِصْرَ يَوْمَئِذٍ، وَبَقِي في مِصْرَ إلَىٰ وَفَاةِ سُلَيْمَانَ.

قد يُشيرُ هذا التاريخ إلى نَوْعِ امتحان الله عزّ وجلّ لسليمان عليه السّلام في مُلكِه الّذي له شغفٌ به.

● قول الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا . . . ﴿٣٤﴾﴾.

تُشِيرُ هٰذِه العبارة إلى حادِثَةٍ أجْرَاها الله عزّ وجلّ لسليمان عليه السَّلام تتعلَّقُ بكُرْسيِّ مُلْكِهِ، وإشْعَارِهِ بإبعادِه عَنْ مُلْكِه، لاختبار حالَتِه النفسيَّة مع رَبِّه خِلاَلَ هذِه الحادثة، الّتي قضىٰ الله عزّ وجلّ أن تكونَ عَرَضاً طارئاً، لكنَّهُ لَمْ يَكُنْ يعْلَمُ بأنَّه عرضٌ طارئٌ.

والاختبار قد كان بإلْقَاء جسَدٍ في صورة سُلَيْمانَ على كُرْسِيّه، في سَاعَةٍ كان يقضي فيها بعض حاجاته الخاصَّة بَعِيداً عن كُرسيِّ مُلْكِه، فلمَّا رجَع إليه وجَدَ هذا الّذي هو على صُورَته جالساً عَلَيْه بِلِبَاسِ الْمُلْك، والنّاسُ والحاشيةُ والأَجْنَادُ يأتَمِرُونَ بأمْره، وهم يَعْتَقِدُونَ أنّه سليمان.

وجاء في الروايات أنّه جنّيٌّ، وأنّه استطَاع أنْ يحْتَالَ حتَّىٰ أخَذَ خَاتَمَ مُلْكِهِ الَّذِي جعلَ الله فيه سِرَّ الْمُلْكِ، وجَلَسَ على كُرْسِيّ مُلْكه أرْبَعِين يوْماً، كانَ سُلَيْمانُ خِلاَلَها يَعْمَلُ كآحادِ النّاس لكَسْبِ طعامه بالخِدْمَة، حتَّى سقَط خاتم سليمان من الجنّيّ في البحر، فابتلَعَتْه سمكَةٌ، ووقَعتْ هذه السَّمَكَةُ في شَبَكِ بعْضِ الصيادين، وقضىٰ الله أنْ تَصِل هذه السَّمكَةُ إلى سُلَيْمانَ عليه السلام، فَشَقَّ بطْنَها فوجَد خاتمه، فعادَتْ له هيْبَتُه ومُلْكه.

أقول: لا نَجِدُ دَاعِياً لتصديقِ هذه الرّوايَاتِ الّتي لا تستَنِدُ إلى خَبرٍ عَنِ المعصوم، فَمِنَ الْعقْل والرُّشْدِ والحِكْمَةِ أن لا نعبأ بها، وأن نقتَصِر على ما دَلَّ عليه النَّصُّ القرآنيُّ، وما يَقْتَضِيه من لوازم.

إنّ تَسْمِيَةَ الّذِي أَلْقاه الله عزّ وجلّ على كُرْسِيّ سليمان عَلَيْهِ السَّلامُ

جَسَداً، يَدُلُّ علىٰ أنَّهُ لاَ يأكُلُ ولا يُعَاشِرُ النِّسَاء، فهو ليس جِنِّيًا، لأنَّ الجنّ كالإنْسِ يأكُلُون ويَشْربون ويُعَاشِرُون النِّسَاء، وليْسَ وَثَناً، لأنَّهُ لو كان وثناً أو دُمْيَةً لاكْتَشَفَ سُلَيْمان أمْرَهُ سَرِيعاً، ولَمَا كان في الأمْرِ اختبارٌ له.

وفي معرض طلب المشركين أن يكون الرَّسُولُ مَلَكاً مُعْتَرِضِينَ على بَشَرِيَّتِه، قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بعد بيان أنَّ الرُّسُلَ جَمِيعاً رِجالٌ يُوحي الله إليهم:

﴿وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ... ﴿٨﴾﴾.

وهٰذا يَنْطبِقُ على الملائكة، فَهُمْ أجْسَادٌ نُورانية، لا يأكلُونَ الطعام، وليس لهم سائر الصّفات الحيوانيّة البشرية، لكنَّهُمْ مخلوقات نورانيّة، قد يتشكَّلُونَ بالأشكال الجسَدِيّة بقدرات أعطاهم الله عزّ وجلّ إيّاها.

فالظاهر من كون الله تبارك وتعالى ألقاهُ على كرسِيّ سليمان، ومِنْ تسميَتِه جسداً، أنَّهُ مَلَكٌ أنزله الله بأمْرِه، فتشكَّلَ جسداً على صورة سُلَيْمان، وتَمَّ به امْتِحانُ سُلَيْمانَ في خُصُوصِ كُرْسِيِّ مُلْكه، ولا أحَدَ من النَّاسِ غَيْرُ سليمان يدري بالأمر.

ولسْنَا بحاجَةٍ بعْدَ هذا لمعرفةِ تفصيلاتِ رجْعَةِ كُرْسِيِّ الْمُلْكِ إليه، وإنْهَاءِ حادِثَة الامتحان، ويكْفِي أنْ يَنْصَرفَ هذا الجسَدُ عنه، ليَجِدَهُ سليمان عليه السّلام فارغاً، فيلْبَسَ لِبَاسَ الملْكِ كَعَادَته، ويَجْلِسَ علَيْه في الأوْقَات الّتي اعتادَ أن يجْلِسَ عليه فيها.

● قوله تعالى: ﴿... ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾: يَدُلُّ علىٰ أنَّهُ قَدْ مَضَتْ مُدَّةٌ عَلَىٰ سُلَيْمانَ كَانَ فيها هائماً شارداً، حتّىٰ أنابَ إلى ربِّه، واستَغْفَر، فغفر الله لَهُ، فأعَادَهُ إلى ما كَانَ عَلَيْهِ من الْمُلْكِ والسُّلْطان.

لقد أَدْرك سليمانُ عليه السّلامُ بعْدَ مُدَّةٍ أنَّهُ ارتَكَبَ بَعْضَ أخْطَاءٍ لا تليقُ بمِثْلِه وهو نَبِيٌّ ورسُول، وأنّه كان يَنْبَغِي له أنْ يُحَافِظ على كمالِ مَرْتَبة

المحْسنين المقرّبين، ولا يَنزِلَ في بعْضِ أعْمالِه وتَصرُّفاتِهِ إلى مَرْتَبةِ الأبْرَار أو المتقين، فأنابَ إلى رَبّه.

وهذه الإنابة القلبية الّتي أنابَها منْ أعْمَاقِ كِيانِه، رافَقَها أنْ صَرَفَ اللّهُ الشّبيه من الملائكَةِ المتَجسِّدَ على مِثَالِ صورة سليمان، وعادَ سُلَيْمان عَلَيْهِ السَّلام إلى كُرْسِيِّهِ مَلكاً، والناس لم يَعْرِفوا شيئاً، لأنّهم لم يُفرِّقُوا بَيْنَ الشَّبيه المُماثل والأصل، إلاّ أن زَوْجاته رُبّما استَنْكَرْتَ أنَّهُ انْقَطَعَ عنْهُنَّ وهُوَ المولَعُ بالنِّساء.

وإذْ أنابَ سليمانُ عليه السَّلام إلى ربّه إنابَةً صَحِيحَةً صادقَةً، ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾.

وأدْرَكَ أنّ الْمُلْكَ عُرْضَةٌ للسَّلْب بطَرْفَةِ عَيْنٍ متىٰ شاء الله سَلْبَه، وهو يَعْلَمُ أنَّ الملْكَ بِيَدِ الله يُؤتيه من يشاءُ، ويَنْزِعُهُ مِمَّنْ يشاء، فأتَمَّ دُعاءه لربِّهِ قائلاً:

﴿وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: وهَبْ لي مُلْكاً لاَ أُسلَبُه في حياتي، ولاَ ينْبَغِي مِثْلُه لأَحَدٍ مِنْ بَعْدي، فدلّتِ عبارة: ﴿لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ﴾ على الأمْرين معاً، أمّا أحَدُهما فَبِصَريحِ اللَّفظِ، وأمّا الآخرُ فبِلاَزمِهِ الذّهني، لأنّه إذا كان لا ينبغي هُو أو مثْلُه لأحَدٍ مِنْ بَعْدِ حياته، فرغبتُه في بقاء مُلْكِه له طَوال حيَاتِه مُضَمَّنَةٌ في الدُّعاء لزوماً ذهنيًا، ومن «بَابِ أَوْلَىٰ» فلا داعيَ لِحَمْلِ العبارة على أحدهما فقط: إذِ الآخَرُ مفهومٌ بدلالة اللُّزوم الذهنيّ كما ذَكَرْت.

وبناءً على المعنَىٰ الّذي يَدُلُّ علَيْه منْطُوقُ اللّفظ تَركَ الرَّسُول محمَّدٌ ﷺ الْعِفْريتَ من الجِنّ الَّذي أمكنَهُ اللّهُ عزّ وجلّ منه، لئلاّ يُشارِكَ سُلَيْمانَ عليه السّلامُ ببَعْضِ خصائص مُلْكِه في التَّسلُّط على الجنّ، فيتوَهّمَ النّاسُ عدمَ تفرُّدِ سليمان بمَا خصَّهُ الله به.

روى البخاري عن أبي هريرة، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ عِفْرِيتاً مِنَ الْجِنِّ تَفَلَّتَ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ ـ أَوْ كَلِمَةً نَحْوها ـ ليقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلاَةَ، فَأَمْكَنَنِي اللَّهُ مِنْهُ، وَأَرَدْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَىٰ سَارِيَة مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، حَتَّىٰ تُصْبِحُوا وتَنْظُرُوا إِلَيْهِ كُلُّكُمْ، فَذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ . . ﴿٣٥﴾﴾»[1].

قال رَوْح أَحَدُ رُواة الحديث في روايته له: «فَرَدَّهُ خَاسِئاً».

يقال لغة: **لاَ يَنْبَغِي لَهُ**: أي: لا يَسْهُلُ له وَلاَ يُطَاوِعُهُ، ولاَ يَتَيَسَّر له. أو لا يَصْلُحُ هوله، ولاَ يكُونُ بَيْنَهما تَلاَؤُمٌ أَوْ قَبُول، أو لا يَلِيقُ به.

● ﴿. . إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾:

«**الْوَهَّاب**» من صيغ المبالغة لاسم الفاعل «واهب». **والهبة**: الْعَطِيَّةُ الخالية من الأعواض والأغراض. يقالُ لغة: وهَبَ لَهُ الشَّيْء يَهَبُهُ وَهْباً وَوَهَباً وهِبَةً فَهُوَ واهبٌ وَوَهَّابٌ وَوَهُوبٌ ووَهَّابَةٌ.

● ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

● وقرأ أبو جعفر «الرِّيَاحَ» بالجمع.

أي: فغفَر اللَّهُ له ما كان مِنْهُ مما لا يَلِيقُ بمقام أهْل مَرْتَبة الإحسان، واستجاب دُعَاءَه بعظَمَةِ رُبيَّتِه وقُدْرَته على ما يشاء، فثَبَّتَ له مُلْكَهُ طَوال حياته، ووهَبَ لَهُ مِمَّا طلَبَ مِنْ مُلْكٍ زائِدٍ عَلَىٰ ما كَانَ لَدَيْهِ مِنْهُ سُلْطَاناً على الريح ذاتِ الأنواع، فهي رياح بحسَب أنواعها، رِيحٌ بحَسَبِ جِنْسِها، وسُلْطَاناً على الشياطين.

---

(١) انظر فتح الباري رقم الحديث (٤٨٠٨).

التسخير: تذليل الشيء لعملٍ مَا، أَوْ لأمْرٍ مَا، وجَعْلُ الشَّيْء مُطَاوِعاً لِمَا يُرَادُ به ضمْن قانون تسخيره، وهذه المطاوعة قد تكون بالطبع، كتَسْخِير الأشياء، وقَدْ تكونُ بالْقُوَّةِ مع التذْليل، كتسخير الْعَجْماوات للناس، وقَدْ تكونُ بالاختيار الحرّ لِمَا في المطاوعة من مصلحةٍ للمطاوع، كتسخِير بعض الناس لبعض الناس بإراداتهم الحرَّة.

وتسخير الله عزّ وجلّ الريح لسليمان عليه السَّلَام، وتسخير الشَّيَاطين له فضلاً عن سائر الجنّ، قد كان بمَنْحِه قُدْراتٍ خاصَّةً، يستطيع بها التَّسَلُّط على ما سخّر الله له.

وبهذا التسخير الرَّبَّانِيِّ صارت الرِّيحُ تتحرَّكُ بأمْره، وصَارَتِ الشَّياطين تُطيع أَمْرَهُ، فتقومُ بما يأمُرُها به من عَمَلٍ يَدْخُلُ في قُدْرَاتِها، ومَنْ يَعْصِي منهم اسْتَطَاعَ أن يَسْجُنَهُ، ويُقَيِّدهُ بالسَّلاسل القادرة على الإمساك به مُقَيَّداً سَجِيناً، وعُرْضَةً للتَّعْذِيب الْمُهِين.

● ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾:

﴿رُخَآءً﴾: أي: ليّنَةً، وهٰذِه لا تكون شديدةَ قاصِفَةً ولا عاصفة ولا حَاصِبَةً، بل هي ليّنَةٌ لا تُزْعِجُ ولا تؤذي.

﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾: أي: حيْثُ قَصَدَ وأرَاد، والصَّوْبُ الجِهَةُ، والمعنى: تجري الرّيح بأمْرِ سُلَيْمَانَ إلَىٰ الجهة الّتي أراد.

ولعلَّ في اخْتبار كلمة «أَصَابَ» إشارةً إلى أنَّه قَدْ وُجِّهَ لاستخدامها مُتحرِّياً الصَّوابَ في التصرُّفِ بتوجيه الرّيح.

وجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أنّ الريح العاصفة قد سُخِّرَتْ له أيضاً، وفي قراءة أبي جعفر [**الرِّياح**]. (انظر الآية: ٨١)

● ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: وسَخَّرْنَا لَهُ الشَّيَاطين بسُلْطانٍ جعلْنَاه له عليهم، فَهُوَ يَسْتَخْدِم من يشاءُ منهم في بناء القصور والْقِلاَعِ الحصينة، ويستَخْدِمُ من يشاء منهم في الغوص في البِحَار، ليسْتَخرجوا له من كنُوز البحر وجواهره ما يريد.

وقد جعل الله له سُلْطاناً على الْعُصَاة منْهُم، فيُقَيِّدُهُمْ في الأَصْفَاد، ويُؤَدِّبُهم بالإِذْلاَلِ والتَّعْذِيب، وهُمْ من مَرَدَةِ الجنّ.

﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾: الشياطين جَمْع شَيْطَانٍ، على وزن «فَيْعَال» من فعل «شَطَنَ» أي: بَعُد. والشيطان في اللّغة: كُلُّ عَاتٍ مُتَمَرِّدٍ من الجنّ والإنْسِ والدَّواب، وهو اسم جنس يقَعُ على كلِّ مُغْوٍ مُضِلٍّ متمرّد مُفْسدٍ من الجنّ والإنس.

يقال لغة: شطَنَ يَشْطُنُ شَطْناً، وهذا الفعل يأتي بمعنيين:

الأوّل: بمعنى بَعُدَ، تقول شَطَنَ عنه، أي: بَعُد، وأشطنَهُ أي: أبْعَدَهُ.

الثاني: بمعنى شَدَّ بالشَّطَن، وهو الحبْل الذي يُشْطَنُ به الدَّلْوُ في البئرِ، ويجْمع على «أشْطَان».

ولمَّا كان الشيطان اللّعين بعيداً عن الحقّ، ومُبْعِداً عنه بالوسوسة والإغراء والإغواء، وكانت له «أشْطَان» أي: حبائل للإغواء، كان حَرِيًّا بهذا الاسم.

والشياطين المسخّرة لسليمان هم شياطين الجنّ، فهم الّذِين خَصَّ الله عزّ وجلّ سليمان عليه السلام بالتسلُّط عليهم، فيسْتَخْدِمُ فريقاً منهم ذوي مهارةٍ في العمران وقُدْرَةٍ عليه في البناء، ويَستَخْدِم فريقاً آخر منهم ذوي مَهَارَةٍ وقدرة على الغوص في البحار، فيكلّفهم الغوص ليستخرجُوا له ما في البحار من كنوز، ومن عَصَاه منهم قيّده بالسّلاسِل وسجَنَه، ووجّه له عذاباً مُهيناً.

﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾: بنَّاء: صيغة مبالغة لاسم الفاعل من بَنَىٰ يَبْنِي فهو بانٍ، والمراد أنَّه شديدُ القدرة على البناء ماهرٌ فيه و ﴿كُلَّ بَنَّآءٍ﴾ بدل من [الشَّيَاطِين] بدَلُ بعْضٍ مِن كلٍّ.

﴿وَغَوَّاصٍ﴾ غوّاص: صيغَةُ مبالغة لاسم الفاعل من غاصَ يغُوصُ فهُوَ غائصٌ. أي: وكُلَّ غوَّاصٍ مِنَ الشَّيَاطين في البحار.

● ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾:

﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾: أيْ: مَشْدُودِينَ فُرَادَىٰ أو مُقْتَرِنين في السَّلاسِلِ والأغلَالِ.

الْقَرَنُ: الحَبْلُ الّذي يُشَدُّ به الأسِيرُ، يقال لُغةً: قَرَنَ الأسِيرَ بالحبْلِ، أي: شَدَّه به. وقَرَّنَهُ إذا شَدَّدَ عليْه الْوَثاق به.

ويُقالُ لغة: قَرَّنَ الأسِيرَ بالأسير، أي: جَمَعَهُما في وَثاقٍ واحدٍ.

الأصفاد: هي السَّلاسِلُ والأغلالُ، مفرَدُها، الصَّفَدُ والصِّفَاد.

فقد يكونُ معْنَىٰ ﴿مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ مَجْمُوعِين في السَّلاسِلِ والأغلَال بقُوَّةٍ، مُقْتَرِنين أزواجاً أو جماعات.

● ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: قال الله عزّ وجلّ لسليمان عليه السَّلام بعد أن استجاب له دعاءه، فوهَبَهُ ما أبانه في الآيات (٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨) هذا القول.

هذا القول مستقطعٌ من الحدَثِ الْمَاضِي، ومُقَدَّمٌ في هذا النّصِّ، كأنَّ الله عزّ وجلّ يخاطِبُ به سليمان الآن، وهذا من الفنون البديعة الّتي جاءت في القرآن، دون أن تكون من أساليب الْعَرَب البيانيّة قبله.

والمعنى: هذا عطاؤنا لَكَ يا سليمان إذْ طَلَبْتَ مُلْكاً لا ينْبَغِي لأحَدٍ من بَعْدِك، وأنْتَ فيما أعْطَيْنَاكَ من هذا المُلْكِ مأذونٌ لَكَ إذْنَ إباحَةٍ غيْرِ

مُسْتَتْبَعَةٍ بحِسَابٍ، في أنْ تُعْطِي بالْمَنِّ كما تَشاء، وفي أن تُمْسِكَ عَنِ الْعَطاءِ على ما تَشاء.

﴿فَٱمْنُنْ﴾: أي: فأعْطِ على وجْهِ الإحْسَان والإكرام، وهذا المعْنَىٰ هو المناسِبُ هنا، لا المعنَىٰ الآخر، وهو الافتخار بالإعطاء، والتحدُّث به استِعْلاَءً وإشعاراً بالتفضُّل، أو تذكيراً بِهِ للإذْلاَلِ والتسخير.

المنّ في اللّغة يأتي بمعنَيْين:

الأوّل: الإنعامُ والإحسان والإكرام، يُقال لغة: مَنَّ فُلانٌ على فلانٍ يَمُنُّ مَنًّا، أي: أنعم عليه نِعْمَةً طيبَة، وأحْسَن إليه بعطِيَّة.

الثاني: التحدُّث على سبيل التفاخُرِ بالعطاء، أو الإشعارِ بِدُونيَّةِ آخِذِ العطيَّةِ إهَانَةً له.

﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾: أي: أو امْنَعْ عَطَاءَكَ بحَسَبِ ما ترىٰ.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: أي: قد أبَحْنا لَكَ المنَّ والإمْسَاكَ، بغَيْرِ حسابٍ نُحَاسبُك فيه على ما تفعل، سواءٌ منَعْتَ أمْ أمْسَكْتَ.

والتقدير: فامْنُنْ كما تَشاءُ مَنًّا مصْحُوباً بغير حسابٍ لك، أَوْ أمْسِكْ كما تَشَاءُ إمْسَاكاً مَصْحُوباً بغَيْرِ حِسَابٍ لَكَ عَلَيْه.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

يَلْتَفِتُ النصُّ فيقول الله عزّ وجلّ للمتَلَقِّين مُتَحدِّثاً عن منزلة سُلَيْمان عنده، فيُبَيِّن أنَّ لَهُ عنْدَ رَبِّه قُرْبَىٰ، وحُسْنَ مآبٍ، كما سبَقَ أنَّ قال بشأنِ أبيه داود عليه السلام في الفقرة الأولىٰ من هذا الدَّرْس.

أي: وإنَّ لَهُ عنْدَنَا لَدَرَجَةً وَمَنْزِلَةً ذاتَ قُرْب، وإنَّ لَهُ عندنا لَحُسْنَ مَرْجعٍ في جنَّاتِ النعيم.

الزُّلْفَىٰ: اسْمٌ يأتي بمَعْنَىٰ الْقُرْبَةِ والدَّرجَةِ والمنزلة.

﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: أي: وحُسْنَ مَرْجِعٍ، وهذا إنما يكون في جنَّاتِ النعيم.

وإضافة «حُسْن» إلى «مآبٍ» من إضافة المصدر إلى فاعله، أو من إضافة الصفة إلى الموصوف، على تأويل المصدر بمُشْتَقٍّ والوصفِ به، والتقدير، ومآبٌ حَسَنٌ، أو هو كُلُّهُ حُسْنٌ.

وجاء تأكيد الجملة بـ «إنَّ ـ والجملة الاسميَّة ـ واللاّم المزحلقة» وقُدِّمت عبارَةُ ﴿عِندَنَا﴾ على ﴿لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ لإفادَة تخصِيص الزلْفىٰ وحُسْنِ المآب بما يكون له عند ربّه يَوْم الدّين، مع تَعْظِيمهما، لأنّ ما يكون عند الله يوم الدّين شيءٌ عظيمٌ جدًّا.

هذا ما جاء عن سليمان عليه السَّلام في سورة (صۤ) وقد وزَّعَ الله عزّ وجلَّ بقيَّة ما أراد أن يُنْزِل عنه في القرآن في سور (النَّمْل ـ الأنعام ـ سَبَأ ـ الأنبياء ـ البقرة ـ النّساء) بحسب دواعي المناسبات الفكرية، وأغراض تنزيل القرآن منجّماً.

❁ ❁ ❁

التدبر التحليلي للفقرة الثالثة
من فقرات الدرس الثاني من دروس السورة
وهي الآيات من (٤١ ـ ٤٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

- وقرأ حمزة: [مَسَّنِي] بإسْكَانِ يَاءِ المتكلّم.
- وقرأ أبو جَعْفر: [بِنُصُبٍ] بضم الصَّاد مع النون وهو على سبيل الإتباع.

وقرأ يعقوب: [بِنَصَبٍ] بفتح النون والصاد.

«نُصْب، ونُصُب، ونَصَب» المشقة والتَّعب والإعياء، فالمعنى في القراءات الثلاث واحد.

تمهيد:

في هذه الفقرة عَرْضٌ مقتضَبٌ مخْتَزَلٌ اخْتِزالاً شديداً من قصَّةِ ابْتِلاَءِ النَّبِيِّ الرّسُول أيُوبَ عليه السَّلام بالمكاره، الّتي امْتَحن اللَّهُ عزّ وجلّ بها صَبْرَهُ امتحاناً شديداً، فوجَدُه فيما ابتَلاَه به صابراً، فأثْنَىٰ عليه، وجَعَلَهُ ضِمْنَ فِئَةِ الأوَّابِين من الرُّسل عليهم السلام، مثل داوُدَ وسليمان، دون أن يَذْكُرَ شيئاً أوْ يُلْمح إلى شيءٍ بعَيْنِه، مثالاً على كونه أوَّاباً، أي: رَجَّاعاً إلى مرتبة الإحسان الّتي يَنْبغي للرسول أنْ يحافظ على شروطها وواجباتها دَواماً.

وجاء عنه أيضاً عرضٌ مقتضبٌ مخْتَزَلٌ من قِصَّةِ بلائه بالمكاره، في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

- وقرأ حمزة: [مَسَّنِي] بإسْكانِ يَاءِ المتكلّم.

وجاء ذكر اسمه ضِمْن مجموعَةٍ من الرُّسُل في الآية (٨٤) من سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) مع بيان أنّه من ذُرِّيَّةِ إبراهيم. وفي الآية (١٦٣) من سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) مع بيان أنّ الله قد أوحى إليهم، وأنهم رُسُلٌ مُبَشِّرُونَ ومُنْذِرُون.

ويَحْسُنُ بنا أنْ نَتَدَبَّر نَصَّيْ (ص) و (الأَنبياء) تدبُّراً تكامُلِيًّا.

موجز عن حياة أيوب عليه السّلام:

كان أيُّوبُ عليه السّلام رجُلاً من الرُّوم، ويتّصل نسبُهُ بعِيص بْن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، وعِيصُ هو أخو يعْقُوبَ (= إسْرائيل) عليه السلام.

فأيُّوبُ ليس من بني إسرائيل، لكنَّهُ من ذرّيّة أخيه عيص، ويُقالُ له: «عِيسُو».

وكان أيوب عليه السّلام كثير المال من الأرض والْعَبيد والنَّعَم وسائر المواشي، وغير ذلك من صنوف المال.

جاء في سِفر أيوب من أسفار العهد القديم عنْدِ أهْل الكتاب تَعْدَادُ ما كان له من غَنمٍ وإبلٍ وبقَرٍ وحَمِير، وجاء فيه أنَّه وُلِدَ له سَبْعَةُ بَنين، وثلاثُ بنات.

وذكر المؤرخون والمفسّرون أنّ أيُّوبَ كانَ كثير المال من كلّ صنوفه وأنْواعه، وكانت أراضيه الواسعة جدًّا في حورانَ من بلاد الشّام.

وعلى الرُّغم من كلّ ما آتاه الله عزّ وجلّ من مالٍ كثير لم يَكُنْ منْهُ طُغْيانٌ ما فيه، أو بسببه، فلم يُطْغِه ماله بشيءٍ يخرجُه عن الكمال والاستقامة والتقوى والتواضع، ورعايَة حُقُوق الله، والإحسان للناس، وعمَلِ البرّ حيْثُ وَجَدَ لِلْبرّ وفِعْلِ الخيرْ سبيلاً.

وعمل الشيطان بكل وسائله لإغوائه وإخراجه عن صراط الاستقامة، فخابَ في كل مساعيه، فقال الشيطانُ في نَفْسه: هذا قد ابتلاهُ الله بالنِّعْمَة فشكر، فلَمْ تُبْطِرْهُ النّعمة، وَلم يُطْغِه الغِنىٰ، ولكن لو ابتلاه الله بالفقر والمرض، حتَّىٰ هجره إخوانُه وأحْبابُه، لما صَبَر على هذا البلاء، ولأَخْرَجَتْهُ

الشدائد، فتغيَّرَ قلْبُه عن الله، وانْطَلَقَ لسَانُه بالتَّسخُّط على مقادير الله، والطَّعْنِ في حكمته.

فشاء الله عزّ وجلّ أنْ يُبَاهِيَ بعَبْدِهِ أيُّوبَ في امْتِحَان الصَّبْر، كما بَاهَىٰ به في امتحان الشكر.

فبعَثَ الله جلَّتْ حكمَتُه علَىٰ أموالِه غُزَاةً، فسَلَبُوها مِنْ جهَاتٍ مختلفات، فلَمْ يبْقَ له أنعامٌ ولا رَقيقٌ، ولا غِلْمانُ خِدْمة، حَتَّىٰ أبناؤه وبناتُه لم يَجِدْ لهم أثراً، ويظْهَرُ أنَّهم تعرَّضوا للأسْر مَعَ من سُلِبَ من غِلْمَانِهِ ورقيقه.

ثُمَّ أنزل الله جلّت حكمتُه به الأوجاع، فابتلاه بالمرض، ومَكَّن الشيطانَ من أن يتعرَّض له بما يُغْرِيه بسُوءِ الظَّنِّ في الله، وبما يحرّضه على أنْ يُطْلِقَ لسَانَه بالتسخُّطِ على الله، واتِّهَامِه فِي حكمَتِه بما أنزل به من بلاء، على الرُّغم من استقامته في أيّام امتحانه بالنعمة والصِّحَّة، وكثْرَةِ الأحباب والأنصار والأولياء.

وطال به المرَضُ، وتراكبَتْ علَيْه البلايا والآلام، وابْتَعَد عنه كُلُّ الَّذِينَ كانُوا حوْلَه يَرِدُون من مَوْرِده الْعَذْب أيّامَ نعْمَتِه وَصِحَّتِه وعطاءاتِه الكثيرات.

ولم يَبْقَ حوْلَه غير زَوْجته الوفيَّةِ، الَّتِي تأتي لخِدْمَتِه وطَعَامه وشرابه، مع كلّ ما فيه من بلاء.

قالوا: وكانت زوجتُه تعْمَلُ بالخدمة عند الناس، لتشتري له ما يأكُله، ولم تجدْ في بعْضِ الأيّام عملاً، فاضْطُرَّت أن تَبيعَ ضفيرتَيْ شَعْرها لبَعْضِ نِسَاءِ الأثْرياء، من اللّواتي يُحْبِبْن أنْ يتزَيَّنَّ بالشَّعْر الطويل، لتَجْلُبَ له طعَامَه، فسَألَها أيُوبُ عليه السَّلامُ كعادته: منْ أيْنَ جلَبْتِ هَذا الطَّعَامَ؟ فأخبرته، فساءَهُ مَا فَعَلَتْ، وحَلَفَ لَيَضْرِبَنَّهَا مائة ضَرْبَةٍ بالسَّوْط، متى اسْتَطاع أن يفْعَل ذلك، وقيل غيْرُ ذلك والله أعلم.

ولمَّا طَالَ علَيْهِ البلاء، واشْتَدَّتْ عليه إغراءات الشيطان ووسائلُ كيده ومكره، ليَدْفَعَهُ إلى سُوء الظَّنِّ باللَّهِ والطَّعْنِ في حِكْمَتِه، نادى ربَّه مُسْتَجْدِياً رَحْمَته، بكلامٍ تفسيرهُ:

﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾: أي: بمشقَّةٍ نفسيَّةٍ وتَعَبٍ وإعياء، حتَّىٰ خَشِيتُ على نفْسِي من كَثْرَةِ وساوسِه، وإغراءاته الكيديَّة، ومَكرِه الشديد.

فحماه الله من التأثُّر بالشَّيْطانِ، فأمَدَّه بالصُّمودِ والصَّبْر.

قيل: استمرّ بلاؤه ثلاث سنين. وقيل: سبعاً وأشْهُراً.

وقيل: ثمانية عشرة سنة، وليس في شيءٍ من هذه الأقوال ما يَصِحُّ اعتماده، ولكن قد اجتاز امتحان الصَّبْر بنجاحٍ باهر.

وشفاه الله ووهب له أهْلَه ومثْلَهُمْ معهم، وعادَ لَهُ إخوته وأصحابه الذين اعتزلوه وهجَرُوه أيَّامَ بَلائه، ووسَّعَ اللَّهُ عليه في الرّزق والمال، حتّى صارَ عنْدَهُ ضِعْفُ ما كان عنده سابقاً.

تدبُّر نَصَّيِ (صٓ) و (الأنبياء) تدبُّراً تكامُليًا

● ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾: أي: وضَعْ في ذاكرَتِكَ للانتفاع وتقدير الأمور حقَّ قَدْرِها، ما نَقُصُّهُ عليك من قِصَّةِ بلاء أيُّوب، ذي الغنىٰ والمال الكثير والأنصار والأعوان، وما تعرّضَ له من صنوف ابتلاء.

المخاطبُ الأوَّل في هذا النّصّ نبيُّنا ورسولُنا محمَّد ﷺ، ثم كُلُّ أهل للخطاب بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ.

وقد شرّف الله عزّ وجلّ أيوبَ عليه السلام بقوله: ﴿عَبْدَنَا﴾ إذْ تحقَّقَ بعبوديَّةٍ صادقةٍ ممتازة في امتحان الشكر، وفي امتحان الصبر.

● ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِذْ﴾: ظَرفٌ لماضٍ من الزّمان، وهو هنا مضافٌ لجملة: ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: وقت دُعائه ربَّه دُعَاءً مضْمُونُه ومَعْنَاهُ:

﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾:

النُّصْب: التّعبُ والإعياء.

العذاب: هو كُلُّ مَا يَشُقُّ على النفس ويؤلمها. ويأتي العذاب بمعنى العقاب والنكالِ، وهذا غيْرُ مرادٍ هنا.

أي: إذْ نَادَى ربَّه بأنّي قَدْ مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بمَشقَّةٍ نفسيَّةٍ وتَعبٍ وإعياء، من كَثْرَة وساوسه وإغراءاته ووسائل كَيْدِهِ ومَكْرِه، ليَدْفعَني إلى سُوء الظّنِّ بِكَ، والطَّعْنِ في حكْمَتِك، بسبب ما أنزلْتَ بي مِن بلاء في مالي وأَهْلِي وجَسَدِي.

وجاء في سفر «أيوب» عند أهل الكتاب أنّ الله عزّ وجلّ سلَّط الشيطان على أَيُوبَ ليَمْتَحِنَ صَبْره، إذْ زَعَم الشيطان أن استقامة أيُوب وبرَّهُ قد كانا بسبب أنّ الله قد وسّعَ عليه رزقه وحمّاه وحفظه، فثبت أيوبُ في امتحان الصَّبْر، كما ثبت في امتحان الشُّكر.

وأَظُنُّ أنَّ تَسْلِيطَ الشَّيْطانِ على أَيُوبَ عليه السّلام، من تزيُّداتِ من كتَبَ سفر «أيُوب» من كتب العهد القديم عند أهل الكتاب، لأنّ الله عزّ وجلّ قد قال للشيطان منذ عهد آدم عليه السَّلام: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

وأبان النَّصُّ الذي جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) أنّ أيُوب عليه السَّلام تلطَّفَ بعد أنْ شكىٰ لربّه ما مسَّهُ به الشيطانُ بوساوسه ووسائل كيده، فدعا بدعاءٍ تَضمَّنَ عَرْضَ مَا مَسَّهُ من ضُرٍّ، مع الثناء على ربّه بأنَّهُ أرحم الراحمين، دون أن يُصَرِّحَ بسؤال رفع الضُّرَّ عنه، فنادى ربَّهُ

في اسْتِجداء، كما قال تعالى: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

الضُّرُّ: سُوءُ الحال في الْبَدَنِ أو المال أو الأهل أو نحو ذلك.

ونلاحظ أنّه قال عليه السّلام: ﴿مَسَّنِيَ﴾ ولم يَقُلْ أصابني، على الرغم من شِدَّة ما نزل به من بلاء، وهذا من رفيع أدبه مع ربّه.

فاستجاب الله دُعَاءَهُ فَرَفَعَ عَنْهُ ما أنزل به من بلاء، كما قال تعالى في النّصّ الذي جاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ... ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَكَشَفْنَا﴾: فَأَزَلْنا ما بِهِ من ضُرٍّ في نفسه وماله وأهله وولده.

● **أمّا المرَضُ** الذي كان نازلاً بجسَدِه، فقد أَمَرهُ الله بأن يتّخِذ سبباً عِلاجيًّا قضىٰ اللَّهُ أن يكون به الشفاء، فقال له كما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾:

الرَّكْضُ: هو ضَرْبُ الشَّيء بالرِّجْلِ أو نحوها، ويقال لَهُ الرَّفْسُ. وحينما يَعْدُو الإنسان، أو تَعْدُو الخيل ونَحْوُها، فإنَّ الأرْجُل تَضْرِبُ في الأرض، ولهذا سُمّي الْعَدْوُ رَكْضاً.

ويقال لغة: رَكَضَ الطَّائِرُ جناحَيْه، أي: حَرَّكَهُما وجعَلَ يَضْرِبُ بهما جنْبَيْه.

ويظهر أنّ الله عزّ وجلّ قد أوحى لأيُوب عليه السَّلام أن يَضْرِبَ برِجْلِه مكاناً معيّناً في الأرض، ورُبما كان ذلك بأَدَاة فيها حَدِيدةٌ تَحْفرُ في الأرض، ففعل عليه السّلام ما أَمَرَهُ الله به، فَتَفَجَّرَتْ له عين ماءٍ بقضاء الله وقدَره، فلَمّا رأىٰ الماء قَدْ تفجّر أوحَىٰ الله إليه:

﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾:

أي: فاغْتَسِلْ بهذا الماء، واشْرَبْ مِنْهُ، يكُنْ بهذا السَّبَب شفاءُ اللَّهِ لك. ففعل أيوبُ ما أمَرَهُ الله به فَشَفَاهُ الله عظمَتْ قُدْرَته، وجلَّتْ حِكْمتُه.

● وأمَّا بَلاَؤُهُ بأهْلِهِ فقد كشَفَهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بِرَدِّهِمْ عَلَيْهِ مِنَ الأسر، ثُمَّ زَادَهُمْ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ، فقال الله تعالى في النصّ الذي في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿.. وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا .. ﴿٨٤﴾﴾.

وقال تبارك وتَعالى في النصّ الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا .. ﴿٤٣﴾﴾.

هذان النَّصَّان متكاملان في الدلالة على المراد، فعِبارَة: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ﴾ دلّت على معْنَى إمْضاءِ إرادَةِ الْعَطاء بالفيض الرَّبّاني، دون النَّظر إلى معنى استحقاق هٰذا العطاء، وناسَبَ هٰذِه الهِبَة أنْ يَقُول الله عزّ وجلّ في الآية: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾. وعبارة: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ﴾ دلَّت على معنى إيصال هذا العطاء الرَّبَّانيّ إليه، بعْدَ إمضاء الإرادة به، وناسَبَ هذا الإيصالَ لذوات ما وهبَ الله له أنْ يقول في آية (الأنبياء): ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: رحْمَةً ذات أثرٍ في إيصال مَا وهبناه إليه، ومعلومٌ أنَّ كلَّ ما هو في الوجود، ولو كان في حوزة الباغين الآسِرين، هو عند اللَّه جلَّ جلاَله، وعظم سلطانه، فهو مَالك كلِّ شيءٍ وَمَلِيكُهُ.

فدلّ هذا الصنيع البيانيُّ العجيب على أنّ الهِبَةَ مِنْ عطاء الإرادة، وهي من آثار صفاتِ الذّات الرَّبّانيّة. ودلّ علَىٰ أنّ الإيتاء، وهو توصيلُ الأشياء الموهوبة، آتٍ ممّا عنْد الله في كونه، ممّا هو له مِلْك، وليس صفة من صفات الذّات، وإنما هو من صفاتِ الأفعال.

● وجاء في النصّ الذي في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿.. وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ بَعْدَ قَوْل الله فيه: ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

● وجاء في النَّصّ الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿.. وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ بعد قول الله فيه: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

الذِّكْرَىٰ: اسْمٌ للتَّذْكِير، أي: وتَذكيراً للعابدِين وتَذكيراً لأُولي الألْبَاب.

فدَلَّت عبارة: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ علَىٰ أنّ القضاء الرَّبَّانِيّ بالْهِبَة هُو ذِكْرىٰ يَعْلَمُها وَيَتَذَكَّرُها أولوا الألباب، وهم أهل العقول الدَّاركَة الحصيفة، الّذين يُدْرِكون المعاني من وراء الظواهر التكوينيّة.

ودلَّتْ عبارة ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ علَىٰ أنَّ الإيصال المادِّيَّ المشْهودَ للْعَطَاءَات الرَّبَّانِيَّة، هو ذكرىٰ يُدْرِكُها وَيَتَذَكّرُها الْعَابدون لرَبّهم، فيكون ذلك دافعاً لهم للثَّبات على عِبادَة الله بالشكر وبالصَّبْر، وهؤلاء لاَ يشترط أن يكونوا من أُولي الألباب الدَّرّاكين لبواطن الأمور.

● وانفرد النصّ الذي في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بالإشارة إلى يمين حلفَها أيُوبُ عليه السّلام أن يضرب زوجته الوفيّة الرضيّة الصابرة على خِدْمَتِه طَوالَ مُدَّةِ بلائه، مئةَ سَوْطٍ، لأنّها فعلَتْ شيئاً ما قد كرِهَهُ منها ولم يَرَه أمراً حسناً، فقال الله عزّ وجل فيها مبيّناً ما قاله لأيُّوب ومقتطعاً مِنَ الحدَثِ الماضي كأنّه يجري الآن:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ .. ﴿٤٤﴾﴾.

لقد أفتاه الله عزّ وجلَّ بهذا فتوىٰ يتحلّل بها من يَمِينه، فَيُجْرِي عملاً فيه ضرب صوريٌّ لزَوْجَتِه، وهو ضربٌ لا يُؤْلمها ولا يُؤْذِيها بشيء.

إنّ اليمينَ الّتي حلَفَها أيُوبُ عليه السّلام أمْرٌ أَلْزَم به نَفْسَه، ولَيْسَ له

طبيعة الأحكام الشرعيّة المطلوبة لذاتها، ومن أجل هذا أعْطاهُ اللّه طريقَةً شكلية يَبَرُّ بها يمينه، ولا يؤذي ولا يؤلم بها زَوْجته الوفيَّة البارّة.

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾: الضّغْثُ حُزْمَةٌ من أعوادٍ يُقْبَضُ عَلَيْها بِجُمْعِ الكَفِّ، كأعواد شمراخ التَّمْر، فإذَا ضَرَبَ بها ضَرْبَةً واحدةً أو ضَرْبتين بحسَب عَدَدِ أعوادها، أغْنَتْه عن ضَرْب مِئَةِ سوْط، وبرَّ بذلك يَمينَه ولم يحْنَثْ.

وهذه الطريقة هي من الحيل المشروعة الّتي ليس فيها تغيير لمطلوبٍ لذَاتِه في أحكام الدّين، فلا يصحُّ إجْرَاءُ مثْلِها في حدٍّ شَرْعيّ، كجَلْد الزّاني غَيْرِ المحْصَن، لأنّ الجلْدَ المؤلِمَ وفْقَ العدد المأمور به، ممَّا هو مطلوبٌ لِذَاته في أحكام الدّين.

وقد جاء في الإسلام الأمْرُ بالتكْفِيرِ عن اليمين التي يرى الحالف أنّ غَيْرَها خَيْرٌ منها.

روى مسلم وغيرُه عن أبي هريرة، أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«مَنْ حَلَف عَلَىٰ يَمِينٍ، فَرَأَىٰ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ».

وختم الله عزّ وجل النّصّ الذي جاء في سورة (ص) بقوله:

- ﴿ . . إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾.

في هذا الختام ثناءٌ مؤكَّدٌ على أيُّوبَ عليه السَّلامُ بأنّه كَانَ صابراً طَوال مُدَّةِ ابتلائه بالمكاره، وقد جاء التوكيد بـ(إنّ ـ والجملة الاسميّة) مع استخدام ضمير المتكلّم العظيم المبتَلِي بحكمَتِه وسُلْطَانِ رُبوبيته: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ ﴾.

وجاء في هذا الختام أيضاً تَقْويم دَرَجَتِه ضِمْن مَرْتبة الإحسان، بِعبَارَةِ: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

وهذا نظير التقويم الّذِي منَحهُ اللّهُ عَزَّ وجلّ لسُلَيْمان عَلَيْه السَّلام، وقد سَبَق تحليل عبارته.

أمّا داود عليه السَّلاَمُ فقد وصَفَهُ الله بأنّه أوّابٌ، وقال بشأنه ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.

وكذلك قال بشأن سليمان في الآية رقم (٤٠).

وإذِ اشتركَ أيّوبُ وسليمانُ عليهما السَّلاَم في تقويم الدرجة، بعبارة: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ فقد دَلَّ هذا على أنّ أيّوبَ عليه السّلام مشمولٌ بمضمون عبارة: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ وَلَوْ لم يأْتِ التصريحُ بهذا في أيٍّ من النّصّيْن المخصَّصَيْنِ للحديث عنه في القرآن المجيد.

فَدَاودُ وسُلَيْمانُ وأيوبُ عليهم السلام أوّابون، ولَهُمْ عند الله زلْفَىٰ وحُسْنُ مَآب.

ما جاء في السنة بشأن أيّوب عليه السلام:

روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«بَيْنَما أيُوبُ يَغْتَسِلُ عُرياناً خَرَّ عَلَيْهِ رِجْلُ جَرادٍ مِنْ ذَهَبٍ، فجعَلَ أَيُوبُ يَحْثِي في ثَوْبِهِ، فَنَاداهُ رَبُّهُ عزّ وجلّ: أَلَمْ أَكُنْ أَغْنَيْتُكَ؟. قال: بَلَىٰ، وَلَكِنْ لاَ غِنَىٰ لِي عَنْ بَرَكَتِكَ».

❁ ❁ ❁

رابعاً
التدبّر التحليلي للفقرة الرابعة من الدرس الثاني من دروس السُّورة وهي الآيات من (٤٥ ـ ٤٧)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

المخاطَبُ الأوَّلُ في هٰذا النّصّ رَسُولُنا النبيُّ محمد ﷺ، ويُلْحَقُ به مَنْ يشاءُ أنْ يَتأسَّىٰ به.

أي: وضَعْ في ذَاكِرَتِكَ للتأسّي والاتّباع ثَلاثَةً مِنَ الرسُل، شَرَّفْنَاهُمْ بِعُبُودِيتهم لنَا، وأعْطَيْنَاهُمْ ثَنَاءً خاصًّا، وأرفَعَ تَقْدِيرٍ منْ دَرَجات مَرْتَبَةِ الْمُحْسِنين، هُمْ إبراهيم، وإسحاق، ويَعقوب عليهم السّلام.

إبراهيم عليه السّلام أبو الأنبياء من بعده، وإسحاقُ ولَدُهُ من زَوْجَتِهِ سارة، ويعقوب ولَدُ إسحاق من زوجته رِفْقَة، وسَمَّاه الملكُ الذي صارَعَه كما ذكروا «إسرائيل» أي: «يُجَاهِدُ معَ اللّه» باللّغة الْعِبْريَّة.

هؤلاء ثلاثة رسُلُ ذكَرَهُمُ اللّه عزَّ وجَلَّ لرَسُولِه محمّد ﷺ، بعد أنْ ذَكر له «داود وسليمان وأيّوب» وما تَعَرَّضوا له من فتنة وبلاء، وكيف كان تقويم درجتهم.

أمّا إبراهيمُ وإسحاق ويعقوبُ عليهم السَّلاَمُ فقد وصَفَهم الله عزّ وجلَّ بصفاتٍ ترفعهم إلى أعلى درجات مرتبة المحسنين:

● فأثنىٰ عليهم بقوله: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴾: أي: أصْحاب الأيْدي القَوِيَّةِ العاملة الناصِبَةِ في الخيرات، والمجاهِدَةِ في طاعة الله، والمحْسِنَةِ لعباد الله ابتغاء مرضاة اللّه، وأصحابُ الأبْصار الدّرّاكة الواعيَة، وهي أبْصَارُ بصيرتهم النافذة إلى معرفة حقيقة الحياة الدُّنيا، ووظيفة الإنسان فيها، وإلى معرفة حقيقة الآخرة، وواجب الإنسان نحوها، وما هو الخير والأَفضل له للظفر بالمنازل الرَّفيعة في الفردوس الأعْلَىٰ من جنّات النّعيم المقيم، والنافذة إلى معرفتهم بالله وبحكمته.

دلَّ على هذه المعانِي تعريفُ كلٍّ من «الأيدي والأبصار» بأداة التعريف «الْ» الّتي قد يُؤْتى بها للدّلالة على الكمال، وقد جيء بها في اللّفظتين هنا للدّلاَلَة على كمال الأيدي وكمال الأبصار، وكمالُهما إنَّما يتحقّق بما سبَقَ بيانُه عن أيديهم وأبْصارهم.

● وذكر الله عزّ وجلّ أنّه أخْلَصَهُمْ، أي: اصطفاهم ونَقَّاهُمْ من الشوائب، بسبب خَصْلَةٍ وعبادة خالصَةٍ مِنْهم لله عزَّ وجلّ، هي حُضُورُ الدّار الآخِرَةِ دواماً في ذِكراهم، وكانت هذه الذكرىٰ هي الموجِّهة لكلّ تَصرُّفَاتهم في الحياة الدُّنيا، فقال الله تعالى بشأنهم:

● ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾:

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم﴾: أي: إنّا بعظَمَة الرُّبُوبيَّة وجلالها اصْطَفَيْناهم ونَقَّيْناهم من الشوائب.

﴿بِخَالِصَةٍ﴾: أي: بسبب خصْلَةٍ وعبادَةٍ خالِصَةٍ مِنْهُم لنا.

﴿وَذِكْرَىٰ﴾: اسْمٌ للتذكُّر هنا.

﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾: عطف بيان أو بدل من «خالصةٍ» أي: وهذه الخصلة الخالصة النقيّة من الشوائب، هي الاشتغال بتذكُّر الدار الأخرة دواماً، إذْ هي الدار الجديرة بأنْ تكون هي الدّار الّتي تشغل أَلْبَابَ أولى الألباب، وذكرىٰ الدار الآخرة دواماً يدْفَعُ إلى العمل للظفر بأسْمَى المراتب وأعلى الدَّرجَات في جنّاتِ النعيم فيها.

إنَّ الدّار الآخرة هي الدَّارُ الجديرَةُ بأن تُعرَّف بـ (أَلْ) التي للكمال، أمّا دار الحياة الدّنيا، فالحياة فيها حياة قَليلَةٌ ضئيلة مُنغصةٌ بالأكدار، وفَانِيةٌ سريعة الزّوال، وهي لا تَسْتحقُّ أَنْ توصَفَ بشيءٍ يُشْعِرُ بكمالها أو بالثناء عليها.

فمن كان من أولي الألباب أحْضَر الدار الآخرة في ساحة التذكُّرِ لديه دواماً، مع كُلِّ تَوجُّهٍ لعمل من أعماله الظاهرة والباطنة، الفكريّة والنفسيّة والقلبيّة والجَسديَّة، وهذا يجعل توجُّهَهُ مُنْحَصِراً في ابتغاء مراضي الله، والابتعاد عن مساخطه، وفي اختيار الأكْثَرِ ثواباً عنده، والأرفع منزلةً لديه، والأكثر قرباً منه.

وهكذا كان حال «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» الّذين جئ بهم مثلاً لهذا الصِّنْفِ الممتاز من الرَّسل.

وإضافة «ذكْرىٰ» إلى «الدار» من إضافة المصْدَرِ إلَىٰ مفعوله، أي: تذكرّهم الدائم الدار الآخرة.

وأمّا قراءة: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةِ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾ بدون بتنوين لفظِ خالصة، فهو من قبيل الإضافة على تقدير «مِنْ» نظير «بابُ ساجٍ» أي: بابٌ من ساج، ونقول هنا: بخالِصَةِ ذِكْرىٰ الدار. أي: بخالصةٍ من ذكرىٰ الدار.

وجاء في ختام هذه الفقرة تقويم الدّرجَةِ الرَّفيعة من مرتبة المحسنين، لكلّ من «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» فقال الله عزّ وجل بشأنهم:

- ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾: جمع «المصْطَفى» وهُو المفضَّلُ المختار.

﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾: جمع «الْخَيِّر» وهو ذُو الخير الكثير.

فمنَحَهم الله بهذا التقويم المؤكد صِفَتَيْنِ عظيمتَيْن:

الصّفة الأولى: أنّهم مِنَ الَّذين اصْطَفاهُمْ اللّهُ عزَّ وجلَّ ففضَّلَهُمْ واختارهم لمنازل الْقُرْبِ منه، ولاحتلال أَرْفَعِ المراتب والدرجات فيها، وهذا الاصطفاء قد كان ثواباً لهم على مَا كان منهم باختيارِهم الحرّ، إذْ كانت ذكرى الدار الآخرة شَغْلَهم الشاغل، وهَمَّهُمُ الأكبرَ المالئَ كُلَّ جوانب نفوسهم، وليست هي العصمة الّتي عصَمَهُمُ اللّهُ بها بسبب النُّبوة والرسالة، إذ الْعِصْمَةُ ممنوحة لكلُ الأنبياء والمرسلين، إنّما التفاضُل فيما بينهم في درجات مرتبة المحسنين ثَمرَةُ اختياراتهم الإِرادية الحرَّة، فوق العصمة، وبعد تَحَلِّيهم بها، إذا العصمةُ خاصَّةٌ في حدود مرتبة التقوى وحقوقها.

الصفة الثانية: أنَّهم منَ الأَخْيَار، الذين اكْتَسَبُوا بأَعْمَالهم الظاهرة والباطنة الاختياريَّة خَيْرِيَّةً كبْرَى.

وهذا أعظم تقويم منحه اللَّهُ عزّ وجل لزُمْرَةٍ من عباده المرسلين، وفيه إلماحٌ ضِمنيٌّ لخاتم المرسلين أن يختار طريقة هؤلاء، لا طريقة أصحاب الْمُلْكِ والغنى من متاع الحياة الدنيا ولو كانوا من المرسَلِين.

خامساً
التدبّر التحليليّ للفقرة الخامسة من الدرس الثاني من دروس السورة وهي الآية (٤٨)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

وفي هذه الفقرة ذِكْرُ ثلاثَةٍ من المرسلين، وقد مَنَحَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ تقويماً واحداً فقال بشأنهم: ﴿وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ وهذا الاختيار البيانيّ يُشْعِرُ بأنَّهُمْ قد جيءَ بهم مثالاً لصِنْفٍ ثالث من الرُّسُل، لا يدخُل في صنف: «دَاوُد وسليمان وأيوب» ولاَ يَدْخُلُ في صنف: «إبراهيمَ وإسْحَاق ويَعْقُوب».

وبالتأمل نلاحظ أنّهم لم يأت في وصْفهم أنَّهُمْ «أوّابُون» إذَنْ فهم في المحافظة على حقوق مَرْتَبةِ المحسنين أكثر التزاماً من صنف: «داود وسُلَيْمان وأيُّوب». ولم يأتي في تقويم درجتهم أنهم «من الْمُصْطَفَيْن» بل اقتصر النصّ على أنّهم «مِنَ الأَخيار» فَهُمْ لم يرتقوا في مرتبة المحسنين إلى درجة صنف «إبراهيم وإسحاق وَيعقوب».

فهم إذن صِنْفٌ مَتَوَسِّطٌ بين الصنفين الآخرَيْن، ودرَجَتُهم في مرتبة المحسنين دُونَ درجة صنف «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» وفوق درجة صنف «داود وسليمان وأيُّوب».

إسماعيل: هو الابْنُ البكر لإبراهيم عليه السّلام، من هاجر المصريّة، الّتي وهَبَها فرعَوْنُ مصر لسارة زوجة إبراهيم عليه السلام، فوهبتها سارة

لزوجها إبراهيم، فَولَدَتْ له إسماعيل، وسافر بهما فأسْكنهما بمكّة بأمْرٍ من الله.

ولمّا كبر وبلغ أشدّه جعله الله نبيًّا ورسولاً.

الْيَسَع: هو الْيَسَعُ بن أخْطُوب، آمَنَ بالرَّسول إلياس واتبّعه، ثم جعله الله نبيًّا ورسولاً.

وقد أثبت القرآن نبوّته ورسالته، وأنّه ممّن فضَّلهم على العالمين. ولم يذكر المؤرخون أخباراً عنه.

ذو الكفل: قال أهل التاريخ: هو ابْنُ أيّوب عليه السلام، واسْمُه في الأصل: «بِشْر» وقد بعثه الله بعد أيّوب، وسمّاه «ذَا الكِفْل» وكان مقامُه في الشّام، وأهل دمشق يتناقلون أنّ له قبراً في جبل قاسِيُون، والله أعلم.

والقرآن لم يزد على ذِكْرِ اسمه في عداد المرسلين، ولم أقف على تَرْجَمةٍ مبسوطة له.

وروى عن مجاهد، أنّه كان قد تكَفَّلَ لبني قومه أَنْ يكْفِيَهُمْ أمْرَهُمْ، ويَقْضِيَ بينهم بالعدل، فَسُمِّي ذا الكفل.

❁ ❁ ❁

الغرض الرئيس من هذا الدرس بفقراته الخمس:

ذكر الله عزّ وجلّ لرَسُوله محمد ﷺ في هذا الدرس من دروس السّورة ثلاثَة نماذج من المرسلين، وفي كلّ نموذج ثلاثَةٌ من الرُّسُل، تشابهَتْ صفاتهم وأحوالهم، وتقويم درجتهم عند ربّهم ضمن درجات مرتبة المحسنين.

ووضَعَ الرّسولَ محمّداً ﷺ أمامَ إحدى اختيارات ثلاثة يختارُها لنفسه، وألمح إليه ضمناً أن يختار ما يوصله عند ربّه إلى أسمَىٰ درجات المحسنين، على أنّ له أن يختار ما يشاء.

فإن اختار نموذَجَ صِنْفِ: «داودو وسليمان وأيُّوب» فعليه أن يُعِدَّ نفسه لمثل ما فُتِن به هؤلاء الرُّسُلُ الثلاثة، ولمثل ما تعرَّضوا له من بلاء، وهل باستطاعته مع الملك والسلطان أو الغنى الواسع، أنْ يكون دائم الاستقامة على حقوق مرتبة الإحسان بكلّ درجاتها، دون أن يتعرَّض لما يجعله من الأوّابين؟.

وإن اختار نموذج صِنْف «إسماعيل والْيَسَع وذى الكفل» فَلْيُعِدَّ نفسَه أن يكون تقويمُ درجته عند رَبّه أنّهُ من الأخْيَار، دون أن يكون من المصطَفَين الأخيار».

أمّا إذا اختار لنفسه نموذج صنف «إبراهيم وإسحاق ويعقوب» فلْيَبْتَعِدْ عن طلب الملك والسلطان الدنيويّ، وعن طلب الغنىٰ والثراء الكثير، وعليه أن تكون ذكرى الدار الآخرة أكْبَرَ هَمِّه، وأعظم ما يَسْعَىٰ له في مسيرة حياته، حتّىٰ ينالَ ميزة:

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

وأمَام هذه التخييرات الّتي وضعها الله عزّ وجلّ أمام رَسُولِهِ محمد ﷺ، وقد دلَّ عليها العرض في الدرس الثاني من دروس السّورة بفحواه ولوازمه الذهنيَّة، نُدْرك أنّ الرسول محمّداً ﷺ قد اختار لِنَفْسِه أَنْ يكون عبداً رَسُولاً، وآثر نموذج «إبراهيم وإسْحَاقَ ويعقوب» وتشهد لهذا سيرته صلوات الله عليه وسلاماته.

روى في شرح السّنة عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ:

«يا عَائِشَةُ لَوْ شِئْتُ لَسَارَتْ مَعِي جِبَالُ الذَّهَبِ، جَاءَنِي مَلَكٌ إنّ حُجْزَتَهُ(١) لَتُسَاوِي الكَعْبَة، فقال: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرأُ عَلَيْكَ السَّلام، ويقول لك:

(١) حُجْزَته: مَعْقِد إزاره.

إنْ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْداً، وَإنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكاً. قَالَ: فَنَظَرْتُ إِلَى جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلامُ. قَالَ: فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ ضَعْ نَفْسَكَ. قَالَ: فَقُلْتُ: نَبِيًّا عَبْداً».

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنه: فالْتَفَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إلى جبريل كالْمُسْتَشِيرِ لَهُ، فَأَشَارَ جِبْرِيلُ بِيَدِهِ أَنْ تَواضَعْ، فَقُلْتُ): نَبِيًّا عَبْداً».

قالَت عَائِشة رضي الله عنها: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك لاَ يَأْكُلُ مُتكِئاً، يَقُول:

«آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ»(١).

❁ ❁ ❁

(٧)
التدبر التحليلي للدرس الثالث من دروس السّورة وهو الآيات من (٤٩ ـ ٦٤)

قال الله عزّ وجل:

﴿هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا

---

(١) انظر مشكاة المصابيح رقم الحديث ٥٨٣٥، ومسند أبي يَعْلَى الجزء الثامن ص٣١٨ رقم الحديث ٤٩٢٠ قيل: سنده ضعيف. وأقول دلالاته مطابقة لما يشير إليه الدرس الثاني من دروس سورة (ص) ضمناً.

نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾
إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

تمهيد:

هذا الدرس الثالث من دروس السُّورة، دَرْسٌ يشتمل على بيان لقطاتٍ من جَزَاء المتَّقين في جَنَّات عَدْنٍ يَوْم الدين، وعلى بيان لَقَطَاتٍ من جزاء الطَّاغِين في جهَنَمَ يَصْلَوْنها يَوْم الدين، وعلى مَشاهِدَ وَمَوَاقف لهم فيها.

وصلة هذا الدرس بموضوع السّورة واضح، فموضوع السُّورة يَدُور حول الموقف الَّذِي وصل إلَيْه أئمة مشركي مكّة إبّان نزولها، وهو موقف مَنْ هُوَ في عِزَّة وشِقاق، وحول حال الرسول ﷺ تُجاه هذا الموقف، وحال المؤمنين معه، ومعالجة نفس الرَّسُول والمؤمنين، ومعالجة الكافرين بالإقناع وبالترغيب وبالترهيب.

ولمّا كانَ من عناصر موقف الكافرين إصرارُهم العنادي على التكذيب بيَوْم الدّين، والتكذيب بالإنذار الذي أنذرهم به الرسول ﷺ، إذْ أنبأَهُمْ أَنَّهُمْ مَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وأنّ لهم جهنم يَصْلَوْنَها يوْمَ الدّين، إذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بما جاءهم به عن ربّهم ويُسْلِمُوا ويتَّبِعُوا ما أنزل الله.

كانَ من المنَاسِب تَحْرِيكُ أوْتار الطَّمَع والْخَوْفِ في نفوسِهِمْ، بَعرْضِ لَقَطَاتٍ من جزاء المتقين في جنَّاتِ عَدْنٍ يَوْم الدّين، ولقطاتٍ من جزاء الطّاغين في جَهَنَّم يصْلَوْنها يوم الدين، مع مشاهِدَ وَمَوَاقفَ سَوْفَ تكون يومَئذٍ.

إنَّهُمْ لَمْ يَطْرَحُوا بَعْدُ شيئاً جَدِيداً من إشكالاَتٍ وجَدَليَّاتٍ حَوْل نَبَأ يوْمِ الدّين، فاقتصَرَتِ السُّورَة على تحريك أوتار الطَّمَعِ والخوفِ في نُفُوسهم بالْعَرْض الخبري.

● قول الله تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾: المشار إِلَيْهِ مَا جاء في الدرس الثاني من دروس السّورة، المشتمل على التذكير بأحوال أصناف الرُّسل الثلاثة:

(١) صنف «داود، وسليمان، وأيّوب».

(٢) وصنف «إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب».

(٣) وصنف «إسماعيل، والْيَسَعَ، وذِي الكِفل».

على ما سبق بيانُه وشرحه، فجاءت عبارة: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ﴾ لتُؤدِّيَ وظيفتين:

الأولى: التوجيهُ لجعْلِ ما جاء في الدرس الثاني ذكراً حاضراً في الذّاكرة، للانتفاع به، ولاستدعائه عند المناسبات الداعيات.

الثانية: الإشعارُ بانْتِهَاءِ الدَّرْسِ السّابق والبدْءِ بدرس جديد.

لقطات من ثواب المتقين.

● قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾:

هذه الجملة معطوفة على ما تضمَّنه الدرس الثاني من ثواب المرسلين المحسنين، صراحةً أو ضمناً، فالصريح فيه قول الله عزّ وجلّ بشأن داود، ثم بشأن سليمان: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ ويُدْرَكُ بالقياس عليهما أنّ لأيُوبَ عليه السّلامَ كذلك، لمشاركته لَهُما بعبَارَة: ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾.

أمّا الصِّنْفَان الآخَران اللّذان هما أرفع درجة في مرتبة الإحسان، فَيُفْهَمُ مِنْ بَابِ أولى أنّ لهما عند الله مثلَ ذلِكَ وزيادةً تُلائِم درَجةَ الارتقاء الّتي ارتقوا إليها.

وهنا يَرِدُ سؤال: فمَا للمتّقين من غير المرسلين؟.

فجاء الجواب بأسلوب العطف: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾.

في هذه العبارة تأكيدٌ منَ الله عزّ وجَلّ لعباده، بأدَوَاتِ التأكيد: «إنَّ» و «ولام الابتداء» و «الجملة الاسمية» بأنّ المتقين لهم مآبٌ حَسَنٌ عند الله.

المتَّقون: هُمُ الّذينَ اتَّقَوا بإيمانِهِم وعَمَلِهم ما رَتَّب اللَّهُ من عقابٍ على مُخَالَفة واجبِ اعتقادي، أو واجب عمليّ ظاهرٍ أوْ بَاطِن.

ويُطْلَقُ لفظ «المتقي» على من اتَّقَىٰ بعض العقوبات الربَّانية، ولو لَمْ يتَقِ عُقوباتٍ أخرى.

فمن اتَّقىٰ الخلودَ في النار بالإيمان والإسلام، وكان من مرتكبي الكبائر، من دون الكفر، فهو يَدْخُلُ في عموم المتقين، إذِ اتَّقَىٰ الخلود في النار.

والمتقون على درجاتٍ متفاضلات، أدناها من اتقى الخلود في النار، إذْ كَانَ بريئاً من كلّ المكفّرات، وأعلاها من استكمل في حياته حقُوقَ كلّ درجات مرتبة التقوى، بأداء كلّ الواجبات، وترك كلّ المحرّمات، أو بتدارك حاله قبل الموت بالتَّوبة الصحيحبة الصادقة، مع الإصلاح والاستقامة، فمن تاب صادقاً وأصْلَحَ واستقام تاب الله عزّ وجلّ عليه، فحمَىٰ نفسه من العقاب على ما ارتكبَ من خطايا.

واللام في ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴾ هي لام الاختصاص، أو لام التمليك الرَّبانيّ لهم.

حُسْنُ المآب: هو حُسْنُ الْمَرْجِع إلى اللَّهِ بَعْدَ الموْتِ والبعث ليوم الدّين.

المآب: مصْدَرٌ مِيميٌّ بمعنى «الأَوْب» وهو الرجوع، تقول لغة: آبَ،

يَؤُوبُ، أَوْباً، وإياباً، وأَوْبَةً، وأَيْبَةً» أي: رجع، والمصدر الميمي القياسيُّ «مَآب».

والإضافة في عبارة: ﴿لَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ على تقدير «مِنْ» أي: لَحُسْناً مِنْ مَرْجِعٍ يَرْجعُونه بعد الموت، لحياة الحساب، وفصل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

والْحُسْنُ مَصْدَرُ «حَسُنَ، يَحْسُنُ، حُسْناً» أي: جَمُلَ. والْحُسْنُ الّذي يُوجَدُ في الرُّجوع إلى الله بالنسبة إلى المتقين، يشْمَلُ حُسْنَ الْبَعْث، وحُسْنَ الْحَشْر، وحُسْنَ الحساب، وحُسْنَ فَصْل القضاء، وحُسْنَ التكريم بالأمر بدخول الجنة، وحُسْن الاستقبال فيها، وحُسْنَ الإقامة الأبديَّةِ في أنواع نَعِيمها وصُنُوفه.

وهذا أوْلَىٰ من حمل «المآب» على مَكان الرجوع فقط على أنّه مقبول وصحيح.

وظاهر أن الجملة مؤكدة بـ «إنّ ـ ولام الابتداء ـ والجملة الاسمية» لأن مجموع المخاطبين يحتاجون إلى التأكيد.

● قول الله تعالى: ﴿جَنَّتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿جَنَّتِ عَدْنٍ ﴾: بدلٌ من ﴿وَحُسْنَ مَئَابٍ ﴾ بدلُ بعض من كلّ، إذا قُلْنا: ﴿مَئَابٍ ﴾ مصدر ميمي، وبدلُ كلّ من كلٍّ إذا قلنا: ﴿مَئَابٍ ﴾ اسْم مكان الأَوْبِ.

جنّات: جمع «جَنَّة» والجنة في اللّغة الحديقة المكتظّةُ بالأشجار. ولمّا كانت الجنة يوم الدّين ذاتَ أقسام كثيرةٍ جداً، وكان كلّ قِسْم منها يَصِحُ أن يُطْلَقَ عليه اسم جنّة، كانت دار النعيم يوم الدين جنّاتٍ باعتبار أقسامها، وصَحَّ أنّ لكلّ مؤمنٍ فيها جنّاتٍ أيضاً، أي: أَقساماً عَدِيدة، كلُّ واحدٍ منها يَصِحُ أن يُسَمَّىٰ جنَّة.

عَدْنٍ: أي: استقرار وثبات وخُلُود، يقال لغة: عَدَنَ بمكان كذا عَدْناً، أي: أقام به واستقرّ فيه.

وينال الأبرار والمحسنون المراتب والدرجات الرفيعات من جنّات عَدْنٍ بحسب ارتقائهم في درجاتِ مرتبة البر، أو درجات مرتبة الإحسان، لأنّ الأبْرَار متَّقُون وزِيَادةٌ من أعمالِ مرْتَبَةِ البِرّ، ولِأَنَّ المحسنين متقون وأبرار، وزيادةٌ من أَعْمال مرتبة الإحسان.

روىٰ الترمذيّ بإسنادٍ صحيح عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«فِي الْجَنَّة مِئَةُ دَرَجَةٍ، ما بَيْنَ كلُّ دَرَجَتَيْنِ كما بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، والْفِرْدَوْسُ أَعْلاَهَا دَرَجَةً، مِنْهَا تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجنَّةِ الأَرْبَعَةُ، وَمِنْ فَوْقِهَا يَكُونُ الْعَرْشُ، فَإِذَا سَأَلْتُمُوا اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ».

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وأَقَامَ الصَّلاَةَ، وصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقّاً عَلَىٰ اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ في سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا».

قالُوا: أَفَلاَ نُنَبِّىءُ النَّاسَ بذَلِكَ؟. قال:

«إِنَّ في الجنَّةِ مِئَةَ دَرَجة أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ في سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ فإذا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَىٰ الْجَنَّةِ، وفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمٰنِ، ومِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»[١].

﴿... مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾: أي: إذا جَاءُوها وَجَدوا أبوابَها مُفَتَّحَةً لَهُمْ مِنْ قَبْلِ وُصُولِهِم إليها، وهذا تكريمٌ لهم بالاسْتِقْبال الحسَن.

(١) انظر «فتح الباري» الحديث (٧٤٢٣ و ٢٧٩٠).

مفتحةً: حَالٌ لجَنَاتِ عَدْن، أو نَعْتٌ لها.

و «الْ» في ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ بدلٌ عن الضمير، أي: مفتَّحةً لهم أبْوابُها. ﴿ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ نائب فاعل لاسم المفعول ﴿مُّفَتَّحَةً﴾.

وعلى هذا المعنى وهو كون أبواب جناتِ عَدْنٍ تُفَتَّحُ قَبْلَ وصُولِ أصحابها إليها يُحْمَلُ قَولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: حتَّىٰ إذا جاءُوها مقتربين منها، وفُتحَتْ أبْوابُها قبلَ وصولهم إليها مباشرةً، تكريماً لهم.

بخلاف أهل جهَنَّم فَإنَّ أَبْوابَهَا تكُونُ مقفلَةً عَلَىٰ مَا في داخِلها، حتَّىٰ إذا وَصل إليها الكافرون المسُوقُون لإدْخالهم فيها فُتِحتْ لهم أبوابُها عِنْدَ وُصُولهم إليها، كما نشاهد في الأبواب الحديثة الّتي تنفتح عنْدَ الإحساس بوصول جِسْمٍ مقبل.

قال الله عزّ وجل في سور (الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول) أيضاً:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

نظرة شاملة لما جاء في القرآن من عبارَتَي «حُسْن مآب» و «جَنَّات عَدْن»:

(١) جاءت عبارَةُ: «حسن مآب» في القرآن ثلاث مرّات في سورة (صَ) في مَعْرِض بَيَان ثواب داود يوم الدين، وفي معرض بيان ثواب سليمان، وفي معْرِضِ بيان ثواب المتقين.

ثم جاءتْ في معرض الدّعوة الضمنيّة إلى عدم تعليق القلب بمازُيّنَ للنّاس في الحياة الدنيا، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿...ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾.

ثم جاءت في معرض بيان ثواب الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحات، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الرّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾.

فَحُسْنُ المآب وصْفٌ يَشْمَلُ ثوابَ المتقين على تفاضل درجاتهم، وثواب الأبْرار على تفاضل درجاتهم، وثواب المحسنين على تفاضل درجاتهم.

(٢) وجاءت عبارة: «جنّات عَدْن» في القرآن إحدى عشرة مرّة، بياناً لثواب المؤمنين والمؤمنات، وثوابِ أولي الألباب، وثواب المتقين، وثواب الّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات، وثواب من تاب وآمَنَ وعَمِل صالحاً، وثوابِ من أتَىٰ رَبَّهُ مُؤْمِناً قَدْ عَمِل صالحاً، وثواب كُلِّ المؤمنين من أمَّة محمدّ على اختلاف درجاتهم: ظالِمين لأنفسهم، ومقتصدين، وسَابقين في الخيرات، وثواب المتقين على اختلاف درجاتهم.

وجاءت ضمن بيان دُعَاء الملائكة للمؤمنين الّذين تَابُوا واتَّبَعُوا سبيل الله، ووعْداً من الله للمؤمنين، وجزاءً للّذين آمنوا وعَمِلُوا الصّالحات.

فدلّت هٰذه النّصوصُ على أنّ كلَّ الّذين يدخلون الجنّة بفضل الله عزّ وجلّ يكُونُون في جنّاتِ عَدْنٍ.

❁ ❁ ❁

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾.

في هذا وَصْفٌ لنعيم أهْل جنّاتِ عَدْنٍ وهم فيها، بثلاث صفات مُلْتَقَطاتٍ من سائر أنواع وصُنُوف وصُوَرِ نعيمهم الّتي جاء بيان بَعْضِها موزّعاً في سُوَر القرآن المجيد.

الصفة الأولَىٰ:

هي الصفة التي دلّ عليه مَشْهدَ اتّكائِهم المبيَّنِ في قوله تعالى:

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا﴾: الضمير في عبارة: ﴿فِيهَا﴾ يَعُودُ على جنَّاتِ عَدْن.

الاتّكاء: هو الْجُلُوسُ بِتمكُّن عَلَىٰ مَجْلِسٍ وَثير، ويُصَاحِبُهُ غَالباً وضْعُ الْيَدِ أو الْيَدِين علىٰ ما يَحْمِلُهُما للرّاحة، بإلْقَاءِ ثِقَلِ قِسْمٍ من الْجِسْمِ علَىٰ المتكَأ. والاتكاء يسْتَدْعي ذِهْناً مُتكأً عليه.

والمتّكِيءُ: هو مَنْ يسْتَوي قاعداً على وِطَاءٍ مُتَمَكّناً.

● وقد جاء البيان التفصيلي لهذا الاتكاء مُوَزّعاً في عَدَدٍ من سُور القرآن المجيد:

(١) ففي سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قال الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

فأبان هذا النّصّ أنّ من أحوالهم في الجنّة، أنْ يَكُونوا في ظِلال أشجارها متكئين على الأَرَائك.

الأرائك: جمع «الأريكة» وهي المقْعَدُ المنَجّد الوثير في قُبَّةٍ أوْ قصْرٍ أوْ نَحْوِ ذلك.

(٢) وفي سورة (الواقعة/٥٦ مصحف/٤٦ نزول) قال الله عزّ وجل في وصْفِ بعْضِ أحوال المنعَّمين في الجنة من السّابقين المقرَّبين من أصحاب اليمين أنّهم يكونون:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ۝١٦﴾.

﴿مَّوْضُونَةٍ﴾: أي: منسوجةٍ كما تُنْسَجُ الدُّروع.

فدلَّ هذا النصُّ على أنّ الاتّكاء قد يكون على السُّرُر.

(٣) وفي سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول) قال الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ۝٣١﴾.

سُنْدُس: نوع من الثياب الرقيقة المنسوجة من الحرير.

﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾: نوع من الثياب الغليظة المنسوجة من الحرير.

وكلاهما من أصْناف الدِّيباج.

فأضاف هذا النصّ إلى ما جاء في سورة (ص) صُوراً ومشاهد لم تُذْكَرْ فيها.

(٤) وجاء في سورة (الطّور/٥٢ مصحف/٧٦ نزول) وصْفٌ لبعض أحوال المتقين في الجنّة، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠﴾.

﴿فَـٰكِهِينَ﴾: أي: نَاعمين فَرِحينَ مَسْرُورِينَ، يتناوَلُون لذَّاتِهِمْ طيّبةً بِهَا نُفُوسُهُمْ، مُعْجَبِين بما آتاهم ربّهم.

فجاء في هذا النصّ وصْفُ السُّرُر الّتِي يَتَّكِئُون عليها أنّها سُرُرٌ مَصْفُوفَةٌ، وهذا الوصف يقتضي أنَّها موضوعة بعِناية ضِمْنَ صُفوف مُتَناسقة.

(٥) وجاء في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) قول الله عزّ وجلّ بِشَأْن من خاف مقام ربّه، وفي وصف بعض أحواله في الجنّتين اللّتَيْن له:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾.

فأبان هٰذا النصّ أنّ السُّرُر التي يتّكِئُونَ عليها فَوْقَها فُرُشٌ بَطَائِنُها من إسْتَبْرق، وقد سبق بيان الإستبرق قرِيباً.

وجاء في هذه السورة أيضاً في وصف بعض أحوال من لم يَرْقَ إلى درجَة من خاف مقام ربّه، أنّ له جنتين من دون الجنّتَين اللّتَيْنِ لمن خاف مقام رَبّه، قول الله عزّ وجلّ:

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾﴾.

الرَّفْرَف: نوع من الثياب نفيس.

والعَبْقَرِيّ: المراد نوع من أقمشة الديباج الثِخَانِ المنسوجة من الحرير، والطَّنَافِسِ الثِّخَان، وهي البسط.

فجَوْدَة الرَّفْرَف والعبقريّ الحسان، دون جَوْدَةِ فُرُشٍ بطائِنُها من إستبرق.

(٦) وأخيراً أنزل الله عزّ وجل، في بَيَانِ أنّ من أحوال أهل الجنّة يوم الدّين أن يكونُوا مُتَّكِئينَ فيها، قوله في سورة (الإنْسَان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول) بشأن ثواب الأبرار:

﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣﴾.

فأبانت هذه النصوص أنَّ مِنْ مشاهد المتَّقِين، والأبْرَار، والسّابقين المقرّبين، أَنْ يكونُوا مُتكِئِينَ، ولكنّ الْأشياء التي يتَّكئون عليها متفاضلة في صفاتها.

- فالمتقون لهم مستوىً يلائم درجتهم في التقوى.
- والأبرار لهم مستوىً أرفع من مستوى المتقين فقط.
- والسّابقون المقرّبون وهم أهل مرتبة الإحسان لهم مسْتَوى أرفع من مستوى المتقين، ومن مُسْتَوى الأبرار.

الصفة الثانية:

هي الصفة التي دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾: أي: يَطْلُبُونَ وهم في جَنَّاتِ عَدْنٍ مجرَّدَ طلب، فيأتيهم ما يَطْلُبُون.

يُقَال لُغةً: دعَا بِالشَّيء، يَدْعُو، دَعْواً، وَدَعْوَةً ودُعَاءً، ودَعْوَىٰ، أي: طَلَبَ إحضَارَه.

الفاكهة: الثمار اللَّذِيذَةُ، وغالباً ما تكون حلوة.

أي: فهم يطْلُبُونَ مَا يَشَاءُون من فاكِهةٍ كثيرة وشرابٍ، فيأتيهم ما طلبوه، دون أن يحتاجوا إلى إحضاره بأنفسهم.

ووصفُ الفاكهة بأنها كثيرة يدُلُّ على كثرة الأنواع والأصناف، وكثرة الأعداد والأفراد.

وتنكير الشراب يَدُلُّ على نفاسته، وكثرة أنواعِه وأصنافِه، وكَثْرةِ كَمِّيَّته، أي: وشرابٍ نفيسٍ متنوّعٍ وكثير.

الصفة الثالثة:

هي الصفة التي دلَّ عليها قول الله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: وعندهم من نساء الجنة زوجاتٌ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لا ينْظُرْنَ لغير أزْوَاجِهِنَّ، وهُنَّ مُتَسَاويات في السّنّ، متساويات في الْحُسْن، متحابَّاتٌ بَيْنَهُنَّ.

قاصِرَات الطَّرْف: صفة لموصوفٍ مَحْذوف، أي: زوجات قاصرات الطرف.

الطَّرْف: يطْلَق لغة على: تحريك الجفن، وعلى العين، وعلى النظر.

وذاتُ الطرف القاصر، وهي العفيفةُ الّتي لا تنظُر إلى غير زوجها.

والمعنى: أنَّهُنَّ عفيفاتٌ لا يَنْظُرْنَ إلى غير أزواجِهِنَّ في الجنّة، فتقصرُ كُلُّ واحدَةٍ مِنْهُنَّ طَرْفَها على النظر إلى زوجها لا تتعدَّاه.

أَتْرَابٌ: جمع «تِرْب» والأتراب هنّ الّلواتي يكُنَّ على سِنّ واحدة، وهنَّ في الجنّة متساوياتٌ في الحسن، ومتحابَّاتٌ لا تُفْسِدُ بينَهُنَّ الغَيْرَة.

والتِّرْبُ: عند أهل اللّغة المتماثل في السّنّ، وأكثر ما يُسْتَعْمَلُ في المؤنث.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجل:

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

الخطاب موجَّهٌ هُنا لكلّ مُمْتَحنٍ في رحلة الحياة الدنيا إذا كان من المتقين.

﴿هَٰذَا﴾: المشار إليه ما سَبَق بيانه في الآيات من (٤٩ ـ ٥٢).

﴿مَا تُوعَدُونَ﴾: الوعد في اللّغة: هو الإخبار بما تمّ العزْمُ على فِعْلِه، فإذا ذُكِرَ فِعْلُ «وعَدَ» دون بيان الموعود به فهو وعْدٌ بالخيْر، لا بالشّرّ، على أنَّ المشارَ إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يُعيِّنُ أَنَّهُ وَعْدٌ بالخير حتما.

﴿لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾: أي: مؤجّلاً ليوم الحساب، ويوم الحساب يشْمَلُ الحسابَ، وفَصْل القضاء، وتحقيقَ الجزاء.

أي: هذا الجزاء العظيم المبيّن للمتقين هو ما وعَده الله الممتحنين في رحلة الحياة الدنيا، مؤجّلاً ليَوْم الحساب، وهذا الوعْدُ يتجدّد دواماً ما دامت حياة الابتلاء.

● ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ المشارُ إِلَيْهِ كُلُّ مَا يَدْعُو به المتقونَ في الجنّة من مأكول ومَشْروبٍ، وغيرِ ذلك من وسائل النعيم فيها، مَهْما توالت الأزمان التي لا نهايَةَ لها فيها، لأنّها دَارُ الخلود، فوسائل النّعيم فيها رِزْقٌ يَرْزُقه اللّهُ عبادَهُ المنعَّمِين.

الرِّزْقُ: في اللّغة كُلُّ ما يُنْتَفَعُ به.

﴿مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾: أي: ماله من فَنَاءٍ ولا انتهاء.

النفادُ: في اللّغة، الفناء والانتهاء، أي: انتهاء النَّوْع عن آخِرِه، يقال لغة: نَفِدَ الشَّيْءُ يَنْفَدُ نَفَداً ونَفَاداً، أي: فَنِيَ وذَهَبَ وانتهىٰ عن آخره.

جاء في هذه الآية تأكيد عدَمِ نفاد رزق الله عزّ وجلّ في الجنّة لأصحابها بالمؤكدات «إِنَّ ـ والجملة الاسميّة ـ واللام المزحلقة للخبر».

وجاء التنصيص على استغراق نَفْي النّفاد لكلِّ أَفْراد رزق اللَّهِ كمّاً وكَيْفاً، بإضافة حرف الجرّ الزائد «من» في العبارة، وجرّ كلمة «نفاد» بها.

❁ ❁ ❁

لقطات ومشاهد من جزاء الطّاغين:

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾.

هذه الجملة معطوفةٌ على جملة: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وتحليلُ العبارة هُنَا مناظرٌ لما سَبَقَ من تحليل العبارة المعطوفة عليها، فَهُما مُتَماثلتان في الأسلوب، وفي الصّياغة، إلاّ أنّ السابقة جاءت لبيان حال المتقين، وهذه جاءت لبيان حال الطّاغين.

ففي هذه العبارة تأكيد من الله عزّ وجلّ لعباده، بأدوات التأكيد:

«إنّ» و «لام الابتداء» و «الجملة الاسمية» بأنّ الطّاغين لهم شَرُّ مآبٍ عِنْدَ الله يوم الدين، لأن مجموع المخاطبين يحتاجون إلى هَذَا التأكيد.

ولا تخفىٰ على المتدبّر فنيّةُ التَّقَابُلِ المتناظُر بين العبارتين.

الطّاغون: جمع «الطّاغي» وهو كلُّ متجاوز الحدّ المقبول منه. يقال لغة: طغَىٰ الشَّيءُ، إذا تجاوز حدَّه المقبول منه، فنتج عن هذا التجاوز سُوءٌ، أو ضُرٌّ، أو شَرٌّ، أو خروج عن الحق أو الواجب، وعِصْيَانٌ وإثم.

والمراد بالطاغين من أوصلهم طُغْيَانُهُمْ إلى دَرَكِ الكفر، ويكون مقدار طغيانهم بحسب تسَفُّلِهم في الدركات.

ونُلاحظ في القرآن أنّ الله عزّ وجل:

(١) قد وصف فرعون في القرآن بأنَّهُ طغىٰ.

(٢) ووصف عاداً وثمود وفرعون بأنهم طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفَسَاد.

(٣) ووصف الذين قالوا عن رسولهم: ساحرٌ أو مجنون بأنهم قوم طاغُون.

(٤) ووصف الكافرين بأنهم قوم طَاغون.

(٥) وقال تعالى في سورة (النبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول).

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾.

● قول الله عزّ وجلّ: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿جَهَنَّمَ﴾: هي دار عذاب الكافرين الطّاغين، ولفظ «جهنم» اسم علَمٌ من أسماء دار العذاب يوم الدين، وهو ممنوع من الصّرف للعلميّة والتأنيث.

ويقال لغة للقَعْرِ البعيد: «جهَنّم». وبئرٌ جهنم، أي: بَعِيدَة القَعْر.

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي: يُعَذَّبون بالْحَريق فيها. يُقالُ لغةً: صَلِيَ النّار، وصَلِيَ بها، إذَا احْتَرَقَ فيها، ولامَسَ لَهَبُها جَسَدَهُ مُحْرِقاً.

والنَّارُ لاَ يَصْلاَها مُعَذَّباً بِحريقها، إلاّ الأشْقى الّذِي كذّب وتولّىٰ، ومن لم يَصِلْ إلى دَرَكَةِ «الأشقى» من الّذين يستحقّون العذاب، فإنّهم يُعذَّبون فيها عَذاباً أخَفَّ من عَذاب الحريق.

﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: أي: فبِئْسَ الْمِهَادُ مِهادُهُمْ في جَهَنَّم.

بِئْسَ: فعْلٌ جامِدٌ لإنشاء الذم، وهو منقول للدلالة على معنى الذم من فعل «بَئِسَ» إذا أصابَ بُؤْساً.

الْمِهَادُ: هو المكان الممهَّدُ الموطَّأُ، وأُطْلِقَ على مكان الطّاغين في جهنّم لفظ «مِهادٍ» على سبيل التهكّم بهم، أو تَلْويمهم على سوء اختيارهم في الحياة الدنيا، أو فَسَادِ تصُورِهم بأنَّهُمْ بكُفْرِهم يَسْعَوْنَ لنيل مِهَادٍ كريم في حياتهم، لكنّهم في الحقيقة يسْعَوْن إلى احتلال مكانٍ فيه بُؤسُهُمْ وعذابهم.

● قول الله عزّ وجل: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿هَٰذَا﴾ اسم إشارة، وهو مبتدأ، والمشار إليه: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾. وجملَةُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ معترضة بين المبتدأ والخبر، للدّلالَة على أَنَّ الطّاغين في جهنّم يُلْجَؤُون مضطّرين إلى أَنْ يذُوقُوا هٰذه الأصْنَاف الكريهة من الشّراب. فالأمر في الجملة المعترضة أمْرٌ تكوينيٌ يُشْعِرُ بأَنَّهُمْ مجبُورون، على شُرْب هذه الأصناف الكريهة اضطراراً، إذْ قد يكون ما هم فيه من ظمأ أشدَّ عليهم من شُرْبِها، على أنّها لا تُغْنِيهم ولا تُرْويهم، بل تَزِيدُ من عذابهم.

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: ماءٌ حارٌ سَاخِنٌ شَدِيد الحرارة.

﴿وَغَسَّاقٌ﴾ وفي القراءة الأخْرَى **[غَسَاقٌ]** بتخفيف السّين، هو سائل أصْفَر يشبه الماء الأصفَرَ الّذي تُفرِزُهُ الجلودُ إذَا تقرَّحَتْ واحْتَرقَتْ.

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ﴾: أي: وشرابٌ آخَرُ من مِثْل شَراب الغَسَّاقِ وشَبيهٍ بِهِ كَرِيه.

وفي القراءة الأخْرَى: **[وَأُخَرُ]** جمع «أُخْرَىٰ» أي: ومَشْرُوباتٌ أُخْرَىٰ من شَكْل الغسَّاق، أي: من مِثْله في الخِسَّةِ والكراهيةِ.

ومؤدَّى القراءتين واحد.

﴿أَزْوَٰجٌ﴾: أي: هي أصناف من الشراب للطّاغين، كلُّها كَرِيهٌ خَسِيس.

يطْلَقُ «الزَّوْجُ» في اللّغة على الصِّنْف من كلِّ شيء، وجمعه «الأَزْواجُ». فمعنى: أزواج من الثمر، أصْنافٌ من الثمر، وهكذا إلى سائر الأشياء. وهذا غير إطلاق «الزّوج» على معنىً أنّه خلاف الفرد.

قول الله عزّ وجلّ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

في هاتين الآيتَيْن بيانُ مَشْهَدِ حَدَثٍ آخر من مَشاهدِ أحداثِ جَهنَّم، الّتي سَوْف تكونُ يَوْمَ الدّين، وقد جاءت فنّيَّةُ عَرْضِه على طَرِيقَةِ الاستِقْطَاعِ مِمَّا سَوْفَ يكونُ وتقديمه كأنّه يَجْرِي الآن.

إنّه مَشْهَدُ فَوْجِ الأَتْبَاعِ الّذي يُلْجأُ إلى أَنْ يَقْتَحِمَ مُكْرهاً دُخول جهنّم، حتّىٰ يكُونَ مع الّذِينَ كانُوا أئِمّتَهُمْ وقَادتَهم الّذِينَ أَضَلُّوهم في الحياةِ الدنيا، وقَدْ سَبَقُوهم إلى الاستقرار في مُسْتقرَّاتِ عَذَابِهم في جَهَنَّم.

إنَّ أفرادَ فَوْجِ الأَتْبَاعِ يُدْفعُونَ دفْعاً جَبْرِيّاً، إلى مشاركة أئمتهم وقادَتِهم في مستقرّاتِ عَذَابهم في جهنّم.

وبيَانُ المشْهَدِ يَحْكِي أنّ الملائكة من خزنَةِ جهنَّم يقولُون للأئمَّةِ السَّابقين إليْها عَنِ المقْتَحِمين الجدُد من أتباعهم:

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾:

أي: لأنّهم كانوا في الدّنيا أتباعَكم وكُنْتُمْ أنْتُم قادَتَهم المضلّين لهم معكم، فهم مقتحمونَ النّارَ ليكونوا فيها معكم.

الفوج: الجماعة من الناس القادمون معاً بسُرْعة.

المقتحم: هو من يَرْمي بنفسه في عظيمة من العظائم، وفي أمْرٍ شَدِيد، والمقتحم يدخُل في الأمر العظيم بجرأة وبشجاعة.

ولكن كيف يوصفون بأنهم مُقْتَحِمُون، وهُمْ يُلْجَؤُون إلجاءً إلى الدخول في جهنّم؟

أقول: جاء هذا التعبير للدّلالة على أمرين:

الأمر الأول: أن الصُورة الّتي يكونون عليها عنْد إلجائهم إلى الدُخول فبي جهنّم تكون مُشابِهَةً لصُورة المقتحمين، فمُشاهِدُهم يرىٰ صورة فوجٍ يقتحم اقتحاماً.

الأمْر الثّاني: أنَّهُم كانوا في الدُنيا يقْتَحِمُون اقتحاماً عَظائمَ الكُفْرِ والطغيان، الّتي هي أَسْبَاب دُخولهم في جهَنَّم خالدين، فأُطْلِقَ وَصْفُ السَّبَب على المسَبَّب. إنّ مَنْ يقتَحِم أمْراً عظيماً يحبُّه، لكِنَّ عقوبتَه الْقَتْل، فإنَّهُ يقتحم عقوبة القتل.

فَيَرُدُّ الأئمة والقادةُ السّابقون في اقتحام دخول عذابهم إلى مستقرّاتهم فيها قائلين:

﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾.

﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْۚ﴾: أي: لا نُريد أن يكونوا شُركاءَنا في مُسْتَقَرّاتِ عذابنا، فنحن لا نُريد أن يتَّسع المكان لهم حتَّى يكونوا معنا فيه.

يقولون هذا كِبْراً وتَرَفُّعاً عن مشاركة أتباعهم لهم في مستقرّاتِ عذابهم، وتبرُّءاً من أنّهم قد كانوا السبب في إضلالهم.

كلمة: «مَرْحباً» كلمةُ دعوةٍ لتكريم الضيْف بمكانٍ رَحْبٍ واسع. يقال لغة: رَحِبَ المكانُ يَرْحَبُ رَحْباً، ورَحُبَ المكانُ يرُحُبُ رُحْباً وَرَحَابةً، أي: اتّسع، و«مَرحَب» اسم مكانٍ يطلَقُ على المكان الواسع.

وللتبرُّءِ من أنّهم قد كَانُوا السّبَب في إضلالهم، قالوا بشَأْنِ أتباعهم: ﴿إِنَّهُمْ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾: أي: إنهم مُعذَّبُون بعذاب الحريق في النار بأسْباب من أنفسهم.

قالوا هذا ليُبْعِدُوا عن أنفسهم عقُوبةَ الإغواء والإضلال، حتَّىٰ لا تُضَافَ إلى عُقُوبة طُغْيانهم بأنفسهم،، وليُبْعِدوا أتباعهم عنهم حتّى لا يُخاصِمُوهم.

ويَسْمَعُ الأَتْبَاعُ مقَالَةَ الذينَ كَانُوا أئِمَّتَهُم وقادتَهُمْ في الحياة الدّنيا، فيكونُ رَدُّهُمْ علَيْهم ما أورَدَهُ الله عزّ وجلَّ حدَثاً مقتطعاً من أحداث يوم الدّين، ومُقَدَّماً كأنَّه قد حدث فعلاً بقوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: بَلْ نَحْنُ الّذين لا نُريد أن تكونوا معَنا في منازِلِ عذَابِنا، بل نُريدُ أَنْ تكونُوا في قرَارِ الجحيم، فأنْتُم بإغوائِكم وإضْلالِكُمْ قدَّمْتُمْ هذا العذابَ لنا.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾: أي: فَبِئْسَ القرارُ قَرارُكُمْ في قَاعِ الجحيم.

القرار: المكان المنخفض الذي تَنْحَدِرُ إليه المياه، وتستقِرُّ فيه.

بِئْسَ: فِعْلٌ جَامِدٌ لإنْشاء الذّم، وحُكْمُهُ صِيغَةً وإعراباً مثل فعل «نِعْم» عند النحويين.

﴿لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾: أي: لا مَكانَ يتَّسع لكم مَعَنا، ولا كانت لكم أمكنة رحْبَةٌ واسِعَةٌ في مستقرَّاتكم، بل جعلها الله ضَيِّقَةً عليكم، حاصِرَةً لحرَكاتكم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

أبانت هٰذه الآية أنَّ فَوْجَ الأتباع لا يَرَوْن جدوى من مخاصمة من كانوا في الحياة الدنيا أئمَّتَهُمْ وقادتهم، فيتوجّهُونَ لربهم سائلين داعين، فقالوا:

رَبَّنا قَدَّمَ لنَا هذا العذابَ بإغوائه وإضلاله وتحريضه، على أن نقتحم شنيعةَ الكُفْر وكبَائِر الإثم، فزِدْهُم عذاباً ضِعْفاً في النّار، عذاباً لغَوَايَتِهِمْ، وعذاباً لإغْوائهم لنا.

ضِعْفاً: ضِعْفُ الشَّيْءِ أو العدد في اللّغة، مثْلُه.

فالمعنى: رَبَّنا زِدْهُمْ عذاباً آخرَ في النّارِ مثْلَ عَذَابِهِم الذي استحقُّوه على ضَلالِهِم وغوايتهم.

● قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

دلَّتْ هاتان الآيتان على أنّ فوج الأتباع بعْدَ أن يستَقِرُّوا في مستقرّاتِ عذَابِهم في جهَنَّم، يَتلفَّتُونَ باحِثِين عن معارفهم في الدّنيا، فيتساءلُون عَنْ رجالٍ كانُوا يعُدُّونهم، أي: يظُنُّونهم في الدّنيا من الأَشرار، بتأثير زُخْرُفِ أقوال أئِمَّتِهم في الكفر، وهؤلاء الرجال هم من ضعفاء المؤمنين وفقرائهم، وربّما كانوا مُتَّهَمِينَ بارتكاب قبائح الذنوب لدى أئمة الكفر، فلا يَجِدُونَهُمْ من أصحاب النار الذينَ يُعَذَّبون فيها، فيطْرَحُون احتمالَيْن:

الاحتمال الأول: أنّهم كانوا يتّخِذونهم سخريّاً، ويستهزئون بهم ظالمين لهم، جاهلين بحقيقةِ حالهم الّتي يجب أن لا يُسْخَرَ مِنها، لأنّهم كانوا على حقٍّ وصِدْق وخير.

دلَّتْ على هذا الاحتمال عبارة: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾؟.

وفي قراءة لعَدَدٍ من القرّاء: **[اتَّخَذْنَاهُمْ]** بالإخبار دون همزة استفهام.

فَدلّت القراءتان على أَنَّهم يسْتَفْهِمُونَ أَوّلاً، ثُمَّ يَعْتَرفون بأنهم كانوا يسْخَرُونَ مِنهم ظُلْماً وعُدْواناً.

وفي قراءة لعَدَدٍ من القرّاء: **[سُخْرِيّاً]** بضَمّ السين.

سِخْرِيّاً وسُخْرِيّاً: من مصادر «سَخِرَ مِنْه وسَخِرَ به» أي: هَزِئ به وَيُقَالُ لغةً: سَخِرَ منْهُ، وسَخِرَ به، يَسْخَرُ سَخْراً، وَسَخَراً، وَسُخْرِيَّةً، وسُخْرِيَّةً، أي: هزئ به.

الاحتمال الثاني: أنَّهم موجُودون في النّار، لكن زاغَتِ الأبصار عن رؤيتهم، بسبب حرِّ جَهَنَّم وما فيها ممّا تزيغُ به الأبصار.

دلَّت على هذا الاحتمال عبارة: ﴿...أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

«اَلْ» في: ﴿وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ عوض عن الضمير، أي: أم زاغت عنه أبصَارُنا.

زاغت الأبصار: أي: مالَتْ عن سَوَائِها وصِحَّةِ نظرها. يقال: زاغ يزيغ، أي: مال، ويُقَال: زاغ عنه، أي: مال وعَدَل عنه.

● قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾﴾: بعد أن جاء في النصّ بيانُ صُورَةٍ من صُوَر التخاصم، الذي سوف يكون بين أئمة الكفر وبين الذين كانوا أتباعهم في الدنيا، وكان ممّا قَدْ يَتخيَّلُه بعضُ المتَلَقِّين، أنّ هذا المشهَدَ الّذي عرضَه النّص مُجَرّدُ مَشْهَدٍ لصُورةٍ خياليَّة أدبيَّة، نظير الصور الخيَاليَّة الأدبيَّة التي يصْنَعُها القصّاصون المهَرَة، كَانَ من مقتضى كون القرآن المجيدِ حقاً وصِدْقاً لا يأتيهِ الباطلُ من بيْنِ يَدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه، توكيدُ أنَّ هذا التَّخاصم الّذي جاء في النَّصّ عَرْضُ صُورَةٍ منْهُ هو تخاصم حقٌّ.

وجاءت الإشارة إليه باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الموضوع للمشار إليه البعيد، لأنّه أمْرٌ سَوْفَ يكون يوم الدين، وجاء توكيد الجملة بالمؤكدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللّام المزحلقة إلى الخبر» فقال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ﴾ وجاءت عبارة: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ جملة مُبَيِّنَةً للمشار إليه البعيد.

﴿تَخَاصُمُ﴾ خبر مبتدأٍ محذوف، أي: هو تخاصُمُ أهل النار. وهذا من بديع الأساليب البيانيّة.

التخاصُم: التَّنازُع والمجادَلَة، في ادِّعَائَيْن مختلفين بين فريقين، كلُّ فريق منهما حريصٌ على إثبات ادّعائه وإبطال ادّعاءِ خَصْمه.

ومن صور التخاصم الذي سوف يكون بَيْنَ التابعين والمتبوعين، ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مسحف/ ٨٧ نزول):

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

❊ ❊ ❊

(٨)
التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (٦٥ ـ ٨٨) آخر السورة

قال الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

تمهيد بنظرة عامّة حول هذا الدرس الأخير من دروس السّورة:

تضمّن هذا الدرس تعليماً من الله عزّ وجلّ لرسوله محمد ﷺ، فَلِكُلِّ داعٍ إلى دين الله من أمّته، كيف يرُدّ على أقوال الكافرين الّتي جاء بيانها في الدرْسِ الأوّل من دروس السّورة.

وفي هذا التعليم مُتَابعَةٌ دقيقة لأقوالِهم بَعرْضِ الرُّدُودِ عليها، دون إعادتها أو الإشارة إليها، وهذا من الْعُمْقِ القرآني، الذي يفهمه الرسول ﷺ تِلْقَائيّاً، ويفْهَمُه منْ يفتح الله عليْه من أهْل التَّدبُّر.

● جاء في الدرس الأوّل بيان تعجُّب أئمةِ المشركين في مكّةَ من أن يأتيهم منذر منهم، وهذا البيان يتضمَّن قضيّتَين:

القضيّةُ الأولى: أنّه يُنْذِرُهم بعذاب الله يوم الدّين إذا أصَرُّوا على كُفْرِهِمْ وعِنَادهم، ويُنْذِرُهم بعذابٍ مُعجَّل مصْحُوبٍ بإهلاكهم إهلاكاً جماعيّاً شاملاً، كما حصل لمكذبي القرون الأولى، إذا وصَلُوا في شرورهم إلى مثل ما وصل إليه المُهْلَكُون السّابقون.

القضية الثانية: أنَّهُ يَدَّعِي وهو واحِدٌ منهم أنه رسُولٌ مُرْسَلٌ من الله عزّ وجلّ إليهم، يوحِي الله إليه، فَهُو يُبَلّغُهم ما يُنَزِّلُ الله علَيْه لِيُبَلّغَهُمْ إيَّاه.

● وجاء في الدرس الأوّل أيضاً بيانُ تعجُّبِهم الشديد من أن يدعُوهُم إلى عبادة إلَه واحدٍ هو ربُّ السّماوات والأرض، وإلى نَبْذِ أوثانهم وسَائر آلِهَتِهم الّتي يعْبُدُونها من دون الله.

ولم يقدّم الذين كفروا حول هذه القضايا غيْرَ عبارات التَّعَجُّب، ومعلومٌ أنّ التعجُّبَ من أمْرٍ ما لا يصحُّ دليلاً على إبطاله، أو التشْكِيكِ فيه.

فقال الله عزّ وجلّ في تعليم الرَّدّ على تعجُّبهم بشأن هذه القضايا الّتي تعجَّبُوا مِنْها:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

لقد سبَقَ في صَدْر السّورة التَّنْبيهُ على إعجاز القرآنِ عن طريق الْقَسَم به في قول الله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾.

فهو دليل على صِدْق رسالَةِ محمّد وصِدْقِ بلاغاتِه عن ربّه بما فيه من إعْجَاز.

وبما أنّ الّذين كفَرُوا لم يُقَدّمُوا دليلاً مَا، واقتصَرُوا علىٰ التَّعَجُّب، كان من المناسب أن يقتصر الرَّدُّ على ما هو مكافِئٌ لمقالاتهم.

إنّهم لَمْ يُقدِّموا دَليلاً غير مُجَرَّد التعجُّب، فما على الرَّسُولِ إلاّ أنْ يُؤَكّد لَهُمْ أَنّه رَسُولٌ بعثه الله ليُبَيِّن للناس ما أُنزل إليهم، وأنّه جازمٌ بإنْذَارِه لهم، ويُصِرُّ على إنْذارِه، ويتحدّاهُمْ به، فقال الله عزّ وجلّ له: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ بهذا التعبير الحاصر، أي: ما أنا بالنسبة إليكم، بعْدَ رَفْضِكُم دعوتي وبَرَاهيني عليها، ورفضكُم بشارَاتي لمن آمنَ واسْلَم وعَمِلَ صالحاً، إلاّ رسُولُ إنْذارٍ بعقاب اللَّهِ لكُمْ، في آجلِ أمْرِكُمْ، ورُبَّما في عاجله أيضاً، إذا لزِمْتُمْ إصرارَكُمْ على الكفر والتكذيب، ومقاومة رسالتي بعِزَّة وشِقَاق.

والمعنى: أنتم تكذّبونَ استناداً إلىٰ التَّعَجُّب فقط، وأنا أُصِرُّ على دعْوايَ، ومَعِي مُعْجزَةُ الْقُرآنِ، وبيْنِي وبينكم التحدِّي للمستقبل.

أمّا تعجُّبُهم من نَبَإِ يوم الدّين، وبعْثِ النَّاسِ إليه، إذا حان حينه في علْم الله جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطَانه، فقد جاء في التّعليم حوله قول الله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: قُلْ لهم إنّ نَبأ البعث ويوْمِ الدّينِ للحساب وفصل القضاء وتحقيق الجزاء، نَبأٌ عظيمٌ أُخبرُكُمْ بِهِ عَنْ رَبّي، وكَانَ يجب عليكم أن تَهتَمُّوا به جدّاً، وتتفكّرُوا في أدلّتِه الّتي سبَق في مراحل تنزيل القرآن عَرْضُ طائفَةٍ منها، تتَعَلَّق بضرورة تَحْقيقِ الجزاء. إذَا تفكّرتُمْ حقيقةً في معاني صفات الله جلَّ جلالُه وعظُم سلطانه، ومنها حِكْمَتُه وعَدْلُه، وأنّه لا يَتْرُكُ الناسَ سُدَىٰ، وإذا تفكرتم في الآيتَيْن (٢٧ و ٢٨) من سورة (صَ) وما جاء فيهما من أدلَّةٍ كافيةٍ لإقناع من يُريد الحقّ.

لكنَّكُمْ مع كلّ هٰذِهِ الْبَيَانات والأدلّةِ البرهانيّة، عن هذا النبأ العظيم الّذي يتعلَّقُ بمصيركم الأبديّ مُعْرِضُون، لا تَلْتَفِتُونَ إلَيْه، ولاَ تتفكَّرُونَ في أدلّته.

فماذا تُرِيدُون أنْ نُقدّمَ لكُمْ شيئاً أكْثَر من إنْبَائِكُمْ بهذا النَّبأ العظيم الّذي يَهُزُّ وِجداناتِ أولي الألْبَابِ وَمَخَاوِفَهُمْ، مقْرُوناً بالأدِلَّةِ الْبُرْهَانيَّةِ الّتي سبَقَ إعلامُكُمْ بها؟!

ماذَا نَفْعل لإقناعِكُمْ أكْثر مِنْ هٰذا؟!

واعْلَمُوا أنَّ هٰذا النبأ العظيم هو أحدُ عَنَاصر الخبر التاريخيّ الّذِي أُوْحِيَ بهِ إليَّ حَوْلَ خلْقِ الإنسانِ الأوّل، وإخبار الله عزّ وجلّ مَلائكته بخَلْقِه، وسؤالِهم عن الغرض من خَلْقه، وعن صفاته، وماذا سيكون من سلالَته.

فقد تضمّنَتْ قِصَّةُ خَلْقِ الإنسانِ الأَوّلِ بَيانَ قَانُونِ الجزاءِ يوْمَ الدّين، إذْ جاءَ من عناصرها بيانُ أنَّ إبْلِيسَ طلَبَ إنظارَهُ إلَىٰ يَوْم يُبْعَثُ الخلائق للحساب وفَصْلِ القضاء وتَحْقِيق الجزاء.

فأنا بما جاءني عن الوحْي أُنَبِّئُكُمْ، أفلا تَجِدُون في كلّ هذا باعثاً علىٰ تَصْدِيقي، وهو من الحقائق الّتي التقت عليها الأدْيَانُ الرَّبَّانيَّةُ كُلُّها مُنْذُ عَهْدِ

آدم، وقَبْلَ عَهْدِ آدَم، إذْ كَانَ الجنُّ يَعْلَمُونَ هٰذا النَّبأ العظيم، وهم أُمَّةٌ مخلُوقُونَ قَبْلَ الإِنْسِ، وكانَ إبْلِيسُ من الجنّ ففَسَقَ عن أَمْرِ رَبِّهِ، ولَدَيْه عِلْمٌ بهذا النبأ العظيم؟!.

أفلا تجدُونَ في كُلِّ هذا باعثاً على التفكِير في الأَدلّة العقليّة البرهانيّة الّتي تُبيِّن ضَرُورَة وجُودِ قانون الجزاء، وضرورة كون البعث للحساب وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، إحدى عناصر خُطَّةِ الخلْقِ الرَّبَّانيَّة.

وأُأَكِّدُ لَكُمْ بَعْدَ هٰذا فأقول لَكُمْ:

﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

أي: بالنّسبةِ إلى مَنْ أصرَّ على عِنادِهِ وكُفْرِه، ومُبِينٌ مَا أوحىٰ الله به إليّ.

● وجاء في الدَّرْس الأوّل بيان اتّهامِ أئمة الشّرك والكُفرِ في مكة إبَّان نزول السّورة، بأنَّ محمَّداً صاحِبُ مصلحة شخصيَّةٍ من دَعْوَتِهِ، إذْ قالُوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾ أي: يُرادُ لمصلحته الشخصية من مال وزعامة وحبّ سلطان.

فجاء في آخر الدّرْسِ التّعْليميّ الّذي تضمَّنَ الرُّدُود على مقالاتهم:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

وجاء هذا التعليم في آخِرِ آياتِ السّورة لأنَّ الاتّهام يتعلَّقُ بشَخْصِه، لا بمضمون دعوته، وفيه تَعْليم لحمَلَة رسالة الرسول ﷺ من أُمّتِه، أن يَبْدَؤُوا بالدّفاع عن مضمون الرسالة قبل تبرئة أشخاصهم من اتِّهامَاتِ أقوامهم لهم.

التدبُّر التحليليّ لفقرات هذا الدرس:

● قول الله عزّ وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿قُلْ﴾: أي: قُلْ يَا مُحَمَّدُ رَدّاً على تَعَجُّب أئمة مُشركي مَكَّة إبَّانَ نُزُول السّورة مِنْ أَنْ يَجِيئَهُمْ مُنْذُرٌ بشَرٌ منهم، فيشْتُموهُ بأنّه سَاحِرٌ كذّاب، كما جاء بيانُ مقالتهم في الآية (٤) من هذه السورة قل لَهُمْ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌۖ﴾.

﴿إِنَّمَآ﴾ أداة حَصْرٍ تَنحلُّ في معناها إلى «ما» و «إلاّ» أي: مَا أَنَا إلاّ مُنْذِرٌ، وهذا الحصر حَصْرٌ إِضَافي، أي: ما أنا بالنسبة إليكم بعد أن رَفضتم بلاغاتي عن ربّي، وبشارتي لمن آمن وأسْلَم وعمل صالحاً، وبعد أن عَانَدْتم وأصْرَرْتُمْ على الكفر، إلاّ مُنْذِرٌ، إذْ لَمْ يبْقَ لدَيَّ شيءٌ أعَالجكُمْ بِهِ إلاّ أَنْ أَوَجّه لكم الإنْذار بالعذاب المؤجّل إلى يوم الدّين، مع احْتِمَال مُعَاقَبتِكم بعذاب مُعَجّلٍ يَنْزِلُ بكم في الحياة الدّنيا، كالّذي أنزلَهُ اللّهُ بمن أهلكَهُمْ من أهل القرون الأولى.

الإنْذار: الإخْبار بمكروهٍ سيأتي ضِمْن الشروط والصّفات المبيَّنَة فيه.

وقل لهم أيضاً: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: وَمَا مِنْ إلَهٍ هُوَ رَبٌّ يسْتَحِقُّ بِرُبُوبِيَّتِهِ أَنْ يُعْبَدَ، وَيجب على مَرْبوبيه أَنْ يَعْبُدُوه إلاّ اللَّهُ الْوَاحِدُ الّذي لا شريكَ له في ربوبيّته لكلِّ شيءٍ في الوجود من دونه، الْقَهّارُ الغالبُ لكلّ شيءِ المُجْبِرُ بالْقَهْرِ والغلبة، فهو يفعل في كلّ شيءٍ ما يشاء.

﴿مِنْ﴾ حرف جرّ زائدٍ جيءَ به للدلالة على الاستغراق والتّنْصِيص عليه.

﴿إِلَٰهٍ﴾: أي: مَعْبُودٍ بحَقٍّ، ولاَ مَعْبُودَ بحَقٍّ في الوجود إلاّ مَنْ هو ربٌّ، ولا رَبَّ في الوجود كُلّهِ إلاّ الله الواحِدُ، الذي من صِفَاته أنّهُ قَهَّارٌ، وهو مبتدأ مجرور لفظاً مرفوعٌ محلاًّ.

﴿اللَّهُ﴾: اسم علمٌ على الأزلي الأبدِي الخالق الرّبّ الذي له كلّ الأسماء الحسنىٰ والصّفات الْعُلْيا، ولفظ «الله» خبر المبتدأ.

﴿ٱلْوَٰحِدُ ﴾: أي: الذي لا شريك له في ربوبيّته، وهو صفة لله.

﴿ٱلْقَهَّارُ ﴾: أي: الغالبُ الذي يفْعَلُ بالغلبة والْجَبْرِ في كلّ شيءٍ مَا يشاء، وهو صفة لِلَّهِ أيضاً.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾: أي: خالِقُ السَّمَاوات وخَالِقُ الأرض وخالِقُ كلّ ما بينهما، والمتصرّف بكلّ ذلك دوماً بربُوبيَّته في كلّ ما يجري فيه، من حركةٍ وسكون، وزيادةٍ ونقص، وإيجادٍ وإعدام، وتغيير في الصفات والأحوال والأوضاع، وثوابٍ وعقاب، وعفْو وغفران، أو محاسبة وجزاء، وغير ذلك، ومن كان وحْدَهُ هو الخالق لكلْ ما سواه فهو المُمِدُّ له بالوجود والبَقَاءَ، والممسِكُ له دوماً، وهو المتابع لخلق أحداثه دواماً بربوبيّته، فلا إله سواه.

﴿ٱلْعَزِيزُ ﴾: أي: القويُّ الغالِبُ الذي لا يُغْلَب.

﴿ٱلْغَفَّٰرُ ﴾: أي: الكثير المغفرة لعباده المذنبين. «غفَّار» صيغَةُ مبالغة لِغَافر.

وفي هذا البيان دليل عقليٌّ علَىٰ أنَّهُ ما من إلَه إلاَّ الله، فالدَّعْوىٰ مقترنة بالدليل عليها.

● ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾:

هذا تعليم آخَرُ من تعليمات الرُّدُود على مقالات الذين كفروا، التي جَاءَ بيانُها أو الإشارة إليها في الدس الأول من السورة، وهو بشأن يوم الدين.

﴿هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴾: أي: نَبأُ الْبَعْثِ بَعْدَ الموت للحساب وفَصْلِ القضاء

وتحقيقِ الجزاء نَبأٌ عَظِيمٌ، إذ هو يتعلّقُ بمصيركم الأبديّ، ولا يَتعلّقُ بأمور عارضة تمرُّ وتَنْقَضِي.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾ أي: أنتم تخصُّونه بالإعراض عنه، لئلا يكون كالْعَقَبة المانعة عن مُمَارسَاتِكم الآثِمَاتِ الظَّالِمَاتِ، أو لئلا تجدوا في نفوسكم حَرَجاً لدى هذه الممارسات.

الإعراض: إعطاء عارضة الوجْه، وفي إعراضكم إِشْعَارٌ بَعَدمِ أكتراثِكُمْ لهذا النبأ العظيم، وعَدَمِ توجُّهكم للاهتمام به.

- ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾:

أي: وقل لهم هذا النبأ العظيم لَيْسَ أمْراً جديداً ولاَ مُسْتَغْرَباً في تاريخ الْخَلق، بل هو مَعْلُوم مُنْذُ بدْءِ خَلْقِ ذَوي الإرَادَات الحرَّةِ الممتَحَنين، وهُوَ معلومٌ للملائكة والجنّ قبل خَلْق آدم الإنسان الأوّل.

وله شاهدٌ في قصّةِ خلْقِ آدم وَما جَرَىٰ في الملأ الأعلَىٰ لدىٰ بَدْء خَلْقِه من اختصام حول خَلْقِه، وتَسَاؤلٍ عن حكْمَةِ خَلْقِه، وانقسامهم إلى مطيعين نَفَّذُوا أمْرَ اللَّهِ بالسُّجُودِ لآدم، واستكبارِ إبْلِيسَ الّذِي كانَ مُنْدَسّاً فيهم، وهو لَيْسَ من عنصُرِهِمْ، بلْ كانَ من الجنّ الكافرين بإلَهيَّةِ الله باطناً، فكشَفَهُ الامتحانُ حين أمر الله الملائكة بالسجود لآدم.

والمعنى: ما كان لي قبل الوحي الربانيّ شيءٌ ما من علْم أو شعورٍ بموضوع المراجعات والاختصام بين الملأ الأعلى، ومن أدخل نفسه فيهم بنفاقه وهو إبليس.

عَلِمَ الشيء وعَلِم به: إذا شَعَرِ به ولو دون إحاطة.

الملأ الأعْلَى: هم كُبراءُ الملائكةِ وعُظَماؤُهم، ويَدْخُلُ في عُمُومِهِم إبْلِيسُ الّذِي كَانَ بنِفَاقِه في الطاعة والعبادة مُنْدَساً فيهم، لِيَنَالَ عند الله عزّ

وجلَّ قُرْباً، وحُظْوةً يكُونُ بها ذا رِئَاسَةٍ وأمْرٍ ونَهْيٍ على من دُونَ الملأِ الأعْلَىٰ من الملائكة.

الملأ: هُمُ الكبراء الّذين يملَؤُونَ عُيُون النَّاظِرينَ إليهم من الدهماء.

وجاء في قصّة خَلْق آدم أنَّ الله عزّ وجلّ حَاكَم إبليس على معصيته واستكبارِه عن طاعة الله، إذْ أمَرَ اللَّهُ ملائكةَ الملأ الأعلى بالسُّجودِ لآدم، ويشْمَلُ هذا الأمْرُ من كان مُنَافقاً ومُنْدساً فيهم، ويَعْتَبر نفسه واحداً مِنْهُمْ، وبَعْدَ أنْ أصَرَّ إبليس على استكباره، وَأعْلَن كُفْرَهُ بإلَهيَّةِ اللَّهِ لَهُ، طرَدَهُ الله من منازل أهْلِ الملأِ الأعلى، وقال لَهُ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨﴾ وإذْ كَانَ إبْليسُ علىٰ عِلْمٍ بالبعْث بَعْدَ الْمَوْتِ إلى يَوْم الدّين ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾ أيَ: أبقني حيّاً إلى يوم البعث، فأنْظَره اللَّهُ إلَىٰ يوْم السّاعة الأُولَىٰ الّتي يكون بها إمَاتَةُ جَمِيع الأحياء في الأرض وفي السّماوات، حتَّىٰ الملائكة المقرّبين، لا إلىٰ يوم البعث.

جاء هذا البيان مُجْملاً مقْتَضباً في الآية (٦٩) لكنه بَعْدَ الآية (٧٠) جاء له بعضُ تفصيل في لقطات، ضمن الآيَاتِ من (٧١ ـ ٨٥) فأجاب هذا التفصيل على أسئلة أثارها الكلام المقتضب في الآية (٦٩) بَعْد إنهاء عبارات التعليم، لئلا يكون عرض القصة استطراداً ضمن عرض الفقرةِ التعليمية.

● قول الله تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٧٠﴾:

أي: وقُلْ لهم هذا القولَ مُصِرّاً علىٰ مَوْقِفِك، وبَيِّنْ لَهُمْ أنّه ما يُوحَىٰ إلَيْكَ بالنسبة إلى هذا الموقف إلاَّ أن تقول للكافِرِينَ المعنيّين في هٰذه السّورة: ما أنَا إلاَّ نَذِيرٌ مُبِين بالنسبة إليكم، فليس لديَّ بيانٌ لَكُمْ غَيْرُ هٰذا إذْ لم تأتوا بجدَليّات جديدات أُبيِّن لكُمْ خطأكُمْ وضلالكُمْ فيها، بل توقّفتُم عند إعلان تعجُّبِكُم وشَتَائِمِكُم.

أمّا التعجُّب المجرّد فلا يصْلُح لأنْ يكون حُجَّةَ أصْلاً.

وأمّا شتيمتكم لي بأنّي ساحرٌ كذّابٌ فإنّي لا أرُدُّ علَيْها، بَلْ أُدْبِرُ عنها، وأتَرَفَّعُ عن أَنْ أواجِهَكُمْ بمثلها.

قصة خلق آدم واستكبار إبليس عن السجود له

تمهيد:

(١) جاءت في هذه السّورة لقطاتٌ من قصَّةِ خلْق آدم، واستكبار إبليس عن السّجود له مع ملائكة الملأ الأعلى، حينَ وجَّه اللَّهُ عزّ وجلّ الأمْرَ لَهُمْ ولمَنْ كانَ مندَسّاً فيهم، ومختلطاً بهم، إِذْ دَعتِ المناسبة بيَانَ أنَّ البعْثَ وَيَوْمَ الدّين ممّا كان معلوماً في تاريخ الخلْق قبل خلْق آدم لدى الملائكة، ولدَىٰ الجنّ الموضوعين في الحياة الدُّنيا قبل الإنْسِ مَوْضِعَ الامتحان، الذي يستَتْبِعُ الحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء.

وقد جاءت هذه اللّقطات في الآيات من (٧١ ـ ٨٥) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

(٢) ثم أنزل الله عزّ وجل بياناً حول هذه القصة مشتملاً على لقطاتٍ أخرى في سورة الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) إذْ استدعت المناسبة ذكرها، وقد جاء هذا البيان في الآيات من (١١ ـ ٢٥).

(٣) ثم أنْزَل الله عزَّ وجلّ بياناً ثالثاً حول هذه القصة، مشتملاً على لقطات أخرى فيها إضافات، وذلك في أواخر سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) إذِ استدعت المناسبة ذكرها، وقد جاء هذا البيان في الآيات من (١١٦ ـ ١٢٦).

(٤) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ بياناً رابعاً حوْلَ هذه القصة مشتملاً على

لقطات أخرى فيها إضافات، لم يَسْبِقْ ذكْرُها، وذلك في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول). وقد جاء هذا البيان في الآيات من (٦١ ـ ٦٥).

(٥) ثُمَّ أَنزل الله عزّ وجل بياناً خامساً حول هذه القصة، مشتملاً على لقطات أخرى فيها إضافات لم يَسْبِق ذكرُها، إذِ استدعت المناسبة ذكرها، وذلك في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) وقد جاء هذا البيان في الآيات من (٢٦ ـ ٤٤).

(٦) ثُمَّ أنزل الله عزّ وجلّ بياناً سادساً حول هذه القصة، مشتملاً على لقطاتٍ فيها إضافاتٌ لم يَسْبِق ذِكْرُها، إذِ اسْتَدعَتِ المناسبة ذكرها، وذلك في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) وقد جاء هذا البيان في الآيات من (٣٠ ـ ٣٩) وهذا آخر بيان أنزله الله حول قصة خلق آدم، واستكبارِ إبليس عن السجود له، وما ذا كان من إبليس مِنْ إغْوَاء آدم وزوجه والتسُّبِ في إخْراجهما بوساوسه من الجنّة.

ودراسة هذه النّصُوص في نظرة تكاملية شاملة، تتطلّب بحثاً مستقلاّ يجده القارئ إن شاء الله في الملحق الرابع من ملاحق سورة (صَ) التي نتابع تدبُّر.

وأقْتصر هنا على تدبّر النصّ الوارد في سورة (صَ).

● قول الله عزّ وجل:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

● ﴿إِذْ﴾ ظرف لزَمَنٍ ماضٍ في محل نصْبٍ على الظرفية بفعل محذوف تقديره «اذكر» والمعنى: ضَعْ في ذاكرتِكَ أيُّها المتلقّي الحدثَ الذي

نقصُه عليك، والذي كان في زمن ماضٍ ﴿إِذْ﴾ مضافٌ والجملة الّتي جاءت بعده مضاف إليه.

● ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: المراد بالملائكة ملائكةُ المَلأِ الأعْلَى كجبريل وميكائيلَ وإسْرَافيل، ومن كان معهم ومندسّاً فيهم منافقاً، وهو إبليس، بدليل ما جاء في الآية (٦٩) وهو قوله تعالى فيها: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾ كما سبق بيانه لدى تدبُّر الآية.

● ﴿...إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾: أي: إنّي سَأَخْلُق مَخْلُوقاً جديداً بشراً مِنْ مَاءٍ وَتراب مُخْتَلِطَيْنِ، وباختلاطهما يَصِيران طِيناً، اسم الفاعل «خالق» يدُل على الاستقبالِ كالمضارع، كَمَا قد يدلُّ على الحال، والخلْق يكون بمعنى التقدير وبمعنى الإبداع.

البشر: هو الإنسان (الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث سواء) وقد يثنّى فيقال فيه بشران، وقد يجمع على أبشار. ولعل التسمية مأخوذة من كون بَشَرَتِه بأديةَ غير مستورة بشعرٍ أو غيره. فالبَشَرَةُ ظاهر الجلد.

● ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ «إذا» ظرف لما يستَقْبَلُ من الزّمن **والتّسْوية**: إبلاغُ الشيء الغاية المقدّرة والمقضيَّةَ له، حتَّىٰ يصير تامّاً مستوياً، بالغاً الغاية المقصودة من صُنْعه.

● ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾: **النّفْخ**: دفْع الرِّيحِ بشيء من القوة، من مكان مُتَّسعٍ عَبْرَ فوهة ضيقة، كالنَّفْخ بالفم، أو النَّفخ بأداة تُسمَّىٰ المِنْفاخ. ﴿فِيهِ﴾ أي: في داخل كُلِّ جَسَدِهِ بَعْد تسْوِيَته. ﴿مِن رُّوحِى﴾: أي: نفحةَ من جِنْسِ المادّةِ اللَّطِيفَة الّتي خلَقْتُها لتكُون بها حَيَاةُ الأنفس، وسمَّيْتها رُوحاً.

الرُّوح: ألطَفُ المخلُوقَاتِ اللَّطيفَةِ في الوجود، وأَخْفَاها عن إدْراك ذوي الإدراك من دون الرّبّ الخالق، وهي من أمْرِ اللّهِ التكويني مُبَاشَرَةً،

والرُّوحُ ما تكون به حياة الأنفس، وحقيقَتهُ سرٌّ من أسرارِ الإبداع الربّاني.

والإضافة في ﴿رُّوحِى﴾ ليست على معنى أنّها جزء من رُوح ذاتِ الله سبحانه وتعالى، بل هي على معنىٰ المِلْك، كما أنَّ كُلَّ شيءٍ في السماوات والأرض وما بينهما مِلْكٌ لِلّه، فلِلّهِ ما في السماوات والأرض، وهذا التعبير نظير التعبير في «سمائي. وأرضي، وجنّتِي ونَارِي» أو على معنى الاختصاص بأمْرٍ منْ أُموري، مثل: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ﴾.

وبسبب الْفَهْمِ الخطأ في هذه الإضافة سَقَطَ النصارىٰ في تَوهُّم أنّ عيسَىٰ عليه السَّلامُ جُزْءٌ من ذاتِ الله، سبحانه وتعالى عمَّا يَصِفُون.

وقد أطْلَقَ الله عزّ وجلّ على جبريلَ عليه السّلام عبارة ﴿رُوحَنَا﴾ فقال تعالى في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول) في معرض الحديث عن مريم عليها السلام:

﴿... فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾.

● ﴿... فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: أي: فاسْقُطُوا بإحناء أعاليكم حتّىٰ تكونوا ساجدين واضعين جِبَاهَكم على الأرض، والمرادُ السُّجُودُ لجِهَتِه لا لعبادته فالعبادة لا تكونُ إلاّ لله جلَّ جلاله، وهو نظير السجود لِجِهَةِ الكَعْبة، والغرضُ تكريمُ آدم واحترامُ الْعِلْم الذي علّمه الله إيَّاه، والتكفير عن التَّساؤل عن الحكمة من خلقه الذي فيه رائحة الإشعار بأنَّهم لم تَظْهَرْ لهم الغايةُ الحكيمة، من قضاء الله وقدره بخَلْق هذا المخلوق الجديد، وهم يقومون بالتسبيح بحَمْدِه والتَّقْدِيس له.

و «الفاء» في عبارة: ﴿فَقَعُوا۟﴾ تَدُلُّ على وجوب السجود له مباشرة عقب نفخ الرُّوح فيه، وجَعْلِه كائناً حيّاً.

● ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾﴾: أي: فنفذ الملائكة أمر الله تعالى لهم بالسّجود لآدم فوراً عقب نفخ الروح فيه، الّتي سرَتْ بلُطْفِها في كُلّ ذرَّةٍ من ذرّاتِ جَسَدِه.

ويتساءل المتدبر: ما الحكمة البيانيَّةُ من جَمْعِ مؤكِّدَين في هذه العبارة: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾؟

أقول: لقد تنبَّهَ الزمخْشرِي في كَشَّافِه للجواب فقال: «أفادا معاً أَنَّهُمْ سَجَدُوا عَنْ آخِرِهم، ما بقي منْهُمْ ملَكٌ إلاَّ سجَد، وأَنَّهُمْ سَجَدُوا في وقْتٍ واحِدٍ غَيْرَ مُتَفَرِّقين في أَوْقَاتٍ» هـ

أي: فالتأكيد بعبارة: ﴿كُلُّهُمْ﴾ أفاد أنّهم سجدوا عن آخِرِهم، ما بَقِيَ مِنْهُمْ مَلَكٌ إلاَّ سَجَدَ. والتأكيد بعبارة: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ أَفَادَ أَنَّهُم سجَدُوا مجتمعين في وقتٍ واحدٍ غير مُتَفَرِّقين في أوقات، تنفيذاً للسجود الفوريّ الذي أَمَرَهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ به في قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

● ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾:

استثناءُ إبليسَ هُنا هو من قبيل الاستثناء من عموم من أَمَرَهم الله بالسجود لآدم، إذْ قَدْ وجَّهَ الله عزّ وجلّ الأَمْر بالسجود لملائكة الملأ الأعلى ولِمَنْ كان مُنْدَسّاً فيهم بنفاقه، ومُخْتَلِطاً بِهِمْ، معتبراً نفسه أنّه واحدٌ منهم، مع أنّه قد كان من جنس الجنّ الّذين يملكون بخلْقِ الله القُدْرَةَ على الطاعة والمعصية، وهم مخلوقون من مارج من نارٍ، أي: من أخلاطٍ ناريّة، بخاف الملائكة، فإنّهم بفِطْرَتهم لا يعصون الله ما أمرهم ويَفْعَلُون ما يُؤمَرُون، وهُمْ مخلوقون من نور صافٍ نقيّ.

فالاستثناء هو من قبيل الاستثناء المتَّصِل، لا من قبيل الاستثناء المنقطع، وحمل لفظ «الملائكة» على أنّه يشْمَلُ الملائكة والجنّ خطأ مخالِفٌ لدلالات النصوص القطعيّة.

فخطاب التكليف بالسّجود الموجّه للملائكة، موجّه للملائكة ولمن كان مُدَّعِياً أَنَّهُ منهم، أو معتبراً نفسَهُ بنفاقه واحداً منهم.

وقد كشف الامتحانُ إبليس، فأبَانَ كُفْرَهُ بإلَهيّةِ رَبّه، وأبانَ أَنَّ عُنْصُرَهُ

لَيْسَ من عنصر الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم، والذين يفعلون ما يُؤمَرُون، والّذين هم مخلوقون من نور، بل هو مخلوق من نارٍ.

﴿ٱسْتَكْبَرَ﴾: أي: اشتَدَّ في كِبْرِه عن السُّجُودِ لآدم، شِدَّةً جَعَلَتْه يَجْحَدُ إلَهيَّة الله له، الّتي هي حَقٌّ رُبوبيّته لكلّ الموجودات من دونه.

[الإلَه]: هو المعبود، وأوّل عناصر عبادة العبد لربّه الإذْعَانُ لَهُ بحقّهِ في طَاعَةِ أوامِره ونواهيه، فمن جحد هذا الحقّ فهو من الكافرين به، لأنّ رُبوبيَّتَهُ تستَلْزم إلَهيَّته حتماً لزوماً عقليّا، ولا إلَهَ هو ربٌّ يُعْبَدُ بحقٍّ في الوجود إلاّ اللَّهُ عزّ وجلَّ وحْدَهُ لا شريك له.

● ﴿...وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٧٤﴾: أي: وكان إبليس من قَبْل أن يَكْشِفَهُ الامتحان، من الكافرين بحقِّ اللَّهِ في إلَهيّتِهِ لعباده، مع إيمانه بأنَّهُ رَبُّهُ ورَبُّ كُلّ شيءٍ في الوجود من دونه جلّ جلاله.

والإيمان لا يكون صحيحاً مقبولاً عند الله ما لَمْ يتحقَّقْ الإيمان الكامل بربوبيَّة الله عزّ وجلّ، وبإلَهيَّتِه، دون إشراك بهما أو بأَحَدِهما.

وكُفْرُ إبلس قد كان كُفْراً بإلَهيَّةِ اللهِ، وطَعْناً في حكمته في أوامرِهِ ونواهيهِ وإباءً واسْتِنْكَافاً عن طاعته فيما خالف هواه، وقَدْ كان هذا موجوداً في نفسه قبل كَشْفِه بالامتحان، مع أنه قد كان بنفَاقِهِ وشِدَّة مَكْرِه مُنْدَساً في الملائكة، حتَّىٰ وصل إلى ملائكة الملأ الأعْلَىٰ، وانْدَسَّ فيهم، باعتبارِ أنَّ الجنَّ كانوا مُمَكَّنِين بحَسَب طبيعة أجسادهم الشفَّافة اللّطيفة القادرة على التشكّل، أنْ يَدْخُلوا في جموع الملائكة، وأنْ يتظاهَرُوا بأَنَّهُمْ منهم، ثُمَّ مُنِعُوا من ذلِكَ، ومن الصُّعُود لاستراق السّمع من ملائكة السماء.

ولا يصحُّ هُنَا حَمْلُ «كان» على الكينونَةِ الحالية الّتي ظهرت بعد الامتحان، لأنّ الامتحان يكشف ما هو موجودٌ سابقاً في النفوس، أمّا التَّقَلُّبات الظاهريَّةُ فلا وزن لَهَا عند الله عزّ وجل، ولا قيمةَ لها.

● ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

في هذه الآية بيانُ مَشْهدٍ من مشاهد مُساءَلةِ إبليس لمُحاكَمتِه، بشأنِ امتناعه عن طاعة أمْرِ الله له بالسجود لآدم.

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبليس في مَجْلِس من مجالس محاكمته:

﴿يَٰٓإِبۡلِيسُ﴾: نداءٌ له باسْمِه الشَّخْصِيّ، لأنَّه هو وحْدَهُ الشخْصُ المحاكم، باعتبار أنَّه هُو وحْدَهُ الّذي لم يُطِعْ أَمْرَ الله بالسّجود لآدم، وصَارَ فيما بعْدَ عِنادِهِ وإصراره على كفره رأسَ الشياطينِ وإمَامَهُمْ، وصارَ يُطْلق لفظ إبليس على كلِّ عاتٍ متمرّد.

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾: أي: ما الّذي منَعَكَ من السجود لمخلوق أوليتُه عنايتي وتكريمي فخلقْتُ جسَدَه بِيَدَيَّ، وقد كُنْتَ داخلاً في عُمُوم الّذين أمَرْتُهم بالسجود له، باعتبارِكَ ألحقت نفسك بالملائكة، حتّىٰ تسلَّلْتَ إلى مَلَئِهم بقيامك بمثل ما يقومون به من عباداتٍ وطاعات، فكان عَلَيك أن تُطِيع فيما يكلِّفونَه، فاكتسابُ الانتماء يُصاحِبُه تَحمُّلُ مسؤوليّات التكاليف، وما تَسْتَتْبع مِنْ جزاءٍ وعقوبات على المعاصي والمخالفات.

وبما أنَّ المحاكَمةَ موجَّهَةٌ له من أجْل عدم سجوده لآدم، فلا بُدَّ أنْ يُسْأَلَ عن المانع له من السجود، فلعلَّه يُبيِّن عذراً مقبولاً، يُعْفِيه من ترتُّب العِقَاب، أو يَسْتغفر ويتوبُ ويَنْدَمُ فيخَفَّفُ عنه من عقابه.

● ﴿... أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾؟.

وضَعَ الرَّبُ جلَّ جَلاَلُهُ إبليس بهذا السؤال أمَام أَمْرَين لا ثالث لهما:

الأمر الأول: أن يكون قَدْ منَعَهُ من السجود لآدم اسْتِكبارُه. أيْ: هو

يُعَظِّم نَفْسَه بغَيْرِ حقٍّ، ويُريدُ أنْ يَجْعَلَها في مرْتَبَةٍ أعْلَىٰ من مَرْتبة الملائكة الَّذِينَ أطَاعُوا فَسَجَدُوا.

الأمر الثاني: أن يكون امتناعه من السجود مَبْنيّاً على أنَّهُ بتكوينه وفطرته أعْلَىٰ مَنْزلَةً، وأَرْفَعُ مَرْتبةً من الّذِين كُلِّفُوا أن يَسْجُدوا له.

والمعنى: أجَعَلْتَ نَفْسَك بغير حقٍّ في مرتَبةٍ فوق مرْتَبَتِكَ الّتي هي لكَ بخَلْق رَبك؟. أمْ كُنْتَ في تصوُّرِكَ من العالين حقيقةً في المرتبة، فرأيْتَ أنَّهُ لا يليقُ بكَ أن تَسْجُد لأدم، ولو كان ذَلِكَ طاعَةً لرَبِّكَ خالِقِك؟

● ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾:

في إجابة إبليس هٰذِهِ تَهرُّبٌ من الاعتراف بالاستكبار، والتزامٌ بادّعاء القضيَّة الثانية، استناداً إلى وهْم التفوّقِ العنصري، المستَنِد إلى ادّعاء أنّ عُنْصُر المادّة الّتي خلَق الله إبليس منها وهي النارِ، أشرفُ وأعظم منزِلةً ومرتَبَةً من عُنْصُر الطين الذي خلَق الله جسَدَ آدم منه.

لقد زَعَمَ أنّ عُنْصُرَ النّار خَيْرٌ من عنصُرَي الماء والتراب، الذين يتكوَّن من اختلاطهما ببَعْضِهما الطين، فهو أعْلَىٰ بعُنْصُرِه الذي خلقه الله منه، من عُنْصُر الطين، فلَيْسَ من الحكمة أنْ يُؤْمَرَ بالسُّجودِ التكريميِّ لآدم.

هذه النزعة الإبْليسيَّةُ هي أسَاسُ مزاعم التفوُّقِ العرقي، والتعالي العُنْصُري، والاسْتِكْبَارِ القوميّ، وهي نزعة قائمة على وهْم باطلٍ لا صِحَّةَ له بوجْهٍ من الوجوه، إذ التفاضُلُ بين المخلوقات إنّما يكون بالصّفاتِ الفاضلة الموجودة في المخلوق بعد تكوينه، لا بالْعَنَاصِر الأولى الّتي تكوَّنَ مِنها، ما لم يكن لها تأثيرٌ في وجود الصّفات الفاضلة الموجودة فعلاً في المخلوق، بعد إيجاده.

● ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: قال اللَّهُ عزّ وجلَّ لَهُ في هذِهِ الجلْسَة من جلسات محاكَمتِه: إنَّ ادّعَاءَكَ التَّفوُّقَ الْعُنْصُريَّ ادِّعَاءٌ باطل، لا صحة له بوجه من الوجوه، ومعْصِيَتك بالاستناد إلى وهْمِ التفوُّقِ العنصري طَعْنٌ بحكمة رَبّك، وهو من الكفر ببَعْضِ صفاتِ الكمال الواجبة له، وفيه جعْلُ العناصِرِ التي خلَقَها هو، وخلَقَ خصائصها ووظائفها ذوات تأثير في إلزامه جلّ وعلا بأن يُوَجّهَ أوامِرَه ونواهيَهُ لعباده متقيّداً بمراعَاةِ التفاضل العنصريّ فيما بينها، وفيه جحودٌ لإلٰهيّة ربّك لك، فاخْرُج من مواطن الملائكة التي جعلناك تجول فيها بحريَّة في السماء فإنَّه لا حقّ لك بعْدَ انكشافِ كِبْرِكَ وكُفْرِك في أن تَدُسَّ نَفْسَكَ بالنّفاق ضِمْن الملائكة الكرام، الّذين لا يعْصُونَ الله ما أَمَرَهُمْ، ويفعلون ما يُؤْمَرُون.

﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾: أي: فإنَّك مَرْجُومٌ مَطْرُود.

الرَّجم: هو في اللّغة الرَّمْيُ الطَّرْدِيُّ الإبعادي، بقولٍ أوْ فعل، وقد جعَلَهُ اللَّهُ رَجيماً إِذْ طَرَدُه من رحمته، ولعَنَهُ، ثُمَّ رَجَمَهُ بالشُّهب الثواقب كلما أراد أن يقترب من منازل الملائكة في السماء.

واللَّعْنُ: هو الطرْدُ من دائرة الرَّحمة والإبعادُ عنها.

وقَدْ أصْدَرَ اللَّهُ حُكْمَهُ عليه بالرَّجْمِ واللَّعْن إِلَىٰ يَوْمِ الدّين، الذي تجري فيه محاكمَتُه لجَعْلِه خالداً في جهنَّمَ دَارِ عذاب الكافرين المجرمين، أمّا في الدُّنيا فقد تَمَّ الحكْمُ علَيْهِ بالرَّجْمِ واللّعْن.

وهٰذه إحدىٰ مُحَاكماتٍ ثلاث، أجْراها الله عزّ وجل له، دلّت عليها النظرة الكليّة التكاملية للنصُوصِ السّتة الموزعة في ست سُورٍ من القرآن المجيد سَبَقَ ذكرها، وهذه النظرة الكلية التّكامُليَّة سأُقَدمُها إن شاء الله في الملحق الرابع من ملحقات هذه السّورة الّتي أُتَابع تدبُّر دروسها وفِقَراتها.

● ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٧٩﴾:

أي: ﴿قَالَ﴾ إبْلِيسُ مُعْتَرِفاً لله برُبوبيته وبأنّه خالِقُ الحياة والموت.

﴿رَبِّ﴾ (بحذف ياء المتكلّم إيجازاً) بمَا أنَّك حكَمْتَ عليَّ بالرَّجْم واللَّعْنِ إلى يوم الدين، ﴿فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ﴾ يُبْعَثُ الخلائق بَعْدَ الموتِ لملاقَاتِ الْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتنْفِيذِ الجزاء.

لقد كانَ عالماً بأنَّه يُوجَدُ بعْثٌ إلى الحياة بَعْدَ الموتِ، لتحقيق الجزاء الرّبَّانِيّ بَعْدَ رحْلَة الحياة الدُّنيا، رحْلَةِ الامتحان لِمَنْ وضِعُوا فيها موضع الامتحان بشروطه، فَطَلَبَ إمْهالَهُ وإبقاءه حيّاً إلى ذلِكَ اليوم، وكانَ الجِنُّ موضُوعين موضِعَ الامتحان في الحياة الدنيا قبل الإنس، ثم خَلَقَ اللّهُ آدَمَ وزوجَهُ، فبدأت رحلةُ امتحانِهما وامتحان ذُرّياتهما منذ ذلك الوقت.

﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾: أي: فأمْهِلْني وأخِّرْني باقياً حيّاً.

● ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾﴾.

أي: قال اللّهُ عزّ وجلّ لإبليس: استَجَبْنا لبَعْضِ طَلَبِك، فَأَخَّرْنا إماتَتَك وأمْهلْنَاكَ، وجعَلْنَاكَ بقضائنا وَقَدَرِنَا من الّذين طَوَّلْنا أعْمارَهُمْ، ولَكِنْ لاَ إلى يَوْمِ البعث، بل إلي يوم الْوَقْتِ المَعْلوم، الّذي تَقُومُ فيه السَّاعَةُ وتَنْتَهِي فيه ظروف الحياة الدُّنيا كُلُّها، وأُمِيتُ فيه كُلَّ ذِي حياة في السَّماوات والأرض.

ومن المتحقّق أنّ من الْمُنْظَرِينَ طائفةً من ملائكة الملأ الأعلى كجبريل وإسرافيل وميكال وقد أنظره الله ليستكمل به ظروف الامتحان الأمثل للناس.

● ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

لمّا اطْمَأَنَّ إبْليسُ إلى إنْظَار الله له في الحياة الدنيا حتى انتهاء ظروفها، أعَدَّ نفسه لإغواء آدَمَ وزَوْجِه وذرّياتهما، حتَّىٰ آخر حياة الناسِ في الأرض، وبعد أن عزم على هذا الأمر ﴿قَالَ﴾ لربّه: لقَدْ أنظرتني وأخّرْت

إماتتي حتى آخرِ حياة الناس في الأرض ممتحنين ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: أي: فبِقُوَّتِكَ الْغَالِبَةِ الّتِي بها يكونُ لي حَوْلٌ وقُوَّةٌ ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

في هٰذه العِبَارة: قَسَمٌ بعِزَّة الله، واعْتِرافٌ لله بربوبيّتِه، وبأن أيَّ مَخْلُوقٍ مهما بلَغَتْ قُوَّتُهُ وحيلَتُه، فَلَا حَوْلَ لَهُ ولا قوة إلاّ بالله. ولكنَّ كُفْرَ إبليس كان من نوع جُحُودِ إِلٰهيَّةِ الله له، وهذا الجحود سببُهُ الاستكبار والغرور بالنَّفْس.

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾: أي: لَأُوقعنَّهُمْ بوَسَاوِسِي ووساوسِ جُنُودي وتسويلاتنا وحبائلنا في الغَوَايَة، وهي الإمعان في الضلال والْبُعْدِ عن صراطِكَ صِرَاطِ الحقّ والْهُدَىٰ.

﴿أَجْمَعِينَ﴾: توكيدٌ معْنويٌ لضمير «هُمْ» في: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾ والغرض من مثل هذا التوكيد دفْعُ توهُّم إرادةِ بعْضِهم دون جميعهم.

● ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾: وفي القراءة المتواترة الأخرى [الْمُخْلِصين] بِكَسْرِ اللاّم، وبَين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

الْمُخْلَصُون، بفَتْحِ اللاّم، هم المصطَفَونَ المنَقَّوْنَ مِنَ الشوائب والمختارُونَ، وهم الذين عَصَمَهُمُ الله عزّ وجلّ من الْغَوَاية، لِمَا عَلِمَ في قلوبهم من خَيْرٍ يؤهّلهم لأن يكونوا مَعْصُومِين كالأنبياء.

الْمُخْلِصُونَ: بِكَسْرِ اللاّم: هم الذين أخلصوا أعمالهم ونيّاتِهم من الشوائب، فجعلوها خالصة لله عزّ وجلّ وابتغاء مرضاته.

لقد كان إبليس بعبارَتِه حَذِراً، فاستثنىٰ مَنْ يَصْطَفِيهم الله ويسْتَخْلِصُهم، فيحميهم من تأثير إبليس وجنوده عليهم بالإغواء، واستثنىٰ من يستطيعون بإرَادَاتِهم القويّة أن يكونوا مُخْلِصين في أعمالهم ونيّاتِهم لرَبّهم، طمعاً بالمنازل الرفيعة في جناتِ عدْنٍ يوم الدين، فَيُعِينُهم الله عزَّ وجَلَّ فيَحْمِيهم من تأثير إبليس وجنودِه عليهم بالإغواء والإضلال، كُلٌّ على مقدار إخلاصه لربه وصدقه، وقُوَّةِ إرادته.

● ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾ وفي القراءة الأُخْرَىٰ: «قَالَ فَالْحَقَّ بالنَّصْبِ ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: قال اللَّهُ عزّ وجلّ لإبليس: اتّخِذْ ما شئت من وسيلةٍ للإغواء وقد أفْصَحَتْ عَن هذا المطويّ الفاء في: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ والمعنى: فَقَسَمِي الْحَقُّ، مُبْتَدأٌ وخبر، وجوابُ الْقَسَمِ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ إلىٰ آخِرِ الْعِبَارة.

﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾: جملَةٌ معترضة بين القسم وجوابه، والمعنى: وَلاَ أقولُ إلاَّ الْحقَّ، هذا الحصْرُ اسْتفِيدَ مِنْ تقديم المعمولِ علَىٰ عَامِله.

وأمّا على قراءة: [فَالْحَقَّ] بالنصب، فهي فيما أرى علىٰ تقدير: فأقْسِمُ الْقَسَمَ الحقَّ، ولاَ أقُولُ إلاَّ الحقّ لأَمْلأَنَّ جهنَّمَ مِنْكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ منهُمْ أجمعين.

كيف نفهم الجمع بين قَسَمِ اللَّهِ بأنْ يمْلأَ جهنَّمَ من إبليس، ومِمَّنْ تَبِعَهُ من الموضوعينَ موْضِعَ الامتحان في الحياة الدنيا، وبيْنَ ما جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) من بيان أنّ جهنَّمَ تقول:

﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ مَهْمَا أُلْقِي فيها من أفواج المعذبين المجرمين؟.

أقول: لقد جاء في بيانِ الرّسول ﷺ أنَّهُ لا تزال جهنّمَ تقول: هل مِنْ مَزيد حتّى يَضَعَ فيها رَبُّ العِزَّة قَدَمه، فتقول: قَط قَطْ وعزّتِكَ، ويُضَمُّ بعضُها إلى بعض، وبذلك تمتلِئ.

فتَحِلَّةُ القسَم الوارد في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) تكون بهذا منْ ربّ العزّة، جلَّ جلالُه، وعَظُمَ سُلْطَانه.

روى مسلمٌ في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ النبيّ ﷺ قال:

«لاَ تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّىٰ يَضَعَ فِيهَا رَبُّ العزّةِ تَبَارَكَ

وتَعالى قَدمَهُ، فَتَقُولُ: قَطِ. قَطِ وعِزَّتِكَ، ويُزْوَىٰ بَعْضُها إِلَىٰ بَعْضٍ».

يُزْوَىٰ: أي: يُطْوَىٰ ويُجْمَعُ.

● قولُ الله عزّ وجلّ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

في هذه الآيات الثلاث الّتي ختم الله عزّ وجلّ بها السّورة، استكمالٌ لعناصر الرَّدِّ على مقالات الذين كَفَرُوا الواردة في الدرسِ الأول من دروسها، والحكمةُ من تأخيرها كونُها متعلّقةً بالرّدِّ على اتّهام شخص الرسول ﷺ بأنه ساحِرٌ كذّاب، وبأنّه يختلقُ ما يأتي به اختلاقاً، ويَزْعُمُ أنّه يُوحىٰ به إلَيْهِ من ربّه، وبأنّ لَهُ غَرَضاً دُنيوياً خاصّاً كالْعُلُوّ في الأرض فما يتعلّق بشخص الداعي ينبغي أن لا يهتَمّ له، فإذا كانَ له صلةٌ ما بمضمون رسالته، وتقتضي الحكمة الرّدّ عليه، فلْيكُنْ في آخر ما يَهْتَمُ له ويُوَجّهُ له عنايته.

(١) فقولهم الذي ذكره الله في الدرس الأول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾.

أي: إنّ هذا الّذي يدعو إليه محمّد من جعل الآلهة، إلَهاً واحداً، وما يدّعيه من النبوّة والرّسالة، والإنْذارِ بعقاب الله المؤجّل إلى يوم الدِّين، مع عِقَابٍ ربّما يُعَجَّلُ في الحياة الدنيا، أمْرٌ يُرادُ لمصلحته الشخصيَّة الدّنيوية، كالمال والزعامة وحبّ السلطان، يتطلّبُ رَدّاً ملائماً قاطعاً لاتهامهم له.

فعلّم الله عزّ وجلّ رسوله أنْ يقول لهم جواباً قاطعاً لاتهامهم له بالمصالح الشخصيّة الدنيويّة: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ... ﴿٨٦﴾﴾.

وقد سبَق أنْ أنزل الله عزّ وجلّ قبلْ هذا التعليم قولَهُ في سورة (القلم/ ٦٨ مصحف/ ٤ نزول):

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾؟!

والمعنى أنّكَ لا تَسْأَلُهُمْ في الواقع أجراً ما، مع التعريض لَهُ ضِمْناً بأنْ يكُونَ حَذِراً من أن يسألَهُمْ أقلّ شيءٍ يُشْعِرُ بأنّه مِنْ مَقَاصِدِ ما يقومُ به في دعوته، حتّىٰ لا يكون ذلك ذريعةً للطَّعْنِ في دعوتِه بأنّه صاحبُ مصالح خاصّةٍ منها عنْدَ قَوْمِه.

وهُنا في سورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) أمَرَ الله عزّ وجلّ رسوله بأن يُصرّح لهُمْ تَصْريحاً وجَاهياً قَائِلاً لهم: مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ.

وفي هذا رَدّ كافٍ على اتّهامه بأنّه ذو مصلحةٍ شخصيَّةٍ دنيوية من دعوته، وادّعائه النبوّة والرّسالة.

(٢) وقولهم الذي ذكره الله عزّ وجلّ في الدرس الأوّل: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾: أي: هذا سَاحِرٌ في بيانِه الذي يقول بشأنه هو من عند الله، وكذّابٌ في ادّعائه أنّهُ كلام الله، وأنه وحْيٌ أوحى الله إليه به. وقولهم عن مقالاته في التوحيد وإبطال الشرك: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾: أي: ما هٰذا إلاّ قوْلٌ كَذِبٌ يفْتَرِيه على الحقيقة، ويفتريه على الله، يستَدْعِيَان ردّاً مُحْكَماً مُسْقِطاً لهما.

فعلّم الله رسولَه أنْ يقول لهم جَواباً عليهما:

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

المُتَكلِّف: هو الّذي يَتَصَنَّعُ أَمْراً بالكُلفَةِ علَىٰ خلاف فطرته وعادته الدائمة. والسَّاحِرُ من أكثر النّاسِ تكلُّفاً وتَصنُّعاً وتزويراً، والكذَّابُ الذي يختلق المفتريات ولا سيما المفترياتُ على الله، هو كذلك من أكثر الناس تكلُّفاً وتصنُّعاً وتزويراً.

وقد عاش رسولُ الله ﷺ في قومه أكثر من أرْبعين سنة، لم يَعْرِفُوا منْهُ فيها إلاّ الصِّدْق والأمانة والصَّراحَةَ في أموره كلّها، ولم يَعْرِفوا منه تصنُّعاً ما، ولا تكلّفاً ما، ولا أمراً يُشْتَبَهُ به منه في أموره كلّها.

أفيكون كذلك طَوَال عُمْره قبْلَ النُّبوّة في قَوْمه، غَيْرَ متكلّف ولا مُتَصَنِّع في أمْرِ ما من أمُوره، ويَبْقَىٰ على صفاء فطرته لا يكذبُ ولا يَتَعَاطَىٰ لوناً من ألوان السِّحْر، ولا يفتري على أحَدٍ فِرْيةً ما يَصْطَنِعُها اصطناعاً، ويتكلَّفُها تَكلُّفاً، حتَّىٰ إذا أوحَىٰ اللَّهُ إليه بعْدَ هذِهِ الْبَراءَة التامّة، والصَّفَاءِ الكامِلِ، في خُلقِه وعاداته، يقولُ قَومُه عَنْهُ، وهم الخبيرونَ به: ساحِرٌ كذَّابٌ يفتري على الله.

إنّ من عاشَ عُمْراً بلَغَ فيه أربعين سنة، لا يتصَنَّع في أَمْرِ ما من أموره وَلاَ يتكلّف، ولا يَفْتَري ولا يكذب، لا يستطيع أن يخالف طبْعَهُ وعاداته، فيتصَّنَّعُ ويفتري ويكْذِب، ولا تُطَاوعه فِطْرَتُهُ على ذلك، وهذا مشاهَدٌ في كلّ الناس.

فإذَا ذكَّرَهُم الرسُول ﷺ بأنّه ليْسَ هو من المتكلّفين المتصنّعِين، كما يَعْلَمُونَ ذلِكَ من خُلُقِه وعادَتهِ وطَبْعِهِ، كانَ ذلِكَ حُجَّةً عليهم، ودفعاً بغاية الرفْقِ لاتّهامهم الشَّنيعِ له بأنّه ساحِرٌ كذَّابٌ مُخْتَلِقٌ علىٰ الله.

أمّا القرآنُ الّذي زَعَمُوا أنّه نوعٌ من أنواع السِّحر، وأنَّه مُخْتَلَقٌ مُفْتَرَىٰ على الله، وهو المتضمِّن لدَعْوَةِ الرَّسول، فقد علَّمَ الله عزّ وجلّ رسُوله أنْ يقول لهم بشأنه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: إذا رفَضْتم آيات إعجاز القرآن البياني، الدّلاّت علىٰ أنّه كلامُ الله، وتنيزلٌ من لدُنْه، مُدَّعين أنّ إعجازه البيانيَّ نوعٌ من أنواع السّحر، فإنّ أمامَكُمْ فيه المضامين الفكريَّة المعجزة، والّتي يجب على كلّ ذي فِكْرٍ من العالَمِين أجْمَعين أنْ يَعْلَمَها، ويتَفَهَّمَها، ويَتَدَبَّر معانيها، ثم يجعلها في ذاكِرَتِه، ليتّبعَ هَدْيَها في مَسِيرَةِ حياته، ولتكونَ له سراجاً هادياً يَهْدِي إلى صراط السعادة والمجْدِ العظيم.

فإذا فحصْتُمْ مضامينَ هذا البيان القرانيَّ العظيم تتبُّعاً لجُزْئياته الفكريَّة، لم تجدُوهُ إلاَّ ذِكْراً لِلْعَالَمِينَ أَجْمَعِينَ، لا لَكُمْ فقط، ولا للعرب فقط، بل للعالَمين كلّ العالَمِين.

وهذا برهان عَلىٰ أنّه تنزيلٌ من عِنْد الله ربّ العالمين، إذْ لا يوجَدُ كتابٌ في الدنيا من عِنْدِ غير الله، يصْلُح لأَنْ يكون كُلُّ ما فيه ذِكْراً لكلّ العالَمِين.

فما أعْجَبَ عُمْقَ هذا الاستدلال على أنّ القرآن كلام الله عزّ وجلّ، وأنَّهُ ليْسَ من صُنْع محمّد، فلَيْس هو سِحْراً، وليس شيءٌ فيه اختلافاً ولا كذِباً.

والمعنى: ما هو في حقيقة عناصِرِه الفكريَّةِ، غير تعليم حقٍّ يجب أن يجعله مُفكّرُو العالَمِين أجمعين ذِكْراً لهم، يهْتَدُونَ بِهَدْيه دواماً.

أمّا مضامين القرآن الخبرّيةِ، وما يشتمل عليه من أنباء، ما مضَىٰ مِنها، وما هو قائم في كوْن الله منها، لكنّ النّاس لم يعلموه بَعْدُ، لِعَدَمِ تَوَصُّلِ وسائلهم العلميّة إلى كَشْفِه لمعرفته، وما سيأتي منها أو سَوْف يأتي، فقد علّم الله عزّ وجلّ رسوله أن يقولَ لقومه بشأنها، وهو قول مُوجَّهٌ لكلّ الناس، مهما توالت العصور وتعاقبت الدُّهور:

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: ولتَعْلَمُنَّ بَعْدَ حينٍ من الدَّهْر مُطَابقَةَ كلّ ما جاء فيه من أنباء للواقع والحقيقة.

فالماضي تكشِفُهُ دلائل الآثار، والواقع الخفيُّ القائم في الكَوْن تَكْشِفُه وسائلَ البحث العِلْمِيّ الإنسانيّ تباعاً، مع تقَدُّم العلوم، وارتقاء الوسائل وتقدِمِها، والمستقبل منه سيَحْدُثُ أو سوف يحدُث كما جاءَ في الأنباء القرآنية.

وفي هذا تَنْبِيهٌ على بُرْهانٍ دَامِغٍ يُثْبِتُ في كلّ عَصْرٍ أنّ القرآنَ كلامُ الله، وتنزِيلٌ من لَدُنْه.

﴿نَبَأَهُ ﴾: أي: خَبَرَهُ: النَّبأُ: الخبر الذي تتوجّه الأنظار إليه لبروزه وظهوره وهو اسم جنس يصْدُقُ على القليل والكثير، وبإضافته إلى ضمير القرآن صار يَعُمُّ كلّ أنبائه.

وقد تمّ بعون الله وتوفيقه وفَتْحِه تدبّر سورة (صَ) والحمد لله على ما تفضل به وأنْعم.

❀ ❀ ❀

ملاحق لسورة (صَ)

الملحق الأول: نموذج من التدرج الارتقائي في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل.

الملحق الثاني: مستخرجات بلاغيّة من السّورة.

الملحق الثالث: تدبّر بقية ما جاء في القرآن المجيد عن داود عليه السلام.

الملحق الرابع: قصة خَلْق آدم في القرآن المجيد وما رافق خلقه من أحداث.

(٩)
الملحق الأول
نموذج من التدرج الارتقائي
في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل

جاء إعلام أئمة الشِّرك والكفر في مكة بإهلاك كُفَّارِ الْقُرونِ السابقة، تَلْوِيحاً بالإِنْذارِ، ثم تَذْكِيراً بِه، في نُجُوم التنزيل حتى نزول سورة (ص) ستّ مرّات.

ويُلاحِظُ المتدبِّر أنّه قد جاء التعبير عنه في هٰذه النصوص السّتة متدرجاً تدرُّجاً ارتقائياً في أسْلُوب البيان المختار، وفيما يلي استعراض لما جاء في هذه النصوص السّتة.

(١) جاء هذا البيانُ أوّلاً بأسْلُوب الْعَرْض الاسْتِفهاميّ خطاباً موجَّهاً لشَخْصٍ غَيْرِ مُعَيّن، فهو يشمل كلّ مُتَلَقٍ على سبيل الخطاب الإفراديّ.

وهو ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفجر/ ٨٩ مصحف/ ١٠ نزول):

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾./

(٢) ثمّ جاء هذا البيان بأسلوب العرض الخبريّ بشأن إهلاك أصحاب الأخدود، وجاء هذا العرض الخبريُّ متّسماً بالعنف والشدّة.

وهو ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾﴾.

(٣) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الاستفهام الموجّه للمكذِّبين الّذين كذّبوا الرسُول وكذَّبُوا بيَوْم الدّين على وجْهِ العموم.

وهو ما جاء في سورة (المرسلات/ ٧٧ مصحف/ ٣٣ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾﴾.

(٤) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الحديث عن كُفَّارِ مَكَّةَ صراحةً، مع التلويح بالإنذار بإهلاكهم إذا وصلت أحوالهم إلى مثل الأحوال الّتي وصَلَ إليها المهْلَكُونَ السَّابقون.

وهو ما جاء في سورة (قّ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

وقول الله عزّ وجل فيها أيضاً:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

(٥) ثم جاء هذا البيان بأسلوب الحديث عنهم مع التلويم والتثريب، إذْ لم يَتَّعِظُوا ولَمْ يَزْدَجِرُوا، على الرغم من أنّهم قد جاءهم من الأنْباءِ ما فيه مُزْدجر.

وهو ما جاء في قول الله عزّ وجل في سورة (الْقَمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾﴾.

وبعد هذا جاء عَرْضٌ فيه بعضُ تفصيل لِقَصَصِ بعض المهلكين الأوّلين.

(٦) ثم جاء هذا البيان في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) مشابهاً لما جاء في سورة (قّ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) ولكنْ جاء في سورة

(ص) زيادةُ تأكيدٍ في اللَّفْظِ، وإضافةِ فكرةِ أنَّ المهلَكين السَّابقين نادَوْا حينَ أنْزَلَ الله عزّ وجلّ بهم وسائل إهلاكهم، فلم يستجب أَحَدٌ لندائهم، ولم يكن لهم مناصٌ من تَلَقِّي عذابِ الله العادل.

فقال الله عزّ وجل فيها:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

فجاء في سورة (ص): ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ بإظهار حرف «من» أمّا في سورة (ق) فجاءت العبارة. [**قَبْلَهُمْ**].

وتكامل النَّصّان الذي في (ق) والذي في (ص) في تصوير عدم استطاعة المهلَكين التَّخَلُّصَ من تلقِّي عذاب الله، ففي سورة (قۤ) جاءت العبارة: ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ وفي سورة (ص) جاءت العبارة: ﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

ويستفيد الباحثون في علم الترتبية، من هذا المنهج التدرُّجيّ الارتقائيّ الربّانيّ، الذي جاء في هذا الملحقِ بيَانُه، لأَنْوَاع العلاجِ التربوي.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه

❁ ❁ ❁

(١٠)
الملحق الثاني
مستخرجات بلاغية من السّورة

في هذه السورة اختيارات بلاغيّة كثيرة، وأُنَبِّه في هذا المَلْحَق على طائفةٍ منها. ويَجِدُ القارئ خلال تدبُّر السّورة بيانَ بلاَغِيَّاتٍ أخرى لم أذكرها هنا.

(١) الْقَسَمُ بما يتَضَمَّن دليلاً على صِدْقِ وصحَّة المقْسَمِ علَيْه في

قول الله عزّ وجل: ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ فالقسم بالقرآن ذي الصفات الّتي تؤهّله لأن يكون هو الذِّكْرَ الأعظم للعالمين، دليل على أنّ المقسَم عليه حقٌّ، وهو كون محمّد الذي بَلغَهُ عن ربّه صادقاً في ادّعائه النبوّةَ والرّسالة. وهذا المقْسَمُ عليه مَحْذُوفٌ في اللفظ إيجازاً، ومقدّرٌ في المعنىٰ تقديراً تدُلُّ عليه القرائن، ويُدْرِكُهُ المتدبر دون كُلْفة.

(٢) الإيجاز بالحذف، وهو كثير في هذه السورة.

● فمنه ما هو في: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦﴾: أي: وانْطَلَقَ الملأ منهم وهُمْ يتحدَّثُونَ فيما بَيْنهم أنِ امْشُوا. . . .

● ومنه ما هُوَ في: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى . . . ۝٨﴾: أي: إنَّهم لا يشكُّون في بُعْدِ محمّد عن الكذب، بل هم يشكُّون في مضمون ما جاءهم به، وهو ذكري الّذي أنزلتُه لهدايتهم، لأنه يخالفُ أهواءهم.

● ومنه ما هو في: ﴿. . . وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۝٢٤﴾ بشأن داود عليه السلام، أي: وخَرَّ راكعاً وأنابَ سَاجِداً.

وغيرها مما جاء بيانه في تدبُّر السورة.

(٣) تأكيد الإسناد في عدد من الجمل الخبريَّة مراعاة لمقتضى الحال، بمؤكدات منها «إنّ - الجملة الإسمية - اللاّم المزحلقة - من الزائدة لتأكيد الاستغراق أو التنصيص عليه - اللاَّم الموطئة للقَسَم».

وأترك لذي الخبرة البلاغيَّة استخراجها.

(٤) الحصر والقصر:

● في: ﴿. . . إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ۝٧﴾: أي: ما هذا الذي جاء به محمّد ويدَّعي أنّه من عند الله إلاّ اختلاق من عنده.

وهذا من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى صفتي الصّدْقِ والاختلاق.

● وفي: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾ بشأن طائفة من الّذين أُهْلِكُوا من كُفَّارِ القرون السّابقة.

وهذا أيضاً من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى دعوات رُسُل ربّهم.

● وفي: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ... ﴿١٥﴾﴾ أي: تهلكهم.

وهذا أيضاً من قبيل الْقَصْرِ الإضافي... أي: لا يُنْتَظَرُ منهم أن يستجيبوا لدعوة الرسول، فكأنهم لا يترقّبون إلاّ صَيْحَةً مهلكة لهم بالإضافة إلى قضيَّةِ تكذيبهم للرسول، وقد يكون إهلاكهم بغير الصيحة، وقد يُمْهلُون.

● وفي: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ... ﴿٦٥﴾﴾: أي: لم يبق من دعوتي بالإضافة إليكم إلاّ الإنْذار، فأنا بالنسبة إليكم منذرٌ فقط.

ونظيره: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

فهما من قبيل القصر الإضافي.

وفي: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾﴾:

أي وَما مِنْ إلَـٰهٍ لَهُ صفةُ الإلَـٰهيّة الحقيقية، إذْ هو ربّ السماوات والأرض وما بينهما، إلاّ الله الواحد القهّار.

وهذا مِنْ قبيل القَصْر الحقيقيّ، لأنّ صفة الإلهيَّة الحقيقيَّة مقصورَةٌ عليه جلّ جلالُه وعظم سلطانه، وهو من قصر صفة على موصوف.

(٥) الإلماح الذي لا يُدْرِكُ الْقَصْدَ منه إلاّ الرسُول ﷺ، وربّما بعض نُطَنَاء أصحابه، في قول الله عزّ وجلّ:

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٌ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ١١﴾:

ففي هٰذه الآية إلْماحٌ للرَّسُول بأنَّه سيواجِهُ في المستقبل عُتَاةَ مُشركي مكة في معارك قتاليَّة، وسينصُره الله عليهم، ولَمْ يتَنَبَّهْ إلى هذا الإلماح أذْكيَاءُ المشركين، إذا الغرضُ إخفاؤه عنهم، حتّى لا يتداركُوا الأَمْر بخُطَط حربيَّةٍ يواجِهُون بها الرسُول وأصحابَهُ، وهم ما زالوا تحت أيديهم في مكّة، وقد جاء تغليف هذا الإلْماح بذِكْرِ طَائفةٍ من أحزاب الّذين أُهْلِكُوا في القرون الأولى، قوم نوح وعاد وفرعون وغيرهم، وغُلِّفَ أيضاً بعبارة: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾ لأنَّ هٰذِهِ الصيْحَةَ لاَ تكونُ إلاّ رَبَّانيَّة.

(٦) الاستفهام الذي يرادُ به إثارة الانْتِبَاه لتلقّي الْخَبرِ في:

﴿۞ وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾؟.

(٧) اقتطاع النّصّ من وقت توجيهه في الماضي أو في المستقبل، وتقديمه بصورته، دون ذِكرِ ما يدُلُّ على أنَّه حكايةُ أمْرٍ جرى، أو سيجري، أو سوف يجري.

وهذا من الإبداعات البلاغيّة في القرآن الّتي لم تكن معروفةً عند البلغاء، وقد ظهر لها نظيرٌ في الفنون التمثيليّة المعاصِرَة لنا.

ونجد هذا الأسلوب البيانيّ في أمكنة متعدّدة من هٰذِه السورة:

● فمنه خطابُ الله عزّ وجلّ لسليمانَ عليه السلام في قوله تعالى:

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾.

● ومِنْهُ خطاب الله عزّ وجلَّ لأيُّوب عليه السلام في قوله تعالى:

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾.

وفي قوله تعالى:

﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ . . .﴾.

وكلّ هذه النصوص مستَقْطَعَةٌ ممَّا جَرَى في زمانٍ مضى.

● ومنه ما سوف يكون من خطابٍ سوف يوجَّهُ لأهل جهنَّم، وَمَا يجيبُ به أَئِمَّةُ الكافِرِينَ:

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾﴾.

(٨) حكاية الحدَثِ الذي سوْفَ يكونُ في المستقبل بأسْلُوب حكاية أمْرٍ مضىٰ للإشعار بأنَّهُ سَوْف يَحْدُثُ كذلِكَ في المستقبل حتماً.

ومنه حكاية قول أتباع أئمة الكُفْرِ وهم يُساقون ليكونوا معهم في دار العذاب: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾ وثلاث آيات بعْدَها في السورة.

❀ ❀ ❀

(١١)
الملحق الثالث
تدبُّر بقية ما جاء في القرآن المجيد
عن داود عليه السلام بنظرة تكامليّة

جاء في القرآن المجيد بشأن داود عليه السّلام تسعة نُصُوصٍ في تِسْعِ سُورٍ، هي السُّور التالية (صَ ـ النمل ـ الإسراء ـ الأنعام ـ سَبأ ـ الأنبياء ـ البقرة ـ النّساء ـ المائدة).

وأُحَاول دِرَاسَةَ جميع النّصوص الواردة في هذه السّورِ، وتدبُّرَها ضمن منهج التفسير الموضوعي، في هذا الملحق إنْ شاء الله.

النصّ الأول:

هو النص الذي جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وهو

الآيات من (١٧ ـ ٢٦) وقد سبَق تدبُّره خلال تدبّر هذه السّورة، فلا حاجة إلى إعادة تدبّره.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾.

فأضاف هٰذَا النَّصُّ إِلَىٰ ما سبَقَ إنزالُهُ في سورة (ص) أرْبعَ قَضَايا:

القضيَّةُ الأولى: أنّ الله عزّ وجلّ لقد آتىٰ داوُدَ وكذلِك ولده سليمان عليهما السلام عِلْماً.

ويظهر أنَّ هذا الْعِلْمَ شيءٌ آخَرُ غيْرُ «الحكمة وفَصْلِ الخطاب» الّذَيْنِ آتاهما الله تبارَكَ وتعالى داوُدَ عليه السّلام، والّذَيْن جاء بيانهما في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

والتنكير في لفظ ﴿عِلْمًا﴾ قَد يُشعِرُ بمعنَىٰ الخصوصية في النوع، أي: نوعاً من العلم اختَصَّهما الله به.

القضية الثانية: أنّ داوُدَ وكذلِكَ وَلَدُهُ عليهما السَّلام، قَدْ حَمِدا الله قائلين:

﴿... ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾.

ونستطيع أن نفهم أنَّهما قيَّدا ما فضَّلَهُما الله به بكثير من عباد الله المؤمنين، لأمور:

(١) منها أنّ المؤمِنينَ مفضَّلُونَ علَىٰ كلّ غير المؤمنين بالفضائل الإيمانيَّة، فهما مُفَضّلان بها لزوماً على جميع الناس غير المؤمنين.

(٢) ومنها أنّ ما فُضِّلا به من أُمُور الدُّنيا قَدْ يكون لَدىٰ غَيْر المؤمنين أو بَعْضِ المؤمنين أشْيَاءُ قَدْ أعْطَاهُمُ اللّهُ مِنْها أكْثَرَ ممَّا أعْطَىٰ داوُدَ وسُلَيْمان عليهما السّلام، كالمال والسُّلْطانِ الواسع في الأرض، ونحو ذلك، ومن هؤلاء بعضُ الفراعنة والأكاسرة والقياصرة، وذُو القرنين.

فهما يحترسان بهذا القَيْدِ عن الوقوع في الخطأ ومخالفة الواقع، وكذلك ينبغي أنْ يكون حالُ من رأىٰ لِنَفْسِه فضلاً، أن لاَ يظُنَّ تَفَرُّدَه به، وأن لا يَدَّعِيَ ذلِكَ، وأَنْ يقول مَا يَعْلَمُ مِنَ الحقّ.

القضيّة الثالثة: أنّ الوارِثَ الذي وَرِثَ داوُدَ من بَعْدِه في الْمُلْكِ وفي سَائِرِ الخصائص هو ولَدُهُ سلَيْمَانُ عليهما السلام.

القضيّة الرابعة: نَلْمَحُ أَنَّ النَّصَّ يُشِيرُ إلىٰ أنَّ الحمْدَ الذي حَمِدَهُ داوُد وولَدُه سليمان عليما السّلام، قد كان في أواخرِ حياة داود وأوائلِ اكتمالِ سليمان، عند ما صارَ مُهيّأً لأن يَرِثَ المُلْكَ عن أبيه.

فقول الله عزّ وجَلّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ يُشْعِرُ بأنَّهُ كان دُعاءً مُشتركاً، وظاهِرٌ أنّ سليمان لاَ يشُارِكُ أباه في هذا الدُّعاء إلاّ وهو ذُو نُضْجٍ.

قال المؤرخون: ومَلَكَ سليمانُ عليه السَّلامُ وهو يافع، على اختلاف الرّوايات في عُمْره حينَ صَارَ ملكاً ما بين (١٢) سنة و (٢٢) سنة.

وقد جاء عقب هذا النصّ مِنْ سورة (النمل) قول الله عزّ وجل:

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ . . .﴾ فهذا الإتباعُ في البيان يُشْعِرُ بعدم وُجُودِ فاصلٍ زمَنِيٍّ طويلٍ بين الدُّعاء وَوِراثَة سُلَيْمانَ الملْكَ من أَبيه.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلَّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿... وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾.

الفضل: هو في اللُّغةِ الزّيادة ممّا يُحْمَدُ غالباً، **والتَّفْضِيلُ**: هو الإعطاء الزائد على النُّظراء أو شبْهِهِم ممَّا يُحْمَدُ، مِنْ مادِّيَاتٍ أَوْ مَعْنَوِيَّات.

فقد يكون التفضيل بإيتاء زيادةٍ من ٱلعِلْم، أو بإيتاء زيادة من الفهم والحكمة، أو زيادةٍ من القوّة والسُّلطان، أو زيادةٍ من الخُلق الرفيع والفضائل النفسيّة، أو زيادةٍ في الرزْقِ وفيوض النّعم.

لكِنَّ تفضيل بعْضِ النبيّين على بعضٍ لا بُدَّ أن يكون بزياداتٍ من خصائص النبوّة وفضائلها، كتخصيص موسى عليه السّلام بتكليم الله عزّ وجلّ له، وكتخصيص بعْضِ الرُّسل بإنْزال كُتُبٍ عليهم ذَواتِ شأن عظيم، وكإلْهَام بعض النبيّين وتوفيقهم إلى أقوالٍ وحكَم نفيسة يقولونها، فَتُدَوَّنُ فتكونُ كُتُباً مأثُورةً عنهم، كمزاميرِ داود، وأمثال سليمان عليهما السلام.

أمّا قول الله عزّ وجل في هذا النّصّ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ بعْدَ بيان تفضيلِ بعض النبيّين علَىٰ بَعْضٍ، فَهُو يَدُلُّ علىٰ أنّ هٰذا الزّبور ممَّا فضّل الله به داوُدَ على بعض النبيين.

الزَّبُور: هو في اللُّغة الكِتَابُ المزْبُور، أي: المكتوب باتقان، يقال لُغةً: زَبر الكِتَابَ إِذَا كتَبه، أوْ إذا أتقن كتابته، وجمع «زبور» يأتي على «زُبُرِ» أي: «كتب».

وقد جاء لفظ زبور في النصّ هنا منكراً: ﴿زَبُورًا﴾ ولم يأتِ معرَّفاً بأداة التعريف، كما عبَّر الله عزَّ وجلّ بشَأْن التّوراة والإنجيل والقرآن، للإشعار بأنّ كتاب داوُد لم يرْقَ إلى المنزلة الرفيعة العظيمة الّتي بلَغتْها هذه

الكتُبَ الثلاثة، مع وجود التفاضل بين هذه الكتب الثلاثة الرّبّانية، إذ القرآنُ أجلُّها وأعظمها منزلة، وأكْثَرُها جمعاً لما فيه هِدَايَةُ الناس وسعادتُهم في الدنيا والآخرة.

فأضاف هذا النصّ على ما نزل قبله بشأن داود عليه السلام بيان أن الله عزّ وجلّ قد آتاه زبوراً، أي: كتاباً فيه إتقان.

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بعد بيان أنّ داود من ذُرّيَة إبراهيم الذين هداهم الله وآتاهم النبوة والرسالة، وأنّهُ معهم من المحسنين، أهل مرتبة الإحسان:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ . . . ﴿٨٩﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ بشأن داود عليه السّلام ما يلي:

(١) أنّ داود من ذُرّيَة إبراهيم عليهما السلام.

(٢) أنّه من الَّذين آتاهم الله الكِتَابَ والْحُكْمَ والنُّبوة.

الحُكْمُ: أي: القدرة على فَهْمِ القضايا، ومنها قضايا المتخاصمين، وإصدار الحكم الحقّ بها، أو المُمْكِن الأقرب للحقّ والعدل. **والحكْمُ**: فقه الأمور، والقضاء بالْعَدْل، وحُسْنُ الإدارة.

(٣) أنّه من المرسلين، لِذكْرِه ضِمْن الرُّسُل من ذُرّيَّةِ إبراهيم عليهم السلام.

(٤) أنّه من المحسنين، أي من الّذين ارْتَقَوْا إلى مرتبة «الإحسان» ودونها مَرْتبة «البرّ» ودونَهُمَا مرتبة «التقوى».

النّصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

جاء في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بيان أنّ اللّهَ عزّ وجلَّ سَخَّرَ الجبالَ مع داود يُسَبِّحنَ بالْعَشِيّ والإشراق، وسَخَّرَ الطَّيْرَ محشورةً كلٌّ له أوّاب.

أمّا النصّ الذي من سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) ففيه بيان أنَّ الله عزّ وجلّ لقد آتىٰ دَاوُد منه فضْلاً، أي: عطاءً زائداً خصَّهُ به، وفكرةُ الفضل هذهِ لم يَسْبِق لها ذكْرٌ فيما نزل قبل سورة (سبأ) بالنسبة إلى داود عليه السلام، واستدعَىٰ ذكْرُها بيان بعض مفردات هذا الفضل، فأبان الله عزّ وجلّ أنَّ تسبيح الجبال، وحَشْرَ الطير وتسبيحَها مَعَهُ من هذا الفضل الذي منحه الله إياه، وأضاف مع ذلك قضيّتَيْنِ:

القضية الأولى: أنّ الله عزّ وجَلَّ أمَرَ الجبال بأن تُسَبّح معه، وبيانُ هذه القضيّة بيانٌ لبَعْضِ عناصر العقيدة الإيمانيَّة، إِذْ كلُّ ظاهرةٍ جَبْريَّة، في الوجود إنّما توجَدُ بأمْرِ التكوين الرَّبّاني.

القضية الثانية: أنّ تسبيح الجبال معه قد كان صدا تَسْبيح داود وترنيماته.

دلَّ على هاتين القَضيّتَيْن قول الله في هذا النصّ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾: **أَوّبي**: أي: رَجِّعي: يقالُ لُغَةً: أوّبَ إذا رَجَّعَ الصَّوْت. وهذا الأَمْرُ للجبال هو من قبيل الأمْرِ التكويني الجبريّ.

وجُمْلَةُ ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ بدلُ بعضٍ من قوله تعالى: ﴿فَضْلًا﴾ فهي في محلّ نصْب، والغرض بيان بعض مفردات هذا الفضل الذي آتاه الله إياه.

والمعنى: ولَقَدْ آتينا داوُد منّا فضلاً تَرْجِيعَ الجبال بأمْرِنا صدا صوتِه الشجيّ النديّ في تسابيحه، قَائِلين: يا جبالُ أَوِّبي معه.

وأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ، تَرْجِيعَ الطيْرِ معه التسبيح، فقال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ فهو معطوفٌ على الْبَدَلِ السّابق، فالاقتصار على ذكر الطَّيْر معطوفةً بالنَّصْبِ على مَحلّ جُمْلَةِ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ يَدُلُّنا على أنّ الأمْرَين متماثلان، أي: آتيناه فَضْلَ تَرْجيع الجبال معه بِأَمْرِنا إذْ آتيناهُ صَوْتاً عالياً نديّاً، وفَضْلَ تَرْجيع الطَّيرِ التي تُحْشَرُ لَهُ، إذْ آتَيْنَاهُ صَوتاً حَسَناً تَطْرَبُ منه بَعْضُ أصناف الطيور، فتُرَجّعُ معه بعض ترنيماته.

إذا دقَّقْنَا في هٰذه المعاني وجدناها مضافة إلى ما سبَقَ بيانه في مراحل التنزيل عن داود عليه السلام، ووجدناها غير مكرّرة، فالموضوع واحد، لكنّ عناصر معانيه مجزّأةٌ موزّعة متكاملة فيما بينها.

وأضاف هذا النصّ بيان أنّ الله عزّ وجلّ قد ألان لداود الحديد، وأمَرَه أنْ يجعَلَ من الحَدِيد دُروعاً سابغات، فقال تعالى فيه)

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ... ﴿١١﴾﴾.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾: أي: وجعَلْنَا الْحَدِيدَ لَيّناً في يَدَيْهِ، قالوا: فكان كالعجين أو كالشَمْع في يَدَيْه وقت عَمَلِهِ به، ثُمّ يَعُودُ الحديدُ إلى صلابته.

وبيان هذه القضية من القضايا المضافة إلى ما سبَق بيانه في مراحل التنزيل.

ونتساءل: هل المرادُ بِإلاَنةِ الحديد له تغيير خصائص الحديدِ الصُّلْبة له حال عَمَله فيه، أمْ إعْطَاؤه القوّة الجسَديَّة العظيمة الّتي يلين بها الحديد، أمْ إعطاؤُهُ طَاقَةً إشعاعيَّةً تَنْطَلِقُ من جسَدِه لَها خُصوصِيَّةُ إلاَنةِ الحديد؟؟.

أقول: لا نَمْلِكُ دليلاً يُحدِّدُ واحداً منها ولعلَّ آخِرَهَا مع قوّته الجسَدِيَّةِ المعرُوفة هي المرادة، فهي الأقرب لما نَعْرِفُ من تجاربِ العلوم، وخصائص الطّاقاتِ الإشعاعيَّة، والله أعلم.

وإذْ ألاَنَ اللَّهُ عزّ وجلّ لداود عليه السّلاَمُ الحديدَ، أمَرَه بأن يستخدم ذلك في صناعة الدّروع الواقية من ضرَبَات السُّيوف والرّماح والنبال وغيرِها في الحرب.

ونلاحظ في أمر الله عزّ وجلّ داود بصناعة الدّروع أنَّه جلّ جلالُه آثر التوجيه للوقاية من شرور القتال، إذْ لم يأمُرْ بصناعة السُّيوف والرّماح والنبال ونحوها، والسَّبَبُ في هذا على ما يظهر أنّ النّاس يتَفنَّنُون في صناعة أدوات القتال برغبة التسلّط، والعُلُوّ في الأرض، والله عزّ وجل جعَلَ الدَّار الآخرة المملوءَةَ بأنواع السّعادات للّذين لا يُريدون علُوّاً في الأرض ولا فساداً.

وأمْرُ الله الذين آمَنوا بأنْ يُعِدُّوا ما يَسْتَطِيعُونَ من قوة، إنّما هو للحِمَايَةِ والإِرْهَاب المعنوي، لا ليكُونَ وسيلةً للعلُوّ في الأرض، ولمُمَارَسَةِ الفَسادِ والإفساد.

والدُّرُوعُ الّتي علَّم اللَّهُ دَاودَ عليه السّلاَمُ ابتكارَهاَ هي دُرُوع الزَّرَدِ التي تُلْبَسُ كالثّياب، وقَدْ كانت الدروع قبْلَه صفائح من حديد.

- ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾: أي: أن أعْـمَـلْ يا داود دُروعاً سابـغـات، استغني بالصفة عن الموصوف، وشاعت كلمة «سابغات» للدلالة على الدروع.

سَابِغات: أي: تامّات كامِلاَت ساترات لِمَقاتِل الْمُقَاتل.

السُّبُوغ في اللّغة: التمام والكمال، يقال: شيءٌ سابغٌ، أي: كاملٌ وافٍ. سَبَغَ يسْبُغ سُبُوغاً، أي: طال إلى الأرض واتّسع. وأسْبَغَهُ يُسْبِغُهُ، أي: جعلَهُ طويلاً واسعاً.

وإسْبَاغُ الوضوء، إتمامُهُ وإكمالُه وإعطاؤه حقَّهُ، مع زيادة تحقّقُ فِعْلَ المطلوب.

● ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾: أي: وأحْكِمْ مَقَادِير حَلَقِ الدُّروع، ومقاديرَ الثقوب عند مواطن اتّصالها ببعضها، ومقاديرَ مسامير الرَّبط بيْنَها، حتَّىٰ تُؤَدِّي الغرض منها أداءً حسناً، وأحْكِمْ تفصيلَها على مقادير أجساد لاَبِسِيهَا، حتّىٰ تكون وافية الوقاية، تامّة الصنعة

السَّرْد: إتباع الشيء بشيءٍ نظيره، حتّىٰ يكون الكلُّ مؤلّفاً من وحدات متّسِقَاتٍ متَتَابِعَاتٍ متماثلات.

ويطلق لفظ «السَّرْدِ» على الدّروع، وعلى سائر الحلق، ويُطْلَقُ علَىٰ الثَّقْب. يقال لغة: سَرَدَ الشيءَ وسَرَّدَهُ وأَسْرَده، أي: ثقبه.

والسِّرَادُ والْمِسْرَدُ: المِثْقَبُ. **والْمَسْرُودَةُ**: الدّرْع المثقوبة ويقال لصانع ذلك: سَرَّاد، وزرّاد، بإبدال السين زاياً.

و «أنْ» في: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ تفسيريّة، والمفسَّرُ مطوي يكشفُه التدبّر، والتقدير: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ مُوصين إيّاهُ ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ فأبان له الغاية من إلانَة الحديد له.

● ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾:

كان الكلامُ مُوَجّهاً لداود، وجاء في هذه العبارة قول الله تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ موجّهاً لجماعَةٍ، ويُفْهم من هذا أنَّ الأعْمَال الصّنَاعيَّة تحتاجُ إلى رئيسٍ مُعَلِّم مُحْكِمٍ للصنْعَةِ ومُشْرِفٍ عليها، وتحتاج إلى مُعَاوِنينَ يُسَاعِدُونه في العمل ويتدَرَّبُون عنْدَهُ وبإشرافه، لتوفير الإنتاج الأكثر.

وفي هذه العبارة توجيهٌ للّذين يَعْمَلُونَ معه للتعاون فيما بينهم تعاوناً تَكَامُلِيّاً وتوجيهٌ لإتقان العمل، فالعمل الصالح في الصناعات هو العمل المتقن.

وفي هٰذا التوجيه إشارةٌ إلَىٰ أنَّهُ ينْبَغي لمَنْ يَبْتَكِرُ أَوْ يُلْهَمُ أو يُعَلَّمُ

صَنْعَةً من الصناعات النافعات، أن يَجْعَل تَحْتَ يَدَيه من يَتَعلَّمُها، لتكون ميراثاً حضاريّاً بشريّاً، تتقدَّمُ به وترتقي الحضَارَةُ الإنسانيَّةُ ووسائلها.

أمّا من يحتكر سِرَّ صناعَتِه لنَفْسِه، فلا يجعل تحت يَدَيْه وإشرافه من يتعلّمها، فإنَّ صناعتَهُ الراقية ومهارتَهُ تموتُ بمَوْتِه، ثُمَّ يَحتَاجُ المجتمع البشريّ أن تمرّ أزمانٌ طويلة حتّىٰ يظهر في النّاس نظيرُهُ، فيتعلّم الناس منه، إذا أذِنَ لَهُمْ بأنْ يَقْتَبِسُوا منه ما وهَبَهُ الله.

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾: هذه العبارة تَدُلُّ لزوماً على وعْدِ الله للذين يَعْمَلُون صالحاً بالثواب على العمل الصالح، وبالعِقاب على العمل السّيّئ، لأنَّ من صفات الله جلّ جلاله، أنّه يتفضّل على عباده بالثواب إذا أحْسَنُوا وأنَّه يجازي بالعدل المسيئين من عباده، إذا لَمْ تَقْتَضِ حكْمَتُهُ الْعَفْوَ عنهم.

واقتبس الناس من داود عليه السّلام صناعة دُرُوع الزّرد، وانتشرَت من بعده.

وتدلُّنَا نُصُوصٌ قرآنيَّةٌ متعدّدة على أنّ أصُول كثير من الصناعات البشريّة قد كانت على أيدي بعض أنبياء الله ورُسله، بأمْرٍ من الله وتَعْلِيم، واقتبَسَها الناس عنهم فيما بعد، ثمّ طَوَّرُوا فيها وأضافوا، ضمن سلّم الارتقاء الحضاريّ التراكميّ.

- فصناعةُ السُّفُنِ البحريَّة قد بدأتْ بتَعْلِيم من اللَّهِ عزّ وجلّ لنوح عليه السلام، وهذا فتح عظيم في مهنة النّجارة، فقد كان نوحٌ نجّاراً.
- ويوسفُ عليه السّلامُ قد كان المعَلِّمَ الأوّل لوزارات التموين في دُول شعوب الأرض.
- ووَرد أنّ إدْريس عليه السّلام أوّلُ من خطَّ بالقلم، وأوّلُ منْ خاط ونسَجَ.

وهكذا ظهر لنا أن عناصر هذا النصّ من سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) عناصِرُ مضافة كلُّها إلى ما سبَقَ إنزالُه بشأن داود عليه السلام.

فمن حكمة الله في تعدُّدِ النّصوصِ تجزِئَةُ الأفكار، وتقديمُ كلِّ فكرة منها في المناسبة الداعية إلى ذكرها، مع تكاملها فيما بينها.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

يشتمل هذا النصّ على ثلاث قضايا:

القضية الأولى: حُكْمُ داوُد عليه السَّلامُ في حادِثة تَعدِّ مِن غنم بعض القوم على حرث آخرين فأفْسَدَتْه كلَّه، فَعلِمَ ابنُه سليمان عليه السلام بحُكم أبيه، فرأىٰ رأياً آخر، فأقرّهُ أبوه عليه، ورجَع عن حكمه.

القضية الثانية: بيان تسخير الله عزّ وجلّ الجبالَ والطَّيْرَ مع داود عليه السلام، بقضاءٍ سابقٍ، وتنفيذٍ لاحقٍ.

القضيّة الثالثة: امتنانُ الله على الناسِ بتَعْليمه داود صِناعَةَ الدّروع الواقيات في الحرب، من السيوف والرّماح والسّهام ونحوها، وهذا العلْم قدْ أخَذَهُ النّاسُ عنه، فانتفَعُوا به، فوجب عليهم أن يشْكُروا الله عليه.

● أمّا القضيّة الأولى، فقصَّتُها جمعاً ممّا روى الطبريُّ بأسانيده عن ابن مسعودٍ وابْن عباس، في روايات متعدّدات، أنَّ أصْحابَ غَنم تركُوا غَنَمَهُمْ ليلاً دُون حِراسَةٍ ولا رعاية، فدخلت هذه الغنم في أرضٍ محروثةٍ

مبذُورة قد نَبتَ زَرْعُها، فأكلَتْ ما أكلَتْ من الزرع وأفْسَدَتْ سائره.

فتَرافَعَ الخصْمَانِ بقضيَّتِهما إلى داود عليه السّلام، وتحقَّق من وقوع الحادثة، ويظهرُ أنَّهُ رأىٰ أنّ قيمة الغنم تُسَاوِي قيمة ما أكَلَتْ وأفْسَدَتْ من الزّرْع، فحَكَمَ بِدَفْعِ الْغَنَم كلّها لأصحاب الزّرع تعويضاً لهم، بسبَبِ أنّ أصحاب الغنم تركوا غنَمَهُم ليلاً دون حماية ولا رعاية، حتّىٰ اعتَدَتْ على زَرْع أصحاب الحرث، فأكلَتْ وأفْسَدَت.

وعَلِمَ سُلَيْمانُ عليه السّلام بحُكْم أَبيه وكان فتىً يافعاً مُلْهماً ذا فَهْمٍ وَحِكْمة، فقال لأبيه: أرىٰ أن يكون القضاء غَيْر الّذي قَضَيْتَ، فقال داوُد: كيف؟.

قال سليمان: إنّ الحرث لا يخفىٰ على صاحبه ما يخرج منه في كلّ عام، فله من صاحب الغنم أن يبيع من أولادها وأصوافها وأشعارها، حتى يستَوْفي ثمن الحرث، فإنّ الغنم لها نَسْلٌ في كلّ عام.

وجاء في روايةٍ أخرى أنّ سليمان قال: تُدْفَعُ الغنم لأهل الزّرع، يستثمرون ألبانها وأصوافها وأولادها، وتدْفع الأرض لأهل الغنم يبذرون لِأَهْلِ الحرث مثْلَ حَرْثهم، فإذا بلَغَ الحرث الّذي كان عليه أخذ أصحاب الحرث حرثهم، وردّوا الغنم إلى أصحابها.

فقال داود لابنه سليمان: قد أصبتَ، القضاءُ كما قضيْت، فألغى داود قضاءه الأوّل، وحكم بما قضى به ابنُهُ سليمان، ولم يجد في نفسه غضاضةً أنْ يَرْجعَ إلى ما هو الأقرب إلى كمال العدل، على الرغم من حداثة سنّ ولده سليمان.

- ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ . . .﴾:

أي: ونذكُرُ قصّةَ داود وسليمان إذْ يَحْكُمَان في قضيَّة الحرث..

الحرث: هو العمل في الأرض لاستنبات زرعها، أو غرس شجرها، ويُطْلَقُ أيضاً على الزّرْع النابت نَفْسِه كما ذكر الزّجاج.

قال الأزهري: الحرْثُ قذفُكَ الحبَّ في الأرْضِ لازدراعٍ، والحرْثُ الزّرْع.

● ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ ...﴾:

أي: يحكمان في الحرث وقْتَ أن نفشَتْ فيه غنَمُ الْقَوْمِ (ال) في ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ للدلالة على الجنس فقط.

﴿نَفَشَتْ﴾: أي: رعَتْ ليلاً دون راع. يقال لغة: نَفَشَتِ الإبل أو الغنم أو نحوهما تَنْفُشُ وتَنْفِشُ نَفْشاً ونُفُوشاً، أي انتشرت ليْلاً فرعَتْ بغير راعٍ. والواحد منها «نافش».

ويقال: أَنْفَشَ الراعي ماشيته، أي: أرسلَها ترعىٰ باللّيل ونام عنها.

فإذا فعلت الماشية مثل ذلك نهاراً، قال العرب، هَمَلَتْ، ولا يقولُون: نَفَشَت. يقال لغة: هَمَلتِ الماشية تَهْمُلُ وَتَهمِلُ هَمْلاً، إذا سَرَحَتْ بنفسها نهاراً دون راع. الواحد منها «هَامِل». ويقال: أَهْمَلَها صاحبُها إذا تركها تَسْرَحُ بنفسها دون أن يرعاها.

● ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾:

في هذه الجملة بيان لإحْدَىٰ مفردات قضيَّةٍ كُلّيَّةٍ عامَّةٍ، من القضايا الّتي تتعلّقُ بصفات الله عزّ وجلّ، وهي شُهُودُ اللّهِ عزّ وجَلَّ لِكُلِّ شيءٍ، ولكل حَدَث يَحْدُث في الوجود كلّه.

الشاهد: الحاضِرُ العالم بالمشهود.

وهذه القضيّةُ الكليّة العامّة قد جاء بيانُها في عدّة نُصُوصٍ قرآنية، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (البروج/ ٨٥ مصحف/ ٢٧ نزول):

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

٢) وقول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ۝٣٣﴾.

وشهودُ الله هو حضورُه مُحِيطاً بعِلْمه ومراقبته على أكْمَلِ وجْهٍ وأتَمِّهِ.

● ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾: أي: فَفَهَّمْنَا القضيَّة والْحُكْمَ الأَقْرَبَ لكمال العدل فيها سُلَيْمان، وهذا التَّفْهِيمُ من الله لسليمان قَدْ كان على سبيل الإلْهام الرّبّانيّ، بمعونَةٍ غَيْرِ مُدْرَكَةٍ بالحسّ، لكِنْ يظْهرَ أثَرُهَا بحصُول الْفَهْم، والإلْهامُ شيءٌ خفيٌّ غير الوحي.

فقدَّم سليمانُ رأيَهُ في ذلك لأبيه داود عليهما السلام، فقبله، وقضى به.

● ﴿... وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ...﴾ أي: وكُلاًّ من داوُد وسليمان آتيناهُ حُكْماً وعِلْماً.

الْحُكْمُ: فقه الأمور، والقضاء بالْعَدْل، وحُسْنُ الإدارة.

أمّا الْعِلْم، فَهُو سُلَّم لا نهاية له من المعرفة، قابِلٌ لأن يتنامَىٰ دوَاماً.

وجاء التنكير في كَلِمَتَيْ: ﴿حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ للإشعار بأنّ الله قد آتاهما مقداراً ما من الْحُكْم والْعِلْم، كانا فيهما متفوّقَيْنِ على نظرائهما، أمّا كمال الْحُكْم والْعِلْم فهو لله عزّ وجلّ وحْدَه، ومعلومٌ أنّ البشر كلَّهُمْ لم يُؤْتَوْا من الْعِلْم إلاّ قليلاً، وكمالُ الْحُكْمُ لا بدّ أن يعتَمد على شمولِ الْعِلْمْ.

وأَمَّا القضيّة الثانية فقد جاء بيانها في قول الله تعالى:

● ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ۝٧٩﴾:

التَّسْخِير: التَّذْلِيلُ لعَمَلٍ ما، أَوْ أَمْرٍ ما، وجَعْلُ الشيء، مطاوعاً لما يُرادُ منه، ضِمْن قانون التسخير الرَّبَّانيّ له.

وهذه الْمُطَاوَعَةُ تكونُ على وجوه:

(١) فإمَّا أنْ تكونَ بالطَّبْع والفِطْرَةِ ضِمْنَ قانون التكوين الجبريّ، كالرّياح، والمياه، والنار، والأرْضِ، وكلّ ما فيها، فهي مُسَخَّراتٌ للإنسان ضمن قوانين تسخيرها، وفق مقتضىٰ طبعها الجبريّ وما جبِلَتْ عليه.

وكالشمس والقمر في السَّمَاء، وكالسّحَاب بين السّماء والأرض، فهي مُسَخَّرَاتٌ لمنافع الناس في الأرض ضمْنَ أنظمتها وقوانِينِها الجبرية، وفق مقتضىٰ طَبْعها وما جُبلَتْ عليه.

ومن هذا تسْخيرُ الجبالِ والطير لداود عليه السلام.

(٢) وَإِمَّا أن تكون المطاوعة بالْقُوَّةِ والإلزام والْقهر، مع التذلِيل بالشُّعُور بالضعف، كَتَسْخِير الْعَجْمَاوَاتِ من البهائم بالتذليل والمطَاوعة الإلزامية للإنسان.

(٣) وإمَّا أن تكون المطاوَعَةُ بالاختيار الحرّ، لمَا في المطاوعَةِ من مصلحةٍ أَوْ فائدَةٍ للمطَاوِعِ، كاتّخاذ النّاس بعضهم لبَعْضٍ سُخْرِيّاً.

فالناسُ بعضُهُمْ لبَعْضٍ مُسَخَّرُونَ بالاختيار الحرّ، وكلُّ إنْسانٍ مُسْتَعِدٌّ لأنْ يُسَخِّرَ نفسه لغيره فيما له به مصلحة، أو فائدة عاجلَةٌ في الدنيا، أو آجلَةٌ إلى يوم الدين، أو بدافع حبُّ الخير، والقيام بفضيلة المعونة، والسّعادة بلَذَّةِ ممارَسة الفضيلة.

وفكرة تسخير الجبال والطَّيْرِ يُسَبّحْنَ مع داود عليه السلام، يظهر في بادي الرأي أنها مُكرَّرَة، إذْ سبَقَ فيما نزل من قرآن قبل سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٢ نزول) بيانها، فقد جاءت مبيَّنَةً في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/

٣٨ نزول). لكنّ قول الله عزّ وجل في سورة (الأنبياء): ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ قد دَلَّنا على أَنَّ ما جاء فيها قد جاء مقترناً بفكرةٍ جديدة مضافة، وهي أنَّ المراد بقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ﴾ وأرَدْنا وقَدَّرْنا وقَضَيْنَا، وهذهِ أمُورٌ سابقةٌ لتنفيذ الفعل، فجاء قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ دالاً على أنّ ما كان قد قضاه الله قدْ تحقق تنفيذُه بالأمْر التكويني، فتَّمَ تَحقُّقُ هذا التسخير في الواقع.

وفي هذا بيانُ أنّ ما يجري من أحداثٍ في الكون مسْبُوقٌ بقَدَرٍ وقضاء، ثمّ يكون تنفيذُه وفِعْلُه بعْدَ ذلك بالأمر التكويني.

وأمّا القضية الثالثة فقد جاء بيانها في قول الله تعالى:

- ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾؟.

اللَّبُوس: اسْمٌ يقع على كلّ ما يُلْبَسُ سَاتِراً لكلّ الجسم أو بعضه، وجمعُهُ «لُبُس».

ويُطْلَقُ اللَّبُوسُ على الدِّرْع وهو المرادُ هنا.

﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾: أي: لِتَقِيَكُمْ من بأسِكُمْ، ولتَحْمِي أجْسَادكُمْ من ضربات سُيوف ورماح وسِهَام بعضكم لعبض في الحرب، وابتغاء سلامَتِكُمْ.

البأسُ: الحرْبُ، والشدّة فيه.

وقد يَبْدُو أنّ فكرةَ أمْرِ الله عزّ وجلّ لداود بصناعة دروع الزَّرَد، فكرة مُكَرَّرَة قد سَبقَ بيانُها في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول): لكنَّنا إذا دَقَّقْنا وأمْعَنَّا النظر في دلالاتِ النصّ هنا في سورة (الأنبياء) وجَدْنا أفكاراً مضافةً ذاتَ شأن.

الفكرة الأولى: أنّ صُنْعَ داود عليه السّلام للدُّروع قد كان بتَعْلِيم من الله له.

الفكرة الثانية: أنّ الله عزّ وجلّ يمتَنُّ على عباده بتعليمهم عن طريق رسُولٍ من رُسُله، وسيلةً من وسائل إحصانهم من شرور حَرْب بعضهم لبعض، ولم يذكر الله أنّه علَّم عبَادَه عن طريق الوحي صناعةَ أدوات القتال.

الفكرة الثالثة: دعوة الله عباده أن يشكُرُوه على نعْمةِ هدايتهم إلى وسائل سلامتهم، فقال تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾؟.

استفهامٌ يراد به الترغيب في الشكر والحثُّ عليه.

وهكذا ظهر لنا أن النصَّ مع إعَادَة أصْل الموضوع فيه قد اقْتَرَنَ بأفكار مُضَافَةٍ إلىٰ مَا سبَقَ تنزيله.

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) ضِمْن عَرْضِ قِصَّة حَرْبِ بني إسرائيل بقيادة «طالوت» للوثنيّين في الأرض المقدَّسَة بقيادة «جالوت».

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾.

جاء في هذا النصّ لقطةٌ من قِصَّةٍ من قصص بني إسرائيل، تتعلَّقُ بطَلَب بني إسرائيل من نبيٍّ لهم، جاء في كتُبِهم أنّه «صَمُويل» أن يحكُمَهُمْ مَلِكٌ، ليقاتلوا بقيادته لاسْترجاع ما كان تَحْت أيديهم، وأرادوا أنْ يتخلَّصُوا

من سِياسة أَنْبيَائهم لهم، فسألَ «صَمُويل» رَبَّهُ من أَجْلِهم أنْ يختار لَهُم مَلِكاً، فاسْتَجَاب الله دُعاءه، فاختار لهم «طالُوت» من سِبْط «بنْيَامِين» أقلِّ أسْباط بني إسرائيل عدَداً ومَالاً ومكانةً اجتماعيّة بينهم، فدَعَاهُم «طَالُوت» لقتال «جَالُوت» وجُنُودِه، وامْتَحَنَهُمْ، واصْطَفَىٰ منْهم قِلّةً صادقةً مؤمِنةً، ودخل في جنوده فتىً شابٌّ من بني إسرائيل من سِبْط «يَهُوذا» اسْمُه «دَاوُد» فقضى الله أن يكون مقْتَلُ «جَالُوت» الجبار بيد «داود» بحَجرٍ رَمَاهُ علَيْه من مقْلاَعِهِ، بعد أن أعلن «طالوت» أنّ جائزةَ من يقْتُلُ «جالوت» أن يُزَوّجَهُ ابنَتَهُ، وأن يكون هو مَلِكَ بني إسرائيل من بَعْدِه.

وحاول «طالُوت» بعْدَ ذلك أن يتخلَّصَ من «دَاوُد» ليَجْعَل ميراث المُلْكِ في أولاده، لكِنَّ قضاء الله وتصاريف تدبيره عزّ وجلّ لم تُسَاعِدْ «طالوت» على تحقيق مراده.

وأَتَمَّ الله بألطافه ما قضى، فكان «داود» بعْد أحداثٍ متعدّدة ذكرها الإسرائيليون في كُتُبِهم هو المْلِك على بني إسرائيل. بعْدَ موت «طالُوت».

وقد جمع الله عزّ وجلّ لداود الْمُلْكَ والنبوّة والرّسالة، فكان نَبيّاً ورسُولاً ومَلِكاً على بني إسرائيل، وقد عَرَفْنا أنّ هوىٰ بني إسرائيل أنْ تَسُوسَهُمْ مُلُوكٌ لا أنبياء، لأنّهم مع الملوك يتحرَّرُون من قيود الدّين بحَسَب أهوائهم، وتُسَايِرهُم ملوكُهُمْ على ذلك، أمّا مع الأنبياء، فإنَّ أنبياءَهُمْ يَقِفُون عنْد حُدُود الله، ولا يُسَايِرُونَهُمْ على فِسْقِهم وشرِّهم وإفْسادهم في الأرض.

وقد أضَافَ هذا النصّ الذي جاء في سورة (البقرة) بشأن داود عليه السّلام إلى ما سبَق أن نزل بشأنه في نجوم التنزيل عدّة بيانات:

البيان الأول: أنّ داود عليه السلام قتل «جالوت» في حرب بني إسرائيل للوثنيين، بقيادة «طالوت»، وهذا بيان مُضاف لم يسْبِقْ ذِكْرُه فيما نزل قبل هذا النصّ بشأن داود.

البيان الثاني: أنّ الله عزّ وجلّ قد آتاهُ الْمُلْكَ، وهذا بيان مضاف لم يَسْبِقْ ذكره فيما نزل قبل هذا النصّ بشأن داود.

وفيه دلالة على أنَّ وُصُوله إلى الملك قد كان عطاءً من الله عزّ وجلّ محاطاً بعِنَايةٍ منه.

أمّا الذي جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) فقد تضَمَّن بيان تقويةِ مُلْكِه في قوله تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾.

وأمّا قوله تعالى في سورة (ص) أيضاً: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فهو يَدُلُّ على معنىً غير الْمُلْكِ، لأنَّ اسْتِخْلاَفَهُ هٰذا قَدْ كان وَهُو مَلِكٌ قَائِمٌ، فَهوُ عَطاءٌ زائِدٌ فيه معانٍ مُضَافةٍ إلى الْمُلْك، من مظاهرها أنْ يَحْكُمَ بَيْنَ الناس بالْعَدْل، وأَنْ لا يَتَّبِعَ الْهَوَىٰ.

البيان الثالث: أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ آتاه الْحِكْمَةَ، ويَبْدُو أنَّ هٰذا الْعَطَاءَ قد سبَق بيانه في سورة (ص) فَيَسْبِقُ إلى الذِّهْن أنَّه بيانٌ مُكرَّر، لكنْ لنا أن نقول انسجاماً مع أُسْلوب القرآن: إنْ الحِكْمَةَ من الفضائل القابلة للزيادة، والقابلة للتنوّع بِحَسَب المجالات والموضوعات، فتكريرُ بيانِ إيتائه الحكمة يدُلُّ علىٰ أنّ الواقع قد جرىٰ فيه نظير ذلك، على سبيل الزيادات والإضافات في النِّسْبَة، وفي المجالات والموضوعات المختلفات.

وبهذا الفهم يظهَرُ لنا أنّه لا تكرير.

فعنْدَ بَدْءِ الملْكِ آتاه الله عزّ وجلّ قَدْراً أو نوعاً من الحكمة، وبعد أن تَوطّدَ مُلْكُهُ وعَظُمَ سلطانه، آتاه الله نوعاً آخر وقدراً مُضافاً جديداً من الحكمة.

البيان الرابع: أنّ الله عزّ وجلّ علّمَهُ ممّا يشاء، وقد سبَق في سورة (النمل) وفي سورة (الأنبياء) أنّ الله آتاه علماً.

وأقول هنا نظير الذي سبق بيَانُه بشأن الحكمة، فالعلم ذو نِسَبٍ متفاضلة، تتنامَىٰ قَدْراً، وذو مجالات مُتَنوّعاتٍ كثيرات.

فتكرير بيانِ إيتائه العلم يدُلُّ على زيادات العطاء منه في المجالات. والأنواع، والمقادِير. وهذا يَدُلُّ على أنّ داود عليه السلام قد كان يزداد معرفة وعِلْماً معَ مَراحِل عُمْره، ولم تتوقف لديْهِ المعرفة عند المقدار الذي آتاه الله إيَّاهُ في أَوَّل نشأته، أو في أوّل مُلْكِه.

وبهذا نفهم أنه لا تكرار في النصوص الواردة بشأنه.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجل في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) لرَسُوله محمد ﷺ:

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾.

فأضاف هذا النصّ عن داود عليه السلام أنّه نبيٌّ ورسولٌ بصريح العبارة، وبِجَمْعِه مع عدد من الأنبياء والمرسلين.

وأضافَ بَيان أنّ الله قد أوحى إليه، كما أوحى إلى نوح وإبراهيم ومن ذكر بعدهما فيه.

وأضاف التصريح بأنّ الله عزّ وجل قد آتاه زُبوراً، أي: كتاباً عن

طريق الوحي إليه، فهو كتاب تلقّاه بالوحي عن ربّه، وليس مجرّد عطاء كما أعطاه الله المُلْكَ.

أمّا النصّ الذي جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) فليس فيه التصريح بأنّ الله آتاه زبوراً بالوحي، فاقتضى البيان مجيءَ نصٍّ فيه هذا التصريح.

النص التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ عن داود عليه السلام بيان أنَّ الّذين كفرُوا من بني إسرائيل قد لُعِنُوا على لِسَانِه، ولُعِنُوا أيضاً على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام.

أي: جاء فيما أوْحَىٰ الله به إلَيْهِما هذا اللَّعْن، وكانا هُما مُبَلِّغَيْن بألْسِنَتِهما، ولو كان اللّعْنُ صادراً عنهما دون وحْيٍ لكان المناسب أن يكون النصّ كما يلي: لَعَنَ داود وعِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ الذين كفروا.

وبهذا تَمَّ استكمال ما جاء في القرآن كلّه بشأن داود عليه السلام بتدَبُّر كشَفَ التكامل بين النصوص، وأنّه لا تكرار في عناصرها وبياناتها، إلاّ ما يستدعيه الدخول إلى الموضوع، أو الرَّبْطُ بين سلاسل الأفكار.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه

❁ ❁ ❁

(١٢)

الملحق الرابع

قصّةُ خلق آدم في القرآن المجيد وَمَا رَافقَ خلْقَهُ مِنْ أحداث

جاء في القرآن المجيد ستة نُصُوصٍ مطوّلة حول قصّة خَلْق آدم عليه السلام، وما رافق خلقه من أحداث، منها عَرْضُ الله عزّ وجلّ قضاءه بخلقه على ملائكة الملأ الأعلى، وكَانَ معهم إبليسُ الّذي هو من الجنّ لا من جنْس الملائكة مُنْدسّاً فيهم نفاقاً بتمكين الله له، ومُتَسَلِّلاً سَمَاءً فَسَمَاءً بما كان يتظاهَرُ به من عبادات مع أصناف الملائكة. ومنها سُؤالُ ملائكة الملأ الأعلىٰ ربّهم عن الحِكْمَةِ من خلْق هذا المخلوق الجديد، ثم أَمْرُ الله للملائكة بالسّجود لآدم، وإباءُ إبليس وإصرارُه على رَفْضِ السجود، ومحاكمتُه وطردُه ولَعْنُه، وطَلَبُ إبليس من ربّه أن يُمْهله حيّاً فلا يُميته إلى يوم البعث، فأنْظَرَهُ الله إلى يوم إنهاء ظروف الحياة الدنيا، لا إلى يوم البعث، فأخذَ إبْليسُ العَهْدَ الموثّقَ على نفسه بالْقَسَم، أنْ يَغْوِي آدم وزوجه وأَنْسالهما إلاّ قليلاً منهم، فمكَّنَهُ الله من الإغواء، دون أن يكون له سُلْطانٌ يُلْغِي به إراداتهم الحرّة، وأوعده هو ومن اتَّبعَه بأن يكونوا بكُفْرِهم خالدين في عَذَاب الجحيم يوم الدّين بعْدَ البعث.

والتدبُّر المتأنّي بنظرة كُلّيّةٍ جامعةٍ، يَكْشفُ أنّ هذه النصوص السّتة المطولة، مع سائر النصوص القصيرة الموزعة في سور القرآن المَجيدِ، هي متكاملةٌ فيما بينها دون تكرير باستثناء ما يقتضيه الرّبط أو التمهيد، أو بَيانُ أنّ الواقع كان مُكَرّراً وتوجَدُ مطْويّاتٌ إيجازاً، ويقتضيها النّصُّ بالْلّزُوم الْعَقْلي، ويَكْشِفُها التأمُّل التدبُرِيّ.

وفي هذا المَلْحَق أعْرِضُ ما انْتهىٰ إليه بتوفيق الله وفتحه تَدَبُّري لهذه النُّصوص، تدبُّراً تكامُليّاً مُتأنّياً، نَاظراً إلى ما في هذه النصوص من فروق في الألفاظ ولو كانت طفيفة، وناظراً إلى ما يقتضيه التسَلْسُل المنطقِيُّ

للأحداث، وإلى ما يلزم عن الفكرة المنصوص عليها من أفكار أُخرى مَطْويَّةٍ إيجازاً.

وما انتَهيتُ إليه هو بمثابة خطوة في طريق التدبُّر التكامُليّ لكتاب الله عزّ وجلّ، وهو طريق طويل. والنصوص الستة الموضوعة لهذه الدراسة هي:

(١) الآيات من (٧١ ـ ٨٥) من سرة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول).

(٢) الآيات من (١١ ـ ٢٥) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

(٣) الآيات من (١١٦ ـ ١٢٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

(٤) الآيات من (٦١ ـ ٦٥) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول).

(٥) الآيات من (٢٦ ـ ٤٤) من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

(٦) الآيات من (٣٠ ـ ٣٩) من سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول).

وقد تُجْمَعُ مَعَها نصوصٌ قصيرة مكمِّلة موزعة في سُورٍ من القرآن المجيد.

وأنْقُلُ هذه النصوص من المصحف أوّلاً ثم أشرع بتدوين ما انتهىٰ إليه تدبُّري، بالمقدار الذي فتح الله به عليّ، ويسَّرَهُ لي، وأتْرُكُ لمن يأتي على الطريق نفسه من بَعْدِي، ما يفتح الله به عليه من إضافات أو تعديلات أو تصويبات، فسنَّةُ الله في العلم الإنسانيّ أنْ تكُونَ حركاتٍ تراكميّةً وتعديليّةً أو تصحيحية.

النص الأول

الآيات من (٧١ ـ ٨٥) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول)

قال الله عزّ وجل فيها:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ

مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ
فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ
﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ
وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

النّص الثاني

الآيات من (١١ ـ ٢٥) من سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ
إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا
فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ
﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا
مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ
وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾
فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ
ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ

مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

النّصّ الثالث

الآيات من (١١٦ ـ ١٢٦) من سورة (طه/٢٠ مصحف/٤٥ نزول)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا
يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا
تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ
ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا
فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ
﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾
وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾
قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ
وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾.

النّصّ الرابع

الآيات من (٦١ ـ ٦٥) من سورة (الإسراء/١٧ مصحف/٥٠ نزول)

قال اللّه عزّ وجل:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ
خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ
ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ
جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ

وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا
﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾ ﴾.

النص الخامس

الآيات من (٢٦ ـ ٤٤) من سورة (الحجر/١٥ مصحف/٥٤ نزول)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ
مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ
مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ
يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن
صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ
﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ
مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

النصّ السادس

الآيات من (٣٠ ـ ٣٩) من سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا
مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى

بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ
أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل
لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ
قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ
وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ
ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا
فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾
وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

وتُوجَدُ مُتَفرّقاتٌ من نُصوصٍ قصيرة، قد أَستَشْهِدُ بِبَعْضٍ مِنْها أثْنَاءَ تَدَبُّر هذه النصوص المطوَّلةِ إكْمالاً للدّراسة، ولكن دون استيعاب، واللَّهُ وليّ التوفيق والتَّسْديد.

❀ ❀ ❀

(أ)
إعلام اللّه الملائكة بقضائه أنْ يخْلُقَ السُّلالَةَ البشرية

أوّلاً:

جاء في سورة (البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول) بشأن هذا الإعلام قولُ الله عزّ وجل:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: إني سَأَجْعَلُ مِمَّا أَخْلُقُ نَوْعاً من مَخْلُوقاتي يخْلُفُ بعضهم بَعْضاً، فيكونُ النَّسْلُ اللاَّحِقُ خلَفاً لمَنْ سبَقَهُ في الوجود وانتهت مدّة حياته.

خَلِيفَة: على وزْنِ «فَعِيلَة» بمعنى اسم الفاعل «خالف» وبمعنى اسم المفعول «مَخْلُوف» فهذا النّوع خالفٌ ومخْلُوف، فالْمَخْلُوفُ تنقَضِي حَيَاتُه في الأرْض بالموت، والخالِفُ يحُلُّ محَلَّ المخلُوفِ في المِلْكِ والانْتِفَاع.

وهذا النوعُ ينْطَبِقُ عليه نظامُ التناسُل المشهود في كلّ المخْلُوقاتِ الحيَّةِ الموجودة في الأرْضِ قبل خَلْقِ الإنسان.

ودَلَّ على أنّ المرادَ بالملائكةِ ملائكةُ الملأ الأعلىٰ كجبريل وميكائيل وإسرافيل ونَحْوِهم، وَكان إبليسُ الجنّيُّ الخلْقِ والنشأةِ مُنْدَسًّا فيهم بنفاقه بتمكين الله لَه، قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) يُعلّم رسُوله محمّداً ﷺ أن يَقولَ لجاحِدي نُبُوَّته ورسالته:

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

وجاء بعد هذا النصّ عَرْض لقطَاتٍ من قصّةِ خلْق آدم، وفيها عرْضُ لقْطَة من هذا الاختصام، وهي لقطَةُ اسْتِكْبار إبْليسَ عن طاعة أمْر الله بالسُّجودِ لآدم، وعنادِه، ومخاصَمتِه ربَّهُ، طاعناً في حكمته بأمْرِ ملائكَةِ الملأ الأعلى ومن كان معهم ملْتحقًا ومُندسًّا فيهم أنْ يَسْجُدوا لآدم.

ويُوجَدُ بين قول الله للملائكة في النص: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وبين قوله تعالى فيه: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ...﴾ كلامٌ مَطْوِيٌّ يُمكِنُ أنْ نُعبّرَ عَنْهُ بما يلي:

فَسأَل الملائكةُ ربّهم: مَا صِفَةُ هذا المخلوق الّذي قضَيْتَ رَبَّنا أن تخلُقَهُ ومَا خصَائصهُ؟ فأبانَ الله جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه لهم صِفَاتِه، ومنْها

أنَّه يكونُ ذا إرادةٍ حُرَّة وقُدْراتٍ لاكتساب المعارف والعلوم، وذا صِفاتٍ نفسيَّةٍ فيها أهواءٌ ورغباتٌ وشهوات ونوازعُ لتحقيق الأهواء والشهوات، ولو بارتكاب المعاصي والآثام وفعل الشرّ، وهذه الصفاتُ يَنْتُجُ عنْها الإفساد في الأرْض وسفْكُ الدِّماء ظُلْماً وعدواناً.

قال الملائكة: أَتَجْعَلُ في الأرض مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاء، ونَحْنُ في كُلّ مَوْقِعٍ لَكَ عَابدون، نُسَبّح بحَمْدِك، أي: تنزهُكَ تنزيهاً مُلْتَبساً وَمقْتَرِناً بِحَمْدِك، وَنُقَدِّسُ لَكَ، أي: نُطَهِّرُ أنْفُسَنا من كلّ رِجْسٍ لَكَ ابتغاءَ مَرْضَاتك، ونُعظِّمُكَ ونُكَبّرُك، والمعنىٰ: فَلِمَ قضيْتَ بأنْ تخْلُقَ هذا المخلوق الذي هذه صِفاته؟.

قال الله عزّ وجلّ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَيدْخُلُ في عموم مَا لاَ يعْلَمونَ غيْبُ السَّمَاوَاتِ والأرض، فَكَيْفَ بما يعلَمُونَ وَمِنْهُ مَا يُبْدُون وَمَا يكْتُمونَ في نفوسِهم من أقوالٍ لا يقولونها أدباً مع ربّهم، أوْ خَواطِرُ لا يُعَبّرون عنها كذلك، وهذه لا تدخُل فيما هم معصومونَ عنْهُ، فَعِصْمَتُهم هي في حدود: لا يَعْصُونَ الله ما أمَرَهم ويفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون.

روى الطبريُّ عن «موسى بن هارون» قال: حدَّثنا عَمْرو بن حمّاد، قال: حدّثنا أسْباط عن السّدّي، في خَبرٍ ذكَرَهُ عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابْن عبّاس. وعَنْ مُرَّةَ عن ابْن مَسْعُودٍ، وعن نَاسٍ من أصْحَاب النبيّ ﷺ، أنَّ الله جلّ ثناؤه قَال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالُوا: رَبَّنَا، وَمَا يكُونُ ذَلِكَ الْخَلِيفَة؟ قالَ: يكُونُ لَهُ ذُرِّيَّةٌ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ، ويَتَحاسَدُونَ، ويَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً» هـ.

أي: وعندئذٍ قال الملائكة لربّهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾؟. فقال الله عزّ وجلّ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

ثانياً:

وتَنْفِيذاً لخُطَّة خلْق الله عزّ وجلّ لآدم، جَمَعَ الله جلّ جَلالُه، وعظُمَ

سلطانه، لتكوينِ جَسَدِ آدم مِقْداراً ما من مختلف عناصر المادّة الّتي تتكوَّنُ مِنْها الأَرض، وأضاف إليه ماءً وخَلَطَهُما حتَّىٰ صار المجموعُ طيناً.

روى أحمد وأبو داود والتّرمذيُّ عن أبي موسى أنّ النبيّ ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَميعِ الأَرْضِ، فَجاءَ بَنُو آدَمَ عَلَىٰ قَدْرِ الأَرْضِ، مِنْهُمُ الأَحْمَرُ، والأَبْيَضُ والأَسْودُ وبَيْنَ ذَلِكَ، والسَّهْلُ والْحَزْنُ، والْخَبِيثُ والطَّيِّبُ» إسناده صحيح.

الْحَزْن: هو من الأَرْض ما غَلُظَ، وَكانَ المشْيُ فيه صَعْباً.

وكوْن جسد الإنسان مخْلُوقاً من طينٍ قضيَّةٌ ظاهرَةٌ، فَمُرَكَّبُ جسْم الإنسان ماءٌ وحفنة من عناصر ذرّاتِ الأرض، وهذا ما أثْبَتَتْه التحليلاتُ الكيمائيَّةُ لدَىٰ عُلَماء الكيمياء، وهُوَ الأمْرُ المشاهد في بناء الأجساد الحيَّةِ من عناصر الأرض عن طريق النباتات، وفي عَوْدَةِ الأجساد بفنائها إلى عناصر الأرض إذْ تكونُ تُراباً، ويتَبخَّرُ الماءُ فيَعُودُ مختلطاً بالمياه الأخرى، سُحُباً وبحَاراً وأنهاراً.

وفي هذا الطَّوْر الّذي كانت فيها مادَّةُ جسَدِ آدمَ طِيناً، قال الله عزّ وجلّ للملائكة: إنّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ، دلَّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾: أي: سَأَخْلُقُ بشراً من عناصر تراب الأرض ممزوجةً بماء.

البشر: هو في اللّغة الخلْقُ، ويُطْلَقُ على الإنسان (الواحد والمثنّىٰ والجمع والمذكّر والمؤنث سواء) وقد يثنّىٰ، وقد يُجْمع على أبشار.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾: أي: فإذا أتْمَمْتُ تَقْوِيمَهُ وتَعْدِيلَ خلْقِه، حتَّىٰ صار سَوِيًّا مُكْتَمِلاً للْغَايةِ المخلُوقِ لها، وهي الصورة البشريَّة الكاملة.

يقال لغة: سَوَّىٰ الشيءَ إذَا قَوَّمهُ، وعَدَلَ بَيْن أجزائه، فجَعَلَهُ سَوِيًّا. ويُقَالُ للغلَام إذا تَمَّ شَبَابُه قد اسْتَوىٰ.

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾: الوقوعُ والسُّقُوطُ والْخُرور يراد بها سرعة الهبوط والنزول حتى يكونوا ساجدين. وهذا السجود طاعَةٌ لأمر الله وتكْرِيمٌ وتَوْقِير لآدمَ، وتَكْفِيرٌ عمّا كانوا كتموه من أنهم أفضل من هذا المخلوقِ الجديد، فَمَا الدَّاعِي إلى خلقه؟.

وقد سبق تدبُّر هذا النّص خلال تدبّر دروس سورة (ص).

فأبان هذا النّصّ أنَّ الله عزّ وجلّ، قد زَادَ الملائكةَ في هذا الإعلام اللاّحق، بَيَانَ أنّ المخلُوقَ الجديد الّذي قَضَىٰ بأنْ يخْلُقَه هو:

(١) بَشَرٌ مِنْ طين، أي: من ترابٍ وماء مختَلِطَيْن.

(٢) وأنَّهُ يَجِبُ عليهم أن يَقَعُوا له سَاجِدِين، متَّىٰ تمَّتْ تَسْوِيتُه له، ونفَخَ فيه منْ جِنْسِ الرُّوح الذي خَلَقَهُ، وجعَلَهُ بحكْمَتِه السِّرَّ الْخَفِيَّ الّذِي تَكُونُ به المخلُوقات كائنات حيَّةً.

رُوحُ الله: هو خَلْقٌ من خَلْقِه، يكُونُ وُجوده بأمْرِ التكوين المباشر، دون وساطة أسْبَاب من مخلوق سابق له. فإذا نُفِخَتْ ذرَّةٌ منه في شيءٍ صار حيًّا وفق التكوين الذي خُلِقَ له، وإضافة روح إلى ياء المتكلم الواحد الأحد هي على معنى المِلْك، إذ كل ما خَلَقَ هُو مِلكه[١].

ثالثاً:

ومَرّتْ مُدَّةٌ علَىٰ طِينَةِ هذا المخلوق الجديد، تحوّلَتْ خلالها بخَلْق الله، فصَارَتْ حَمأً مَسْنُوناً، ثُمّ جَفَّتْ فصارت صَلْصالاً.

---

(١) وهو نظير قول الله تعالى: ﴿**إن أرضي واسعة**﴾ و ﴿**وأدخلي جنتي**﴾ و ﴿**وأن هذا صِرَاطي**﴾ إلى غيرها من نظائر.

الحَمَأ: الطِّين الأسْوَدُ المنْتِنُ.

المسْنُون: المصْقُولُ الْمُمَلَّسُ.

الصَّلْصال: الطِّينُ اليابِسُ الّذي إذَا نُقِرَ بِشَيْءٍ أعْطَىٰ صَوْتاً فيه ترجيعٌ.

وفي هذا الطور الذي صارت فيه طينَةُ هذا المخلوق الجديد صَلْصَالاً من حَمَأ مسنون، قال الله عزّ وجلّ للملائكة ما جاء بيانه في سورة (الحجْر/ ١٥ مصحف/ ٤٥ نزول) وهو قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

الجانّ: هو أبو الجنّ، وإبليس من ذُرِّيَّته، بدليل قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) خطاباً لبني آدم:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾: أي: فعصَىٰ خارجاً ومُبْتَعِداً عن طاعَةِ أمْرِ ربِّه بالسُّجود لآدم مع الملائكة المأمورين بأن يسجدوا له.

نار السَّمُوم: هي النّار الّتي تُحْدِثُها الرِّيحُ الحارَّة.

فأبان هذا النّصّ الذي جاء في سورة (الحجر) أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ أكّدَ للملائكة في هذا الإعلام اللاّحق، حين صارَتْ طينَة المخلوق الجديد في طَوْرِ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُون، بأنّهُ خالِقٌ بشراً مِنه، وأكّدَ لَهُمْ الأمْرَ بأنْ يَقَعُوا لَهُ ساجِدِين، إذَا سَوَّاهُ ونَفَخَ فيه من روحه.

وفي بَيَان أنّه من صَلْصَالٍ من حمأ مَسْنُون، غَمْزٌ على مواطن الكِبْرِ

في نَفْسِ إبليس المنْدَسِّ بَيْنَ ملائكة الملأ الأعْلَىٰ، لامتحان طاعَتِه لو شاء أنْ يَقْتَحِم عقبة الكِبْرِ العظمىٰ في نفسه.

وفي بيان خَلْقِ الملائكة من نور، وخَلْقِ الجانِّ من مارجٍ من نار، روى مُسْلِمٌ عن عَائشة رضي الله عنها، أنّ النبي ﷺ قال:

«**خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ من مارجٍ من نارٍ وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**».

من مَارِجٍ من نار: أي: من أخلاط نارٍ صافية، **المارج**: المختلط من عناصر مختلفة.

رابعاً:

ومرّت مُدّة جعل الله عزّ وجلّ فيها الصلصال المعدّ ليكون جسد آدم، ذا صورة، وهي الصورة التامّة لآدم قبل نفخ الرُّوح فيه.

يقال لغة: صَوَّر الشيْءَ، أي: جعَلَ له صُورةً مجسَّمة.

وهذا هو الطور الأخير الذي وصلت إليه طينة آدم قبل نفخ الروح فيه.

وحول هذا الطور روى مسلم عن أنس أنّ النبي ﷺ قال:

«لَمَّا صَوَّرَ الله آدَمَ في الجنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أنْ يَتْرُكَهُ، فَجعَلَ إبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ وَيَنْظُرُ إلَيْهِ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خَلْقٌ لاَ يَتَمالَكُ».

ورَوَىٰ البخاري ومسلم عن أبي هريرة أنّ النبيّ ﷺ قال:

«خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِراعاً».

وجاء في هذا الحديث:

«فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّىٰ الآنَ».

ولفظ مُسْلِم: «خَلَقَ اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ. . .» الحديث.

ودَلَّ على هذا الطَّوْر، وهو طَوْرُ جَعْل جسَدِ آدَمَ ذَا صُورَةٍ قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ . . . ﴿١١﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾: أي: ولَقَدْ أَعْطَيْنَا أَجْزاءَ جَسَدِ آدَمَ مقادِيرها بإتْقَانٍ وإحْكام، ولمَّا كَانَ آدَمُ هُوَ الإنْسَانَ الأول الّذي جَمَع الخالِقُ الرَّبُّ فيه كُلَّ السُّلاَلَةِ الْبَشَرِيّة، بدْءاً بحوّاءَ زَوْجه، ثُمَّ ما بَثَّ منْهما من ذُرّيّات، وما يَبُثُّ إلى أن تَقُومَ الساعة، خاطبَ الله عزّ وجلّ الناس في هذا النّصّ بقوله لهم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾.

الْخَلْقُ: إعْطَاءُ أَجْزاءِ الشيْءِ مقاديرَها بإحكامٍ وإتقان.

التصوير: جَعْلُ الشيء ذَا صورة مُجَسَّمة.

خامساً:

ثُمَّ نفخ الله عزّ وجلّ في جَسَدِ آدم الّذي اكتمل خلْقُه وتَصْويرُه من روحه، أي: نَفَخَ فيه من جنْس الرُّوح الّذي هو خَلْقٌ عظيم من خَلْقِه، فهو مِلْكُهُ جلّ جلالُه، وبه تكُونُ المادَّة حيَّةً بحَسَب الخصائص النفسية الّتي فَطَرَهَا عليها.

وقد جاء بيان أنّ الله عزّ وجلّ نفخ فيه من روحه في سورة السجدة/ ٣٢مصحف/ ٧٥ نزول) فقال تعالى فيها: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

وجاء مطويًّا لفظاً مَفْهُوماً اقتضاءً مِنْ تَرْتِيب حادثة سجود الملائكة على عبارة: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ في الآية (٧٢) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وفي الآية (٢٩) من سورة (الحجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول).

والمطويُّ الّذي يُسْتَخْرَجُ بالتفكر يمكن التعبير عنه بما يلي: فَنَفَخَ الله

في الْجَسَد المصوَّر المعدِّ لأنْ يكون إنساناً حيًّا، فقامَ مَخْلُوقاً تَامَّ الْخَلْقِ كَامِلَ التَّسْوِيَةِ حيًّا له صفاتُ كائنٍ حَيٍّ مُتميِّزٍ بيْنَ الخلائق، وهو آدم عليه السَّلام أبو البشر جَمِيعاً.

سادساً:

وبَعْدَ أنْ صَار آدَمُ إنساناً حيًّا تَامَّ الخلْق، قابلاً للتَّعلُّم بما خلَقَ فيه من جهازٍ دِمَاغِيٍّ مُفكِّر عَجِيب، مُسْتَعِدٌّ لاكْتِساب الْعِلْم، علَّمه الله عزّ وجلَّ أَسْماءَ الأشياء الّتي يَقَعُ عَلَيْها حسُّهُ البصَرِيّ.

اسم الشيء: يُطْلَقُ على صِفَته، ويُطْلَقُ على اللّفظ الّذي يُميّزُه عن غيره، وقد يكون مشتقًّا مِنْ صفته.

وتعليمُ الأسماء الّتي يجري التعبيرُ عنها بالألفاظ، يستلْزِمُ عقلاً تعليمَ النُّطْق، وتعليم الكلام الّذي يُعَبّر عمّا في النفس من معاني.

وقد دلّ على هذا الطّوْر قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا . . . ﴿٣١﴾﴾.

ونَسْكُتُ هُنَا عَنْ تَحْدِيد المسَمّيَاتِ الّتي علَّمَ اللّهُ آدمَ أسماءها، إذْ لَمْ يَرِدْ عن الله ورسُوله في هذا شيءٌ، فالواجِبُ عدَمُ الْخَوْضِ فيه بالرّأي.

لكن نَفْهم ممّا سَيأتي ذكْرُهُ من تتمّة الآيةِ، أنّ الله عزّ وجلّ علَّمَهُ أسْماءَ ما عَرَضَ عليه مِمَّا يَرَاهُ بِبَصره، وقد جاءت الإشارة إليهم بعبارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

سابعاً:

ومرَّتْ مُدَّةٌ مُتراخية لم يأتنا عِلْمٌ بمقدارها، وبَعْدَها عَرَض الله عزّ وجلّ المسمَّيَاتِ الّتي علّمَ آدم أسماءَها على الملائكة، ومَعَهُمْ إبْليسُ مُنْدَسًّا فِيهم نِفَاقاً، وأجْرَىٰ الله بينهم وبين آدم مسابقةَ تفوُّقٍ في الْعِلْم، فقال لهم ما جاء بيانه في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) بقوله تعالى:

﴿... ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

دلَّ حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ على تَراخِي حَدَثِ هذا الْعَرْضِ عن تعليم آدمَ أسماء الْمُسَمَّيات الّتي عرضَها عَلَيْهم.

﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾: أي: أخْبِرُوني واذْكُرُوا لي.

﴿بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: أي: بصفاتِ هؤلاء المشار إليهم ممّا يُدْرَكُ بالأبْصار، وبالألْفاظِ الّتي تُمَيِّزُ كُلّاً منْهُم.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: تَدُلُّ هذه العبارةُ على أنّهم حين قالُوا لربّهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ... ﴿٣٠﴾﴾؟ كَانُوا يكْتُمونَ فِي أنفُسِهِم أَنَّهُمْ أفْضَلُ من هذا المخلوق الجديد الّذي قَدَّرَ الله وقَضَىٰ أَنْ يَخْلُقَه، وهذا الأمْرُ لا يُعارِضُ عِصْمَتَهُم الفِطْرِيَّة عن معصية الله، فهم لا يَعْصُونَ اللّهَ ما أمَرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُون.

أمّا إبْلِيسُ فقد كان ما يكْتُمه أشدّ من هذا، إذْ كان يَكْتُمُ في نفسه أنَّهُ لن يُطِيعَ اللّهَ في أَمْرِه بالسُّجود لآدم.

فأجاب الملائكة بما جاء بيانُهُ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: أي: تنزَّهْتَ ربَّنا عَنْ مُجانبة الحكمة فيما تُقَدِّرُهُ وتقضيه وتخلقه، فإنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الحكيم.

﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾: أي: ليس لدينا صِفَةُ استنباط الصفاتِ الباطنة للمخْلُوقاتِ، استدلالاً ممّا في ظاهرها من علاماتٍ وأمارات، فَعِلْمُنا قاصِرٌ علىٰ ما عَلَّمْتَنا إيّاهُ تَعليماً مباشراً.

ثامناً:

عندئذ أمر الله عزّ وجلّ آدم بأن يُنبئَهُمْ بأسْمائهم، فأنبَأهم بأسمائهم، مبيّناً صِفَاتهم، والألفاظ الخاصّة الدالّة على ذَواتهم وعلى صفاتهم.

فلَمّا أنبَأَهُمْ بأسْمائهم ذَكّرَ الله عزّ وجلّ الملائكة بما كان قد قال لهم تعقيباً على قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ .. ﴿٣٠﴾﴾ إذْ قال لَهُمْ ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

دلَّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فأبانَ بهذا البيان المطوّل، أنّ قولَهُ السَّابقَ لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هو اخْتِصَارٌ وإيجازٌ لِقَولِهِ اللاّحِقِ لَهُمْ: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

وقد سبق شرح هذا تحْتَ «أولاً» من فقرة (أ).

تاسعاً:

عنْدئذٍ جاء دور توجيه الأمر للملائكة بتنْفِيذ السُّجُود لآدم، الذي كان من قبْلُ أمراً مُعَلّقاً على وجود شَرْطَيْن:

(١) تسويَةُ الله عزّ وجلّ لهذا المخلوق الجديد.

(٢) نفخ الله عزّ وجلّ فيه من رُوحِه.

ونفهم من ترتيب الأحداث ترتيباً منطقيّاً أنَّ نفخ الروح في آدم قد كان سابقاً، وأنَّ كمال تسْوِيته للوظيفة الّتي أعدّه الله لها قد كان بعد تعليمه أسماء المعروضات التي علّمه أسْماءها، فحرف العطف (الواو) في ﴿فَإِذَا

سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ هو لمطلق الجمع. إذ التسوية في اللّغة هي إبْلاَغُ الشَّيْءِ الْغَايَةَ المقْضِيَّةَ له، بجعله تامًّا مُسْتوياً بالغاً الغاية المقصودة من صُنْعِه، وظاهِرٌ أن تعليمه الأسماء جزْءٌ من هذه التسوية.

وقد دلّ على توجيه الأمر للملائكة بتنفيذ السّجود لآدم، قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ... ﴿٣٤﴾﴾.

ونظيره في الآية (٦١) من سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) وفي الآية (١١٦) من سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول).

وقد جاءت هذه العبارة مكرّرة فيهما، لأنّها كانت مفتاح الحديث عن قضيّة السُّجود لآدم واسْتِكْبَارِ إبليس وإبائه.

أمّا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ... ﴿١١﴾﴾ فقد جاء عقب قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ فدلَّ هذا الإجراء البيانيّ على أنّه مَرَّ زَمَنٌ متراخٍ بعْدَ التَّصْوير، إذْ بَيْنَ التّصوير وبين الأمر بالسُّجود مُدَّةٌ جرىٰ فيها نفخ الرُّوح في آدم، ثم استكمالُ تَسْوِيته بتعليمه أسماء المعروضات كلّها، فكان من الدّقة والصّدْقِ في البيان أن يقول اللّهُ عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ ... ﴿١١﴾﴾.

عاشراً:

وعقب توجيه الأمْر للملائكة ولِمَنْ كان معهم مندسًّا فيهم نفاقاً، بتَنْفِيذِ السجود لآدم، سجَدَ الملائكة المأمورون بالسُّجودِ كلُّهُمْ أجمعونَ، في وقْت واحد مجتمعين غير متفرّقين، إلاَّ إبْلِيسَ لم يَكُنْ من جنْسِ الملائكة

الّذين لا يَعْصُونَ الله مَا أمَرَهم ويَفْعلُون ما يُؤْمَرون. وكشَفَ إبليسُ بما فَعَل عمّا في نفسه.

دلَّ على هذا الحدَث عدّة نصوص قرآنية متكاملة فيما بينها.

(١) فجاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ‥ ﴿١١﴾﴾.

فاقتصر هذا النصّ على استثناء إبليس.

(٢) وجاء في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ بيانَ أنَّ إبليسَ أبىٰ أَنْ يَسْجُد.

(٣) وجاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

فأبان هذا النّصّ أنّ الملائكة المأمورين بالسُّجُودِ قد سَجَدُوا كلُّهم أجْمَعُونَ، أيْ: لم يَتَخلَّفْ مِنْهُمْ أحَدٌ، وسَجَدوا في وقْتٍ واحد.

وأبانَ أيضاً أنَّ إبليسَ لم يَسْجُدْ، ووصفه الله عزّ وجلّ في هذا النصّ بصِفَتَيْن:

الأولى: أنّه اسْتَكْبَر عن السُّجودِ لآدم، فالباعِثُ له على ما اختار لنفسه شِدَّةُ مشاعِرِ الكِبْر في نفسه.

الثانية: أنّه كان من الكافِرين باطِناً بإلَهيَّة الله لمربُوبيه، وهذا يَدُلُّ على أَنَّ دخوله في صفوف الملائكة، مُسْتَغِلاً التّشابُهَ في بعض الصفات الظاهرة

بين الجنّ والملائكة، قد كان نِفَاقاً، وقد استطاع بهذا النّفاق أن يترقّىٰ في التسلّل حتى دخل في ملائكة الملأ الأعلى، وغَرَضُه من ذلك أن يكون ذا حُظْوة عند ربّه، وأن يجْعَلَهُ في الملائكة ذا أمْرٍ مُطاعٍ كجبريل عليه السلام.

(٤) وجاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ إلى ما جاء في سورة (صَ) بيان أنّ إبليس أبَىٰ، أي: رفض أن يَسْجُد لآدم امتثالاً وطاعةً لأمر ربّه.

(٥) وجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾.

فأبان هذا النّصّ أنّ إبليس لم يَكُنْ منْ جنْسِ الملائكة السَّاجدين، الّذين لاَ يَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهم، بل هو من جِنْس الجنّ الممتَحَنِين في ظروف الحياة الأولى، فهو ذو إرادة حُرَّة، يَمْلِك بها أن يُطيعَ وأن يعصي.

(٦) وجاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾.

فأبان هذا النّص أنّ إبليس قد كان باستطاعته أن يستمرّ على نفاقه مُنْدسًّا بين ملائكة الملأ الأعلى، فيَسْجُدَ معهم كما سَجَدُوا، وَلو لَمْ يكُنْ من جنْسِهِمْ، لكنَّهُ أبَىٰ أن يكون معهم، ورُبّما يَرَىٰ في داخل نفسه أنّه خَيْرٌ مِنْهم أيضاً.

(٧) وجاء في سورة (الإسْرَاء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ﴿٦١﴾﴾.

يظهر أَنَّ إبليسَ قالَ في نفسه مُوَجِّهاً خِطَابه لربّه حين أَبَىٰ أنْ يسْجُدَ: أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْت طِيناً، أي: خلقْته طيناً عند بدء خَلْقِكَ له.

(ب)
محاكمة إبليس والحكم عليه وما كان منهُ عَقِبَ ذلك

دلّت النّصوص بما فيها من عباراتٍ ذاتِ دلاَلاَتٍ متعدّداتٍ مُخْتلِفَاتٍ مُتَنوِّعات على أنّ الله عزّ وجلّ قد عَقَدَ لمحاكمة إبليس ثلاثَ جلَساتٍ، ليمكّنَهُ من التراجع عن موقِفه العناديِّ الاستكباريّ، فيَعْتَرِف بذَنْبِهِ ويسْتَغْفِر، وكان الحكم عليه في كلّ واحدة منها الرَّجْمَ والطّرد، لكِنَّ إبليسَ لم يكن منْهُ في كلٍّ واحدة منها إلاّ الاستكبار، والإصرار على العصيان، وإعْلاَن الكُفْرِ بحكْمَةِ الله جلّ جلاله، والكفر بإلَهيّتِه.

الجلسة الأولى:

جلسةٌ دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: قال الله جلّ جلالُه وعظُمَ سُلْطَانُه لإبليسَ مُتَرَفِّقاً بمُسَاءَلَتِه، ومُخَاطِباً له باسْمِه المعروفِ به بين الملائكة، والمعْرُوفِ به بين الجنّ.

﴿..مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾﴾: أي؛ أيُّ عُذرٍ لَكَ حَمَلَكَ

على أن لا تكونَ سَاجداً مع السَّاجدين مِنْ ملائكة الملأ الأعْلَىٰ، وقد تَسَلَّلْتَ في صفوف الملائكة مُتَرَقيًا حتَّىٰ اعْتَبَرْتَ نَفْسَك واحداً منهم، حريصاً على أن يكون لَكَ من الفضل والمنزلة الرَّفيعة مثل ما لهم، ولو لم يكن عنصُرُك من الملائكة بلْ أنْتَ من الجنّ.

فلَمْ يُخفِ إبليس في جوابه احتقارَهُ لآدم نَاظِراً إلى أَحَدِ أطْوَارِ خَلْقِ جَسَدِه، وإلى كونه بشراً.

﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٣٣﴾.

فأَبَانَ أنَّهُ بَشَرٌ شبيهٌ بأجْسَادِ حَيوانَاتِ الأَرْض في عَدَم قُدْرَتِهِ على اخْتِرَاقِ الفراغات العليا والوصول إلى السماوات، كالملائكة وبعضِ الجنّ. وذكَرَ المرحلةَ الأخيرة من أطوار خَلْق جسده، وهي مرحلَةُ: ﴿صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾.

وهذا يُعَبِّر عن استكبارِ إبليس، وترفُّعِه واستِنكافِه عن أن يسجُدَ لِمَنْ يَعْتَبِرُه دُونَه في الخلْق، ويُعَبّر عن شكّه في حِكْمَةِ الله في تَوْجِيه الأَمْرِ بالسُّجُود له.

إنّ إبليس لم يذكر لنفسه عُذْراً حقيقيًا، بل أجاب بما يكْشِفُ عن كبره ووقاحته مع ربّه.

فكان لا بُدَّ من إصدار الحكْم عليه بالإخراج من منازل الملأ الأعلى من الملائكة، وبالرَّجْم للطَّرْدِ والإبعاد، مع صَبِّ اللّعْنَة عليه.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾:

أي: وفي يَوْمِ الدّين يجري حسابُكَ علىٰ كُفرِك، وإصدارُ الحكْمِ علَيْكَ بما تستحقُّ مِنْ عذابٍ.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦﴾:

أي: قال إبليس معترِفاً للَّهِ بِرُبُوبيته، ربِّ بما أنَّكَ حكَمْتَ عليَّ بالإخراج والرَّجْم واللّعْنَةِ إلَىٰ يَوْمِ الدّين، فأمْهِلْنِي حيًّا إلَىٰ يومِ يُبْعَثُونَ، وقَدْ كان يوم البعث للحساب وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء معلوماً للجنّ والملائكة قبل خَلْقِ آدم، لأنَّ الجنَّ مخلُوقونَ مُمْتَحَنِين في ظروف الحياة الأولى قبل الإنس، ويعلمون أنّ الجَزاءَ يكون بعد الموت والبعث منه.

وقرّر إبليسُ في نفسه أنْ يُغوِي آدم وكلّ ما يُخْرِج الله منه من نَسْل.

فأعطاه الله عزّ وجلَّ بَعْضَ طَلَبِه، ووعَدَه بأن يُنْظِرَهُ إلى ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا، وإماتَةِ كلّ ذي حياة فيها، وجعَلَهُ من المنظرين إلى ذلك الوقت المعلوم لديه جلّ جلاله.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾:

أي: قال: بَعْضُ مَا طَلَبْتَه مُجابٌ، فَإنّكَ من الأحياء المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، كجبريل وإسرافيل وميكائيل.

ولمّا اسْتَوثَقَ إبليسُ من إمْهال الله له في الحياة الأولى إلَىٰ ساعة إنهاء ظروفها، أعلَنَ عزمه على أن يَعْمَل بكلّ ما أوتي من وسائل إغواء وإغراء وتزيين، لإغواء آدَمَ وما يُخْرِجُ الله منه من نَسْل حتّى قيام الساعة إلاَّ من كان مُخْلِصاً أوْ مُخْلَصاً لله.

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾:

● قُرِئ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفَتْح اللاّم، أي: الذين تَسْتَخْلِصُهم وتَصْطفِيهم، فَتَعْصِمُهُمْ مِن الْغَواية، بسبب ما فطرتَهُمْ علَيْهِ من الكمال، لتؤَهِّلَهُمْ للنُّبوّةِ أو الرِّسالة.

وقُرِئ [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْر اللاّم، أي: الَّذِينَ أَخْلَصُوا لكَ الإيمان والْعَمَل، فَأَنْت تَحْميهم من الْغَوايَةِ بسبب إخلاصِهم.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبليس اللّعين: هذا صِرَاطٌ عَلَيَّ بيانُه لكلّ الّذين أضَعُهُم مَوْضِع الامتحان في ظروف الحياة الدّنيا، فيما أنزل على رُسُلِيَ وهو صراطٌ مستقيم.

وقرأ يَعْقوب: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلِيٌّ مُسْتَقِيمٌ﴾ والمعنى على هذه القراءة: هذا صِرَاطٌ عَلِيٌّ رَفِيعٌ على قِمَّةٍ، ودُونَهُ من ذَاتِ اليمِينِ وذَاتِ الشِّمَال سُبُلُ الضلاَلَة والْغَوَايَة، وهِي مُنْحدِرَةٌ إلى الْمَهالِكِ، وموصِلَةٌ إلى عذاب جهَنَّم.

فبين القراءتيْنِ تكامُلٌ في أداء المعنَىٰ المراد.

وقال عزّ وجلّ له: إنَّ عبادي الذين هم خَلْقِي ومِلْكي لا أَجْعَلُ لَكَ عَلَيْهم سُلْطاناً تُؤَثِّرُ به عليهم، تأثيراً جَبْرِيًّا تُلْغِي به إرادتهم الحرَّة، فهُمْ مَحْمِيُّونَ منكَ بحمايَتِي لهم، إلاّ من اتّبَعك من الْغَاوين بإرادَاتِهم الحرَّةِ غَيْرِ المجْبَرة، فهؤُلاء لا أتولَّى حِمَايَتَهُمْ منْكَ، وإنَّ جهَنَّمَ لموْعِدُ هؤلاء الغاوين الكافرين يجتَمِعُونَ فيه ويذوقون العذاب فيه أجمعين.

لَمَوْعِدُهُمْ: أي: لَهِيَ المكانُ الموعُودُنَ بالعذاب فيه أجمعين.

ووصف الله عزّ وجلّ جهنّم بأنّ لها سبعةَ أبواب، بحسب أنواع الجرائم العظمىٰ الّتي كان الغاوون قد ارتكبُوها في حياة الابتلاء، فلِكُلِّ بَابٍ جزْءٌ منْهُمْ مَقْسُومٌ له، وكلُّ جُزْءٍ منهم يدخل من الباب المخصَّصِ له من أبوابها السبعة.

ولم يُصَرِّحِ الله عزّ وجلّ لإبليس في هذه الجلسة بأنّه سيكون في جهنّمَ مع الغاوين، إلاّ أنّه قَدْ يُفْهَمُ من النصّ باللّزوم العقليّ.

الجلسة الثانية:

وبعد جلسة محاكمة الله عزّ وجلّ لإبليس الأولى، منحه الله فرصة مراجعة نفسه إن شاء أن يَعْتَرِف بذنبه ويَتُوبَ، فعقد له جلْسَة محاكمة ثانية،

دلَّ عليها ما جاء في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وبدأت هذه الجلسة بسؤال الله عزّ وجلّ إبليس عن المانع له من السجود، على الرغم من عناية الله بآدم إذْ خلقه بيدَيْه:

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥﴾.

كانت الجلسة الأولى متضمّنة سؤال إبليس عن العذر الذي حمله على أن لا يكون مع الملائكة السَّاجدين وهم أهل الملأ الأعلى، مع أنّ الأمر بالسُّجود لآدم قد كان موجّهاً لهم وله، إذْ هو مندَسٌّ فيهم كواحدٍ منهم.

أمّا في هذه الجلسة الثانية فقد سأل الله عزّ وجلّ إبليس عن المانع له من السُّجود، مع أنّ المأمور بالسجود له مخْلوقٌ خلقه الله بِيَدَيْه دون أن يأمُر أحداً من ملائكته بجمع ترابه وخلطه بالماء، ولا بمتابعة أطوار تكوينه، ولا بصُنْع صورة جسَدِه، وهذا من عناية الله جلّ جلاله بهذا المخلوق الجديد، وهي عنايةٌ تقتضي تكريمَه من قِبَلِ أهل المعرفة من عباد الله، ولو لم يأمُرْهُمْ بذلك.

وحصر الله عزّ وجلّ إبليس بين احتمالين:

أحَدُهُما: أَنْ يكون إبليس قد استكبرَ عن السجود لآدم، دون أَنْ يكون له حقٌّ في هذا الاستكبار.

والآخر: أن يكون إبليس مُعْتَقِداً أنّه من العالِين الذين لا يَليقُ بهم السُّجودُ لآدم، وفي هذا اعْتراضٌ ضِمْنِيٌّ على حكْمَةِ الله في أمره، ورفْضٌ لإلَهيَّة الله له.

وآثر إبليس ادِّعاءَ الاحتمال الثاني، مدَّعياً أنّ أصْلَه النّاريّ خَيْرٌ من أصل آدم الطينيّ.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ۝٧٦﴾.

وفي هَذَا إصرارٌ من إبليس على موقفه السّابق الّذي أعلنه في الجلسة الأولى، إلاّ أنَّهُ ذَكَرَ من أطوار خَلْق جسَدِ آدم مَرْحَلةَ الطّين، وسَكَتَ عن

ذكر مَرْحلة الحمأ، وهو الطين الأسود المنْتِن، تخفيفاً ممّا يُشْعِر بأنَفتِه.

وأمام هذا الإصرار العناديّ الاستكباريّ كان لا بُدَّ مِنْ إعادة إصدار الحكم عليه بالإخراج من منازل الملأ الأعلَىٰ من الملائكة، والرَّجْم للطَّرْدِ والإبْعاد، مع إضافة أنّ اللّعنة المنصبَّةَ عليه هي لَعْنَةُ الله.

﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبْلِيس: لَزِمْتَ موقفكَ وَلم تعترف بذنْبِكَ فاخْرُجْ منها فإنَّكَ رَجِيمٌ.

وكانت العبارة في الجلْسَةِ الأولى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾﴾ فجاء التشديد في الجلْسةِ الثّانية فقال الله له: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾.

فاللَّعْنَةُ الصّادرةُ عَنِ اللَّهِ العزيزِ الجبّار، والمنْصَبَّةُ علىٰ إبليس، أشَدُّ من عموم الحكم عليه باللَّعْنَةِ، لاحتمال أنْ تكون تكليفاً من الله للملائكة بأَنْ يَلْعَنُوه، دون أنْ تنصَبَّ عليْه لعنةُ الله.

وكرّر إبليس طلَبَهُ من ربّه أن يُمْهِلَه حيًّا إلَىٰ يَوْم يُبْعَثون، طامعاً في أن يستجيب الله عزّ وجلّ طلَبَه، فيُمْهِله إلى يوم البعث، وكان قد استوثق من ربّه بأنه سيُمْهِله إلى ساعَةِ إنْهاء ظروف الحياة الدّنيا، وإماتة كلّ ذي حياة فيها.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾:

أي: قال إبليس: رَبِّ بما أنّكَ حكَمْتَ عليّ للمرّة الثانية بالإخراج والرَّجْم وأنزلْتَ عليَّ لعْنَتَكَ، فأمْهِلْنِي حيًّا إلَىٰ يوْمِ البعث.

لكنّ الله جلّ جلاله، وعظم سلطانه، وبلَغَتْ حكْمَتُهُ الغاية، لم يُعْطِه من الإمهال أكثر ممّا كان أعطاه في الجلسة الأولى، فَأعاد له نصَّ حُكْمه السابق.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١﴾:

أي: قال الله عزّ وجلّ لإبليس: بما أنّكَ لَزِمْتَ مَوْقِفَكَ ولم تَعْتَرِفْ، ومَا زِلْتُ تطالبُ بانظارك إلى يوم البعث، فإني لا أنظرك إلاّ إلى يوم الوقت المعلوم الذي تنتهي عنده ظروف الحياة الدنيا، ويموت فيه كلُّ مخلوقٍ حيّ.

فأعْلَنَ إبليسُ إصراره على إغواء الموضوعين موضع الامتحان في ظروف الحياة الدُّنيا.

﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾.

أي: قال إبليس لربّه: بما أنّك حكَمْتَ عليَّ بالْغواية، فقد عزَمْتُ على إغواءِ آدم وما يَخْرجُ منه من نَسْل.

﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾: أي: فبِقُوّتِك الغالِبَةِ الَّتِي تُمِدُّنِي منها ما أبقيتني حيًّا، ولا تقْطَعُهَا عنّي لأغْوِينَّهُمْ أجْمَعِينَ، فأجْعَلَنَّهُمْ بوسَاوسِي، وتسويلاتي، وإغراءاتي، وتزييناتي، وحَبَائِلي، غاوين أجمعين، واستثنىٰ فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ بفتح اللاّم، وفي القراءة الأخرى: [**الْمُخْلِصِينَ**] بكَسْرِ اللاَّم، وقد سبَق بيان المراد بالقراءتين.

فكان جواب الله له، ما تضمَّنَهُ قولُه تبارك وتعالى:

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ۝٨٤ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٥﴾.

فجاء في هذا النّصّ التصريح بالْحُكْم علىٰ إبليس بدخول جهَنّم دار عذاب المجرمين، ومعه كلُّ الذين يتّبِعُونه كافِرينَ مجرمين.

وفي هذا البيان شدّة في الحكم بصريح اللّفظ، وهذه الشدّة تَدُلُّ على أنَّ هذه الجلسة قد كانت الجلسةَ الثانية من جلسات محاكمته.

الجلسة الثالثة:

ومنح الله عزّ وجلّ برَحْمَتِه الواسعة إبليسَ، فُرْصَةً أخرى لمراجعة

فسه، وإعلان اعترافِه بذَنْبه وتوبته واستغفاره، فعقد له جلسةَ مُحاكمة ثالثه، دَلّ عليها ما جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

وبدأت هذه الجلسة بسؤال الله عزّ وجلّ إبليس عن أمرين: عن المانع له من السجود، وعن الحامل له على عدم السجود، على الرُّغْم من أنّ الله رَبّه قد أمَرَهُ بالسُّجودِ أَمْرَ إلْزَام ووجوب، مع الملائكة الذين كان قد دسَّ نفْسَه فيهم، واعتبر نفسه واحداً منهم، وأمْرُ الله لعباده أحَدُ عناصر إلَهيّتِه عليهم، الّتي تستلزِمُها عَقْلاً رُبُوبِيَّتُهُ جلّ جلالُه وعظم سلطانه، فَمَنْ رفَضَ طاعة أمْرِ الله عناداً كان بإلَهِيّتِه كافراً.

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ . . (١٢)﴾.

فذكر الله عزّ وجلّ من مُقْتضياتِ الطاعة بالسُّجود، أنّه أمْرٌ إلزاميٌّ صادِرٌ عن الرَّبّ الخالق.

ولم يخاطب الله عزّ وجلّ إبليس في هذه الجلسة باسمه، إهانة لَهُ واحتقاراً، واكتَفَىٰ بضمير المخاطب، أمّا في الجلستين السابقتين فقد خاطبه الله عزّ وجلّ باسْمِه تلطُّفاً به.

﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾: أي: مَا مَنَعَكَ عَنِ السُّجُودِ؟ وَمَال حَمَلَكَ علىٰ أنْ لا تَسْجُد، فَسَأَله بهذه العبارة عن المانع له عن السُّجود، وعن الحامل له على عدم السُّجود.

لقد جاء في هذه العبارة تضمين فِعْل «مَنَعَ» معْنَىٰ فعل «حَمَلَ» فَعُدِّي تَعْدِيَته، فأغْنَتِ الجمْلَةُ الواحدة عن جُمْلَتَيْن، وهذا من بدائع الإيجاز القرآنيّ.

﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾: أي: وقْتَ أَمْرِي إيَّاكَ بالسُّجُود مع من أمَرْتُ من ملائكة الملأ الأعلى، الّذين دخَلْتَ فيهم واعتبرتَ نَفْسَك واحداً منهم.

فأبان الله في هذه الجلسة لإبليس بهذا السؤال مخالفته لواجب طاعة العباد لربّهم، بمقتضىٰ أنه إلٰهُهُم الّذي يجب عليهم أن يَعْبُدوه، ومن عبادتهم الأُولَىٰ له بعد الاعتراف له برُبُوبيّته وإلٰهيَّتِه، أن يطيعوه، فَيَفْعَلُوا ما أمرهم به، ويَنْتَهُوا عمَّا نهاهم عنه.

لكنّ إبليس لم يُعتَذِر بأنّه لم يكُنْ يعْلَمُ أَنَّ أمْرَ الله موجَّهٌ لَهُ ضِمْنَ من هو معهم من الملائكة، بل أصَرَّ على عِنَاده ولَزِمَ موقفه الأوَّل، ولم يُراجِعْ نفسه، وأعْلَنَ بهٰذا الإصرار أنّه غَيْرُ مؤمِنٍ بإلٰهيَّة الله له، وأنّه مُعْتَرِضٌ على أمر الله له بالسّجود لآدم، ويَراهُ أمْراً غير حكيم، ويَرىٰ أنّه ليْسَ مِنْ حقّ الرَّبّ أن يُوجّه لعباده المملوكين له مثل هذا الأمر.

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾.

عندئذٍ كان لا بدَّ من إصدارِ الحكْم الختاميّ عليه في هذه الجلسة الثالثة، فأمَرَهُ الله عزّ وجلّ بأنْ يَهْبط هبوط مَهانة وذُلّ وصَغَار، ولمْ يقتصر الأمْرُ على الإخراج فقط، كما حَصَل في الجلْسَتَيْن الأولَىٰ والثانية، بل جاء الأمْرُ له بالهبوط والإخراج، مع الحكم عليه بالصَّغار.

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾.

الهبوط: النزول من أعْلَىٰ إلى أسفل. ويُقالُ: هبَطَ فُلانٌ، أي: ذَلَّ واتَّضَعَ وسَقَط.

الصَّاغِر: الراضي بالذّلّ والضَّعَةِ والْمَهانَة، يقال لغة: صَغُرَ يَصْغُرُ صَغَاراً فهو صَاغِرٌ، أي: رضِيَ بالذُّلِ والضَّعَة.

فكرَّر إبليس بوقاحة طلبه من ربّه أن يمهله حيًّا إلى يوم يُبْعَثُون.

﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾.

ولم يدْعُ الله ربَّه في هذه الجلْسَةِ مُعْلِناً اعترافه بأنَّهُ رَبُّه، ومُتَذَلّلاً له

بالْعُبوديّة، بل قال: ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾ أمّا في الجلْسَتَين السّابقتين فقد قال فيهما: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾.

لقد بلغ به العِنادُ والاستكبارُ والحِرَانُ إِلَى أَنْ يسأل الله رَبَّهُ دون أن يقول له: رَبِّ.

فاكْتَفَىٰ الله عزّ وجلّ في جوابه بعبارة: «إِنَّكَ مِنَ المنْظَرِينَ» أي: إِنّكَ واحِدُ مِنْ المنظرين، كما سبق أن قضينا لك، دلَّتْ على هذا عبارة:

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾.

وبعد أن انتهت جلسات محاكمة الله عزّ وجلّ لإبليس الثلاث، أعلن إبليس لِرَبّه خُطّته الّتي رسمها للإغواء:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾: أي: فبِسَبَبِ حُكْمِكَ القطعي عليَّ بالْغواية، وهي الإمعانُ في الضلال والبُعْدِ عَنْ صراط الحقّ والهدى، والخيبة والفساد وترك سبيل الرشاد عن قصْدٍ وتعمّد، اتّباعاً للهوىٰ ونوازع النفس الطاغية.

﴿. . لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾﴾: أي: أُقْسِمُ لأَقْعُدَنَّ لإغوائِهِمْ مُلَازِماً صِرَاطَك المستقيم الذي ستُبَيِّنُه لهم، وتأمُرهم أن يسْلكوه ويلْتزموا حدوده.

ضُمِّنَ فعل «أَقْعُد» معنى فعل «أُلازِم» فَعُدِّي تعْدِيته، فانتصَبَ لفظ «صراط» على أنه مفعول به، فأغنت الجملة الواحِدَةُ عن جُمْلتين، والمعنى: لأقْعُدَنَّ لهم ملازماً صراطَكَ المستقيم.

فأبان بالْقُعُود معنى التمكُّن، وأضاف إليه بالتعدية معنَى الْمُلَازمة، فتمَّت المرابَطَةُ كامِلَةَ العناصر.

وهذا الْعَزْمُ الخبيثُ الذي أعلنه إبليس، قد قدَّمه ملاحظاً فيه ذُرّيَّته من

الجنّ وجنودَهُ من الشياطين، لأنّه لا يستطيعُ أن يقوم بكلّ الأعمالِ بنفسه، وقد دلّ على أنّ ذُرّيّته سيكونون جيْشَ إغواء تَحْتَ أَمْرِه وسُلْطانه قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

ودَلَّ على أنّ لإبليسَ جنُوداً، وَيَظْهَرُ أنَّهُمْ من شياطين الجنّ والإنس الّذين يُجَنِّدُهم من غَيْر ذُرّيّته، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بشأن مصير الكافرين والمشركين في الجحيم:

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

ومعلُومٌ أنّ المرابطة بتمكُّن وملازَمَةٍ وَتَرَصُّدٍ هي أوّل شروط أعمال الإغواء والإغراء، للإبعاد والصَّرْف عن صراط الله المستقيم.

واختار إبليسُ بذكاء أنْ تكون مرابطتُه عنْد صراط الله المستقيم، لأنّ همَّه الأكبر هو أن يَصْرِف عنه المتوجِّهين لسُلوكه، وأنْ يُخْرِجَ منه السَّاكين فيه.

أمّا الآخرون فإنَّهُمْ في سبُلِهم المختلفة التي انحرفت عن صراط الله عزّ وجلّ ضالُّون غاوُون، قَد كَفَوْا إبليس وجنوده مُهِمَّة إغوائهم، بل هم مُتَهيّئُونَ لأن يكونوا من جنوده شياطِينَ إنْسٍ مع شياطين الجنّ.

وبعد المرابطة عند صراط الله المستقيم نُلاحِظُ أنّ أعمال المغْوين تَنْحَصِرُ بأربع جهات.

الجهة الأولى: هي الواقعة بين يَدَي السّالِكِ، لصدّه عن الدُّخول في الصراط.

الجهة الثانية: هي الواقعة خلْف السالك، لمنْعِهِ بالجذْبِ عن الدُّخول في الصراط.

الجهة الثالثة: هي الواقعة عن يمين السّالِكِ، لتحويله ذَاتَ الْيَمينِ بعيداً عن الصِّراط.

الجهة الرابعة: هي الواقعة عن يسار السَّالك، لتحويله ذات الشمال بعيداً عن الصراط.

أمّا جهة ما فوق الصراط، وجهة ما تحت الصراط فلا دفْع فيهما ولا جذب، إذْ مَوْقِعُ صراط الله كُلُّه من فوقه ومن تَحْتِهِ هُوَ من صراط الله.

فمن كان سالكاً على صراط الله المستقيم فكُلُّ عُلْوٍ فوقه هو من الصراط، وكلّ عُمْق تحته هو من الصّراط.

ومعلومٌ أنّ هَمَّ الشّياطين هو الصدّ عن كلّ موقع الصراط أو الإخراج منه.

﴿. . وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾: أي: ولاَ تَجِدُ في المستقبل أكْثر ذُرّيّة آدم شاكرين، بل تَجِدُ أكْثَرَهُمْ كَفُورين.

شاكر: اسم فاعل يَصْدُقُ على مَنْ يَتَحقق فيه أقلُّ مِقْدَارٍ من الشكر، ويكون بالإيمان المنجي من الخلود في عذاب النّار.

لقد غلَبَ على ظنّ إبليس أنّه سَيَسْتَطِيع بوسائل إغوائه الشيطانية أن يُؤثّر على أكثر ذُرّيّة آدم، حتى يكونوا كَفُورين من الخالدين في عذاب الجحيم، وهو ظنٌّ مَبْنيٌّ على عِلْمِه بما لدىٰ الإنسان من أهواء وشهواتٍ ونزَعات قد تطمس بصيرَته.

ولهذا قال الله عزّ وجلّ بِشَأن كُفَّارِ سَبأ، في سورة (سَبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وبَعْدَ أن أعْلَن إبليس لعَنَهُ الله خُطّته في أغواء بني آدم، وجَّهَ الله عزّ وجلّ له ما جاء في قوله في سورة (الأعراف):

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿مَذْءُومًا﴾: أي: مَذْموماً، مَعِيباً، مُحْتَقراً، مَخزِيًّا، مطروداً.

﴿مَّدْحُورًا﴾: أي: مَطْرُوداً طرداً مقترناً بدَفْعٍ عَنِيف.

وقد أكّد الله عَزّ وجلّ في هذه الجلسة الثالثة، حُكْمَهُ الّذي سبَق أن أصْدَره في الجلسة الثانية، وهو ما جاء بيانُه في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) بقوله تعالى:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

* * *

(ج)
حوارٌ جرَىٰ بعْدَ انتهاء جلسات المحاكمة

وجاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) بيان حوار جرى بعد جلَسات المحاكمة، بدأهُ إبليس وهو يذوق مشاعر عذاب الطرد واللّعْن والصّغار، مخاطباً ربّه:

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾.

خاطبَ إبليس ربّه معترضاً عليه بوقاحة قائلاً: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾: أي: أرَأَيْتَ نَفْسَكَ وَمَا فَعلْتَ إذْ كرَّمْتَ عليَّ مَنْ لا يَستحقُّ التكريم، لأنَّكَ خَلقْته من طين.

أو الكاف تأكيد للخطاب الّذي دلَّتْ عليه تاء المخاطَب.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: هذه العبارة بدَلٌ من كاف الخطاب في: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾. ﴿هَٰذَا﴾: المشارُ إليه هو آدم، واستُعْمِل اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هنا للإشعار باحتقار إبليس لآدم.

﴿كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾: أي: جعلْتَه أكرَمَ مِنّي، وفضَّلْتَهُ عليّ.

﴿.. لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: اللاّم في ﴿لَئِنْ﴾ واقعة في جواب قَسَم محذوف، وتُسمَّى مُوطِّئَةً للقسم، أي: أُقْسِمُ لَئِنْ أمهلتني فعلاً، فأبْقيتَنِي حيًّا كما وعَدْتني إلى يوم القيامة، وهو يوم قيام السَّاعة التي تنتهي بقيامها ظروف الحياة الدنيا كُلُّها و ﴿أَخَّرْتَنِ﴾: فعل الشرط في ﴿لَئِنْ﴾.

﴿.. لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾:

جواب الشرط: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾: أي: لأضَعَنَّ اللُّجم في أَحْناك ذُرِّيَّة آدم، كما تُوضَع اللُّجم في أحناك الدَّوابّ، لتطويعها وقيادتها أو سَوْقِها إلى حيْثُ يريد مطوّعها.

في هذه العبارة استعارةٌ مَكْنِيَّة، إذْ شَبَّهَ إبليسُ ذُرّية آدم بالدَّوابّ الّتي تُطَوَّعُ للركُوب والقيادة والسَّوْقِ، ولم يُصَرّح بلفظ الدّواب، بل جاء بشيءٍ من خصائصها يدُلُّ علَيْها، وهو احْتِناكُها لتَطْويعها.

يقال لغة: احتَنَكَ صاحبُ الدّابَّة دابَّته، أي: وضَعَ الحبْلَ أو اللِّجام في حَنَكِها ليُطَوِّعها للرُّكوب، والقيادةِ، والسَّوْقِ.

والمعنى: لأجْعَلَنَّ ذُرّيّة آدم كالدّوابّ الّتي تُطَوَّعُ بوضْع اللُّجم في أحْناكها، ولأسيِّرَنّهمْ في هذه الحياة الدنيا عصاةً لك، ولأنْقُلَنّهم خُطْوة فَخُطْوةً، حتى أُوصِلَ من يستجيب لي منهم إلى دَرَكَةِ الكافِرين المجرمين الّذين يستحقُّون العذاب الأبديَّ الخالد في الجحيم.

واستثنى إبليس فقال: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ مُريداً بالقليل مَنْ لا يتأثَّر بوساوسِه وتسويلاته مطلقاً، وهُمُ الأبرار والمحسنون وكامِلُو التَّقْوىٰ، وهُمْ «الْمُخْلَصُونَ» و «الْمُخْلِصُونَ» بفتح اللاّم وكَسْرِها، كما جاء في النُّصُوصِ السّابقة.

فكان الرَّدُّ الرَّبَّانيُّ على إبليسَ اللّعين:

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

أي: اذْهَبْ فأنْتَ مُمكَّنٌ مِمَّا أعْدَدْت نَفْسَك للقيام به من إغراء وإغواء، دون أن يكون لك عليهم سُلْطان يُلْغِي إراداتهم الحرّة، فَمَنْ تَبِعَك في كُفْرك وتمرُّدِكَ من ذُرِّيَّة آدم فإنَّ عذاب جَهَنَّم جزاؤكم جَميعاً حالَةَ كونه جزاءً مَوْفُوراً، أي كثيراً واسعاً، يأخُذُ كلُّ واحدٍ منكم جزاءه بالعدْل فيها.

وللهِ جلّ جلاله وعظُم سلطانهُ حكْمَةٌ بالغة، في هذا التمكين لإبليس وجنوده من الإغراء والإغواء بالوسوسة واستثارة الأهواء والشهوات، دون أن يكون لهم سُلْطان يؤثّرون فيه بالجبر على الموضُوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان.

وهذه الحكمةُ تظهر لنا حينما نُدْرِك أنّ إراداتهم الحرّة، تكون في الحياة الدُّنيا عند الإشارة المتوسطة تماماً، بين طريق الخير وطريق الشرّ، بين نَجْدِ الْهُدَى ونجد الضلال، وفي كلّ واحدٍ منهما ما يَجْذِبُ إرادة الإنسان إليه.

ففي نجد الخير والهدى منطِق العقل والحكمة والرشد، والإغراء بالسَّعادة الحقيقيّة العاجلة والآجلة، والخلود الأبديّ في جنّاتِ النعيم، مع

الخلاص والنجاة من عذاب الجحيم، كما جاء في بيانات الله ورسوله المطمئنة المقْنِعَةِ بالأدلّة البرهانية القاطعة، والمتضمّنة وعْدَ الله الحقّ، الذي هو مالِكُ الوجود كلّه، ورَبُّ كلّ شيء.

وفي نجد الشرّ والضلال زيناتُ الحياة الدّنيا وشهواتُها ومُغْرياتها العاجلات، وزُخْرُفُ وساوس الشياطين وتسويلاتهم وإطماعهم بالباطل، ووعودُهم الكاذبات، وحُجَجهم الباطلات مغلّفةً بالإغراء بتحقيق عاجِل الأهواء والشهوات.

وبهذا يتمّ التكافُؤ بين جواذب طريق الخير والهدى، وجواذب طريق الشرّ والضلال، في التأثير على الإنسان.

وعندئذٍ تكونُ الإرادة المقترنة بالْقُوَّةِ الإدراكيّة الواعية في المخلوق الممتحن هي المرجّحة في السَّير في طريق الخير والهدى، أو السَّيْرِ في طريق الشرّ والضلال، خلال رحلة الامتحان، في مسيرة الحياة الدنيا.

والتمكين الّذي أعطاه الله جلّ جلاله وعظم سلطانه، لإبليسَ وجنُوده، دون أن يكون لهم سلطانٌ جَبْرِيٌّ على العباد الموضوعين موضع الامتحان، يتلخّص بأرْبَعةِ مجالات:

المجال الأول: هو المجال الإعلامي الدّعائي بالوساوس والتسويلات وأنواعٍ لا تُحْصَرُ من زُخْرُف القول.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في هذا النّص خطاباً لإبليس:

﴿.. وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ .. ﴿٦٤﴾﴾:

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾: أي: واعْمَلْ بوسائِلِك الصوتية الإعلاميّة لتَسْتفِزَّ بها مَنْ تَسْتَخِفُّ منهم، فَتُنْهِضَهُ من مكان استقراره، وتجعلَهُ يَتّبِعُك برعونة.

يقال لغة: اسْتَفَزَّهُ الخوف، أي: استخفَّهُ فأنهضه. ويقال: اسْتَفَزَّ

المنادي قومَه، أي: أثارهم وأزْعَجَهُمْ بنِدائه، وجعلهم يَنْهَضُونَ ويَنْشَطُونَ لتلبية النداء. ويُقال: اسْتَفَزَّه، أي: استخفَّهُ بالمخيفات والمفزعات، واستخْرجَه وخَتَلَه حتّىٰ ألقاه في مَهْلكة.

ومن الملاحظ أنّ شياطين الإنس الّذين يتلَقَّوْنَ بالإيحاء من شياطين الجنّ تعليماتهم، ويُضِيفون إليها إضافاتٍ لا يَسْتَطِيعُها أولياؤهم من الجنّ، قد استخدموا في هذا العصْر وسائل الإعلام المختلفة، للإغراء والإغواء والتضليل والإخراج عن صراط الله، والسَّوق إلى سُبُل الجحيم، وهي جميعها تدخل تحت عنوان «الاستفزاز الصَّوْتي».

ويَدْخل في الاستفزاز الصوتي كُلُّ وسائل الإعلام المسموعة والمقروءة والمشاهدة، إذ القاعدة الأولى لكلّ ذلك: زُخْرُف القولِ الذي يطْلَقُ بالصوت.

المجال الثاني: جمع الجنود والأعوان والأنصار للإغراء والإغواء، من شياطين الجنّ والإنس.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لإبليس اللّعين: ﴿. . وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . . (٦٤)﴾:

﴿وَأَجْلِبْ﴾: يقال لغة: أَجْلَبَ العدوُّ على عَدُوّه، أي: جَمعَ جنُوده وأنْصارَه وأعوانه، لتحقيق غايته.

﴿بِخَيْلِكَ﴾: أي: مُتَقَوّياً بخيلِك، وذكر الخيل كناية عن الفرسان، أي: متقوياً بفُرْسانك الّذين يقاتلونَ على الخيول.

﴿وَرَجِلِكَ﴾: فيها قراءتان: «رَجْلِكَ» بإسكان الجيم و «رَجِلِكَ» بكسر الجيم، أي: ومتَقَوّياً بالجنود المشاة على أرجلهم.

وقد كانت جيوش المحاربين تتألّف من مقاتلين فرسان يمتطون

الخيول، ويقاتلون وهم على ظهورها، وهم القوّة الأشد، ومن مقاتلين رِجالٍ يمشُونَ على أرجلهم، يقاتلون حينما تلتحم الصفوف.

والمعنى: واجْمع لتحقيق ما عزمْتَ عليه من إغراءٍ وإغواء كُلَّ قواتك، فعبارة: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ كنايةٌ عن تمكينه من جمع كُلّ قوّاته الّتي يستطيع جَمْعَها.

ومن الملاحظ أنّ جنود إبليس من الإنس يجْمَعُون قوّاتٍ عظيمة، ويبذُلونَ في جمعها أموالاً كالجبال للقيام بمهمات الإغراء والإغواء والإضلال، للإبعاد عن صراط الله المستقيم والإخراج منه.

المجال الثالث: المشاركة في الأموال والأولاد.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لإبليس اللّعين:

﴿.. وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ..﴿٦٤﴾﴾.

أمّا مشاركة إبليس للناس في الأموال فتكون بإغرائهم حتى يأكلوا أموال بعضهم بالباطل، وحتى يَسُنُّوا قوانين طاغوتية تخالف شريعة الله لعباده.

ومن أمثلة هذه المشاركة الّتي ظهرت في النّاس البنوك الربويّة، التي يُغْري شياطين الجنّ والإنس الناس بالتعامل عن طريقها، حتى أمست أمْوالُ معظم الناس في أيدي أصحاب هذه البنوك، يتصرّفون بها على مناهج إبليس، وهذه من مشاركة الشيطان بمناهجه للناس في أموالهم.

ومن أمثلتها أيضاً المضاربات المحرّمة، والاحتكارات، والغش، وأنواع القمار، وقرارات التأميم الاشتراكية والرشوات والسرقات.

فقد صار الشيطان شريكاً للنّاس بمناهجه المخالفة لصراط الله المستقيم، في معظم أعْمالِ اكتساب المال وجمْعِه ومَنْعِه.

وأمّا مُشاركَتُه للناس في الأوْلاَد، فتكونُ بإغرائهم حتَّىٰ يخالفوا صراط الله المستقيم، فيما زَيَّنَ الله لهم من حبّ الشهوات من النساء والبنين.

ومن الملاحظ أن دَعَواتِ إباحيَّة الجنس، وانتشارَ هذه الإباحيّة في العالم، بتأثير الدّعاة المنتشرين الداعين إليها، قد أمست لعبة شياطين الجنّ والإنْسِ في عالمنا المعاصر، وقد كان لهم نظراء في مختلف أُمَمِ الأرض وشُعُوبها في العصور الغوابر.

وممارسة الناس الإباحيات في هذا المجال، هي من مشاركة إبليس لهم في أولادهم الّذين يولَدُونَ من غير طريق الزواج الذي شرعه الله عزّ وجلّ للناس.

المجال الرابع: مواعيد إبليس وجنوده للناس القائمةُ على التغرير بهم، لاستدراجهم إلى مهالكهم، أوْ إزلاقهم إلى نكد الحياة الدنيا ومتاعبها، والحرمانِ من سعادة النفس، وراحة الضمير، ثم إلى عذاب الله يوم الدّين.

دلّ على هذا المجال قول الله عزّ وجلّ في النصّ خطاباً لإبليس اللّعين:

﴿وَعِدْهُمْ﴾: أي: وَزَيّن لهم بما تقدّم لهم من وعود كاذبة الابتعاد عن صراط رَبِّكَ المستقيمِ لعباده.

وفي تحذير الله عزّ وجلّ النّاسَ من مواعيد الشيطان الكاذبة، قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾:

الغرور: الخداع والإطماعُ بالباطل.

ومن أمثلة وعد الشيطان للإنسان أن يوسوس له بأنَّ المال هو وسيلة

السّعادة في الحياة، فيغترّ الإنسان بهَذِه الوسوسة، فَيَسْعَىٰ في جمع المال من كلّ وسيلة محرّمة، يكون فيها ظالماً آثماً معتدياً.

ومن الأمثلة أن يخوّفه من البذل في وجوه الخير ابتغاء مرضاة الله، حتَّىٰ لا يفتقر فيكون عالةً على غيره، وأَنْ يُغْرِيه بالبذل في الشهوات واللّذّاتِ وتحقيق الأهواء، لاغتنام مُتَعِ الحياة الدّنيا قبل أن يأتيه الموت المحتوم.

ومن الأمثلة أن يَعِدَهُ بالظفر بمجد السُّلْطَان والْعُلُوّ في الأرض، إذا أقام الحروب، أو انتمىٰ إلى دولة كافِرَةٍ عظمى، أو انتمىٰ إلى جماعة سِرِّيَّةٍ لا تؤمن بالله ولا باليوم الآخر، إلى غير ذلك من وعود لا آخر لاحتمالات صورها.

ولقد انطلق الشيطان في هذا المجال انطلاقاً واسعاً يَعِدُ الناس ويُمَنِّيهم بالغرور.

فقول الله عزّ وجلّ التحذيريّ: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ أي: وما يَعِدُهم الشيطان إلاّ وَعْداً غروراً، خداعاً وإطماعاً بالباطل.

«غروراً» صفة لموصوف محذوف هو مصدر «يَعِدُهُمْ». وقَدْ جاء الوصف بالمصدر للمبالغة، حتَّىٰ كَأَنَّ الْوَعْدَ هو غرور، من شدَّة ما فيه من تغرير وخداع وإطماعٍ بالباطل.

وبعد البيان السابق قال الله عزّ وجلّ لإبليسَ اللّعين:

﴿..إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ .. ﴿٦٥﴾﴾:

أي: إنّ عبادي الّذين يستعيذون بي، ويَحْتَمونَ بحمايتي مؤمنين بي، ليس لك عليهم سلطانٌ تؤثر به عليهم، لأنني سأوَفّقهم إلى تحقيق نهاية سعيدة.

ويمكن أن نفهم من هذا النص ما يلي: إنّ عبادي كلّهم لا أجعل لك

سُلطاناً جبريًّا عليهم، تلْغي به إراداتهم الحرّة، ولا يكون منك لهم أكثر من اتخاذ الوسائل الإغرائية غير الإكراهية.

ونجمع بين هذا النصّ وبين النصّ الذي في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

بأن النَّصّ الذي في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) يُرادُ به السُّلطانُ الجبريّ، وهو مقدار من القوّة يُلْغِي حُرّية إرادة الإنسان تجاه الْعَمل الذي يريد الشيطان استدراجه إليه، وإيقاعه به.

وبأنّ النّص الذي في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) يُرادُ به الانقيادُ الطَّوْعيُّ، الذي يطاوع به الغاوي الشيطانَ في قيادته له، أو سوقه له، حتّىٰ يَسِير في السُّبُل المغرية الموصلة إلى عذاب الجحيم.

وأخيراً علّم الله عزّ وجلّ عبادَهُ اتّخاذَ سَبَبِ التّوكُّل عليه، لحماية أنفسهم من تأثير الشيطان عليهم، فقال الله تعالَىٰ في آخر النصّ:

﴿..وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾.

أي: فتوكّلوا على رَبّكُمْ يَحْمِكُمْ وَيَحْفَظْكُمْ من إغواء الشيطان لكم، وكفىٰ به وَكِيلاً لِمَنْ تَوَكَّلَ عليه وجاء الخطاب بأسلوب الخطاب الإفرادي والمراد جميع الصالحين للخطاب.

❁ ❁ ❁

(د)
وصيّة الله لآدم وزوجه قبيل إدخالهما الجنة

كان إدخال آدم وزوجه الجنّة إدْخالَ امتحانٍ واختبار، لا إدخال خلود وجزاء، وقد جعَل الله عزّ وجلّ الجنّة السّكن الخالد الأبديّ للمؤمنين

المتقين، ولا ينكشف الإيمان والإسلامُ وطاعة الله في أوامره ونواهيه إلاّ بعد الامتحان.

ولمّا عصيا فأكلا من الشجرة الّتي نهاهما الله عنها بتأثير وساوس إبليس وتسويلاته، وإزلاقاته، أخرجهما الله من الجنة، وأبانَ لَهُما ولذرّيّاتهما أنّ دخول الجنة للخلود في نعيمها لا يتحقّق إلاّ لمن آمن وأسلم واتَّقَىٰ ولو من أدنى درجات التقوىٰ، ولم يُشْرِك بربه شيئاً.

وقد أوصى الله عزّ وجلّ آدم قبل إدْخاله الجنّة بوصيّة حذّرَهُ فيها من إبليس اللّعين.

■ وقد جاء بيان هذه الوصية بقول الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾.

دلّت «الفاء» الّتي للترتيب مع التعقيب في: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ على أنّ هذا القول لآدم قد كان عقب إباء إبليس أن يُطيع الله في السجود لآدم.

ولا بُدّ أن نفهم أنّ هذا الإباء يُرادُ به الإباءُ الّذي اسْتَقَّر عليه إبليس بعد آخر جلْسَةٍ من جَلَسَاتِ مُحَاكمة الله له، والَّذي استقرَّ بناءً علَيْه حُكْمُ الله عليه بالإخراج والإهباط والطَّرْد، ولعْنَةِ الله المنصبَّة عليه، وحكْمِ الله عليه وعلى من اتّبعَه بأنّ جهنّم جزاؤهم جزاءً مَوْفوراً.

لقد حذّر الله عزّ وجلّ آدم وزوجه الّتي اشْتَقَّها مِنْ ضِلَعٍ من أضلاعه، منْ مكايد إبليس، وأبانَ لآدم أنّه عدُوٌّ له ولزوجه، لأنّها في تكوينها جزءٌ مستخرجٌ منه، فعدَاوة إبليس له تَسْرِي لزَوْجه، وفي بعض النّصوص الأخرى، أبان الله عزّ وجلّ عداوة إبليس لآدَم ولكلّ ذُرِّيته.

والعدوّ الّذي كانت عداوتُه بسبب أُمورٍ أفْضَتْ بِهِ إلَىٰ العذاب الخالد في الجحيم، لا يُريد بِعَدُوّه إلاّ السوء والشّر، والمصير الأبديَّ في الْعَذاب معه، لِيَنَالَ مثْلَ عذابه. أو أشدَّ مِنْ عذابه.

● قوله تعالى لآدم: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ يَدُلُّ على وجود مطويٍّ محذوفٍ، وعَدَ الله عزّ وجلّ فيه آدم أن يُدْخِلَهُ وزوْجَهُ الجنَّةَ دُخول ابتلاء، لا دُخول خلودٍ وبقاء، ويمكن تقديره بما يلي:

وقُلْنَا يا آدمُ سَنُدْخِلُكَ وَزَوْجَكَ الجنَّة دُخُول ابتلاء، فإذا دَخَلْتُما فيها فلا تمكّنا إبْلِيسَ مِنْ إغوائِكُمَا، وإيقاعِكُما في معصيَةِ رَبِّكُما، فَيَتَسَبَّبَ في إخْراجِكُمَا من الجنَّةِ عُقُوبة لكُما، وعِنْدَئذٍ تتعرَّضُ يا آدم لتحمُّلِ الشقاء ومتاعِبِهِ في الأَرْض، وتتحمل زوْجُك وذُرّياتكُما فيها مثل ذلك.

وفي هذا إعْلامٌ ضِمْنِيٌّ، بأَنَّ مَعْصِيَتَهما لأوامر الله ونواهيه وهما في الجنّة عقابُه الإخراج منها إلى الأرض.

الشقاء: يُطْلَق على كلّ ما لا يَسُرُّ الإنسان من أمور، وعلَىٰ ما يُخالف رغبته ومطلوبه، من أدنَىٰ المكَارِهِ إلى أشَدِّ المؤلمات.

والمراد بالشقاء في الحياة الدّنيا على ظهر الأرض، ما فيها من متاعب الكدّ والكدح في العمل لاكتساب الرزق، وما فيها من متاعب الأوجاع والأسقام، وتحمُّلِ مَكارِهِ القلق والخوف والهم والحزن ونحو ذلك.

ولمّا كان الرّجل هو المسؤول الأوّل عن كسب رزقه ورزْقِ أسْرَته على ظهر الأرض، قال الله عزّ وجلّ لآدم: ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ ولم يَقُلْ له فَتَشْقَيَا، أي: فستُضطر لأن تكون الأكثر تحمُّلاً لعناء الكدّ والكدْحِ في العمل لاكتساب رزْقِك ورزقِ أسْرَتك.

■ وأبان الله عزّ وجلّ لآدم ميزة بقائه في الجنَّة إذا حافظ على طاعة الله فيها، وتُلْحَقُ به زَوْجَتُه، فلم يعصيا ربّهما، فقال له في سورة (طَه) أيضاً:

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾: أي: ولا يَمَسُّكَ فيها حرُّ الشَّمس، يقال لغة: ضَحِيَ يَضْحَىٰ ضَحْواً، وضُحُوّاً، وضُحِيًّا، وضَحاً، أي: أصَابه حرُّ الشمس.

إنّه بَعْدَ أَنْ يسْكُنَ الجنَّةَ الخاليَةُ من عوامل الأوجاع والأسقام، مع زوجته التي يسْكُنُ إليها، ويأنَسُ بها وتأنَسُ به، لا يكون له من مطالب العيش إلاّ المطالب الأربعة الّتي ذكرها الله له:

المطلب الأول: أن لا يجوع، فالطّعامُ في الجنّة وفير لا ينْفَد.

المطلب الثاني: أن لا يَعْرَىٰ، فاللّباس الفاخر الفارة في الجنّة كثير.

المطلب الثالث: أن لا يَظْمأ، فالماء وأنواع الشراب اللّذيذ الأخرى لا تنفد.

المطلب الرابع: أن لا يضحَىٰ، فلا تَمسَّهُ فِيها حرارة أشعة الشمس، إذ الجنّة ظلٌّ ظليل دائم، ونفي التأذّي بحرارة الشمس يدُلُّ على نفي التأذي بالْبَرْدِ عن طريق اللّزوم الذهني، وقد جاء في القرآن التصريح بأنه ليس فيها زمهرير.

وهذه قصوى مطالب الجسد في حياة الامتحان، وقد سبق أن علمنا أنّ دخول آدم وزَوْجِه الجنَّةَ، قد كان دخول ابتلاء، لا دخول جزاء وبقاء.

(هـ)
بيان إسكان الله آدم وزوجه الجنة وبيان ما أباحه وما حرّمه عليهما

(١) جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن إسكان الله عزّ وجلّ آدم وزوجه الجنة، بيانُ ما قاله الله تعالى لآدم، مقتطعاً من الحدث نفسه، وفْقَ الأسلوب الذي انفرد به القرآن.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ تَضَمَّنَتْ هذه العبارة التوجيه لآدم وحواء أن يَسْكُنَا الجنَّةَ، وتَضَمَّنَتْ تَزْويجَ الله آدم من حواء بعقد زواج صادر عنه جلّ وعلا، أخذاً من عبارة: ﴿وَزَوْجُكَ﴾.

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾: أي: فَكُلا عَقِبَ دُخولِكُما من أيِّ مكان في الجنَّة شئتما، ما يُؤْكل من ثمراتها وطيباتها.

﴿.. وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: في هذه العبارة نهاهما الله جلّ جلاله عن أن يأكُلا من شجرة مُعَيَّنةٍ، أو من صنف من أصناف الشجر والله أعلم، ومبالغةً عن أن لا يأكلا منها نهاهما عن أن يقرباها، حمايةً لهما من الانزلاَق إلى المعصِيَة فيأكلا منها.

ودلّ هذا النهي مع الحكم عليهما بأنهما سيكونان من الظالمين إذا أكلا منها، على أن إدْخالهما الجنَّة قد كان إدخال ابتلاء، لا إدخال خلود وبقاء.

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: فتكونا من الظالمين لأنفُسِكُما بمعصِيَتكما، وظُلْمُكُما هذا يُسَبِّب لكما الإخراج من الجنّة، والإهباط إلى الأرض، الّتي تتحمّلان فيها متاعب الامتحان الأشدّ أنتما وذرِّيَاتكما.

دلّت على هذه المطويات نُصُوصٌ أخرى، مع النظر إلى واقع الحياة الدنيا.

(٢) وجاء في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

● فجاء هذا النصّ بأسلُوب حكاية قولٍ مضىٰ: ﴿وَقُلْنَا﴾ للإشعار بأنّ نصّ (الأعراف) قد جاء نصًا مقتطعاً من الحدث الماضي.

● وجاء في سورة (الأعراف): ﴿فَكُلَا﴾ للدّلالة على أنّ الإذن لهما بالأكل من الجنة لا يحتاج انتظار شيءٍ من الأشياء، بل لهما مباشرة الأكل عقب الدخول فوراً، لأنّهما سيَصِلاَنِ عَقِب الدخول إلى ما يُؤكَلُ فيها.

● أمّا في سورة (البقرة) فجاء: ﴿وَكُلَا﴾ للدلالة على الإباحة المطلقة، سواءٌ أكان الأكل عقب الدخول أم بعد ذلك على ما يشاءان.

● وجاء نصّ (الأعراف): ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

● وجاء نصّ (البقرة): ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾.

رَغَداً: أي: كثيراً طَيِّباً مُتَنَوِّعاً رَفِيهاً، أي: وكُلا منها مأكولاً رَغداً كثيراً طيباً مُتَنوِّعاً رَفِيهاً.

فأضاف نصّ (البقرة) وصْفَ المأكول في الجنَّةِ بأنّه رَغَد.

(و)
مكايد إبليس الشيطان لهما في الجنّة

(١) جاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾:

﴿فَوَسْوَسَ﴾: الوسوسةُ في اللُّغة: الصَّوْتُ الخفيُّ، والوسْوسَةُ والوِسْوَاسُ: حديث النفس.

ووساوس الشيطان الذي يجري من ابنِ آدم مجْرَىٰ الدّم، تَأتي على صورة خواطر تُزيِّن فِعْل الشرّ والإثم، لحمْلِ الإرادة على التنفيذ. ولا نَدْري

كيف وسْوَس الشيطان إلى آدم، وقد يكون قد ظهر له بصورة مَلَكٍ من الملائكة، أو بصورة جنّيّ من الصالحين، أو غير من شَكْلِه تَنَكُّراً والله أعلم.

ويظهر أنّ ما تضمّنه هذا النصّ هو بِداية الحركة الكيديّة الإغرائيّة من إبليس الشيطان بالوسوسة، الّتي اتَّخَذَت أسلوباً غير مباشر، حتَّىٰ تَصِل إلى مراكز التأثير في نفس آدم، بدليل استخدام حرف الجرّ «إلى» في قول الله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. حرف الجرّ «إلى» يدُلُّ على بُعْدٍ مَا بين بدء الحركة والوصول.

وجاء الحديث في هذا النصّ عن آدم منفرداً عن زوجته، وذكر الله عزّ وجلّ فيه إبليس باسمه الوصفيّ الجديد «الشيطان» المأخوذ من فعل «شَطَنَ» بمعنى بَعُد، والمأخوذِ من الشَّدِّ بالشَّطَنِ، وهو الحبْلُ الّذي يُدَلَّىٰ بِه الدَّلْوُ إلى البئر. وقد استحق إبليس هذا الاسم الوصفيَّ الجديد إذْ قَدْ هيّأَ نفسه للإغراء والإغواء والإضلال عن صراط الله المستقيم، وممّا لا شكّ فيه أنّ إبليس قد صار بذلك بعيداً عن الحقّ، مطروداً من دائرة رحمة الرحمن الواسعة، ومُبْعِداً عباد الله عن الصراط المستقيم بوساوسه وتسويلاته، وهو يَتَّخِذُ حبائل كثيرة يُدَلِّي بها عباد الله إلى جحيم المعاصي والآثام، حتىٰ حضيض الكفر بالله جلّ جلاله.

وحين تكون الدعوة إلى الإثم والعصيان وسوسةً في الصدر من مُحَدِّثٍ غير مَرْئي، فإنّ الإنسان يَشْعُر بأنّها من قبيل حديث نَفْسِه لذاتها، وهذا أَدْعَىٰ إلى الاستجابة والاندفاع إلى ما تَدْعُو إليه الوسوسة.

● ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

بدأ إبليس الشيطان آدَمَ بأسْلوبٍ استدراجي، تجاهَلَ فيه أنّه يَعْلَمُ أنّ الله عزّ وجلّ نَهاهُ وَزَوْجَهُ عن أنْ يأكُلا من الشجرة، فقدّم إغراءه له بأسلوب العرض الاستفهاميّ ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾ وأوْهَمَهُ أنه لا يعْلَم شيئاً عن قصّة

الشجرة المحرّمة عليهما، وأنّه خالي الذهن من هذه القضيَّة تماماً، وأنّه حريصٌ على نُصْحِه، فهو أسْبَقُ مِنْهُ وُجوداً، وأعْلَمُ بحقائق كثيرٍ من الأمور، وبصِفاتِ الأشياء وخصَائِصها، وأغراه بالخلْدِ في الجنَّة، بحياةٍ أبديَّةٍ دائمة لا تنقطع مع نَعِيم عظيم ومُلْكٍ لا يَبْلَىٰ وَلا يفنى.

أمّا الخلْدُ فبتَأثير عَنْصرٍ أو مجموعة عناصر تشتمل عليها شجرة الْخُلْد، وسمَّاها إبليس شجرة الخلْدِ قَبْلَ أَنْ يَدُلَّ آدم عليها، لإشْعَارِه بأنّ هذا الاسم الوصفيّ هو اسْمُهَا المعروف عند أهل الملأ الأعلى، وهي شجرةٌ من أشجار الجنَّة.

فاستَثَار إبليسُ بهذا العرض طَمَع آدم وتَشَوُّقَه لمعرفة هٰذِه الشجرة، حتّىٰ يأكُلَ منها.

ومعلومٌ أنّ النفس الإنسانيّة متَىٰ تعلَّقَتْ بمَجْهولٍ فيه مطْلَبٌ عظيم من مطالب النفس، أخَذَتْ تَغْلِي مراجِلُها للتَّعرُّفِ عليه، والوصول إليه، واستعماله لتحقيق مطلوبها العظيم.

وهذا هو أسلوبُ التَّشويق للرَّبْطِ والإزلاق.

وأمّا الملْكُ الّذي لا يبلىٰ، أي: لا يفنىٰ ولا يهترئ كما تَبْلَىٰ الثياب، فهو فيما يظْهَرُ إغراؤه بسلطانٍ دائم على ذُرّيَاته الّذين يتناسَلُونَ منه فيها، بعْدَ أن يأكُلَ من شجرة الْخُلْد فيكون من الخالدين، وإغراؤُه بسلطان دائم على أهل الجنة وسكانها من غير ذُرّياته.

بعد هذا التشويق والتعليق للرَّبْط والإزْلاَق، لا بُدَّ أن يكون آدم قد قال لإبليس: نَعَمْ، دُلّني عليها. ولكنّ النصّ سكت عن هذا إيجازاً.

وهنا يأتي دور إبليس في إلْهَاب أشواق آدم للتعرّف على شجرة الخلْد، ومع لهيب الشّوْق يحْصُل في البصيرة غشاوةٌ وسُلْطانُ هوى، لكنّ هذه الأطوار قد طواها القرآن، لإمكان التوصُّل إليها بالتدبُّر والتفكير العميق.

وندركُ ذهْناً أنّ إبليس اللّعين، لمّا وَجدَ الحالة النفسيَّة لدى آدم ملائِمةً لتعريفه بالشجرة الّتي سمّاها له شجرةَ الخلْدِ، مع أنّها في الحقيقة شجرةُ الطَّرْدِ والإخراج من الجنّة، عَرَّفَهُ بها.

ولمّا عرّفه بها وهي قريبة منه، قال آدم لإبليس: لقَدْ نَهانَا رَبُّنا عن أَنْ نأكُلَ مِنْها، فإذا أَكَلْنَا منْها كُنَّا مِن الظالمين لأنفسهم بمعصية الله، وتَعَرَّضْنَا للإخراج من الجنّة.

عندئذٍ استغلّ إبليس حالة التوتر النفسيّ لدى آدم وزَوْجه، وَحالَةَ القلَقِ الناتج عن حرصهما على الخلود وعلى المُلْكِ الذي لا يَبْلَىٰ، وخَوْفِهما من المعصية والإخراج من الجنّة على احتمال أنْ يكونَ هذا النّاصِحُ الموسْوِسُ لهما كاذباً عليهما، في ادّعائه أنّها شجرَةُ الخلد، فاستطاع إبليس أن يختصر الطريق على نفسه، فيَصِلَ إلى الوسوسة لهما معاً ومباشرة.

وهُنَا تأتي دلالة البيان الذي جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجل:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا . . ﴿٢٠﴾﴾.

كان إبليس يوسوس إلى آدم بأسلوب غير مباشر، كما جاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) بدليل استعمال حرف «إلى».

فصار يوسوس لآدم وزوجه بصورة مباشرة، دلّ عليها استعمال حرف اللاّم في: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا﴾ مع استعمال الضمير العائد على آدم وزوجه.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا﴾: أي: لِيُظْهِرَ لَهُما.

﴿مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾: أي: مَا سُتِرَ وأُخْفِي عَنْهُما من سَوْءَاتِهما.

كان إبليس اللّعين يعْلَم أنّ الأكْلَ من هذه الشجرة المحرّمة، سيكون

من آثاره السببيّة في جلودهما تَساقُطُ ما كان يسْتُرُ جلودهما من كُسْوَةٍ عليها.

وبتساقُطِ هذه الكُسْوَةِ السَّاترة تنكَشِفُ سوْآتهما، وتظهر عليهما آثار مَعْصِيَتهما، إذْ لكلّ معصية آثارٌ تظهر بحسَبِ سُنَنِ الله السببيَّة، وحين تظهر لهما سوْآتهما ينكشِفُ لهما أنّ إبْليس خَدَعَهُما، وغرَّرَ بهما، وكان أقوى مِنْهما بمخادعته وحيلته، وأنَّه شَفَىٰ غيظه منهما.

وبهذا يتَسنّىٰ لإبليس أن يدّعيَ أنّه قد كان معذوراً في رفضه السجود لآدم، فعلَىٰ آدم وزوْجِه أن يتحمَّلا نتائج معصيتهما إخراجاً من الجنّة، وإهباطاً إلى الأرض، كما طُرِدَ هُو بمعصيَته من منازل أهل الملأ الأعلى من الملائكة.

وأدرك إبليس اللّعين أنّه متَىٰ انكشَفَت سَوْآتُ آدم وزوْجه المادّيّة، انكشفت بانكشافها سوْآتهما النفسيّة الّتي من جبلَّتِها الميلُ إلى المعصية بتأثير الأهواء والشهوات والرّغبات.

كان إبليس مُتَلَهِّفاً لأنْ يرىٰ أوّل ظاهرة من ظواهرِ معصيتهما، وهي ظاهرة بُدُوّ سَوْآتهما، وما يصاحبُه مِنْ حزنهما وَآلاَمِهِمَا، وخوفهما من الإخراج من الجنة، فقد سبَق أن حذَّرهما ربُّهما من ذلك.

وسعىٰ إبليس يُزيّن لهما بوساوسه وتسويلاته أن يأكُلاَ من الشجرة المحرّمة، فقدّم لهما إغراءات كثيرات.

ويظهر أنّ إغراءاته لهما لم تؤثر عليهما، حتَّىٰ ظفِرَ بنقطة ضعف لديهما، وهي رغبَتُهما في أن يكون لهما مثل انطلاق الملائكة في السماوات بأجسادٍ نورانية، مع رغبتهما في أن يكونا خالدين فيما هما فيه من نعيم في الجنّة، إذْ هما يَعْلَمان أنّهما في سُكْنَىٰ ابتلاء، لا في سُكْنَىٰ دوامٍ وبقاء.

عندئذ زرع إبليس اللّعين الشَّكّ في قلوبهما حول الغرض من نهي الله

لهما عن أن يأكُلَا من الشجرة المحرّمة، وفي بيان هذه الحيلة الإغرائية الشيطانية قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ما نَهاكما رَبُّكما عن أن تأكلا من هذه الشجرة إلاّ مَنْعَ أَنْ تكونا مَلَكَيْنِ نورانيَّيْنِ تنطلقان حيْثُ تَشَاءان في أرجاء السماوات وفي آفاق الجنّة، أوْ مَنْعَ أن تكونا مِن الخالدِين، وزعَمَ لهما في هذا أنّه توجد مخلوقاتٌ حيَّةٌ خالدة، مع أنّ برنامج خطة الله عزّ وجلّ للحياة الأولى تقضي بإماتة كلّ مخلوق حيّ، كما قال تعالى في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿... كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

فزرع إبليس بهذه الوسوسة الشّكّ في قلوبهما، إذْ أَوْهَمَهُمَا أنّ للأشياء طبائع ذاتيّةً أصليّة ثابتة، والله يخلُقُ من خلالها.

وهذه الفكرة الشيطانية الإبليسيّة القديمة المكَفِّرَة، هيَ الفكرة الّتي سقط في حبائلها الطبيعيون، والملاحدة المادّيون، اغتراراً بأنّ الله عزّ وجلّ جعل تصاريف خلقه مقيّدة بالأسباب الّتي وضعها هو سبحانه في الأشياء، ليمتَحِنَ عباده في الإيمان به خالقاً من وراء الأسباب، وأنّ الأسباب لا تَزِيدُ على كونها بمثابة قنواتٍ يمُرُّ الخلْقُ الرَّبّاني من خِلَالها، ولو شاء الله عزّ وجلّ لخلَقَ ما شاء بأمْرِ التكوين، دون أنْ يمُرَّ خلْقُه من قنوات الأسباب، إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كُنْ فَهُوَ يكون بأمْرِ التكوين، والأسباب سواتر للخلق الرَّباني المباشر للأشياء.

لقد زعم إبليس في وسوسته وتسويله لآدم وزوجه أنَّ عنصر الشجرة المحرّمة يُحَوِّل الآكل منها إلى مَلَكٍ نورانيٍّ يَعْبُر أقطار السماوات بخفّة الأنوار، أو بخفة الأرواح المجرّدة، أو يجعله خالداً يعيشُ أبداً دون أن

يُدْرِكَه الموت، وأَوْهَمَهُما أنّ ربّهما لا يُريد لهما أن يكونا ملَكَيْن، أو من الخالِدين، فحرَّمَ عليهما أن يأكلا من هذه الشجرة.

وممّا لا شكّ فيه أنّ قبول هذا التصوُّر يوقع في معصيَتَيْنِ هُما من أكبر الكبائر، فإنْ قَبِلا فكرة أنّ الشجرة ذات عُنْصُرٍ ذاتِيٍّ فَعَّالٍ في أن يكونا مَلَكَيْن أو يكونا مِن الخالِدِين، فقد جعلا طبائع الأشياء شُرَكاء لله عزّ وجلّ في رُبوبيته.

وما أظنّ أنّ آدم وزوجه قد سقطا في هذه الكبيرة الشركية.

وإنْ تصوّرا أنّ الله عزّ وجلّ قد جعل في هذه الشجرة هذه الميزة الخاصة، وأنّه حرَّم عليهما الأكل منها لئلا يكونا ملَكَيْن أو يكونا من الخالدين، فقد وقَعا في غفْلَةٍ عن أنّ الله جلّ جلاله مُطّلِعٌ عليهما، عليم بكل حركة يتحرّكانها، وبكلّ سكَنَةٍ يسْكُنَانها، وأنه لو كان لهذه الشجرة هذه الميزة بخَلْق الله، والله لا يُريد أن يكونا مَلَكَيْنِ أو يكونا من الخالدين، فإنّه جلّ جلاله لا يُمَكِّنُهُمَا من الأكْل منها بصورة جبرية، أو بوسيلة من وسائله القهرية.

والذي أوقَعَهُما في هذه الغفلة القبيحة شِدَّة رَغبتهما في الخلود، أو في أن يكونَا مَلَكَيْن، ومعلومٌ أنّ شِدَّة الرَّغْبَةِ تتحوّلُ إلى هَوىً، ومِنْ شأن الهوى أن يُغَشّيَ على مراكز التفكير السليم.

ولم يُصَدّقْ آدم وزوجه هذه المقولة الإبليسيّة الشيطانية، وبقيا حَذِرَيْن خائفين من السقوط في المعصية.

ويَبْدُو أنّ آدم طلبَ من إبليس أن يُقْسَمَ بالله على أَنَّ ما يقوله حقٌّ، فوجد إبليس هذا فرْصَةً مواتية ليقسم الأقسام المغلّظة على أنّه من الناصِحين لهما.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وشدّدَ القسم لهما، لأنّ صيغة «فاعل» تدلُّ على المشاركة مثل: «قَاتَل» فإذا كان الفِعْلُ من طرف واحد، كانت الصيغة دالَّةً على المبالغة في الفعل، ومع التشديد في القسم أكّدَ إبليس ادّعاءه بأدوات التوكيد المتعدِّدة: «إنّ - الجملة الاسمية - اللاّم المزحلقة - تقديم المعمول على عامله».

فاستجابا له بعض استجابة، كالاقتراب من الشجرة، فأحسّ إبليس بأنه سيظفر بإغوائهما، فتابع مَكيدته الاستدراجية شيئاً فشيئاً، خطوة فخطوة، هذه المكيدة قد جاء التعبير القرآنيُّ عنها بقول الله تبارك وتعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ... ﴿٢٢﴾﴾.

يُقال لغة: دلَّىٰ الدَّلْوَ وَأَدْلاه، إذا أَرسَلَه في البئر بشَطَنِه، أي: بحبله، ويُقالُ: دلَّىٰ الشيءَ في الْمَهْوَاة، أي: أَرْسَلَهُ فيها.

أي: فربطهما بشطَنٍ من أشطانِه الإغرائية الكاذبة، ودلاّهما في بئر المعصية، كما يُدلَّىٰ الدَّلْو في بئرٍ ما شيئاً فشيئاً، مُغَرِّراً بهما، خداعاً وتلبيساً وإطماعاً بالباطل، ورُبّما قال لهما: لا تأكُلاَ من الشجرة، ولكن ذوقا طعمها بألْسِنَتِكما.

هذه التدلية هي الوسيلة الشيطانيّة المتّبعةُ عند جميع شياطين الجنّ والإنس، من بعد إبليس، وهي المعبّر عنها بأسلوب: «خطوة فخطوة» فحيلة الإغواء الكبرى هي حيلة التدلية بالخطوات المتتاليات، خطوة فخطوة.

وهنا يأتي قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ . . ﴿٢٢﴾﴾ .

وهنا نتساءل: هل ألْقيَا ما وضعاه على ألسنتها منها بَعْدَ الذّواق أم أكَلاه وابْتَلعاه؟.

ويأتي البيان الرّبّانيّ في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) فيكْشِف أنهما قد أكلاه، قال الله عزّ وجلّ فيها

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿سَوْءَٰتُهُمَا﴾: **السَّوْأة:** هي العَوْرَة، القُبُل والدُّبر، وكُلُّ عمل وأمْرٍ قبيح شائن، والْخَلَّةُ القبيحة.

﴿وَطَفِقَا﴾: أي: وَشَرَعا عنْدَ بُدُوّ سَوْآتهما.

﴿يَخْصِفَانِ﴾: أي: يُلْصِقان على سوْآتهما ﴿مِن وَرَقِ﴾ أشجار ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ لِسَتْرِ ما بدا منهما من سَوْآتهما الّتي كانت مكْسُوَّةً بخلْق الله بما يسْتُرُها.

ودلّ البيان القرآني على أنّهما ابْتَعدا عن مَسْرَحِ المعصيةِ، فَارَّيْنِ إلى أمَاكِنَ أخرى في الجنَّة، ليْسَ فيها صنف الشجرة المحرّمة، كما سيأتي بيانه.

(ز)
محاكمة الله لآدم وزوجه على معصيتهما والحكم عليهما بالهبوط إلى الأرض

(١) جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ بعد بيان أنّهما ذاقا الشجرة، وبدَت لهما سَوْآتهما، وطَفِقَا يَخْصِفَانِ عليهما من وَرَق الجنَّة:

﴿. . . وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾:

لَقَد ابْتَعَدَا عن الله عزّ وجلّ فَاسْتَحَقَّا أن يُنَادِيَهُما نِدَاءً، إذْ جاء التعبير في النصّ: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ ولم يأت بأسْلُوبِ: وقال لهما ربُّهما.

وتَبْدَأ مُحاكَمَتُهما بطَرْح سؤالَيْن عليهما:

السؤال الأول:

﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾؟.

كان التعبير عند النهي عن الأكل من الشجرة المحرّمة مشتملاً على استعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه القريب: ﴿هَٰذِهِ﴾ وهو قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾.

وبَعْدَ أن أكلا منها وبَدَأت محاكَمَتُهما جاء التعبير مشتملاً على استعمال اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد: «تِلْكَ» وهو قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾.

فدَلَّ هذا الإجراء الْبَيَانيُّ، على أَنَّهما ابْتَعدا فارّيْن عن مسْرَحِ المعصية الّتي تقع فيه الشجرة المحرّمة، وهذا من بديع البيان.

السؤال الثاني:

﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾؟.

أي: وألم أُحذِّرْكُما من أن يُؤَثّر علَيْكُمَا إبليس الشيطان بالإغراء والإغواء، إذْ هو عَدُوٌّ لَكُما، فيكون بوساوسه وإغراءاته سبباً في معصيتكما، وإخراجِكُمَا بِها من الجنَّة؟.

فلَمْ يكن من آدم وزوجه اعتذارٌ بشيءٍ، ولا مُجَادَلَةٌ لتبرِئَة أنْفُسِهما مِنْ مَعْصِيتهما، ولا إصرارٌ علىٰ حَقِّهما في الأكل من الشجرة ولا عناد، بل كان منهما اعترافٌ بذَنْبِهما، ونَدَمٌ، واستغفار، وتَذَلُّلٌ، وسألاَ رَبَّهما أن يَرْحَمَهُمَا، فإنْ لم يَرْحَمْهُما كَانَا من الخاسرين.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في النصّ:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

فاعترفا بأنّهما قد عَصَيَا رَبَّهما، وظَلَما أنفُسَهُما بهذه المعصية، وسَألاَ الله المغفرة والرَّحْمَة، واسْتَعْطَفاه، مؤكِّدَيْنِ بأنّه إنْ لم يَغْفِرْ لَهُمَا وَيَرْحَمْهُما كَانَا حتماً من الخاسِرين، أي: وبما أنَّهُ غفورٌ رحيم فإنَّه سيَغْفِرُ لَهما وَسَيَرْحَمُهُمَا، حتَّىٰ لا يكونا من الخاسِرين الَّذِين خَسِرُوا بكُفْرِهم سعادتَهُمُ الأبَدِيَّة، وعرَّضوا أنْفُسَهُمْ للجزاء العقابيّ العادل.

(٢) وأبان الله عزّ وجلّ أنَّ آدم عَصَىٰ رَبّه، فوقَع بمعصيَتِه الإراديّة في الْغَوَاية، وهي الضلال والابتعاد عن صراط الله المستقيم، ودَلَّ على مَعْصِيَةِ زَوْجه ضِمْناً وَتَبَعاً لمعصيته.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (طٰه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾:

﴿فَغَوَىٰ﴾: أي: فَوقَع في الْغَوَاية، وهي الضلال والخيبة وترك سبيل الرّشاد، والابتعادُ عن صراط الحق والْهُدى.

(٣) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾: أي: فأزلَقهما مُبْعِداً لهما عن الجنة، بوسَاوِسِه، وتَسْويلاته، واستهواءاته لهما، المتنقلة في الخطواتِ الإزْلاقيَّة، من خُطْوةٍ إلى خُطْوَةٍ أخسَّ وأحَطَّ.

والمعنى: فأزلَّهما مُتسبِّباً في إبعاد الله لهما عن الجنّة بحُكْمِه الجزائيّ عليهما.

﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾: أي: فكان السَّبَبَ في الحكْمِ عَلَيْهِما

بالإخراج مما كانا فيه من نعيم الجنَّة، لأنَّ وُجودهما فيها قد كان وجود امتحانٍ وابْتِلاء، لا وُجُود دوامٍ وبقاء.

وصَدَرَ حُكْمُ الله عزّ وجلّ عليهما بأن يَهْبطَا من الجنّة إلى الأرض، هما وما أوْدَعَ الله فيهما من ذُرِّياتهما، وأنْ تكونَ الأرْضُ مُسْتَقراً وَمَتَاعاً لهم، مقداراً من الزمان يكونُ فيه امتحانُهم، وهو بالنسبة إلى الأفراد، ما قضىٰ الله لكلّ واحدٍ منهم من عُمْر في الأرض، وبالنسبة إلى عموم البشر الّذين يتناسَلُونَ عليها يَسْتَمِرُّ إلى حينِ إنهاءِ ظروفِ الحياة الدُّنيا بقيام سَاعَةِ الإفناء.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

هذان النصّان يَدُلاّن على ما وجّه الله عزّ وجلّ من قول لآدم وزَوْجه، وما أودع فيهما من ذُرّياتٍ سَتَتَناسَل، حتّىٰ آخِرِ مَقْضِيٍّ له بالحياة من البشر.

﴿مُسْتَقَرٌّ﴾: أي: قرار وثبوت.

﴿وَمَتَٰعٌ﴾: المتاع ما يُنْتَفَعُ به وَالفناء يأتي عليه.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: أي: إلى زَمَنٍ مَعْلُوم لِلَّهِ عزّ وجلّ، وهو ساعة موت كلّ إنسان في أجَلِه المقدّر له بالنسبة إلى الأفراد، وهو يوم قيام ساعة إنهاء ظروف الحياة الدنيا بالنسبة إلى عُموم البشر.

(٤) وَتوجَّه آدمُ لِرَبّه مُسْتَغْفِراً تَائباً نادماً، سائلاً أن يكَفِّرَ عنه خطيئته

ويَتُوب عليه، فأوحى الله إليه بكلماتٍ يقولُهُنَّ، ويَعْمَلُ بالتكليف الّذي اشْتَمَلْنَ عليه، فأدّى ما أَمَرَهُ الله به فيها، فتابَ عليه إنَّهُ هو التَّوَّابُ الرَّحِيمُ.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: فتلَقَّىٰ آدم من ربّه كلماتٍ فأتَمَّ الْعَمَل بما أمَرَه الله به فيها، فتاب عليه بفضله ومَنّه وكَرَمِهِ، إذْ إنَّهُ هُو التَّوَّابُ الرَّحيم.

تاب: أي: رَجع إلى الطاعة بعد أن عدَلَ عَنْ صراطها. وإذا تاب العبد إلى ربّه توبةً صادقةً تَابَ اللَّهُ عَلَيْه، أي: رجَعَ جَلَّ جلاله يُفيضُ عليه من رحماته وعَفْوِه، وشَمَلَه بجوده وكرَمِه وفضله.

(٥) وبعد أن تاب الله على آدم ومَرَّ زَمَنٌ متراخٍ، اجتباه رَبُّهُ، وهَدَاهُ بما أنزل عليه من بياناتٍ دينيَّةٍ يَعْمَلُ بها، ويُبَلِّغُها لِزَوْجه وذُرّيّاته، فكان بذلك نبيًّا ورَسُولاً.

دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾.

﴿ٱجْتَبَٰهُ﴾: أي: اصطفاه واختاره. وجاء فعل «اجتَبَىٰ» في القرآن مستعملاً بمعنى الاصطفاء للنبوّة والرّسالة، إذا كان اجْتِباءً للأفراد.

وجاء مرّةً واحدة بمعنىٰ اصطفاء أُمَّةِ مُحَمَّد بمجموعها لحَمْلِ رِسالته مِنْ بَعْدِه، والمراد أنّهم مسؤولون عند الله عن تبليغ رِسَالته للناس، كما كان الرسول محمَّدٌ ﷺ مسؤولاً عن تَبْليغ ما أمَرَهُ الله بتبليغه للناس، وأَنَّهم بهذا الاجتباء مَعْصُومُونَ عَنْ أن يَجْتَمِعُوا على ضلالَة.

ونستدلُّ من معنىٰ الاجتباء الوارد في القرآن، علىٰ أنَّ آدم عليه السَّلام قد اجْتَباه الله نَبِيًّا ورَسُولاً، لأوَّلِ مجتمع بَشَرِيٍّ من ذُرِّيّتِه.

(ح)
الأمر التنفيذي بالْهُبُوطِ إلَىٰ الأرض

بعد أن أصدر الله عزّ وجلّ حُكْمَه بإهباط آدم وزوجه وما أوْدَع فيهما من ذُرّيّاتهما إلى الأرض، ومرَّت مُدَّةٌ تَابَ فيها آدم، وتاب الله عليه، جاء دور إصدار الأمر التنفيذيّ بالهبوط.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول):

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول):

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًاۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

هذانِ النَّصَّان متكامِلاَن في الدّلالة على المراد، مع تكامل في الأسلوب البياني.

- فجاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... ﴿١٢٣﴾﴾.

خطاباً لآدم وزوجه، ولوحظ فيهما ذُرّيّاتهما بعبارة: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) جاء قول الله تعالى:

﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ... (٣٨)﴾.

فجاء التعبير باستعمال ضمير المتكلم العظيم: ﴿قُلْنَا﴾ إشعاراً بسُلْطَانِ رُبُوبيّة الرّبّ الحكيم جلّ جلاله، ولوحظ في خطابهما ذُرّيّاتُهما معهما بعبارة ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾.

● وجاء في سورة (طَه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾:

أي: فإمّا يأتينَّكُمْ مِنِي تَعْلِيمَاتٌ مُنَزَّلاَتٌ تبيّن لكم ديني الّذي اصطفيته لكم، وفيها هدايتكم، فاتَّبِعُوها، واعملوا بما تشتمل عليه من أوامر ونواهي ووصايا.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾: أي: فمن حرص على اتّباع هُدَايَ بقوة وعناية والتزام باهتمام.

دلّ فعل ﴿وَٱتَّبَعَ﴾ بوزن «افتعل» على الالتزام بقوة وعناية، لأنّ هذا الوزن يدلّ على التكلّف وتحمّل مشقة الانقياد والالتزام بالتكاليف الدينية.

﴿فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾: أي: فلا يَضِلُّ عن صراط الله المستقيم، ولا يَضِلُّ في السُّبُل المبتعدة عنه ضائعاً في متاهاتها، ولا يُعَرّضُ نَفْسَه للمتاعب والمشَقّات المشقيات، لأنّ الله جلّت قدرتُهُ وعَظُمَتْ حِكْمَتُه يُهَوّنُ عليه، ويُدَافع عنه، ويمنح قلبه ونفسه الطمأنينة والسعادة في حياته، وإنْ تعرَّضَ فيها للمكاره.

ويلْزَمُ من ذلك أن يكون من الفائزين الناجين من عذاب الله يوم الدّين، ومن أهل السَّعادة الخالدة في جنّات النعيم.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قال الله تعالى:

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨)﴾.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾: هذه العبارة نظير العبارة التي جاءت في سورة (طه) فلا حاجة لتحليلها وشرحها.

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾: جاء في هذه العبارة فعل ﴿تَبِعَ﴾ ومضارعه «يَتْبَعُ» على وزن «فَعِلَ يَفْعَلُ» المجرّد من الزوائد.

أي: فَمَن تَبعَ دون تكَلُّفٍ والتزامٍ بقوّةٍ وعناية، فاختلفت هذه العبارة في دلالتها عن العبارة الّتي جاءت في سورة (طه) إذْ أبانت أحوالَ زُمَرٍ من المؤمنين لم يُحَقِّقُوا كمال المطلُوب مِنْهُمْ في أن يَلْتَزِموا به في حياة الابتلاء، فكان من المناسب أنْ يكون جزاؤهم في حدود:

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: فلا خَوْفٌ ضَاغِطٌ عَلَيهم يوم القيامة من التعرُّضِ للحريق بعذاب النار، ولا هُمْ يحْزَنُونَ على ما فاتهم من أنواع متاعٍ في الحياة الدنيا، لأن ما سينالونه من نَعِيمٍ في الجنَّةِ عظِيمٌ جدًّا، وخالدٌ لا انقطاع له.

ولم يَأْت في هذا الوعد أنه لا يَضِلُّ مُطْلقاً، لأنَّ زُمَر هذا الفريق من المؤمنين قد يَقَعُ في ضلالٍ غير بعيد، وهو ضلال المعاصي والذنوب والخطايا. ولم يأتِ فيه أنّه لا يَشْقَىٰ، لأنّ زُمَرَ هذا الْفَريق من المؤمنين قد يَتْعَبُونَ وينْصَبُونَ وَيَشْقُوْنَ في الحياة الدُّنيا، وقد يَشْقَوْنَ بعذابٍ في الآخرة على مقادير معاصيهم، إذْ لم يُحَمِّلُوا أنْفُسَهم كُلْفَةَ الالتزام بقوة وعناية، بالْهُدَىٰ الّذي جاءهم من الله عزّ وجلّ ببلاغات الرُسُل عنه.

● وَجاء في سورة (طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول) قول الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾.

هذا البيان يتعلّقُ بمؤمن أعْرَض عن ذكر الله، وترك العمل بما جاء

في هُدَى الله المنزل، فكان سلوكُه مشابهاً سلوك الكافرين، فعاقبه الله عزّ وجلّ في الدنيا، فجعل له معيشةً ضَنْكاً.

الضَّنْك: الضيق في كلّ شيء، يستوي فيه المذكر والمؤنث، تقول: عَيْشٌ ضَنْك، ومعيشةٌ ضَنْك، أي: ضيّقَةٌ لا سَعَةَ فيها، وقد يكون ضِيقاً نفسيًا، ولو كان المضيّقُ عليه ذا سَعَةٍ من المال. وقد يأتي هذا الضَّنْكُ من أهله وأسرته وأولاده، أو وسائل كسْب رزقه، أو من أمراض وأوجاعٍ تتراكبُ عليه، أو من غير ذلك.

ويُعَاقِبُه الله يوم القيامة بعد البعث، فيحشُرُهُ أعْمَىٰ، نظير حَشْرِ الكافِرين، لمشابَهَتِه لهم في أعمالهم، فقال تعالى:

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾: أي: على مِثْلِ ما يُحْشَرُ عليه الكافرون، مع أنّه لم يكن كافراً في الحياة الدنيا.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾؟:

أي: لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَىٰ كالكافرين، وقد كُنْتُ في الحياة الدنيا بَصِيراً، أي: مؤمناً غير كافر.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾:

﴿كَذَٰلِكَ﴾: أي: مِثْل ذلك الّذي كان مِنْكَ في الحياة الدنيا، والمعنى: حَشْرُكَ أعْمَىٰ كَحَشْرِ الكافِرين مُمَاثِلٌ لما كان مِنْكَ في الحياة الدُّنيا، إذْ إنَّك مع كونِكَ مُؤْمِناً بي لَمْ تَتَبعْ هُدَاي الّذي أمَرْتُكَ بأن تَتْبَعه، ولم تُؤَدِّ ما أَمَرْتُكَ به، ولَمْ تَنْتَهِ عمَّا نَهيْتُك عنه، وتَرَكْتَ الْعَمَل بآياتي، فَصِرْت في حياتك مثل الكافرين في السُّلُوك.

﴿فَنَسِيتَهَا﴾: أي: فَتَرَكْتَها، وتَرَكْتَ العمل بها، أصل النسيان في اللُّغة الترك، وتَرْكُ الشيء زمَناً طويلاً يَمْحُوه من الذاكرة، فلا يخْطُر على البال.

﴿. . . وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾:

أي: ومثل تركك في الدنيا الْعَمَلَ بآياتِ رَبِّك المنزَّلات المشتملات

على هُداه، تُتْرَكُ اليوم في موقف الحشر فلا يُعْتَنىٰ بك، وتُعامَل معاملة الكافرين الذين يُحْشَرُونَ عُمْياً، لقد أغْمَضْتَ عينَيْك عمَّا قَدَّمْنَا من بيانات هداية لعبادنا، فجزَاؤُك اليوم يكون من جِنْسِ عَمَلِك، ولا يُفيد هذا الترك له يوم الحشر أَنَّه يكون من الخالدين في النار كالكافرين.

وفي سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) قال الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾:

جاء هذا البيان عقب ذِكْر مَنْ تبعَ هدىٰ الله دون التزام بقُوَّةٍ وحِرْصٍ وعناية، وَهؤلاء يتَفَاوَتُون في درجاتهم حتى أدنى دَرَجَاتِ المتقين، فالمقابل لهم هم الكافرون الّذين كَفَرُوا بالرَّسُول، وكذَّبُوا بآيات الله، فعقوبَتُهُمُ الحتْميَّة هي أَنَّهم أصحاب النار، وأنَّهم فيها خالدُون.

❋ ❋ ❋

لقد ظهر لنا في هذا الملحق التكامل في النُّصوص الواردة بشأن خَلْق آدم عليه السلام، وما رافق خلْقَه من أحداث، حتّى إهباطه هو وزوجته من الجنّة إلى الأرض.

وقد تمّ لنا من جَمْع النُّصوص وتدبُّرها تدبُّراً تكامليًّا، إدْراكُ أبْرَزِ عناصر ما جرىٰ بصورة تكاملية، وهَدانَا التأمُّل إلىٰ ملء الفراغات المطلوبة من اللّوازم الذهنية، ومقتضيات حركيَّة الحدث الّتي نفهمها من الأشباه والنظائر، والترتيب المنطقيّ لطبائع الأشياء.

وتوجد نصوص أخرى في القرآن تتعلّق بالشيطان، وهي مكملة لما جاء في هذا الملْحق، وتتطلّب دراسة مستقلّة.

والحمد لله على فتحه وتوفيقه

❋ ❋ ❋

وكان الفراغ من كتابة هذا المجلّد في يوم الخميس/ ١٣ رمضان/ ١٤١٩هجرية الموافق لآخر كانون الأول ١٩٩٨ ميلادية.

الفهرس

الموضوع **الصفحة**

(٣٤)
سورة (قَ)
٥٠ مصحف/٣٤ نزول

(١) نص السورة ٧
(٢) مما ورد في السنة بشأن سورة (قَ) ١٠
(٣) موضوع سورة (قَ) ١١
(٤) دروس سورة (قَ) ١٢
(٥) التدبّر التحليلي للدرس الأوّل: الآيات من (١ ـ ٣) ١٥
- ﴿قَ والقرآن المجيد﴾ ١٦
- ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم..﴾ ١٨
- تحليل بواعث التعجب.. .... ٢١
- تعجب المشركين الوارد في هذا الدرس ٢٢
(٦) التدبر التحليليّ للدرس الثاني، الآيتان (٤، ٥) ٢٦
- ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ﴾ ٢٦
- شمول علم الله عزّ وجلَّ كلّ شيءٍ من خلال تدبر أربعة نصوص قرآنية ٣١
- ﴿بل كذَّبُوا بالحقّ لمّا جاءهم فهم في أمْرٍ مَرِيج﴾ ٣٥
(٧) التدبر التحليليّ للدرس الثالث، الآيات من (٦ ـ ١١) ٣٧
- نظرة تدبرّية عامة حول العناصر التي اشتمل عليها هذا الدرس ٣٧
- الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالسماء ٣٩
- الآيات الكونية الثلاث المتعلقة بالأرض ٤٠
- نظرات تدبرية تحليليّة لفقرات الدرس الثالث ٤٣
- ﴿أفَلَم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها..﴾ ٤٣
نصوص تزيين السماء للناظرين في الأرض ٤٧
- ﴿ومالها من فُروج﴾ ٤٩

الموضوع | الصفحة

- ﴿والأرض مددناها..﴾ ٥٠
- ﴿وألقينا فيها رواسي...﴾ ٥١

ما جاء في القرآن بشأن امتنان الله على عباده بالجبال الرواسي ٥١

التعليق حول نعمة إلقاء الجبال الرواسي ٥٢

- ﴿وأنبتنا فيها من كل زوج كريم﴾ ٥٣
- ﴿تبصرة وذكرى لكلّ عبد مُنيب﴾ ٥٦
- ﴿ونزلنا من السماء ماء مباركاً...﴾ إلى الآية (١١) ٥٩

وظيفتا آيات الله في كونه ونِعَمِه على عباده ٦٣

- ﴿كذلك الخروج﴾ ٦٣

دلالة تشبيه إحياء الموتى يوم القيامة بإحياء النباتات من نويات بزُورها . ٦٣

(٨): التدبر التحليلي للدرس الرابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٢ ـ ١٤) .. ٧٢

- ﴿كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرسّ..﴾ إلى الآية (١٤) ٧٢
- قوم نوح عليه السلام ٧٤
- أصحاب الرسّ ٧٤
- ثمود ٧٥
- عاد ٧٦
- فرعون، قوم لوط، أصحاب الأيكة ٧٧
- قوم تُبَّع ٧٨
- ﴿كُلٌّ كذَّب الرُسُل فحقّ وعِيد﴾ ٧٩

(٩) التدبر التحليلي للدرس الخامس، وهو الآية (١٥) ٧٩

- ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ ٧٩

صوغ الدليل الذي اشتملت عليه هذه الآية بقياس منطقي اقتراني، أو بقياس استثنائي ٨١

(١٠) التدبر التحليلي للدرس السادس، الآيات من (١٦ ـ ١٨) ٨٤

- ﴿ولقد خلقنا الإنسان..﴾ ٨٥
- ﴿ونعلم ما توسوس به نفسُه...﴾ ٨٦
- ﴿ونحن أقرب إليه من حبْلِ الوريد﴾ ٨٦
- ﴿إذْ يتلقّى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ ٨٧
- ﴿ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد﴾ ٨٨

(١١) التدبر التحليلي للدرس السابع، الآيات من (١٩ ـ ٢٢) ٩٢

- ﴿وَجاءت سكرة الموت بالحقّ ذلك ما كنت منه تحيد﴾ ٩٣

الموضوع | الصفحة

● ﴿ونفخ في الصور ذلِكَ يومُ الوعيد﴾ ٩٦
● ﴿وجاءت كلُّ نفس معها سائق وشهيد﴾ ٩٨
● ﴿لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبَصَرُك اليوم حديد﴾ ٩٩
(١٢) التدبر التحليلي للدرس الثامن، الآيات من (٢٣ ـ ٢٩) ١٠١
● ﴿وقال قرينة هذا ما لدَيّ عتيد﴾ ١٠٣
● ﴿ألقيا في جهنّم كلّ كفّارٍ عنيد * منّاع للخير معتد مريب * الذي جعل مع الله إلّهاً آخر فألقياه في العذاب الشديد﴾ ١٠٧
● ﴿قال قرينه رَبّنا ما أطغيته ولكن كان في ضَلَال بعيد * قال لا تختصموا لديّ وقد قدّمتُ إليكم بالوعيد * ما يُبَدَّلُ القول لدَيَّ وما أنا بظَلَّام للعبيد﴾ ١١٠
(١٣) التدبر التحليلي للدرس التاسع، الآيات من (٣٠ ـ ٣٥) ١١٢
● ﴿يَوْمَ نقولُ لجهنّم هل امتلأتِ وتقول هل من مزيد﴾ ١١٣
● ﴿وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد﴾ ١١٥
● ﴿هذا ما توعدون لكلّ أوّابٍ حفيظ * من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ ١١٦
● ﴿ادْخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد﴾ ١١٨
(١٤) التدبر التحليلي للدرس العاشر، الآيتان (٣٦، ٣٧) ١١٩
● ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن...﴾ ١٢١
● ﴿فنقّبُوا في البلاد هل من محيص...﴾ ١٢١
● ﴿إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألْقىٰ السَّمْعَ وهو شهيد﴾ .. ١٢٢
(١٥) التدبر التحليليّ للدرس الحادي عشر، الآية (٣٨) ١٢٤
● ﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسَّنَا من لُغُوب﴾ ١٢٤
(١٦) التدبر التحليلي للدرس الثاني عشر، الآيات من (٣٩ ـ ٤٥) ١٢٧
● ﴿فاصْبر على ما يقولون...﴾ ١٣٠
● ﴿وسبّح بحمد رَبّك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبّحه وأدبار السجود﴾ ١٣١
● ﴿واستمع يوم ينادِ المنادِ من مكان قريب * يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج﴾ ١٣٣
● ﴿إنّا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير﴾ ١٣٥
● ﴿يوم تشَقّقُ الأرض عنهم سِراعاً ذلك حشْرٌ علينا يَسِيرٌ﴾ ١٣٦
● ﴿نَحْنُ أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبّارٍ فَذَكّر بالْقُرْآن من يخاف وَعِيدِ﴾ ١٣٨

الموضوع | الصفحة

(١٧) الملحق الأول لسورة (قٓ): ١٤٠
مستخرجات بلاغيّة من السورة ١٤٠
(١٨) الملحق الثاني للسورة: ١٤٥
الوصف بالبركة في القرآن المجيد ١٤٧
وصف القرآن بأنه مبارك ١٥١
بيان أن الله قد منح البركة بعض عباده الصالحين ١٥٥
بيان أن الله قد بارك في الأرض ١٦٠
البركة الزائدة التي جعلها الله لأمكنة خاصة ١٦١
البركة التي جعلها في ليلة القدر ١٦٥
البركة في الماء النازل من السماء ١٦٦
البركة في شجرة الزيتون ١٦٦
البركة في التحية التي يسلم المؤمن بها على نفسه ١٦٧

((٣٥))
سورة البلد
٩٠ مصحف/٣٥ نزول

(١) نصّ السورة ١٧١
(٢) موضوع السورة ١٧٢
(٣) دروس السورة ١٧٦
(٤) التدبّر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ٤) ١٧٧
- ﴿لا أُقسِم...﴾ تحليل معنى القسم المنفي في القرآن ١٧٩
- ﴿لاَ أُقْسِمُ بهذا البلَد * وأنت حلٌّ بهذا البلد﴾ ١٧٩
- ﴿ووالد وما ولد﴾ ١٨١
- ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ ١٨٢

(٥) التدبر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (٥ ـ ١٠) ١٨٩
- **تمهيد:** حول آيات هذا الدرس ١٩٠
- ﴿أيحسَبُ أنْ لن يقدر عليه أحدٌ * يقول أهلكت مالاً لُبداً﴾ ١٩٢
- ﴿أيحسب أن لم يرَهُ أحد * ألم نجعل لَهُ عينَيْن * ولِسَاناً وشفتين﴾ .. ١٩٣
- ﴿وَهَدَيناه النجدَيْن﴾ ١٩٤

الحديث عن نوع الإنسان في هذه السورة مع إرادة العموم أو إرادة الخصُوص ١٩٦

الموضوع — الصفحة

(٦) **التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (١١ ـ ٢٠)** ١٩٩
● ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ ٢٠١
● ﴿وما أدراك ما العقبة﴾ ٢٠٢
● ﴿فكّ رقبة﴾ ٢٠٣
● ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيماً ذا مقربة * أو مسكيناً ذا متربة﴾ . ٢٠٤
● ﴿ثُمَّ كان من الذين آمنوا وتواصَوْا بالصبْر وتواصَوْا بالمرحمة﴾ ٢٠٧
● ﴿أولئك أصحاب الميمنة * والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة * عليهم نارٌ مؤصده﴾ ٢٠٩
(٧) **لطيفة تربوية** ٢١١
(٨) **نظرة عامّة إلى ما اشتملت عليه السورة** ٢١٢
ملاحق لسورة البلد ٢١٧
(٩) ملحق حول بلاغيات في السورة ٢١٧
(١٠) ملحق أصحاب اليمين وأصحاب الشمال في القرآن ٢٢٠

(٣٦)
سورة الطارق
٨٦ مصحف/٣٦ نزول

(١) نصّ السورة ٢٤٩
(٢) ممّا ورد في الحديث بشأن سورة الطارق ٢٤٩
(٣) موضوع السورة ٢٥٠
(٤) دروس السورة ٢٥٢
(٥) **التدبر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ٤)** ٢٥٤
● ﴿والسماء والطارق﴾ ٢٥٤
● ﴿وما أدراك ما الطارق﴾ ٢٥٥
● ﴿النجم الثاقب﴾ ٢٥٦
● ﴿إنْ كل نفس لمّا عليها حافظ﴾ ٢٥٨
● الأسلوب القرآنيّ في تأكيد الأخبار الغيبية ٢٦٠
● الأسلوب القرآني في تجزئة العناصر الفكرية للموضوع الواحد وتوزيعها في دروس التنزيل ٢٦١
● العلاج النفسيّ بالترغيب والترهيب ٢٦٣
(٦) **التدبّر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (٥ ـ ١٠)** ٢٦٤

الموضوع الصفحة

- **تمهيد**: ٢٦٤
- ﴿فلينظر الإنسان ممّ خُلِق﴾ ٢٦٥
- ﴿خُلِقَ من ماء دافق﴾ ٢٦٥
- ﴿يخرج من بين الصُلْب والترائب﴾ ٢٦٦
- مقرّرات البحث العلمي حول كون الماء الدافق يخرج من بين الصلب والترائب ٢٦٧
- ﴿إنّه على رجْعه لقادرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السّرائرُ﴾ ٢٧٠
- ﴿يوْمَ تُبْلى السّرائر﴾ ٢٧٢
- ﴿فَما لَهُ من قوّة ولا ناصِرٍ﴾ ٢٧٣

(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (١١ ـ ١٤) ٢٧٤

تمهيد: ٢٧٤

- ﴿والسّماء ذاتِ الرجْع﴾ ٢٧٥
- ﴿والأرض ذات الصَّدْع﴾ ٢٧٧
- ﴿إنّه لقولٌ فصل * وَما هو بالْهزل﴾ ٢٧٨

(٨) التدبّر التحليليّ للدرس الرابع، الآيات من (١٥ ـ ١٧) ٢٨٠

- ﴿إنَّهم يكيدون كيداً﴾ ٢٨١
- ﴿وَأكيد كيْداً﴾ ٢٨٢
- ﴿فمهّل الكافرينَ أمْهِلْهُم رُوَيْداً﴾ ٢٨٤

ملاحق لسورة الطارق ٢٨٦

(٩) **الملحق الأول**: مستخرجات بلاغية من السورة ٢٨٦

(١٠) **الملحق الثاني**: حول بيان بعض أطوار خلق الإنسان في القرآن ٢٨٧

(١١) **الملحق الثالث**: حول كون الإنسان مراقباً في حياته ومحفوظاً من المخاطر .. ٣٠٠

(١٢) **الملحق الرابع**: كلمة «يوم» في القرآن مراداً بها يوم الحياة الأخرى ... ٣٠٤

(٣٧)
سورة القمر
٥٤ مصحف/٣٧ نزول

(١) نصّ السورة ٣١٣

(٢) مما ورد في السنة بشأن سورة القمر ٣١٦

(٣) سبب نزول السورة ٣١٧

(٤) موضوع السورة ٣١٨

الموضوع | الصفحة

(٥) دروس السورة ٣١٩
(٦) **التدبر التحليليّ للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ٥)** ٣٢٢
- ﴿اقتربت الساعة وانشقّ القمر﴾ ٣٢٢
- قضية الساعة واقترابها ٣٢٤
- نصوص قرآنية بشأن اقتراب الساعة ٣٢٦
- ما ورد في السنة بشأن اقتراب الساعة ٣٣١
- شرح قضية انشقاق القمر وما ورد بشأنه في السنة ٣٣١
- ﴿وإنْ يَرَوْا آية يُعْرِضوا ويقولوا سحرٌ مستمر﴾ ٣٣٤
- ﴿وكذّبوا واتبعوا أهواءهم وكلّ أمْرٍ مستقرّ﴾ ٣٣٦
- المكذبون الكافرون وعصاة المؤمنين لن يضرّوا الله شيئاً ٣٣٩
- ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حجّةٌ بالغة فما تغن النذر﴾ . ٣٤١
- ﴿فتولّ عنهم...﴾ ٣٤٥
(٧) **التبدبر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (بعض الآية ٦ ـ ٨)** ٣٤٨
تمهيد: ٣٤٩
- ﴿يوم يدع الداع إلى شيءٍ نُكُر﴾ ٣٥٠
- ﴿خُشّعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنّهم جراد منتشرٌ﴾ ٣٥٢
- ﴿مهطعين إلى الداعِ...﴾ ٣٥٣
- ﴿يقول الكافرون هٰذا يومٌ عَسِرٌ﴾ ٣٥٤
- نظرة عامة حول هذا الدرس من دروس السورة ٣٥٥
(٨) **التدبر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (٩ ـ ٤٢) وفيه خمس فقرات** ٣٥٦
تمهيد: ٣٥٦
أوّلاً: فقرة إهلاك قوم نوح عليه السلام، الآيات من (٩ ـ ١٧) ٣٥٧
- ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح...﴾ ٣٥٩
- ﴿فكذّبوا عبْدَنا وقالوا مجنون وازْدُجِر﴾ ٣٥٩
- هل كان نوح عليه السلام أوّل رسُل الله للناس؟ ٣٦١
- ﴿فدعَا ربّه أنّي مغلوبٌ فانتصر﴾ ٣٦٤
- ﴿ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر﴾ وحتى آخر الآية (١٨). وفي هذه الآيات تسع قضايا ٣٦٤
القضية الأولى: ﴿ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر﴾ ٣٦٥
القضية الثانية: ﴿وفجرنا الأرض عُيُوناً﴾ ٣٦٦

الموضوع	الصفحة

القضية الثالثة: ﴿فالتقى الماء على أمرٍ قَدْ قُدِر﴾ ٣٦٧
القضية الرابعة: ﴿وَحملناه على ذات ألواح وَدُسُرٍ﴾ ٣٦٨
القضية الخامسة: ﴿تجري بأعيننا...﴾ ٣٦٩
القضية السادسة: ﴿جزاءً لمن كان كُفِرَ﴾ ٣٧٠
القضية السابعة: ﴿ولقد تركناها آيةً...﴾ ٣٧٠
القضية الثامنة: ﴿فهل من مُدّكر﴾؟ ٣٧١
القضية التاسعة: ﴿فكيف كان عَذَابي وَنُذُرِ﴾ ٣٧٢
- ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾؟ ٣٧٢

ثانياً: فقرة إهلاك عادٍ قوم الرسول هود عليه السلام، (الآيات من (١٨ ـ ٢٢) ٣٧٣
تمهيد: ٣٧٤
- ﴿كذّبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذرِ﴾ ٣٧٤
- ﴿إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحْسٍ مستمرّ * تنزع الناس كأنّهم أعجاز نخل منقعر﴾ ٣٧٥
- ﴿ولقد يسّرْنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ٣٧٧

ثالثاً: فقرة إهلاك ثمود قوم النبي الرسول صالح عليه السلام الآيات من (٢٣ ـ ٣٢) . ٣٧٧
تمهيد: ٣٧٨
- موجز قصة ثمود مع رسولهم صالح عليه السلام ٣٧٩
- ﴿كذّبت ثمود بالنذر﴾ ٣٨١
- ﴿فقالوا أبشراً منّا واحداً نتّبعه إنّا إذاً لفي ضلالٍ وسُعُر * أألقي عليه الذكر من بيننا بل هو كذّابٌ أشِرٌ﴾ ٣٨٢
- ﴿أبشراً منّا واحداً نتّبعه﴾؟! ٣٨٣
- ﴿إنّا إذاً لفي ضلالٍ وسُعُرٍ﴾ ٣٨٣
- ﴿أَأُلْقِي الذكر عليه من بيننا﴾؟ ٣٨٤
- ﴿بل هو كذّابٌ أشرٌ﴾ ٣٨٧
- ﴿سيعلَمُون غداً مَنِ الكذَّاب الأشر﴾ ٣٨٨
- ﴿إنّا مُرسلوا الناقة فتنة لهم فارتَقِبْهُمْ واصْطَبِر﴾ ٣٨٨
- ﴿وَنبّئْهم أنّ الماءَ قسْمَةٌ بينهم كلُّ شربٍ محتضر﴾ ٣٩٠
- ﴿فنادَوْا صاحِبَهُمْ فتعاطى فعقر﴾ ٣٩١
- ﴿فكيف كان عذابي ونُذُرِ﴾ ٣٩٣
- ﴿إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ ٣٩٤

الموضوع | الصفحة

● ﴿وَلَقَدْ يسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ ٣٩٥

رابعاً: **فقرة إهلاك قوم النبي الرسول لوط عليه السلام، الآيات من(٣٣ ـ ٤٠)** ٣٩٦

● لمحة عن لوط عليه السلام وقومه ٣٩٦

● ﴿كذّبَتْ قوم لوطٍ بالنذر﴾ ٣٩٩

● ﴿إنَّا أرسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصباً إلاَّ آل لوطٍ نجيناهم بسحر﴾ ٣٩٩

كلمتا «أهل» و «آل» في دلالات النصوص القرآنية ٤٠٠

● ﴿نعمةً من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ ٤٠١

● ﴿وَلَقَدْ أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنُّذُرِ﴾ ٤٠٢

● ﴿وَلقد راودوه عن ضيفه فطمَسنَا أعينهم فذوقوا عذابي ونُذُرِ﴾ ٤٠٣

● ﴿ولقد صبّحهم بُكْرَةً عذابٌ مستقرٌ * فذوقوا عذابي ونُذُرِ﴾ ٤٠٤

● ﴿وَلقد يَسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾ ٤٠٥

خامسا: **موجز مختزل بشأن إهلاك فرعون وآله، الآيتان (٤١ ـ ٤٢)** ٤٠٦

تمهيد: ٤٠٦

● ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ ٤٠٧

● ﴿كذَّبوا بآياتنا كلّها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدرٍ﴾ ٤٠٨

● الآيات التي آتاها الله عزّ وجلّ لموسى عليه السلام ٤٠٩

● ﴿فأخذنَاهُمْ أخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ ٤١١

(٩) التدبر التحليلي للدرس الرابع، الآيات من (٤٣ ـ ٤٦) ٤١٢

تمهيد: ٤١٢

● ﴿أكُفّارُكم خَيْرٌ من أولَئِكُمْ أَمْ لكُمْ براءَةٌ في الزُّبر﴾ ٤١٢

● ﴿أَمْ يقولُون نحْنُ جميعٌ منتصرٌ * سيُهْزَم الجمْعُ ويُولُّونَ الدُّبُر﴾ ٤١٦

● ﴿بَلِ السّاعة موعدهم والسَّاعة أدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ ٤١٨

(١٠) التدبر التحليلي للدرس الخامس، الآيات من (٤٧ ـ ٥٥) ٤٢١

تمهيد: ٤٢٢

● ﴿إنَّ المجرمين في ضلالٍ وسُعُرٍ﴾ ٤٢٣

● ﴿يومَ يسحَبُون في النار على وجوههم ذوقوا مَسَّ سَقَر﴾ ٤٢٦

● ﴿إنَّا كُلَّ شيءٍ خلقناه بقَدَرٍ﴾ ٤٢٨

● ﴿وَمَا أَمْرُنا إلاَّ واحدةٌ كَلَمْحٍ بالْبَصَرِ﴾ ٤٢٩

● ﴿وَلقد أهْلكْنَا أشياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾؟ ٤٣٠

● ﴿وكل شيء فعلوه في الزُّبُر﴾ ٤٣٢

الموضوع — الصفحة

- ﴿وَكلُّ صغير وكبيرٍ مسْتَطَرٌ﴾ ٤٣٣
- ﴿إنَّ المتقين في جنّاتٍ ونَهرٍ * في مَقْعَدِ صِدْقٍ عنْدَ مَليكٍ مقتدرٍ﴾ ... ٤٣٥
- سوابق الحديث في نجوم التنزيل عن ثواب المتقين في الجنة ٤٤٠

ملاحق لسورة القمر ٤٤٠

(١١) **الملحق الأول**: مستخرجات بلاغية من سورة القمر ٤٤١

(١٢) **الملحق الثاني**: حول إعراض الكافرين المعاندين عن آيات الله ٤٤٥

(١٣) **الملحق الثالث**: حول الحكمة في القرآن المجيد ٤٥٣

(٣٨)
سورة صَ
٣٨ مصحف/٣٨ نزول

(١) نص السورة ٤٦٣

(٢) الأطوار التي تنقّلَتْ فيها مواقف أئمة الكفر في مكة حتى نزول سورة (صَ) ٤٦٩

(٣) موضوع سورة (ص) وسبب نزولها ٤٧٤

(٤) دروس سورة (ص) ٤٧٧

(٥) **التدبّر التحليلي للدرس الأول، الآيات من (١ ـ ١٦)** ٤٧٨

تمهيد: ٤٧٩

- ﴿صَ والقرآن ذي الذكر﴾ ٤٨١
- ما جاء عن القرآن في مراحل التنزيل حتى نزول سورة (ص) ٤٨٤
- ﴿بل الذين كفروا في عزّة وشقاق﴾ ٤٨٦
- ﴿كمْ أهلكنا من قبلهم من قرْن فنادَوا ولات حين مناصٍ﴾ ٤٨٨
- ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا سَاحِرٌ كذَّاب * أجعل الآلِهةَ إلَهاً واحداً إنّ هذا لشيءٌ عُجَابٌ﴾ ٤٩١
- ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصْبروا على آلهتكم إنَّ هذا لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في المِلّة الآخرة إنْ هذا إلاّ اختلاق * أأنزل عليه الذكِر من بيننا﴾ ٤٩٤
- ﴿بل هم في شكٍ من ذكري بل لمّا يَذُوقوا عذابِ﴾ ٤٩٨
- ﴿أمْ عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الوهّاب﴾ ٥٠٢
- ﴿أم لَهُمْ ملك السماوات والأرض وما بَيْنَهما فليَرْتقوا في الأسباب﴾ .. ٥٠٢
- ﴿جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ من الأحزاب﴾ ٥٠٦

الموضوع الصفحة

كلمة الأحزاب في القرآن أطلقت على أحزاب الكفر ٥٠٩
● ﴿كذّبت قبلهم قوم نوح وعادٌ وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لُوطٍ وأصحاب لئيْكة أولئك الأحزاب * إنْ كلٌّ إلاّ كذّب الرُسلَ فحقّ عقابِ﴾ ٥١٠
● ﴿وما ينظُر هؤلاء إلاّ صيحةً واحدةً مالَها من فواقٍ﴾ ٥١٣
● ﴿وقالُوا رَبّنا عجّل لنَا قِطَّنا قبل يوم الحساب﴾ ٥١٤
(٦) التدبّر التحليلي للدرس الثاني، الآيات من (١٧ ـ ٤٨) ويشتمل على خمس فقرات ٥١٥
أولاً: الفقرة الأولى: الآيات من (١٧ ـ ٢٩) ٥١٦
تمهيد: ٥١٦
● ﴿اصْبر على ما يقولون...﴾ ٥١٧
سوابق الأمر بالصبر في نجوم التزيل ٥١٨
● ﴿واذكر عبدَنا داود ذا الأيْدِ إنّه أوّابٌ﴾ ٥١٩
● ﴿إنَّا سخَّرْنا الجبال معه يُسَبّحْن بالعشيّ والإشراق﴾ ٥٢١
● ﴿والطَّيْرَ محشورةً كُلٌّ له أوّابٌ﴾ ٥٢٢
● ﴿وَشَدَدْنا مُلكَهُ وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾ ٥٢٤
● ﴿وَهَلْ أتاك نبأ الخصم إذْ تسوّروا المحراب * إذْ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغىٰ بعضُنا على بعض فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشْطِطْ واهدنا إلى سواء الصراط﴾ ٥٢٥
تمهيد: ٥٢٥
● ﴿وَهل أتاك نبأ الخصْم...﴾ ٥٢٨
● ﴿إذْ تسوَّرُوا المحراب...﴾ ٥٢٩
● ﴿إذْ دخَلُوا على داود...﴾ ٥٣٠
● ﴿ففزع منهم...﴾ ٥٣٠
● ﴿قالوا لا تخف...﴾ ٥٣١
● ﴿خصمان بغىٰ بعضنا على بعض...﴾ ٥٣١
● ﴿فاحكم بيننا بالحقّ ولا تُشطِطْ...﴾ ٥٣١
● ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ ٥٣٢
● ﴿إنَّ هذا أخي له تسْعٌ وتسْعُون نعجةً ولي نعجة واحدة فقال أكفِلْنيها وعَزّني في الخطاب﴾ ٥٣٣

الموضوع | الصفحة

- ﴿قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلي نِعَاجِه..﴾ ٥٣٦
- ﴿وَإِنَّ كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعضٍ إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هُم...﴾ ٥٣٧
- ﴿وظنَّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر رَبَّهُ وخرّ راكِعاً وأناب﴾ ٥٣٨
- ﴿فغفرنا له ذلك وإنّ له عندنا لزُلْفَىٰ وحُسْنَ مآبٍ﴾ ٥٤١
- ﴿يا داود إنّا جعلْنَاك خليفةً في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ ولا تتبع الهوىٰ فيُضِلّك عن سبيل الله إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذابٌ شديدٌ بما نَسُوا يوم الحسابِ﴾ ٥٤١
- ﴿وما خلقنا السّماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظنُّ الّذين كفَرُوا فويلٌ للّذين كفَرُوا منَ النار * أمْ نجْعَلُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار﴾ ٥٤٥
- عرض الدليل العقلي على ضرورة البعث للجزاء أخذاً من الآيتين (٢٧ و ٢٨) . ٥٤٦
- التدبر التحليلي للآيتين (٢٧و ٢٨) ٥٤٩
- ﴿كتابٌ أنزلْنَاهُ إليك مباركٌ ليدَّبرُوا آياته وليتذكّر أُوْلو الألباب﴾ ٥٥١

ثانياً: الفقرة الثانية، الآيات من (٣٠ ـ ٤٠) ٥٥٥

تمهيد: ٥٥٦

- ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبْد إنّه أوّابٌ﴾ ٥٥٧
- ﴿إذْ عُرِض عليه بالعشيّ الصافنات الجياد * فقال إنّي أحبَبْتُ حبَّ الخير عن ذكر ربّي حتّىٰ توارَتْ بالحجاب * ردوها عليّ فطفِقَ مسحاً بالسّوقِ والأَعْناق﴾ ... ٥٥٩
- ﴿ولقَدْ فتنّا سُلَيْمانَ وألقينا على كُرْسيّه جسداً ثُمَّ أناب * قال ربّ اغفر لي وهَبْ لي مُلكاً لا ينبغي لأحَدٍ من بَعْدِي إنّك أنت الوهاب﴾ ٥٦٤
- ﴿فسخَّرْنا لَهُ الرّيح تجري بأمْرِه رُخاءً حيث أَصَابَ * والشَّياطين كلَّ بنّاءٍ وغوّاص * وآخرين مقرنين في الأصفاد﴾ ٥٧١
- ﴿هذا عطاؤنا فامْنُنْ أو أَمْسِكْ بغَيْر حسابٍ﴾ ٥٧٤
- ﴿وإنَّ لَهُ عندنا لزُلْفَىٰ وحُسْنَ مآبٍ﴾ ٥٧٥

ثالثاً: الفقرة الثالثة، الآيات من (٤١ ـ ٤٤) ٥٧٦

- ﴿واذْكُرْ عَبْدَنا أيُوبَ إذْ نادىٰ رَبّه أني مَسّنِيَ الشيطان بنُصْبٍ وعذابٍ﴾ . ٥٧٧

تمهيد: ٥٧٧

- موجز عن حياة أيوب عليه السلام ٥٧٨
- تدبُّر نَصَّي (ص) و (الأنبياء) بشأن أيوب عليه السلام تدبُّراً تكامليًا ... ٥٨٠

الموضوع | الصفحة

ما جاء في السنة بشأن أيوب عليه السلام ٥٨٦
رابعاً: الفقرة الرابعة، الآيات من (٤٥ ـ ٤٧) ٥٨٦
● ﴿واذكُرْ عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار * إنّا أخلَصْناهم بخالصة ذكرى الدار * وإنَّهُمْ عندنا لَمِنَ المصطفين الأخيار﴾ ... ٥٨٦
خامساً: الفقرة الخامسة، الآية (٤٨) ٥٩٠
● ﴿واذكُرْ إسماعيل واليَسَع وذا الكِفْلِ وكُلٌّ من الأخيار﴾ ٥٩٠
● **الغرض الرئيس من الدرس** الثاني بفقراته الخمس ٥٩١
(٧) التدبّر التحليلي للدرس الثالث، الآيات من (٤٩ ـ ٦٤) ٥٩٣
تمهيد: ٥٩٤
● ﴿هذا ذكرٌ...﴾ ٥٩٥
● **لقطات من ثواب المتقين** ٥٩٥
● ﴿.. وإنّ للمتقينَ لَحُسْنَ مآب﴾ ٥٩٥
● ﴿جنّاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لهُم الأبواب﴾ ٥٩٧
● نظرة شاملة لما جاء في القرآن من عبارتي: «حُسْن مآب» و «جنَّات عَدْن» ... ٥٩٩
● ﴿متكئِين فيها يَدْعُونَ فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قَاصراتُ الطرف أترابٌ﴾ ٦٠١
● البيان التفصيليّ للاتكاء في سُوَرِ القرآن ٦٠١
● ﴿يَدْعُونَ فِيها بفاكهة كثيرة وشراب﴾ ٦٠٤
● ﴿وعندهم قاصرات الطرف أتراب﴾ ٦٠٥
● ﴿هذا ما توعَدُون ليوم الحساب * إنَّ هذا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ ٦٠٥
● **لقطات ومشاهد من جزاء الطاغين** ٦٠٧
● ﴿وَإنَّ للطاغين لشرّ مآب﴾ ٦٠٧
● ﴿جهنَّم يَصْلَوْنَها فَبِئسَ المهاد﴾ ٦٠٨
● ﴿هَذا فَلْيَذُوقُوه حميم وغسَّاق * وآخَرُ من شَكْلِه أزواجٌ﴾ ٦٠٩
● ﴿هذا فوجٌ مقتحمٌ معكُمْ لاَ مرْحباً بهم إنهم صالوا النار * قالوا بل أنتم لا مَرْحباً بكم أنتم قَدَّمْتُمُوهُ لنا فَبِئسَ القرار﴾ ٦١٠
● ﴿قالُوا ربَّنَا من قَدَّمَ لنا هذا فزِدْه عذاباً ضعفاً في النار﴾ ٦١٢
● ﴿وقَالوا ما لنا لا نرى رجالاً كُنَّا نَعدُّهم من الأشرار * اتَّخَذْنَاهم سخريًا أم زاغت عنهم الأبْصَارُ﴾ ٦١٣
● ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ ٦١٤

الموضوع **الصفحة**

(٨) التدبر التحليلي للدرس الرابع، الآيات من (٦٥ ـ ٨٨) ٦١٥
تمهيد: ٦١٦
● ﴿قلْ إنّما أنا منذر وما من إلَه إلاّ الله الواحد القهارُ * ربّ السّماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفارُ﴾ ٦١٩
● ﴿قل هو نبأ عظيم * أنتم عنه معرضون﴾ ٦٢١
● ﴿مَا كانَ لي من عِلْم بالملأ الأعلى إذْ يختَصِمُونَ﴾ ٦٢٢
● **قصة خلْق آدم واستكبار إبليس عن السجود له** ٦٢٤
تمهيد: ٦٢٤
● ﴿إذْ قال رَبُّك للملائكة إنّي خالقٌ بشراً من طين * فإذَا سَوَّيْتُهُ ونَفَختُ فيه من روحي فقعُوا له ساجدين * فَسَجَدَ الملائكة كلُّهُمْ أجْمَعُونَ * إلاّ إبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وكَانَ مِنَ الكافِرِين﴾ ٦٢٥
● ﴿قَالَ يَا إبليسُ ما مَنَعَك أنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بيدَيَّ أسْتكْبَرْت أم كنْتَ من الْعَالين﴾ ٦٣٠
● ﴿قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين﴾ ٦٣١
● ﴿قال فَاخْرُجْ مِنْها فإنّكَ رَجيمٌ * وإنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .. ٦٣١
● ﴿قال رَبِّ فَأنْظِرْني إلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ٦٣٢
● ﴿قال فإنّك من المنظرين * إلى يَوْم الوقت المعلوم﴾ ٦٣٣
● ﴿قال فبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعين * إلاّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخْلَصِينَ﴾ ٦٣٣
● ﴿قال فَالحقُّ والحقَّ أقول * لأمْلأنَّ جهنَّمَ مِنْكَ ومِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أجْمعِين﴾ . ٦٣٥
● ﴿قُلْ مَا أسْألُكُمْ عليه من أجْرٍ وما أنَا من المتكلّفين * إنْ هو إلاّ ذكْرٌ للْعَالَمِين * ولتعلَمُنَّ نبأه بعد حين﴾ ٦٣٦

■ **مَلاحق لسورة (ص)**

(٩) **الملحق الأول**: نموذج من التدرج الارتقائي في أسلوب البيان المختار في مراحل التنزيل ٦٤٠
(١٠) **الملحق الثاني**: مستخرجات بلاغية من السورة ٦٤٣
(١١) **الملحق الثالث**: تدبُّر بقيّة ما جاء في القرآن المجيد عن داود عليه السلام بنظرة تكامليّة ٦٤٧
(١٢) **الملحق الرابع**: قصة خلق آدم في القرآن المجيد وما رافق خلقه من أحداث .. ٦٦٨
الفهرس ٧٣١